1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

4

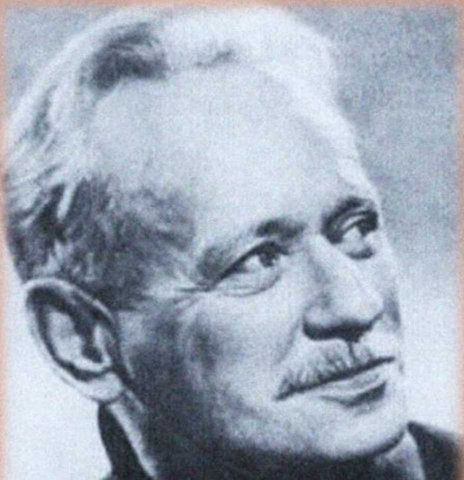

ترجمة : علي الشول ، أمجد حسين ، غانم حمدون .

مراجعة : غالب طعمة فلرمان

الدون الهادئ
(٤)

١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الرابع)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان

اصدارات المجمع الثقافي

مدى

رواية

المؤلف: ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب: الدون الهادئ (٤)
ترجمة: علي الشوك، أمجد حسين،
غانم حمدون
مراجعة: غائب طعمه فرمان
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ١٩٩٨
الطبعة الثانية: ٢٠١٣

جميع الحقوق محفوظة

Author: Mikhail Sholokhov
Title: Quiet Flows the Don (1)
Translator: Ali Al-shook, Amjad Hussein
Ghanem Hamdoun
Review: Ghaeb T. Farman
P.C.: Al-Mada
First Edition: 1998
Second Edition: 2013

Copyright ©Al-Mada.

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: info@almada-group.com
www.almada-group.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أو تخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أيّ نحو، أو بأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أو ميكانيكيّة، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-284-306192-9

الجزء السابع

١

عمل تمرّد قوزاق الدون الأعلى ، بعد أن اضطر الحمر الى سحب قوّات كبيرة من الجبهة الجنوبية ، على تمكين« جيش الدون » من اعادة تجميع قوّاته المتاخمة في نوفوتشير كاسك دون عائق ، وتحشيد قوة ضاربة تتألف من أكثر كتائبه خبرة وانتماناً (وعلى الأخص قوزاق الدون الأسفل والكالميكيين) في منطقتي كامنسكايا وأوست ـ بيلوكاليتفسكايا . وكانت مهمّة هذه القوّة الضاربة الانضمام في اللحظة المناسبة الى وحدات الجنرال فتشالوروف ، ومن ثمّ انزال ضربة قاصمة بالفرقة الثانية عشرة التابعة للجيش الأحمر الثامن ، ثمّ تطويق جناح فرقتيه ، الأورالية والثالثة عشرة ، ثمّ القيام بعملية اختراق في اتجاه الشمال للانضمام الى القوزاق المتمردين .

وكانت خطّة تحشيد القوّة الضاربة قد صممها ، قبل ذلك بوقت طويل ، الجنرال دنيسوف ورئيس هيئة أركانه الجنرال بولياكوف أيام كانا في قيادة« جيش الدون » . ولم يكد شهر أيار ينصرم حتّى كانت الخطّة قد وضعت موضع التنفيذ بصورة تكاد تكون تامة . فقد نُقل الى كامنسكايا حوالي ١٦٠٠٠ من حملة الحراب والسيوف مع ٣٦ مدفع ميدان و١٤٠ مدفعاً رشاشاً .

وكانت وحدات الخيّالة الأخيرة والأفواج الممتازة لما يدعى بـ« الجيش الفتى » ، الذي شُكّل في صيف ١٩١٨ ممن هم في سن الخدمة العسكريّة من القوزاق ، في طريقها الى مواقع التحشّد .

وفي غضون ذلك ، ظل المتمردون ، وقد حوصروا من جميع الجهات ، يصدّون عنهم هجمات قوّات الحمر الرادعة . ففي الجنوب ، وعلى الضفّة اليسرى للنهر ، ظلّت فرقتان من المتمردين صامدتين في خنادقهما دون أن تدعا العدو يعبر النهر على الرغم من أنّ بطاريات لاحصر لها تابعة للجيش الأحمركانت تصب عليهم من مواقعها على امتداد الجبهة نار مدافعها بسيل طاغٍ يكاد لا ينقطع . أمّا الفرق الثلاث الأخرى ، فقد كانت تدافع عن منطقة التمرّد في الغرب والشمال والشرق ، وهي تتكبّد خسائر فاذحة وعلى الأخص في القطاع الشمالي ـ الشرقي ، لكن دون أن تبدي أية بادرة للتقهقر ، بل ظلّت صامدة لاتلين على طول حدود اقليم الخوبر . أمّا سريّة قوزاق تتارسكي التي كانت تدافع عن ضفة النهر المقابلة لقريتها ، فقد أتت عملاً أثار شيئاً من الفزع في قوّات الحمر : فقد حدث أن قام القوزاق ، بعد أن تملّكهم الملل من حالة الكسل المفروضة عليهم ، بالعبور بهدوء الى الضفة اليمنى للدون في جنيبات ، متسترين بظلام الليل ، وفاجأوا نقطة أمامية حمراء بالهجوم عليها ، فأجهزوا على أربعة من رجالها ، واستولوا على مدفع رشاش . وفي اليوم التالي ، استقدم الحمر بطارية من جنوبي فيشنسكايا فصبّت ناراً حامية على خنادق القوزاق . وما أن شرع المنثار يتفجّر خلل الأشجار حتّى تركت السريّة خنادقها وارتدّت من جانب النهر الى قلب الغابة . وبعد ذلك بيوم ، سحبت البطّارية من موقعها ، فأعاد قوزاق تتارسكي احتلال مواقعهم . وكانت السريّة قد تكبّدت بعض الخسائر جرّاء نيران المدافع : فقد قُتل بشظايا المنثار يافعان تابعان لتعزيزات شكّلت مؤخراً ، وجرح مراسل آمر السريّة ، وكان قد قدم في اليوم السابق من فيشنسكايا .

ثمّ تبع ذلك فترة هدوء نسبي وعادت الحياة في الخنادق تأخذ مجراها الاعتيادي . وكانت زوجات القوزاق يترددن كثيراً على رجالهن فيجلبن في الليل معهن الخبز والفودكا المنزلية ، على الرغم من أنّ القوزاق لم يكونوا بحاجة الى المؤن لأنهم كانوا قد ذبحوا حملين تائهين ، كما أنهم اعتادوا على الذهاب كل يوم لصيد السمك في البرك . وكان كريستونيا يعتبر رئيس شعبة السمكيات . كان يستعمل شبكة ثقيلة طولها سبعون قدماً ، لا بد أنّ لاجئاً تركها على الشاطئ ، وكان يلجأ في صيده عادة الى القاء الشبكة في أعمق مكان في البركة ، مباهياً بأنّه لن يترك بركة في جميع المروج الواقعة على جانب النهر دون أن يخوضها .

وفي غضون اسبوع من صيد دائم للسمك ، أمسى قميص كريستونيا وبنطاله مشبعين بالرائحة النفّاذة لزفر السمك ، حتّى أن أنيكوشكا سرعان ما أعلن رفضه للمبيت معه في حفيرة واحدة :

ـ « إنّ رائحتك أشبه برائحة قرموطة* ميتة! واذا بقيت يوماً آخر معك فلن أستطيع أن أمس سمكة بعد اليوم! » .

وكان أنيكوشكا يحب النوم في العراء رغم كثرة البعوض . فكان يلجأ كل مساء ، قبل أن يتمدّد خارج الحفيرة ، الى كنس الأرض الرملية وتنظيفها من جلد السمك وأحشائه الزنخة ، وهو بادي التقزّز ثمّ يأتي كريستونيا في الصباح عائداً من صيد السمك فيجلس قريباً من مدخل الحفيرة بمهابة وهدوء ، ويباشر عمله الاعتيادي في تنظيف صيده من الشبّوط واخراج أحشائه ، فيتهافت عليه ذباب النفيخة ، بلونه الضارب الى الخضرة ، وتزحف نحوه جيوش من النمل الأصفر القارص . فيهرع أنيكوشكا راكضاً وهو يلهث ويصيح من مبعدة :

ـ ألا تستطيع أن تجد لك مكاناً آخر ؟ عساك أن تختنق يوماً بعظام

---

*القرموط : نوع من السمك . المترجمون

سمك! قم من هنا ، بحق المسيح! فهنا أنام أنا ، وأنت تنشر أحشاء السمك يمنة ويسرة ، وها قد جذبت اليك جيشاً من النمل وجعلت المكان جيفة مثل استراخان!

فيمسح كريستونيا ببنطاله سكينه الذي صنعه بيده ، ويلقي على وجه أنيكوشكا الأمرد الغاضب نظرة فاحصة تنم عن تفكير عميق ، ثمّ يقول بهدوء :

ـ إن كنت لا تستطيع احتمال رائحة السمك ، فلا بد أنّ لديك دوداً في بطنك ، يا أنيكوشكا .لمَ لاتجرّب أكل الثوم وأنت خاوي المعدة ، ها ؟

فينصرف أنيكوشا مبتعداً ، وهو يقذف البصاق والسباب .

ومضت الأيام ، لايمر منها يوم دون أن يشهد عراكاً من هذا القبيل ، غير أنّ السرية ، على وجه العموم ، عاشت أيامها هادئة خلية . فقد كانت لديها وفرة من الغذاء ، وكانت روح المرح سائدة بين القوزاق جميعاً ، الا ستيبان استاخوف .

فقد بدا أنّه سمع من قوزاق أخرين ، أو أنّ قلبه هو الذي أنبأه ، بأن اكسينيا كانت تلتقي بغريغوري في فيشنسكايا .ومهما يكن ، فقد شرع الأسى فجأة يستبد به ، وصار يشتم آمر الرعيل بلا سبب ، حتّى أنّه رفض أداء واجبه في الربيئة .

وكان يستلقي طوال النهار فوق خرقة زحافة ذات علامة سوداء ، لا يكف عن نفث الحسرات وحرق سكائر من التبغ المحلّي . ثمّ صادف أن تناهى الى سمعه أن آمر السريّة سيرسل أنيكوشكا الى فيشنسكايا في طلب الخراطيش ، فزحف الى خارج حفيرته لأول مرّة منذ يومين . فانبهرت عيناه الدامعتان المتورمتان من السهاد بنور الشمس وهو يلقي نظرة مضطربة على الورق الأشعث ذي اللمعان الباهر للأشجار المتمايلة ، وعلى الغيمات ذات الأعراف البيض تسوقها الرياح ، وأصغى الى همهمة الغابة . ثمّ مضى الى جانب الحفائر باحثاً عن أنيكوشكا .

لم يفضل أن يحدّثه أمام القوزاق الأخرين ، بل انتحى به جانباً وسأله قائلاً :

ـ فتش عن اكسينيا في فيشنسكايا حتّى تجدها وقل لها عن لساني أنّ عليها أن تأتي الى هنا لتراني . قل لها إن القذارة تتأكلني وأن قمصاني وبنطالي لم تغسل منذ أمد بعيد ، وكذلك قل لها... وغرق ستيبان في الصمت لحظة ، وهو يكتم ابتسامته المحرجة تحت شاربه ، ثمّ قال : «قل لها انني بأمس الحاجة اليها وانني آمل أن أراها عمّا قريب» .

بلغ أنيكوشكا فيشنسكايا ليلاً واستطاع أن يجد مقر اكسينيا . اذ أنّها كانت قد عادت ، بعد خصامها مع غريغوري ، لتعيش مع خالتها . فأبلغها أنيكوشكا بما أخبره به ستيبان حرفيّاً ، لكنّه أضاف لكي يعطي لكلماته وزناً أكبر ، بأنّ ستيبان قد هدّد بالقدوم الى فيشنسكايا بنفسه إن لم تذهب اليه .

استمعت اليه اكسينيا الى أن فرغ من حديثه ، ثم شرعت تعد العدّة للمضي معه . وهرعت خالتها لعمل الفطائر والكيك ، ولم تمض ساعتان حتّى كانت اكسينيا ، الزوجة الوفية ، ماضية مع أنيكوشكا في اتجاه الموضع الذي كانت سرّية تتارسكي تعسكر فيه .

حيّا زوجته بانفعال مكتوم . ومضى يتفحّص وجهها عن كثب ، فوجد أنّه غدا أكثر نحافة . فسألها عن سبب ذلك باحتراس ، دون أن يقترف خطأ سؤاله عمّا اذا كانت قد التقت بغريغوري . ولم يسألها الا مرّة خلال الحديث ، وقد أسبل عينيه وأشاح بوجهه :

ـ ولكن ، لم ذهبت الى فيشنسكايا عن ذلك الطريق ؟ لمَ لم تعبري النهر مقابل تتارسكي ؟

فأجابته باقتضاب أنّ الفرصة ماكانت لتواتيها لعبور النهر مع الغرباء ، كما أنّها لم تشأ أن تسأل آل ميليخوف ذلك .

وما أن نطقت بجوابها حتّى أدركت أن كلماتها تضمّنت معنى أنّ آل

مليخوف لم يكونوا غرباء ، بل أصدقاء . وحسبت أنّ ستيبان هو الآخر قد يفهم كلامها على ذلك النحو ، فأصابتها البلبلة . أمّا ستيبان فقد حمل كلامها ذلك المحمل فعلاً ، فمرّت رعشة خاطفة من تحت حاجبيه ، وبدا شيء كالظل يسري في وجهه .

رفع عينيه اليها مستفهماً ، فأدركت سؤاله الصامت ، واستبد بها الاضطراب والغيظ من نفسها واحمر وجهها .

ولكي يخلّصها ستيبان من حرجها ، تظاهر بأنّه لم يلاحظ أي شيء ، وأدار الحديث شطر أمور الحقل ، فسألها عن أي من حوائجهما أفلحت في اخفائها قبل الجلاء عن القرية وهل أخفتها في مكان أمين .

ولم تفتها ملاحظة سماحة زوجها وشعوره بعزّة النفس . فمضت تجيب على أسئلته ، ولكن دون أن يبارحها الشعور بالانحبّاس . ولكي تقنعه أن كل ماحدث لم يكن شيئاً ذا بال ، ولكي تخفي انفعالها هي أيضاً ، صارت تعمد الى التحدّث ببطء ودقة وحذر شديد .

لبثا يتحدثان جالسين في الحفيرة . وكان القوزاق الآخرون لا يكفّون عن مقاطعتهما . فدخل أولهم ، ثم جاء ثان . ثمّ قدم كريستونيا ، ولم يلبث أن شرع يعد فراشه ، ولمّا وجد ستيبان أنّه لن يجد فرصة للتحدث معها منفردين ، خلد الى الصمت على مضض .

فشعرت اكسينيا بالغبطة لذلك وتنفّست الصعداء ، وقامت فحلّت صرّتها وأتحفت زوجها بالكيك الذي جلبته اليه ، ثمّ أخرجت الملابس القذرة من حقيبة ميدان ستيبان ، وخرجت لتغسلها في البركة الآسنة القريبة .

وفي سكون الفجر ، كان ثمّة ضباب رمادي يمامي عالق فوق الغابة . وكان العشب قد انحنى الى الأرض ، ينوء بثقل قطرات الندى ، والضفادع في المستنقعات تنق نقيقاً ناشزاً ، ومن مكان ما قريب من الحفرة ، وراء أجمة أسفندان يانع ، كان طير صفرد يطلق صرخات زاعقة .

مضت اكسينيا الى جانب الأجمة ، فإذا بخيوط العنكبوت عالقة بها ،

من تاجها الى ساقها ، وقد توارت تحت غطاء كثيف من الحشائش . وكانت الخيوط مزدانة بقطرات ندى بالغة الرقّة تتألّق كاللؤلؤ . ثمّ خلد الصفرد الى الصمت لحظه لكنّه ، وقبل أن يجد الحشيش متسعاً من الوقت ليستقيم من جديد ، رفع عقيرته ثانية ، فأجابه زقزاق كان يعلو وراء المستنقع بصوت أسيان .

خلعت اكسينيا قميصها ومشدّها لتكون أكثر قدرة على الحركة ، وخاضت في ماء البركة الدافيء حتّى ركبتيها ، وطفقت تغسل الملابس . وكان الذباب يحوم حولها والبعوض يرسل طنينه . فلوّحت بذراعها الأسمر الملىء أمام وجهها لتطرد عنه البعوض . وكانت طوال الوقت تفكّر بغريغوري وخصامها معه قبل رحيله الى سرّيته .

ـ«لعلّه شرع في البحث عنّي! » وعقدت مع نفسها عزماً لايُرد : «سأعود الى فيشنسكايا هذه الليلة بالذات! » .

وابتسمت حين مرّ بخاطرها أنّها سترى غريغوري ، وأن الوفاق سيتخذ طريقه اليهما عمّا قريب .

في الأيام الأخيرة ، كانت كلّما فكّرت بغريغوري ، تجد نفسها عاجزة عن استحضار صورته الحقيقية . وكان هذا أمراً غريباً . اذ لم يكن يمثل أمام بصيرتها غريغوري كما هو آنئذ ، ذلك العملاق القوزاقي الممتلىء رجولة ، والذي خبر الدنيا وعرك صروفها ، وقد ذبلت عيناه اعياء ، وحال لون ذؤابتي شاربه الأسود ، وتزاحف الشيب الى صدغيه قبل الأوان ، وارتسمت على جبينه غضون عميقة ـ بكل ما تحمل قسماته من قساوة التجربة في سني الحرب ، ـ بل كان الذي أمامها غريشا ميليخوف ، غريشا الأيام الخوالي ، الفتى العنيف ذو المداعبات الفجة ، بعنقه المدوّر القوي ، وثنية اللامبالاة المرتسمة على شفتيه دائمتي الابتسام . وبسبب هذا كلّه ، كانت اكسينيا تشعر بحبّها له يغدو أكبر من أي يوم مضى ، وبعاطفة ، تقرب من الأمومة ، تهفو اليه .

وهكذا ، اذ كانت تستعيد بكل وضوح كل واحدة من قسماته العزيزة على قلبها بما لايقاس ، صارت تجر أنفاساً ثقيلة ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ، فشدّت قامتها ، وألقت بقميص زوجها الذي لم تتم غسله عند قدميها ، وأحسّت بغصة حارقة في بلعومها فيما ترقرقت الدموع الحلوة فجأة في مآقيها ، فهمست في دخيلتها : «اللعنة عليك ياغريشا ، لقد استوطنت في أحشائي الى الأبد!» .

كانت الدموع متنفَساً لها ، ولكن الدنيا من حولها في ذلك الصباح الأزرق الشاحب ، بدت ، فيما بعد ، وكأنها تمسى كالحة لا لون لها ، فمسحت خدّيها بظهر يدها ، ورفعت شعرها عن جبينها المبلل ، وظلّت زمناً طويلا تراقب بعينين مضببتين وذهن شارد نعيج ماء ، صغيراً رمادي اللون ، ينزلق على الماء ليختفي داخل الخيوط الورديّة للضباب المزبد مع الريح .

أتمّت غسل الملابس ، فعلّقتها على الشجيرات ، ثمّ عادت الى الحفيرة .

كان كريستونيا قد استيقظ ، فجلس ازاء مدخل الحفيرة يلوي أصابع قدميه المعقدة المعوجة ، لا ينثني عن محاولة جر ستيبان الى الحديث معه ، وكان هذا متمدّداً على بساطه ، يدخّن صامتاً ، دون أن يجيب على أسئلة كريستونيا مطلقاً .

ـ اذن ، فأنت تعتقد بأن الحمر لن يعبروا النهر الى هذا الجانب ؟ أراك لاتجيب ؟ حسناً ، لاتجب! أمّا أنا فأعتقد أنهم سيحاولون العبور من ناحية المخاضات . فليس أمامهم موضع آخر ليعبروه سباحة ؟ لمَ لا تنطق بشيء ، ياستيبان ؟ ظواهر الأمور تدل على أنّ المعركة الأخيرة تقترب من موقعنا هذا ، وأنت هامد في موضعك كجلمود من الخشب!

فاستوى ستيبان قليلاً ورد عليه حانقاً :

ـ فيم تزعجني ؟ ما أنتم جميعاً الا شرذمة سخيفة! هي ذي زوجتي جاءت لتزورني ، فلا أستطع أن أتخلّص منكم! وأنت لا تنفك تصب كلامك

السخيف فوق رأسي دون أن تدع المجال لرجل كي يتبادل كلمة واحدة مع امرأته .

ـ« حسبتك تأخذ وتعطي! » ثم نهض كريستونيا مستاء ، واحتذى صندله المرقّع في قدميه العاريتين ، وخرج ضارباً رأسه بقمّة الباب ضربة مؤلمة .

فقال ستيبان : « انهم لن يدعونا نتحدّث ما دمنا هنا ، فلنذهب الى الغابة » .

ومن غير أن ينتظر موافقة اكسينيا ، مضى الى باب الحفيرة . فتبعته اكسينيا باستكانة . ثمّ عادا الى الحفيرة بعد الظهر . وكان قوزاق من الرعيل الثاني متمدّدين في الفيء البارد لأجمة حور رومي ، واذ لاحظوا اكسينيا وستيبان ، القوا بأوراق اللعب جانباً وخيّم عليهم الصمت ، وجعلوا يتبادلون الغمزات ذات المغزى ، ويتضاحكون ، ويطلقون حسرات جياشة .

فمرت اكسينيا بهم ، وهي تزم شفتيها بازدراء ، وتسوّي عصابة رأسها البيضاء ، مخرمة الأطراف ، المدعوكة . فأفسحوا المجال لها لتمر دون أن يسمعوها تعليقاً . أمّا ستيبان ، الذي كان يمشي وراءها ، فما كاد يحاذي القوزاق حتى نهض انيكوشكا وترك جماعته متوجهاً اليه . فانحنى لستيبان انحناءة خفيضة متصنّعاً الاحترام وقال بصوت عال :

ـ فطرت بعد صومك... تهانينا بالعيد! .

وسرعان ما ابتسم ستيبان . فقد شعر بالسرور لأن القوزاق رأوه عائداً من الغابة مع زوجته . فإن ذلك سيساعد على إيقاف الشائعة القائلة بأنه و اكسينيا على غير وفاق . حتّى أنه هز كتفيه بحركة صبيانية ، وعرض عليهم ، ببشاشة ، ظهر قميصه المندى بالعرق الذي لم يجف بعد .

وآنذاك انطلق القوزاق ، وقد شجّعهم سلوك ستيبان ، يتضاحكون ويتبادلون التعليقات اللاذعة :

ـ اذن ، فهي حامية . أيها الأولاد! باستطاعتكم أن تعصروا قميص ستيبان... إنّه لاصق بكتفيه .

ـ لقد ركبته أي ركوب . إنّه يزبد من جميع أطرافه .

ولبث أحد الفتيان يحدّق وراء اكسينيا بعينين والهتين مضببتين حتى دخلت الحفيرة ، ثمّ تهاوى على الأرض فاقداً زمام نفسه وقال : «في جميع أرجاء العالم الفسيح ، لن تجد جمالاً كهذا . غفرانك يارب! » .

فعلّق أنيكوشكا على ذلك متعقلاً بقوله : «ماذا ، هل شرعت فعلاً بالبحث عن واحدة ؟ » .

وبينما كانت اكسينيا تتسمّع الى الكلام البذيء ، انحسر اللون عن وجهها قليلاً . فنزلت الى الحفيرة مقطبة الوجه مما كانت تشعر به من تقزّز من ذكرى التواد الأخير مع زوجها ولتعليقات رفاقه القذرة . فأدرك ستيبان في الحال ما كان يخامرها من شعور ، فقال بلهجة معتذرة :

ـ لا تغضبي من هذه الخيل الهانجة ، يا اكسينيا! إنهم لايفعلون ذلك إلا بسبب الملال .

فردّت عيه بفتور فيما كانت تنبش حقيبتها الخيش ، وتخرج على عجل كل الأشياء التي كانت قد جلبتها اليه :

ـ لست غاضبة من أحد . وأردفت بنبرة أكثر هدوءاً : «يجب أن أغضب من نفسي ، لكن لم يعد لدي قلب يتحمّل . »

وبعد ذلك لم يجدا ما يتحدثان به . ومرت عشر دقائق أو نحوها ، ثمّ نهضت اكسينيا وهي تحدّث نفسها : «سأخبره أنني عائدة الى فيشنسكايا » ، ثم تذكرت أنّها لم تعد بملابسه الجافة من الخارج .

لبثت جالسة وقتاً طويلاً عند باب الحفيرة ترتق قمصان زوجها وسراويله التي تآكلها العرق ، وهي لا تنفك تلقي نظرات الى الشمس التي شرعت بالميلان عن السمت .

ومع ذلك ، فإنها لم تبارح المكان ذلك اليوم . فقد كان ينقصها التصميم الكافي . ولكن ما أن أطل الصباح التالي ، والشمس لم تكد تبزغ ، حتّى شرعت تعد العدّة للرحيل ، فحاول ستيبان أن يبقيها ، ورجاها أن تظل معه

نهاراً آخر لاغير ، لكنّها رفضت رجاءه رفضاً باتاً جعله يتخلّى عن المحاولة معها ، ولم يزد على القول حينما افترقا :

ـ أتنوين البقاء في فيشنسكايا ؟

ـ نعم ، في الوقت الراهن على الأقل .

ـ لعلّك تستطيعين البقاء معي هنا ؟

ـ ليس من الحكمة وجودي هنا... بين القوزاق .

فوافقها ستيبان قائلاً : «لعلّك على حق» ، غير أنّ وداعه كان فاتراً .

كانت ثمة ريح جنوبية شرقية شديدة ، ما لبثت أن استنفدت قواها في أثناء الليل لأنها قادمة من بعيد . ولكنّها عادت ، وشيك الصباح ، لتحمل حرارة صحارى الخزر الى الدون ، واذ انحدرت على المروج المخضلّة بالمياه على امتداد الضفة اليسرى ، بخرت الندى وهزمت الضباب وغلّفت الرؤوس الكلسية للتلال الواقعة على جانب الدون بغبار وردي خانق .

خلعت اكسينيا صندلها ، ورفعت طرف تنورتها بيدها اليسرى ـ اذ كان لا يزال ثمة ندى في الغابة ، ـ ومضت تغذ السير في درب غير مطروق . واستشعرت قدماها العاريتان برودة على الأرض الرطبة ، فيما كانت الريح الجافة تلثم بشراهة عنقها وربلتي ساقيها المكتنزتين العاريتين .

وحين بلغت موضعاً مكشوفاً من الممر ، جلست لتستريح الى جانب أجمة مزهرة من «عليق الكلب» . وفي مكان ما قريب منها ، كان بط برّي يخشخش بين عيدان القصب في بركة أوشكت على الجفاف . وأطلق ذكر بط صيحة مبحوحة ينادي بها أنثاه . وفيما وراء الدون ، كانت مدافع رشاشة تلعلع ببطء لكنّها لا تتوقف ، وكانت قذائف مدافع تسمع بين فترات طويلة ، وأصوات انفجار القذائف على هذا الجانب من النهر تهدر كالأصداء .

ثم طالت الفترات بين رمية وأخرى ، فتكشّفت الأرض أمام اكسينيا بكل نأماتها الخفية : أوراق أشجار الدردار الخضر ذوات الحواف البيض

وأوراق البلّوط المتغضنة ذوات الأشكال الهندسية تخشخش مرتعشة في مهب الريح ، وهزيز مكتوم ينبعث من أجمة حور يافعة ، ومن البعيد البعيد ، كان وقواق يحصي لأحد ما ، بصوت واهن أسيان ، السنوات التي سيفقدها! وفيما كان زقزاق منفوش الرأس يطير عبر البركة ، جعل ينادي بلا انقطاع : «زق - زق ، زق - زق» ، وحط طير رمادي اللون صغير على مبعدة خطوتين من اكسينيا ليشرب الماء من حفرة في الدرب ، فجعل يقذف برأسه الصغير الى الوراء ويرمش عينيه في حبور . ومضت طيور النحل الكبيرة المنفوشة المغبّرة ترسل طنينها الموصول ، وجعلت نحلات بريّة دكناء اللون تتأرجح على تيجان أزهار المرج ، ثم اختفت ، حاملة حبوب اللقاح المعطّرة الى الأفياء الباردة لجذوع الأشجار الجوفاء . وكان العصير يتقطّر من أغصان الحور . ومن تحت أجمة من الدغل الشوكي فاحت الرائحة الحريفة المعتّقة للأوراق المتعفنة .

وجعلت اكسينيا تعبّ عطور الغابة المنوعة ساكنة الحركة . وكانت الغابة ، وقد امتلأت بضجيجها القوي الرائع ، تعيش في أوج عنفوانها وكمالها . وكانت تربة البقع المكشوفة من ممر الغابة ، وقد أشبعت بفيض من رطوبة الربيع ، مزدانة بحشد ثر من الأعشاب حتّى أن عيني اكسينيا ذهلتا إزاء تلك الجدائل الرائعة من الأزهار والحشائش .

فعلا الإبتسام ثغرها ، وجعلت شفتاها تتحركان بصمت ، ومدّت أصابعها بحذر لتلمس سيقان أزهار صغيرة شاحبة الزرقة لاتعرف لها اسماً ، ثمّ ثنت خصرها المكتنز لتشمّها ، وفجأة تناهى الى أنفها الشذى العابق لزنابق الوادي . فراحت تنبش بيديها حتّى عثرت على النبتة . كانت نابتة على مقربة منها تحت شجيرة ظليلة منيعة . وكانت الأوراق العريضة ، التي كانت خضراء ذات يوم ، لاتزال تمنع الشمس ، وهي غيرى ، عن الساق المائل في نموّه الخفيض ، وقد توّجته كؤوس الورد البيضاء المتهدّلة . لكن الأوراق ، وقد غشاها الندى والجفاف الأصفر . كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ،

وكأن الموت قد شرع يعض بنابه أطراف الزهرة نفسها . كان الكأسان الأسفلان متغضّنين ومسودّين ، ولم يكن سوى الكأس الأعلى ، وقد خضلته دموع الندى ، يومض في ضياء الشمس ببياض باهر فتّان .

وفيما كانت اكسينيا تنظر في تلك اللحظة الوجيزة الى الزهرة وتعبّ من أريجها الحزين ، عادت بها الذاكرة ، لسبب ما ، الى صباها والى حياتها الطويلة والفقيرة بالسعادة . اذن ، فلا بد أنها دخلت مرحلة الشيخوخة... وإلا ، فهل تعمد امرأة لمآ تزل شابة الى البكاء لكل ذكرى عابرة تمس شغاف قلبها ؟

وهكذا لفّها النعاس ودموعها لما تزل تنهمر ، مخفية وجهها المبلل بالدموع بين يديها ضاغطة وجنتها الرطبة المتورمة على عصابة رأسها المدعوكة . والريح ما انفكّت تشتد ، حتّى جعلت تيجان الحور والصفصاف تنحني صوب الغرب . وأخذ جزع شجرة الحور الكالح يترنّح ، وقد تلفّع بدوامة فوارة بيضاء من الأوراق المتدافعة . واندفعت الريح حول أجمة« عليق الكلب» المزهرة حيث كانت اكسينيا مستلقية تحت أفيائها . ثمّ هبّت الأوراق عالياً ، مثل سرب من طائر عجيب أخضر استبد به الرعب ، فانبعثت منها خشخشة قلقة ، واندفعت صعداً أوراق الزهر الوردية الشبيهة بالريش . ومضت اكسينيا في إغفاءتها تلك ، وقد تناثرت عليها أوراق زهر عليق الكلب الزاوية ، لاتتسمّع الى ضجيج الغابة الكئيب ولا الى أصوات القذائف وقد استأنف إطلاقها من الجانب الآخر للدون ، ولا أحسّت بالشمس في سمتها تلسع رأسها الحاسر . لكنها أفاقت حينما سمعت صوتاً بشرياً وزنخرة حصان فوقها ، وأسرعت تستوي قاعدة .

وكان يقف الى جانبها قوزاقي شاب ذو شارب أبيض وأسنان بيض ، يمسك بزمام حصانه المسرج ذي الخطم الأبيض . كان يبتسم ابتسامة عريضة وهو يهز كتفيه ويوقع على الأرض بقدمه ويترنّم بكلمات أغنية مرحة بصوت جهوري لطيف وإن كان مبحوحاً بعض الشيء :

كبوت في الأرض كبواً خطير
أدرت عيني في امتداد الهجير
هل من يقيل عثرتي ، هل من مجير ؟
لا أحد ، أوّاه ، ما أتعسني
ثم التفت ، والأسى يخنقني
اذا وراني قوزاقي قدير!

فابتسمت اكسينيا وقالت : «لكنني سأنهض بنفسي» ، ونهضت بخفّة وهي تسوّي تنورتها المدعوكة . فحيّاها القوزاقي المرح قائلاً :

ـ مرحباً ، ياعزيزتي! هل خانتك ساقاك ، أم تكاسلت عن المشي ؟

فردّت عليه اكسينيا وقد اعتراها شيء من الخجل :

ـ أخذتني غفوة .

ـ اذاهبة الى فيشنسكايا ؟

ـ أجل!

ـ أتحبّين أن أنقلك الى هناك ؟

ـ وعلى أي شيء تنقلني ؟

ـ تمتطين الحصان ، وأنا أمضي على قدمي ، وستكافئينني بـ.... . ـ وغمز القوزاقي غمزة مرحة ذات مغزى .

ـ كلاّ . اذهب على حصانك في عناية الله . وسأمضي أنا على قدمي .

بيد أن القوزاقي كشف عن شيء من الخبرة في مطارحة الغرام ، وعن شيء من العناد كذلك . فاستغل فرصة انشغال اكسينيا بعصابة رأسها ، فاحتضنها بذراع قصيرة ، ولكنها قوية ، وجذبها اليه ، وحاول أن يقبّلها .

فصرخت به اكسينيا : «لا تكن أحمق!» ولكزته بمرفقها في جسر أنفه .

فردّ عليها هامساً وهو يضيّق عينيه الضاحكتين ، ويدغدغ رقبتها بشاربيه :

ـ ياحبيبتي ، لا تقاومي! انظري أي روعة تحيط بنا . فكل كائن يجد أليفاً... فلنجد أيضاً موضعاً نمارس فيه خطيئتنا...

فرفعت اكسينيا يديها ، دونما غضب كبير ، وجعلت تدفع براحتيها وجه القوزاقي الأسمر العرقان في محاولة لتخليص نفسها من قبضته . إلا أنهّ ظل ممسكاً بها بقوة . فراحت تتوسّل اليه :

ـ يا أحمق! إن بي داء يعيبني... . دعني! ـ وهي لا تنفك تلهث ، وقد ظنّت أن حيلة ساذجة كهذه سوف تنقذها من لجاجته .

لكن القوزاقي تمتم خلال أسنانه :

ـ آه... . ولكن ، أي دائينا أقدم عمراً ؟ ـ وعلى حين غرّة رفعها عن قدميها بحركة خفيفة .

وآنذاك أدركت اكسينيا على نحو ما أن وقت المزاح قد انقضى ، وأن الأمر صار يتخذ وجهة خطرة ، فسدّدت بقبضتها الى أنف القوزاقي الملفوح لطمة جمعت فيها كل قواها ، واستطاعت أن تنتزع نفسها من ذراعيه المتشبّثين .

ـ أنا زوجة غريغوري ميليخوف! إياك أن تقترب منّي ياابن العاهرة... . فلسوف أخبره ، وسيعرف كيف يتصرّف معك... واذ شعرت أن كلماتها قد لاتؤدّي مفعولها فيه ، التقطت عصا قوية يابسة . غير أن القوزاقي ما لبث أن هدأت سورته . فجعل يمسح عذاريه بكم قميصه الخاكي من الدم الذي كان ينهمر غزيراً من منخريه معاً ، وهتف بنبرة متألمة :

ـ أيتها الحمقاء! يالك من امرأة حمقاء! لِمَ لم تقولي ذلك من قبل ؟ أف ، يا لغزارة الدم! كأننا لم نرق منه الكفاية في محاربة العدو ، حتّى صارت نساؤنا القوزاقيّات أنفسهن يسفحنه... .

ثم استحال وجه بغتة قاتماً لا الفة فيه . وبينما كان يغتسل بماء جعل يغرفه من بركة على قارعة الطريق أسرعت اكسينيا بالإبتعاد ، واجتازت الموضع المكشوف على عجل .

وما أن مضت خمس دقائق حتّى لحق بها القوزاقي . فحاول النظر اليها ، وهو يبتسم بصمت ، وسوّى سير بندقيته عبر صدره بحركة دقيقة ، ثمّ انطلق في خببٍ سريع .

٢

في تلك الليلة على مقربة من مزرعة صغيرة ، عبرت الدون وحدة من الجيش الأحمر على أطواف صنعت من ألواح وقرم خشبية .

فأخذت السرّية القوزاقية المكلّفة بالدفاع عن تلك المزرعة على حين غفلة ، حيث كان أغلب رجالها غارقين في نوبة من السكر والمجون . اذ حدث أن بدأت زوجات القوزاق يفدن منذ المساء الباكر الى المقرّات لزيارتهم ، فجلبن معهن الزاد والفودكا المقطّرة في المنازل وقد عبأنها في الدلاء والسطول . وما أن انتصف الليل حتّى كانت الفودكا قد لعبت برؤوس الجميع . وكانت الأغاني تسمع منطلقة من داخل الحفائر ، وصيحات النسوة السكرانات وضحكات الرجال وصفيرهم... . وانضمّ الى حفلة السكر كذلك القوزاق العشرون المكلّفون بحراسة الربيئة ، عاهدين بالمدفع الرشاش الى مدفعيين اثنين وبرفقتهم سطل من الفودكا .

وانطلقت الأطواف المحمّلة برجال الجيش الأحمرمن الضفة اليمنى للدون في هدوء تام . ثمّ نزل الرجال في الجانب الآخر وانتشروا صفاً واحداً ، وتحرّكوا بهدوء باتجاه الحفائر الواقعة على مبعدة مائتي خطوة من النهر تقريباً .

أمّا المهندسون العسكريّون الذين صنعوا الأطواف ، فقد عادوا بها يجذفون ليعبروا عليها وجبة أخرى من رجال الجيش الأحمر لم يكن ثمّة شيء يسمع على الجانب الأيسر طوال خمس دقائق ، سوى غناء القوزاق المتنافر . ثمّ شرعت القنابل اليدوية تتفجّر بدوي ، وتأتأ مدفع رشّاش ،

وانطلقت في الحال إطلاقات بنادق متنافرة الوقع ، وخرق الليل البهيم نداء : « هورا! هورا! هورا! »* .

واكتسحت السرّية القوزاقية ، ولم تفلح في النجاة من الإبادة التامة إلا لأن مطاردتها خلل الظلام الأصم كان أمراً مستحيلاً . ولهذا لم تتكبّد السرّية خسائر فادحة ، فاندفعت تهرع ، قوزاقاً وزوجاتهم ، عبر المروج ميممَين صوب فيشنسكايا ، وقد اكتنفهم الذعر وفرقتهم الفوضى شذر مذر . بيد أن الأطواف كانت قد جلبت من الجانب الأيمن ، وفي الوقت نفسه ، جيء بوجبات جديدة من رجال الجيش الأحمر ، وكانت نصف سرّية من الفوج الأوّل التابع للكتيبة ١١١ ، مجهّز بالمدافع الرشاشة الخفيفة ، قد شرع فعلاً بالهجوم على جناح سرّية بازكي المتمرّدة .

واندفعت تعزيزات أخرى تتدفق خلال الثغرة هذه . إلا أن تقدّمها كان بطيئاً فلم يكن بين رجال الجيش الأحمر من له دراية بالمنطقة ، ولم يكن للوحدات أي أدلاء ، فكانوا خلال زحفهم العشوائي في الظلام لا ينفكّون يتخبّطون في البرك ومسارب ميّاه الفيضان العميقة التي يستحيل عبورها خوضاً .

فقرّر آمر الفوج الذي كان يدير دفة الهجوم التخلّي عن فكرة ملاحقة الهاربين وتأجيلها حتّى طلوع النهار ، على أن يعمل في الوقت نفسه على استقدام قوّات احتياطية وتحشيدها في الطريق المؤدّية الى فيشنسكايا ، ومن ثمّ أصدر الأوامربإحراز تقدّم آخر بعد أن تمهّد المدفعية لذلك .

أمّا في فيشنسكايا ، فما لبث المتمردون أن شرعوا باتخاذ إجراءات عاجلة لسد الثغرة التي أحدثها الحمر . اذ لم يكد أحد السعاة يصل هرباً على صهوة جواده وينقل اليهم نبأ عبور الحمر ، حتّى أرسل الضابط المسؤول في مقر الأركان في طلب كودينوف وميليخوف . واستدعيت سرايا كتيبة

---

* صيحة تطلق عند القتال . المترجمون

كاركينسكايا من مواقعها في قرى تشورني وكورخوفكا ودوبروفكا وتولّى غريغوري ميليخوف مهمّة الإدارة العامة لدفة العمليات . فقذف بثلاثمائة من حملة السيوف باتجاه قرية يرنسكي بقصد تعزيز الجناح الأيسر ومساعدة قوزاق تتارسكي وليبياجي على الصمود أمام ضغط العدو إذا ما حاول الاستيلاء على فيشنسكايا ، من ناحية الشرق . وأرسل غرباً ، حدر الدون ، متطوعي فيشنسكايا «الأغراب» وإحدى سرايا «تشير» الراجلة لإغاثة سريّة بازكي ، كما وضع ثمانية رشاشات في القطاع المهدّد بالخطر ، واتخذ هو نفسه ، تصحبه سريتان راكبتان ، موقعاً في طرف الغابة منذ حوالي الساعة الثانية صباحاً ، في انتظار بزوغ الفجر ، ليشن ، بفرسانه ، هجوماً على الحمر .

لم تكن نجمة الدب الأكبر قد اختفت بعد عن الأنظار حينما التقت وحدة متطوعي فيشنسكايا ، التي شقّت طريقها خلال الغابة الى عطفة النهر عند بازكي ، برجال بازكي المتقهقرين ، فحسب المتطوعون أنهم التقوا بالعدو ، ففتحوا عليهم النار بضع ثوان ثم لاذوا بالفرار . وحين بلغوا البحيرة الواسعة التي تفصل فيشنسكايا عن أرض المروج ، قذفوا ، لفرط عجلتهم ، بجزمهم وملابسهم عند حافتها وعبروها سباحة . وسرعان ماأكتشف الخطأ ، غير أن نبأ اقتراب الحمر من فيشنسكايا كان قد انتشر بسرعة مذهلة . وانطلق اللاجئون ، الذين كانوا يخفون أنفسهم في السراديب ، هاربين من القرية باتجاه الشمال ، حاملين معهم في كل مكان شائعة أن الحمر قد عبروا الدون واخترقوا الجبهة ، وأنهم يزحفون على فيشنسكايا .

كان ضوء النهار لما يزل غير شديد حينما انطلق غريغوري بحصانه الى أعالي الدون بعد أن بلغته أنباء هروب المتطوعين ، وكان هؤلاء قد أدركوا آنئذ الخطأ الذي ارتكبوه ، فشرعوا يعودون أدراجهم الى الخنادق وهم لا ينفكّون يثرثرون . فتقدّم غريغوري من جماعة منهم وسألهم بلهجة لاذعة :

ـ هل غرق الكثير منكم حينما عبرتم البحيرة سباحة ؟

فردّ عليه حامل بندقية بلهجة قانطة ، وكان مبللاً عن آخره وهو يعصر قميصه أثناء سيره :

ـ كنّا نسبح مثل سمك الكراكي . فلماذا نغرق ؟ وقال آخر بلهجة حادة ، وكان لايستره غير سرواله :

ـ لا يوجد إنسان معصوم عن الخطأ . آمر رعيلنا أوشك بالفعل أن يغرق . أحجم عن خلع جزمته ، لأنّه ظنّ أن لفاف الساق سيستغرق منه وقتاً طويلاً ، وهكذا انطلق يسبح ، ومالبث لفاف ساقه أن انحلّ داخل الماء ، والتف حول ساقيه... ليتك سمعت زعيقه! كان بالإمكان سماعه من بعد فرست!

ثمّ مضى غريغوري عنهم ، وحين عثر على آمر المتطوعين أصدر اليه أمراً بأن يقود رجاله الى طرف الغابةويعيد تنظيمهم حتّى إذا دعت الضرورة هجموا على صفوف الحمر من جناحهم ، ثمّ انطلق عائداً الى سريتيه .

وفي الطريق التقى به مراسل الأركان . فشدّ هذا على عنان جواده ، الذي دلّت خاصرتاه المضطربتان أن راكبه قد أرهقه بالركوب ، وتنفّس الصعداء قائلاً :

ـ لقد تعبت في البحث عنك!

ـ لماذا ؟ ماالذي حدث ؟

ـ لقد كلّفت من لدن الأركان بإخبارك بأن سرّية تتارسكي قد تخلّت عن خنادقها . إنهم يخشون أن يحاصروا ، وهم الآن يتراجعون باتجاه البقاع الرملية . وكودينوف نفسه طلب منّي أن أخبرك أن تتوجه الى هناك في الحال .

فجمع غريغوري نصف رعيل من القوزاق مع أفضل الخيل ، وانطلق يشق طريقه خلال الغابة ومنها الى الطريق العام . وما أن مضت زهاء عشرين دقيقة حتّى اقترب من بحيرة« كولي ايلمن » . عن شماله كان رجال تتارسكي يتراكضون بلا انتظام عبر المرج . وكان أولئك الذين خبروا القتال في الجبهة

يشقّون طريقهم ، مع بعض القوزاق الشيوخ ، بلا عجل دون أن يبتعدوا عن البحيرة بغية الاحتماء بأشجار السمار القائمة على الشاطىء . أمّا الغالبية العظمى منهم فقد كانوا يهرعون الى أمام بلا إبطاء ، وليس في أذهانهم إلا فكرة واحدة ، هي بلوغ الغابة بأسرع ما يمكن ، دون أن يأبهوا للإطلاقات المتقطّعة التي كانت توجّهها اليهم المدافع الرشاشة .

فصرخ غريغوري وقد احولّت عيناه من الغضب : «تعقّبوهم! اعملوا السوط فيهم! » .

وكان هو أول من انطلق بحصانه متعقّباً أبناء قريته .

كان كريستونيا يمضي متمهلاً في مؤخرة جماعته ، وهو يتقافز في حركات راقصة شنيعة . فقد حدث أن قطع عقبه بقصبة حينما كان يصطاد السمك في المساء السابق ، فلم يعد قادراً على الركض بالسرعة الاعتيادية لساقيه الطويلتين . فأدركه غريغوري رافعاً سوطه عالياً فوق رأسه . واذ سمع كريستونيا وقع سنابك الحصان ، التفت الى الوراء ثمّ ضاعف سرعته بشكل ملحوظ .

فجعل غريغوري يصرخ فيه بلا طائل : ـ الى أين تعدو ؟ قف قلت لك قف! .

بيد أن كريستونيا لم يكن ليفكّر بالتوقّف ، فزاد من سرعته وجعل يعدو على نحو غريب أشبه بجمل يقزل .

وآنذاك هدر غريغوري بسيل أبح من السباب المقذع ، ولفح حصانه ، وحين حاذى كريستونيا هوى بسوطه على ظهره العرقان وهو يستشعر راحة كبيرة . فخطا كريستونيا خطوة هائلة الى جانب ، مثل أرنب ينط ، ثمّ اقتعد الأرض ومد يده ببطء وحذر ليتحسس ظهره .

أما القوزاق الآخرون الذين جاءوا بصحبه غريغوري فقد انطلقوا بجيادهم الى أن سبقوا الرجال الهاربين ، فأوقفوهم من غير أن يلجأوا في ذلك الى سياطهم .

فزعق فيهم غريغوري بصوت أجش وهو يلوّح بسوطه المرصّع : «اجلدوهم!... اجلدوهم!... » . وجعل حصانه يترنّح تحته ، ثمّ تراجع وحرن . فبذل غريغوري جهداً شاقاً للسيطرة عليه ، ثم انطلق به نحو مقدمة الهاربين . وبينما كان يمرق الى جانبهم وقعت عينه خطفاً على ستيبان استاخوف واقفاً الى جانب شجيرة وهو يبتسم في هدوء . ورأى أنيكوشكا ينطوي على نفسه من شدّة الضحك ويكوّر كتفيه على شكل بوق ليصيح بصوت انثوي نفّاذ : «ايها الأخوان! كلٌّ عليه بنفسه! الحمر! آه ! أمسكوا بهم! » .

وجرى غريغوري نحو قروي آخر يرتدي دراعة لبادية ، وكان يعدو بسرعة وثبّات . وبدا لغريغوري شكل الرجل بكتفيه المكوّرين مألوفاً الى حد الغرابة ، غير أنّ غريغوري لم يتسنّ له أن يعمل ذهنه ليعرفه ، فشرع يزعق به وهو لما يزل على مبعدة منه :

ـ قف ، ياابن القحبة! قف والا شطرتك بسيفي! وفجأة تباطأ الرجل ذو الدراعة اللبادية ، ثمّ توقّف . ثمّ أدار رأسه ، بحركة خاصة كان غريغوري يعرفها منذ طفولته ، حركة تنم عن منتهى الحمق ، فأدرك غريغوري ، حتّى قبل أن يقع بصره على وجه الرجل ، أنّه كان أباه .

وكانت وجنتا بانتلاي تلمعان بعصبية . فصرخ بنبرة زاعقة :

ـ اذن ، فأبوك ابن قحبة ، ها ؟ وأنت تهدد بشطر أبيك بسيفك ، ها ؟

وقدحت عيناه بجنون متفجر ألفه غريغوري ، حتى ان غضبه هو سرعان ما انطفأ أواره ، وهو يكبح جماح حصانه بقوة :

ـ لم أميز ظهرك ، فلماذا تزعق يا أبي ؟

ـ ماذا تعني بأنك«لم تميز ظهري» ؟ ألم تميّز أباك ؟

وكان هذا الغضب الكهولي من السخافة والنشاز مما جعل غريغوري يضحك ويقول بلهجة مصالحة وهو يحاذي أباه :

ـ لا تغضب ، يا أبي! أنت ترتدي سترة لم أرها من قبل ، ثمّ أنك كنت

تعدو مثل خيل السباق دون أن تعرج بساقك . فكيف لي ، والحالة هذه ، أن أميّزك ؟

ومن جديد ، وكما كانت الحال في البيت دائماً في الأيام الخوالي ، هدأت سورة بانتلاي ، وقال موافقاً ابنه ، وهو لما يزل يلهث بشدة وإن عاد اليه زمام عواطفه بعض الشيء :

ـ أنت على حق ، فالسترة جديدة . قايضتها بالفروة... فالفروة أثقل من أن أحملها حيثما أشاء... أمّا بخصوص عرجي... فليس هذا الوقت بوقت عرج! لامجال للعرج هنا ، يابني... .عجباً ، الموت إزاءنا وجهاً لوجه وأنت تهذر عن ساق عرجاء...

ـ الموت مايزال على مسافة بعيدة منّا . ارجع ، يا أبي! لعلّك لم تتخلَّ عن خراطيشك ؟

فاحتج العجوز محنقاً :

ـ ولكن الى أين يمكن أن نرجع ؟

وهنا رفع غريغوري صوته . فأمره وهو يؤكّد بنبرته على كل كلمة :

ـ انّي آمرك بالرجوع . أتعرف بما تنص الأنظمة من عقوبات إذا ما رفضت إطاعة آمرك في ميدان القتال ؟

وسرعان ما تركت الكلمات مفعولها في نفس بانتلاي ، فقوّم بندقيّته على كتفه ، وتراجع الى وراء على مضض . وحين حاذى شيخاً آخر كان يسير ببطء ، قال له متنهداً :

ـ هذه هي الشاكلة التي عليها ابناؤنا هذه الأيام! فبدلاً من أن يظهر احترامه لأبيه ، أو كما قد يقال ، أن يعفيه من القتال ، فإنّه يحاول القاءه في قلب المعمعة! أيــ... يــه! كان ولدي بيوتر ـ رحمة الله عليه أفضل منه بكثير . كان ولداً هادئ الطبع ، أمّا هذا المخبول ، أعني غريشا ، فعلى الرغم من كونه قائد فرقة ، وهو أهل لذلك... . الى آخره... إلا أنّه ذو طبع مختلف . إنّه سريع الانفعال كالقنفذ! ولمَ العجب ، فلسوف يدفعني في شيخوختي الى

الموقد نخساً بمخرز إسكافي!

شرح غريغوري الموقف لقوزاق تتارسكي ، فأعاد إليهم صوابهم دونَما مشقّة كبيرة . فقد جمع السرّية بكاملها على عجل ومضى بها الى مكان آمن ، ومن غير أن يترجّل عن حصانه عرض عليهم جلية الحال باقتضاب :

ـ الحمر عبروا النهر وهم يحاولون الآن الوصول الى فيشنسكايا . وقد بدأت رحى القتال تدور على امتداد الدون ، وليس في الأمر مجال للمزاح ، ولهذا فلا جدوى من الهروب . واذا هربتم مرّة أخرى فسوف أصدر أوامري الى الخيّالة في يرنسكي ليقتلوكم كخونة! ثمّ جال بعينيه في حشد أبناء قريته وفي ملابسهم الملوّنة ، ثمّ ختم كلامه بإزدراء جلي :

ـ سريتكم تضم عدداًكبيراً من مختلف الحثالات يعملون على بث الفزع في قلوبكم . هربوا وتغوّطوا في سراويلهم!... ويحسبون أنفسهم قوزاقاً! أمّا أنتم ، أيها الشيوخ ، فالويل لكم لو تجرأتم على الهرب . لقد قلتم إنكم ستقاتلون ، اذن فلا مجال لكم الآن لإخفاء رؤوسكم بين سيقانكم . والآن... انتظموا رعائل مزدوجة ، هيّا الى تلك الأدغال ، ومنها الى الدون! ثمّ سيراً بمحاذاة الدون الى سرّية سميونوفسكي . وحينما توحدون قوتكم بهم ، انزلوا ضربتكم بالحمر من جناحهم . عادة ، سير! ارفعوا صدورركم! .

استمع قرويو تتارسكي الى غريغوري بصمت ، وبالصمت ذاته شقّوا طريقهم نحو الأدغال . وجعل الشيوخ يدمدمون قانطين ، وهم يلتفتون الى وراء ليلقوا نظرة على غريغوري وجماعته من القوزاق فيما كانوا يبتعدون عنهم مسرعين . وعلّق اوبنيزوف العجوز بنبرة إعجاب ، وكان يمشي الى جانب بانتلاي بروكوفتش :

ـ صحيح ، لكن الباريء عز وجل رأى أنك أهل بابن بطل . صقر حقيقي! أي جلدة ألهب بها ظهر كريستونيا بسوطه! جعلت الجميع يلوذون بالفرار في الحال! .

وعملت كلمات اوبنيزوف على إشاعة الزهو في أحاسيس بانتلاي بروكوفتش الأبويه ، فهزّ رأسه موافقاً وقال :

ـ لاحاجة بك لإخباري بهذا! فلو شئت أن تجد إبناً مثله لو بحثت في الدنيا كلها! امتلاء صدره بالأوسمة ليس بالهزل ، مارأيك ؟ أمّا بيوتر ، رحمة الله على روحه فلم يكن على هذه الشاكلة ، مع أنّه ابني ، من لحمي ودمي ، أضف الى أنّ ابني البكر .كان هادئاً أكثر من اللزوم ، ينقصه شيء ما ، لعنة الله على روحه! كانت نفسيته أشبه بنفسيه النساء . أمّا هذا الثاني ، فهو مثلي تماماً! بل هو أصلب منّي عوداً!

* * *

أفلح غريغوري في التسلل مع نصف رعيله حتّى بلغوا مخاضة« الكاليميك » . ظنّوا أنّهم أصبحوا في موضع آمن حينما وصلوا الى الغابة ، إلا أن أحد نقاط المراقبة القائمة على الجانب الآخر للنهر سرعان ما اكتشفتهم ، ففتحت النار عليهم جماعة من المدفعيين . فانطلقت القذيفة الأولى عبر ذؤابات الصفصاف ثمَ وقعت في موضع أجوف من أرض المستنقع دون أن تنفجر . بيد أن القذيفة الثانية سقطت في مكان ليس ببعيد عن الطريق بين العروق الجرد لشجرة حور سوداء ، فانقدح نارها وانفجرت ، فصم هديرها آذان القوزاق وأصابت وجوههم كتل من التراب الرطب وشظايا من خشب الأشجار المتعفّن .

وبحركة غريزية انحنى غريغوري الى أمام ، وقد صمّ سمعه . واذ أحس بشيء ثقيل رطب يهوي على كفل الحصان رفع ذراعه ليقي عينيه .

ارتجّت الأرض لوقع الإنفجار ، فوقعت خيل القوزاق ، ثمَ قامت وانطلقت الى أمام مرة واحدة وكأنها تصدع بإيعاز صدر اليها . لكن حصان غريغوري شبّ بعنف من تحته ، ثمَ وقع على ظهره وطفق يتدحرج على مهل . فوثب غريغوري من على السرج بسرعة وأمسك بالحصان من شكيمته . وفي هذه

الأثناء انطلقت فوقه قذيفتان أخريان ، ثمّ خيّم سكون على حدود الغابة أعاد للنفوس بعض سكينتها . كان دخان البارود قد استقر على العشب ، وانبثقت رائحة من التراب المقلوب توا ، ومن شظايا خشب الأشجارشبه المتعفّنة ، في حين كانت العقاعق تثرثر في دغل بعيد وقد شاب ثرثرتها القلق .

أطلق حصان غريغوري زنخرة ، وجعلت قائمتاه الخلفيتان تخوران وهناً ، وكشّر ، في حركة تنم عن ألم ، عن خط أسنانه الأصفر واشرئب برقبته . وبقبق على خطمه الرمادي المخملي زبد شاب بياضه لون وردي . واهتز جسم الحيوان برعدة قويّة ، وسرت الرعشات خلل إهابه الأحمر في دفقات هائلة .

وتساءل بصوت عالي قوزاقي جاء هذباً نحو غريغوري :

ـ انتهى المسكين ؟

فحدّق غريغوري في عيني الحصان الخابيتين دون أن يجيب ، حتّى أنّه لم يلقِ نظرة الى الجرح ، واكتفى بالابتعاد قليلاً حينما شرع الحصان في محاولة متخبّطة للنهوض والانطلاق ، فرفع نفسه الى أعلى ثم ما لبث أن انهار فجأه على ركبتيه ، وقد تدلّى رأسه ، وكأنّه يستميح سيده المغفرة لذنبٍ ما . وبحشرجة جوفاء انقلب الحيوان على جنبه ، ثمّ حاول كرّة أخرى أن يرفع رأسه ، بيد أنّه كان من الواضح أنّه قد استنفذ آخر مافيه من حول ، وشيئاً فشيئاً تلاشت الرعدة من جسمه ، وتحجرت عيناه ، وتفصّد العرق على رقبته . ولم يعد فيه من أمارات الحياة إلا نبض ضعيف أخير عند فواصلة القريبة من حوافره ، كما أنّ دفة السرج المتآكلة كانت ترتعش قليلاً .

القى غريغوري نظرة من طرف عينه الى حقو الحيوان الأيسر ، فألفى جرحاً عميقاً مفتوحاً يتدفّق منه دم أسود حار مثلما يتدفّق الماء من العين ، فقال للقوزاقي ملعثماً ومن غير أن يمسح الدموع من عينيه ، بينما كان هذا يترجّل عن حصانه :

ـ أجهز عليه برصاصة واحدة! وقدّم للقوزاقي بندقيّته الماوزر .

ثمّ امتطى غريغوري حصان القوزاقي ، وأسرع الى حيث كان قدترك سريتيه ، فوجد القتال قد احتدم فعلاً .

كانت قطعات الجيش الأحمر قد استأنفت الهجوم منذ الفجر . فقامت صفوفهم ، متلفّعة بجداول الضباب ، وتقدّمت بهدوء نحو فيشنسكايا . لكن اخدوداً مليناً بمياه الفيضان أعاق جناحهم الأيمن فترة قصيرة ، فقرّروا خوضه حتّى بلغ الماء صدورهم ، رافعين حقائب عتادهم وبنادقهم فوق رؤوسهم . ومالبثت أربع بطّاريات أن شرعت ترسل رعيدها المهيب من التلال المحاذية للدون . وبينما كان منثار القذائف ، يجتاح الغابة ، شرع المتمردون بإطلاق النار . وكان رجال الجيش الأحمر في هذه الأثناء قد تحوّلوا من المسير البطيء الى الركض وهم يمسكون بنادقهم أمام صدورهم .

وانفجرت قذيفة منشاربصوت جاف في الغابة على مبعدة نصف فرست منهم تقريباً . فأصاب المنثار الأشجار ، فانهارت هذه محطّمة على الأرض ، وارتفع الدخان سحائب بيضاً . وانطلق صوت رشاشتين قوزاقيتين في دفقات قصيرة . فبدأ رجال من الصف الأول للقطعات الحمر يتساقطون . وازداد اقتناص الرصاص للرجال ذوي المعاطف المكوّمة على أجسادهم ، ليطرحهم أرضاً على صدورهم أو على ظهورهم بيد أنّ الآخرين لم يبدوا أيه محاولة للإنبطاح ، وانحسرت المسافة التي تفصلهم عن الغابة أكثر فأكثر .

وكان في مقدّمة الصف الثاني آمر مديد القامة حاسر الرأس يعرج متقدّماً دونما تهيّب ، وقد احنى جسمه قليلاً وعلّق أذيال معطفه الى أعلى . وتباطأ الصف لحظة عن تقدّمه ، إلا أن الآمر استدار اليهم ، دون أن يتوقّف عن ركضه ، وهتف نحوهم بشيء ، فاندفع الرجال يركضون من جديد ، وتعالت منهم صيحة« هورا » مبحوحة ، فظيعة ، مغضبة .

وحينذاك أخذت رشاشات القوزاق تنطلق كلّها ، بينما راحت طلقات البنادق تتعالى من أطراف الغابة دونما انقطاع . ومن مكانٍ ما وراء غريغوري ، الذي كان واقفاً مع سريّتيه على الطريق المؤدية الى خارج

الغابة ، شرع المدفع الرشّاش الثقيل لسرّية بازكي يصب ناره في صليّات طويلة . فاختل نظام صفوف الحمر ، ثمّ انبطحوا على الأرض وشرعوا يردّون على النار بالمثل واستمر القتال زهاء ساعة ونصف الساعة ، بيد أن نار المتمردين كانت من القوة بحيث لم يستطع الصف الثاني مواجهتها ، فقاموا وفرّوا عائدين ليختلطوا بالصف الثالث الذي كان يتقدّم في سلسلة من الغارات القصيرة . وما لبثت المروج أن تناثر عليها رجال الجيش الأحمر وهم يلوذون بالفرار دونما انتظام . وآنذاك قاد غريغوري سريتيه الى خارج الغابة خبباً ، ثمّ شكلّهما وفق خطة الهجوم ، وانطلق بهما يطارد العدو الهارب . وفي تلك الأثناء كانت سرّية« تشير » قد تقدّمت هذباً وقطعت طريق العودة على القوّات المتراجعة نحو أطوافها ، فاندلعت رحى معركة ، وجهاً لوجه ، خارج الغابة وعلى ضفة النهر تماماً .

ولم يفلح إلا عدد ضئيل من رجال الجيش الأحمرفي بلوغ الأطواف ، فتجمهروا عليها حتّى لم يعد فيها مجال لقدم وانطلقوا بها ، أمّا الآخرون الذين حوصروا عند حافة النهر تماماً فقد شرعوا يدافعون عن أنفسهم .

ترجل غريغوري عن حصانه ، وأمر القوزاق المكلّفين بمراقبة الخيل بعدم الخروج من الغابة ، ثم قاد الآخرين صوب دفة النهر ، وتقدّموا نحو النهر شيئاً فشيئاً وهم يركضون من شجرة الى أخرى .

كان هناك حوالي مائة وخمسين جندياً أحمر يردون مشاة المتمردين المهاجمين بالقنابل اليدوية ونيران المدافع الرشاشة . وكانت الأطواف قد اندفعت من جديد صوب الضفة اليسرى ، غير أن قوزاق بازكي استطاعوا أن يقتنصوا كل الجاذفين تقريباً بنيران بنادقهم ، أمّا أولئك الذين تركوا على هذه الضفة فقد ختم على مصيرهم بالفناء . وحين فقدوا الأمل طرحوا بنادقهم أرضاً والقوا بأنفسهم في الماء محاولين العبور سبحاً . بيد أن المتمردين انبطحوا في الفجوات القائمة على ضفة النهر وشرعوا في اقتناصهم ، كما أن

العديد منهم غرق لشدة خورهم إزاء عنفوان تيار الماء السريع ، ولم يفلح في العبور إلا إثنان منهم فقط . كان أحدهمُا يرتدي صدرية بحّار مقلّمة ، وقد تبيّن أنه سبّاح ممتاز ، فألقى بنفسه من الضفة ، شديدة الانحدار ، الى النهر وغاص تحت الماء ، ولم يظهر على السطح ثانية إلا بعد أن بلغ منتصف النهر تقريباً .

وبينما كان البحّار يجتاز النهر نحو جانبه الآخر بضربات قويّة منتظمة من ذراعيه لبث غريغوري يراقبه من مكمنه خلف صفصافة ذات جذور متشعبة جرداء ، وأفلح رجل آخر في العبور سباحة بسلام ، وحينما توقّف والماء يغمره حتّى الصدر أطلق كل مالديه من خراطيش ، ثمّ زعق بشيء ما وهو يهز قبضته بإتجاه القوزاق ، وانطلق يسبح متخذاً لذلك خطّاً مائلاً . فانهار الرصاص عليه مثيراً الماء من حوله ، ولكن من غير أن تصيبه واحدة . وحينما بلغ موضعاً تورد فيه القطعان جعل يخوض حتّى خرج من الماء ، فنفض نفسه ثمّ يمّم صوب الضفة صعداً من غيرما استعجال متوجهاً الى أفنية القرية القائمة هناك . أمّاالحمر الذين تخلّفوا في الجانب الآخر فقد انبطحوا حول كثيب رملي ، ومضى مدفعهم الرشاش يتأتىءحتّى غلى الماء في غلافه للتبريد .

وما أن خيّم الصمت على المدفع الرشاش حتّى أصدر غريغوري أمره بهدوء : «اتبعوني! » . وانطلق صوب الكثيب وقد امتشق حسامه . ومن ورائه تقاطر القوزاق منقطعي الانفاس . وحين لم تبق غير مائة خطوة تفصلهم عن رجال الجيش الأحمر ، انطلقت ثلاث صليات ثم ظهر من وراء الكثيب آمر مديد القامة أسمر الوجه أسود العذارين . وكانت ثمة امرأة ترتدي سترة جلدية تقدم له العون . وتبين ان الآمر كان مصابا بجرح . فجرجر ساقه المهشمة ونزل عن الرابية واطبق يده بشدة وثبات على بندقيته وحربتها المثبتة بها ، وأصدر أمراً بصوت اجش :

ـ ايها الرفاق! الى الأمام! اسحقوا البيض! .

ثمّ ارتفع النشيد الأممي من تلك العصبة الصغيرة من الرجال الشجعان واقدموا لشن هجومهم المقابل ، أي تقدّموا نحو حتوفهم .

أمّا المائة والستة عشر رجلاً الذين كانو آخر من خرّوا صرعى على ضفة الدون تلك ، كانوا جميعاً شيوعيين من صفوف« السرّية الأممية » .

٣

في الهزيع المتأخر من تلك الليلة عاد غريغوري من مقر الأركان الى مأواه فألفى بروخور عند البوابة . توجّه اليه غريغوري بالسؤال محاولاً أن يضفي عليه مسحة من اللامبالاة :

ـ لاخبر عن اكسينيا ؟

فأجاب بروخور متثائباً :

ـ كلا ، لقد تبخّرت في الهواء . بيد أنّه حدّث نفسه قلقاً : « اللهم لاتدعه يقسرني على الخروج للبحث عنها من جديد! لقد حلّت بي طواعين كل شياطين الكون! » .

لكن غريغوري قال له منزعجاً :

ـ هات شيئاً اغتسل به ، فالعرق يغمرني من رأسي الى قدمي . هيّا تحرّك!

فمضى بروخور وعاد بكوز ، وظلّ وقتاً ليس بالوجيز يصب الماء في كفَي غريغوري المضمومتين كالقدح . وكان بيناً أن غريغوري ارتاح لإغتساله أيما ارتياح ، فخلع قمصلته التي كانت تفوح عرقاً وقال : « صب شيئاً منه على ظهري » ، فلسع الماء البارد ظهره العرق حتّي صار يجمجم ويزنخر ، ثمّ فرك كتفيه المتقشّرتين وصدره الأشعر ، ونشّف جسمه بمرشحة خيل نظيفة ، وقال لبروخور بلهجة أكثر مرحاً : « سيجلبون حصاناً لي في الصباح . استلمه منهم ، ثمّ حُسّه حساً جيداً وأطعمه قمحاً . واياك أن توقظني ، فإنني

أريد أن أنام قدر ما أستطيع ، ولا تضايقني الا إذا جاء أحدهم عليّ من مقر الأركان . فاهم ؟ » .

ثمّ مضى تحت افريز المأوى واضطجع في عربة ، وفي الحال غاب في نوم هنيء . وعند الفجر استشعر برودة ، فدثّر ساقيه وتلفّع بمعطفه الرطب بندى الصبح . لكن ، ما أن ارتفعت الشمس حتّى عاد الى اغفاءته من جديد ، ولم يستيقظ إلاّ حوالي الساعة السابعة على صوت قذائف المدافع الثقيلة . كانت ثمّة طائرة بلون الفضّة تحوم في سماء القرية الصاحية الزرقاء . وكانت المدفعية والرشاشات تطلق نيرانها من الجانب الآخر من النهر .

فتمتم بروخور بينما كان يحس بهمّة جواداً كميتاً طويل السيقان مشدوداً الى عمود :

ـ وي ، يكادون يصيبونها! انظر يابانتلايفتش ، انظر الى الشيطان الذي أرسلوه إليك! فحصب غريغوري الجواد بعينيه وسأل بلهجة راضية :

ـ كم ترى عمره ؟ خمسة أعوام ، حسب مظهره ؟

ـ أجل ، له خمسة أعوام .

ـ عظيم! سيقانه بديعة ، وجميعها شعراء . ابن حلال حقّاً! حسن ، اسرجه ، فإنني ماضٍ لاستطلاع القادم .

فتمتم بروخور فيما كان يشد أحزمة السرج :

ـ إنّ مرآه يوحي بجودته فعلاً . فكيف سيكون عند الركوب ، إنّ أماراته كلها تنم عن نشاط وافر .

وانفجرت قذيفة منشار أخرى بدخّانها الأبيض على مقربة من الطائرة . واختار الطيّار موضعاً ملائماً للهبوط ، ثمّ نزل الى الأرض بحركة سريعة . فانطلق غريغوري على جواده مجتازاً البوابة وميمّماً صوب اسطبلات القرية حيث هبطت الطائرة خلفها .

كانت الاسطبلات ، وهي بناية حجرية مستطيلة ، استعملت سابقاً لإيواء جياد القرية ، تقع في الضواحي ، وقد حشر فيها الآن مايزيد عى

ثمانمائة أسير أحمر . ولم يكن الحرّاس المكلّفون بهم ليسمحوا لهم بالخروج لقضاء حاجاتهم ، كما خلا المكان من أيما شيء يُقتعد ، فكانت ترتفع حول البناية ، كالجدار ،رائحة قوية ثقيلة لبراز الرجال ، كما زحفت جداول جائفة من البول من تحت الباب ، وكانت تحوم فوقها أسراب مائجة من الذباب الأخضر .

ولم يكن الأنين المكتوم لينقطع من سجن الهالكين ، لا ليلاً ولا نهاراً . وكان المئات منهم ينازعون جراء الإنحلال أو التيفوس أو الدوسنطاريا المتفشية بينهم . وفي بعض الأحيان كانت جثث الموتى تظل بينهم أياماً بطولها دون أن تنقل الى الخارج .

مضى غريغوري حول الاسطبلات ، وكان على وشك الترجّل عن جواده حينما أرعد مدفع ثانية من الجانب الآخر للدون . وانطلق زعيق القذيفة المقبلة يتضخّم ، حتّى انقطع بهدير انفجارها الصخاب .

وكان الطيّار والضابط اللذان قدما بالطائرة ينزلان آنذاك من القمرة ، والتف القوزاق حول الطائرة . ولكن ، في تلك اللحظة بالذات ، انطلقت جميع مدافع البطّارية تنطق في آن واحد . وصارت القذائف تتهاطل قريبة من الاسطبلات . فهرع الطيّار يتشبث صاعداً الى القمرة من جديد ، بيد أنّ الماكنة أبت أن تشتغل . فصرخ الضابط الذي رافقه في الرحلة بصوت جهوري : ـ «ادفعها دفعاً!» . وكان هو أول من شرع يدفعها من أحد جناحيها . فمضت الطائرة تتمايل بيسر نحو مجموعة من أشجار الصنوبر ، بينما ظلّت البطّارية ترافقها بنار متعقّبة . وسقطت إحدى القذائف على الاسطبلات المزدحمة بالأسرى ، فتحطّم ركن منها وسط سحائب من الدخّان وغبار الكلس المتعالي .

واهتزّت الاسطبلات للزئير الوحشي الذي انبعث من الأسرى الذين صعقهم الرعب . ومرق ثلاثة منهم الى الخارج خلل الفجوة ولكنّهم أثخنوا برصاص القوزاق الذين سددوا اليهم نيران بنادقهم عن كثب .

وانطلق غريغوري هذباً الى أحد الجوانب . فصرخ به قوزاقي مصعوق الوجه جاحظ العينين اذ مرّ به :

ـ سوف يصيبونك! امض نحو الصنوبر!

فحدّث غريغوري نفسه :

ـ وقد يفلحون فعلاً ، من يدري! ثمّ عاد متمهلاً الى مأواه .

في ذلك اليوم دعا كودينوف الى عقد مؤتمر سرّي للغاية في مقر هيئة الأركان دون أن يدعو اليه غريغوري . وفي ذلك المؤتمر أفاد الضابط الذي وصل بالطائرة من لدن« جيش الدون » بأنّ القوة الضاربة المحتشدة في طريق كامنسكايا سوف تخترق جبهة الحمر في أي يوم ، وبأن فرقة من الخيّالة تابعة لـ« جيش الدون » سوف تتقدّم بقيادة الجنرال سكريتيف لإقامة إتصال مع المتمردين . واقترح الضابط أن تعد وسائط لعبور النهر حالاً لكي يصبح في إمكان كتائب خيّالة المتمردين أن تقذف عبر النهر الى جانبه الأيمن وذلك بعد إقامة الإتصال مع فرقة سكريتيف . كما أنّه نصح بتحريك قطعات الاحتياط الى مواضع قريبة من النهر . وعند نهاية المؤتمر ، وبعد أن تمّ الإتفاق على خطة نقل القطعات عبر النهر والعمليات التي ستقوم بهابعد ذلك ، تساءل الضابط :

ـ ولكن ، فيم عساكم تحتفظون بالاسرى في فيشنسكايا ؟

فرد أحد ضبّاط الأركان قائلاً :

ـ لأنّه ليس لدينا مكان آخر نضعهم فيه . فليس هناك أية بنايات ملائمة في القرى الأخرى .

فمسح الضابط باعتناء رأسه الحليق العرقان بمنديله ، ثمّ فكّ أزرار قمصلته وقال متنهداً : « أرسلوهم الى كازانسكايا » .

فرفع كودينوف حاجبيه دهشة وتساءل :

ـ ومن ثم ؟

فرد الضابط شارحاً الأمر عن طيب خاطر وهو يضيّق عينيه الزرقاوين الباردتين :

ـ ومن ثم تعودون بهم الى فيشنسكايا . وفي الواقع ، أيها السادة ، إنني لا أجد أبداً سبباً لالتزاماتكم بالاصوليات مع هؤلاء . وماكنت لأحسب أن الظرف ملائم لمثل هذا الموقف . إن هؤلاء الحثالة الذين ينشرون أنواع الأمراض ، البدنية منها والاجتماعية ، يجب أن يقضى عليهم ، فلا معنى لأن تلعبوا دور المربّيات معهم . وهذا ماكنت سأفعله أنا لو كنت في محلّكم .وفي اليوم التالي سيقت أوّل مجموعة من الأسرى نحو الرمال ، وكانت حوالي مائتين . وراح رجال الجيش الأحمر ، وقد هدّهم الهزال وحال لونهم حتّى حاكى لون الموتى ، يتحركون كما تتحرّك الأشباح ، لا يكادون يفلحون في تحريك أرجلهم ، بينما أحاطت بهذا الحشد المضنى جماعة من الحرس الراكب إحاطة القيد بالمعصم . وحينما طوت القافلة زهاء سبعة فرستات خارج القرية ، تمّ الاجهاز على المائتي أسير عن بكرة أبيهم .

وفي عصر ذلك اليوم سيقت مجموعة ثانية الى خارج القرية ، وأوعز الى الحرس المرافق ألا يضرب المتخلّفين في السير إلا بالسيف ، وألا يصار الى إطلاق النار إلا كحل أخير . ومع ذلك فلم يبلغ كازانسكايا حيّاً من بين هؤلاء الأسرى المائة والخمسين سوى سبعة عشر أسيراً . وحدث أن أصابت اللوثة عقل أحد هؤلاء ، وكان جندياً فتيّاً من رجال الجيش الأحمر تبدو عليه سيماء الغجر ، فمضى على مدى الدرب يغنهي ويرقص وينتحب ، وهو يشد الى صدره باقة من السعتر العطر.. وكان لايني بين الحين والآخر يهوي على وجهه فوق الرمل اللاهب ، فتعبث الريح بمزق قميصه القطني القذرة ، فتقع عيون الحرس على ظهره الهزيل وقد التصق عليه الجلد بشدّة ، وعلى أخمصي قدميه المتشقّقين . فيقومونه على قدميه يرشون عليه الماء من قارورة ، فيفتح عينيه السوداوين المتلامعتين بمخايل الجنون ، ويضحك بهدوء ، ثمّ يمضي في طريقه مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال .

وحينما بلغوا احدى المزارع الواقعة على الطريق ، أحاطت بالأسرى جماعة من النسوة الرؤومات ، وتوجهت احداهن ، وكانت عجوزاً مهيبة

كبيرة الجرم ، بالكلام المغضب الى المسؤول عن جماعة الحرس المرافق :

ـ اطلق سراح هذا الأسير قاتم السحنة! إنّه مخبول ، فهو الآن أقرب الى الله ، وستكون ، لعمري ، خطيئة كبرى منك لو أنّك أدنيت مثله من نهايته .

غير أن رئيس الحرس ، وكان نائب ضابط متهوراً ذا عذارين أحمرين ، أرسل ضحكة ساخرة وأجاب :

ـ نحن لانخاف من انزال خطيئة أخرى على أرواحنا ، أيتها العجوز . فلقد أوغلنا في الخطايا الى غير رجعة!

بيد أن العجوز أصرّت على طلبها :

ـ لاعليك ، اطلق سراحه ولا ترفض رجائي . فالموت يرفرف بجناحيه فوقكم جميعاً . وتلقّت تأييداً قويّاً من بقية النسوة ، فرضخ نائب الضابط لهن قائلاً :

ـ لا مانع لدي ، خذيه . فلا خوف منه بعد الآن . ولكن مادمتم قد رأيتم طيبة قلوبنا فلا أقل من إعطاء كل واحد منّا قارورة من اللبن الطازج .

أخذت العجوز الأسير المجنون الى كوخها الصغير ، وهيأت له سريراً في غرفة الاستقبال . فنام يوماً كاملاً بلا إنقطاع ، ثمّ استيقظ ، ونهض وظهره الى الشبّاك ، وشرع يغنّي بهدوء . فجاءت العجوز الى الغرفة : وحطّت راحتها على خدها ، وجعلت تطيل التأمّل في وجه الفتى الهزيل ، ثمّ قالت بصوت عميق :

ـ يقولون أنّ ديارك ليست بعيدة... .

فران الصمت على المخبول لحظة ، ثمّ مالبث أن استأنف الغناء من جديد ، ولكن بصوت أهدأ من ذي قبل .

فقالت العجوز في لهجة صارمة :

ـ كف عن ألاعيبك ، يا بني ، ولا تحسب أنّك تستطيع استغفالي . لقد عشت طويلاً ، ولن تستطيع خداعي ، فما أنا بالبلهاء! إنّ عقلك على أتم مايرام ، أعلم ذلك... فقد سمعتك تتكلّم في نومك ، وكان كلامك متزناً معقولاً .

بيد أنّ الجندي الأحمر مى في غنائه ، وإن شرع صوته ينخفض أكثر فأكثر . فاستأنفت العجوز كلامها :

ـ لاتخف منّي ، فلست أضمر لك سوءاً... فقد فقدت اثنين من أبنائي في الحرب الألمانية ، وسقط أصغرهم صريعاً في تشيركاسك في هذه الحرب . لقد حملتهم جميعاً تحت فؤادي . سقيتهم اللبن وأطعمتهم الغذاء ، وسهرت عليهم الليالي حينما كنت شابة... ولذلك تراني حزينة من أجل كل الفتية الذين يعملون في الجيش ويشتركون في الحرب .

ثمّ خلدت الى الصمت فترة من الوقت .

وران الصمت على الجندي الأحمر هو الآخر ، فأغمض عينيه ، واكتست وجنتاه السمراوان حمرة لاتكاد العين تتبينها . وجعل عرق أزرق ينبض بقوة من رقبته النحيلة العجفاء .

وبدا في صمته لحظة كمن يتوقّع شيئاً ما ، ثمّ فتح عينيه السوداوين نصف فتحه ، فلاحت نظرتهما ذكية ، واتقدتا ببريق من الترقّب المضني ، حتّى أن العجوز ابتسمت قليلاً وسألته : ـ أتعرف طريقك اى شوميلنسكايا ؟

فرد الرجل وهو لايكاد يحرّك شفتيه :

ـ كلا ، ياامّاه .

ـ اذن فكيف ستصل الى هناك ؟

ـ لا أدري...

ـ تلك هي المشكلة! والآن ، ماعساي أن أفعل بك ؟ ثمّ لبثت طويلاً تنتظر إجابته . فلمّا لم يجب سألته :

ـ أتستطيع السير الآن ؟

ـ سأسير على مهل .

ـ لا ينفعك على مهل . فإن عليك أن تسير خلل الليل ، وبسرعة ، أوه ، بأسرع ماتستطيع! أمكث هنا يوماً آخر ، ثمّ سأزودك بالطعام ، وبحفيدي ليدلّك على الطريق ، ومن ثم ـ في عناية الله! إن الحمر جماعتك هم الآن في

ضواحي شوميلنسكايا تماماً ، اعلم ذلك علم اليقين . فما عليك إلا أن تذهب وتلتحق بهم . على أنّه يجدر بك ألا تمضى علي الطريق العام ، بل تضرب عبر السهب والوديان والغابات بعيداً عن الطرق ، والا ظفر بك القوزاق وحلّت بك بليّة . وهذا هو القول الفصل ، يا بطّتي!

وفي اليوم التالي ما أن حل الغسق ، حتّى قامت العجوز فرسمت إشارة الصليب على حفيدها ذي الاثنى عشر عاماً وعلى الجندي الأحمر الذي ألبسته سترة قوزاقية ، وقالت بلهجة صارمة :

ـ والآن ، هيّا امض ، في رعاية الله! ولكن حذار من الوقوع في أيدي جنودنا ، مهما كلّفك الأمر ، يابطّتي ، مهما كلّفك الأمر! لاتنحن لي! بل لله القدير . فلست أنا الأم الصالحة الوحيدة ، فكلّنا أمهات صالحات... ونحن حزينات من أجلكم أيها المنكوبون المساكين ، حزينات حزناً قتّالاً! والآن هيّا ، هيّا ، امض ، رعاك الله وحفظك! .

ثمّ صفقت باب كوخها الأصفر المائل الملطّخ بالطين .

٤

كانت ايلنشنا تستيقظ مع البصيص الأوّل لفجر كل يوم ، فتحلب البقرة ثمّ تأخذ بأداء أشغالها اليومية . ولم تكن توقد النار في الموقد الداخلي ، بل كانت تضرم النار في المطبخ الخارجي وتعد الغداء ، ثمّ تدلف الى الدار ثانية لتعنى بالطفلين .

أمّا ناتاليا فقد كانت تتماثل للشفاء من التيفوس ، ولكن ببطء شديد . وصادف أوّل قيامها من الفراش اليوم التالي لأحد الثالوث ، فمضت تتمشّى من غرفة الى أخرى ، لا تكاد تقوى على تحريك ساقيها الهزيلتين . وقضت وقتاً طويلاً تفلّي رأسي الطفلين ، كما أنها جربت أن تغسل بعضاً من الملابس بينما هي جالسة على مقعد واطيء . بيد أن وجهها السقيم كان

لايني يتألق بابتسامة ثابتة ، ووجنتيها الغائرتين تكتسيان لوناً وردياً ، وعينيها ، اللتين اتسعتا بسبب المرض ، تتلامعان بذلك الوميض الراعش الذي يعقب الولادة عادة .

وتساءلت بصوت واهن وهي تجرجر الكلمات جرجرة ، وتمسّد بيدها شعر ابنها الفاحم :

ـ بوليوشكا ، يا حبيبتي! لعل ميشاتكا لم يضايقك أبداً طيلة مرضي ، ها ؟

فأجابت الطفلة هامسة : « كلا ، يامامي . ضربني مرة واحدة فقط ، لكننا كنّا نلعب معاً كثيراً . ودسّت رأسها بين ركبتي أمّها .

واستأنفت ناتاليا أسئلتها والإبتسامة على محياها :

ـ وجدّك ، هل كان يرعاك ؟

ـ كثيراً ، كثيراً!

ـ والغرباء ، الجنود الحمر ، هل مسّوك ؟

فرد ميشاتكا بصوته الصغير العميق ، وكان يشبه أباه شبهاً عجيباً : « لقد قتلوا عجلنا الصغير ، يلعن أبوهم! » .

فقالت له ناتاليا لائمة ، وهي تكتم ابتسامتها :

ـ لايجوز أن تشتم ، ياميشاتكا! أنت تتكلّم مثل الرجال! لا يجوز أن تسب الكبار أبداً أبداً .

فورد الميليخوفي الصغير عابساً ليبرّر نفسه :

ـ ولكن هذا ماقاله جدّي فيهم ، اسألي بوليا!

ـ صحيح ، مامي ، وذبحوا دجاجنا الى آخره .

وتحمّست بوليا ، وشرعت ، وعيناها السوداوان الصغيرتان تشعّان وميضاً ، تقص كيف جاء الجنود الحمر الى الفناء ، وكيف امسكوا الدجاج والبط ، وكيف رجتهم الجدة إيلينشنا أن يبقوا على ديك أصفر اللون ذي عرف مصاب بلسعة ثلج ، وكيف أجابها جندي أحمر فكه وهو يؤرجح الديك بيده :

ـ هذا الديك ، أيتها السيدة العجوز ، أطلق صيحة معادية للنظام السوفياتي ، ولهذا حكمت عليه بالإعدام! ومهما قلت ، فإننا سنعد به حساء لنا وسنترك لك بدلاً منه جزمنا اللبادية العتيقة .

وأضافت بوليا الصغيرة ناشرة ذراعيها :

ـ بهذا الحجم كانت الجزم اللبادية التي تركوها . كبيرة جداً ، جداً . ومليئة كلها بالثقوب .

فضمّت ناتاليا الطفلين اليها وجعلت تلاطفهما وهي تضحك وتبكي في آن واحد ، وهمست والغبطة تغمرها وعيناها المشوقتان لا ترتفعان عن ابنيها :

ـ آه ياابنه حبيبي غريغوري! يا ابنة غريغوري الحقيقية ، أنت مثل أبيك تماماً ، حتّى آخر قطرة من دمك .

فتساءل ميشاتكا والغيرة تخزه :

ـ ولكن ، ألست أنا مثله أيضاً ؟ ـ وانكفأ على حضن أمه خجلاً .

ـ بلى ، إنّك مثله أيضاً . ولكن ، تذكّر دائماً . حينما تكبر ، لاتكن سيئاً كأبيك .

فتساءلت بوليا : ولكن ، أهو سيئ حقّاً ؟ كيف ؟

فهوى ظل من الأسى على وجه ناتاليا ، ولم تجب ، بل نهضت من على المصطبة وهي تتحامل على نفسها .

أمّا ايلينشنا ، التي كانت في الغرفة الأخرى ، فقد أشاحت بوجهها عابسة . ووقفت ناتاليا إزاء النافذة ، ولم تعد تنصت الى حديث الطفلين ، وراحت تحدّق في صفاقات شبابيك بيت استاخوف ، وهي تصعد النهدات وتعبث بخيوط صدريتها الداخلية الكالحة بأصابع منفعلة .

وفي اليوم التالي استيقظت عند الفجر ، فقامت من فراشها بهدوء لكي لا تقطع على الطفلين نومهما ، ثمّ اغتسلت وأخرجت من الصندوق تنورة نظيفة وصدرية داخلية وعصابة رأس بيضاء . وكان التأثر بادياً عليها ،

فخمّنت ايلينشنا من طريقة لبسها ومن صمتها الحزين المتجهّم أن كنّتها كانت تعتزم زيارة قبر جدها غريشاكا .

فتساءلت العجوز عن قصد للتأكّد من صدق ظنّها :

ـ الى أين ذاهبة ؟

فأجابت ناتاليا كمن يدافع عن موقفه ، ومن غير أن ترفع رأسها مخافة أن تنفجر بالدموع :

ـ ذاهبة لزيارة قبر جدّي .

وكانت قد علمت بمصرع جدّها ، وبأن ميشا كوشيفوي قد أضرم النار في بيتهم ومزرعتهم .

ـ أنت ضعيفة ، ولن تقدري أن تصلي الى هناك .

ـ سأتدبّر ذلك ، على مراحل . اطعمي الطفلين ، يا أمّاه ، فقد يطول مكوثي هناك .

ـ ولكن ، علام ذلك ؟ ما الذي يطيل مكوثك هناك ؟ أهذا وقت زيارة الموتى ؟ غفرانك يا رب! ماكنت لأذهب لو كنت في مكانك ، ياعزيزتي ناتاليا .

ـ لا ، أنا ذاهبة .

وغام وجه ناتاليا ، وأمسكت بمقبض الباب .

ـ انتظري لحظة ، لماذا تذهبين جائعة ؟ تناولي شيئاً .

ـ أتودّين أن أعطيك شيئاً من اللبن الحامض ؟

ـ كلا يا أمّاه ، لا أريد وحق المسيح... سأتناول شيئاً من الطعام حينما أعود .

واذ ادركت ايلينشنا عزم كنّتها على الذهاب ، توجّهت اليها بالنصح :

ـ اسلكي الدرب العالي الموازي للدون ، عبر الحدائق ، فلا يقع عليك بصر أحد كثيراً .

كان ثمّة غطاء خفيف من الضباب معلّق فوق الدون ، ولم تكن الشمس

قد ارتفعت بعد ، بيد أنّ أفق السماء ، وقداختبأ وراء أشجارالحور من ناحية الشرق ، كان يتوهّج بنور الفجر الرمادي ، وكان نسيم الصبّاح الباكر يهب قارساً ، من تحت السحب .

عبرت ناتاليا الى بستانهم من خلف سياج الاسفندان المطروح على الأرض ، بعيدانه المتسلّقة المتشابكة ، ثمّ توقّفت بحذاء كومة صغيرة من التراب المقلوب حديثاً ، وهي تضغط بيديها على قلبها .

كان البستان تغطيه نباتات القرّيص والنجيل ، وتنبعث منه رائحة الارقطيون المرشوش بالندى ، والتراب الرطب والضباب ، وعلى شجرة التفّاح الهرمة ، التي احرقتها النار وأحالتها فحماً ، وكرّ زرزور منفوش الريش . وكانت حدبة القبرِ قد نزلت . فهنا وهنالك ، ومن بين كتل الطين الجاف ، كانت نصال الأعشاب المندفعة الى أعلى قد بدت ظاهرة للعيان .

واجتاحت ناتاليا لجة من الذكريات ، فهوت بصمت على ركبتيها وأدنت وجهها الى الأرض القاسية التي مابرحت تفوح برائحة العدم والخراب .

ومضت ساعة ، ثمّ زحفت ناتاليا ، بحذر ، الى خارج البستان ، والتفتت ، والأسى يعتصر فؤادها ، لتلقي نظرة أخيرة على الربع الذي شهد تفتّح شبابها . كانت الساحة المهملة تبكي العين بعوارض مآويها المتفحمة من أثر النار ، وخرائب الموقد المسودّة ، وأسس بناء الدار ظاهرة . ثم مالبثت ناتاليا أن اتخذت طريق إيابها ، بهدوء ، حذر منعطف جانبي .

* * *

ومع توالي الأيام ، غدت صحة ناتاليا أحسن عافية ، فعادت القوة الى ساقيها ، وتكوّر كتفاها ، وغمر جسدها امتلاء الأصحّاء . ولم ينقض أجل طويل حتّى شرعت تساعد حماتها في شؤون المنزل . فتروح المرأتان تتبادلان أحاديث طويلة كلّما جمعهما العمل حول الموقد . وفي ذات صباح ، قالت ناتاليا بصوت مشوب بالغضب :

ـ ومتى سينتهي هذا ؟ روحي كلها تتوجّع!
فأجابت ايلينشنا في لهجة الواثق :
ـ سترين... لن يمضي وقت طويل حتّى يفلح رجالنا في عبور الدون ثانية .
ـ ولكن ، أنّى لك أن تعرفي ذلك يا أمّاه ؟
ـ قلبي يحدّثني به .
ـ عسى أن يسلم رجالنا من كل مكروه! اللهم ادرأ عنهم الموت أو الجراح... لكن غريشا... لكم هو طائش .
وانبعثت زفرة من صدر ايلينشنا :
ـ لا أعتقد أن مكروهاً سيصيبهم ، ليس الله بلا شفقة . وقد وعدني عجوزنا بأنّه سيحاول عبور النهر لزيارتنا ، بيد أنني أحسب أنّ عائقاً حال دون ذلك . فإذا قدّر له أن يأتي ، تستطيعين أن تعودي معه لرؤية زوجك . إن رجال قريتنا متخذون مواقعهم على الشاطىء المقابل للقرية . وحينما كنت راقدة على الفراش ، فاقدة الوعي ، خرجت ذات صباح ، فجراً ، لجلب الماء من الدون ، فإذا بي أسمع أنيكوشكا يصيح عبر النهر :
ـ «تحيّاتنا ، سيدتي العجوز! تحيّة عجوزك إليك!» .
فتساءلت ناتاليا في حذر :
ـ ولكن أين هو غريشا ؟
فأجابت ايلينشنا في توكيد ساذج :
ـ في المؤخرة ، يقودهم جميعاً .
ـ ولكن من أين يقودهم ؟
ـ لابد أن يكون من فيشنسكايا . فليس ثمة مكان آخر غيره يمكنه أن يفعل ذلك منه .
خلدت ناتاليا الى الصمت . فألقت ايلينشنا نظرة عليها وتساءلت في قلق :
ـ ولكن ، ما بك ؟ لماذا تبكين ؟

ولم تجب ناتاليا ، بل أطبقت وزرتها المتوسّخة على وجهها وطفقت تنشج بهدوء :

ـ كفاك بكاء ، عزيزتي ناتاليا ، فما جدوى الدموع الآن ؟ اذا شاء الباري ، فسنراهم مرة أخرى ، أحياء سالمين . أمّا أنت ، فعليك أن تعتني بنفسك . لا تخرجي الى الفناء الا عند الضرورة ، وإلا فستقع أعين أعداء المسيح عليك ويشرعون بمغازلتك .

وفجأة غدا المطبخ أشد ظلاماً . في الخارج ، كان هيكل رجل يغطّي النافذة . فالتفتت الينشنا صوبها وزعقت بصوت نائح :

ـ إنهم هم! الحمر! ناتاليا ، يا حبيبتي! ارتمي على السرير بسرعة ، وتظاهري بأنك مريضة... لا أحد يدري أية خطيئة سيـ... غطي نفسك بهذا الخيش .

فمضت ناتاليا الى السرير وهي ترتعد فرقاً ، وما كادت تلقي نفسها عليه حتّى قعقعت سقاطة الباب ودخل الى المطبخ جندي أحمر طويل القامة ، وهو يحني رأسه ليجتاز الباب . فتعلّق الطفلان بتنورة ايلينشنا ، واستحال وجه العجوز شاحباً ، ثمّ القت نفسها على المصطبة حيث كانت تقف ، فقلبت جرة من الحليب المغلي .

القى الجندي الأحمر نظرة سريعة في أرجاء المطبخ ، ثمّ قال بصوت مرتفع :

ـ لا تخافوا! فلن آكلكم! طاب يومكم!

فسحبت ناتاليا غطاء الخيش فوق رأسها ، وهي لاتنفك تتأوّه وكأنّها مريضة فعلاً . أمّا ميشاتكا . فإنه عبس بوجه الزائر ، ثمّ حدّث جدته بصوت يخالطه الجذل :

ـ جدتاه! هو الذي قتل ديكنا ، أتذكرين ؟

فرفع الجندي قبعته الخاكي ، وطق لسانه وابتسم .

ـ شخّصني الخبيث! تصوري أنه تذكّر ذلك الديك ، وعلى أية حال ،

ياربة الدار ، فإن ما جئت من أجله هو هذا . هل تستطيعين اعداد شيء من الخبز لنا ؟ لدينا طحين .

فأجابت ايلينشنا متأتئة ، دون أن تنظر الى الزائر ، فيما كانت تمسح الحليب المسكوب من على المصطبة : «نعم... بلا شك . سأخبزه لكم...» .

فجلس الجندي بحذاء الباب ، وأخرج كيس تبغه من جيبه ، وحاول أن يتبادل الحديث معها ، وهو يلف لنفسه سيكارة :

ـ هل يمكنك أن تنجزي الخبز مع حلول المساء ؟

ـ أجل ، اذا كنت على عجل .

ـ في زمن الحرب ، يا جدتي ، نحن دائماً على عجل ، ولكن ، أرجو ألا يسينك موضوع الديك .

فردّت ايلينشنا باستغراب :

ـ لست مستاءة ، هذا الطفل أحمق ، يتذكّر الأشياء المنسية .

فابتسم الزائر الثرثار ببشاشة ملتفتاً نحو ميشاتكا :

ـ ومع ذلك ، فالظاهر أنك بخيل نوعاً ما ، يا ولدي . ثمّ ما الذي جعلك تحملق فيّ مثل ذنب صغير ؟ تعال هنا وسوف نتحدث ماشئت عن ديكك .

فهمست ايلينشنا وهي تدفع حفيدها بركبتها :

ـ امض اليه ، يابليد!

بيد أن ميشاتكا انتزع نفسه من تنورة جدّته وحاول أن ينسل الى خارج المطبخ ، وهو يسير منحرفاً صوب الباب . لكن الجندي الأحمر مدّ ذراعه الطويلة ، وسحبه اليه وسأله :

ـ هل أنت غضبان منّي ؟

ـ فأجاب ميشاتكا همساً :

ـ لا .

ـ عال! فالسعادة لاتعتمد على ديك . أين أبوك ؟ أهو في الجهة الأخرى من الدون ؟

ـ نعم .
ـ اذن فهو يحارب ضدّنا ؟
فتشجّع ميشاتكا بلهجة الرجل المُلاطِفة ، وأجاب في الحال :
ـ يقود جميع القوزاق .
ـ اوه ، أنت تكذب ياولدي!
ـ سل جدّتي ، اذن!
لكن جدته لم تزد على أن ضربت يداً بيد وانفجرت تتأوه ، وقد استبد بها القلق من انسياق حفيدها في ثرثرته .
ثم تساءل الجندي متحيّراً :
ـ يقودهم جميعاً ؟
فأجاب ميشاتكا متردّداً ، وهو مندهش لنظرات جدّته البائسة :
ـ ربّما ليس جميعهم...
وخلد الجندي الأحمر الى الصمت هنيهة ، ثمّ تساءل وهو يلقي نظرة على ناتاليا :
ـ اذن ، فالزوجة الشابة مريضة ، أهي كذلك فعلاً ؟
فأجابت ايلينشنا متلعثمة :
ـ مصابة بالتيفوس .
ثمّ جاء جنديّان أحمران يحملان زكيبة من الطحين الى داخل المطبخ ، وأنزلاها قرب العتبة . وسأل أحدهما :
ـ أوقدي النار ، ياربة الدار ، سنعود لأخذ الأرغفة قبل حلول المساء . اهتمّي بالخبز ، وإلا فالويل لك .
فردّت ايلينشنا قائلة : «سأخبزه كأفضل ما أعرف الخبز» ، والارتياح يملأ صدرها لأن مجيء الجنديين قطع حبل الحوار الخطر ولأن ميشاتكا هرب الى خارج المطبخ .
وتساءل أحد الجنديين وهو يهز رأسه باتجاه ناتاليا :

ـ تيفوس ؟

ـ أجل .

ثمّ تناولا فيما بينهم حديثاً خفيضاً ، ومالبثوا أن غادروا المطبخ . ولم يكد آخرهم يعبر المنعطف حتّى انطلقت طلقات بنادق من الجانب الآخر من الدون .

فأحنى الرجال هاماتهم بشدّة ، وهرعوا الى حائط الحظيرة الصخري الذي تهدّم نصفه ، وانبطحوا وراءه ، وشرعوا يردّون على النار مقعقعين بنادقهم بعنف شديد .

واشتد الفزع والرعب باليشنيا ، فخرجت تعدو الى الفناء بحثاً عن ميشاتكا . فصاح بها الرجال الرابضون خلف الحائط : « أنت ياجدّتي ، ادخلي الى البيت! لسوف تقتلين! » .

فصاحت العجوز والدموع في صوتها : « إن ابننا في الفناء . ميشاتكا! ياحبيبي! »

وركضت نحو وسط الفناء ، فتوقّف في الحال اطلاق النار من الضفة الأخرى للدون . وكان جليّاً أن القوزاق قد رأوها وعرفوها . ثمّ جاء ميشاتكا عدواً وما أن امسكت به من يده ودلفت معه الى المطبخ حتّى استؤنف إطلاق النار ، واستمر الى أن جلا الجنود الحمر عن فناء آل ميليخوف .

وشرعت ايلينشنا تعد العجين وهي تحدّث ناتاليا همساً : بيد أنّه لم يعد من الضروري لها أن تخبزه . ففي حوالي الظهر ، تخلّى بلا إبطاء جنود الجيش الأحمر ، حاملوا الرشاشات ، عن مواقعهم الامامية الواقعة في أقبية المنزل ، واتخذوا طريقهم مرتقين منحدرات التل ، وهم يجرجرون رشاشاتهم وراءهم . أمّا رجال السرّية التي كانت تتخذ الخنادق لها موقعاً ، فقد انتظموا صفوفاً ويمموا ، في مسيرة مترنحة ، صوب طريق« هتمان » العام .

وفي لمح البصر ، خيّم سكون عميق فوق الأرض الواقعة على جانبي الدون . واسكتت البنادق والمدافع الرشاشة . وعلى امتداد الطرق ، وفوق

المسالك الصيفية التي نما عليها العشب فغطّاها ، ومن كل قرية ، امتدّت قوافل الأمتعة والبطّاريّات في خطوط لانهاية لها متجهة صوب طريق« هتمان » العام ، فيما مضى المشاة والخيّالة يسيرون طوابير في مشية عسكرية .

ومن خلل النافذة ، رأت ايلينشنا آخر جندي أحمر يزحف صاعداً النتوءات الكلسية للتل ، فمسحت يدها بالستارة ورسمت اشارة الصليب على نفسها بارتياح .

ـ فرّج الله حلمنا ، ياعزيزتي ناتاليا . فالحمر يتراجعون .

ـ آه ياماما ، إنهم يغادرون القرية ليستقرّوا في الخنادق ، سوف يعودون قبل حلول المساء .

ـ لماذا يركضون اذن ؟ أرغمهم رجالنا على الانسحاب ، فهم يتراجعون ، أولاد الأبالسة! أعداء المسيح يولون الأدبار!...

وتهللت أسارير ايلينشنا باعتزاز لكنها ماعتمت أن عادت الى عجن العجين .

خرجت ناتاليا الى السقيفة ، وتوقفت على العتبة ، ثمّ وضعت يدها فوق عينيها وجعلت تحدّق طويلاً في التل الكلسي المغمور بالشمس ، وفي النتوءات السمر التي حرقتها حرارة الشمس .

وفي خلل السكون المهيب الذي يسبق زوبعة رعدية ، ارتفعت سحائب بيض متدحرجة من وراء التل . وكانت شمس الظهيرة تصفع الأرض بسياط أشعّتها ، والسوالق ترسل صفيرها على أرض المرعى ، فيمتزج على نحو عجيب صوتها الخافت ، والأسيان الى حدّ ما ، بغناء القبرات الجذل . لكم كان عزيزاً على فؤاد ناتاليا ذلك السكون الذي هبط على المكان غب اطلاق النار ، حتّى أنها مكثت بلا حراك تتسمّع بلهف الى غناء القبرات المنطلق بلا قيود ، والى صرير دولاب البئر ، والى حفيف الريح المضمّخة بعطر الشيح . حرّيفة ومعطّرة ، ريح السهب تلك ، الشرقية المجنحة . كانت تزفر

الأنفاس الحارة للأرض السوداء التي لسعتها الشمس بلهيبها ، والعطور المسكرة لجميع الأعشاب الذاوية تحت الشمس . ومع ذلك ، فلقد كان هناك حس بمقدم المطر ، ثمة رطوبة منعشة تتصاعد ، زحفاً ، من جهة النهر ، وطيور السنونو تنسج تشكيلات في الهواء وهي تكاد تمس الأرض بأذنابها ذوات الأطراف المزدوجة ، وفي البعيد البعيد ، في أعماق الفضاء الأزرق ، كان عقاب السهب يضرب بجناحيه مبتعداً عن الزوبعة المقتربة .

مضت ناتاليا تمشّى عبر الفناء . وعلى العشب المتغضّن النابت بإزاء الجدار الحجري ، كانت كومات ذهبية من أغلفة الطلقات الفارغة . وتثاءبت نوافذ الدار وجدرانه المبيضة عن ثقوب خلّفتها رصاصات المدافع الرشاشة . وحين وقع نظر إحدى الفراخ التي سلمت من الموت على ناتاليا ، هبّت الى سقف مخزن الحبوب ، مطلقة صيحة .

لم يدوم السكون المهيب على القرية طويلاً . اذ شرعت الريح تهب ، والأبواب والشبابيك غير المسمّرة تصطفق في البيوت المهجورة . وحجبت الشمس غيمة بردية بيضاء ، ثمّ انحدرت صوب الغرب .

أمسكت ناتاليا بشعرها كي لاتعبث الريح به ، ومشت حتّى بلغت المطبخ الصيفي ، ومن هناك ألقت نظرة أخرى باتجاه التل . كان في الأفق جنود يهذبون على خيولهم أو في عربات عسكرية ذوات عجلتين ، وقد تلفّعوا بضباب ليلكي .

فاستنتجت وهي تتنفّس الصعداء : «اذن فالأمر صحيح . إنهم يتراجعون» .

وقبل أن تدلف الى الفناء ، شرع رمي المدافع يرسل رعيده المندفع المكتوم ، من مكان ما وراء التل ، ومن كنيستي فيشنسكايا ، طوّف عبر النهر قرع النواقيس البهيج ، كأنه يتبادل النداءات مع المدافع .

ومن الجانب الأخر للنهر ، بدأ القوزاق يندفعون خارج الغابة كتلة كثيفة ، مجرجرين أو حاملين جنيبات نحو النهر . ثمّ أنزلوها فيه ، واندفع

الجذّافون يجذفون بحماسة وقوة ، فيما وقف الآخرون عند المؤخرة . وتسابق نحو القرية مايقارب من ثلاثين زورقاً ، في عجالة واندفاع .

وهتفت ايلينشنا ، وعيناها تصبّان الدموع ، فيما هرعت خارج المطبخ :

ـ ناتاليا! حبيبتي! أوه ، يارب... رجالنا قادمون!

فأمسكت ناتاليا بميشاتكا ورفعته عالياً . وتألّقت عيناها بحرارة ، بيد أن صوتها جاء ضعيفاً حينما قالت لاهثة :

ـ انظر ياحبيبي ، إنّ بصرك قوي... لعل والدك قادم مع القوزاق... أيمكنك رؤيته ؟ إنّه ليس في القارب الأول ، ها ؟ أوه ، لكنّك لاتنظر في الاتجاه الصحيح...

في المرسى ، لم يلقوا سوى بانتلاي بروكوفتش المنهك . وكان أول شيء استفسر عنه العجوز هو ماإذا كانت الثيران وأملاك الحقل والحبوب سليمة جميعها ، ومن ثمّ ذرف دمعة واحتضن حفيديه . لكنه حين مضى الى فناء داره ، يستحث خطاه العرجاء ، اكتسى وجهه الشحوب ، وهوى على ركبتيه ، ورسم اشارة الصليب على نفسه بحركات واسعة من ذراعه ، وظل زمناً طويلاً ، محني الهامة تجاه الشرق ، لايرفع رأسه عن الأرض الساخنة التي حرقتها الشمس .

٥

في العاشر من حزيران ، قامت فرقة الخيّالة التابعة لـ« جيش الدون » . بقيادة الجنرال سكريبف ، والتي يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف رجل ، تصاحبها ست مدافع تجرّها الخيل وثمانية عشر مدفعاً رشاشاً ، بتسديد ضربة قاصمة ، وأفلحت في النفاذ خلال الجبهة في موضع قريب من منطقة أوست ـ بيلوكالتفنسكايا . ثمّ تحرّكت القوة بمحاذاة خط السكة الحديد في اتجاه

مركز منطقة كازانسكايا . وفي غداة اليوم الثالث ، استطاعت دورية استطلاع من ضباط كتيبة الدون التاسعة أن تقيم اتصالاً مع نقطة ميدان أمامية للمتمردين تقع على مقربة من الدون . وقد حدث حين شاهد القوزاق رجالاً ممتطين خيلاً أن هرعوا الى داخل الأخاديد . بيد أنّ النقيب القوزاقي المسؤول عن الدورية استطاع أن يميّز المتمردين من ملابسهم ، فلوّح لهم بمنديل عقده في سيفه ، وهتف بصوت عال :

ـ نحن من جانبكم... لا تهربوا ، أيها القوزاق... .

ثمّ مضت الدورية الى حافة الأخدود ، دونما اتخاذ أية احتياطات ، وكان أوّل من تقدّم آمر النقطة الأمامية ، وكان عريفاً عجوزاً أشيب اللحية ، فاقترب وهو يزرر معطفه المرشوش بقطر الندى . وترجّل الضبّاط الثمانية ، ومضى النقيب الى العريف ، وخلع قبعته الخاكية وشارات الضباط البيضاء فيها ظاهرة أمام أعين عصبة القوزاق ، وابتسم قائلاً :

ـ تحياتنا ، أيها القوزاق! وكما هي العادة القديمة المحببة عندنا فلنتبادل القبل ـ وقبّل وجنتي المتمرد ، ثمّ مسح شفتيه وشاربه بمنديله . وحين أحس بنظرة زملائه المتلهّفة مسمّرة عليه ، قال مثغثغاً وعلى فمه ابتسامة ذات مغزى :

ـ اذن ، ثبتم الى رشدكم أخيراً ؟ وأثبت أهلوكم أنهم خير من البلاشفة ؟

ـ تماماً ، ياصاحب السعادة! كفّرنا عن خطايانا . مضت علينا ثلاثة أشهر ونحن نتقاتل ، طال اشتياقنا لرؤيتكم .

ـ حسناً فعلتم أن اعدتم النظر في موقفكم ، وإن جاء ذلك متأخراً . صفحة الماضي طويت ، وسنعتبر كل مافات فات . من أية منطقة أنتم ؟

ـ من كازانسكايا ، ياصاحب السعادة .

ـ وهل وحدتكم في الجانب الآخر من الدون ؟

ـ تماماً .

ـ أي طريق سلك الحمر من الدون ؟

ـ صعد النهر . نحو موطن الدونيتس ، ربّما .

ـ ألم تعبر خيالتكم النهر ، بعد ؟

ـ أبداً .

ـ ولم لا ؟

ـ لاأدري ، ياصاحب السعادة . فنحن كنّا أول من أرسل الى هذه الضفة .

ـ هل كانت مع الحمر أية مدفعية هنا ؟

ـ بطاريتان .

ـ متى سحبتا ؟

ـ خلال الليل .

فقال النقيب لانماً :

ـ كان الواجب ملاحقتهم... آه ، تركتم الفرصة تفلت من أيديكم!

ثمّ مضى الى حصانه وأخرج من حقيبته كراساً وخريطة . ظل العريف واقفاً وقفه استعداد ، ويداه ممدّدتان على طيّات بدلته ، فيما تزاحم القوزاق وراءه بخطوتين ، تختلط في صدورهم مشاعر الفرح والقلق الغامض ، وهم يتفحصون الضبّاط والسروج والخيل الأصائل التي أنهكها الطريق . أمّا الضبّاط الذين كانوا يلبسون قمصلات بريطانية أنيقة الصنع ومزينة بشارات للكتف ، وبنطلونات واسعة لركوب الخيل ، فقد كانوا يتنقّلون من قدم الى أخرى متململين حول خيلهم ، وهم يلقون بين الفنية والفنية نظرات جانبية على القوزاق . ولم يكن فيهم من يحمل على كتفه شارات من النوع الذي كان يصنع محلّياً بالقلم الثابت ، تلك الشارات التي شاع استعمالها كثيراً في خريف عام ١٩١٨ . بل أن جزمهم وسروجهم وحمائل سيوفهم ونظارات الميدان والغدارات المعلقة بسروجهم كانت ، كلها ، جديدة ومن صنع اجنبي . ولم يكن سوى أكبرهم سناً ، كما بدا ذلك من سيمانه ، مرتدياً

معطفاً شركسياً من قماش أزرق اللون زاه ، وطاقية كوبانية مدورة من صوف استراخان «بخارى» النفيس ، ومحتذياً جزمة أهل الجبال التي لا كعب لها . وكان هذا أول من اقترب من القوزاق ، فخطا نحوهم خطوات خفيفة ، وأخرج من حقيبة ميدانه علبة لطيفة للسكائر مزينة بصورة الملك ألبرت ، ملك بلجيكا ، وعرضها على القوزاق قائلاً :

ـ أتودّون التدخين ، أيها الأخوه ؟

فمد القوزاق أيديهم الى السكائر بنهم . كما تقدّم الضبّاط الآخرون أيضاً ، وتساءل ضابط ذو رأس كبير ومنكبين عريضين :

ـ حسن ، وكيف وجدتم الحياة تحت ظلال البلاشفة ؟

فرد قوزاقي يرتدي معطفاً فلاحياً عتيقاً ، في حذر : «لم تكن كلها عسلاً» ، وهو يعبّ أنفاس سيكارته عبّاً ، مسمّراً عينيه على الجرموق الطويل المزركش بالأشرطة حتّى الركبتين ، والذي كان يلف ، بشدة ، ربلتي الضابط القويتين .

أمّا صندل القوزاقي البالي ، فقد كان عالقاً بقدميه بإعجوبة ، وكان جوربه الصوفي الأبيض المرقّع وبنطلونه المدسوس فيه ممزقين شر تمزيق ، ولهذا لم يستطع الرجل أن يحوّل نظرته المفتونة عن جزمة الضابط البريطانية بنعلها الجسيم المذهل وثقيباتها النحاسية ذوات اللمعان الباهر . ولم يقدر أن يضبط نفسه ، فقال معبراً عن اعجابه بسذاجة :

ـ لديك زوج بديع من الجزم!

غير أن الضابط لم يشعر برغبة في الدخول في حديث ودّي معه ، فقال ، وفي صوته تهكّم وتحد : «أنتم أردتم أن تستبدلوا عدتكم الأجنبية بصنادل موسكو الليفية ، فلا تحسدونا على ما نرتدي!» .

فأجاب القوزاقي في لهجة مشوّشة ، مجيلاً نظره في القوزاق الآخرين سعياً وراء تأييدهم له :

ـ اقترفنا خطأ . قذفنا بأنفسنا في غير...

بيد أن الضابط استمر في محاضرته هازئاً :

ـ أظهرتم أن عقولكم عقول ثيران . فالثور على هذه الشاكلة دائماً . يتحرّك أولاً ، ثمّ يقف بعد ذلك .«اقترفنا خطأ!» . اذن ، ماالذي كنتم تفكرون به حينما انسحبتم من الجبهة في الخريف ؟ أردتم أن تصبحوا قوميسارية! نعم المدافعين عن أرض الآباء كنتم!

وهنا همس في أذن الضابط المحتد آمر سرّية فتي السمات :

ـ كف عن ذلك ، كفى! فداس الضابط بقدمه على سيكارته ، وبصق ، ثمّ مضى الى ناحية الخيل .

سلّمه النقيب ورقة مكتوبة واسرّ في اذنه بشيء . فقفز الضابط ذو القامة المتينة الى حصانه في خفة غير متوقعة وأدار الحصان بشدة وانطلق هذباً ناحية الغرب .

أمّا القوزاق فقد أخلدوا الى صمت قلق . ثمّ تقدّم النقيب منهم وتساءل في صوت جهوري مرح :

ـ كم هي المسافة الى قرية فارفانسكي ؟

فأجابه عدة قوزاق في مزيج من الأصوات :

ـ خمسة وثلاثون فرستاً .

ـ عال! والآن ، أيها القوزاق ، اذهبوا واخبروا آمركم بأن على قوّات الخيّالة أن تعبر الى هذا الجانب دون أي تأخير ، وسيذهب أحد ضبّاطنا معكم الى المعبر ليتولّى قيادة الخيّالة . أمّا المشاة فباستطاعتهم أن يواصلوا التقدّم نحو كازانسكايا في مسيرة منتظمة . فاهمون ؟ حسن ، وكما نقول ، الى الوراء در ، عادة سر .

فمضى القوزاق ، جمهرة ، حدر التل ، وقطعوا زهاء مائتي خطوة في صمت ، وكأن بينهم اتفاقاً على ذلك . ثمّ هزّ قوزاقي أليف المظهر يرتدي معطفاً فلاحياً ، هو ذات الرجل الذي تلقّى محاضرة من الضابط المحتد ، رأسه ونفث نهدة نائحة وقال :

ـ اذن ، اتحدنا من جديد اذن ، أيها الأخوة... . فأجاب ثانٍ في الحال :
ـ فجل الخيل ليس أحلى طعماً من الفجل!
وقذف من فمه سباباً مقذعاً .

٦

ما أن بلغت فيشنسكايا الأنباء عن تراجع قوّات الحمر ، حتّى عبر غريغوري ميليخوف وكتيبتان من الخيّالة الدون بخيولهم ، وأرسلوا دوريّات قويّة ، وتحركوا جنوباً .

واقترب من غريغوري آمر على حصانه وقال بلهجة إعجاب :

ـ الكاديت لا يبخلون بالقذائف ، على ما يبدو ؟ ها هم يقيمون حاجزاً من النار .

فلبث غريغوري صامتاً . كانَ يمضي على حصانه في مقدّمة الطابور ، مجيلاً النظر فيما حوله باحتراس . وعلى امتداد ثلاثة فرستات من الدون الى قرية بازكي كانت آلاف العربات الخفيفة والشاحنات التي خلفها المتمردون وراءهم مبعثرة عن الطريق . وقد تناثرت الأمتعة في كل موضع من الغابة : صناديق محطّمة ، كراس ، ملابس ، عدة خيل ، أوعية مقال ، مكائن خياطة ، زكائب حبوب ، وجميع ما كان مالكوها قد خطفوه معهم من بيوتهم ، في حومة حرصهم وحدبهم عليه ، وحملوه قدر ماستطاعوا أثناء تراجعهم صوب الدون . وفي بعض المواضع ، كان الطريق مغطى بالقمح الذهبي الى علو ركبة ، وهنا وهناك ، اطرحت جثث الثيران والخيل ، منتفخة ، زنخة ، مشوهة على نحو مرعب من أثر التفسّخ .

فهتف غريغوري ، وقد أذهله مارأى :

ـ هكذا كانت رعايتكم لممتلكاتكم!

وخلع قبعته ، محاولاً أن يتنفس ، ومضى في حذر منعطفاً حول كومة

صغيرة من قمح عفن انطرحت فوقها جثة عجوز يرتدي طاقية قوزاقية وسترة ملطَخة بالدم . فقال أحد القوزاق متعاطفاً :

ـ ظل يحرس متاعه أطول مما ينبغي ، هذا العجوز! لا بد أنّ الشياطين وسوست له بالبقاء هنا .

ـ لم يشأ أن يترك قمحه وراءه...

فانبعثت صرخات غضبى من الصفوف الخلفية :

ـ هيّا ، ارحل بسرعة! رائحته منتنه جداً . هيّا ، تحرّكوا!

فانطلقت السرّية خبباً ، وانقطع الحديث شيئاً فشيئاً . ولم يعد يسمع في الغابة سوى قعقعة سنابك لاحصر لها وجلجلة عدة الخيل القوزاقية المحكمة .

كان القتال يدور ليس ببعيد عن ضيعة ليستنتسكي ، كان جنود من الجيش الأحمر يركضون في صفوف متراصة داخل واد خال من الماء نحو جانب من ياغودنويه . وكانت قنابل المنثار تتفجّر فوق رؤوسهم ، والمدافع الرشاشة تتعقّب ظهورهم ، وسيل من رجال كتيبة كالميكية يتدفقون على التل لقطع خط الرجعة عليهم .

وحينما وصل غريغوري مع كتيبته كانت المعركة قد انتهت . وكانت سريتا الجيش الأحمر ، العاملتان على تغطية انسحاب القوات المحطّمة وقوافل الأمتعة التابعة للفرقة الرابعة عشرة ، قد تلقّتا ضربة قاصمة من الكتيبة الكالميكية ، وقضى عليهما تماماً . وفي الأعالي المطلة على الوادي ، سلّم غريغوري القيادة الى يرماكوف قائلاً :

ـ لقد استطاعوا تدبير أمورهم بدوننا . اذهب أنت وأقم اتصالاً معهم ، أمّا أنا فسأعرج قليلاً على هذه الضيعة .

فتساءل يرماكوف مستغرباً :

ـ ولأي غرض ؟

ـ يصعب عليّ القول ، لكن الواقع هو أنني عملت هنا حينما كنت صبيّاً ، وثمّة شيء يجذبني اليها لإلقاء نظرة على الربوع القديمة...

ونادى غريغوري بروخور ، ثمّ انطلق صوب ياغودنويه . وكانا قد قطعا ربع فرسخ حينما التفت غريغوري الى الوراء فرأى غطاء أبيض يخفق في الريح في مقدمة السرايا ، وكان أحد القوزاق قد حرص على جلب هذا الغطاء معه .

فحدّث غريغوري نفسه قلقاً :

ـ يبدو وكأنهم ينوون الاستسلام! ـ ، وجعل يراقب الطابور ، وفي قلبه لهفة غامضة ، وهو ينحدر داخل الوادي ، ببطء يكاد يبلغ حد التردّد ، متجهاً صوب جماعة من خيّالة سكريتيف كانوا يتقدمون خبباً عبر المروج لملاقاته .

وحينما عبر غريغوري خلل بوابة الفناء المهدّمة ، استقبله جو من التأسي والنسيان . كان نبات رجل الأوزة يغطّي الفناء . ولم يعد في الامكان تمييز ياغودنويه . ففي كل موضع كانت عينه تقع على دلائل الإهمال والخراب الفظيعين ، وبدت الدار ، التي كانت رمزاً للأناقة ذات يوم ، قاتمة وكأنّها غاصت في أسسها . وعلى السقف غير المصبوغ فترة طويلة ظهرت رقع صفر من الصدأ ، وتدلّت من رفارف السطح مزاريب محطّمة ، واعوجّت درف النوافذ منحرفة عن محاورها ، وانسلّت الريح تصفر خلل الشبابيك المكسّرة ، بينما انبعثت من داخل الغرف تلك الرائحة الحريفة العفنة التي تفوح بها الأماكن المهجورة .

كانت زاوية الدار الشرقية ، والسقيفة معاً ، قد محتهما من الوجود قذيفة مدفع ذي ثلاث بوصات . وثمّة رأس شجرة غرب قصمته قذيفة عن أصله وقذفت به خلال نافذة المجاز «الفينيسية »* المهشّمة . فترك هناك حيث هو ، وقد دفن طرفه الغليظ تحت كومه من الطابوق المنتزع من الأسس . وعلى امتداد أغصانه الذاوية كانت كرمة برّية نشطة تتسلّق

* نسبة الى مدينة فينيسيا « البندقية » الإيطالية . المترجمون

وتلتف ، متخطّية بشكل عجيب ، لوحات الزجاج التي لم تزل سليمة ، حتّى بلغت طنف البناء .

كان الزمن والجو قد فعلا فعلهما . فقد تعفّنت بنايات الفناء وبدأت وكأنّها لم تمسّها يد بشرية منذ سنوات . وكان جدار الاسطبلات الحجري قد انهار وفتّته أمطار الربيع ، كما انتزعت عاصفة سقف منزل الحوذي ، ولم يبق هنا وهناك سوى حفنات من التبن الآخذ في التعفّن ، ملقاة على العوارض الخشبية الكالحة .

وعلى عتبة منزل الخدم اضطجعت ثلاثة كلاب بورزوية ، غدت الآن في غاية التوحّش . وحين وقع نظرها على كائنين بشريين قفزت واختفت داخل السقيفة ، مطلقة نباحاً غليظاً . فمضى غريغوري على حصانه الى النافذة المفتوحة على مصراعيها في جناح الخدم ،ومال بجسمه من على سرجه ، وهتف :

ـ هل من انسان حي هنا ؟

وتبع ذلك سكون مديد ، ولكن في النهاية رد صوت امرأة منهك :

انتظر لحظة ، اكراماً للمسيح! سأخرج بعد لحظة .

وخرجت الى العتبة لوكيريا التي دبّ فيها الكبر ، وهي تجرجر قدميها العاريتين . ووقفت تحدّق الى غريغوري ، مضيّقة عينيها اتقاء الشمس .

فتساءل غريغوري فيما كان يترجّل عن حصانه :

ـ ألا تعرفينني ، ياعمة لوكيريا ؟

وحينذاك فقط سرت اختلاجة في وجه لوكيريا المجدور ، وزال عنه مظهر اللامبالاة ليحل محلّه سيماء الانفعال العنيف . وماعتمت أن انفجرت بالدموع ، ومضت فترة طويلة دون أن تستطيع أن تنبس ببنت شفة . فربط غريغوري حصانه ، ولبث ينتظر متصابراً . ثمّ شرعت لوكيريا تندب ، ماسحة خدّيها بوزرة وسخة من الخيش :

ـ المصائب التي عانيتها! عسى الله ألا يرينيها ثانية! حسبت في البدء

أنهم ، هم ، قد عادوا ثانية... آه ياغريشا ، ياللأمور التي حصلت هنا . لن تصدّق! انني الوحيدة التي بقيت حية...

ـ ولكن أين الجد ساشكا ؟ هل تراجع مع السادة ؟

ـ لوفعل ذلك ، لكان حياً حتّى يومنا هذا... .

ـ لعله لم يمت ، ها ؟

ـ قتلوه . إنه ممدّد في القبو منذ ثلاثة أيام . يجب أن يدفن ، لكنني مريضة... . كدت لاأستطيع القيام للرد عليك... وأنا أخاف حتّى الموت من الذهاب اليه ، الى جثة...

فتساءل غريغوري بصوت غليظ دون أن يرفع عينيه من الأرض :

ـ ولماذا فعلوا ذلك به ؟

ـ بسبب الفرس... . كان السادة قد غادروا الضيعة على عجل ، ولم يأخذوا معهم سوى نقودهم ، وخلفوا وراءهم معي جميع مايملكون تقريباً .

وانخفض صوت لوكيريا حتّى غدا همساً :

ـ حافظت على كل شيء ، على كل شيء مهما كان صغيراً . ولايزال مدفوناً الى يومنا هذا . ولم يأخذوا معهم من الخيل سوى ثلاثة جياد « أورلوفية » وتركوا الباقي في عهدة الجد ساشكا . وحينما بدأت الإنتفاضة ، اشترك القوزاق والحمر في أخذ الخيل ، فالجواد الأدهم « زوبعة » ـ أظنّك تذكره ؟ ـ أخذه الحمر في الربيع . لقد عانوا مشقّة في محاولة وضع السرج عليه . فأنت تعلم بأنّه لن يرضخ لأيما سرج . المهم ، أنهم لم يستطيعوا الإنتفاع به . فقد وصل هنا بضعة قوزاق من كاركينسكايا بعد مضي اسبوع وأخبرونا بما حصل . فعلى التل ، التقوا بالحمر وشرعوا بإطلاق النار عليهم . وكان لدى القوزاق فرس صغيرة حمقاء وفي تلك اللحظة تماماً جعلت تصهل . فانطلق « زوبعة » كالنار الهائجة صوب الفرس ، ولم يستطع الرجل الذي كان يمتطيه أن يوقفه بأية حال ، ولمّا رأى أنه غير قادر على إيقاف الجواد ، حاول أن يقفز عنه وهو منطلق بسرعة . فقفز بالفعل ، ولكن

قدمه علقت بالركاب ، وهكذا سحبه« زوبعة » الى أن أبلغه أيدي القوزاق .

فهتف بروخور متحمّساً :

ـ عمل بديع!

ثمّ استأنفت لوكيريا قصّتها بلا توقّف :

ـ ويمتطي الجواد الآن حامل علم من كاركينسكايا . وقد وعدني بأنّه حالما يعود السيد فإنّه سيعيد« زوبعة » الى الاسطبل .اذن ، فقد أخذوا جميع الخيل ، ولم يتركوا سوى الفرس الخبابة« سهم » . كان في بطنها مهر ، ولهذا لم يمسسها أحد . وقد ولدت المهر مؤخراً ، فأبدى ساشكا العجوز عناية بالمهر الصغير ، وأية عناية ، إنك لن تصدّق! كان يحمله بذراعيه هنا وهناك ويسقيه اللبن وبعض العقاقير النباتية بواسطة قرن بغية تقويته في الوقوف على سيقانه . ثمّ نزلت المصيبة على رؤوسنا! قبل ثلاثة أيام جاءنا ثلاثة رجال على خيولهم في أواخر النهار ، كان ساشكا يحش العشب في البستان ، فصاحوا عليه :

ـ تعال هنا ، يا ابن الكذا والكيت!

فألقى بمنجله أرضاً ، ومضى اليهم وحيّاهم :

ـ طاب يومكم .

لكنهم ماكانوا ليأبهوا له ، بل جعلوا يشربون اللبن ، وسألوه :

ـ هل لديكم خيل ؟

فقال لهم :

ـ لدينا واحدة ، ولكنّها لا تصلح لعملياتكم العسكرية . إنها فرس ، وهي ترضع مهراً! فصرخ أكثر الثلاثة شراسة :

ـ ليس هذا من شأنك! اجلب الفرس هنا ، أيها الشيطان العجوز! لقد تقرّح ظهر فرسي ، ولابد لي من استبدالها .

كان على ساشكا أن يرضخ ، لا أن يعاند بسبب الفرس ، لكنك تعرف أي عجوز غريب كان هو... كان يحدث في كثير من الأحيان أن السيد نفسه

لايقدر على إيقاف لسانه عند حده . وأظن أنّك تذكر ذلك .

فتدخّل بروخور في القصة :

ـ واذن ، فهو لم يسلّم الفرس لهم ؟

ـ كيف يستطيع أن يوافق على تسليمها لهم ؟ لم يزد على أن قال لهم :

ـ قبل أن تأتوا ، جاءنا لاأدري كم من الفرسان وأخذوا خيلنا ، ولكنّهم جميعاً أشفقوا على هذه . اذن ، فلماذا تقومون أنتم ؟

وكان هذا ما أجج غضبهم فصرخوا به :

ـ أنت ، يالاعق البصاق ، أنت تحاول أن تحتفظ بها من أجل سيدك .

اه ، ثمَ جرّوه... وساق أحدهم الفرس الى الخارج وبدأ يسرجها ، فاندس المهر تحتها ليرضع من ضرعها . فجعل ساشكا يستعطفهم :

ـ ابقوا في قلوبكم رحمة! لاتأخذوها! ماذا سيكون مصير المهر ؟

فأجابه أحدهم :

ـ سأريك ذلك!

وانتزع المهر من أمّه ، ثمّ انزل بندقيته من على كتفه ، واطلق النار عليه . فانفجرت دموعي... ركضت إليهم وتوسّلت ، وأمسكت بساشكا محاولة أن اثنيه عن الدخول في مشاكل معهم ، ولكن حينما نظر الى المهر بدأت لحيته الصغيرة ترتعش ، واستحال لونه أبيض كالحائط وقال :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فأطلق النار عليَ أيضاً ، يا ابن القحبة!

واندفع نحوهم وأمسك بهم كي لا يدعهم يسرجون الفرس .

فاجتاحهم الغضب وقتلوه في الحال . وأوشكت أنا على الجنون حينما أطلقوا النار عليه... والآن ، لاأستطيع أن أرى ماباستطاعتي أن أفعل به . يجب أن يعد له نعش ، ولكن هل هذا من عمل النساء ؟

فقال غريغوري :

ـ اجلبي لنا مجرفتين وقطعة من الخيش .

فتساءل بروخور مستفهماً :

ـ هل تفكّر بدفنه ؟

ـ نعم .

ـ فكرة بديعة أن تأخذ هذا العمل على عاتقك ، ياغريغوري بانتلافتش! اسمح لي أن اذهب واستدعي بعض القوزاق في الحال . هم سيصنعون له نعشاً ويحفرون قبراً لائقاً...

وكان واضحاً أن بروخور لم يكن راغباً في تحمّل مشقة دفن عجوز مجهول ، بيد أن غريغوري رفض اقتراحه بإصرار :

ـ سنقوم نحن بحفر القبر ودفنه . كان ساشكا انساناً طيباً . اذهب الى البستان وانتظرني بجانب البحيرة بينما أذهب أنا لألقي نظرة عليه .

تحت شجرة الحور ذاتها ، بجذورها المنتشرة على الأرض ، الى جانب البركة المقصوصبة حيث قام ساشكا ذات مرة بدفن ابنة غريغوري واكسينيا الصغيرة ، لقى العجوز مهجعه الأخير . لفعا جسده الذاوي بغطاء نظيف كان يستعمل لتغطية الخميرة وتنبعث منه رائحة الكروم ، وأنزلاه في القبر ، وأهالا عليه التراب حتى ملآه . والى جانب قبر الطفلة قام قبر آخر ، ديس ترابه في عناية بجزم قوزاقية ، وهو يتألّق جذلاً بطينته المبللة الجديدة .

تمدّد غريغوري على العشب ليس ببعيد عن هذه المقبرة العزيزة الى فؤاده ، وقد خدرته الذكريات ، ولبث يحدّق طويلاً في الامتداد المهيب للسماء الزرقاء من فوقه . كانت الرياح تجوب في مكان ما في ذرى ذلك الفضاء اللامتناهي ، والغمائم الباردة تطفو على نور الشمس الألق . أمّا في الأرض ، التي ضمّت اليها توّاً ساشكا ، ذلك السائس السكير المرح ، فلا زالت الحياة تضطرم ، غضبى أبداً . ومن السهب الذي تزاحف ، مثل طوفان من الخضرة ، حتّى حافة البستان تماماً ، وفي تشابك الكتّان البرّى المنعقد حول حوافي ساحة درس الحبوب العتيقة ، كان في مستطاع غريغوري أن يستمع الى صياح طيور السمان ، النابض المتواصل ، وكانت السوالق ترسل صفيرها ، والنحل الزفاف يبعث طنينه ، والعشب يخشخش تحت مداعبات

الريح ، والقبّرات تنشد أغانيها في غمرة نور الغروب... ولتأكيد مكانة الانسان في الطبيعة ، كانت تنبعث من مكان ما من الوادي ، بعيد ، تمتمة غضبى متواصلة لمدفع رشّاش .

٧

استقبل الجنرال سكريتيف لدى وصوله فيشنسكايا ، بصحبه ضبّاط هيئة أركانه وسرية من القوزاق لحمايته الشخصية ، استقبالاً ترحيبيّاً بالخبز والملح ، وبقرع أجراس الكنيستين . وقد ظلّت أجراس كلتا الكنيستين تقرع طيلة اليوم ، وكأن اليوم عيد الفصح ، وراح قوزاق من الدون الأسفل يقطعون الشوارع على خيولهم« الدونية » النحيلة وقد ضمرت أجسامها جراء المسيرات الطويلة ، وظهرت فوق اكتافهم الشارات الزرق ، في تحدّ ظاهر ، وفي الساحة الكائنة بالقرب من بيت التاجر الذي اتخذه الجنرال مقراً له وقف جماعة من المراسلين يمضغون بذور عبّاد الشمس ويتجاذبون أطراف الحديث مع فتيات القرية اللواتي ارتدين أفضل حللهن .

وعند انتصاف النهار ، جاء ثلاثة فرسان كالميكيين الى مقر هيئة الأركان بحوالي خمسة عشر أسيراً من جنود الجيش الأحمر . وجاءت خلفهم عربة يجرّها حصانان ، محمّلة بالات موسيقية . كان جنود الجيش الأحمر يرتدون بزّات غير مألوفة تتألّف من بنطلونات رمادية فضفاضة وقمصلات ذوات شرائط حمر عند الأكمام . فمضى أحد الحراس الكالميكيين ، وكان متقدّماً في العمر ، نحو المراسلين المتجمهرين عند البوابة ، ودس غليونه الطيني في جيبه وقال :

ـ لقد جاء رجالنا بعازفي الأبواق الحمر . فاهمون ؟

فرد مراسل شحيم الوجه بلهجة كسول ، باصقاً بذور عبّاد الشمس على جزمة الكالميكي المغبرة :

ـ ثمّ ماذا ؟

ـ خذهم الى الداخل . أنت تتفوّه بكلام أخرق من رأسك الشحيم .

فانتهره المراسل مستاء :

ـ مهلاً ، مهلاً . كف عن ذلك ، ياذيل الخروف!

لكنّه مضى الى الداخل ليعلن وصول الأسرى . ثمّ ظهر من البوابة ضابط برتبة نقيب ، بدين ، بادي الترهّل ، يرتدي «بشمتاً» بني اللون ضيقاً عند الخصر . فوقف مباعداً مابين ساقيه ومتخذاً هيئة مسرحية ، وجال عينيه على مجموعة الجنود الحمر . ثمّ أرعد مزمجراً :

ـ اذن كنتم تطربون أسماع القوميسارية بالموسيقى ، أليس كذلك ، ياكشكول تامبوف ؟! من أين حصلتم على بزاتكم الرمادية هذه ؟ انتزعتموها من الألمان ؟

فأجاب جندي أحمر واقف في مقدمة جماعته ، وعيناه ترمشان بسرعة :

ـ لا ، أبداً .

ثمّ أوضح الأمر متعجلاً :

ـ جوقنا أعطي هذه البزّة في عهد كيرنسكي ، قبل هجوم حزيران . ونحن نرتديها منذ ذلك الوقت...

ـ ستظلّون ترتدونها! سأحرص على أن ترتدوها في المستقبل!

ودفع النقيب طاقيته الكوبانية المفلطحة الى مؤخرة رأسه كاشفاً عن ندبة ارجوانية اللون ، فجة ، في رأسه الحليق ، واستدار نحو الحارس الكالميكي :

ـ ولماذا جئتم بهم الى هنا ، أيها الخنازير الكفرة ؟! لماذا ، بحق ابليس ، لم تقضوا عليهم في الطريق ؟

فشد الكالميكي نفسه ، على نحو لا يشعر به أحد ، وصفّ كعبيه معاً ، وأجاب ويده مسمّرة على ذروة طاقيته :

ـ آمر السرية أوعز الينا بسوقهم الى هنا .

فعقب الضابط المتأنق مقلّداً الكاليمكي ، ولاوياً شفتيه استخفافاً :

أوعز الينا بسوقهم الى هنا . ثمّ خطا ، وعجزه الثقيل يهتز ، ليتفحّص الأسرى . ولبث يتفحصهم فترة طويلة ، كما يتفحّص بائع خيل حصاناً .

وأطلق المراسلون قهقهات مكتومة ، في حين حافظت وجوه الحرس الكاليمكي على جمودها المعتاد .

ثمّ أصدر النقيب أمره :

ـ افتحوا البوابات . ادفعوهم الى داخل الفناء .

فأدخل الجنود الحمر والعربة ، بكومة الآلات الموسيقية المبعثرة عليها ، ثمّ توقّفوا عند السقيفة . وتساءل النقيب مشعلاً سيكارة لنفسه :

ـ من هو قائد الجوق ؟

فردّت عليه أصوات معاً :

ـ ليس لدينا قائد .

ـ أين هو ؟ هل هرب ؟

ـ كلا ، بل قتل .

ـ نعم المصير . ستدبرون حالكم بدونه . والآن ، استعدّوا بآلاتكم .

فمضى الجنود الحمر الى العربة . وبدأت تنبعث ، في تهيّب ، أصوات الأبواق النحاسية في أرجاء الفناء مختلطة بقرع أجراس الكنيستين المتواصل .

ـ مستعدّون ؟ اعزفوا « حفظ الله القيصر » .

فجعل أعضاء الجوق ينظر أحدهم الى الآخر في صمت . ولم يعزف أحد منهم . وخيّم صمت ثقيل برهة ، ثمّ نطق أحدهم ، وكان حافي القدمين ، لكنّ ساقيه كانتا ملفوفتين بلفاف ، وقال وعيناه تحدقان في الأرض :

ـ لا أحد بيننا يعرف السلام القيصري القديم...

ـ لا أحد بينكم ؟ رائع جداً ، فعلاً... يا أنتم ، يا مراسلون ، شكّلوا نصف فصيل من بينكم ، مع البنادق!

وأخذ النقيب يحسب الوقت بإيقاع طرف جزمته . واصطف المراسلون في المجاز ، مقعقعين بنادقهم . ومن داخل شجيرات الأكاسيا الكثيفة بجانب السياج ، انبعثت سقسقة سنونو . وكان الفناء مختنقاً برائحة السقوف الحديدية الساخنة والعرق البشري الحريف . وحينما تراجع النقيب إلى ناحية الظل ، ألقى الموسيقي الحافي نظرة يانسة على رفاقه ، ثم قال بهدوء :

ـ يا صاحب السعادة! نحن جميعاً عازفون ناشئون . ولم يحدث أن عزفنا الموسيقى القديمة... . كانت ، في الأغلب ، موسيقى مسير ثورية ، ياصاحب السعادة!

فعبث اصبع النقيب بطرف سير سيفه ، ساهياً ، ولم يجب . أما نصف الفصيل فقد لبث مصطفاً خارج السقيفة ، ينتظر الأوامر . ثم شرع أحد العازفين ، وكان رجلاً كهلاً ذا عين جاحظة ، يشق طريقه إلى جماعته ، وسأل وهو يتنحنح :

ـ هل تسمح لي ؟ أنا أستطيع عزفه .

ومن غير أن ينتظر السماح ، وضع نايه الكالح من أثر الشمس على شفتيه المرتعشتين .

وعملت النبرات النائحة النادبة التي ارتفعت ، منفردة ، فوق فناء بيت التاجر الفسيح ، على استجلاب العبوس الغاضب ، إلى جبهة النقيب فصاح ملوحاً بذراعه ضجراً :

ـ اخرس! أوقف نواح الشحاذين هذا... . أهذا ماتسميه موسيقى ؟

وأطلت من النوافذ وجوه ضباط الأركان والمساعدين يعلوها الابتسام . وهتف ملازم ، مرحاً ، وهو يميل بجسمه على حافة الشباك :

ـ اجعلهم يعزفون موسيقى جنائزية مثيرة . وفي تلك الأثناء توقف قرع نواقيس الكنيسة برهة من الزمن ، فتساءل النقيب وهو يعقد حاجبيه ، في لهجة خطيرة :

ـ على أية حال ، آمل أن يكون في مقدوركم عزف النشيد الأممي ؟ هيا ، لاتخشو شيئاً! هيا ، لقد أصدرت أمري إليكم!

وفي السكون الذي خيم على الفناء ، وتحت وطأة قيظ الظهيرة الخانق ، انطلقت من الأبواق فجأة نفخات النشيد الأممي المتحدية ، في انسجام مهيب ، وكأنها نداء يدعو إلى الوغى .

ولبث النقيب واقفاً ، مباعداً بين قدميه ، ومدلياً رأسه كما يفعل الثور حين يقف بحذاء جدار . وماانفك واقفاً يتسمع ، بينما اصطبغت بالدم رقبته الغليظة وبياضا عينيه نصف المغمضتين المائلتين إلى الزرقة .

كان الأمر فوق احتماله ، فأطلق زئيراً مخبولاً :قفوا!

فتوقف الجوق معاً ، سوى بوق فرنسي تأخر لحظة ، فبقيت نغمته العاطفية المخنوقة عالقة ، بعض الوقت ، في الهواء الخانق .

لعق العازفون شفاههم الجافة ، ومسحوها بأكمامهم وراحاتهم الوسخة . كانت وجوههم تعبة منهكة . وكان ثمة خد مصفر بان عليه أثر الدمعة .

وفي تلك الأثناء ، كان الجنرال سيكريتيف قد تناول طعامه مع عائلة ضابط زميل له ممن خدموا معه في الحرب الروسية ـ اليابانية ، فخرج إلى الساحة مترنحاً ، يسنده مساعده الثمل . وعند الزاوية المقابلة لبناية المدرسة الثانوية ، تعثر الجنرال ، موهن القوى ، وقد استخفته الحرارة والفودكا ، ثم هوى على وجهه فوق الرمل اللاهب . فحاول المساعد ، باضطراب ، أن يرفعه ، إلا أن ذلك كان بلا جدوى .وجاء العون من الجمع الذي كان يقف على مبعدة . فتقدم قوزاقيان كهلان ، ورفعا الجنرال من ذراعيه بمنتهى الاحترام ، واستؤنف سير الجنرال ليظهر ، على الملأ ، أنه على خير مايرام . بيد أنه حاول ، في الفترات التي كانت تتخلل نوبات قيئه ، أن يهتف بشيء ، وجعل يهز قبضتيه متوعداً في حركة عسكرية . وأخيراً ، أُقنع ، على نحو ما ، أن يعتكف في مقره .

أما القوزاق الذين كانوا واقفين على مبعدة ، فقد شهدوا ترنحه في نظرات مستطيلة ، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم :

ـ هوهو! صاحب سعادتنا منتش! لايستطيع السيطرة على نفسه ، رغم أنه جنرال!

ـ الخمور المنزلية لاتستشعر أي احترام تجاه الرتب العالية ، ها ؟

ـ أي نعم . لم تكن هناك حاجة لشرب كل مايوضع على المائدة .

ـ ولكن ، ليس بمقدور كل رجل أن يقاوم الإغراء ، أيها الأخ . فكم من رجل سكر سكرة معيبة ثم أقسم ألا يشرب ثانية ، أبداً . كل خنزير يستطيع أن يعد بعدم الأكل حينما لايوجد طعام أمامه .

ـ نعم ، هذا صحيح تقريباً . ولكن ، هلا صرخت بالفتية أن يبتعدوا عنه . مابالهم يحدقون فيه هكذا ، ياللأوباش ، وكأنهم لم يروا سكيراً في حياتهم من قبل .

ظلت نواقيس الكنيستين تقرع والفودكا تشرب في فيشنسكايا حتى حلول الظلام . وفي المساء أقامت قيادة المتمردين مأدبة على شرف القادمين الجدد ، وذلك في الدار التي خصصت لطعام الضباط .

كان سكريتيف ذو القامة المديدة القوية ، القوزاقي ابن القوزاقي ، ابن إحدى قرى منطقة كراسنوكوتسك ، شغوفاً جداً بركرب الخيل . كان راكباً ممتازاً ، وجنرالاً خيالاً مقداماً . ولكنه لم يكن خطيباً مفوهاً قط . ولهذا كانت الخطبة التي ألقاها في المأدبة مليئة بالتفاخر المخمور ، كما أنها تضمنت لوماً وتهديداً صريحين موجهين إلى قوزاق الدون الأعلى .

استمع غريغوري الذي كان حاضراً في المأدبة ، إلى كلمات سكريتيف في غضب وتوتر . كان الجنرال واقفاً وقد أسند أصابعه إلى المائدة ـ إذ لم يكن قد صحا من سكرته تماماً ـ والخمرة المنزلية العطرة تترشرش من كأسه ، وهو يشدد ، بلا داع ، على كل عبارة يتفوه بها .

ـ ... كلا ، ليس علينا ، نحن ، أن نشكركم على المساعدة ، ولكن

عليكم أنتم أن تشكرونا ، أنتم ، وأنتم فقط . ويجب أن يقال هذا بوضوح . فبدوننا ، كان الحمر سيبيدونكم . أنتم تعرفون ذلك جيداً . أما نحن ، فقد كان بمستطاعنا أن نسحق تلك الحثالة بدونكم . وها نحن الآن نقوم بسحقهم ، وسنستمر في سحقهم احفظوا هذا في أذهانكم ـ حتى نكون قد طهرنا روسيا بأكملها . لقد تخليتم عن الجبهة في الخريف . سمحتم للبلاشفة أن يدخلوا أرض القوزاق . أردتم أن تعيشوا معهم بسلام ، لكنكم لم تستطيعوا! ولهذا انتفضتم لإنقاذ أملاككم وأرواحكم . أقولها صريحة ، إنكم خفتم على أنفسكم وعلى جلود مواشيكم . إنني أستعيد الماضي لا لألومكم على خطاياكم . لا أقول هذا لجرح شعوركم . إذ أن إقرار الحقائق لايؤذي . لقد غفرنا لكم خيانتكم . فقد جئناكم ، كأخوة ، في وقت شدتكم ، جئنا لمساعدتكم . لكن ماضيكم المخجل يجب أن تكفروا عنه في المستقبل . أتفهمون أيها السادة ؟ يجب أن تكفروا عنه بمآثركم وبخدمتكم الخالصة لنهرنا الرحيم ، الدون ، أتفهمون!

فقال ضابط قوزاقي كهل برتبة عقيد ، جالس قبالة غريغوري ، دون أن يوجه كلامه إلى أحد على وجه الخصوص وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تلحظ :

ـ حسن ، لنشرب نخب التكفير!

وبدون أن ينتظر استجابة من الآخرين ، كان أول من شرب النخب ، وكان ذا وجه رجولي مجدور قليلاً ، وعينين ساخرتين بلون بني غامق . وخلال خطبة سكريتيف ، التوت شفتاه ، أكثر من مرة ، في ابتسامة مبهمة خفية ، ثم غامت عيناه وبدتا حالكتي السواد . ولاحظ غريغوري ، بينما كان يراقب هذا الضابط أنه كان يتصرف مع سكريتيف بلا رسميات ، بينما كانت علاقاته مع الضباط الآخرين تتسم بالبرود والتحفظ . وكان الوحيد الذي يحمل شارات كتف خالية مخاطة على قمصلته الخاكية وشرائط كورنيلوف على كميه . فحدث غريغوري نفسه :

ـ «لابد أنه رجل ذو مبادئ عليا! ربما ، متطوع!»

وكان الضابط القوزاقي يعب الشراب كحصان . ولم يكن يأكل شيئاً ، إلا أنه لم يثمل رغم ذلك ، وكل ما في الأمر أنه كان يرخي نطاقه البريطاني العريض من حين لآخر .

فهمس غريغوري لبوكاتيريوف الذي كان جالساً إلى جانبه :

ـ من هو هذا الذي يجلس قبالتي... الرجل المجدور ؟

فرد بوكاتيريوف بدون تفكير ،وكان قد قطع شوطاً بعيداً نحو السكر :

ـ الشيطان يدري!

لم يكن كودينوف ليبخل بالفودكا على ضيوفه . وسرعان ماظهرت على المائدة مشروبات روحية صرف . أما سكريتيف ، الذي واجه مشقة في اختتام خطبته ، فقد فتح سترته الخاكية وهوى بشدة على كرسيه ذي المسندين . فمال عليه آمر سرية شاب ، له وجه مغولي السمات ، وهمس في أذنه شيئاً .

فأجابه سكريتيف ، ولون وجهه يزرق :

ـ اذهب الى الشيطان . وأطاح بكأس الشراب الذي كان كودينوف قد صبه له تكرماً .

وعاد غريغوري يسأل بوكاتيريوف :

ـ ومن هو هذا ، ذو العينين المائلتين ؟ مساعد ؟

فرد رفيقه ، وهو يغطي فمه براحته :

ـ كلا . إنه ابن سكريتيف بالتبني ، جاء به صبياً من منشوريا أثناء الحرب مع اليابان . فأنشأه وأرسله إلى مدرسة عسكرية من مدارس الكاديت وأبدع الصبي أيما ابداع . إنه محارب جسور . أمين ، استولى على صناديق خزينة الحمر بالقرب من ماكييفسكايا . وضع يده على مليونين من الأوراق المالية . أنظر ، باستطاعتك أن ترى رزم الأوراق المالية بارزة من جميع جيوبه ، الشيطان أصاب حظاً سعيداً! خزينة بكاملها! ولكن ، فيم تراك تجيل النظر حواليك ؟ اشرب ، اشرب!

وألقى كودينوف خطبة جوابية لم يكد ينصت إليها أحد .

كانت الحفلة قد اشتد ضجيجها شيئاً فشيئاً ، وخلع سكريتيف سترته ، وجلس بقميصه الداخلي ، وتألق رأسه الحليق بحبات العرق ، وكشف قميصه الكتاني الناصع عن وجهه الأرجواني ورقبته التي لفحتها الشمس فكاد لونها يستحيل بلون الزيتون . وأسر كودينوف في أذنه بشيء ، بيد أنه أجاب باصرار ومن غير أن ينظر اليه :

ـ لا . اسمح لي! عليك أن تسمح لي! نحن نثق بكم ، ولكن إلى حد... لن يكون بالمستطاع نسيان خيانتكم بسرعة . فلينقش هذا في ذاكرتهم جميع الذين تعاونوا مع الحمر في فصل الخريف .

فحدث غريغوري نفسه في حنق مكظوم : «حسن ، وسنكون نحن كذلك . لن نخدمكم إلا إلى حد... .» ثم قام على قدميه .

وخرج إلى السقيفة دون أن يعتمر قبعته ، وملأ رئتيه بهواء الليل المنعش مستشعراً نشوة وراحة لذلك .

إلى جانب الدون ، كانت الضفادع تنق ، وخنافس الماء ترسل طنيناً كئيباً ، كما هي العادة قبل هطول المطر . وعلى لسان رملي ممتد في الماء ، كانت طيور الشنقب ينادي بعضها بعضاً في حزن ، وثمة في موضع بعيد خلل عيدان القصب النابتة على جانب النهر ، كان مهر قد تاه من أمه يصهل في شهقات طويلة رفيعة النبرات .

مضى غريغوري نازلاً الدرجات ، وهو يتلمس طريقه صوب البوابة الصغيرة ويحدث نفسه :

ـ هي الحاجة المريرة التي جمعتنا معاً ، وإلا فما كنا لنرغب حتى في شم رائحتكم . ياللخنزير اللعين! إنه ينتفخ مثل قطعة من خبز الزنجبيل ويوجه اللوم لنا ، ولن يمضي أسبوع حتى يبدأ بالدوس على أعناقنا... لقد جرى ما جرى... كل شيء كما توقعته أنا... كان حتماً أن يكون كذلك . لكن القوزاق ، الآن ، سيشمخون بأنوفهم . لقد تخلصوا من عادة تأدية التحية والوقوف وقفة استعداد أمام اصحاب السعادة أولاء .

كانت الكحول قد فعلت فعلها به هو الآخر ، فأمسى رأسه يسبح ، واتسمت حركاته بالثقل والتردد ، وبينما كان يجتاز البوابة الصغيرة أصابه ترنح ، فخبط قبعته على رأسه ، ثم مضى حدر الشارع مجرجراً قدميه .

وحينما بلغ الدار الصغيرة العائدة لخانة أكسينيا ، توقف لحظة متردداً ، ثم خطا ، في ثبات وعزم نحو الباب . كان الباب الداخلي المؤدي الى السقيفة غير مزلج . فمضى داخلاً إلى غرفة ضيوف دون أن يطرق الباب . فإذا به وجهاً لوجه مع ستيبان استاخوف جالساً إلى المائدة ، وكانت خالة أكسينيا مشغولة عند الموقد ، والمائدة مغطاة بغطاء نظيف ، وعليها قنينة من الفودكا المنزلية مازالت فيها بقية ، وصحن احتوى على بضع قطع من سمك مجفف وردي اللون .

كان ستيبان قد أفرغ قدحه تواً ، وهم أن يأكل شيئاً ، لكنه حينما رأى غريغوري ، نحى صحنه جانباً ومال إلى الخلف على الحائط . وعلى الرغم من حالة غريغوري المخمورة ، فإنه لاحظ وجه ستيبان يستحيل شاحباً شحوب الموتى ورأى عينيه تتقدان شرراً كعيني ذئب . لكن غريغوري ، رغم انعقاد لسانه لهذا اللقاء المفاجئ ، استطاع أن يجد في نفسه القوة لأن يقول بصوت أجش :

ـ هنيئاً مريئاً!

فأجابت ربة الدار مذهولة :

ـ سبحانك يا رب! ـ وهي مدركة ، من غير ما ريب ، علاقة غريغوري بابنة أختها ، ومتوجسة شراً من هذا اللقاء الطارئ بين الزوجة والعشيق .

جعل ستيبان يمسد عذاريه بيده اليسرى ، صامتاً ، وعيناه اللاهبتان مسمرتان على غريغوري .

إلا أن غريغوري ، الذي كان لايزال واقفاً عند العتبة مباعداً مابين قدميه ، تبسم ابتسامة شوهاء وقال :

ـ حسن ، اردت أن أراكم... . أعذروني .

لم يجب ستيبان ، واستمر الصمت المتوتر إلى أن استجمعت ربة الدار شجاعتها لتدعو غريغوري إلى الدخول قائلة :

ـ أدخل واجلس!

لم يعد لدى غريغوري ما يخفيه ، بعد . لقد أبان مجيئه إلى بيت أكسينيا ما فيه الكفاية لستيبان . فمضى قدماً نحو النقطة الحاسمة :

ـ ولكن ، أين هي زوجتك ؟

فتساءل ستيبان بصوت خفيض ، إنما واضح :

ـ أنت... جئت لتراها ؟ وأسبل أهدابه المرتعشة فوق عينيه .

فأجاب غريغوري مقراً ، وهو يطلق نهدة :

ـ نعم ، هذا صحيح!

كان مستعداً لأيما شيء في تلك اللحظة ، وإذ بدا يستعيد صحوه أعد نفسه للدفاع ، بيد أن ستيبان فتح عينيه نصف فتحة فإذا بلهيبهما السابق الذي ذوى ، وقال :

ـ أرسلتها في طلب شيء من الفودكا . ستعود بعد قليل . اجلس وانتظرها .

حتى أنه قام ، بقامته الطويلة المتناسقة ، ودفع كرسياً باتجاه غريغوري ، ومن غير أن ينظر إلى ربة المنزل ، قال لها :

ـ خالتي ، اجلبي لنا قدحاً نظيفاً! وتوجه بالكلام إلى غريغوري : ـ ستشرب قدحاً معي ، أليس كذلك ؟

ـ قدحاً واحدا فقط!

ـ حسن ، اجلس!

فجلس غريغوري إلى المائدة . وصب ستيبان بقية الفودكا نصفين متساويين في القدحين ، ثم رفع عينيه المضببتين على نحو غريب إلى غريغوري :

ـ نخب الجميع!

ـ وصحتهم!

وقرعا قدحيهما معاً . وشربا . ولم ينبسا بشيء وناولت ربة البيت ، النشطة كالفأر ، الضيف صحناً وشوكة ذات مقبض متآكل ، قائلة :

ـ كل شيئاً من السمك . إنه ليس شديد الملوحة .

ـ شكراً .

واستحثته المرأة ، وكان السرور قد ملأها آنئذ :

ـ هيا . ضع شيئاً منه في الصحن واستمتع به .

وكانت فرحة إلى أقصى حد ، لأن الأمور سارت على مايرام دون عراك أو تحطيم للأواني الفخارية ، أو صراخ .

كما أن تبادل العبارات المنذرة بالويل كان قد توقف . وهاهو الزوج يجلس في صفاء إلى مائدة واحدة مع عشيق زوجته ، وهما الآن يتبادلان الطعام بهدوء ، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر . وأخرجت ربة البيت الحصيفة من الصندوق منشفة نظيفة ووضعت طرفيها على ركبهما ، جامعة بينهما بشكل ما .

ثم تساءل غريغوري ، وعيناه تتأملان السمكة :

ـ لماذا لست مع سريتك ؟

فرد ستيبان بعد فترة وجيزة :

ـ جئت زائراً أيضاً .

وكان من المستحيل تماماً أن يستشف المرء من لهجته ما إذا كان جاداً أم ساخراً .

ـ يخيل إليّ أن السرية بكاملها عادت إلى القرية .

ـ إنهم يمتعون أنفسهم في القرية . حسن ، هل ستفرغ قدحينا ؟

ـ لابأس .

ـ نخب صحتك!

ـ بكل خير!

ومن السقيفة انبعثت قعقعة سقاطة الباب . استرق غريغوري ، وقد صحا

الآن تماماً ، نظرة إلى ستيبان من تحت حاجبيه فلاحظ موجة من الاصفرار تكتسح وجهه .

دخلت أكسينيا ، ملفعة الرأس بعصابة مطرزة . ومن غير أن تلحظ غريغوري ، تقدمت من الطاولة ثم نظرت إليه من طرف عينها . فانبجس الرعب في عينيها السوداوين المائلتين ، وتلاحقت أنفاسها ، ثم جاهدت حتى استطاعت أن تقول :

ـ مرحباً ، غريغوري بانتلايفتش!

وبدأت يدا ستيبان الكبيرتان المعقدتان ترتعشان حيث هما على المائدة . فانحنى غريغوري لأكسينيا دون أن ينبس بكلمة .

وضعت قنينتين من الفودكا المنزلية على المائدة ، وعادت فألقت نظرة أخرى على غريغوري مشحونة بالقلق والفرح المكتوم ، ثم استدارت وانزوت في ركن الغرفة المظلم ، واقتعدت الصندوق ، وجعلت تسوي شعرها بيدين راعشتين . أما ستيبان ، الذي كان يستعيد سيطرته على انفعاله ، فقد فتح زر ياقة قميصه التي بدت وكأنها تخنقه ، وملأ القدحين حتى حافتيهما ، والتفت إلى زوجته قائلاً :

ـ خذي قدحا واجلسي إلى المائدة .

ـ لا أريد .

ـ تعالي واجلسي هنا!

ـ لكنني لا أشرب الفودكا يا ستيبان .

فقال ستيبان راعش الصوت :

ـ كم مرة يجب عليّ أن أعيد كلامي لك ،

وهنا ابتسم غريغوري مشجعاً ، وقال :

ـ اجلسي يا جارتنا .

فأرسلت إليه نظرة متوسلة ومرقت إلى الدولاب . وأسقطت صحناً من على الرف فتحطم على الأرضية . فضربت ربة البيت يداً بيد متأسية ، وقالت :

ـ آه ، ياخسارة .

وانحنت أكسينيا تلم شظايا الصحن المحطم وهي صامتة . ملأ ستيبان قدحها حتى الحافة ، وعادت عيناه من جديد تقدحان شوقاً وكراهية . وشرع يقول :

ـ حسن... فلنشرب... ثم سكت .

وخلل السكون المخيم كانت أنفاس أكسينيا المضطربة المتشنجة تسمع بوضوح وهي تهم بالجلوس إلى المائدة .

ـ سنشرب ، يازوجتي ، نخب فراق طويل . ألا ترغبين ؟ ألا تشربين ؟

ـ لكنك تعرف... .

ـ أنا أعرف كل شيء الآن... حسن إذاً ، لن نشرب نخب أي فراق . لنشرب نخب صحة ضيفنا العزيز غريغوري بانتلايفتش .

فقالت أكسينيا في صوت رنان : «أجل ، سأشرب نخب صحته!» ـ وكرعت قدحها جرعة واحدة .

فتمتمت ربة الدار وهي تهرع إلى داخل المطبخ : «رعناء مغلوبة!» ـ وتكومت في زاوية منه وشدت يديها إلى صدرها متوقعة أن تقذف المائدة فتتحطم ، أو أن تلعلع طلقة فتصم الآذان... . لكن غرفة الضيوف ظلت ساكنة سكون المقابر . وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الذباب يطن تحت السقف وقد أزعجه الضياء ، بينما كانت الديوك خارج النافذة تتبادل الصياح عبر القرية ، مرحبة بمقدم منتصف الليل .

٨

حالكة ليالي حزيران على الدون . وخلل السكون الثقيل ، يرسل البرق الصيفي الذهبي وميضه فوق السماء السوداء كالإردواز* ، وتتهاوى النجوم

---

* الإردواز : حجر أسود اللون . المترجمون

فتنعكس صورتها على صفحة النهر المسرع . ومن السهب تحمل ريح جافة إلى البيوت العطر المعسل بالزعتر المزهر . فوق الشاطئ الخفيض تنبعث رائحة رقيقة من العشب الندي ، ومن الطين المترسب ، ومن الرطوبة الباردة . وتظل طيور الصفرد تزعق بلا توقف ، وتتلفع غابة الشطآن بديباج فضي من الضباب ، كما في قصص الجن .

استيقظ بروخور من نومه عند منتصف الليل . فسأل رب الدار التي اتخذوها مقراً لهم .

ـ ألم يعد رجلنا بعد ؟

ـ لا . إنه يمتع نفسه مع الجنرالات .

فأطلق بروخور تنهيدة وقال وفي قلبه شيء من الحسد : «أحسب أنهم يقضون وقتاً هانئاً مع الفودكا» . ثم بدأ يرتدي ملابسه وهو يتثاءب .

ـ أين ذاهب ؟

ـ ذاهب لأورد الحصانين وأطعمهما شيئاً من القمح . قال بانتلايفتش إننا سننطلق إلى تاتارسكي مع شروق الشمس . سنقضي النهار هناك ، ثم سيتعين علينا الالتحاق بوحداتنا .

ـ مازال أمامك وقت طويل حتى شروق الشمس . لِمَ لا تنام بعض الوقت ؟ فأجاب بروخور في نبرة متضايقة :

ـ إن أي امرئ له نصف عين يستطيع أن يرى بأنك لم تمكث يوماً في الجيش ، أيها العجوز ، أيام شبابك! ففي الخدمة الفعلية ، إن لم نطعم خيلنا ونعتني بها ، فقد لا نبقى على قيد الحياة . إنك لن تقدر أن تنطلق على دابة نحيلة جائعة ، ها ؟ فكلما كان الحيوان الذي تمتطيه أحسن حالاً كانت فرص نجاتك من العدو أكبر! فأنا لا أخوض الميدان لاقتناصهم . لكننا إذا وجدنا أنفسنا محاصرين في زاوية ضيقة كنت أنا أول من يلوذ بالفرار! هذا أنا! لقد عرضت وجهي للرصاص عدداً من السنين حتى أصابني الملل منه! أضيء الغرفة أيها الجد ، وإلا فلن أعثر على لفافات ساقي مطلقاً! شكراً! أي نعم ،

أما صاحبنا غريغوري بانتلايفتش ، فقد استحق بجدارة كل الأوسمة والرتب وألقى بنفسه في الجحيم ، رأسه قبل جسمه . لكنني لست على هذه الشاكلة من الحماقة ، فلا حاجة لي بها . ها ، هاهو قد وصل . وأحسب أنه قد شرب حتى سكر .

وانبعثت طرقة خفيفة من على الباب . فصاح بروخور :

ـ ادخل .

فدخل قوزاقي يحمل شرائط ضابط على كتف قنصلته الخاكية ويعتمر قبعة مدببة ذات شريط . أدى تحية واتخذ وقفة استعداد عند الباب وقال :

ـ أنا مراسل من هيئة أركان الجنرال سكريتيف . هل أستطيع أن أقابل صاحب السعادة السيد ميليخوف ؟

فرد بروخور ، وقد أذهله منظر وسلوك المراسل المدرب تدريباً حسناً :

ـ إنه غير موجود . ولكن ، لاتنتصب بهذا الشكل! في شبابي كنت أحمق مثلك . إنني مراسله . لماذا تطلبه ؟

ـ أمرني الجنرال سكريتيف بمقابلة السيد ميليخوف . يرجى منه الحضور حالاً إلى دار مطعم الضباط .

ـ ذهب إلى هناك منذ العصر .

ـ كان هناك فعلاً ، بيد أنّه غادر المكان عائداً الى مقرّه .

فأطلق بروخور صفيراً من فمه ، وغمز بعينه لصاحب الدار الجالس على السرير .

ـ أفهمت هذا ، أيها الجد ؟ انسل ، أي أنّه ذهب الى حبيبته... . حسن ، أيها الجندي تستطيع أن تذهب . سأجده وأرسله الى هناك حالاً .

وبعد أن طلب بروخور من العجوز أن يورد الحصانين ويطعمهما قمحاً ، انطلق نحو خالة اكسينيا .

كانت فيشنسكايا نائمة وسط ظلام منيع وعلى الجانب الآخر من

الدون ، كانت طيور العندليب تتبارى في الصفير فيما بينها داخل الغابة . يمم بروخور صوب الدار الصغيرة التي يعرفها جيداً ، فدخل المجاز ولم يكد يضع يده على سقّاطة الباب ، حتّى تناهى الى سمعه صوت ستيبان العميق . فحدّث بروخور نفسه :

ـ ها أنا أوقعت نفسي الآن في ورطة! سيسألني عمّا أريد . ولن يكون لدي جواب . ايه ، لا مفر . سأقول خرجت لابتياع الفودكا ، الجيران دلّوني على بيته . ثمّ استجمع قوّته ودلف الى غرفة الضيوف . وصعقته المفاجأة ، فوقف عند الباب فاغراً فمه لا ينبس ببنت شفة :

كان غريغوري جالساً الى طاولة واحدة مع استاخوف ـ كأن لم يكن بينهما خصام أبداً ـ وهما يرتشفان من قدحيهما فودكا منزلية ، لونها مشوب بالخضرة .

نظر ستيبان الى بروخور ، وعلى وجهه ابتسامة مفتعلة ، وقال :

ـ فيما وقوفك هناك فاغر الفم ، ومن غير أن تقول «مساء الخير» ؟ هل صادفت غولاً ؟

فأجاب بروخورو وهو لايزال مصعوقاً ولاينفك ينتقل من قدم الى أخرى :

ـ شيئاً من هذا القبيل!

فدعاه ستيبان قائلاً :

ـ حسن ، لا تخف . ادخل واجلس .

ـ لن يتسع الوقت لجلوسي . جئت في طلبك ، ياغريغوري بانتلاييفتش . أنت مكلّف بالذهاب الى الجنرال سكرييتف حالاً .

وكان غريغوري . حتّى قبل وصول بروخور ، قد همّ بالرحيل عدة مرّات . فكان ينحي قدحه جانباً وينهض ، ثمّ مايلبث أن يجلس ثانية مخافة أن يعتبر ستيبان رحيله مظهراً من مظاهر الجبن فلم يكن كبرياؤه ليدعه يهجر اكسينيا ، ويخلي مكانه لستيبان . فاستمر يشرب ، غير أن الفودكا فقدت أثرها فيه . وحين أدرك ، في كامل صحوه ، موقفه الحرج ، لبث جالساً

ينتظر الفرج . وقد مرّت لحظة شعر خلالها بأن ستيبان سيلطم اكسينيا حينما شربت نخب صحّته هو ، صحة غريغوري . إلا أن هاجسه كان خاطئاً . إذ أن ستيبان رفع راحته المتقرّنة ، ومسح جبهته الملفوحة ، وبعد برهه وجيزة القى نظرة إعجاب على اكسينيا وقال :

ـ إنّك فتاة رائعة يازوجتي! أنا أحبّك لجرأتك!

ثمّ كان دخول بروخور . وبعد لحظة أمعن غريغوري خلالها فكره ، قرّر ألا يذهب ، ظانّاً أنّه سيعطي ستيبان الفرصة ليبوح بما في رأسه . فالتفت الى بروخور وقال :

ـ اذهب وأخبرهم بأنّك لم تستطع أن تجدني . فاهم ؟

ـ فاهم تماماً . ولكن الأفضل أن تذهب ياغريغوري بانتلاييفتش .

ـ هذا ليس من اختصاصك . هيّا اغرب عنّي!

واتجه بروخور ناحية الباب . لكنّ اكسينيا تدخّلت في تلك اللحظة على حين غرة . وقالت ، في جفاف ، دون أن تنظر الى غريغوري :

ـ ولكن ما معنى هذا ؟ الأفضل أن تذهب معه ، يا غريغوري بانتلاييفتش! شكراً لزيارتك وقضائك بعضاً من وقتك معنا... لكن الوقت متأخّر الآن ، وقد أطلق الديك الثاني صيحته ، وسرعان مايطل الفجر ، كما أنّ علينا ، أنا وستيبان ، أن نرحل الى القرية مع شروق الشمس... أضف الى ذلك ، أنّك شربت مافيه الكفاية! لا تشرب أكثر!

لم يحاول ستيبان ، من جانبه ، أن يستبقيه ، فنهض غريغوري . وبينما كانا يتصافحان ، أبقى ستيبان يد غريغوري في يده الخشنة الباردة ، كما لوأنّه أراد أخيراً ، أن يقول ، شيئاً ما ، لكنّه وحتّى في تلك اللحظة ، لم ينطق بشيء ، بل لبث ينظر الى غريغوري حتّى بلغ الباب . ثمّ مدّ يده ، على مهل ، الى القنينة التي لم تفرغ بعد .

وفي اللحظة التي وجد غريغوري فيها نفسه في الشارع ، أحس بكلال فظيع يستحوذ عليه . فسار ، محركاً ساقيه ، بصعوبة ، حتى بلغ أول تقاطع

طرق ، ثم طلب من بروخور الذي كان يسير وراءه مباشرة :

ـ اذهب واسرج الحصانين واجلبهما إلى هنا . لن أذهب ماشياً... .

ـ أتريدني أن أذهب وأخبرهم بأنك في طريقك إليهم ؟

ـ كلا .

ـ حسن ، انتظر لحظة ، سأعود إليك بعد قليل . وفي هذه المرة انطلق بروخور ، المتمهل في عادته ، يركض هذباً نحو مقرهما .

جلس غريغوري إلى جانب السياج وأشعل سيجارة . وبينما كان يستعيد في ذهنه لقائه باستيبان ، قال في سره في لامبالاة :

ـ حسن ، فهو يعلم الآن ، فليكن ، مادام لا يضرب أكسينيا .

ثم ماعتم أن دفعه إلى الاضطجاع كلاله والانفعال العاطفي الذي كان قد تعرض له . وأخذته سنة من النوم . ثم مالبث بروخور أن وصل . عبرا إلى الجانب الآخر من الدون على عبارة ، ثم انطلقا على حصانيهما خبباً .

بلغا تتارسكي مع الفجر . وحين بلغا بوابة فناء آل ميليخوف ، ترجل غريغوري عن حصانه وألقى بالعنان إلى بروخور ، وأسرع ، منفعلاً ، صوب الدار .

وصادفت أن كانت ناتاليا قد خرجت ، غير مكتملة اللبس ، إلى السقيفة لحاجة ما ، وحين وقعت عيناها الناعستان على غريغوري ، اتقدتا بضياء باهر دافق بالفرحة ، حتى أن ضربات قلبه تسارعت ، وأخضلت عيناه ، لحظة وعلى غيرما توقع .

احتضنت ناتاليا حبيبها في صمت ، ضاغطة كل جسمها على جسمه ، وأدرك غريغوري من ارتجاف كتفها أنها كانت تبكي .

ثم دخل إلى الدار وقبل العجوزين وطفليه النائمين في غرفة الضيوف ، ثم وقف في وسط المطبخ وتساءل ، وأنفاسه تتلاحق بانفعال :

ـ حسن ، كيف حالكم بعد هذه الشدة ؟ الجميع على مايرام ؟ فأجابت ايلينشنا متعجلة : «الحمد لله ، ياولدي ، رأينا الكثير من الرعب ، ولكن

ليس بالشكل الذي لا يحتمل» . وحين ألقت نظرة من طرف عينها على ناتاليا الباكية ، صرخت بها في غلظة : «يجب أن تكوني سعيدة ، بينما أنت تبكين ياحمقاء! هيا ، لاتقفي هكذا بلا نفع! امضي واجلبي حطباً ، واشعلي الموقد!» .

وبينما كانت هي وناتالايا تعدان الفطور على عجل ، جاء بانتلاي بروكوفيتش بمنشفة نظيفة واقترح عليه قائلاً :

ـ استحم . أنا سأصب الماء عليك . الفودكا تفوح منك . لابد أنكم شربتم لأمر ما ليلة أمس ؟

ـ فعلاً . ولكن غير واضح ، حتى هذه اللحظة ، ماإذا كان لفرح أو لغم . فاستبد الاستغراب بالعجوز أيما استبداد ، وتساءل :

ـ مامعنى هذا ؟

ـ ماذا ، إن سكريتيف حانق علينا .

ـ أوه ، ليس هذا مصيبة . معقول أنه لم يشرب معكم ؟

ـ بلى ، شاركنا .

ـ شارككم الشرب فعلاً ؟ ! أليس هذا شرفاً لكم ، يا غريشا! تجلس إلى المائدة نفسها مع جنرال حقيقي! حسبي أن أتصور المنظر!

وطق بانتلاي لسانه مبتهجاً ، وهو ينظر إلى ولده في حنان . فابتسم غريغوري . ولم يكن يشارك أباه شعوره الساذج بالاعتزاز . وفيما راح غريغوري يسأل العجوز باهتمام عن القطيع والأملاك وعن كمية الحبوب التي أصابها التلف ، لاحظ أن أباه لم يكن مهتماً ، كالسابق ، في الحديث عن الحقل . إذ كان ثمة شيء آخر أهم يثقل صدر العجوز ، شيء ما يخنقه . ولم يلبث بانتلاي أن أفصح عن مخاوفه :

ـ مالذي سيحدث الآن ، ياغريغوري ؟ معقول أننا سنخدم في الجيش من جديد ؟

ـ ولم ؟

ـ الشيوخ ، أعني . أنا مثلاً .
ـ لا أحد يدري بعد .
ـ إذاً ، يجب الذهاب مرة أخرى ؟
ـ يمكنك أن تبقى .
فهتف بانتلاي مغتبطاً :
ـ حقاً ؟ ـ وجعل يدور في المطبخ ، على ساقه العرجاء لشدة فرحه .
فزعقت ايلينشنا في حزم :
ـ اجلس ، أيها الشيطان الأعرج! لا تنشر طين جزمتك في أرجاء البيت كله . إنك تتراكض هنا وهناك من شدة فرحك مثل كلب مسعور .
بيد أن العجوز لم يأبه لزعيقها . بل مضى يقزل ، ذهاباً ومجيئاً ، بين المائدة والموقد ، مبتسماً وفاركاً يداً بيد . ثم ساورته الشكوك :
ـ ولكن ، هل تستطيع أن تعفيني ؟
ـ طبعاً ، أستطيع .
ـ تكتب لي أمراً بذلك ؟
ـ طبعاً .
فجعل العجوز يتأتئ رغم إرادته ، حتى استطاع أخيراً أن يخرج تلك الكلمات :
ـ وأي أمر سيكون ؟... بدون ختم ؟ أم تراك تحمل ختماً معك ؟
فقال غريغوري مبتسماً :
ـ سيكون وافياً بالغرض ، على نحو جيد ، بدون ختم .
فانتعش العجوز ثانية :
ـ حسن ، إذاً ، فلا معنى للتحدث عنه . ليمنحك الرب الصحة والعافية! ومتى تتصور أنك سترحل ثانية ؟
ـ غداً .
ـ وهل سبقتك وحدتك ؟

ـ نعم . ولكن لا تقلق حول مصيرك . يا أبي . فعلى أية حال ، سوف يسمح لجميع الشيوخ ممن هم على شاكلتك بالعودة إلى أهليهم عما قريب . لقد خدمتم بما يناسب عمركم .

ـ عسى أن يستجيب الرب!

ورسم بانتلاي بروكوفيتش إشارة الصليب على نفسه . كان جلياً أنه اطمأن تماماً .

استيقظ الطفلان ، فأخذهما غريغوري في ذراعيه وأجلسهما على ركبتيه ومضى يقبلهما ، بالتناوب وعلى شفتيه ابتسام ، وظل يستمع طويلاً إلى لغوهما المرح .

ما أزكى رائحة شعر هذين الطفلين!... لقد ضمخته بعطرها الشمس ، والأعشاب ، والوسائد الدافئة ، وشيء آخر قريب إلى قلبه ومحبب إليه إلى ما لا يحد . وهما ، لحمه ودمه ، كانا أشبه بطيور السهب الصغيرة . آه ، لكم بدت يداه السوداوان الجسيمتان سمجتين حينما كانتا تضمان الطفلين! وكم بدا هو غريباً عن هذا المشهد الوادع... . هو ، هذا الفارس الذي ترجل عن حصانه يوماً واحداً فقط ، والذي تشرب جسمه برائحة عرق الجند والخيل اللاذعة بزناخة رحى المعارك والعدة الجلدية!

تضببت عينا غريغوري بالدموع ، وارتعشت شفتاه من تحت عذاريه . ولم يستطع أن يرد على أسئلة أبيه في مرات ثلاث ، ولم يقم إلى المائدة إلا حينما مسته ناتاليا من كم قمصلته .

حقاً ، لم يعد غريغوري ذلك الرجل الذي كان من قبل! لم يكن فيما مضى من حياته مرهف الحس على نحو شديد ولابكى إلا نادراً ، حتى في طفولته . أما الآن ، فهذه الدموع ، وهذه الضربات المتسارعة المكتومة التي تضج في قلبه وكأنها جرس صغير يدق بلا صوت في بلعومه... ومهما يكن ، وقد يكون مرد هذا كله إلى الكمية الكبيرة من الشراب التي تناولها في الليلة السابقة وإلى أنه لم يذق النوم خلالها .

عادت داريا بعد أن ساقت البقرات إلى المرعى . فرفعت شفتيها المبتسمتين إلى غريغوري ، فمسد ، مداعباً ، عذاريه ، وحين أدنى وجهه من وجهها ، أغمضت عينيها . فلاحظ ارتعاش أهدابها ، وكأنها تخفق في الريح ، وتشمم ، لحظة ، الرائحة العفنة للقشدة منبعثة من وجنتيها اللتين لا تعرفان الذبول .

اذن ، فهاهي ذي داريا ، لم تتغير قط . وما من حزن في الأرض بقادر على ما يبدو على كسر شوكتها ، بل تحطيمها . كانت تعيش في الدنيا كعود من الصفصاف الأرجواني . مرن ، جميل ، داني القطوف .

وسألها غريغوري :

ـ أما تتفتحين ؟

فأجابته داريا ، وعلى شفتيها ابتسامة آسرة ، وهي تغمض عينيها المتلامعتين نصف إغماضة :

ـ كزهرة السيكران البرّية . ـ وفي الحال مضت الى المرآة لتسوّي شعرها الذي انفلت من عصابة رأسها ، وتزيّن نفسها .

لكن داريا لم تكن إلا كذلك طيلة حياتها ، ذلك أمر ثابت لازحزحة فيه .

كأن موت بيوتر لم ينل منها الا قليلاً ، وحين أفاقت من ذلك تعطّشت الى الحياة أكثر ، وغدت أكثر اهتماماً بمظهرها .

أيقظوا دونيا التي كانت تنام في مخزن الغلال . وبعد أن رسموا اشارات الصليب على أنفسهم ، جلست العائلة بكاملها الى المائدة . وقالت دونيا بتحنان :

ـ أوه ، يا أخي ، كم شخت! لقد شاب رأسك حتّى صرت بلون الذنب .

فأرسل غريغوري نحوها عبر المائدة نظرة صامتة لاابتسام فيها ، ثم قال :

ـ هذا ما يفترض فيَّ . أشيخ ، وأنت تدخلين مرحلة الشباب ، لتبحثي عن زوج... لكنني أقول لك : عليك ، من اليوم فصاعداً ، أن تنسي كل مايتعلق بميشا كوشيفوي ، حتى مجرد التفكير به . فإذا سمعت ، اعتباراً من اليوم

بأنك تحنين إليه ، فلسوف أطأ برجلي إحدى قدميك وأمسك الأخرى بيدي ، وأشقك نصفين كضفدعة صغيرة . فاهمة ؟

فالتهبت وجنتا دونيا ، حتى غدتا كالجذر لوناً ، وجعلت تحدق الى غريغوري خلل دموعها .

ولم يحول عينيه الغاضبتين عن وجهها . ومن خلال ملامحه الفظة ، وفي أسنانه البادية من تحت شاربه ، وفي عينيه المضيقتين ، برزت السمات الميليخوفية الحيوانية الموروثة .

بيد أن دونيا كانت من السلالة نفسها . فما أن استعادت رباطة جأشها مما أصابها من حرج وخزي ، حتى قالت في هدوء ، وفي تصميم أيضاً :

ـ ألا تدري ، ياأخي ، أنك لا تستطيع أن تأمر القلب ؟

فرد عليها غريغوري في نصح بارد :

ـ القلب الذي لاينصاع لك يجب أن يُمزّق .

فحدثت إيلينشيا نفسها : ـ ليس لمثلك أن يقول هذا ، يا بني .

إلا أن بانتلاي بروكوفيتش انضم إلى الحوار في تلك اللحظة . فهوى بقبضته على المائدة وزأر بصوته :

ـ اعقلي لسانك ، ياابنة الكلبة! وإلا جلدتك بحيث لاتبقى شعرة برأسك! ياسفيهة ، سأشدك بعنان حالاً...

لكن داريا تدخلت ، وعلى محياها نظرة أنيسة :

ـ لكننا يا أبي لم نعد نملك أي زوج من الأعنة ، أخذوها جميعاً .

فأطلق بانتلاي بروكوفيتش نظرة حانقة صوبها ، ثم استمر منفساً عما في صدره ، دون أن يخفض صوته .

ـ سآتي بحزام سرج ، وسوف أطرد به كل الأبالسة التي حلت بك...

وتدخلت داريا من جديد . ، وبصوت أعلى ، ولكن دون أن تحيد عينيها ، بنظرتهما البريئة ، عن حميها :

ـ الحمر استولوا على أحزمة السروج ، أيضاً .

بيد أن ذلك كان أكثر من أن يتحمله بانتلاي بروكوفيتش ، فحملق في كنته لحظة ، وقد ازرق وجهه بغيظ صامت ، وانفغر فمه دون أن ينبس بشيء (وبدا في هذه اللحظة أشبه بسمكة كراكي سحبت من الماء) ، ثم زعق في صوت أجش :

ـ اخرسي ، عليك اللعنة! عسى أن يأخذ روحك مائة شيطان! لن يدعوني أقول كلمة . ماذا تسمي هذا ؟ لكن اسمعي ، يادونيا . لن يحدث قط . إنني أكلمك بصفتي والدك . وغريغوري كان على حق إذا بقيت تفكرين في مثل ذلك السافل ، فسيكون القتل أيسر مايصيبك . نعم الخطيب خطيبك! لقد حلت في نفسها روح مجرم يستحق الشنق! أتسمين هذا رجلاً ؟ أو تظنين أني أقبل بمثل هذا اليهوذا نسيباً لي ؟ آه ، لو وقع في يدي يوماً لأجهزت عليه بنفسي ، ولو رددت علي بكلمة ، فلسوف آتي بعود صفصاف ولسوف ألقنك... .

فقالت إيلينشا :

ـ إيه ، تستطيع أن تبحث في كل أرجاء الفناء ، وبيدك ؛ مشعل وفي ضوء النهار ، لن تعثر على عود صفصاف . وتستطيع أن تنقب في كل زاوية من الفناء ، ولن تجد حتى حطبة واحدة لإيقاد النار . هذا ما آلت إليه حالنا!

لكن بانتلاي بروكوفيتش استشعر قصداً سيئاً حتى في هذه الإشارة العفوية . فسمر عينيه على العجوز ، ومالبث أن قفز ، كالمجنون وهرع إلى الفناء .

فألقى غريغوري ملعقته وغطى وجهه بمنشفته ، وجعل يختض ضحكاً . كان غضبه قد انحسر ، فمضى يضحك كما كان يفعل في الأيام الخوالي . واشترك الجميع في الضحك إلا دونيا . ومن ثم سادت على المائدة روح أكثر مرحاً . ولكن ماإن سمعت خطوات بانتلاي بروكوفيتش تضرب على درجات السقيفة ، حتى كسا الجد وجوه الجميع . واندفع العجوز داخلاً كالعاصفة المدمرة جاراً وراءه غصناً طويلاً من أغصان شجرة حور رومي .

ـ هاهي ذي! إنها كافية لزمرتكن جميعاً ، ياذوات الألسن الطويلة اللعينات! يا ثعلبات طويلات الأذيل!ليست هناك أية عيدان ؟ إذاً فما هذه ؟ وأنت الأخرى ستذوقين طعمها أيضاً ، أيتها الشيطانة الحيزبون! ستذوقين طعمها...

كان الغصن أكبر من أن يستطيع إدخاله إلى المطبخ ، وبعد أن قلب به الوعاء ، قذفه في المجاز بعنف ، ثم جلس الى المائدة مبهور الأنفاس .

كان الانزعاج الشديد جلياً عليه . فطفق يأكل دونما كلمة ، وأنفاسه متحشرجة . وخلد الآخرون إلى الصمت أيضاً ، ولم ترفع داريا عينيها عن المائدة مخافة أن تنفجر بالضحك . أما إيلينشنا فجعلت تطلق الحسرات وتهمس في صوت يكاد لا يسمع :

ـ يا رب ، يا رب! ثقيلة وفظيعة هي خطايانا!

ولم تكن سوى دونيا محجمة عن الابتسام ، وناتاليا ، التي كانت قد رمت على وجهها ابتسامة غريبة مفتعلة في أثناء وجود العجوز في الخارج ، عادت فأمست شاردة اللب حزينة . وكان بانتلاي بروكوفيتش يجأر بين الحين والحين متوعداً :

ـ هات الملح! هات الخبز! ـ وهو يجيل عينيه اللاهبتين في عائلته .

وانتهى الخصام العائلي على نحو عجيب تماماً . ففي غمرة الصمت المطبق ، تسبب ميشاتكا في خلق إساءة جديدة إلى جده . كان غالباً ما يسمع جدته تكيل لجده شتى أصناف السباب حينما يتعاركان ، والان ، وإذا أزعجت فؤاده الطفولي تهديدات جده بجلد جميع من في الدار وصراخه الذي ملأ البيت ، فإنه قال على حين غرة وفي صوت مرنان ، بينما كان منخراه يرتعشان :

ـ تباً لتصرفك هذا ، أيها الشيطان الأعرج! إنك بحاجة إلى عصا تنزل على رأسك ، لكي تتوقف عن بث الخوف في قلبي وقلب جدتي .

ـ هل قلت هذا لي... لجدك ؟

فأجاب ميشاتكا في جرأة :

ـ أجل ، لك!

ـ ولكن كيف تجرؤ على التلفظ بمثل هذه الكلمات على جدك ؟

ـ فلماذا تثير كل هذا الضجيج إذاً ؟

ـ يا لك من ابليس صغير!

ومسد بانتلاي بروكوفيتش لحيته ، وجال بعينيه مذهولاً في أرجاء الغرفة واستأنف قوله :

ـ كل هذه الألفاظ التقطها منك ، أيتها الساحرة الحيزبون! أنت التي تعلمينه!

فدافعت إيلينشنا عن نفسها مغضبة :

ـ من يعلمه ؟ وهل يستطيع أحد أن يسيطر عليه ؟ إنه ، في ذلك ، مثلك ومثل أبيه .

فقامت ناتالايا وضربت ميشاتكا على مؤخرته ، وهي تلقنه في غضون ذلك : « إياك أن تكلم جدك هكذا! أتسمعني ؟ » .

وشرع ميشاتكا يجأر ، ودفن وجهه في حضن غريغوري . لكن بانتلاي بروكوفيتش ، الذي كان يحب حفيديه من صميم فؤاده قفز من جانب المائدة وهتف في لهجة فرحة ، والدموع تنهمر من عينيه ، ومن غير أن يأبه لمسحها عن لحيته :

ـ غريشا! يا ولدي! إيه ، علي اللعنة! العجوز صادقة . إنه مثلنا فعلاً! هو دم ميليخوف! هو ذا دمنا يبين عليه . لا أحد بقادر على إسكاته! يا حفيدي الصغير! يا حبيبي! هيا ، اضرب الأحمق العجوز بأي ما تشتهي . اسحبه من لحيته!

وانتزع العجوز ميشاتكا من غريغوري ، ورفعه عالياً فوق رأسه .

أنهوا الفطور وتركوا المائدة وبدأت النسوة غسل الأطباق ، بيد أن بانتلاي بروكوفيتش أشعل سيكارة وقال محدثاً غريغوري :

ـ من المحرج نوعا ما أن أسألك شيئاً ، إذ أنك هنا في زيارة قصيرة ، ولكن ما عساي أفعل غير ذلك ؟ هلا ساعدتني على إقامة السياج ، وتسييج ساحة درس الحبوب ، إذ أن كل شيء كان قد تهدم ، وليس بمستطاعك أن تسأل الغرباء مساعدتك هذه الأيام . فكلهم في الهم سواء .

فوافق غريغوري راضياً ، وانطلق الإثنان يعملان في الفناء ، وما أن حان وقت الغداء حتى كانا قد أقاما السياج من جديد . وبينما كانا يحملان عموداً معاً إلى الداخل ، قال العجوز :

ـ هذا أوان الحش ، لكنني لا أدري : هل أشتري شيئاً من العشب ؟ وهل ذلك يستحق الجهد ؟ ففي غضون شهر ، قد يجتاحنا الحمر من جديد ، ويوم ذاك يؤول كل شيء إلى هؤلاء الشياطين كرة أخرى .

فأقر غريغوري بصراحة :

ـ لاأدري ، ياأبي . أنا لا أدري أي اتجاه ستتجه الأحداث ، ومن هو الذي سينتصر . اعمل الى الحد الذي لاتبقي فيه وراءك شيئاً ، سواء في صناديق الغلال أو في الفناء . ففي مثل هذه الأوقات ، كل جهد يؤول إلى لا شيء . خذ والد زوجتي مثلاً ، لقد ظل يكدح طوال حياته ، جمع ثروة ، فصد الدم من نفسه ومن الآخرين ، وما الذي بقى من كل ذلك ؟ لا شيء سوى جذوع محروقة في الفناء .

فوافق العجوز على كلامه ، كاتماً حسرة :

ـ هذا بالضبط ماكنت أفكّر به ، يابني .

ثمّ لم يجرّب أن يتحدّث عن الحقل أكثر من ذلك . غير أنّه ، بعد الظهر ، لاحظ أن غريغوري كان يجهد نفسه في تثبيت البوابة لساحة درس الحبوب ، فقال له في لهجة متألمة ومرارة واضحة :

ـ افعلها كيفما إتفق! فيما تزهق نفسك ؟ إنها لن تقف مدى العمر .

وبدا أن العجوز لم يدرك ، سوى آنئذ عبث جهوده في تنظيم حياته على النمط السابق .

قبيل الغروب ، وقف غريغوري عن العمل ودخل الى البيت .

كانت ناتاليا في غرفة الضيوف وحدها ، وقد تأنّقت في ملبسها وكأن اليوم عيد . ولقد اتسقت عليها تنورتها الصوفية ذات اللون الأزرق الغامق وسترتها البوبلين بأزرقها الفاتح وتطريز صدرها وكمّيها المخرمين . وكان وجهها متورداً ناعماً ، يلمع قليلاً من أثر غسله بالصابون . وحين دخل غريغوري ، كانت تنقّب عن شيء في الصندوق ، ولكن ما أن رأته حتّى أسقطت الغطاء ، واستقامت وعلى وجهها ابتسام .

فاقتعد غريغوري الصندوق وقال :

ـ اجلسي قليلاً ، فأنا راحل غداً وقد لانجد فرصة للحديث معاً .

فجلست الى جانبه في انصياع . وهي لا تنفكّ تسترق النظر اليه من طرف عينيها . وقد خامرها شيء من الدهشة . بيد أنّه أخذ يدها فجأة وقال ملاطفاً :

ـ لكنك ناعمة الملمس ، كما لو أنّك لم تمرضي قط .

فأجابت ، وهي تبتسم خجلاً وتطأطئ رأسها :

ـ شفيت منه... نحن النساء كالقطط صلابة!

ولاحظ غريغوري شحمة أذنها الوردية المزغبة والجلد المصفر لمؤخرة عنقها خلل جدائل شعرها ، وسألها :

ـ هل شعرك يتساقط ؟

ـ يكاد يسقط كلّه . سأصبح صلعاء عمّا قريب! فاقترح عليها قائلاً :

ـ دعيني أحلق رأسك . فهتفت مذهولة :

ـ ماذا! وكيف سيكون منظري آنذاك ؟

ـ الأفضل أن يحلق ، وإلا فلن ينمو الشعر ثانية .

فقالت ناتاليا مبتسمة في غمرة شعورها بالحرج :

ـ وعدتني الوالدة بقص شعري بالمقص . وألقت على رأسها ، في حركة حاذقة ، عصابة ناصعة البياض .

هي ذي اذن ، زوجته وأم ميشاتكا وبليوشكا ، الى جانبه ، ومن أجله جمّلت نفسها وغسلت وجهها . وقد تلفعت بالعصابة على عجل لكي لاتقع عينه على شعرها الذي قبح منظره منذ مرضها . وقد بدت في جلستها تلك الى جانبه ، ورأسها محني قليلاً الى أحد الجانبين ، مثيرة للشفقة ، قبيحة ، ولكنّها ، في الوقت نفسه ، كانت جميلة ومتألقة بشيء من الجمال الداخلي الصافي ، كانت ترتدي دائماً ياقات عالية لكي تخفي وراءها الندبة التي شوّهت عنقها .

كان كل ذلك من أجله... فاجتاحت قلب غريغوري موجة غامرة من الحنان . وأراد أن يقول لها شيئاً ما ، رقيقاً وعطوفاً ، لكنّه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة ، فأدناها منه ، بصمت ، وقبّل جبهتها البيضاء العالية وعينيها الاسيانتين .

لم يسبق له قط ، أن تودّد إليها ملاطفاً طيلة حياتها ، كانت اكسينيا تقف في طريقها . والآن ، وقد حرّك عواطفها إظهار زوجها لمشاعره ، تناولت يده ، والانفعال يلهبها ، ورفعتها الى شفتيها .

لبثا صامتين لحظة . كانت شمس الغروب تلقي أشعة زرقاء داخل الغرفة ، والطفلان يلعبان على درجات العتبة . وبينما هما جالسان سمعا داريا تخرج الجرار من الموقد وتقول لحماته في لهجة حانقة :

ـ ألا تستطيعين حتّى حلب البقرتين يومياً ؟ يبدو أنّ كبراهما تدر لبناً أقل .

وعاد القطيع من المرعى ، وانبعث خوار البقر ، وصفعات سياط الشعر يهوي بها الصبيان عليها . وبين آونة وأخرى ، كان ثور القرية يطلق خواراً أجش . وكان ذباب الخيل أدمى ، بلسعاته ، صدر الثور الناعم كالحرير ، وظهره المائل المتشقق ، والثور لاينفك يهز رأسه حانقاً . وحينما مرّ بسياج آل استاخوف الاسفنداني ، نطحه بقرنيه القصيرين المتباعدين ، فمزّقه وألقاه أرضاً ثمّ داس عليه . فنظرت ناتاليا خلل الشباك وقالت :

ـ أتعلم أن الثور تراجع عبر الدون هو الآخر .

قالت الوالدة إنه ما أن بدأ إطلاق النار في القرية حتّى انفلت هو من مربطه وعبر النهر سباحة واختفى في القصب على الضفة الأخرى طيلة الوقت .

لم يقل غريغوري شيئاً ، اذ كان غارقاً في دوامة من الأفكار . لِمَ كانت عيناه أسيانتين على هذا النحو ؟ كان فيهما شيء كتوم متخفٍ ، لا ينفك يبرز ثمّ يختفي . لقد كانت حتّى في لحظات سعادتها ، حزينة ، وعلى صورة ما ، نائية عن متناول إدراكه... أتراها سمعت أخبار زياراته لاكسينيا في فيشنسكايا ؟ وأخيراً سألها :

ـ فيما كآبتك اليوم ؟ ماالذي يثقل على صدرك ياناتاليا ؟ ستخبرينني ، أليس كذلك ؟

وكان يتوقّع دموعاًوملامة ، إلا أن ناتاليا أجابت بلهجة خانقة :

ـ لا ، لا ، إنّك تتخيّل أشياء ، أنا بخير ، بخير... صحيح انني لم أتعافى تماماً ،فرأسي لازالت تدور ، وإذا انحنيت أو التقطت شيئاً من الأرض أحس بكل شيء يمسي ظلاماً في عيني .

فحدق غريغوري إليها مستجلياً ، وما لبث أن أعاد سؤاله :

ـ هل كنت على مايرام من دوني ؟ هل تحرش بك أحد ؟

ـ كلا ، ما الذي تقول ؟ كنت مريضة في فراشي طيلة الوقت .

وحدجته في عينيه مباشرة ، كما أنها استطاعت أن ترسم على فمها ابتسامه واهنة . وبعد برهة صمت تساءلت :

ـ هل سترحل مبكراً ؟

ـ عند الفجر .

ـ ولكن ، ألا تستطيع أن تمضي يوماً آخر هنا ؟

وكان في صوتها أمل حي متعثر . بيد أنه هز رأسه نفياً ، فقالت متنهدة : ـ كيف ستكون الحال . هل سيكون عليك حمل شارات الكتف ؟

ـ نعم .

ـ حسن إذاً ، اخلع قمصلتك وسأخيطها عليها قبل أن يحل الظلام .

فخلع غريغوري قمصلته متأففاً . كانت لاتزال ندية بعرقه . وحيثما كانت سيوره العسكرية قد حكت القماش ، بانت قطع لامعة على الظهر والكتفين وأخرجت ناتاليا من الصندوق زوجاً من الشارات الخاكية الحائلة ، وتساءلت :

ـ هل هاتان هما ؟

ـ نعم ، إذاً فقد احتفظت بهما ؟

فأجابت ناتاليا بصوت غير واضح فيما أدخلت الخيط في ثقب الإبرة :

ـ دفنّا الصندوق .

ورفعت متلصصة ، القمصلة المصفرة إلى وجهها وتشممت بشوق بالغ رائحة عرقه المالح العزيزة على قلبها . فسألها غريغوري مستغرباً : لم فعلت هذا ؟

فأجابت ، وعيناها تتلامعان :

ـ إنها تفوح برائحتك . وطأطأت رأسها لتخفي حمرة الخجل التي علت وجنتيها ، وشرعت تخيط بمهارة .

ثم ارتدى غريغوري قمصلته فغام وجهه وهز كتفيه . فقالت ناتاليا وهي ترمق زوجها بإعجاب جلي :

ـ إنك تبدو أفضل بهما!

فحول عينيه صوب كتفه الأيسر ، وقال متنهداً :

ـ لن يضيرني ألا أراهما ثانية! أنت لا تفهمين شيئاً!

ولبثا جالسين وقتاً طويلاً على الصندوق في غرفة الضيوف متشابكي الأيدي ، سابحين في أفكارهما الخاصة في صمت .

ومع الشفق ، وحينما أخذت الظلال الليلكية للبنايات تستطيل فوق الأرض المتبردة ، مضيا إلى المطبخ لتناول العشاء . وهكذا انقضت الليلة . ظل البرق الصيفي يخفق في السماء حتى طلوع الشمس ، وظلت طيور العندليب حتى

انبلاج الصبح تملأ الليل ضجيجاً في بستان الكرز . استيقظ غريغوري ، ولبث متمدداً مغمض العينين يتسمع إلى ثرثرة طيور العندليب الحلوة . ثم نهض بهدوء محاولاً ألا يوقظ ناتاليا ، وارتدى ملابسه وخرج إلى الفناء .

كان بانتلاي بروكوفيتش قد أطعم حصان غريغوري . وببصيرة الجندي اقترح على غريغوري سائلاً :

ـ أتريدني أن أمتطيه وأحممه في النهر قبل بدئك الرحلة ؟ فأجاب غريغوري وهو-يتمطى في رطوبة الصباح الباكر

ـ إنه يستطيع أن يدبر أموره بدون ذلك .

ثم سأله والده :

ـ هل نمت جيداً ؟

ـ جيداً جداً . لكن طيور العندليب أيقظتني! عجباً لنشاطها طوال الليل .

نزع بانتلاي بروكوفيتش المخلاة من الحصان وابتسم :

ـ ليس لديها شيء آخر تفعله يابني . ثمة أوقات يغبط المرء فيها هذه الطيور السماوية . إنها لاتعرف شيئاً عن الحرب والدمار... .

ثم وصل بروخور وتوقف عند البوابة . كان قد حلق وجهه جيداً ، وكان ، كعادته ، مرحاً ثرثاراً فشد حلقة عنان حصانه إلى عمود وتقدم إلى غريغوري . كان قميصه الخيش قد كوي حتى غدا ناعم الملمس . وعلت كتفيه شارات ظاهرة الجدة . وهتف بينما كان يقترب :

ـ إذاً حملت شارات الكتف أيضاً ، يا غريغوري بانتلايفتش ؟ كانت في انتظارنا ، عليها اللعنة . وهانحن الآن نحملها . لكننا لن نفنيها ، لسوف تخلفنا . قلت لزوجتي : ـ لاتخيطيها بحيث لايمكن انتزاعها ، أيتها الحمقاء ، ثبتيها فقط ، بحيث لن تطيرها الريح ، وسيكون هذا كافياً . أنت أدرى بالصورة التي عليها حالنا . فإذا وقعنا في الأسر فإنهم سيرون في الحال بأنني ـ وإن لم أكن ضابطاً ـ ضابط صف أقدم . وعندها سيقولون : ها ها ، أنت تعلمت كيف تحصل على ترقية لك ، فتعلم الآن كيف تهيئ

رأسك لأنشوطة المقصلة! أترى كيف هي عالقة بي ؟ إنها مهزلة .

كانت شارات بروخور قد ثبتت فعلاً على أوهن مايمكن ، لاتكاد تستقر في موضعها . وانفجر بانتلاي بروكوفيتش هادراً بالضحك كاشفاً عن أسنان لم يتلفها الزمن ، تتألق وسط لحيته الشائكة :

ـ هذا جندي أصيل! يعني إذا ظهرت في الأفق أدنى بادرة لأيما شيء ، فستهرع إلى نزعها عن كتفك ؟

فأجاب بروخور ضاحكاً :

ـ وإلا ، فماذا تظن ؟

فقال غريغوري لوالده مبتسماً :

ـ أترى أي مراسل ابن حلال استطعت أن أحصل عليه ؟ فحتى لو وقعت في مشكلة ، فسأكون بخير مادام هو إلى جانبي .

فقال بروخور مبرراً نفسه :

ـ هذا صحيح تماماً ، ياغريغوري بانتلايفتش ، لكنك تدري واقع الحال . أنت تموت اليوم ، وأنا أموت غداً

وفي سرور بالغ انتزع شارات كتفه ودسها في جيبه وهو يقول :

ـ حينما نقترب من الجبهة ، أستطيع أن أخيطها ثانية .

تناول غريغوري فطوراً سريعاً ، ثم استأذن للرحيل عن عائلته ، فهمست ايلينشنا بحرارة وهي تقبل ابنها :

ـ عسى أن تحفظك ملكة السماء . أنت الوحيد الذي بقي لنا...

فقال غريغوري بصوت راعش :

ـ حسبك الآن . لا دموع تذرف على رحلة طويلة . إلى اللقاء . ومضى نحو حصانه .

وألقت ناتاليا على رأسها عصابة رأس ايلينشنا المثلثة السوداء ومضت إلى أبعد من البوابة وتعلق الطفلان بتنورتها . وكانت بوليوشكا تنشج في اكتئاب وتوسلت إلى أمها وهي تكبح دموعها :

ـ لا تدعيه يذهب! لا تدعيه يذهب يامامي! سوف يقتلونه في الحرب ، بابا ، لا تذهب إلى الحرب!

وكان شفتا ميشاتكا ترتعشان ، إلا أنه لم يبك . وقد سيطر على زمام نفسه ، برجولة . وقال لأخته الصغيرة مغضباً :

ـ لا تقوقي ، أيتها الإوزة! ليس جميع من يذهب إلى الحرب يقتل!

واستعاد بثبات كلمات جده بأن القوزاق لا يبكون مطلقاً ، وبأن بكاء القوزاق عار وأي عار ولكنه لاحظ ، حينما رفعه أبوه وهو ممتط الحصان إلى السرج وقبله أن أهداب أبيه كانت منداة ، فاستبد به الاستغراب . وآنذاك لم يعد في استطاعة ميشاتكا أن يقاوم أكثر فانهمرت الدموع ، مدراراً ، من عينيه وخبأ رأسه في صدر أبيه ، على السيور الجلدية وجعل يجأر :

ـ ليذهب جدي ويقاتل! نحن لانحتاج إليه هنا... . أنا لا أريدك أن...

بحذر أنزل غريغوري ولده إلى الأرض ، ومسح الدموع من عينيه بظهر يده ، في صمت ، ثم همز حصانه وانطلق .

كم مرة أثار حصانه الغبار أمام درجات عتبة بيته عند انطلاقه من ثمة خبباً! كم مرة حمله ، قدماً ، على امتداد المسالك فوق السهب الذي لادرب عليه إلى الجبهة ، إلى حيث يستهدف الموت الزؤام أرواح القوزاق إلى حيث يوجد ـ كما تقول أغنية قوزاقية ـ الفزع والحزن كل يوم ، كل ساعة! ـ لكن ، لم يحدث له قط أن رحل عن قريته بقلب مثقل بالهم مثل رحيله في هذا الصباح اللطيف .

فمضى ، وعنانه على قربوس السرج ، ينوء بتوجسات غامضة ألقت عليه بأثقال القلق والهواجس . حتى تشعب الدرب متجهاً صوب الطاحونة ، فأدار رأسه ثانية . لم تكن سوى ناتاليا واقفة عند البوابة ، ونسيم الصباح الباكر المنعش ينتزع من يديها عصابة الحداد السوداء .

* * *

الريح تلفح السحب بسياطها فتزبد هذه ، وتنطلق عائمة على بركة السماء الزرقاء ، وثمة غبش يرتعش على حافة الأفق المتموجة . ومضى الحصانان على مهل : بروخور غاف ، يتمايل على السرج ، وغريغوري لاينفك ينظر إلى الخلف مرة تلو المرة ، وأسنانه تصر حنقاً . وكان في استطاعته بعضاً من الوقت ، أن يرى إلى أجمات الصفصاف الخضر ، وإلى شريط الدون الفضي المتلوي كيفما شاء . وإلى أذرع الطاحونة تدور ببطء . ثم انحرف الدرب جنوباً . وأخذت ضفة النهر المغطاة بالبردي ، والدون ، والطاحونة تختفي وراء حقول القمح المداسة... وشرع يصفر لحناً ما ، مسمّراً عينيه على رقبة الحصان السمراء المذهبة وحبّات العرق الرقيقة المتفصّدة عليها . ولم يعد يستدير الى الخلف على سرجه... الى السعير بها ، بهذه الحرب!

لقد احتدم القتال على امتداد نهر«تشير» ، ثمّ اندلع على امتداد « الدون » ولسوف يرعد الآن فوق نهر« خوبر » ، و« مدفديتسا » و« بوزولوك » . وحدّث نفسه : وماذا يغيّر في الأمر الموضع الذي ستنطلق منه رصاصة معادية لترديه أرضاً ؟

٩

كان القتال مستمراً حوالي مركز منطقة أوست ـ مدفديتسكايا . وحينما انحرف غريغوري عن الدرب الصيفي ميمّماً صوب طريق هتمان العام ، بلغت ـ أول مابلغت ـ مسامعه الأصوات المكتومة لرمي المدافع .

وعلى امتداد الطريق العام ، كانت آثار تقهقر قوات الحمر السريع واضحة بيّنة . وصادف غريغوري عدداً عديداً من العربات ذوات العجلتين وعربات« البريتزكا » مهجورة ، ولمح داخل أخدود يقع خلف أكمة مدفعاً تحطم محوره بقذيفة والتوت ماسورته . كما أن أعنّة محور مقدمته كانت قد

قطعت قطعاً معوجاً . وفي المستنقعات السبخة ، الواقعة على مبعدة نصف فرست من الأخدود ، تكوّمت على العشب النجيل الذي حرقته الشمس جثث جنود بقمصان وبنطلونات خاكية ، ولفافات ساق وجزم منعلة بالحديد ، ثقيلة . كان هؤلاء جنود الجيش الأحمر الذي ظفر بهم خيّالة القوزاق وأجهزوا عليهم تقطيعاً بالسوف .

كان يسيراً على غريغوري أن يدرك ذلك ، وهو مارّ بهم ، من الدم الغزير الذي جفّ على قمصانهم المدعوكة ومن وضعية جثثهم . كانوا متمدّدين ثمة مثل أعشاب قصّها منجل . ولم يكن القوزاق قد جرّدوهم من ملابسهم ، ولعل ذلك كان لضرورة الاستمرار بالملاحقة .

كان هناك قوزاقي مطروح بالقرب من أجمة زعرور برّي ، وكانت أثار الشطب الحمراء الصدئة بادية على ساقيه المتباعدتين ، وعلى مبعدة قليلة منه ارتمى حصان كميت ، فاتح السمرة ، يعلوه سرج عتيق خلق وقد طُلي قربوساه بلون ترابي .

بدأ التعب يحل بحصانيّ غريغوري وبروخور وقد آن الأوان لإطعامهما ، بيد أن غريغوري لم يكن ليميل الى التوقّف في موضع كان ميداناً للقتال مؤخراً ، فطوى فرستاً آخر تقريباً ، ثمّ انحدر الى اخدود في الأرض وسحب عنان حصانه . وعلى مبعدة يسيرة رأى بركة يحيط بها سد متداع حتّى أساساته . فمضى بروخور على حصانه صوب الحواف المتهدّمة المتشقّقة للبركة . غير أنّه كرّ راجعاً على حين غرّة . فتساءل غريغوري :

ـ ماذا بك ؟

ـ اذهب الى هناك وانظر!

فامتطى غريغوري حصانه صوب السد . كانت هناك امرأة مقتولة ملقاة على الوحل . وكان وجهها مغطّى بالطرف الأسفل لتنورتها الغامقة ، وقد فجّت ساقاها البيضاوان الممتلئتان ، بربلتيهما الملفوحتين وركبتيها ذواتي الغمّازات ، على نحو معيب ومريب . وكانت ذراعها اليسرى مطويّة تحت ظهرها .

هرع غريغوري يترجّل عن حصانه ، وخلع قبّعته وانحنى وسحب تنورة المرأة الميتة فوق جسدها . كان وجهها الفتي الأسمر جميلاً رغم الموت . وكانت عيناها نصف المغمضتين ترسلان شعاعاً خافتاً من تحت حاجبيها تألّماً . ومن خلل ابتسامة فمها الرقيق كانت أسنانها المتلألئة تومض كالصدف . وتدلّت خصلة من الشعر على وجنتها اللصيقة بالعشب . وعلى هذه الوجنة التي شرع الموت يصبغها بظلال دابرة صفر بلون الزعفران ، كان النمل يتزاحف بلا كلل .

فجمجم بروخور قائلاً :

ـ يا للجمّال الذي أتلفه أبناء العواهر أولاء!

وصمت بعض الوقت . ثمّ بصق في حنق :

ـ لو ظفرت بهؤلاء... بهؤلاء الحثالة ، لرميتهم بالرصاص! دعنا نذهب ، بحق المسيح! أنا لا أتحمّل النظر اليها . إنّ منظرها يقلب قلبي رأساً على عقب .

فتساءل غريغوري :

ـ ألا تظن أنّ من المناسب دفنها ؟

الا أنّ بروخور اعترض على ذلك :

ـ ايه ، هل يتوجّب علينا دفن جميع الموتى الذين نصادفهم ؟ دفنّا عجوزاً ما في يا غودنويه ، والآن هذه المرأة... لو أننا سنقوم بدفنهم جميعاً ، فلن يبقى في أيدينا قمح كاف . ثمّ بم نحفر قبراً ؟ لن تقدر أن تفعل ذلك بسيفك ، أيّها الأخ! فالأرض هنا قد أحالتها الحرارة فخاراً الى عمق قدمين .

واستبدّت به الرغبة في الابتعاد عن المكان ، حتّى أنه كاد لايستطيع وضع رأس جزمته في الركاب .

ومن جديد مضيا على حصانيهما صاعدين التل ، وكان بادياً على بروخور سيماء التفكير العميق ، ومالبث أن سأل غريغوري :

ـ ما رأيك ، يا بانتلاييفتش ، ألم نسفح دماء كافية على الأرض ؟

ـ كافية تقريباً .
ـ ولكن ، ما رأيك ، هل ستحل نهاية ذلك عمّا قريب ؟
ـ ستحل النهاية حينما يكونون قد دمّرونا تماماً .
ـ هه ، انها لحياة مرحة ، هذه التي دخلناها ، الحمد للشيطان! ربّما كلّما أسرعوا في تدميرنا كان ذلك أفضل . أثناء الحرب الألمانية كان الجندي يطلق النار على اصبعه فيفقده ، فيعوقه في الخدمة . أمّا الآن ، فمزّق ذراعك إن شئت ، لكنّهم لن يكفّوا عن اجبارك على الخدمة . إنهم يجنّدون المقعدين والعجزة والعميان . يجنّدون المصابين بالفتق ، وجميع أنواع الحثالات ، ماداموا قادرين على الحبو على أرجلهم . أبهذه الطريقة يكون إنهاء الحرب ؟ اللعنة عليهم جميعاً!
قال بروخور في قنوط ، ثمّ حاد عن الطريق وترجّل عن حصانه متمتماً بشيء ، وشرع يرخي سير سرج حصانه .

* * *

حلّ المساء وعندذاك ، بلغا قرية صغيرة ليست ببعيدة عن أوست ـ مدفديتسكايا . فأوقفتهما ربيئة تابعة للكتيبة الثالثة اتخذت لها موقعاً في ضواحي القرية ، ولكن ماأن ميّز القوزاق قائد فرقتهم من صوته حتّى أخبروه بأن هيئة أركان الفرقة كانت معسكرة في القرية نفسها وبأن رئيس هيئة الأركان ، الرئيس كوبيلوف ، كان ينتظر مقدمه في أية لحظة . وأوعز آمر الربيئة المهذار لقوزاقي بإيصال غريغوري الى مقر الأركان ، ثمّ أضاف كلمة أخيرة :
ـ استولوا على مواقع مهمّة ، ياغريغوري بانتلاييفتش . ولن نستطيع الاستيلاء على أوست ـ مدفديتسكايا قبل مرور وقت طويل ، كما أتصوّر . وبعدها ، لاشك أن لاأحد يدري ؟... كما أنّ لدينا قوّات كثيرة . يقولون أن قوّات بريطانية ستصل من موروزو فسكايا . هل سمعت شيئاً عن ذلك ؟
أجاب غريغوري وهو يخز حصانه :

ـ كلاّ .

كانت أباجورات الدار التي نزلت فيها هيئة الأركان مغلقة بإحكام . فظن غريغوري أن لاأحد في الداخل ، لكنّه سمع ، أثناء مروره في المجاز ، حديثاً متحمّساً مكتوماً . وحين دخل غرفة الضيوف فاجأ عينيه ضوء المصباح الكبير المعلّق في السقف ووخزت منخريه رائحة دخّان التبغ الثقيلة القوية .

وجاء صوت كوبيلوف جذلاً ، وهو يبرز من خلل سحابة الدخان الزرقاء المائجة فوق المنضدة :

ـ اذن ، فهذا أنت أخيراً ، لقد كنّا في انتظارك زمناً طويلاً ، أيها الاخ!

فحيّا غريغوري الجميع ، وخلع قبّعته ومعطفه ، ثمّ مضى الى المنضدة . وقال والعبوس يعلو وجهه :

ـ ملأتم المكان دخاناً! لا هواء يستنشق بعد هذا! ألا تستطيعون فتح إحدى النوافذ ؟

فرد خارلامبي يرماكوف ، الذي كان يجلس بجوار كوبيلوف ، مبتسماً :

ـ اعتادته أنوفنا ، حتّى لم نعد نلاحظه .

ودفع لوحة من ألواح النافذة بمرفقه فانخلعت وفتح أباجوراً .

اندفع هواء الليل العليل الى داخل الغرفة ، فتألّقت شعلة المصباح ثمّ انطفأت . فقال كوبيلوف متذمراً ، وهو يخبط بيديه على المنضدة باحثاً عن شيء :

ـ هاه ، أسلوب جميل للمحافظة على المكان! لم خلعت اللوحة ؟ من لديه عيدان كبريت ؟ حذار ، فهناك محبرة بجوار الخريطة تماماً .

أضاءوا المصباح ، وسدّوا فتحة الشبّاك ، ثمّ شرع كوبيلوف يشرح الأمور على عجل :

ـ الوضع في الجبهة في الوقت الحاضر ، أيها الرفيق ميليخوف ، كما يلي : يسيطر الحمر الآن على أوست ـ مدفديتسكايا ، ويحمونها من ثلاث

جهات بقوات يناهز تعدادها أربعة آلاف جندي . ولديهم مدفعية ومدافع رشاشة كافية . وقد حفروا الخنادق حول الدير وفي عدّة أماكن أخرى كما أنهم يحتلّون المرتفعات القائمة على ضفة الدون . أمّا بالنسبة لمواقعهم ، حسن ، أنا لن أقول أنّها منيعة ، لكن الاستيلاء عليها ، أمر صعب بدون شك . ولدينا في صفوفنا ، بالإضافة الى الفرقة التي يقودها الجنرال فتشالوروف ومفرزتي ضبّاط الصاعقة ، وصل لواء بوغاتيريوف السادس بالكامل وفرقتنا الأولى . ولكن الفرقة ليست بكامل قوتّها ، فكتيبة المشاة غير موجودة ، اذ لازالت في مكان ما بالقرب من أوست ـ خوبرسكايا . لكن الخيّالة وصلوا جميعاً ، ولو أن السرايا أبعد عن أن تكون في كامل قوتها .

فقال آمر الكتيبة الرابعة ، ملازم دوداريف :

ـ مثال ذلك ، أن تعداد السرية الثالثة في كتيبتي هو ثمانية وثلاثون قوزاقياً فقط .

فسأله يرماكوف :

ـ كم كان عددهم في السابق ؟

ـ واحداً وتسعين .

فتساءل غريغوري متجهّم الوجه وهو ينقر على المنضدة :

ـ ولمَ سمحتَ للسرّية أن تتشتّت ؟ أي نمط من الآمرين تدعو نفسك ؟

ـ حسن ، ومن ذا الذي سيمنعهم من التشتت ؟ لقد انتشروا في القرى ، ومضوا ليروا أهليهم . لكنهم سيتقاطرون عائدين عمّا قريب . عاد ثلاثة منهم اليوم .

ودفع كوبيلوف الخريطة صوب غريغوري . وأشار بسبّابته مبيّناً لغريغوري مواقع القطعات ، واستأنف كلامه :

ـ لم نقم بشن أي هجوم بعد . أمس ، تقدّمت الكتيبة الثانية نحو هذا القطاع سيراً على الأقدام ، ولكن دون أن تحرز أي نجاح .

ـ وهل وقعت خسائر فادحة ؟

ـ استناداً الى تقرير آمر الكتيبة ، فإنها كانت ستة وعشرين ، مابين قتيل وجريح . والآن ، نأتي الى مقارنة وضعية القوات . إننا نتفوق عددياً عليهم ، لكننا لانملك مدافع رشاشة كافية لدعم هجوم المشاة . كما أن مؤنتنا من القذائف شحيحة .

لقد وعدنا ضابط العتاد باربعمائة قذيفةومائة وخمسين ألف طلقة حالما تصل . ولكن هذا لن يتوافر إلا حينما تصل ، بينما يجب شن الهجوم غداً ، حسب أوامر الجنرال فتشالوروف . وهو يقترح بأن علينا أن نخصص كتيبة لدعم مفرزتي الصاعقة . وقد قاموا بأربع هجمات أمس وكانت النتيجة أنهم تكبّدوا خسائر فادحة . وأجد لزاماً عليّ أن أقر بأنهم قاتلوا قتال الأبالسة! أي نعم ، ويقترح فتشالوروف بأن علينا أن نقوي الجناح الأيمن وننقل الهجوم الى هذه النقطة ، هنا . أترى ؟

المجال هنا يسمح بالتقدّم الى مسافة تتراوح مابين مائتي وثلاثمائة خطوة من خطوط العدو . والواقع ، أن مساعده قد انصرف تواً ، بعد أن حمل اليّ تعليمات شفهية تقضي بذهابنا الى مقر الجنرال فتشالوروف في الساعة السادسة من صباح غد لعقد مؤتمر يستهدف تنسيق العمليات . وهو وأركانه ، الآن ، في قرية «بولشوي سينين» . وتنطوي المهمة على العمل في الحال على ضرب العدو قبل أن يحصل على التعزيزات من محطّة سبرياكوفو . أما قواتنا في الجانب الأخر للدون ، فإنها لا تبدي نشاطاً كبيراً... لقد عبرت الفرقة الرابعة نحو الخوبر ، الا أن الحمر قذفوا بقوات حماية قوية وهم يدافعون بعناد عن مواقعهم في الطرق المؤدية الى المحطة . لكنهم في الوقت نفسهه مدوا جسر زوارق عبر الدون وشرعوا بتحويل المعدات والاحتياط من أوست ـ مدفديتسكايا بأسرع ما يستطيعون .

ـ يقول القوزاق أن الحلفاء في طريقه الينا . هل هذا صحيح ؟

ـ هناك شائعة بأن عدداً من البطاريات والدبابات الانكليزية في طريقها من تشيرنيشفسكي . بيد أن السؤال هو كما يلي :

كيف ستعبر هذه الدبابات الدون ؟ في رأيي ، أن موضوع الدبابات لا يعدو كونه لغواً . ونحن نسمع هذا الكلام منذ زمن...

وخيمت فترة صمت طويلة على الغرفة .

فك كوبيلوف أزرار قمصلة الضباط البنية التي يرتديها ، وأسند على يديه خديه المترهلين غير الحليقين ، وراح زمناً طويلاً يمضغ ، متفكّراً ، سيكارة محروقة . كانت عيناه السوداوان المستديرتان المتباعدتان نصف مغمضتين كلالاً ، وقد شوهت وجهه الوسيم آثار الليالي التي لم يعرف النوم خلالها .

ذات يوم ، كان هذا الرجل معلّماً في مدرسة دينية . وفي أيام الآحاد كان تجار المنطقة يستضيفونه ، وكان يلعب الورق ، على مراهنات صغيرة ، مع التجار وزوجاتهم ، وكان شاباً اجتماعياً مرحاً ، يعزف على الغيتار عزفاً جيداً . ثمّ اقترن بمعلمة شابة ، وكان ممكناً أن يظل مقيماً في مركز المنطقة ، ومؤكداً أن يستمر في عمله الى أن يحال على التقاعد ، غير أنه استدعى للخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية . وبعد أن تلقى تدريبه في إحدى الكليات العسكرية ، أرسل الى الجبهة مع إحدى كتائب القوزاق . ولم تستطع الحرب قط أن تغيّر شخصيته أو مظهره . كان ثمة شيء مسالم ، مدني أساساً ، يبدو على قامته القصيرة الملينة ، وعلى وجهه الأليف ، والطريقة التي كان يحمل بها سيفه ، والاسلوب الذي يوجه به كلامه الى مرؤوسيه وكان صوته يفتقر الى لهجة الآمر القاسية التي تتسم بها طريقة كلام العسكري عادة . وكان يرتدي بزة الضابط وكأنه يرتدي زكيبه .وعلى الرغم من مضي ثلاث سنوات عليه في الجبهة ، فإنه لم يكتسب المظهر والاسلوب العسكريين . وتشير كل سيمائه الى أنه رجل وجد في معمعان الحرب صدفة . كان يبدو أقرب الى ابن مدينة قوي البدن في بزة ضابط ، منه الى ضابط حقيقي ، ومع ذلك فقد كان القوزاق يكنّون له احتراماً كبيراً ويصغون الى حديثه أثناء مؤتمرات الأركان ، وكان قادة التمرّد يجلون ذكاءه

الرزين وشخصيته السلسة وشجاعته غير المتظاهرة ، والتي كان غالباً مايقيم عليها الدليل خلال المعارك .

أما رئيس هيئة أركان غريغوري السابق ، فقد كان الأمي الجاهل أنسين كروجيلين ، ولقد قتل كروجيلين في معركة على نهر« تشير » . وحينما خلفه كوبيلوف ، أدى مهامه بذكاء وحصافة ونجاح . وحينما كان يرسم الخطط للعمليات كان يبذل من الجهد والوقت ماكان يبذلهما حينما كان يجلس لتصحيح دفاتر تمارين التلاميذ . ومع ذلك ، فإذا دعت الضرورة ، وبكلمة من غريغوري ، فإنه كان يترك مقر الأركان ويمتطي حصاناً ، ويتسلم أمرة كتيبة وينطلق بها الى المعركة .

في البداية ، كان غريغوري متحاملاً بعض الشيء ضد رئيس هيئة الأركان الجديد ، بيد أنه ، وفي غضون شهرين ، تعرّف عليه بشكل أفضل ، حتّى أنه أخبره بصراحة ذات يوم بعد انتهاء القتال :

ـ كانت فكرتي عنك سيئة الى حد ما ، ياكوبيلوف ، لكنني أشعر الآن بأنني كنت مخطئاً في حقك . وأنا أسألك أن تنسى موقفي ذاك منك ، ان كان هذا ممكناً!

فابتسم كوبيلوف ولم يجب ، غير أنه كان من الجلي أن ذلك الاعتراف غير المنمّق أشاع في نفسه الزهو .

كان يفتقر الى أيه رغبة في الشهرة ، كما أنه لم تكن لديه اراء سياسية محدّدة ، أمّا موقفه تجاه الحرب فهو أنها شرلابدّ منه ، كان يتشوّق الى حلول نهايتها بأسرع مايمكن . ولهذا ، فهو في هذه الأثناء لم يكن يمعن فكره في كيفية تطوير العمليّات بغية الاستيلاء على أوفست ـ مدفديتسكايا ، بل كان يستعيد ذكريات أهله في بيته ، وقريته الأصلية ، ويحدّث نفسه بأن من الممتع أن يمتطي حصانه وينطلق هذباً الى أهله في إجازة أمدها ستة أسابيع!...

ظل غريغوري يحدّق طويلاً في كوبيلوف ، ثمّ قام على قدميه قائلاً :

ـ حسن . أيها الأخوة والأتمانات ، لنذهب الى مقراتنا وننم . لامعنى في جلوسنا هنا وإرهاق أدمغتنا بموضوع الاستيلاء على أوست ـ مدفديتسكايا . سيقوم الجنرالات بالتفكير واتخاذ القرار بدلاً عنّا! سنمضي الى فتشالوروف غداً . فليعلمّنا ، نحن معشر الشياطين البائسة ، شيئاً من الحكمة! أمّا بخصوص الكتيبة الثانية ، فإن فكرتي كما يلي : نحن لازلنا نملك السلطة ، وأنا أعتقد أن من الأفضل أن ننزل درجة آمر الكتيبة دوداريف ونجرّده من رتبه وألقابه .

وتدخّل يرماكوف قائلاً :

ـ ومن حصّته من العصيدة!

بيد أن غريغوري استأنف كلامه :

ـ لا ، إنني لا أمزح . يجب أن ننزل رتبه ، اليوم بالذات ، الى رتبة آمر سرية وأن نعيّن خارلامبي آمراً للكتيبة .

اسمع يا يايرماكوف ، اذهب الآن ، وفي الحال ، واستلم أمرة الكتيبة ، وانتظر تعليماتنا غداً صباحاً . وسيقوم كوبيلوف بتحرير أمر النقل فوراً ، وتستطيع أن تأخذه معك . فأنا أرى أن دوداريف ليس بقادر على قيادة كتيبة ، أبداً . لاعقل له مطلقاً ، وأخشى أن يعرّض أرواح القوزاق الى ضربة ماحقة تنزل بهم . وأنتم تعرفون ماهو قتال المشاة... . فليس أسهل من تبديد أرواح الرجال ، اذ كان الآمر لايدري ماهو فاعل!

فقال كوبيلوف مؤيداً غريغوري :

ـ هذا حق . انني أؤيد تنزيل رتبة دوداريف .

وتوجّه غريغوري بالسؤال الى يرماكوف ، وهو يلاحظ سيماء عدم الرضا على وجهه :

ـ حسن يا يرماكوف ، أتعارض ذلك ؟

ـ لا ، أبداً . أنا لم أقل شيئاً . ألا أستطيع أن أرفع حاجبي ؟!

ـ هذا حسن . يرماكوف لايعارض . سيتسلّم ريابتشيكوف كتيبة خيّالته

في الوقت الحاضر . كوبيلوف ، اكتب الأمر ، ثمّ نم حتّى الفجر . وانهض ثانية في الساعة السادسة . سنمضي لنرى هذا الجنرال .انني سأصحب معي أربعة مراسلين!

فرفع كوبيلوف حاجبيه دهشاً :

ـ وما حاجتك بهم جميعاً ؟

ـ يا للمفاخرة! فلسنا ممن لا قيمة لهم ، نحن نقود فرقة بكاملها!

وأطلق غريغوري ضحكة ، ثمّ شدّ كتفيه وألقى بمعطفه عليهما واتجه نحو الباب .

استلقى نحو افريز مأوى ، ملفعاً نفسه بمرشحة خيل ، دون أن يخلع جزمته أو معطفه . وظلّت أصوات المراسلين تنبعث زمناً طويلاً من ناحية الفناء . وعلى مقربة يسيرة كانت خيل لا تنفكّ تزنخر وتلوك لجامها . وفاحت رائحة جل طري وتراب لم يبترد بعد غب حرارة النهار . وخلل نعاسه ، تسمّع غريغوري الى أصوات وضحكات المراسلين ، وسمع أحدهم ، وكان فتيّاً ، كما بدا ذلك في صوته ، يسرج حصانه ويقول متنهداً :

ـ آه ، ايها الأخوة ، لسوف أنفجر سأماً! الوقت الآن منتصف الليل ، ويتعين علي أن انطلق بهذه الرزمة . لانعرف طعم النوم ولا الراحة... هوو ، هوو ، قف مكانك ، أيها الشيطان! حافرك ، أقول لك ارفع حافرك!

وتمتم رجل ثان في صوت عميق أجش :

ـ يا حياة الجندية سنمناك ، سنمناك حتى أضراسنا! لقد أتلفت خيلنا الجيدة... .

ثمّ استحالت لهجته خفيفة مستعطفة :

ـ صب لنا من التبغ ما يكفي لسيكارة . آه إنك صديق صدوق! يبدو أنك نسيت جزمة الجيش الأحمر التي أعطيتك إياها حينما كنّا في بليافين ، ها ؟ أيها الخنزير! لو كنت قد أعطيت الجزمة لغيرك لظل يتذكّرني بها الى

الأبد ، بينما لا أستطيع أن أحصل منك ، حتّى تملّقاً ، على شيء من التبغ لسيكارة واحدة!

جلجلت شكيمة اللجام بين أسنان الحصان . وجرّ الحصان نفساً طويلاً وعميقاً ، ثمّ مضى خبباً ، وسنابكه تقعقع على الأرض اليابسة الصلبة كالصخر . حدث غريغوري نفسه :

ـ الجميع يتحدّث عن الشيء نفسه .

وكرّر كلمات الجندي ، مبتسماً :

ـ يا حياة الجندية سنمناك ، سئمناك حتّى أضراسنا!

ومالبث أن لفّه النوم في الحال . وما أن أغفى حتّى رأى حلماً كان قد رآه عدّة مرات من قبل... . على الحقول السمر ، وفوق جذامة الحنطة العالية ، كانت صفوف من جنود الجيش الأحمر تتقدّم . وقد امتد الصف الأول الى حيث تستطيع العين أن تمتد . وتقدّمت خلف الصف الأول ستة أوسبعة صفوف أخرى . وكان الرجال يقتربون أكثر فأكثر خلل الصمت الكئيب .

وكبرت الهياكل السوداء الصغيرة ، وازداد حجمها ، وصار في مستطاعه الآن أن يراهم يخطون ، سريعين ، متعثرين ، متقدّمين الى الأمام ، الى الأمام ، الى الأمام ، بالغين مدى النار ، راكضين وبنادقهم أمامهم ، بخوذهم القماشية الهادلة ، وأفواههم الفاغرة في صمت . كان غريغوري متمدّداً في خندق ضحل ، وهو يسحب ترباس بندقيته ، بعصبيه ، مطلقاً النار مرة تلو المرة ، وجعل جنود الجيش الأحمر يتعثرون ، تحت وطأة ناره ، ينكفؤون على رؤوسهم . فدس مشطاً جديداً من الطلقات ، ثمّ نظر الى جانبيه ، فرأى القوزاق يقفزون خارجين من الخنادق المجاورة ، ثمّ يستديرون ويهربون ، بوجود شوهها الرعب . وكان بمستطاعه أن يسمع ضربات قلبه الفظيعة ، وصرخ :

ـ أطلقوا النار! أيها الخنازير! أين تذهبون ؟ قفوا ، لاتهربوا!

وصرخ بأعلى صوته ، لكن صوته كان ضعيفاً الى درجة مخيفة ، لا

يكاد يسمع . وأمسك الرعب بتلابيبه . فقفز هو أيضاً ، وبينما هو واقف أطلق رصاصة أخيرة على جندي أحمر ، قاتم السحنة ، كان يركض ، في صمت ، متوجّهاً نحوه مباشرة . ورأى أنه قد أخطأه .

لم يكن الجندي شاباً ، وكانت قسماته مهيبة ، متوترة ، لاأثر للخوف عليها . وكان يعدو بخفّة ، قدماه لاتكادان تلمسان الأرض ، حاجباه معقودان ، قبعته في مؤخرة رأسه ، وأذيال معطفه مرفوعة الى أعلى . حدّق غريغوري لحظة في العدو المتقدّم ، فرأى عينيه المتعلّقتين ، ووجنتيه الشاحبتين وقد علتهما لحية قصيرة مجعّدة ، ورأى فتحتي جزمته الواسعتين ، والعين الصغيرة السوداء لماسورة بندقيته المنخفضة قليلاً ، وفوقها نقطة الحربة السوداء ، تعلو وتنخفض في إيقاع منتظم . فأخذ بخناقه ذعر يفوق الوصف . شدّ ترباس بندقيته ، لكن الترباس لم يتحرك ، اذ انحبس . وفي غمرة يأسه ، ضرب الترباس على ركبته ، بدون جدوى . لكنّ الجندي الأحمر صار ، الآن ، على مبعدة خمس خطوات منه ، فقط . فاستدار غريغوري ولاذ بالفرار . كان الحقل الأسمر الممتد أمامه مرشوشاً بقوزاق هاربين . وفي أعقابه سمع مطارده يجر أنفاساً مبهورة ، وسمع ضربات جزمته تلطم الأرض لطماً أجوف . لكنّه لم يستطع أن يعدو أسرع ، وتعيّن عليه أن يبذل جهداً فظيعاً ليجبر ساقيه المتراخيتين على الاسراع . وأخيراً بلغ مقبرة كئيبة شبه مهدّمة ، فقفز عبر السور المنهار وعدا بين القبور الخاسفة والصلبان المعوجّة والقباب الصغيرة . ومع ذلك ، فقد كان عليه أن يبذل مجهوداً آخر قبل أن يستطيع النجاة . لكن رعيد الأقدام من ورائه قد زاد وغدا أشد هديراً . وأخذت أنفاس مطارده اللاهبة تحرق رقبته . وفي تلك اللحظة أحسّ بأنّه قد أمسك بذيل وحاشية معطفه . فانطلقت منه صرخة مكتومة . ثمّ أفاق من نومه .

كان مستلقياً على ظهره . قدماه تخدرتا في جزمته الضيقة ، وعلى جبهته عرق بارد ، وجسمه موجع كله وكأنه قد ضرب بالسياط . فقال بفظاظة :

ـ أوه ، جحيم!!

وانصت الى صوته بارتياح دون أن يستطيع ، بعد ، أن يصدّق أنّ ماكان قد عاشه توّاً لم يكن سوى حلم . ثمّ انقلب على جنبه ولف جسمه حتّى رأسه بمعطفه الثقيل ، وحدّث نفسه :

ـ كان عليّ أن أدعه يقترب ، وأتفادى ضربته ، ثمّ أضربه بعقب البندقية ، ومن ثمّ أهرب...

لبث لحظة يستعيد الحلم الذي عاوده عدّة مرّات ، مستشعراً فرحاً وراحة لإدراكه بأنّه لم يكن سوى كابوس مزعج وأنّه في واقع الحال لم يكن ثمّة خطر دانٍ منه قط .

«عجباً أن يكون الحلم أفظع عشر مرّات من واقع الحياة . لم أعرف مثل هذا الرعب طوال حياتي ، حتّى في أحرج الأزمات» .

وغفا ، ماداً ساقيه الخدرتين في رضى وارتياح .

١٠

أيقظه كوبيلوف عند الفجر :

ـ انهض! حان وقت الاستعداد والذهاب . لقد أمرنا بالمثول هناك في الساعة السادسة!

كان رئيس هيئة الأركان قد حلق ذقنه توّاً ولمّع جزمته وارتدى قمصلته الدهينة ، والنظيفة معاً . كان بادي الاستعجال ، وقد علا خدّيه الممتلئتين جرحان من أثر الموسى . بيد أن مظهره العام اتسّم بأناقة كان يفتقر اليها في السابق .

أجال غريغوري نظرة ناقدة فيه ، وقال في سريرته :

ـ عجباً! انظر كيف أنق نفسه! لا يريد أن يبدو خشن المنظر حينما يمثل أمام الجنرال...

وقال كوبيلوف ، وكأنّه استشفّ ما كان يجري في ذهن غريغوري :
ـ لا يحسن أن يذهب المرء قذر المظهر . نصيحتي إليك أن تجعل مظهرك مقبولاً ، أيضاً .
فتمتم غريغوري ، متمطّياً :
ـ سأذهب كما أنا . هل قلت إنّه أمرنا بالمثول هناك في الساعة السادسة ؟ اذن فقد شرعوا فعلاً بإصدار الأوامر لي ولك ؟
فضحك كوبيلوف وهزّ كتفيه :
ـ لكل حال لبوسها! وبما أنّه أعلى منّا رتبة ، فلزام علينا الطاعة . ثمّ أنّ فتشالوروف جنرال ، وليس لمثله أن يأتي الينا .
فقال غريغوري :
ـ أنت على حق . فقد حصلنا على ما شنناه .
وخرج ليغتسل عند البئر .
ثمّ دخلت ربّة الدار مسرعة ، وأخرجت منشفة مطرّزة نظيفة ، وناولته إياها وهي تركع . فمسح بطرفها ، وفي حركة عنيفة ، وجهه الذي استحال لونه كالقرميد من أثر الماء البارد ، وقال لكوبيلوف :
ـ أنت على حق تماماً ، لكن هؤلاء الجنرالات يجب ألا يغيب عن بالهم شيء واحد بالذات . وهو أن الناس قد تغيّروا منذ نشوب الثورة . لقد ولدوا من جديد ، كما قد تعبّر أنت عن ذلك . بيد أنّ الضبّاط لايزالون يقيسون بياردة القياس القديمة ذاتها . وأنا أخشى أن ياردة قياسهم هذه ستنكسر عمّا قريب... إن مفاصل الضبّاط متيبّسة . وهم في حاجة الى وضع شيء ، من شحم المحاور في عقولهم ، لإيقاف صريرها!
فتساءل كوبيلوف شاردا ، فيما نفخ أثراً من وساخة كان على كمه :
ـ ما الذي تستهدف من كلامك ؟
ـ أستهدف حقيقة كونهم مازالوا ينتهجون الأسلوب القديم نفسه . مثلاً ، أنا غدوت ضابطاً منذ الحرب الألمانية . لقد حصلت على هذه الرتبة

بدمي! لكنني حينما أكون في صحبة الضباط أشعر وكأنني خارج ، بسروالي الداخلي فقط ، من داخل كوخ الى حيث الثلج والبرد! أستطيع أن أحس ببرودتهم تجاهي حدر ظهري!

تلامعت عينا غريغوري حنقاً ، وارتفع صوته دون أن يدري فتلفت كوبيلوف من حوله متضايقاً ، وهمس قائلاً :

ـ لا تتكلم بصوت عال هكذا . سيسمعنا المراسلون . فاستأنف غريغوري كلامه خافضاً صوته :

ـ وأنا أسألك ، لِمَ يحدث ذلك ؟ لماذا ؟ لأنني بالنسبة لهم شحرور أبيض* . ان لهم أيادي لكن يديّ تصلبتا حتى غدا كالحوافر .

ـ يستطيعون ان يتحركوا بالنعومة والاناقة اما انا فما ان ألج في غرفة حتى أرتطم بكل شيء فيها . منهم ، تنبعث عطور صابون الزينة وجميع أصناف الدهانات النسوية ، بينما تنبعث مني رائحة عرق الخيل وبولها . هم ، جميعاً ، متعلمون ، في حين أنني كدت ألا أنهي دراستي في مدرسة الكنيسة . انني غريب بالنسبة لهم ، من رأسي حتى أخمص قدمي . هذا هو سبب هذه الوضعية! وحينما أتركهم ، يخامرني دائما شعور بأن بيتاً للعنكبوت قد استقر على وجهي ، فاذا بحساسية تكتنف جسمي كله وينتابني شعور بعدم الارتياح ، وأصبح لا أريد شيئا سوى تنظيف جسمي .

ثم قذف بالمنشفة على حافة البئر وشرع يمشط شعره بمشط مكسور فبانت جبته ، التي لم يمسها لفح الشمس ، بيضاء ناصعة في أعلى وجهه ، الأسمر . واستأنف كلامه في لهجة أهدأ :

ـ انهم لا يريدون أن يدركوا بأن نهج الحياة القديم قد تحطم تماماً وراح الى سَقَرْ! انهم يعتقدون بأننا مجبولون من عجينة أخرى ، وبأن الرجل غير المتعلم ، أي الرجل العادي ، انما هو صنف من أصناف الماشية . وهم يعتقدون

---

* الشحرور : طير أسود اللون عادة . المترجمون

بأنني ، أو من هو على شاكلتي ، يفهم في الأمور العسكرية أقل مما يفهمون . ولكن ، من هم قادة الحمر ؟ هل بوديوني ضابط ؟ كان عريفاً في أيام ما قبل الحرب ، ولكنه هو الذي أذاق جنرلات أركاننا طعم السوط! غوسلشتشيكوف أشهر محارب من بين الجنرالات القوزاق ، لكنه هرب من أوست ـ خوبر سكايا في الشتاء الماضي وليس يستره سوى سرواله الداخلي! وهل تعرف من جعله يلوذ بالفرار ؟ صانع أقفال موسكوفي ، آمر كتيبة حمراء . كان الأسرى يتحدثون عنه فيما بعد . عليك أن تفهم هذا! وماذا عنا ، نحن الضباط غير المتعلمين ؟ هل قمنا بقيادة القوزاق قيادة فاشلة أثناء الانتفاضة ؟ هل قدم الجنرالات مساعدات كبيرة لنا ؟ فقال كوبيلوف مؤكدا :

ـ نعم ، قدموا مساعدات كبيرة .

ـ حسن ، ربما قدموا مساعدات لكودينوف ، أما أنا فقد عملت بدون مساعدتهم ودحرت الحمر دون الاصغاء الى نصائح الآخرين .

ـ حسن . وماذا في ذلك ؟ ألا تعتقد بضرورة تطبيق العلم في الشؤون العسكرية ؟

ـ بلى . ولكن ، ما هذا بالشيء الرئيسي في الحرب ، أيها الأخ .

ـ حسن ، فما هو اذن ، يا بانتلايفتش ؟

ـ القضية التى تحارب من أجلها .

فقال كوبيلوف وهو يكتم ابتسامته :

ـ حسن ، انما هذا موضوع آخر... وهو مما لا نقاش عليه...الفكرة ، في هذه الحرب ، هي الشيء الرئيسي .

المنتصر هو الذي يعرف من أجل أي شيء يحارب وهو الذي يؤمن بقضيته . هذه حقيقة قديمة قدم العالم نفسه . ولا جدوى في محاولتك التلويح بها وكأنها اكتشاف من بنات أفكارك . انني أؤمن بالقديم . بالأيام الخوالي الرضية . ولو كانت الأمور ستستحيل الى شكل جديد لما رفعت اصبعاً وذهبت الى أيما مكان أو حاربت لأيما سبب . ان جميع الذين هم في

صفنا انما يدافعون عن امتيازاتهم القديمة ، ويقمعون الشعب الثائر بقوة السلاح ، وما أنا وأنت إلا من بين أولئك المقموعين . لقد كنت أدرس شخصيتك ، يا غريغوري بانتلايفتش ، منذ أجل طويل ، لكنني لازلت غير قادر على فهمك .

فرد غريغوري وهو يمضي صوب المأوى :

ـ ستفهمني فيما بعد . لنذهب الآن .

وكانت ربة الدار في غضون ذلك تراقب كل حركة من غريغوري . ثم سألته والرغبة تحدوها لكسب مرضاته :

ـ أترغب في شيء من اللبن ؟

ـ شكراً لك ، أيتها الأم ، ولكن لم يعد أمامي وقت لشرب اللبن . سأشرب منه شيئا فيما بعد .

* * *

كان بروخور زيكوف واقفاً بجوار مأوى يعب اللبن الحامض من وعاء في نهم شديد . ولم تطرف له عين فيما كان يراقب غريغوري يحل حصانه . فمسح شفتيه بكمه وتساءل :

ـ أذاهب الى مكان بعيد ؟ أتريدني أن أصطحبك ؟ فاهتاج غريغوري وقال في حنق شديد :

ـ علام تتعابث ، يا جرب! ألا تعرف واجبك ؟ لِمَ لايزال حصاني مربوطاً ؟ من المفروض أن تأتيني بحصاني ، أيها الشيطان النهم! انك لا تنفك تلوك شيئاً! والآن ، ارم تلك الملعقة من يديك . أين ضبطك ؟ يا جحراً لا قرار له!

فتمتم بروخور مستاء وهو يقتعد السرج في استرخاء :

ـ وعلام هياجك ؟ أصرخ ما شئت ، ولكن بلا داع! ومهما يكن من أمر فما أنت بذلك الشخص ذي السطوة والنفوذ! أفلا أستطيع أن أتناول عضة أو رشفة قبل رحلة ؟ ففيم صراخك ؟

ـ لأنك تخذلني ، يا مصارين الخنزير! كيف تجرؤ على التحدث اليّ بهذه الصورة ؟ نحن ماضون في الحال لمقابلة جنرال فابق عينيك مسلوخة الجلد! لقد اعتدت أكثر مما ينبغي على التبسط على رؤسائك! ما أنا بالنسبة لك ؟

ثم أصدر إليه غريغوري أمراً فيما كان يبتعد عنه نحو البداية :

ـ كن على مبعدة خمس خطوات خلفي!

فتراجع بروخور والمراسلون الثلاثة الآخرون . وحين حاذى غريغوري كوبيلوف استأنف حديثه ، فسأله بلهجة ساخرة :

ـ حسن ، ما الذي لا تفهمه فيّ ؟ لعلي أستطيع توضيحه لك ؟

ومن غيرأن يلاحظ كوبيلوف نبرة السخرية في صوت غريغوري ولا صيغة سؤاله ، أجاب :

ـ الواقع أنني لا افهم موقعك في هذه الشغلة ، هذا كل ما في الأمر ، فمَن ناحية ، أنت تحارب في صف النظام القديم ، ولكنك من الناحية الأخرى ـ واعذرني ان كنت سأقولها بلا مجاملة ـ أشبه ما تكون ببلشفي .

فغامت سحنة غريغوري وتململ في سرجه :

ـ بأي شيء تظهر بلشفتي ؟

ـ أنا لا أقول انك بلشفي ، ولكنك أشبه ما تكون ببلشفي .

ـ وأنا أسألك : كيف ؟

ـ حسن ، خذ مثلاً طريقة كلامك عن الضباط وموقفهم تجاهك . ماذا تريدهم أن يفعلوا ؟ بل ، ماذا تريد أنت ، على وجه العموم ؟

قال كوبيلوف ذلك في ابتسام وطيبة وهو يعبث بسوطه . واستدار ليلقي نظرة على المراسلين ، فوجدهم منهمكين في مناقشة ما ، فرفع صوته :

ـ أنت مستاء لأنهم لا يعتبرونك نداً لهم ، لانهم يتعالون عليك . لكنهم على حق ، من وجهة نظرهم هم ، وعليك أن تدرك ذلك . صحيح أنك ضابط ، ولكنك بلغت هذه الرتبة عن طريق الصدفة ، فحسب . وحتى حين تكون

مرتدياً بزة الضابط فانك تظل ـ واسمح لي أقولها بصراحة ـ قوزاقياً جامحاً فظاً . لا قواعد للسلوك لديك . تعبر عما في نفسك بفظاظة وسوء . انك تفتقر الى جميع الصفات التي تعتبر طبيعية لدى الرجل المتعلم . فمثلاً ، بدلاً من استعمال منديلك ، كما يفعل جميع المتعلمين ، تلجأ الى التمخط في سبابتك وابهامك . وحينما تأكل ، تمسح يديك بساق جزمتك أو بشعرك . بعد الاغتسال ، لا تجد ضيراً في التمسح بمرشحة خيل . وحين تقلم أظافرك ، أما أن تفعل ذلك قرضاً بأسنانك أو قطعاً بنصل سيفك . وأنكى من ذلك : في الشتاء الماضي ، في كاركنيسكايا ، رأيتك تتكلم الى احدى النساء المثقفات ، وكان زوجها قد وقع أسيراً بأيدي القوزاق ، فكنت تزرر أزرار بنطلونك أمام عينيها .

فتساءل غريغوري وعلى فمه ابتسامة كظيمة :

ـ اذن كان من الأفضل أن أترك بنطلوني غير مزرر ؟

كان حصاناهما يسيران جنباً الى جنب ، واسترق غريغوري نظرة من طرف عينه الى كوبيلوف ، الى وجهه الطيب ، واستمع الى كلماته بشيء من التألم . وقال كوبيلوف مقطبا ومتضايقاً :

ـ ليس هذا المهم . انما ، كيف يتسنى لك أن تواجه امرأة حينما لا يسترك سوى بنطلونك ، وأنت حاف ؟ حتى أنك لم تنشر سترتك على كتفيك ، انني أتذكر ذلك جيداً . لا شك أن هذه أمور تافهة ، لكنها بمجموعها تكون شخصيتك كرجل... كيف أعبر لك عما أعني ؟

ـ بأبسط ما تستطيع!

ـ حسن ، كرجل في منتهى الفظاظة . ثم خذ طريقتك في الكلام! فظيعة! بدلاً من « مقر » تقول « مقور » ، بدلاً من « جلاء » تقول « جلاع » ، بدلاً « من الواضح » تقول « يبدو كما لو أنه » . ثم ، كشأن جميع الأميين ، لديك رغبة جامحة في استعمال الكلمات الأجنبية الرنانة . تستعملها بمناسبة وبدون مناسبة ، وتشوهها بشكل يأبى على التصديق . وحينما يأتي ذكر المصطلحات

العسكرية أثناء مؤتمرات هيئات الأركان ـ ككلمات «انفكاك» ، «تحويلات» وما شاكل ـ فانك تحملق في المتكلم باعجاب وأستطيع أن أقول بل بحسد . فهتف غريغور ، وقد علت وجهه سيماء المرح :

ـ ها انك بدأت تهذي!

ثم قال فيما كان يمسد على حصانه فيما بين أذنيه ويحك اهابه الحريري الدافئ فيما تحت العرف :

حسن ، امضِ في حديثك . وبّخ آمرك ما شئت!

ـ لا . اسمع ! لماذا أكون أنا ، بالذات ، من يوبخك ؟ يجب ان يكون واضحاً لديك تماماً انك لا أكثر من كونك سيئ الطابع فيما يتعلق الامر بمثل هذه الاشياء . ثم تستاء لأن الضباط لا يعاملونك معاملة النّد . وبقدر ما يتعلق الأمر بقواعد السلوك والثقافة فأنت لا أكثر من بليد!

خرجت كلمة إهانة من فم كوبيلوف عفواً ، حتى ان كوبيلوف نفسه ذهل . كان يدرك مدى جموح غريغوري ساعة غضبه ، فبات يخشى ان ينفجر به . لكنه استرق نظرة سريعة اليه فاطمأنت نفسه في الحال . كان غريغوري قد مال الى الخلف على سرجه ، وهو يضحك بلا صوت كاشفاً عن صف ناصع من الأسنان المتألقة من تحت شاربيه . فاستبدت الدهشة بكوبيلوف للإثر الذي تركته كلماته . وكانت ضحكة غريغوري معدية بحيث انفجر كوبيلوف ، هو الآخر ، ضاحكاً وهو يقول :

ـ انظر الى نفسك! لوسمع مثل هذا التوبيخ رجل حصيف ، مكانك ، لجعل يبكي ، بينما انت تصهل ضحكاً في لامبالاة... مالنت إلا لغز محير!

وحين توقف غريغوري عن الضحك ، قال :

ـ تدعوني بليداً ؟ اذن ، عليك اللعنة! أنا لا أريد أن أتعلم قواعد سلوككم وعاداتكم . فهي لن تكون ذات نفع لي حينما أسوق ثيراني . ولكن اذا شاء الله وبقيت حياً ، فلسوف أعامل ثيراني بطريقتي الخاصة ، ولن يجديني شيئاً الانحناء لها قائلاً :

ـ آه ، استعطفك ألا تحرن ، يا أصلع الرأس! استميحك العفو ، يا أرقش! اسمح لي أن أشد النير على عنقك ! يا سيدي العزيز ، يا ثور ، انني اتوسل إليك ، بكل تواضع ، ألا تعيث فساداً في سواقي الحرث! ان عليك ان تكون أكثر حزماً معها : « ها ها ها ـ هوب! » هذا كل ما تفهمه الثيران من تحميلاتك .

فصححه كوبيلوف بقوله :

ـ ليست « تحميلات » بل « تحويلات » .

ـ حسن ، تحويلات . لكن هناك شيئا واحداً لا اتفق معك عليه .

ـ ما هو ؟

ـ من انني بليد . فقد أكون بليداً بالنسبة اليك ، ولكن مهلاً! أمهلني وقتاً حتى انتقل الى جانب الحمر ، وحينما أكون معهم يصبح وزني أثقل من الرصاص . وآنذاك ، يحسن بكم ألا تقعوا في يدي ، أنتم أيها الطفيليون المهذبون! فلسوف انتزع مصارينكم ، وأرواحكم معها كذلك!

قال غريغوري ذلك نصف هازئ ، نصف جاد . ثم لفح حصانه وانطلق به هذباً سريعاً .

كان الصباح فوق الاراضي الواقعة على جانب الدون يقدم متلفعاً بغلالة رقيقة من الصمت ، بحيث كان أي صوت ، حتى أصغر الأصوات ، خليقاً بافساد ذلك السكون واثارة جميع الأصداء . وفي السهب ، لم تكن سوى القبّرات وطيور السمان حرة طليقة ، اما في القرى الصغيرة القريبة ، فكان يسمع ذلك الارعاد الخافت الموصول الذي يصاحب دائماً حركة قوات عسكريةكبيرة . عجلات عربات المدافع وعربات العتاد كانت تقعقع فوق نتوءات الطريق ، والخيول تصهل بجوار الابار ، وخطوات كتائب مشاة القوزاق المارة مكتومة خافتة ، وعربات « البريتزكا » وقوافل من العربات المدنية تحمل المؤن والعتاد الى الجبهة . وكانت ثمة رائحة طيبة تنبعث من مطابخ الميدان لدخن مسلوق ولحم معلب مطيب بأوراق الغار وخبز طازج .

وعلى مقربة من أوست ـ مدفيتسكايا نفسها ، كان تبادل اطلاق نار البنادق لا ينقطع ، ومن حين لآخر كان هدير رمي المدافع ينبعث كسولاً لا رنين له . كانت المعركة قد بدأت تواً .

كان الجنرال فتشالوروف يتناول طعام افطاره حينما دخل عليه مساعد متقدم في السن بادي التعب ، وقال :

ـ قائد فرقة الثوار الاولى ، ميليخوف ، ورئيس هيئة اركان فرقته ، كوبيلوف .

ـ اطلب منهما الدخول الى غرفتي .

وبيد جسيمة كثيرة العقد نحّى صحنه بقشور البيض ، وشرب قدحاً من الحليب الطازج على مهل ، ثم قام عن المائدة وهو يطوي منشفته بحركة أنيقة .

وحينما نهض بدا ، بقامته الطويلة جداً وجسمه الهائل البدين من أثر الكبر ، جسيم الجرم الى حد يفوق التصور في تلك الغرفة القوزاقية الصغيرة برفارف بابها المائلة ونوافذها الصغيرة المعتمة .

ومضى الجنرال الى الغرفة الثانية وهو يتنحنح بصوت أجوف ويسوي الياقة العالية لبزته المحكمة عليه بشكل لايقبل النقد . وانحنى انحناءة مقتضبة لكوبيلوف وغريغوري حينما قاما لمقدمه ، ومن غير أن يصافحهما أشار اليهما أن يجلسا الى المائدة .

فجلس غريغوري ، متهيبا ، على طرف المقعد وهو يعدل وضع سيفه بيده ، وألقى نظرة جانبية على كوبيلوف .

انهدّ فتشالوروف ، ثقيلاً ، على الكرسي الفييني* ، فصرّ هذا من تحته ، وطوى ساقيه ووضع يديه الكبيرتين على ركبتيه ، وقال في صوت خفيض غليظ :

---

* نسبة الى فيينا ، عاصمة النمسا . المترجمون

ـ لقد دعوتكما الى الحضور هنا ، أيها السيدان ، بغية تسوية بضع قضايا.. لقد انتهت حرب الثوار الأنصار . وعليه ، فسوف ينتهي اعتبار قواتكما وحدة مستقلة . حديث خرافة! لسوف تدغم مع «جيش الدون» . وسوف ننتقل الآن الى شن هجوم مخطط . لقد حان الوقت لكي تدركا ذلك ، وعليكما ان تخضعا ، بلا قيد أو شرط ، للأوامر الصادرة من القيادات العليا . هلا تفضلتما بإعلامي عن السبب الذي جعل وحدة مشاتكما لا تساندهجوم فوج الصاعقة يوم امس ؟ لماذا رفضت الوحدة الاشتراك في الهجوم ، على الرغم من أوامري ؟ من هو قائد ما يسمى بفرقتكما ؟

أجاب غريغوري بصوت خفيض :

ـ أنا هو .

ـ هلا تفضلت بالاجابة عن السؤال ، اذن ؟

ـ أنا لم اعد الى الفرقة إلا أمس .

ـ واين امضيت وقتك الطيب قبل ذلك ؟

ـ كنت ازور اهلي .

ـ قائد فرقة يبيح لنفسه زيارة أهله أثناء العمليات الحربية! ان فرقتك عبارة عن مجموعة دهماء! فوضى مطبقة! حالة منفرة!

ارتفع صوت الجنرال الجهوري أكثر فأكثر داخل الحيز المحدود للغرفة الصغيرة . وفي الخارج ، جعل المراسلون يمضون على رؤوس اصابعهم ، متهامسين ، متبسمين . وشحب اللون في خدي كوبيلوف ، اما غريغوري فقد احس ، فيما كان يحملق في وجه الجنرل وقبضتيه المنتفختين المضمومتين ، بغيظ جامح يستيقظ في داخله هو الآخر .

وثب فتشالوروف قائماً ، في خفة غير متوقعة ، صرخ وهو يمسك بظهر كرسيه :

ـ ان من تقودهم ليسوا قوات حربية ، بل دهماء «الحرس الاحمر»! ليسوا قوزاقاً ،بل حثالة البشرية! أنت ، يا سيد ميليخوف ، لا تصلح كقائد

فرقة ، بل يجب ان تعمل مراسلاً! يجب ان تكون منظفاً للجزم! أتسمعني ؟ لم لم ينفذ الأمر ؟ لأنك لم تستطع ان تعقد اجتماعاً ولم يتسع لك الوقت لمناقشته ؟ افتح عينيك! نحن لسنا «رفاقاً» ، هنا ولن نسمح بدخول الأساليب البلشفية . لن نسمح!

فقال غريغوري في صوت غليظ :

ـ أجد لزاماً عليّ ان اطلب منك ألا تزعق في وجهي! وقام ، دافعاً المقعد بقدمه .

فصرخ فتشالوروف في صوت أجش ، وهو يلهث بانفعال ويميل عبر المنضدة :

ـ ماذا قلت ؟

وكرر غريغوري كلماته في صوت اعلى :

ـ أجد لزاما عليّ ان اطلب منك ألا تزعق في وجهي . لقد ارسلت في طلبنا لكي نقرر... ، ـ وصمت ثانية ، وأنزل عينيه ، من غير ان يحيد بصره عن يدي فتشالوروف ، قال في صوت يقرب من الهمس :

ـ اذا حاولت ، يا صاحب السعادة ، ان تضع مجرد اصبعك الصغيرة عليّ ، فلسوف اشطرك بسيفي في الحال!

خيم على الغرفة صمت مطبق ، حتى لقد كان بالمستطاع سماع انفاس فتشالوروف اللاهثة بوضوح . ولبث الصمت زهاء دقيقة . ثم أغلق الباب بحذر . ظل غريغوري واقفاً ويده ممسكة بمقبض سيفه . كانت ركبتا كوبيلوف ترتعشان ، وعيناه تجولان على الحائط . ثم قذف فتشالوروف بجسمه على الكرسي ، واطلق سعلة تنم عن كهولة ، وجمجم قائلاً :

ـ عمل رائع! ـ ثم قال في منتهى الهدوء ، لكن دون ان ينظر الى غريغوري :

ـ اجلس . لقد انفعلنا بعض الشيء ، وها قد زال الانفعال الآن . فهلا

تفضلت بالاصغاء . انني آمرك بأن تنقل في الحال جميع وحدات الخيالة... ولكن ، هلا جلست ؟

فجلس غريغوري . وبكمه مسح العرق الغزير الذي كان قد تفصد فجأة على جبينه .

ـ لنستمر . يجب ان تنقل جميع وحدات الخيالة الى القطاع الجنوبي الشرقي وان تشرع بشن هجوم على الفور . من جناحك الأيمن ستكون على اتصال بالفوج الثاني تحت قيادة مقدم تشوماكوف...

فقاطعه غريغوري قائلاً بصوت كليل :

ـ لن أمضي بالفرقة الى هناك .

وأخرج من جيب بنطلونه منديله المقصب الذي اعطته اياه ناتاليا ، مسح به من جديد العرق من جبهته ، وكرر قوله :

ـ لن أسير بالفرقة الى هناك .

ـ ولم لا ؟

ـ ان اعادة تجميع القوات ستستغرق وقتاً طويلاً...

ـ هذا ليس من اختصاصك . انا المسؤول عن نتيجة العملية .

ـ ولكن الأمر يتعلق بي ، ولن تكون انت المسؤول الأوحد .

فسأله فتشالوروف بصوت اجش وهو يكبح جماح غضبه في مشقة :

ـ اذن فأنت ترفض تنفيذ الأوامر ؟

ـ نعم .

ـ في هذه الحالة ، ، هلا تفضلت بتسليم قيادة الفرقة في الحال . صرت ، الآن ، أفهم لماذا لم ينفذ الأمر أمس...

ـ تستطيع أن تفسر ذلك وفق ما يحلو لك ، لكنني لن اتنازل عن قيادة الفرقة .

ـ وكيف افسر ذلك ؟

ـ كما قلت أنا .

وابتسم غريغوري ابتسامة لا تكاد تلحظ .

فقال فتشالوروف رافعاً صوته :

ـ سأعزلك من القيادة!

بيد ان غريغوري قام على قدميه حالا :

ـ أنا غير خاضع لك ، يا صاحب السعادة!

ـ فلمن خاضع اذن ؟

ـ أنا خاضع لقائد القوات الثائرة ، كودينوف . ويدهشني أن أسمع مثل هذا الكلام منك... ان لكلينا ، في الوقت الحاضر على الأقل ، حقوقاً متساوية . أنت تقود فرقة ، وأنا أقود فرقة . وعليه ، يجدر بك ـ والحالة هذه ـ ألا تصرخ في وجهي . أما حينما تنزل درجتي الى مرتبة آمر سرية ، ، فلك مطلق الحرية آنذاك! ولكن ، حتى في ذلك الوقت...

ورفع غريغوري سبابته المتسخة ، وأنهى جملته قائلاً وهو لا ينفك يبتسم حتى حينما ظلت عيناه تقدحان هياجاً :

ـ حتى في ذلك الوقت ، لن ادع أحداً يتحارش بي!

فنهض فتشالوروف ، وسوّى ياقته الضيقة ، وقال منحنياً انحناءة خفيفة :

ـ اذن ، فلم يعد بيننا ما يمكن مناقشته . تصرف كما تشاء اما انا فسوف ارفع على الفورتقريراً عن سلوكك الى هيئة اركان الجيش ، واستطيع أن أؤكد لك ، بان النتائج لن يتأخر ظهورها بأية حال .ان محكمتنا العرفية العسكرية العاملة في الميدان تؤدي عملها في الوقت الحاضر في منتهى السرعة .

ومن غير ان يعير غريغوري نظرات كوبيلوف اليائسة أي اهتمام ، حط قبعته على رأسه واتجه نحو الباب . وعند العتبة ، توقف وقال :

ـ تستطيع أن ترفع تقريراً الى أية جهة تشاء ، لكنك لن تستطيع اخافتي! لست من مهتزي الأعصاب... وفي الوقت الحاضر ، يجدر بك ألا تمسني... ولبث لحظة متفكراً ، ثم أضاف قائلاً :

ـ لأنني أخشى أن يخضك رجالي خضة خفيفة... ورفس الباب بقدمه

فانفتح ، ثم مضى يخطو خطوات متأرجحة نحو السقيفة ، وسيفه يجلجل .

لحق به كوبيلوف المنفعل عند درجات العتبة ، وقال هامساً وهو يعتصر يديه قانطاً :

ـ أنت مجنون ، يا بنتلاييفتش!

فهتف غريغوري في صوت مرنان :

ـ الخيل! ـ ويداه تسحقان سوطه . فانطلق بروخور ، كالشيطان ، الى الدرجات . وبينما كان غريغوري يسير على حصانه خلال البوابة ، نظر الى الخلف . كان ثلاثة مراسلين يضجون حول الجنرال فتشالوروف ويعينونه على امتطاء السرج الأنيق لحصانه العالي .

قطع غريغوري وكوبيلوف زهاء نصف فرست صامتين . خلد كوبيلوف الى الصمت لأنه أدرك أن غريغوري لم يكن ميالاً للحديث ، وأن من الخطر في تلك اللحظة مناقشته . وأخيراً ، لم يستطع غريغوري أن يكبح نفسه أكثر من ذلك ، فسأله محتداً :

ـ علام سكوتك ؟ لم جئت معي ، اذن ؟ لتكون شاهداً ؟ لقد تعمدت السكوت ، أليس كذلك ؟

ـ أنت ، يا أخ ، لعبت لعبتك .

ـ ألم يفعل هو الشيء نفسه ؟

ـ لنفرض انه لم يكن على حق . طريقة كلامه معنا كانت طريقة مثيرة ، على كل حال .

ـ لا يمكنني أن أقول انه تحدث الينا . مطلقاً . فمن البداية راح يطلق زعيقاً ، وكأن أحداً قد ثبت ابرة في فتحة شرجه!

ـ مهما يكن من أمر ، فلقد اقترفت عملاً لا تحسد عليه! عدم الانصياع لضابط أقدم..وفي ظروف العمليات الحربية ، يا صديقي ان...

ـ هذا لا قيمة له! اسفي الوحيد انه لم يحاول مهاجمتي . وإلا لهويت بسيفي عليه حتى شطرت له جمجمته .

فقال كوبيلوف مستاء :

ـ لن تستطيع ، والحالة هذه ، ان تتوقع خيراً من هذا . وأبطأ سير حصانه حتى غدا يمشي وئيداً :

ـ كل الدلائل تشير الى انهم سيتشددون في تطبيق الضبط ، ، فيحسن بك ان تأخذ حذرك .

ومضى حصاناهما جنباً الى جنب يزنخران ويهشان الذباب بذيليهما . أجال غريغوري نظرة ساخرة في كوبيلوف وسأله :

ـ لم تأنقت في ملبسك على هذه الصورة ؟ أحسب أنك ظننت أنه سيدعوك لتناول قدح من الشاي ؟ ظننت انه سيأخذك الى المائدة بيده الرقيقة هو ؟ حلقت ذقك ونظفت قمصلتك ولمعت جزمتك... رأيتك تبصق على منديل جيب وتزيل به بقعاً من على ركبيتك!

فاحمر وجه كوبيلوف وقال :

ـ كف عن هذا الكلام ، ارجوك .

بيد ان غريغوري استمر ساخراً :

ـ ثم ذهبت كل جهودك عبثاً . وليس هذا فقط ، بل انه لم يصافحك باليد .

فتمتم كوبيلوف عجلاً :

ـ بوجودك ، كان محتملا ان تؤول الأمورالى أسوأ من ذلك . ـ ثم ضيق عينيه وهتف بمزيج من الدهشة والفرح :

ـ انظر! هؤلاء ليسوا من جماعتنا . انهم الحلفاء .

كانت مجموعة تتألف من ستة بغال تجر مدفعاً انكليزياً تتقدم باتجاههم في الشارع الضيق . وبجانب المدفع كان ضابط انكليزي يسير على حصان أشقر معقود الذيل وكان راكب البغل الأمامي مرتدياً الزي الانكليزي كذلك ، الا أنه كان يحمل شارة ضابط روسي على شريط قبعته ، وكان يحمل على كتفه شارات ملازم .

وحينما كان الضابط لا يزال على مبعدة عدة خطوات من غريغوري ، رفع اصبعين الى رفرف خوذته الفلينية ، وطلب الى غريغوري ، بحركة من رأسه ، ان يفسح الطريق . كان الشارع ضيقاً الى حد انه لم يكن بالمستطاع المرورر الا بصف الخيول بحذاء الجدارالحجري .

ارتعشت العضلات في وجنتي غريغوري . فمضى متجهاً صوب الضابط مباشرة ، وأسنانه تصرحنقاً . فرفع الضابط حاجبيه دهشة ، وتنحى جانباً بعض الشيء . فمروا بصعوبة ، حتى انه تعين على الانكليزي ان يضع ساقه اليمنى ، الملفوفة بشداد جلدي ضيق ، على الكفل المطمر* المتألق لفرسه الاصيلة .

فأجال واحد من فريق المدفعية ، كان يبدو ضابطا روسيا ، نظرة مغضبة في غريغوري وقال :

ـ كان بمستطاعك ان تتنحى قليلا على ما أظن . ام تريد أن تعرض فظاظتك ؟

فقال له غريغوري ناصحاً في صوت يكاد يكون مرتفعاً :

ـ مر بلا كلام ، يا ضرع الكلبة ، والا نحيتك الى الابد! فانهض الضابط قامته على مقعده ، واستدار ، وهتف :

ـ ايها السادة! اقبضوا على هذا الصعلوك!

فواصل غريغوري سيره الوئيد وهو يؤرجح سوطه في حركة ذات مغزى . فالقى عليه المدفعيون التعبون المغبرون نظرات ساخطة ، وكانوا جمعياً ضباطاً شباناً لاشوراب لهم ، بيد انهم لم يحاولوا قط أن يوقفوه .

ثم اختفت البطارية ذات المدافع الستة وراء منعطف ، فمضى كوبيلوف على صهوةحصانه الى جانب غريغوري وهو يعض شفتيه :

ـ أنت تلعب دور الاحمق ، يا غريغوري بنتلاييفتش . أنت تتصرف مثل طفل صغير . فرد عليه غريغوري بحدة :

---

* المطمر : الممشط بمطمار . وهو مشط خاص بالحيوانات .

ـ ماذا ، هل ألحقوك بي بصفتك معلماً ؟

فقال كوبيلوف هازاً عارضيه :

ـ أنا استطيع أن أفهم سبب غضبك على فتشالوروف ، ولكن ما علاقة هذا الانكليزي بذلك ؟ لم تعجبك خوذته ؟

ـ لم يعجبني ، ان أراها هنا ، على مقربة من اوست ـ مدفديتسكايا... كان بمقدوره أن يلبسها في مكان آخر... حينما يتناهش كلبان ، ليس لثالث ان يتدخل بينهما . أتفهمني ؟

ـ آها! اذن فأنت ضد فكرة التدخل الاجنبي ؟ ولكنك ، في اعتقادي ، حينما يضيق الخناق على بلعومك ، ستسر لأية مساعدة تأتيك .

ـ حسن ، بامكانك أن تبتهج ، بيد انني ما كنت لأدعهم يضعون أقدامهم على ترابنا .

ـ الم تر الصينيين يحاربون الى جانب الحمر ؟

ـ ثم ماذا ؟

ـ أليس هذا الشيء نفسه بالضبط ؟ انهم أيضا يمثلون معونة اجنبية ، كما لا يخفى عليك .

ـ هذا غير وارد . فالصينيون قد تطوعوا لمساعدةالحمر .

ـ وهل تظن ان الآخرين قد اجبروا على المجئ هنا ؟ ولم يدر غريغوري بما يجيب ، ولبث وقتاً طويلاً يقلب الفكر في سؤال كوبيلوف . ثم قال ، وفي صوته ألم ظاهر :

ـ أنتم ، المثقفين ، دائماً على هذه الشاكلة . تلفون وتدورون كما تفعل الأرانب في الثلج . أنا أشعر بأن وجهة نظرك خاطئة في موضع ما ، لكنني لا أدرى كيف أفحمك . فلنؤجل بحث الموضوع . لا تشوش فكري ، فأنا المشوش قبل أن تتدخل في الموضوع .

فخلد كوبيلوف الى الصمت مستاء ، ولم ينبسا بشيء بقية المسيرة . غير أن بوخور اقترب منهما بحصانه وتساءل والفضول يستحثه :

ـ يا غريغوري بانتلايفتش... يا صاحب السعادة... هل لك ان تخبرني اي نوع هي تلك الحيوانات التي كان «الكاديت» قد ربطوها الى المدافع ؟ ان لها آذانا كآذان الحمير ،لكن بقية جسمها كالخيل الحقيقية . كدت لا احتمل مجرد رؤيتها . فما هي ، بحق الشيطان ؟ هل تتكرم باخباري ، فلقد تراهنا على ذلك...

وظل بروخور ما يزيد على خمس دقائق ماضياً وراءهما ، ولكن دون ان يحصل على جواب . ثم عاد ادراجه ، وحينما حاذاه المراسلون الآخرون ، اخبرهم همساً :

ـ ليس لديهما ما يقولانه ، أيها الاخوة . وأحسب أنهما ، أيضاً ، يمعنان في كيفية خروج هذه الحيوانات النجسة الى هذه الدينا!

١١

مرة رابعة ، قامت سرايا القوزاق من الخنادق الضحلة ، ثم انبطحوا فيها من جديد تحت وطأة نيران رشاشات الحمر الفتاكة . فمنذ الفجر الباكر ، كانت بطاريات الجيش الأحمر المخبأة في الغابة على الضفة اليسرى تمطر بقنابلها ، دون توقف ، مواقع القوزاق والقوات الاحتياطية المتجمعة في الأخاديد .

واندلعت فوق المرتفعات القائمة على جانب الدون سحائب قنابل المنشار ، ذائبة ، بيضاء كالحليب . ومن أمام الخط المنكسر لخنادق القوزاق ، ومن ورائها ، كان الرصاص المنهمر يثير غباراً بني اللون .

ومع اقتراب الظهر ، اشتدت حومة القتال ، وراحت الريح الغربية تحمل هدير المدفعية مسافات بعيدة حدر الدون .

ظل غريغوري يراقب سير المعركة خلل نظارات الميدان من نقطة مراقبة تابعة لبطارية متمردين . وكان في مقدوره ان يرى الى سرايا الضباط

تقتحم المعركة بعناد ، رغم خسائرها ، في سلسلة من الاندفاعات القصيرة . وحينما اشتدت عليهم النار انبطحوا على الأرض ، ، يتخندقون ، ثم قاموا ليتقدموا ، في سلسلة أخرى من الاندفاعات ، نحونقطة جديدة . أما من ناحية اليسار البعيدة ، في اتجاه الدير ، فلم يكن مشاة المتمردين يبدون أية علامة من علامات الفاعلية مطلقاً . فكتب غريغوري مطلقاً . فكتب غريغوري ملاحظة وأرسلها بيد ساع الى يرماكوف .

بعد نصف ساعة ،جاء يرماكوف على صهوة حصانه ، هائجاً ، فترجل بحذاء مربط البطارية وشق طريقه نحوخندق نقطة المراقبة مبهور النفس . وهتف وهو لما يزل على مبعدة يسيرة ، ملوحاً بيديه :

ـ أنا عاجز عن اجبار القوزاق على التقدم . لن يتقدموا! لقد خسرنا حتى الآن ثلاثة وعشرين رجلاً ، راحوا وكأنهم لم يكونوا . هل رأيت كيف حصدهم الحمر برشاشاتهم ؟

فصر غريغوري من بين أسنانه قائلاً :

ـ الضباط يتقدمون ، وأنت تخبرني بأنك عاجز عن انهاض رجالك ؟

ـ ولكن ، ألا ترى ؟ لكل فصيل منهم رشاشة خفيفة ، وهم متدججون بالرصاص الى حواجبهمم . وماذا عندنا ؟

ـ لا تختلق الأعذار! أجبرهم على شن الهجوم على الفور وإلا قطعنارأسك .

فقذف يرماكوف شتيمة بذيئة وهرع حدر الربوة . فتبعه غريغوري ، عازماً على قيادة كتيبة المشاة الثانية بنفسه الى المعركة . وعلى مقربة من مدفع الجناح الذي كان قد أخفي بمهارة تحت اغصان الزعرور البري ، استوقفه آمر البطارية قائلاً :

ـ تعال يا غريغوري بنتلاييفتش ، وتأمل في عمل اليد البريطانية . انهم على وشك فتح النار على الجسر . فلنذهب الى قمة المرتفع.

ومن خلال نظارات الميدان استطاعا أن يميزا جسر الزوارق الذي مده

المهندسون الحمر عبر الدون ، وكان يبدو مثل شريط رفيع ، وعربات النقل تندفع عبره في سيل لا ينقطع .

بعد حوالي عشر دقائق ، شرعت البطارية تطلق النار من موضعها في اخدود يقع وراء حيد صخري . وما ان انفجرت القذيفة الرابعة حتى تحطم الجسر في وسطه تقريباً . فتوقف سيل العربات . وهرع جنود الجيش الأحمر يقذفون العربات المحطمة والخيل القتيلة في النهر .

انطلقت أربع جنيبات من الضفة اليمنى محملة بالمهندسين ، بيد أنه ما أن أفلحوا في اصلاح الألواح المكسورة للجسر ، حتى ارسلت البطارية البريطانية حزمة أخرى من القذائف نحو الجسر . فأصابت واحدة منها المعبر المنحدر الواقع على الضفة اليسرى وأرسلته شظايا في الهواء ، وارتفع ، اثر القذيفة الثانية ، عمود أخضر من الماء بحذاء الجسر تماماً ، ومن جديد توقف سيل العربات .

فقال آمر بطارية غريغوري في اعجاب :

ـ هدافون رائعون ، ابناء العواهر اولاء! لن يدعوهم يعبرون النهر قبل حلول الليل . لن يظل هذا الجسر كاملاً لحظة واحدة . فتساءل غريغوري دون أن يرفع عينيه عن نظارة الميدان :

ـ ولكن لماذا مدافعك ساكنة ؟ الواجب ان تدعم مشاتكم . لا ريب انك تستطيع أن ترى أوكار رشاشات الحمر بوضوح كاف .

ـ يسرني لو استطعت دعم مشاتنا ، لكننا لم نعد نملك ولا قذيفة واحدة . مضت نصف ساعة منذ أن أطلقت قذيفتي الأخيرة وبعدها شرعت بالصيام .

ـ اذن فيم وقوفك هنا ؟ ضع العدة على خيلك واتخذ طريقك .

ـ لقد أرسلت الى الكاديت في طلب القذائف .

فرد غريغوري حاسماً :

ـ لن يدعوك تحصل على أية قذيفة .

ـ رفضوا مرة ، فارسلت طلباً ثانياً . قد يعطفون على حالنا هذه المرة . قد يدعوننا نحصل على دزينتين لتدمير هذه المدافع الرشاشة بالذات فقط . ليس هزلاً أن يصرعوا ثلاثة وعشرين من رجالنا . وكم سيحصدون فوق هذا العدد ؟ انظر اليهم كيف ينسلون!

فأدار غريغوري بصره ناحية خنادق القوزاق . في المنحدر القريب ، كان الرصاص لا يزال يرفس التراب الجاف . وحيثما مرّ خط نار الرشاش ، ارتفع شريط من الغبار ، وكأن يداً خفية كانت ترسم خطا رمادياً رفيعاً فوق الخنادق . فبدت خنادق القوزاق بكاملها وكأنها ترسل دخاناً فوقها ، اذ كان الغبار يلبث عالقاً كالسحاب .

لم يعد غريغوري يتابع نار البطارية البريطانية . ولبث لحظة يتسمع الى الهدير المتواصل للمدفعية والرشاشات ، ثم خطا هابطاً من الربوة ولحق يرماكوف قائلاً :

ـ لا تشن الهجوم إلا بعد أن تتسلم مني الأوامر . لن نستطيع أن نزيحهم من غير اسناد المدفعية .

فقال يرماكوف لائماً ، وهو يمتطي حصانه الجامح بسبب الركض والرمي :

ـ ألم اقل لك هذا ؟

وراقب غريغوري يرماكوف فيما انطلق هذا بلا وجل على حصانه هذباً تحت سيل النار ، وقال محدثاً نفسه :

ـ لماذا ، بحق ابليس ، اتخذ الطريق المباشر ؟ لسوف يحصدونه برشاشة . كان يجدر به أن يهبط داخل الاخدود ويتبع مجرى الماء دائراً حول التل حتى يبلغ رجاله .

وفي سرعة جنونية انطلق يرماكوف صوب الاخدود ثم غاص فيه ولم يظهر ثانية في الجانب الأبعد .

ـ اذن فهم . الآن سيصل سالماً .

وتنفس غريغوري الصعداء ، واضطجع تحت المرتفع وهو يلف سيكارة على مهل .

وفجأة تملكه شعور غريب من اللامبالاة . لا ، لن يقوم بقيادة القوزاق الى المعركة تحت نار المدافع الرشاشة . لا معنى في ذلك . ليشن ضباط سرايا الصاعقة الهجوم . ليقوموا باحتلال أوست ـ مدفيتسكايا .

وثمة ، حيث اضطجع تحت المرتفع ، ولأول مرة في حياته ، نحى عن ذهنه ، بشكل مباشر ، فكرة الاشتراك في معركة . ولم يكن ما تحكم في قراره في تلك اللحظة جبن او خوف من الموت او من الخسائر اللامجدية . فلم يكن قد مضى زمن طويل منذ كان يسترخص حياته وحياة القوزاق الموكلة إليه قيادتهم . أما الآن ، فيبدو وكأن شيئاً ما قد انكسر... لم يحدث قط في السابق أن أدرك بمثل هذا الوضوح عبث ما كان يدور حوله . فلعل حديثه مع كوبيلوف ، او صدامه مع فتشالوروف ، او كلتا الحادثتين معا ، قد أثار فيه هذه الحالة النفسية التي تملكته على غير ميعاد . مهما يكن من أمر ، فقد قرّ عزمه على الا يعرّض نفسه للنار مطلقاً . وخطر له بغموض ، أن ليس من اختصاصه أن يقوم بدور الموفق بي القوزاق والبلاشفة ، فهو نفسه كان أنأى من أن يستطيع التوفيق معهم . لكنه ، في الوقت نفسه ، شعر بأنه لم يعد قادراً ، ولن يعمل في المستقبل ، على الدفاع عن كل هؤلاء الناس الذين كانوا غرباء في الروح عنه ، معادين له ـ كل هؤلاء الفتشالوروفيين الذين كانوا يحتقرونه احتقاراً فظيعاً ، والذين كان هو يحتقرهم بما لا يقل عن فظاعة احتقارهم له . ومرة أخرى وجد نفسه وجهاً لوجه مع التناقضات القديمة بكل انغلاقها وامتناعها على الفهم .

ـ دعهم يقاتلون . لسوف اقف واتفرج . وحالما أعفي من قيادة الفرقة سأطلب منهم ارسالي إلى المؤخرة . لقد حصلت على كفايتي .

وعاد ذهنه الى جدله مع كوبيلوف ، ووجد انه كان يحاول ان يعثر على مبرر لصالح الحمر .

ـ لقد جاء الصينيون صفر الأيدي . ينضمون اليهم ويخاطرون بحياتهم كل يوم لقاء ما يتلقاه الجنود من راتب بائس . ثم ، ما علاقة الراتب بالأمر ؟ ما الذي تستطيع ابتياعه به ، بحق الشيطان ؟ لا تستطيع الا خسرانه على مائدة القمار... اذن ، فالمسألة ليست الحصول على النقود ، بل شيء آخر . ومع ذلك ، فالحلفاء يرسلون ضباطاً ودبابات ومدافع ، حتى أنهم أرسلوا بغالاً! لكنهم سيطالبون فيما بعد بكومة محترمة من الروبلات . هذا هو الفرق ، أجل ، لسوف نتناقش في الموضوع كرة اخرى هذا المساء . حالما أصل الى مقر الأركان ساستدعيه جانباً وأقول : بل ان هناك فرقاً ، يا كوبيلوف... فلا تحاول أن تستغفلني .

لكن... لم يقدر له ان يجدد نقاشه مع كوبيلوف . ففي ظهيرة ذلك اليوم ، انطلق كوبيلوف على صهوة حصانه نحو الكتيبة الرابعة ، التي كانت قد اودعت الى الاحتياط ، وفي الطريق صرعته رصاصة طائشة . ولم يعلم غريغوري بمصرعه الا بعد مرور ساعتين .

في الصباح التالي استولت الفرقة الخامسة ، بقيادة الجنرال فتشالوروف ، على أوست ـ مدفيتسكايا بهجوم مباغت .

١٢

بعد رحيل غريغوري عن تتارسكي بثلاثة أيام ، ظهر فيها ميتكا كورشونوف* . لم يكن وحيداً . كان يصطحبه زميلان من المفرزة التأديبية التي كان يعمل فيها . كان احدهما كالميكيا كهلاً ، والثاني قوزاقياً قميناً تافهاً . وكان ميتكا يوجه كلامه الى الكالميكي في ازدراء ، في حين كان لا ينفك يبجل القوزاقي ، وكان هذا سكيراً خبيثاً وضيعاً يدعى سيلانتي بتروفتش .

---

* اخو ناتاليا ، زوجة غريغوري . المترجمون

وكان جلياً ان ميتكا لم يقصر في خدمة «جيش الدون» خلال نشاطاته في المفرزة التأديبية . وكان قد رقي خلال الشتاء الى رتبة رئيس عرفاء ثم الى حامل علم ، فلما بلغ القرية كانت تحف به كل مظاهر العظمة التي تضفيها بزة الضابط عليه . وبدا أنه كان قد عاش عيشة رضية أثناء حركة التراجع عن الدون . كانت قمصلته الخاكية الفاتحة مشدودة على منكبيه العريضين ، وطيات وردية دهينة من الجلد جاثمة على ياقته العالية الضيقة ، وبنطلونه الأزرق المقلم قد ضاق عليه حتى كاد يتمزق عند الردفين . وبهذه الصفات الظاهرية كان يمكن لميتكا أن يكون من بين الحرس الخاص للأتمان* ، وأن يعيش في القصر مدافعاً عن قداسة شخص صاحب الجلالة الامبراطورية... هذا لو لم توجد هذه الثورة اللعينة . ومع ذلك ، فلم يكن لديه ما يشكو منه في هذه الحياة . لقد أفلح في الوصول الى رتبة ضابط ، ليس كغريغوري . ميليخوف عن طريق المخاطرة برأسه والاندفاع في بطولات طائشة . فلقد كانت الخدمة في المفرزة التأديبية تستدعي صفات أخرى . وقد كان ميتكا يتمتع بما يفيض عن الحاجة من هذه الصفات . ولما كان لا يثق كثيراً بالقوزاق الآخرين فإنه أخذ على عاتقه ، نفسه ، مهمة تصفية الحساب مع كل من اشتبه به بلشفياً . ولم يكن يضيره ان يعالج أمر الجنود الفارين بيديه هو ، مستعملاً سوطه أو مدك بندقية . أما في الاستجواب ، فلم يكن في المفرزة من يضاهيه ، وكان الأمر نفسه يهز كتفيه ويقول :

ـ قولوا ما شئتم ، أيها السادة . فليس هناك من يغلب كورشونوف . انه ليس من البشر ، انه تنين!

كما ان ميتكا كان يتميز بصفة بارزة أخرى . فحيثما لم يكن من المستحسن قتل الأسير رمياً بالرصاص ، وفي الوقت نفسه لم يكن مناسباً اطلاق سراحه ، يحكم عليه بالضرب بالعصا ، فكان يعهد الى ميتكا بتنفيذ

* الاتمان هو الزعيم أو الرئيس . والمقصود بالحرس الخاص للأتمان هنا : الحرس القيصري الخاص . المترجمون

العقاب . وكان يؤدي المهمة بشكل حاذق بحيث ما ان يكون المحكوم قد تلقى الضربة الخامسة عشرة حتى ينكفىء ويتقيأ دماً ، وبعد الضربة المائة يقوم القوزاق الآخرون بلف المحكوم بالخيش ، على نحو ينم عن ثقتهم بموته حتى دون الحاجة إلى الكشف عن دقات قلبه . ولم يحدث قط أن أفلت رجل صدر عليه حكم كهذا من يدي ميتكا حياً . ولقد صرح ميتكا نفسه ، أكثر من مرة ، متضاحكاً :

ـ لو أن البنطلونات والتنورات أخذت من جميع الحمر الذين جلدتهم ، لاستطعت أن أكسي بها قرية تتارسكي عن آخرها .

لقد وجدت القسوة المميزة لطبع ميتكا منذ طفولته خير مرتع لها في المفرزة التأديبية ، ولما لم يكن ثمة ما يلجمها نمت على نحو خارق للعادة . وبحكم طبيعة عمله ، صار على اتصال بحثالات طبقة الضباط ، بمدمني المخدرات وهتكة الأغراض والنهابين وبقية الفصائل الدنيا ، وقد تعلم ، طوعاً وبالمثابرة المعهودة في الفلاح ، كل ما كان في استطاعة أولئك تعليمه ـ بحكم بغضهم للحمر ـ ، ولم يصعب عليه أن يتفوق على اساتذته في عملهم . وحيثما كان ضابط ضعيف الأعصاب ، أنهكه دم الآخرين المسفوح وعذاباتهم ، يعجز عن المضي في التعذيب ، لم يكن ميتكا يزيد على أن يضيّق عينيه الصفراوين المتلامعتين ويتولى انهاء المهمة عن آخرها .

هوذا ميتكا اذن وقد ترك وحدته القوزاقية ووجد حياة هنيئة في المفرزة التأديبية التابعة للعقيد بريانيشنكوف .

وحينما بلغ القرية ، راح يمضي على حصانه متباطئاً نحو بيته ، في اعتزاز وأنفة ، لا يكاد يتنازل للرد على انحناءات النسوة العابرات . وترجل عن حصانه عند البوابات التي كانت النار قد التهمت معظمها ولطخت بقاياها بالدخان ، وناول الكالميكي العنان وخطا ، افخج الساقين ، نحو الفناء . سار صامتاً ، يصحبه سيلانتي ، حول أسس الدار وبطرف سوطه مس كتلة من

زجاج النوافذ خضراء اللون كانت قد ذابت أثناء اندلاع النيران ، وقال بصوت ابحه الانفعال :

ـ أحرقوه عن آخره . وكان بيتاً غنياً ، أحسن ما في القرية . أحرقه واحد من أبناء قريتنا ميشا كوشيفوي . وقتل جدي ، أيضاً . حسن ، يا سيلانتي بتروفيتش ، لقد زرت بيتي ومربعي...

فتساءل سيلانتي في الحال :

ـ هل بقي أحد من آل كوشيفوي ؟

ـ لابد . لكننا سنراهم فيما بعد... لنذهب الآن الى نسيبنا .

وفي الطريق الى بيت ميليخوف صادف ميتكا كنّة بوكاتيريوف فسألها :

ـ هل رجعت أمي من الجانب الآخر للدون ؟

ـ لا أظن ، يا ميتري ميرونوفتش* .

ـ حسن ، فهل ميليخوف في داره ؟

ـ تقصد العجوز ؟

ـ أجل .

ـ في داره . العائلة كلها هناك ما عدا غريغوري . بيوتر قتل في الشتاء الماضي ، هل سمعت بذلك ؟

فأومأ ميتكا برأسه ايجاباً ، وأطلق لحصانه العنان .

مضى في الشارع المهجور ، وعيناه الصفراوان الشبيهتان بعيني القط باردتان هامدتان لا أثر فيهما لتأثره السابق . وبينما كان يتوجه نحو فناء آل ميليخوف قال في صوت خفيض ، دون أن يوجه كلامه الى أي من رفيقيه على وجه التخصيص :

ـ هكذا تستقبلك قريتك . يتعين عليَ أن أذهب إلى أقارب طلباً للغذاء... حسن ، لسوف تكون لنا وقفة أخرى .

---

* اسم ميتكا الكامل هو : ميتري ميرونوفتش كورشونوف . المترجمون

كان بانتلاي بروكوفييتش يصلح ماكنة حصاد تحت مأوى . وحينما أحس بمقدم رجال على خيل وميّز بينهم كورشونوف ، قام وسار باتجاه البوابة . وقال مستضيفاً وهو يفتح البوابة الصغيرة :

ـ تفضلوا على الرحب والسعة . يسرنا أن نستقبل ضيوفاً . مرحباً بعودتك .

ـ هلو ، أيها الأب! هل الكل أحياء يرزقون ؟

ـ الحمد لله ، يرزقون حتى الآن! ولكن ، هل تراك ستمضي هنا وهناك ببزة الضابط هذه ؟

فرد ميتكا في لهجة واثقة وهو يمد يده الطويلة القوية لمصافحة العجوز :

ـ عجبا ، هل تظن بأن ولديك هما الوحيدان الجديران بحمل الشارات البيض ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفييتش متبسماً :

ـ لم يكن ولداي متلهفين للحصول عليها!

ومضى متقدماً ليدل القادمين الجدد الى حيث يربطون خيولهم .

قدمت ايلينشنا المضيافة غداء للضيوف ، ثم عرجوا للحديث . فاستفسر ميتكا بالتفصيل عما يخص عائلته ، وكان خلال ذلك جامد التعبير ، لا ينمّ وجهه عن غضب أو حزن . وسأل عرضاً ، عما إذا بقي أحد من عائلة ميشا كوشيفوي في القرية ، وحين علم بأن أمه وأطفالها ما زالوا في كوخهم ، غمز لسيلانتي بعينه غمزة سريعة دفينة .

وسرعان ما استعد الضيوف للرحيل . فخرج بانتلاي لتوديعهم ، وتساءل قائلاً :

ـ أعازمون على البقاء مدة طويلة في القرية ؟

ـ الواقع... أجل... يومين أو ثلاثة... ربما .

ـ هل سترى والدتك ؟

ـ هذا يعتمد على الظروف .
ـ وهل أنت ذاهب الآن إلى مكان بعيد ؟
ـ انـ... انـ... سنرى بعض الناس في القرية . وسنعود بعد قليل .
وقبل أن يتسنى لميتكا ورفيقيه أن يعودوا إلى بيت ميليخوف ، كانت الشائعة قد انتشرت في القرية كلها بأن كورشونوف قد وصل بصحبة كالميكيين وبأنه قد قتل جميع عائلة كوشيفوي .
لم يسمع بانتلاي الخبر . كان قد ذهب الى الحداد ، ثم عاد ، وكان يعالج ماكنة الحصاد من جديد حين استدعته ايلينشنا :
ـ اسمع ، بروكوفييتش! أسرع!
وكانت في صوت العجوز نبرة هلع واضح ، فاتجه بانتلاي دهشاً نحو البيت في الحال .
كانت ناتاليا واقفة بجانب الموقد ، شاحبة ، مخضلة الوجه بالدموع . واشارت ايلينشنا بعينيها الي زوجة أنيكوشكا ، وسألته بصوت خفيض :
ـ هل بلغك الخبر ، يا أب ؟
وفي الحال ضجت الفكرة في رأس بانتلاي :
ـ لقد أصاب شيء ما غريغوري . ارحمه يا رب ، وارحمه!
واستحال لون وجهه شاحباً . ولما لم ينطق أحد بشيء استبد به الغضب والخوف ، فصرخ :
ـ ابصقوا النبأ ، عليكم اللعنة! ماذا حدث ؟ شيء له علاقة بغريغوري ؟
وكأن صرخته كشفت عن يأسه ، فتهاوى على المصطبة وجعل يمسد ساقيه المرتعشتين .
وكانت دونيا أول من أدرك بأن والدها كان يخشى أنباء سيئة عن غريغوري ، فقالت على عجل :
ـ لا يا أبتاه ، ليس الخبر عن غريغوري . لقد قتل ميتكا عائلة كوشيفوي .

وانزاح الثقل ، في الحال ، عن قلب بانتلاي :

ـ ماذا تقصدين بـ «قتل» ؟

وكان لا يزال غير مستوعب ما قالته دونيا ، فاستفسر من جديد :

ـ عائلة كوشيفوي ؟ ميتري ؟

وشرعت زوجة انيكوشكا ، التي كانت قد هرعت بالنبأ إلى آل ميليخوف ، تتأتىء بالقصة :

ـ كنت ابحث عن عجلنا ، أيها الشيخ ، وصادف أن كنت مارة بكوخ آل كوشيفوي ، ورأيت ميتري وجنديين يمضون على خيلهم إلى الفناء ثم يدخلون الكوخ . وكنت أفكر هكذا : العجل لن يسرح إلى أبعد من الطاحونة . كان دوري في رعي العجول...

فقاطعها بانتلاي مغضبا :

ـ فيم عساي ، بحق الشيطان ، أريد أن أسمع قصة عجلك ؟

فاستأنفت المرأة حديثها ناشجة :

ـ ... ودخل الكوخ ، ووقفت أنا أنتظر . وقلت في نفسي ، إنهم ينوون شراً . وسمعت صراخاً من الداخل ، وكنت استطيع سماع الضربات . كنت خائفة حتى الموت . أردت أن اهرب ، لكنني ما كدت أخطو خطوة واحدة من السياج حتى سمعت وقع أقدام ورائي . ادرت عيني . فاذا بميتكا كم هناك وقد القى حبلاً حول عنق العجوز ، وكان يجرها على الأرض وكأنها كلبة ، غفرانك يا رب! جرها الى المأوى وهي ـ المسكينة ـ لا تنبس بشيء . لا بد أنها كانت غائبة عن الوعي . ثم ارتقى الكالميكي الذي كان معه عارضة خشبية في السقف... وبينما كنت اراقبهم ألقى ميتكا بطرف الحبل إليه وصرخ : «اسحبه إلى أعلى وأعقده! » . أواه ، لكم عانيت آنئذ ، وأمام بصري خنقوا العجوز المسكينة ، ثم قفزوا إلى خيلهم ومضوا في الشارع ، نحو الإدارة كما أظن . وخفت من الذهاب إلى داخل الكوخ... لكنني رأيت دما يسيل من السقيفة ، تحت الباب وعلى درجات العتبة ، عسى الله الا يريني فظائع مرعبة كهذه مرة أخرى!

وعلقت ايلينشنا قائلة ، وهي تنظر الى زوجها متحدية :
ـ أي ضيوف كرام أرسلهم الله لنا!

ظل بانتلاي يستمع إلى القصة في انفعال فظيع ، وحينما أتت زوجة انيكوشكا على نهايتها خرج الى السقيفة دون أن يفوه بحرف .

وما لبث ميتكا ومساعداه أن ظهروا عند البوابة . فأسرع بانتلاي يقزل باتجاههم . وصرخ ، وهو لما يزل على مبعدة منهم :
ـ قفوا! لا تدنو خيلكم من هذا الفناء!

فتساءل ميتكا دهشاً :
ـ ما الأمر ، يا نسيبي ؟

فخطا بانتلاي نحوه مباشرة ، وقال في عزم وهو يحدق في عيني ميتكا الصفراوين المتلامعتين :
ـ ارجعوا! لا داعي إلى الغضب ، يا ابن العم ، لكنني لا أريد بقاءكم في بيتي . الأفضل أن تمضوا في سبيلكم .

فقال ميتكا مثغثغاً بلهجة من يفهم ، وقد شحب لونه :
ـ آه! إذن فأنت تطردني ؟

فأجاب العجوز ثابت العزم :
ـ أنا لا أريدك أن تلوث بيتي . وإياك أن تطأ بقدمك عتبتي ثانية . نحن ، آل ميليخوف ، لا قرابة لنا بالجلادين ، اعلم هذا!
ـ أنا فاهم . بيد انك رحيم قلب أكثر من اللزوم ، يا ابن العم!
ـ يبدو أنك لا تفهم ما هي الرحمة ، حين تشرع بقتل النساء والأطفال . آه يا ميتكا ، انها لمهنة حقيرة هذه التي امتهنتها... لو قدر لوالدك أن يراك الآن لما ارتاح قلبه .
ـ أيها العجوز الأخرق ، هل تريدني أن أدللهم ؟ قتلوا أبي ، قتلوا جدي ، وهل عليَ أن أتبادل القبل المسيحية معهم ، ها ؟ اذهب الى الجـ... أنت تعرف إلى أين!

وأرخى ميتكا العنان فانطلق حصانه عبر البوابة الصغيرة .

ـ لا تسب يا ميتكا ، فأنت في مثل عمر ابني . وليس هناك ما يربط بيني وبينك ، فاذهب في أمان الله .

فازداد شحوب وجه ميتكا ، وصرخ في صوت غليظ وهو يهز سوطه متوعداً :

ـ لا تجبرني على ارتكاب خطيئة ، لا تضطرني إليها . أسفي على ناتاليا ، وإلا لكنت أريتك ، أيها الرحيم... انني أعرفك! أنني أرى ما في باطنك ، وأرى النفس الذي تزفره! أنت لم تتراجع عبر الدونيتس ، ها ؟ انما انضممت الى الحمر ، ها ؟ هذا هو الواقع بالضبط! يجب أن تعاملوا ، جميعاً ، كما عاملت آل كوشيفوي ، يا أبناء العواهر! هيا ، يا أولاد! ايه ، أيها الكلب الهجين الأعرج ، إياك أن تقع بين يدي! فلو وقعت ، لن تستطيع الخلاص مني! ولسوف اذكر كرم ضيافتك لي . لقد سبق لي أن رفعت قبضتي في وجه أقرباني قبل اليوم .

فأغلق بانتلاي البوابة بيدين راعشتين وأزلجها ، ثم مضى يعرج إلى داخل البيت . وقال لناتاليا دون أن ينظر في وجهها :

ـ طردت أخاك .

ولم تجب بشيء ، وان كانت متفقة في قرارة نفسها مع خطوة حميها . غير أن ايلينشنا أسرعت ترسم شارة الصليب على نفسها وقالت في لهجة أسعد :

ـ والحمد لله! ذهب الى غير رجعة . أعذريني ، يا عزيزتي ناتاليا ، ولكن أخاك تكشف عن سافل حقيقي . لقد اتخذ لنفسه مهنة رائعة . أنظري اليه : لا يخدم ، مثل القوزاق الآخرين ، بالقطعات الفعلية . انما انضم الى المنكلين . فهل هي مهمة جديرة بالقوزاق ، ان يكونوا جلادين ، أن يشنقوا النساء العجائز وأن يشطروا الأطفال الأبرياء بسيوفهم ؟ فهل هؤلاء مسؤولون عن أعمال ميشا ؟ لو صح ذلك ، لكان من حق الحمر أن يقتلوني ويقتلوك

وميشاتكا وبوليوشكا ، جزاء ما علمه غريشا . لكنهم لم يفعلوا ذلك . كانت في قلوبهم رحمة . كلا ، فأنا لا أوافق ـ لا سمح الله ـ على تهورات كهذه .

ولم تزد ناتاليا على القول :

ـ ولا أنا أدافع عن أخي ، يا أمي ـ وهي تمسح دموعها بطرف عصابة رأسها .

غادر ميتكا القرية في اليوم نفسه . وانطلقت الشائعات بأنه انضم الى مفرزته التأديبية في مكان ما بالقرب من كاركينسكايا ومضى معها لاقرار النظام في القرى الأوركرانية في اقليم الدونيتس ، وكان اهلوها قد اتهموا بمساعدة الحمر في القضاء على انتفاضة الدون الأعلى .

وبعد رحيله ، ظل ميتكا مدار النقاش في القرية أسبوعاً كاملاً . وقد استنكر أغلبية الناس مجزرته الجائرة على عائلة كوشيفوي . ودفنت جثثهم بتبرعات عامة ، كما جرت محاولات لبيع الكوخ الصغير إلا أن أحداً لم يتقدم لشرائه . فسمرت ألواح على نوافذه بأمر أتمان القرية . وظل الأطفال زمناً طويلاً بعد ذلك يتهيبون من اللعب حول البقعة المخيفة ، وحينما كان الشيوخ والعجائز يمرون بالكوخ كانوا يرسمون شارات الصليب على أنفسهم ويدعون الله أن ينعم بالراحة على أرواح الضحايا .

ثم حل أوان الحش وتجفيف العشب ، فطوى النسيان تلك الأحداث الأخيرة .

كانت القرية مشغولة ، كالسابق ، في العمل وفي تناقل شائعات الجبهة . وكان أولئك الفلاحون ، الذين كانوا قد أفلحوا في انقاذ حيوانات عملهم ، يتوجعون ويقذفون السباب وهم يقدمون عرباتهم وحيواناتهم للخدمة العامة . وكان على الخيل والثيران أن تؤخذ كل يوم تقريباً من الحقول وترسل الى مركز المنطقة . وكان الشيوخ كلما حلوا رباط الخيل عن مكائن الحش يطلقون الشتائم ضد الحرب التي طال أمدها . لكن القذائف وطلقات وبكرات الاسلاك الشائكة والمواد الغذائية ، كان يجب نقلها على

العربات الى الجبهة . وكانوا ينقلونها فعلاً . أما الآن ، فقد حلت أيام مشمسة رائعة ، وكأنها تستهدف أغاظتهم ، حتى لم يعودوا يرغبون في شيء سوى حش وجرف الحشيش اليانع .

استعد بانتلاي للحشّ ، لكن الحنق قد استبد به على داريا . كانت قد خرجت بزوج الثيران لنقل العتاد . وكان من المفروض أن تكون قد عادت من نقطة التوزيع ، لكن أسبوعاً مضى ولم يصل عنها خبر . ولم يكن في المستطاع العمل في السهب بدون زوج الثيران الأصيلين القويين .

والواقع ، انه ماكان يجب أن يرسل داريا... لقد امتلأ قلبه بالهواجس حينما عهد إليها بالثورين لأنه كان يدرك كم كان يطيب لها تزجية الوقت مرحاً ، وكم كانت تهمل الحيوانات . غير أنه لم يكن ثمة غيرها يمكن ارساله . فما كان بمقدور دونيا أن تذهب ، اذ ليس يليق بالعذارى أن يذهبن بصحبة قوزاق غرباء في رحلة طويلة . وكان على ناتاليا أن تعتني بالطفلين ، أما العجوز نفسه فما كان بالتأكيد ليصطحب تلك الأعتدة اللعينة . لكن داريا استجابت للنداء ، شوقاً وطواعية . فقد سبق لها أن شاركت ، بمنتهى الغبطة ، في رحلات الى شتى الأماكن : الى الطاحونة ، أو في أية مهمة أخرى تتعلق بالحقل ، لا لشيء إلا لأنها كانت تشعر بحرية أوسع خارج المنزل . كانت كل رحلة مجلبة للمتعة واللذة لها . كانت تهرب من مراقبة حماتها ، فتروح تتناقل القيل والقال ملء قلبها مع النسوة الأخريات ، وتستطيع ـ على حد قولها ـ أن « تتعاطى شيئاً من الحب على الطريق » مع أي قوزاقي ماجن يصدف أن ينظر ناحيتها . أما في البيت فلم تكن ايلينشنا المتزمتة لتتيح لها أي قدر من الحرية ، حتى بعد وفاة بيوتر ، فكأن داريا التي خانت زوجها حياً كانت ستخلص له ميتاً .

كان بانتلاي يدري أن داريا لن تعتني بالثورين بشكل سليم ، ولكن لم تكن في اليد حيلة . وها قد ارسل كبرى كنتيه في هذه الرحلة . ومع ذلك ، فقد قضى الأسبوع الذي تلا ذلك ، كله ، في قلق واضطراب ذهني عميقين . وكان يردد في نفسه :

ـ قضوا على ثوريَ ـ ويستيقظ من نومه في منتصف الليل فيطلق حسرات ونهدات عميقة .

عادت داريا في اليوم الحادي عشر من رحيلها . كان بانتلاي قد عاد من الحقول توأ ، كان يحش مع زوجة انيكوشكا ، ثم تركها مع دونيا في السهب عائداً الى القرية في طلب الماء والزاد . وكان العجوزان وناتاليا يتناولون طعام الافطار حينما تناهت عبر النافذة القعقعة المألوفة لعجلتي عربة البريتزكا . فهرعت ناتاليا إلى النافذة ورأت داريا ، معصوبة الى حد عينيها ، تدخل الثورين المتعبين الى الفناء .

فسأل العجوز وهو يكاد يختنق بلقمة تعجل في بلعها :

ـ هي ؟

ـ أجل .

فتمتم العجوز وهو يرسم اشارة الصليب على نفسه ويتجشأ في ارتياح :

ـ لم اتوقع قط أن تقع عيناي على الثورين ثانية . حسن ، الحمد لله! يا للداعرة اللعينة! وأخيراً انجرفت عائدة إلى البيت .

رفعت داريا النير عن الثورين ثم دلفت الى المطبخ ، ووضعت كسوة الخيل الملفوفة على العتبة وألقت بالتحية على الآخرين .

فقال بانتلاي غضباً وهو ينظر إلى داريا من تحت حاجبيه دون أن يرد على تحيتها :

ـ فيم هذا التبكير ، ياعزيزتي ؟ كنت تستطيعين قضاء أسبوع آخر في الطريق!

فردت عليه بحدة مزيحة عصابة رأسها المغبرة :

ـ كان يجب أن تذهب أنت بنفسك .

فانضمت ايلينشنا الى الحوار لكي تزيل جفوة استقبال داريا :

ـ لماذا طالت غيبتك ؟

ـ لم يدعوني أرجع ، فلم تكن بيدي حيلة .

فهز بانتلاي رأسه هزة تنم عن عدم الثقة وسأل :

ـ سمحوا لزوجة كريستونيا بالرجوع ، فلماذا لم يسمحوا لك ؟

فاتقدت عينا داريا غضباً وقالت :

ـ حسن ، لم يسمحوا لي ، ثم ماذا ؟ ان كنت لا تصدقني فاذهب على حصانك واسأل الشخص المسؤول عن العربات .

ـ لا سبب يدعوني للذهاب والسؤال عنك ، ولكنك في المرة القادمة ستبقين في البيت! الموت هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ترسلي إليه .

ـ ها أنك الآن تتوعدني! أي نعم! لن أذهب بأية حال من الأحوال . حتى لو أرسلتني ، لن أذهب!

فتساءل بانتلاي في لهجة أكثر وداً :

ـ هل الثوران بخير ؟

فأجابت داريا مترددة :

ـ نعم لم يحدث لثوريك شيء... ـ واستحال وجهها اقتم من الليل .

فحدثت ناتاليا نفسها :

ـ لا بد أنها اضطرت إلى الافتراق عن أحد عشاق الطريق ، وهذا سبب حدتها . ـ وكانت دائماً تشعر بالشقة والنفور تجاه داريا ومغامراتها العاطفية المشبوهة .

انتهى الفطور ، فاستعد بانتلاي للخروج . وفي تلك اللحظة وصل أتمان القرية . وقال :

ـ كان بودي أن أتمنى لك سفرة سعيدة ، ولكن مهلاً لحظة . يابانتلاي بروكوفييتش ، لا تذهب!

فقال العجوز في لهجة مستسلمة ، على نحو مبالغ فيه ، وبالرغم من أن الحنق كان قد بدأ يضيق الخناق عليه :

ـ ربما جئت تطلب عربة من جديد ، ها ؟

ـ كلا ، إنه شيء آخر هذه المرة . إن قائد «جيش الدون» كله ،

الجنرال سيدورين ، قادم الى هنا اليوم . فاهم ؟ استلمت التو كتاباً من أتمان المنطقة بواسطة ساع يأمر فيه جميع الشيوخ والنساء ، عن بكرة أبيهم ، بالتجمع لعقد اجتماع .

فهتف بانتلاي :

ـ أليس لديهم عقل ؟ من سيقوم بتنظيم اجتماع للقرية في وقت حافل بالأعمال كهذه ؟ هل سيقوم جنرالك سيدورين بتمويني بالقش لفصل الشتاء ؟

ـ سيمونك بقدر ما سيمونني . انني أفعل ما أؤمر به . فك العنان عن حيواناتك . يجب أن تستقبله بالكرم والضيافة . ويقال ، بالمناسبة ، ان جنرالات من الحلفاء في معيته .

فلبث بانتلاي واقفاً الى جانب العربة مدة قصيرة من الزمن ، يقلب الرأي ، ثم شرع يفك عدة ثوريه . واذ لاحظ الاتمان ان كلامه ترك مفعوله في نفس بانتلاي ، انتعشت روحه وتساءل :

ـ هل هناك مجال لاستعارة فرسك ؟

ـ ماذا تريد أن تفعل بها ؟

ـ لقد اصدروا الينا ـ عساهم ان يجلسوا على قنفذ! ـ بارسال عربتي ترويكا* حتى اخدود «دورنوي» لاستقبالهم ، ولكن من أين اجيء بالترانتاسات** والخيل ، لا أدري! منذ الفجر ، استيقظت ورحت ألهث هنا وهناك حتى بللت خمسة قمصان بالعرق ، وللآن لم أستطع أن أضع يدي إلا على أربعة خيول . فالكل خارج إلى الحقول ، وتستطيع أن تصرخ بقدر ما ترغب ولن يرد عليك أحد...

كانت سورة بانتلاي قد هدأت ، فوافق على اعارة فرسه للاتمان ، حتى انه عرض عليه «ترانتاسه» الصغيرة ذات النوابض . فالأمر ذو شأن . إذ أن

---

* عربة تجرها ثلاثة خيول . المترجمون

** الترانتاس : عربة سفر روسية . المترجمون

القائد العام للجيش هو القادم ، فضلاً عن أن جنرالات أجانب في صحبته ، وبانتلاي لا ينفك يشعر باحترام مشوب بالتهيب تجاه الجنرالات .

آلت جهود الاتمان أخيراً الى جمع عربتين «ترويكا» فأرسلتا الى أخدود «دورنوي» لملاقاة الضيوف المعززين . وتجمع الناس في الساحة ، وقد ترك العديد منهم عمله في حش الأعشاب في السهب .

أدار بانتلاي ظهره للعمل ، وتأنق في ملبسه ، فارتدى قميصاً نظيفاً وبنطلوناً من قماش مقلم ، واعتمر قبعة كان غريغوري قد جاء بها هدية له . ثم مضى يعرج بوقار الى ساحة السوق بعد ان أمر زوجته العجوز بإرسال الماء والطعام الى دونيا .

وسرعان ما بدت سحابة كثيفة من الغبار تدوم على الدرب المؤدي إلى القرية . ومن خلل الغابر كان ثمة شيء معدني يتألق ، ومن بعيد تناهى صوت بوق سيارة . كان الضيوف راكبين في سيارتين جديدتين تتلامعان بلون أزرق غامق . وحين كان الموكب يمر بالحاشين العائدين من السهب ، كانت عربتا الترويكا الخاليتان تتوثبان خلفه على مسافة بعيدة ، وأجراس البريد ، التي كان الاتمان قد حصل عليها لهذه المناسبة الجليلة ، تدندن في اكتئاب تحت النيرين . وتململ الحشد المتجمع في الساحة ، وارتفعت همهمة كلمات ، وصيحات الأطفال الجذلى . وانطلق الاتمان المضطرب يمرق هنا وهناك وسط الجمع منتقياً الشيوخ الأجلاء الذين سيعهد إليهم بمهمة تقديم الخبز والملح . فوقعت عينه على بانتلاي ، فأمسك به فرحاً :

ـ انقذني ، إكراماً للمسيح! أنت رجل ذو خبرة ، وأنت تعرف الأصوليات... تعرف كيف يجب مصافحتهم وما إلى ذلك... هذا بالاضافة الى أنك عضو في الادارة الاقليمية ، ثم ان ولدك... أرجوك ، خذ الخبز والملح فأنا ، طوال حياتي ، مضطرب الأعصاب ، وركبتاي الآن ترتجفان .

وعلى الرغم من شدة الزهو الذي شعر به بانتلاي ، إلا أنه تمنع في البدء تدللاً . ثم بدا وكأنه يطأطىء ، رأسه بين كتفيه ، وما لبث أن رسم إشارة

الصليب على نفسه مسرعاً ، وتناول الصحن ، بخبزه وملحه ، والمنشفة المطرزة . وخطا الى أمام وهو يفج طريقه بمرفقيه .

اقتربت السيارتان من الساحة تحف بهما زمرة من شتى أصناف الكلاب وقد بح صوتها نباحاً .

وسأل الاتمان شاحب الوجه بانتلاي :

ـ كيف تشعر ؟ لعلك غير مضطرب الأعصاب ؟

كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها شخصيات مهمة كهؤلاء . فصوب بانتلاي نظرة سريعة من طرف عينه إليه وقال بصوت أبحه الانفعال :

ـ اسمع! أمسك هذه ريثما أمشط لحيتي . خذ!

فتناول الأتمان الصحن في استكانة ، بينما جعل بانتلاي يمسد شاربه ولحيته ، ورفع صدره ، في حركة نشطة ، ثم وقف على أطراف أصابع رجله العرجاء لكي يخفي عاهته ، وتناول الصحن من جديد . بيد أن الصحن ارتعش ارتعاشاً عنيفاً في يديه ، حتى أن الاتمان استفسر منه قلقاً :

ـ آمل ألا تسقطه من يدك ، ها ؟ أوه ، احترس!

فهز بانتلاي كتفيه في منتهى الاستخفاف . أيسقطه هو ؟ كيف يتسنى لأي امرئ أن يتفوه بمثل هذا الهراء ؟ هو عضو في الادارة الاقليمية ، طالما صافح الجميع في قصر الحاكم ، هل يمكن أن يمسي ، على حين غرة ، خائفاً إزاء جنرال ما ؟ لقد فقد هذا الاتمان الصغير البائس رشده تماماً .

وشرع بانتلاي يقول :

ـ اسمع ، يا أخ! حينما كنت في المجلس العسكري ، ، تناولت الشاي مع السكر مع نائب الأتمان نفسه... ـ لكن الكلمات جمدت على شفتيه .

توقفت السيارة الأولى على بعد بضع خطوات . وقفز منها سائق حليق الذقن يعتمر قبعة ذات رفرف واسع ويحمل لوحات الكتف الضيقة غير الروسية فوق قمصلته ، وفتح الباب . فترجل منها في وقار ضابطان في بزات خاكية ، واتخذا طريقهما صوب الجمع . سارا مباشرة باتجاه بانتلاي ، فوقف

وقفة استعداد متصلبة . وخمن أن هذين الرجلين المرتديين بزات متواضعة كانا الجنرالين حتماً ، أما أولئك الذين كانوا يسيرون خلفهما وقد ارتدوا بزات أكثر تأنقاً فلم يكونوا سوى أعضاء من الحاشية . ولكن ، ولكن أين هي شارات كتف الجنرالات المعدنية ؟ أين رمانات الكتف والمداليات ؟ وأي صنف من الجنرالات كان هذان ، إذ لم يكن بالإمكان تمييزهما عن الكتبة العسكريين العاديين ؟

ظل العجوز يحدق ، دون أن تطرف عيناه ، في الضيوف المتقدمين ، وكشفت عيناه أكثر فأكثر ، عن دهشته الصارخة . وفجأة ، أحس بخيبة مريرة . حتى لقد شعر بالمهانة ، بسبب من استعداده الجدي للقاء ، ولأن هذين الجنرالين كانا عاراً على لقب الجنرالية نفسه . اللعنة! لو أنه علم أن هذا ما كان سيتكشف عنه هذان الجنرالان ، لما كان تأنق في ملبسه واعتنى ، ولما كان انتظرهما بمثل هذا الاضطراب والتوجس ، ولما كان ، بأية حال من الأحوال ، وقف كالأبله ، الصحن في يديه ، وعليه خبز أعدته ، على نحو سيئ ، عجوز ممخاطية الأنف! أبداً ، لم يحدث قط أن كان بانتلاي بروكوفييتش موضع تندر في أعين الناس ، ولكن هذا هو ما حدث الآن فعلاً . وقبل قليل ، تناهت إلى سمعه هأهأة أطفال من ورائه ، حتى أن شيطاناً صغيراً صاح بأعلى صوته :

ـ يا أولاد ، أنظروا كيف يقاصص ميليخوف العجوز نفسه! يبدو وكأنه ابتلع فرشاة!

آه ، لو كان هناك داع لتحمل كل هذا الهزء ، ولارهاق ساقه العرجاء! كان كل ما في أحشاء بانتلاي يمور غيظاً . هذا الأتمان الجبان اللعين كان سبب كل هذا البلاء! جاء وظل يهرف ويهرف ، ثم أخذ الفرس والترانتاس ، وانطلق يقطع القرية جيئة وذهاباً ، مدلى اللسان ، باحثاً عن أجراس لعربتي الترويكا . الحق أن الرجل الذي لم ير في حياته شيئاً يستحق الرؤية يفرح لمرأى خرقة! وفي حياته كلها ، لم ير بانتلاي مطلقاً جنرالات كهذين! خذ

الاستعراض الامبراطوري مثلاً . كنت ترى رجلاً يمشي مشية عسكرية وقد غطى صدره بالمداليات ، وارتدى شرائط ذهبية . فكانت رؤيته تبهج القلب . كان أيقونة ، لا جنرالاً! أما هذان ، الحشوتان الخضراوان ، فكأنهما غرابان من غربان الزرع . أحدهما لم تكن لديه حتى قبعة لائقة ذات رفرف ، كما يتعين عليه أن يعتمر حينما يكون مرتدياً بزته الرسمية ، بل كانت شيئاً يشبه قبعة من نوع «البولر»* مغطاة بشبكة ، وكان وجهه حليقاً أجرد ، وما كان في مقدورك أن تكتشف شعرة صغيرة واحدة ، حتى لو بحثت عنها بقنديل... فغام وجه بانتلاي ، وكاد أن يبصق في اشمنزاز . لكن أحدهم لكزه في ظهره بقوة وأمره بصوت عال :

ـ هيا ، خذه إليهم...

فتقدم خطوة الى أمام . وكان الجنرال سيدورين يجيل ، من فوق رأسه ، نظرة سريعة في الحشد ، ثم نطق في صوت صاف :

ـ التحيات ، أيها الشيوخ الأجلاء!

فهتف القرويون ، جوقة متنافرة الأصوات :

ـ صحة طيبة ، يا صاحب السعادة!

وتقبل الجنرال في وقار الخبز والملح من يدي بانتلاي ، وقال :

ـ شكراً لك ، ـ وناول الصحن الى مساعده .

أما العقيد البريطاني النحيف ، الذي كان يعتمر خوذة استوائية منكسة فوق عينيه ، فقد تفحص القوزاق في اهتمام بارد . وكان قد تسلم أوامر من الجنرال بريجز ، رئيس البعثة العسكرية البريطانية في القفقاس ، تقضي باصطحاب سيدورين في جولة تفقدية في منطقة الدون التي كانت قد طهرت من البلاشفة ، فكان يدرس باهتمام ، يساعده مترجم ، نفسية القوزاق ويطلع ، في الوقت نفسه ، على الوضع في الجبهة .

---

* البولر : نوع من القبعات الصلبة ، تشبه القبة ، ذات حافة ضيقة . المترجمون

وعلى الرغم مما أصاب العقيد من ارهاق وكلال بسبب صعوبات السفر ، ورتابة مناظر السهول ، والمحادثات المتعبة وجميع المسؤوليات المعقدة التي ألقيت على عاتقه باعتباره ممثلاً لدولة كبرى ، إلا أنه كان يضع مصالح الملك والبلاد في المقام الأول . وكان يستمع باهتمام الى خطب الخطباء المحليين ويكاد يفهم كل شيء ، فقد كان ذا معرفة باللغة الروسية رغم اخفائه هذه الحقيقة عن الآخرين .

جعل يتأمل ، بكبرياء بريطاني أصيل ، في الوجوه المتباينة لأبناء السهب أولئك ، ذوي السيماء الدالة على العنف والأقدام ، وقد أذهله ذلك المزيج من الصفات الذي يستلفت نظر كل من تقع عيناه على جمع من القوزاق . فإلى جانب قوزاقي أشقر من أصل سلافي كان يقف مغولي نموذجي ، ثم يتلو هذا قوزاقي شاب أسود بلون الغراب يضع يده في حمالته المتسخة ويثرثر في صوت خفيض مع بطريرك أشيب الشعر بدا وكأنه قد خرج من بين صفحات الانجيل . وشعر العقيد أن باستطاعته أن يراهن ، بأي شيء ، على أن ذلك البطريرك الأشيب اللحية ، المتكىء على عكازه والمرتدى سترة قوزاقية ذات خصر قديم الطراز ، كان يجري في عروقه أنقى دم لأهل المرتفعات القفقاسية...

كان العقيد ملماً ، نوعاً ما ، بالتاريخ ، وبينما كان يتفحص القوزاق بنظره ، حدث نفسه بأنه لا هؤلاء البرابرة ولا أحفادهم بقادرين على الزحف على الهند تحت قيادة بلاتوف جديد . فحينما يتم النصر على البلاشفة ، ستظل روسيا ، وقد استنزفت الحرب الأهلية دمها ، مدة طويلة من الزمن بلا كيان بين الدول الكبرى ، وستظل أملاك بريطانيا في الشرق في حرز حريز عشرات من السنين المقبلات . كان العقيد واثقاً كل الوثوق من اندحار البلاشفة في النهاية . كان رجلاً ذا منطق واع ، فقد عاش قبل الحرب في روسيا عدداً من السنين ، وكان من الطبيعي إلا يستطيع أن يدرك كيف كان في مستطاع الأفكار الشيوعية اليوطوبية أن تنتصر في هذه الاصقاع شبه الهمجية .

ثم انصرف انتباهه الى النساء يتهامسن فيما بينهن بصوت عال . ومن غير أن يدير رأسه ، جعل يعاين وجوههن التي لفحتها الرياح ، وعلقت على شفتيه المزمومتين ابتسامة مزدرية لا تكاد تلحظ .

تراجع بانتلاي نحو الحشد بعد ان سلم الخبز والملح . ولم يتوقف ليستمع الى خطيب من فيشنسكايا ، بل شرع يرحب بالزائرين باسم قوزاق منطقة فيشينسكايا ، ويمم صوب عربتي الترويكا الواقفتين على مبعدة .

كان الزبد يغطي الخيل ، وقد غارت جوانبها . واقترب العجوز من فرسه ، وجعل يمسح منخريها بكمه وهو يتنهد . واعتملت في صدره رغبة في قذف السباب وفي الحال فك العنان عنها ، وقادها إلى البيت . ما أشد خيبته!

وفي غضون ذلك ، كان الجنرال سيدورين يلقي خطاباً على أهالي تتارسكي . فقال ، في معرض مدحه لنشاطهم الجريء في مؤخرة الحمر :

ـ لقد حاربتم بإقدام ضد عدونا المشترك . ولن ينسى وطنكم الخدمات التي قدمتموها ، هذا الوطن الذي يتم الآن تحريره من البلاشفة ، من نيرهم الفظيع . وأود أن أقدم هدايا رمزية تنم عن امتناننا لأولئك النسوة من بنات قريتكم اللواتي لعبن ـ كما نعرف نحن ـ دوراً بارزاً في النضال المسلح ضد الحمر . فأرجو من بطلاتنا القوزاقيات اللواتي ستقرأ اسماؤهن بعد قليل أن يتقدمن .

ثم تلا أحد الضباط قائمة قصيرة . وكان أول اسم فيها اسم داريا ميليخوفا . أما الباقيات فكن أرامل قوزاق قتلوا في بداية الانتفاضة ونساء شاركن ، كما فعلت داريا ، في مذبحة الأسرى الشيوعيين الذين سيقوا الى تتارسكي بعد استسلام كتيبة سيردوبسكي .

لم تكن داريا قد خرجت الى الحقول ، تطبيقاً لأوامر بانتلاي . وتبين أنها كانت في الساحة بين حشد القرويين ، وقد تأنقت في ثياب العيد .. وما أن سمعت امسها حتى شرعت تشق طريقها بين النساء ، وسارت في جرأة

الى المقدمة وهي تسوي عصابة رأسها البيضاء ذات الأطراف المخرمة فيما كانت تمشي ، نصف مغمضة العينين ، وعلى ثغرها ابتسامة مرحة صغيرة . وعلى الرغم مما كان قد أصابها من تعب من أثر رحلتها ومغامراتها الغرامية ، فقد كان منظرها يسر الناظر ويفتنه . وكانت وجنتاها الشاحبتان ، اللتان لم يمسهما لفح الشمس ، تعكسان الوميض اللاهب لعينيها الفضوليتين ، وكان ثمة شيء يمور ، في تحدّ وبذاءة ، في القوسين الصارخين لحاجبيها المزججين وفي ثنية شفتيها المبتسمتين .

واعترض مسيرها ضابط كان ظهره للحشد . فنحته برفق قائلة :

ـ دع أرملة جندي تمر!

واتجهت مباشرة الى سيدورين . فتناول المدالية المعلقة بشريط سان جورج من المساعد ، وشبكها ، بأصابع متعثرة ، على الصدر الأيسر لسترة داريا ، وهو يحدق مبتسماً في عينيها :

ـ اذن فأنت أرملة الملازم ميليخوف الذي قتل في شهر آذار ؟

ـ نعم .

ـ بعد قليل سوف تعطين مكافأة نقدية... خمسمائة روبل . سيقوم هذا الضابط بتقديمها لك . ان الأتمان العسكري أفريكان بتروفتش بوكايفسكي وحكومة الدون يعبران عن شكرهما لك للشجاعة العظيمة التي أبديتها ، ويرجوانك أن تتقبلي عطفهما... انهما يشاركانك الشعور العميق في مصابك .

ولم تفقه داريا كل ما قال الجنرال . فشكرته بهزة من رأسها ، وتناولت النقود من يد المساعد ، ولبثت تحدق مباشرة ، وهي تبتسم في صمت ، في عيني الجنرال الذي لم يزل شاباً . كان طولهما متساوياً تقريباً ، وراحت داريا تتفحص وجه الجنرال النحيل دونما تحفظ كبير . وحدثت نفسها ، بسخريتها الأصيلة :

ـ قيموا بيوتري تقييما رخيصاً ، لا أكثر من قيمة نير ثيران . لكنه ليس قبيحاً ، هذا الجنرال! شكله مقبول جداً .

ولبث سيدورين ينتظر انصرافها ، بيد أنها لم تتحرك . ورفع المساعد والضباط الآخرون الواقفون الى الخلف حواجبهم دهشة ، وهم يجلبون اهتمام بعضهم البعض الى الأرملة الطروب . وتلامعت أعينهم مرحاً ، حتى العقيد البريطاني دبت فيه الحياة ، فسوى نطاقه ، ونقل وقفته من قدم الى أخرى ، وطلع على وجهه الناسك شيء يكاد يشبه الابتسام .

وتساءلت داريا :

ـ هل تسمح لي بالانصراف ؟

فأجاب سيدورين متعجلاً :

ـ أجل ، بكل تأكيد .

وبحركة مضطربة دست داريا النقود داخل الياقة لقميصها وقفلت راجعة الى الحشد . ولما كان الضباط قد ملّوا الخطب والاحتفالات ، فقد تابعوا مشيتها الخفيفة المنزلقة ، عن كثب واهتمام .

ثم تقدمت أرملة مارتن شامل نحو سيدورين في تهيب . وحينما شبك المدالية انفجرت باكية بشكل مجاف لروح الاحتفال ومرير في نواحه النساني بحيث فقدت أوجه الضباط ، في الحال ، سيماء السرور وأمست متجهمة حزينة .

وسألها سيدورين ، قاتم الوجه :

ـ اذن فقد قتل زوجك هو الآخر ؟

فغطت المرأة النائحة وجهها بيديها وهزت رأسها في صمت .

فهتف قوزاقي بصوت عميق :

ـ إن لها أطفالاً كثاراً ، حتى انها لن تستطيع جمعهم في عربة واحدة .

فالتفت سيدورين نحو الانكليزي قائلاً :

ـ إننا نكافئ النساء اللواتي أبدين شجاعة نادرة في محاربة البلاشفة . وقد فقد أغلبهن أزواجهن في بداية الانتفاضة ضد البلاشفة . وانتقاماً لمصرع أزواجهن فقد قامت أولاء الأرامل بإبادة مفرزة كاملة من الشيوعيين

المحليين . وقد قتلت المرأة الأولى التي قلدتها المدالية بيديها قوميساراً شيوعياً ، اشتهر بقساوته .

وأسرع المترجم يتحدث بالانكليزية . فاستمع إليه العقيد مخفض الرأس ثم قال :

ـ إنني معجب بشجاعة هؤلاء النسوة . قل لي ، أيها الجنرال ، هل ساهمن في المعارك في نفس ظروف الرجال ؟

فأجاب سيدورين باقتضاب :

ـ نعم ، ـ وفي حركة تنم عن نفاد الصبر أشار الى الأرملة الثالثة .

بعد ذلك بوقت قصير ، غادر الضيوف القرية متجهين نحو مركز المنطقة . وأسرع الناس ينصرفون ، متعجلين استئناف الحشّ . وحينما اختفت السيارتان عن الأنظار ، تحف بهما كوكبة من الكلاب النابحة ، لم يبق في الساحة سوى ثلاثة شيوخ لبثوا واقفين بحذاء سياج الكنيسة .

فقال أحدهم ناشراً ذراعيه على اتساعهما :

ـ هذا الزمان غريب عجيب! في الأيام الخوالي ، حينما كانت هناك حرب ، كانوا يمنحون صليب سان جورج أو مدالية جزاء للفعال الكبرى فعلاً ، جزاء للبطولات . والرجال الذين كانوا يمنحونها لهم أشجع الرجال . أجرأ الرجال! ولم يكن الكثير يغامر بحياته . ولم يكن عبثاً حين يتحدث الناس عن الموت أو المجد . أما في هذه الأيام فقد شرعوا يعطون المداليات للنساء . وما كان هذا ليكون عملاً سيئاً لو أن النساء فعلن شيئاً حقاً ، ولكن... كل ما في الأمر ، ساق الرجال الأسرى الى القرية ، وقامت النساء بقتل الأسرى ، أولئك الرجال العزل ، بالخوازيق . فأين البطولة في هذا ؟ أنا لا أفهم ، غفرانك يارب!

وكان الشيخ الثاني الضعيف النظر ، متداعياً ، فنحى احدى ساقيه جانباً ، وبحركة بطيئة أخرج كيس تبغ قماشياً ملفوفاً ، وقال :

ـ ان السلطات في نوفوتشيركاسك لديها بصيرة أفضل . وأعتقد أنهم

فكروا في الأمر على هذا النحو : يجب أن يعطوا شيئاً للنساء لجذبهن أيضاً ، وذلك بغية رفع معنويات الجميع ، لكي يحاربوا بشكل أفضل . هذه مدالية ، وهذه خمسمائة روبل ، فأين هي المرأة التي تقول «لا» لشرف كهذا ؟ فقد لا يرغب بعض القوزاق في المضي الى الحرب ، وقد يرغب بعضهم في البقاء آمناً ، بعيداً عن الحرب ، ولكن هل يستطيعون البقاء في بيوتهم الآن ؟ لسوف تشوي نساؤهم آذانهم شيّاً . فوقواق الليل يوقوق أعلى من أي وقواق آخر! وستشرع كل امرأة تفكر :

ـ لعلهم سيعلقون مدالية على صدري أنا .

فعارضه الشيخ الثالث :

ـ انك تهرف ، يا ابن العم فيودور! لقد استحقت النساء المكافأة ، ولهذا كوفئن . لقد أمسين أرامل ، وسيساعدهن المال كثيراً في حقولهن ، وقد اعطين المداليات لشجاعتهن . كانت داريا ميليخوفا أول من قضى على كوتلياروف ، وعلى حق أيضاً! الله هو الحكم عليهم جميعاً ، لكنك لا تستطيع أن تلوم النسوة . فالدم أكثف من الماء...

وظل الشيوخ الثلاثة يتجادلون ويتبادلون السباب إلى أن دق ناقوس الكنيسة داعياً الى صلاة المساء . ففي اللحظة التي قرع فيها السادن الناقوس ، هب ثلاثتهم واقفين ونزعوا قبعاتهم ورسموا إشارة الصليب على أنفسهم ، ثم دخلوا ساحة الكنيسة في وقار .

١٣

عجباً ، لكم تغيرت الحياة في عائلة ميليخوف . لم يمض أجل طويل منذ كان بانتلاي بروكوفييتش يشعر بأنه سيد الدار الأوحد ، وكان كل من فيها يطيعه بلا قيد أو شرط ، والعمل ينجزه الجميع جماعة ، متشاركين في السراء والضراء ، وكان ثمة انسجام قوي مقيم يبسط جناحيه على حياتهم ،

فكأن العائلة قد التحمت في واحد . بيد أن كل شيء قد تغير منذ الربيع الماضي . وكانت دونيا أول من أفلت من الطوق . لم تكن تعصي والدها وجها لوجه ، لكنها كانت تؤدي كل عمل يوكل إليها في فتور جلي ، وكأنها لم تكن تعمل لأجل نفسها ، بل لقاء أجر . وأمست في تصرفها متحفظة جداً ، بعيدة عن الآخرين ، ولم تعد ضحكتها الطليقة تسمع إلا نادراً .

وبعد رحيل غريغوري إلى الجبهة ، غدت ناتاليا ، هي الأخرى ، أقل انسجاماً مع العجوزين . فراحت تقضي كل وقتها تقريباً مع الطفلين ، لا تنطلق في الحديث إلا معهما ، ولم يعد يشغلها غيرهما ، وكان يبدو أنها كانت تتأسى على شيء ما ، في عمق وفي صمت معاً . غير أنها لم تشرك أياً من أفراد العائلة في أساها ، ولا بكلمة واحدة . لم تشك لأحد ، بل احتفظت بحملها الثقيل لنفسها .

أما داريا ، فقد تغيرت تماماً غب رحلتها مع العربة والثورين . فأصبحت تعاند حماها أكثر فأكثر ، ولم تعد تعير ايلينشنا أي اهتمام ، وأمست سريعة الغضب مع الجميع لغير ما سبب واضح ، كما أنها تملصت من المساهمة في حش الأعشاب مدعية المرض ، وغدا سلوكها على نحو كأن لم يعد أمامها سوى أيام معدودات تقضيها في دار ميليخوف .

على مرأى من بانتلاي ، كانت العائلة تتشتت . وتُركا ، هو وزوجته العجوز ، وحيدين . لقد قضى على الروابط العائلية ، في سرعة وعلى غير ما يتوقع . دفء علاقاتهم زال ، ودب الغضب السريع والبغضاء في احاديثهم . ولم يعودوا يجلسون الى مائدة واحدة ، كما في الأيام الخوالي ، عائلة واحدة متآلفة ، بل مثل أناس صادف أن وجدوا أنفسهم معاً على غير ميعاد .

هي الحرب سبب كل ذلك . كان بانتلاي يدرك ذلك جيداً . لقد نفرت بدونيا من والديها لأنهما سلباها أمل الاقتران بميشا كوشيفوي ، الرجل الذي أحبته بكل عنفوان عاطفتها البكر . وكانت ناتاليا تقاسي ، في صمت وعمق ، وكعادتها في الكتمان بسبب من علاقة غريغوري الأخيرة مع أكسينيا . وكان

بانتلاي يرى ذلك بأم عينيه ، بيد أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لاستعادة النسق القديم في عائلته . فهل كان بمقدوره ، بعد كل ما حدث ، أن يوافق على زواج ابنته من بلشفي ثابت العقيدة ؟ ما كان نفع موافقته ، لو أنه أعطاها فعلاً ، والعريس اللعين لا يقر له قرار في الجبهة ، والأنكى ، أن يكون مع الحمر على طول الخط ؟ وكان الشيء نفسه ينطبق على غريغوري : فلو لم يكن يرتدي بزة الضباط ، لعالج بانتلاي أمره بما يلزم! لعالجه بطريقة ما كان غريغوري من بعدها ان يجرؤ حتى على مجرد اختلاس النظر الى فناء آل أستاخوف . غير أن الحرب أفسدت كل شيء وسلبت العجوز امكانية العيش وادارة بيته على هواه . ولقد حطمته الحرب هو الآخر ، وجردته من حماسته السابقة للعمل ، وانتزعت ابنه الأكبر منه ، وأنزلت الشقاق والاضطراب في عائلته . لقد اجتاحته هذه الحرب كما تجتاح عاصفة حقل قمح ناضج . ولكن القمح يستطيع ، حتى في أعقاب العاصفة ، أن يستقيم من جديد ويستعيد رونقه تحت نور الشمس ، بينما لم يعد في العجوز حول على النهوض . وفي ذهنه ، ترك حبل الأمور على غاربها . وليكن ما يكون!

انتعشت داريا كثيراً بعد استلامها المكافأة من يدي الجنرال سيدورين ، فعادت من الساحة جذلة سعيدة . وأرادت ناتاليا المدالية وعيناها تتلامعان ، فسألتها ناتاليا دهشة :

ـ ولأي سبب حصلت على هذه ؟

ـ هذه بسبب ابن عمنا ايفان اليكسييفتش* ، رحمة الله على روحه ، ابن القحبة! وهذه من أجل بيوتر .

وفتحت ، في حبور رزمة أوراق الدون النقدية المخشخشة .

ومع ذلك ، لم تخرج داريا الى الحقول . وأراد بانتلاي أن يرسل معها الطعام . لكنها جابهته بالرفض :

---

* هو ايفان اليكسيفتش كوتلياروف ، الذي قتلته داريا . المترجمون

ـ دعني استريح ، يا أبتاه ، فلقد أنهكتني الرحلة .

فقتم وجه العجوز . فقالت داريا في لهجة شبه هازلة ، محاولة أن تلطف من رفضها الفظ :

ـ في يوم كهذا ، من الخطيئة أن تجبرني على الخروج إلى الحقول . فاليوم عيدي .

فوافقها العجوز :

ـ سآخذ الطعام بنفسي . حسن ، وماذا عن النقود ؟

فرفعت داريا حاجبيها في استغراب :

ـ ماذا عن النقود ؟

ـ إنني أسألك ، ماذا تنوين أن تفعلي بالنقود ؟

ـ هذا شأني . سأفعل بها ما أشاء .

ـ ولكنها... ماذا تعنين ؟ ألم يعطوك النقود من أجل بيوتر ؟

ـ لقد اعطوها لي ، وليس لك أن تتصرف بها .

ـ ولكن ، هل أنت فرد في هذه العائلة أم ماذا ؟

ـ وما عساك تريد من هذا الفرد في العائلة ، يا أبتاه ؟ أن تستحوذ على النقود لنفسك ؟

ـ أنا لا أقصد المبلغ برمته . ولكن ، هل كان بيوتر ، في نظرك ، ابننا أم لا ؟ يجب أن أحصل ، أنا والعجوز ، على حصة منه ، أليس كذلك ؟

وجاءت مطالبة العجوز في لهجة واضحة التردد ، فأمسكت داريا بزمام المبادرة ، وقالت في صوت هادىء الى حد الاثارة :

ـ لن أعطيك شيئاً! لن أعطيك روبلاً واحداً ، لا حصة لك في هذا ، وإلا لكان حظّه في يدك . ثم ، لماذا تثير ضجة حول حصتك ؟ لم يقل أحد شيئاً عن الحصص ، فلا حاجة بك إلى مدّ يدك نحو نقودي ، لأنك لن تبلغها!

وهنا ، حاول بانتلاي محاولته الأخيرة :

ـ أنت تعيشين معنا ، تأكلين خبزنا ، وهذا يعني أن كل شيء يجب أن يكون مشتركاً فأي نسق من الحياة سيوجد لو أن كل واحد شرع يسيّر شؤونه الخاصة مستقلاً عن الآخرين ؟ لن أسمح بحدوث هذا!

بيد أن داريا ردت هذه المحاولة الأخيرة لأخذ نقودها . وأعلنت وهي تبتسم بلا حياء :

ـ إنني لست زوجتك ، يا أبتاه . اليوم أعيش معكم ، وغداً أتزوج ، ويومئذ ستسعد بوداعي! ولست ملزمة بدفع المال عن طعامي . لقد عملت عشر سنوات في خدمة عائلتك دون أن أقيم ظهري!

فصرخ بانتلاي حانقاً :

ـ عملت من أجل نفسك ، أيتها السفيهة الآثمة!

وصرخ بشيء آخر ، لكن داريا لم تلبث لتسمعه ، بل رفعت طرف تنورتها ، ومرقت من تحت أنفه مباشرة ومضت إلى غرفة الضيوف ، وهي تهمس في ابتسام ساخر :

ـ لقد أخطأت حين جربت لعبتك معي!

وانتهى الحوار عند هذا الحد . وفي الواقع ، ما كانت داريا بالتي تتنازل عن حقوقها تحت تهديد عجوز غاضب .

استعد بانتلاي للمضي الى الحقول ، غير أنه تبادل الحديث مع ايلينشنا قبل مغادرته الدار ، فأمرها قائلاً :

ـ لا ترفعي عينيك عن داريا!

فتساءلت ايلينشنا مستغربة :

ـ لماذا عليَّ ألا أرفع عيني عنها ؟

ـ مخافة أن تحزم متاعها وتترك الدار ، وتأخذ شيئاً من حوائجنا معها . يبدو لي أنها لا تنفش جناحيها لغير ما هدف... واضح انها عثرت على شاب لها ، ولا بد أنه ستتزوج في يوم من الأيام .

فوافقته ايلينشنا :

ـ قد تكون على حق . انها تحيا كما يحيا أي خوخول* في أطراف القرية . لا شيء يرضيها ، وكل شيء سيئ في نظرها... وهي في هذه الأيام منعزلة عنا جميعاً . ومهما حاولت فلن تستطيع أن تلصق قطعة خبز على الرغيف ثانية .

ـ لا داعي يلزمنا بمحاولة إلصاقها ثانية! لا تفكري بإبقائها أن تحدثت عن الرحيل ، أيتها العجوز الحمقاء! دعيها تترك المنزل . لقد عانيت مافيه الكفاية من معالجة أمرها!

وارتقى بانتلاي العربة ، وفيما شرع ينخس الثورين قال مختتماً كلامه :

ـ انها لا تنفك تتملص من العمل كما يتملص كلب من الذباب ، لكنها تحاول على الدوام أن تحصل على أفضل لقمة لها وأن تقضي أوقاتها في طرب ومرح . والآن ، وقد ذهب بيوتر ، رحمة الله على روحه ، فما عدنا نرغب بالابقاء على مثيلاتها في العائلة . إنها ليست امرأة ، إنها وباء زاحف!

على أن افتراضات العجوزين كانت على خطأ . اذ لم يخطر في بال داريا حتى مجرد فكرة الحصول على زوج آخر . لم تكن تفكر بالحياة الزوجية ، بل كان ثمة حمل ثقيل ينوء به فكرها...

ظلت طوال النهار لطيفة المعشر ، ممراحة . حتى المشاحنة حول النقود لم تترك أثراً في نفسها ، وقضت وقتاً طويلاً أمام المرآة ، تدور وتتثنى وهي تفحص المدالية من جميع الزوايا . ارتدت وخلعت ملابسها خمس مرات لترى أية سترة تكون أكثر انسجاماً مع شريط سان جورج المقلم ، وحدثت نفسها مازحة :

ـ والآن ، يلزم أن أحصل على أوسمة أكثر .

ثم استدعت ايلينشنا الى غرفة الضيوف ، ودست في راحتها ورقتين من فئة العشرين روبلاً ، وهمست وهي تشد يد العجوز المقعدة الى صدرها بيديها الملتهبتين :

---

* الخوخول : اسم للتحقير يطلقه القوزاق على أهل اوكرانيا . المترجمون

ـ هذا من أجل الصلوات على روح بيوتر . اطلبي اقامة الصلوات على روحه ، واسلقي شيئاً من العصيد لتوزيعه على الناس في الكنيسة .

وانفجرت باكية . لكنها في اللحظة التالية راحت تلاعب ميشاتكا ، خلل الدموع المتألقة في عينيها ، وتنشر فوقه شال العيد الحريري ، وتضحك وكأنها لم تبك قط ولم تعرف طعم الدموع المالح طوال حياتها .

وغدت أكثر مرحاً حينما رجعت دونيا من الحقول . فأخبرتها كيف منحت المدالية ، وقلدت ، متضاحكة ، لهجة الجنرال الوقور .ثم أكدت لدونيا ، وهي تغمز لناتاليا سراً غمزة متخابثة ، انها هي ، داريا ، أرملة الضابط التي منحت وسام سان جورج ، لسوف ترقى الى رتبة ضابط وتعين آمراً لكتيبة من القوزاق الكهول .

فمضت ناتاليا ترتق قمصان الطفلين ، منصتة لداريا وكاتمة الابتسام ، في حين أن دونيا استبد بها الذهول ، وتساءلت وهي تشبك بيديها متضرعة :

ـ داريا! عزيزتي داريا! لا تلفقي قصصاً بحق المسيح! فأنا لم أعد أميز بين كذبك وصدقك . خبريني بكل شيء بلا مزاح!

ـ ألا تصدقينني ؟ حسن ، اذن لا بد أنك فتاة غبية! انني أخبرك بالحقيقة السافرة . الضباط جميعهم في الجبهة ، فمن سيقوم بتدريب الكهول على كيفية المسير عسكرياً وجميع الأمور الأخرى التي يلزم أن يتدرب الجندي عليها ؟ حسبك أن تنتظري حتى يضعوهم تحت امرتي ، وعندئذ سوف أعالج أمرهم ، أولئك الشياطين العجائز! هكذا سوف أقودهم!

وأغلقت داريا الباب المؤدي الى المطبخ ، كيلا تراها حماتها ، ثم دست بسرعة طرف تنورتها بين ساقيها وأمسكت بها من خلف ، كاشفة عن ربلتي ساقيها العاريتين المتألقتين ، وراحت تؤدي المشية العسكرية داخل غرفة الضيوف ، ثم توقفت على مقربة من دونيا وأصدرت ايعازاً بصوت نابع من الصدر :

ـ أيها الكهول ، استـ... ـعد! ارفعوا لحاكم! الى اليسار در ، عادة سر!

فلم تستطع دونيا أن تسيطر على زمام نفسها ، فانفجرت ضاحكة وهي تخفي رأسها في راحتيها . وقالت ناتاليا من خلال ضحكها :

ـ أوه ، كفى! لا خير يأتي من ورائه!

ـ لا خير يأتي من ورائه ، ها ؟ وهل عرفت أي خير في حياتك ؟ فإذا لا أجعلك تضحكين ، ستمسين قالباً جامداً في هذا البيت!

لكن انطلاق داريا مرخاً انتهى فجأة كما كان قد بدأ فجأة . فبعد نصف ساعة عادت الى غرفتها الصغيرة ، وانتزعت في غضب المدالية المشؤومة من صدرها وقذفتها في الصندوق . ثم جلست عند النافذة زمناً طويلاً ، واضعة خديها في كفيها . وفي الليل ، انسلت خارجة الى مكان ما ولم تعد إلا بعد أن أطلق الديك الأول صياحه .

بعد ذلك ، ظلت أربعة أيام تعمل في الحقول بجد ونشاط .

كانت عملية الحشّ وتجفيف العشب تجري بصورة بائسة . اذ كان هناك نقص في اليد العاملة . ولم يكن بالمستطاع حش أكثر من أربعة فدانات ، أو حوالي ذلك ، في اليوم الواحد . ثم تنقّع العشب المحشوش بماء المطر ، فأضاف ذلك عبئاً جديداً الى العمل . أصبح لزاماً أن تطرح الحشات أرضاً وتجفف في الشمس . وما أن جرفت أكواماً حتى سقط المطر من جديد واستمر ، كعادته في الخريف ، من أول المساء حتى الفجر . ثم حل طقس بديع ، وهبت ريح من الشرق ، وشرعت مكائن الحش من جديد تقعقع في السهب ، وانبعثت رائحة عفن حلوة حريفة من الحشات المسودة ، وتغلف السهب بضبابه ، وبرزت في غموض خلل الضباب الأزرق الحواف غير المميزة للروابي القائمة كالحراس ، وشقوق الأخاديد الماثلة للزرقة ، والذوابات الخضر لأشجار الصفصاف المشرئبة فوق الغدران البعيدة .

في اليوم الرابع ، استعدت داريا للذهاب من الحقول مباشرة الى مركز

المنطقة ، فأعلنت عن نيتها حينما كانوا جالسين في مضرب الحقل في فترة الظهر .

فسألها بانتلاي متجهماً ممتعضاً :

ـ وفيم كل هذه العجلة ؟ ألا تستطيعين الانتظار الى يوم الأحد ؟

ـ لدي عمل ، ولن يحتمل الانتظار .

ـ ولا حتى يوماً واحداً ؟

فردت داريا خلل اسنانها المصكوكة :

ـ كلا .

ـ حسن ، إذا كان الأمر يقلقك الى حد نفاد الصبر ، فاذهبي . ولكن ، ما هو هذا العمل المستعجل الذي عليك انجازه ؟ ألا نستطيع أن نعرف ؟

ـ لو عرفت كل شيء متَّ قبل أن يحين أجلك!

وكعادتها ، لم تبخل داريا في كلامها ، فبصق بانتلاي حنقاً وتوقف عن اسئلته .

في اليوم التالي ، وفي طريق عودتها من مركز المنطقة ، عرّجت داريا على تتارسكي . لم يكن في الدار سوى ايلينشنا والطفلين . وهمّ ميشاتكا بالعدو نحو خالته ، إلا أنها نحته بفتور جانباً وسألت حماتها :

ـ أين ناتاليا ، يا أماه ؟

ـ انها في حديقة الخضار ، تعزق البطاطس . لم تريدينها ؟ هل أرسل العجوز في طلبها ؟ فليشتوِ ، وأخبريه أنني قلت ذلك!

ـ لم يرسل أحد في طلبها . لديّ ما أريد قوله لها .

ـ هل جئت مشياً ؟

ـ نعم .

ـ هل سينهي ربعنا عمله عما قريب ؟

ـ غداً ، ربما .

ومضت العجوز تضايق داريا بالأسئلة فيما كانت هذه تنزل درجات العتبة :

ـ مهلاً لحظة . الى أين تراك طائرة ؟ هل اتلف المطر الكثير من التبن ؟

ـ لا ، ليس كثيراً . حسن ، انني ذاهبة ، لا وقت لدي...

ـ عرّجي على البيت عند عودتك من الحديقة وخذي قميصاً للعجوز . أتسمعين ؟

فتظاهرت داريا انها لم تسمع وأسرعت نحو الزريبة . وعند المرسى القائم على حافة النهر توقفت وجعلت تحدق ، نصف مغمضة العينين ، في امتداد النهر الأخضر . وبعث الهواء الرطب المنعش الذي كان يهب فوق النهر القشعريرة في أوصالها . فسارت على مهل نحو الحدائق متخذة طريقها على ضفة النهر .

كان ثمة نسيم خفيف يتلاعب فوق الدون ، وطيور النورس تدور وتدور . وكانت الأمواج تزحف في كسل على الساحل المنحدر . ومن التلال الكلسية المتلفعة بضباب ليلكي رقيق ، كان ينبعث ألق خافت تحت نور الشمس ، وبدت الغابة التي اغتسلت بماء المطر فتية يانعة على الضفة اليسرى ، وكأن الوقت غداة الربيع .

خلعت داريا حذاءها من قدميها المتألمتين ، وغسلت ساقيها ، وقعدت زمناً طويلاً على الضفة ، فوق الحصى اللاهب . وراحت تتسمع الى نداءات النورس المتشوقة ، وراحتها تظلل عينيها من وهج الشمس ، والى صوت الماء يلعق الساحل مرة تلو المرة .وصعدت الدموع الى مآقيها إزاء ذلك السكون ، وإزاء نداءات النورس التي تمزق نياط القلب . وبدت المصيبة التي حلت بها ، على نحو غير متوقع ، أثقل حملاً وأقسى مرارة .

قومت ناتاليا ظهرها في مشقة ، وأسندت فأسها الى السياج ، وإذ لمحت داريا يممت ناحيتها :

ـ هل تريدينني ، داريا ؟

ـ لقد جئتك بمصيبتي...

وجلستا جنبا إلى جنب . خلعت ناتاليا عصابة رأسها ، وسوّت شعرها ، وتطلعت نحو داريا في ترقب . فأذهلها التغيير الذي أصاب داريا خلال بضعة الأيام الماضية . غارت وجنتاها وأظلمتا ، وانعقد جبينها في تقطيبة عميقة ، وكان ثمة وميض قلق محموم في عينيها . فسألتها ناتاليا في لهجة عطوف :

ـ ماخطبك ؟ لقد أمسى وجهك شديد الأسوداد .

ـ لو كنت مكاني لأسود وجهك أيضاً .

وانتزعت داريا ابتسامة ، وصمتت . ثم تساءلت :

ـ هل امامك مزيد من العزق ؟

ـ سأنتهي عند المساء . ولكن ما الذي جرى لك ؟

فبلعت داريا ريقها في حركة متشنجة ، وأجابت في تمتمة سريعة :

ـ سأخبرك . انني مريضة . لقد أصابني مرض خبيث... أصبت به في الرحلة الأخيرة... عداني به ضابط لعين!

فضربت ناتاليا يداً بيد فرقاً وكمداً :

ـ إذن فقد دفعت ثمن لذتك!

ـ أجل ، دفعت ثمنها... وليس هناك ما يقال ، ولا انسان يلام... إنها نقطة ضعفي ، فحسب... لقد تودد إليّ الخنزير ، وداهنني... كان ذا اسنان بيض ، لكنه كان متعفناً في داخله... والآن ، قضي عليّ!

ـ ياحبيبتي التعيسة! ما العمل الآن ؟ ما الذي ستفعلينه ؟

وجعلت ناتاليا تحدق في داريا بعينين جاحظتين ، بينما استعادت داريا رباطة جأشها ، واستأنفت كلامها في هدوء أكثر من السابق ، وعيناها مسمرتان على قدميها :

ـ الواقع أنني بدأت ألاحظ بعض الأعراض ، خلال طريق العودة . وفي البدء حسبت أنه.مجرد . أنت تعرفين أن النساء يصبن بشتى أنواع الاضطرابات . في الربيع الماضي ، مثلاً ، رفعت زكيبة من القمح من الأرض ،

فأصبت بنزيف دام ثلاثة أسابيع . حسن ، لكنني أدركت فيما بعد أن الأمر هذه المرة ليس شبيهاً بذلك تماماً... ظهرت الأعراض... وأمس ، ذهبت الى الممرض في مركز المنطقة . كان العار سيميتني... لكن ، انتهى كل شيء الآن... لقد نالت الفتاة الطيبة جزاءها!

ـ يجب أن تشفي نفسك منه ، فإنه عار وأي عار! يقال أن هذا النوع من المرض يمكن الشفاء منه .

فابتسمت داريا ابتسامة شوهاء ، ورفعت عينيها الملتهبتين لأول مرة منذ بدء الحديث :

ـ لا ، يا فتاتي ، لا شفاء من مرضي . لقد اصبت بالسفلس ، ولا شفاء منه . ينخلع انفك بذلك الـ... مثل الأم العجوز اندرونيخا... هل رأيتها في حياتك ؟

فسألتها ناتاليا بصوت نانح والدموع تملأ عينيها :

ـ وماذا ستفعلين الآن ؟

لبثت داريا صامتة وقتاً طويلاً . انتزعت زهرة عليق من ساق ذرة ، كانت قد لفت نفسها حوله ، ورفعتها قريبة من عينيها . كان كأس الزهرة الرقيق ذو الحواف الوردية خفيفاً ، يكاد يكون شفافاً لا وزن له ، يفوح بالعطر الثقيل للأرض المشبعة بنور الشمس . فجعلت داريا تحدق إليها في لهف وتمعن ، وكأنها لم تر هذه الوردة الشائعة من قبل ، وتشمها بمنخرين يرمعان ، ثم وضعتها باعتناء على التراب المفتت الجاف بفعل الريح ، وقالت :

ـ تسألني ماذا سأفعل ؟ في طريق عودتي من مركز المنطقة كنت أفكر وأرسم الخطط طوال الطريق... سأقتل نفسي ، هذا ما سأفعله . أنه لأمر مؤلم ، لكن يبدو أنه ليس هناك مخرج سواه . لا فائدة اذا حاولت فعلاً أن أشفي نفسي من مرضي ، فإن جميع من في القرية سيكتشف ذلك . سيشيرون ، جميعاً ، بأصابعهم نحوي ، ويولونني ظهورهم ويضحكون . من

سيرغب فيّ على حالتي الراهنة ؟ سيذوي جمالي ، ويذبل جسمي ، وسأتعفن وأنا حية... ولست راغبة في أن يحصل بي هذا!

كانت داريا تتكلم وكأنها تناقش الأمر مع نفسها دون أن تأبه لحركة ناتاليا المعترضة .

ـ قبل أن أذهب الى فيشنسكايا قلت في نفسي : لو أنني مصابة بمرض خبيث فسوف أعمل على الشفاء منه . ولهذا لم أعط النقود للوالد . حسبت انها ستكون ذات فائدة لدفع أجور الأطباء... أما الآن ، فقد غيرت فكري . ولقد سئمت كل شيء . لا أريد أن أشفى!

وقذفت داريا سباباً مقذعاً مما يستعمله الرجال عادة ، وبصقت ، وبظهر راحتها مسحت دمعة عالقة بأهداب عينها الطويلة ، فقالت ناتاليا بصوت هادئ :

ـ يا لشناعة ما تتفوهين به! يجب أن تخافي الله...

ـ الله ... إنه لا ينفعني الآن . وقد ظلّ يعاكسني طيلة حياتي...

وابتسمت داريا ، وفي ابتسامتها الخبيثة الماكرة لمحت ناتاليا ، في ثانية واحدة ، صورة داريا الأصيلة .

ـ ... إياكم أن تفعلوا هذا ، واياكم أن تفعلوا ذاك . الكل يخيفونك من ارتكاب الخطايا بالحديث عن يوم الحساب... ولكنك لن تستطيعي أن تفكري بحساب أفظع من هذا الذي سأنزله على نفسي . لقد سئمت كل شيء ، يا ناتاليا . لقد تكشف الجميع عن رهط فظيع... وسيكون من اليسير عليّ أن أقتل نفسي . ليس لديّ من هو أمامي أو ورائي ، ولا من اريد أن أنتزعه من فؤادي... هذا حق!

لكن ناتاليا ظلت تجادلها بشدة ، متوسلة إليها أن تعيد النظر في قرارها وأن تنحى فكرة الانتحار عن ذهنها . بيد أن داريا ، التي كانت تنصت إليها في شرود بادئ الأمر ، ما لبثت أن استجمعت قواها وقاطعتها مغضبة :

ـ كفي عن هذا الكلام ، يا ناتاليا! أنا لم أجئك لكي تثنيني عن عزمي بالكلام وتتوسلي . إني جئت كي أخبرك بمصيبتي وأن أحذرك بألا تدعي ، من اليوم فصاعداً ، طفليك يقتربان مني . إن مرضي معد ، كما يقول الممرض ، وقد سمعته يقول ذلك بأذني ، فلا أريد أن يصابا به مني . ألا ترين ، يا بليدة ؟ ثم أخبري العجوز ، فلست أملك الشجاعة لإخبارها بنفسي... لكنني... لكنني لن أضع رأسي في الأنشوطة حالاً ، لا تظني ذلك! لازال ثمة متسع من الوقت... سأظل أحيا في هذا العالم مدة قصيرة أخرى وأمتّع نفسي به ، وأودعه الوداع الأخير . أنت تعرفين طباعنا نحن النساء . مادامت قلوبنا خلية ، نسير على غير هدى... انظري الى حياتي كيف عشتها : كنت أشبه بالعمياء ، ولكن حينما كنت عائدة من فيشنسكايا بحذاء ضفة الدون ، وحينما خطر في ذهني أنني سأضطر الى مغادرة هذا العالم عن قريب ، أحسست وكأن عيني قد تفتحت . فنظرت الى الدون ، وكان يترقرق في كل شبر منه ، وبدا في نور الشمس كالفضة الخالصة ، يتراقص ، حتى لقد آلم بصري النظر إليه . فاستدرت وجعلت أنظر... رباه ، كم كان كل شيء جميلاً! ومع ذلك ، فلم يحدث لي قبل ذلك أن لاحظته...

وابتسمت داريا حيية الوجه ، وخلدت الى الصمت . ثم شدت قبضتيها ، واستأنفت كلامها في صوت أعلى وأكثر إجهاداً ، وهي تخنق عبرة غص بها بلعومها :

ـ في طريقي إلى هنا ، بكيت أكثر من مرة... وبينما كنت أقترب من القرية ، نظرت فرأيت الأطفال يسبحون في النهر... وبينما كنت أنظر إليهم وخزني قلبي فجأة ، وطفقت أبكي ، كالبلهاء . فارتميت على الرمل ، ولبثت عليه ساعتين حتى أتغلب على نوبة البكاء... ليس الأمر يسيراً عليّ حينما أفكر فيه...

وقامت من الأرض ، ونفضت تنورتها ، وسوت ، بحركة معتادة ، عصابتها على رأسها :

ـ الشيء الوحيد الذي يفرحني حينما أفكر بالموت هو أنني سأرى بيوتر في العالم الآخر... سأقول له :

ـ حسن! يا صديقي القديم ، بيوتر بانتلايتش ، خذ ثانية زوجتك الطائشة!

وأضافت ، في سخريتها اللوذعية المعتادة :

ـ بيد أنه لن يستطيع ضربي في ذلك العالم ، فهم لا يسمحون بدخول الأشخاص المثيرين للعراك إلى الجنة ، أليس كذلك ؟ حسن ، الى اللقاء يا ناتاليا العزيزة! لا تنسي أن تخبري الوالدة بمصيبتي .

فلبثت ناتاليا جالسة وهي تغطي عينيها براحتيها المتربتين ومن بين أصابعها كانت الدموع تتألق كما تتألق مادة الراتينج في حلقات الصنوبر . وحينما بلغت داريا البوابة المضفورة من سيقان الاسفندان ، استدارت وقالت في لهجة لا انفعال فيها :

ـ من اليوم فصاعداً ، سوف أطعم في صحون منفصلة . أخبري الوالدة بذلك . آه نعم ، شيء آخر : عليها ألا تخبر الوالد بالأمر ، وإلا فإن العجوز سيجن ويطردني خارج البيت . وهذا ما ينقصني . أنا ذاهبة الآن إلى الحشّ مباشرة . إلى اللقاء!

١٤

عاد الحاشون من السهب في اليوم التالي . وعقد بانتلاي العزم على الشروع بنقل القش في العربات بعد العشاء . وقادت دونيا الثيران الى الدون لتوردها ، وأسرعت ايلينشنا وناتاليا تعدان المائدة .

كانت داريا آخر من جلس الى المائدة ، فقعدت عند طرفها ، ووضعت ايلينشنا أمامها صحناً صغيراً من حساء الكرنب ، وصبت ، كالعادة ، الحساء للآخرين في صحن كبير واحد .

فحدج بانتلاي زوجته مستغرباً ، وسألها وهو يشير الى صحن داريا بعينيه :

ـ ما معنى هذا كله ؟ لماذا صببت حساءها منفصلاً ؟ ألم تعد على مذهبنا ؟

ـ ما هذا الذي تريده الآن ؟ كُل!

فألقى العجوز نظرة ساخرة على داريا وابتسم قائلاً :

ـ ها ها! فهمت! مادامت قد حصلت على مدالية فلم تعد ترغب في الأكل من الصحن المشترك . كيف هذا ، يا داريا ؟ تترفعين عن مشاركتنا بصحن واحد ؟

فأجابت داريا بصوت مبحوح :

ـ كلا ، لا أترفع . ولكن لا يجوز .

ـ ولم لا ؟

ـ بلعومي ملتهب .

ـ حسن ، ثم ماذا ؟

ـ ذهبت الى فيشنسكايا لرؤية الممرض ، وقال عليّ أن آكل في صحن منفصل .

ـ أنا أيضاً التهب بلعومي مرة ، لكنني لم أبتعد عن الجميع ، كما أنني ، والحمد لله ، لم أعد أحداً به . إذن ، فما هو صنف البرد الذي أصابك ؟

فشحب وجه داريا ، ومسحت شفتيها بيدها ووضعت ملعقتها على المائدة . أما ايلينشنا فقد أغاظها تصرف زوجها غير الحصيف ، فصاحت به :

ـ لمَ تضايق المرأة ؟ نحن لا نعرف طعم الراحة منك حتى على المائدة! يلصق كالشوك ، ولا خلاص منه!

فردّ عليها بانتلاي في حنق :

ـ ولكن لمَ كل هذه الضجة ؟ لا يهمني ، افعلوا ما شئتم!

وفي ثورة حنقه صب ملعقة من الحساء الساخن في بلعومه ، وحرق حلقه ، فزأر كالمجنون وهو يقذف الحساء فوق لحيته :

ـ أنت لا تعرفين كيف تقدمين الحساء بشكل صحيح ، اللعنة عليكم جميعاً! من يقدم الحساء من على النار مباشرة ؟

فقالت ايلينشنا معزية :

ـ لو قللت كلامك على المائدة لما حرقك الحساء .

وكادت دونيا أن تنفجر ضاحكة وهي تراقب أباها وقد استحال وجهه أزرق وهو يلتقط الكرنب وفتات البطاطس من ثنايا لحيته . لكن الآخرين جميعاً كانوا متجهمي الوجوه ، فكبحت جماح نفسها وأدارت عينيها خشية أن تقهقه في لحظة حرج كتلك .

بعد العشاء ، خرج العجوز وكنتاه في العربة لجلب العشب . فجعل بانتلاي يقذف العشب في العربة بمذراة طويلة ، بينما تتناول ناتاليا الكومة عفنة الرائحة وتطأها بقدميها . وبعد ذلك ، عادت مع داريا من الحقول ، بينما كان بانتلاي قد سبقهما بثوريه العجوزين ذوي الخطوات الواسعة .

كانت الشمس تأفل وراء الربوة ، ورائحة الشيح الحادة تنبعث من السهب المحشوش وقد أمست أشد نفاذاً مع حلول المساء ، ولكنها في الوقت نفسه أصبحت أكثر إنعاشاً وأطيب عطراً ، وقد زالت حرافتها الخانقة التي كانت تميزها أثناء النهار . وكانت الحرارة تفتر ، فراحت الثيران تسير طواعية ، والغبار الثقيل الذي تثيره حوافرها على الدرب الصيفي يعلو ويحط على أدغال العوسج على جانبي الدرب . وكانت رؤوس العوسج وتيجانها القرمزية المزهرة تتقد لامعة ، والنحل يحوم فوقها ، وطيور الهدهد محلقة نحو غدير ناء في السهب ، تنادي بعضها البعض .

ارتمت داريا على بطنها في العربة المتأرجحة ، متكئة على مرفقيها وملقية نظرها على ناتاليا بين الفينة والفينة . وكانت ناتاليا شاردة تحدق في غروب الشمس ، وعلى وجهها الهادئ الصافي تحوم أشعة قرمزية . «ناتاليا سعيدة . لديها زوج وطفلان ، وليس ثمة شيء آخر تحتاجه : وكل من في العائلة يحبها . أما أنا ، فقد انتهى أمري . وحينما أموت ، لن يذرف أحد

عليّ دمعة» . وفيما كانت داريا تفكر ، حاسدة عديلتها ، استشعرت على حين غرة رغبة تعتمل في صدرها لإيذاء ناتاليا بشكل ما ، لإيلامها . لم كان عليها ، هي داريا ، وحدها أن تصارع غارات اليأس ، أن تفكر بلا انقطاع في حياتها المحطمة وأن تقاسي كل هذه المصائب القاسية ؟ فألقت نظرة سريعة أخرى على ناتاليا وقالت في صوت حاولت أن تجعله يبدو مخلصاً :

ـ أريد أن أعترف لك بشيء ، يا ناتاليا .

لم تجب ناتاليا في الحال . كانت تستعيد ، وهي تحدق في الشمس الغاربة ، ذلك اليوم البعيد حينما كانت لاتزال خطيبة لغريغوري ، وقد جاء ليراها في دار أهلها . وحينما غادر الدار خرجت هي الى البوابة لتودعه . في ذلك اليوم ، كان الغروب يلتهب ، كما الآن ، في بقايا وهج بلون توت العليق منبسط ناحية الغرب ، وكانت الزيغان تتنادى بين الصفصاف . ابتعد غريغوري على صهوة حصانه ، وجسمه فوق سرجه نصف مستدير ناحيتها ، وقد لبثت هي تحدق خلفه خلل دموع الانفعال الجذلان ، وهجست بيديها المشدودتين على نهديها البكرين النافرين ضربات قلبها عنيفة صاخبة... فلم ترتح حينما قطعت عليها داريا حبل التأمل الصامت ، فتساءلت بفتور :

ـ ما عساك تريدين أن تعترفي به ؟

ـ ارتكبت اثماً... هل تذكرين حين عاد غريغوري من الجبهة في اجازة ؟ في مساء ذلك اليوم ، كما أذكر ، كنت أحلب البقرة . وبينما كنت ماضية الى الكوخ سمعت أكسينيا تناديني . حسن ، دعتني وأعطتني هذا الخاتم الصغير ، فرضته عليّ فرضاً (وهنا أدارت داريا الخاتم في بنصرها) وتملقتني بغية إرسال غريغوري إليها . على أية حال ، لم يكن ذلك من شأني... فأخبرته . وهو طوال تلك الليلة... أتذكرين أنه قال بأن كودينوف قد قدم وأنه قضى الليلة بالحديث معه ؟ كان ذلك كله هراء! كان مع أكسينيا .

جلست ناتاليا مسلوبة الحواس ، بيضاء الوجه ، تكسر بيديها في صمت قطعة يابسة من البرسيم .

فقالت داريا في تواضع ، وهي تحاول أن تنظر في عيني ناتاليا :
ـ لا تغضبي مني ، يا ناتاليا . إنني آسفة لاخبارك الآن .
فخنقت ناتاليا عبراتها في صمت ، كانت المصيبة التي داهمتها ثانية مفاجئة وخانقة ، بحيث لم يعد فيها حول للردّ على داريا ، بل أشاحت لتخفي وجهها العابس .

وفيما كانت العربة تدخل بهما القرية ، كانت داريا تتحدث في سريرتها حانقة على نفسها : ـ لابد أن الشيطان هو الذي استحثني لإغاظتها! والآن ، ستظل شهراً كاملاً تذرف الدموع! كان عليّ ألا أدعها تعلم . الأفضل للبقرات من مثيلاتها أن يعشن في عماهن .

ثم قالت : تحدوها الرغبة في تخفيف وطأة كلماتها على ناتاليا :
ـ لكن ، لا داعي لانزعاجك الزائد . ما قيمة ذلك حتى تتنهدي وتتحسري ؟ مصيبتي أفدح من مصيبتك ، لكنني ، مع ذلك ، أحافظ على ذقني مرفوعاً . والشيطان يدري... فرغم كل هذا ، من المحتمل ألا يكون قد ذهب إليها ، ولعله ذهب فعلاً لرؤية كودينوف ، أنا لم أتبعه . وإذا لم يلق القبض على المرء متلبساً بالسرقة ، فما هو باللص!

فأجابت ناتاليا بهدوء ، ماسحة عينيها بطرف عصابتها :
ـ حزرت أين ذهب .
ـ فإذا حزرته ، لمَ لم تسأليه ؟ آه ، يا عديم النفع! لو كان بيدي ، ما كان ليفلت منها! لشددت عليه الخناق حتى أدوخه!

فقالت ناتاليا ، والانفعال يجعل كلامها متعثراً ، فيما التهبت عيناها :
ـ كنت أخشى اكتشاف الحقيقة... أو تظنين الأمر يسير الاحتمال ؟ أنت... لعلك كنت تستطيعين... العيش مع بيوتر هكذا... لكنني حينما أتذكر... أتذكر كل ما مر علي... عليّ من مصائب... من الفظاعة احتمالها حتى هذه اللحظة .

فقالت داريا تنصحها في سذاجة :

ـ حسن ، اذن ، انسي كل شيء!

فهتفت ناتاليا بصوت غريب أجش :

ـ ما هذا بالشيء الذي يمكن نسيانه!

ـ لو كنت مكانك لنسيته! جعجعة زائدة على لا شيء!

ـ اذن فانسي مرضك!

ـ بودي ذلك ، لكنه لا يريد أن يتخلى عني ، عليه اللعنة! اسمعي يا ناتاليا ، ان شئت ، اكتشف جلية الأمر كله من أكسينيا . سوف تخبرني حتماً ، فليعاقبني الله! لكن ، ليس ثمة امرأة على قيد الحياة تستطيع أن تسكت ولا تبوح للآخرين بمن يحبها وكيف يحبها . أنا خبيرة بهذه الأمور من تجاربي .

فردّت ناتاليا عليها بجفاف :

ـ لا أريد خدماتك! لقد أديتِ لي خدمة واحدة قبل هذه! أنا لست عمياء ، بل أعرف لماذا أخبرتني بالأمر . ولم يكن اعترافك عطفاً على حالي ، كما ادعيت ، إنما أردتِ أن تريني أشد تعاسة...

فقالت داريا موافقة وهي تتنهد :

ـ أنت على حق! ولكن اترك لك الحكم . هل علي أنا وحدي أن أقاسي ، ها ؟ ـ وترجلت من العربة ، وأمسكت بعنان الثورين ومضت تقود الحيوانين المتعبين حدر التل . وعند منعطف الدرب المؤدي الى دارهم ، اقتربت من العربة وقالت :

ـ عزيزتي ناتاليا ، هناك شيء واحد أود أن أسألك إياه... هل تحبين زوجك كثيراً ؟

فأجابت ناتاليا بصوت غير واضح :

ـ كما أستطيع .

فتنهدت داريا :

ـ هكذا ، أما أنا فلم يصدف قط أن أحببت أي إنسان حباً جماً . كنت

أحب كما تحب الكلبة ، هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . ليتني أستطيع أن أحيا حياتي من جديد ، فقد أحياها على نحو مغاير .

ليل حالك السواد عقب الغسق الصيفي القصير . كدسوا التبن في الفناء وسط الظلام . عملت المرأتان دونما كلمة ، حتى أن داريا لم ترد على بانتلاي حينما صرخ فيها .

١٥

ظلت القطعات المتحدة لجيش الدون ومتمردي الدون الأعلى تزحف شمالاً ، مطاردة العدو مطاردة عنيفة فيما كان هؤلاء يتراجعون من أوست ـ مدفديتسكايا . وفي شاشكين حاولت الكتائب المضعضعة للجيش الأحمر التاسع أن توقف زحف القوزاق ، لكنهم اضطروا الى التخلي عن مواقعهم وتقهقروا ثانية الى مواقع قريبة من خط سكة حديد كريازي ـ تساريتسين ، دون أن يستطيعوا الصمود بشكل ثابت .

واشترك غريغوري وفرقته في المعركة وأدى مساعدة كبيرة للواء مشاة الجنرال سوتولوف الذي كان يصد هجوماً شنَّ على جناحه . وأسرت كتيبة يرماكوف الراكبة ، التي أمرها غريغوري بالدخول الى المعركة ، زهاء مائتين من رجال الجيش الأحمر ، واستولت على أربعة مدافع رشاشة وإحدى عشرة عربة عتاد .

وفي عصر ذلك اليوم دخل غريغوري تصحبه ثلة من قوزاق الكتيبة الأولى . وعلى مقربة من المنزل الذي احتلته هيئة أركان الفرقة كان يقف حشد حاشد من الأسرى ، يشعون بياضاً بقمصانهم وسراويلهم الداخلية ، ويقف في حراستهم نصف سرية من القوزاق . وكان أغلب الأسرى قد جردوا من جزمهم وملابسهم ، ما عدا الداخلية ، ولم تكن ثمة سوى قمصلة خاكية وسخة هنا وهناك ، كصبغة مخضوضرة وسط كتلة البياض الشامل .

فهتف بروخور زيكوف مشيراً الى الأسرى :

ـ عجباً ، لقد استحالوا بيضاً كالأوز!

فسحب غريغوري عنانه وأدار حصانه جانباً . وبحث عن يرماكوف بنظره وسط حشد القوزاق ، وناداه :

ـ اقترب . لماذا تختبئ خلف ظهور الآخرين ؟

اقترب يرماكوف ، وهو يسعل في راحة يده ، وقد تخثر الدم تحت شاربه الخفيف الأسود وعلى شفتيه المشقوقتين ، وتورمت وجنته اليمنى وازرقت من أثر كدمات حديثة . إذ كان حصانه قد تعثر خلال الهجوم وانكفأ على الأرض من تحته وهو منطلق في هذب سريع ، فانطرح عنه مسافة خمس خطوات في الهواء ثم سقط متزحلقاً على بطنه فوق الأرض الخصبة لحقل قمح كان قد ترك ذلك الموسم من غير زرع . ثم وثب هو وحصانه في آن واحد ، واقفين على أقدامهما . وما هي إلا لحظة حتى كان يرماكوف على سرجه ثانية . فانطلق بلا قبعته ، والدم ينهمر مدراراً من وجهه ، لكنه امتشق سيفه ومضى كالبرق ليلحق بسيل خيالة القوزاق وهم يتدفقون حدر المنحدر .

سأل يرماكوف غريغوري في دهشة ظاهرة حينما حاذاه :

ـ ولماذا أختبئ ؟

وكانت عيناه لا تزالان ملتهبتين بوميض المعركة ومشربتين بالدم . لكنه أشاح بنظره عن غريغوري محرجاً .

فقال غريغوري مغمضاً :

ـ القطة تعرف لحم مَنْ أكلت! لماذا كنت تسير ورائي ؟

انتزع يرماكوف ابتسامة من شفتيه المتورمتين وألقى نظرة على الأسرى .

ـ أي لحم تتحدث عنه ؟ لا تلق بأحجياتك الآن ، فلن أستطيع حلها بأية حال . لقد سقطت من حصاني على رأسي اليوم...

فأشار غريغوري الى الأسرى بسوطه :

ـ هل هذا من عمل يدك ؟

تظاهر يرماكوف بأنه لم يسبق له أن رآهم ، وألبس وجهه استغراباً لا حد له :

ـ يا لأبناء العواهر : يا للأوباش الملاعين! لقد جردوهم تماماً! ولكن متى تسنى لهم ذلك ؟ إنك لن تصدق! أنا لم أتركهم سوى لحظة ، بعد أن أصدرت إليهم أوامر مشددة بألا يمسوهم . والآن انظر ما فعلوا بهم! لقد جردوا الشياطين المساكين من كل شيء!

ـ لا تحاول ذر الرماد في عيني . ما معنى تمثيلك هذا! هل أعطيتهم أمراً بتجريدهم من ملابسهم ؟

ـ معاذ الله! هل هذا كلام عاقل ، يا غريغوري بانتلايتش ؟

ـ هل تتذكر أمري ؟

ـ تقصد الأمر المتعلق بـ....

ـ نعم ، الأمر المتعلق بذلك!

ـ نعم ، لا شك أنني أتذكره . حفظته غيباً . مثل الشعر الذي كنا نحفظه في المدرسة .

فابتسم غريغوري طواعية . ثم مال عبر سرجه وأمسك بيرماكوف من سير نطاق سيفه :

ـ خارلامبي ، بلا لف ودوران! لماذا سمحت بهذا العمل ؟ سيقوم العقيد الجديد الذي عينوه في الأركان بدلاً من كوبيلوف برفع تقرير عن ذلك وسوف يستجوبونك . ولن يسرك سماع موسيقاهم ، وما هي سوى سؤال وتحقيق تلو تحقيق .

فأجاب يرماكوف جاداً وفي بساطة :

ـ لم أستطع أن أحتمل الأمر ، يا بانتلايتش! كانوا ، كلهم ، في ملابس جديدة وكاملة ، إذ كانوا قد زوّدوا بملابس جديدة في أوست ـ مدفديتسكايا ، بينما جماعتي تنقصهم الملابس . ولم يكن لديهم الكثير منها حتى في بيوتهم . أما هؤلاء فكان مصيرهم حتماً إلى تجريد ملابسهم لو بلغوا المؤخرة . هل نقوم بأسرهم لكي تستولي فئران المؤخرة على

ملابسهم ؟ كلا ، فالأفضل أن يستفيد رجالنا من اللباس . فليستجوبوني ، لكنهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا الكثير مني! ولا تشدد عليّ الخناق! فأنا لا أعرف شيئاً عن الموضوع ولم أكن مسؤولاً عنه حتى في نومي!

وحاذيا حشد الأسرى ، وسرعان ما تلاشت همهمة الحديث الخفيضة . وأفسح من كان في الجانب المجال للخيالة ، وهم يحدقون فيهم في خوف عبوس وترقب قلق . وشخص أحد رجال الجيش الأحمر في غريغوري آمراً ، فاقترب منه وقال ماساً ركابه بيده :

ـ أيها الرفيق الآمر! قل للقوزاق أن يعيدوا لنا معاطفنا على الأقل . اعطفوا علينا بهذا القدر فحسب! الدنيا باردة في الليل ، ونحن عراة تماماً ، كما ترى بنفسك .

فردّ عليه يرماكوف في لهجة خشنة :

ـ لا أظن أنك ستصاب بلسعة الجليد في منتصف الصيف ، أيها السولق!

ثم نحى الرجل جانباً بحصانه ، والتفت ناحية غريغوري :

ـ لا تخش شيئاً . سوف أصدر أوامري بإرجاع بعض ملابسهم القديمة لهم . والآن ، ابتعدوا ، ابتعدوا ، أيها المحاربون! كان عليكم أن تقصعوا القمل الموجود في سراويلكم بدلاً من محاربة القوزاق!

في غرفة هيئة الأركان ، كان آمر السرية الأسيرة يجري استجوابه .

كان رئيس هيئة الأركان الجديد ، العقيد اندريانوف ، جالساً وراء منضدة غطيت بغطاء مشمع عتيق . كان اندريانوف متقدماً في العمر ، افطس الأنف ، أشيب الشعر عند الصدغين ، وله اذنان كبيرتان كآذان الأطفال . وكان الآمر الأحمر يقف أمام المنضدة على مبعدة خطوتين . وكانت إفادة الأسير يدونها أحد الضباط الأركان ، وهو النقيب سولين الذي كان قد نسب للعمل في الفرقة مع اندريانوف .

كان الآمر الأحمر طويل القامة ، ذا شارب أحمر قصير الشعر الى درجة بدا أشبه بالشوك ، وكان في وقفته تلك يتنقل من قدم عارية الى أخرى مثلها

فوق الأرضية المصبوغة بلون طين المغرة ، ويلقي ، من حين لآخر ، نظرة خاطفة على العقيد . وكان القوزاق قد أبقوا له قميصه الداخلي المصنوع من قماش قطني أصفر غير مقصور ، وهو من النوع الذي يستعمله الجنود ، وقد أعطوه في مقابل بنطلونه بنطالاً قوزاقياً فضفاضاً ذا أقلام كالحة . وبينما كان غريغوري يسير نحو المنضدة شاهد الأسير يقوم بمحاولة سريعة مضطربة لستر جسمه العاري ، ململماً بنطاله الممزق في موضع مقعده .

سأله العقيد ، وهو يحدجه بنظرة سريعة من فوق نظارته :

ـ تقول : قوميسارية أوريل العسكرية الاقليمية ؟

خفض عينيه ثانية ، واستدار ليفحص وثيقة في يديه وعيناه نصف مغمضتين .

ـ نعم .

ـ في خريف العام الماضي ؟

ـ في نهاية الخريف .

ـ أنت تكذب!

ـ بل أقول الحقيقة .

ـ أكرر بأنك تكذب!

فهز الرجل كتفيه ولم يقل شيئاً . ونظر العقيد الى غريغوري وقال وهو يشير بازدراء ناحية الأسير :

ـ تفضل وانظر! ضابط سابق في الجيش الامبراطوري ، إلا أنه الآن ، وكما ترى ، بلشفي . ألقي القبض عليه ، والآن يود أن يقول لنا بأنه كان مع الحمر عن طريق الصدفة ، بأنه جند مع الآخرين . إنه يكذب بسذاجة وسخافة فتاة مراهقة ويظن أننا سنصدقه . غير أنه لا يمتلك الشجاعة الكافية للاعتراف بأنه قد خان أرض الآباء... إنه خائف ، هذا السافل!

فقال الرجل وهو يخرج الكلام بصعوبة :

ـ أنا أفهم ، أيها العقيد ، بأنك تمتلك الشجاعة الكافية لإهانة أسير .

ـ أنا لا أكلم سفلة!
ـ لكنني يجب أن أتكلم!
ـ حذار! لا تجبرني على إهانتك بشكل أشد!
ـ ما أيسر ذلك بالنسبة لك وأنت في مركزك ، والأهم من كل ذلك ، أنك لا تخشى شيئاً وأنت تفعل هذا!

لم يكن غريغوري قد نطق بشيء ، وجلس الى المنضدة وهو ينظر الى الأسير في ابتسامة عطوف . كان وجه الرجل قد استحال أبيض من شدة حنقه ، فراح يرد بلا وجل . فحدث غريغوري نفسه وشعور بالرضا يخامره :
ـ لقد خضّ أعصاب العقيد!

وأحس باستمتاع خبيث وهو ينظر الى خدي اندريانوف وقد ازرق لونهما وجعلا يختلجان في حركات عصبية .

كان غريغوري ، منذ لحظة لقائه الأول مع رئيس هيئة الأركان الجديد ، قد أحس بكراهية تجاهه . كان اندريانوف من طبقة الضباط الذين لم يشهدوا الجبهة مطلقاً خلال الحرب العالمية ، بل أبقى نفسه في المؤخرة بأسلوب ينم عن فطنة ، متحايلاً بالاستناد الى ارتباطات عائلية وعلاقات مع موظفين متنفذين ، فلبث متشبثاً ، بكل قواه ، بمنصب آمن . وحتى خلال الحرب الأهلية ، كان على درجة من الذكاء بحيث استطاع أن يحصل على وظيفة في المؤخرة ، في نوفوتشيركاسك ، ولم يجبر على الذهاب الى الجبهة إلا بعد أن أقصى الأتمان كراسنوف من منصبه .

ولقد علم غريغوري من فم اندريانوف نفسه ، خلال الليلتين اللتين قضياهما معاً في مقر واحد ، بأنه كان متديناً شديد التدين ، وبأنه لم يكن بمقدوره أن يتحدث عن العبادة الإلهية دون أن تترقرق الدموع في عينيه ، وبأن زوجته كانت أمثل نموذج للزوجة يمكن تصوره وأن اسمها كان صوفيا الكساندروفنا ، وان نائب الأتمان ، فون غرابه ، نفسه ، قد حاول مرة ، دون جدوى ، أن يستميلها اليه . كما أضاف العقيد الى ذلك الكثير من

التفاصيل التافهة عن الضيعة التي كان يمتلكها أبوه ، وعن كفاحه هو للوصول الى رتبة عقيد ، وعن الشخصيات البارزة جداً التي كان قد خرج معها للصيد في عام ١٩١٦ . وأحاط غريغوري علماً كذلك بأنه كان يعتبر لعبة الوست* أفضل اللعب ، والكونياك المطيب بأوراق الليمون أكثر المشروبات فائدة ، والخدمة في القوميسارية العسكرية أكثر المناصب ربحاً .

وكان العقيد اندريانوف يجفل مع كل رمية مدفع قريبة ، ولا يمضي على حصانه الى أبعد مما يحتمل ، متعللاً بحجة ألم في كبده . وكان دائم الحرص على زيادة عدد الحرس الخاص بمقر الأركان ، ولا يكاد يستطيع أن يخفي بغضه للقوزاق الذين كانوا ، على حد قوله ، خونة جميعاً في عام ١٩١٧ . ومنذ ذلك الحين ظل يكره جميع «المراتب السفلى» دونما تمييز . قال مرة :

ـ ليس بمستطاع أحد أن ينقذ روسيا سوى النبلاء ، ـ موحياً ، عرضاً ، بأنه هو أيضاً كان من سلالة نبيلة ، وبأن سلالة اندريانوف كانت من أعرق وأنبل السلالات في كل إقليم الدون .

ولا شك أن نقطة ضعفه الرئيسية كانت ثرثرته... ثرثرة الكهول الفظيعة الجامحة التي تتسم بها سنوات الانحطاط لطبقة معينة من الناس عرفوا بالهذر والغباء وكانوا ، طوال حياتهم ، معتادين على إصدار أحكام سطحية مهزوزة على كل شيء وأي شيء .

كان غريغوري قد التقى بعدد كبير ممن كانوا على هذه الشاكلة ، وكان دائماً يبغضهم بغضاً شديداً . فحاول أن يتجنب اندريانوف قدر المستطاع . وأفلح في ذلك الى حد كبير خلال النهار . ولكن ، ما ان كانوا يتوقفون لقضاء الليلة حتى يمضي اندريانوف باحثاً عن غريغوري ليستعجله السؤال :

ـ هل تود أن نقضي الليلة في مقر واحد ؟

---

* الوست : لعبة ورق . المترجمون

ثم يقول دون أن ينتظر الردّ :

ـ تقول : يا صديقي ، إنه لا يمكن الاعتماد على القوزاق في شن هجوم للمشاة ، ولكن ، حينما كنت ضابطاً ملحقاً بصاحب السعادة... هي ، يا من هناك ، ليجلب أحدكم حقيبتي وفراشي!

وكان غريغوري يستلقي ، ويغمض عينيه ، ويتسمع إليه وأسنانه تصر ضيقاً . ثم يدير ظهره ، من غير ما احترام ، الى الثرثار الذي لا يكل ، ويغطي رأسه بمعطفه الثقيل ، ويحدث نفسه في غيظ مكتوم :

ـ حالما أستلم الأمر بنقلي ، سأضرب رأسه بشيء ثقيل! فقد يسلبه ذلك قدرته على الكلام لمدة أسبوع على الأقل!

ويأتيه صوت اندريانوف متسائلاً :

ـ هل غفوت ، أيها النقيب ؟

فيرد غريغوري بصوت مكتوم :

ـ نعم .

ـ عفواً ، لكنني لم أتمم حديثي بعد .

ويستأنف الحكاية . وبينما كان الكرى يزحف على عيني غريغوري كان يفكر :

ـ لقد أرسلوا إليّ بهذا الببغاء عن عمد . لابد أن فشتالوروف اتخذ اجراء ما . حسن ، كيف يستطيع أي امرئ أن يعمل مع تفاهة عفنة كهذا ؟

وكان يغفو وصوت العقيد النفاذ الجهير لايزال ينقر كما ينقر مطر خفيف على سطح من حديد .

ولهذا لم يكن مستغرباً أن يستشعر غريغوري سروراً خبيثاً حينما كان الآمر الأحمر الأسير يضرم النار في أعصاب رئيس هيئة الأركان المهذار ، على نحو بديع .

لبث اندريانوف صامتاً بعض الوقت ، وعيناه نصف مغمضتين . واستحال

لون شحمتي اذنيه البارزتين قرمزياً لامعاً . وكانت يده اللحيمة البيضاء ، وخاتم ذهبي كبير في سبابته ترتعش وهي حاطة على المنضدة .

ثم قال في صوت مبحوح من أثر الانفعال :

ـ اسمع ، أيها الهجين! أنا لم آمر باستقدامك أمامي لتنهمك في الأخذ والردّ . فلا تنس ذلك! هل تدرك أنك لن تستطيع الإفلات ؟

ـ أدرك ذلك تماماً .

ـ هذا أفضل لك . ومن حيث النتيجة لا يهمني قط أن تكون قد انضممت الى صفوف الحمر طوعاً أو انك جندت تجنيداً . هذا لا يهم . المهم أنك ترفض الكلام نتيجة لمفهوم خاطئ لمعنى الشرف .

ـ واضح أن لدينا ، أنا وأنت ، مفهوماً مختلفاً لقضايا الشرف...

ـ وذلك لأنه لم يبق لديك شرف قط ، وهذا هو كل ما في الأمر!

ـ أما أنت ومن الطريقة التي تعاملني بها ، فمن المشكوك أن تكون قد امتلكت شرفاً في أحد من الأيام!

ـ افهم أنك تسعى الى نهايتك بسرعة!

ـ ولماذا يجب عليّ أن استخلصها استخلاصاً ؟ لا تحاول إخافتي . لن تفلح في ذلك!

ففتح اندريانوف ، بيدين راعشتين ، علبة سكائره ، وأشعل سيكارة ، وجر نفسين ، ثم التفت ثانية نحو الأسير :

ـ إذن فأنت ترفض الاجابة عن الأسئلة ؟

ـ لقد حدثتك بكل شيء عن شخصي .

ـ الى الشيطان! أنا لا أهتم بشخصك القذر . أرجو الجواب على السؤال التالي : أية تعزيزات استلمتم من محطة سيبرياكوفو ؟

ـ قلت لك لا أدري .

ـ لا ، بل أنت تدري!

ـ حسن جداً! مادام ذلك يسرك ، اذن فأنا أدري ، لكنني لن أخبرك!

ـ سوف آمر بضربك بالسفود ، وآنذاك ستخبرني!

ـ أشك في ذلك!

ومس الأسير شاربه بيده اليسرى مبتسماً في ثقة .

ـ هل شاركت كتيبة كاميشنسكي في هذه المعركة ؟

ـ كلا .

ـ لكن جناحكم الأيسر تحميه خيالة ، فأية كتيبة كانت ؟

ـ ارح نفسك! وأقول لك مرة أخرى انني لن أجيب على مثل هذه الأسئلة .

ـ اختر أحد أمرين : إما أن تحل عقدة لسانك ، أيها الكلب الهجين ، وإلا ففي خلال عشر دقائق ستقف أمام حائط! ها ؟

فردّ الأسير في صوت رنان فتيّ ، عالي النبرة بشيء غير متوقع :

ـ لقد احتملت الكفاية منك ، أيها الأحمق العجوز! أيها الرذل! لو كنت قد وقعت في يدي لما كنت أستجوبك على هذه الصورة...

شحب وجه اندريانوف وامتدت يده بسرعة الى جراب مسدسه . بيد ان غريغوري قام على مهل ، ورفع يده محذراً :

ـ كفى ، كفى! لقد انهيتما حديثكما ، ويكفي ذلك . أنتما ، كلاكما ، سريعا الغضب ، كما أرى . لم تستطيعا أن تصلا الى اتفاق ، غير أن هذا لا يهم ، ولم يعد هناك ما يقال أكثر من ذلك . إنه على حق تماماً في رفضه خيانة جماعته . والله ، إنه لعلى خلق كريم! ما كنت أتوقع أنا أيضاً .

نهض اندريانوف محنقاً ، وهو يحاول عبثاً فك زر الجراب :

ـ أرجوك ، دعني!

فقال غريغوري جذلاً وهو يمضي الى المائدة ، ويغطي الأسير بجسمه :

ـ لا ، لن أدعك! لا معنى في قتل أسير . ألا تخجل من تصفية رجل في مثل وضعيته ؟ أعزل ، أسير ، مسلوب الملابس ، وأنت ترفع يدك...

ـ تنحَ جانباً! لقد أهانني النذل!

ودفع أندريانوف غريغوري بشدة وسحب مسدسه .

فاستدار الأسير ليواجه النافذة وهو يهز كتفيه كمن يشعر بالبرد . وجعل غريغوري يراقب العقيد مبتسماً فيما أمسك هذا بعقب المسدس الكبير في راحته وأعده للإطلاق في حركة غير متسقة ، ثم ما لبث أن خفض الماسورة واستدار قائلاً بصوت أجش وهو يجرّ أنفاسه جراً ويلعق شفتيه بلسانه :

ـ لا أريد أن ألطخ يدي...

فقال غريغوري دون أن يحاول إخفاء الضحكة التي شعت بها أسنانه البيض من تحت شاربه :

ـ ولا كنت تستطيع ذلك! اذا أمعنت النظر ستجد أن مسدسك فارغ . حينما أفقت هذا الصباح التقطته من المنضدة وألقيت عليه نظرة . لم يكن يحتوي على رصاصة ولم يكن قد نظف منذ أكثر من شهرين . أنت لا تعتني عناية حسنة بعدتك الخاصة .

فأخفض أندريانوف عينيه وأدار بكرة المسدس بأصابعه ، وابتسم قائلاً :

ـ اللعنة! لكنك مصيب...

أما النقيب سولين ، الذي كان يراقب الوقائع في صمت وعلى شفتيه ابتسامة مبهمة ، فقد لف ورقة الإفادة التي كان يدونها ، وقال في دندنة مبهمة :

ـ أخبرتك أكثر من مرة ، يا سيمون بوليكاربتش ، إنك تعامل أسلحتك بطريقة منفرة . ومثال هذا اليوم برهان جديد آخر على أنني محق .

ـ هي ، يا أنتم ، هل هناك أحد من المراتب السفلى ؟ تعال هنا!

فدخل مراسلان وآمر الحرس قادمين من الغرفة الأمامية ، فأشار أندريانوف الى الأسير : « خذوه! » .

فاستدار الرجل وواجه غريغوري ، وفي صمت انحنى له ومضى صوب

الباب . وخيل لغريغوري أن شفتيه انفرجتا من تحت عذاريه الأحمرين عن ابتسامة امتنان لا تكاد تُلحظ .

وحينما تلاشت خطى الرجال ، رفع أندريانوف نظارته بحركة كليلة ، ومسح عدستيها في اعتناء بقطعة من جلد الشاموا ، وقال في لهجة متألمة :

ـ لقد دافعت عن هذا القذر دفاعاً ممتازاً ، ولو أن هذا الأمر يخص ضميرك . ولكن ما الذي قصدته من ذكر موضوع مسدسي أمامه ، فوضعتني في موقف حرج ؟

فأجاب غريغوري مسترضياً :

ـ ليست هذه مصيبة .

ـ ربما ، ومع ذلك فما كان عليك أن تفعله . بالرغم من أنه كان من المحتمل أن أقتله فعلاً . إنه من الصنف الكريه! كان قد مضى عليّ نصف ساعة وأنا أجاهد معه قبل أن تصل أنت . وكان أسلوبه في الكذب واللف والدوران فظيعاً ، وهو يعطيني ، بشكل واضح ، معلومات كاذبة . وحينما اصطدته في ذلك ، رفض أن ينطق بشيء . قال إن شرفه العسكري يأبى عليه أن يكشف للعدو عن أسرار عسكرية . ولم يفكر ابن العاهرة بشرفه العسكري حينما أجر نفسه للبلاشفة... أنا أقترح أن يقتل بالرصاص في هدوء ، هو وآخران من القيادة . فبقدر ما يتعلق الأمر بالحصول على المعلومات التي نريدها ، يبدو أن أمرهم مينوس منه تماماً . إنهم أنذال ثابتو العقيدة لا صلاح لهم ، وعليه فلا معنى في الابقاء عليهم . ما رأيك ؟

فسأله غريغوري دون أن يجيب على سؤاله :

ـ كيف اكتشفت بأنه كان آمر السرية ؟

ـ أحد جنوده كشف عن ذلك .

ـ أنا أقترح أن يرمى هذا الجندي بالرصاص ويترك الآمرون .

وألقى غريغوري نظرة متحدية نحو اندريانوف . فهز العقيد كتفيه وابتسم كما يبتسم المرء لدى سماعه فكاهة سخيفة :

ـ كلا ، إنني أسأل جاداً ، ما رأيك ؟

ـ كما قلت بالضبط .

ـ أستميحك المعذرة ، ولكن على أي أساس ؟

ـ على أي أساس ؟ على أساس الحفاظ على الضبط والنظام في الجيش الروسي . حينما آوينا الى الفراش ليلة البارحة ، تحدثت أنت ، أيها العقيد ، حديثاً معقولاً جداً عن النظام الذي يجب إدخاله الى الجيش بعد أن نكون قد قهرنا البلاشفة ، وذلك لكي نستطيع تطهير الشباب من العدوى الحمراء . وقد اتفقت معك تماماً ، أتذكر ؟

ومسد غريغوري شاربه مراقباً تغيّر التعابير على وجه العقيد ، ثم استأنف كلامه متروياً :

ـ أما الآن ، فانظر الى ما تقترحه! بهذه الطريقة ستشيع الانحلال فيما بين رجال الجيش . وسيعتقد الجنود أن بإمكانهم أن يخونوا ضباطهم! وهذا لعمري درس لطيف! ولكن افرض أننا وجدنا أنفسنا ، يوماً ما ، في حالة مماثلة ، فما العمل آنئذ ؟ أستميحك المعذرة ، لكنني لا أوافق على الفكرة .

فقال اندريانوف في لهجة باردة وهو يحدق في غريغوري بنظرة فاحصة :

ـ كما تشاء!

وكان اندريانوف قد سمع بأن قائد فرقة المتمردين كان يؤمن بنمط خاص من المعايير الخلقية وأنه كان ذا أطوار غريبة . ولكنه لم يكن يتوقع شيئاً كهذا يصدر عنه . ولم يزد على قوله :

ـ كنا في العادة نتصرف بهذا الشكل مع أمراء الوحدات الحمر الواقعين في الأسر . إن فكرتك جديدة عليّ... وأنا لا أفهم بالضبط موقفك في موضوع بادي الوضوح كهذا .

فرد غريغوري ، وقد استحال وجهه أزرق :

ـ كنا نقتلهم أثناء القتال إن تسنى لنا ذلك ، لكننا لم نقتل الأسرى من غير سبب معقول .

فوافقه اندريانوف قائلاً :

ـ عال ، لنرسلهم الى المؤخرة! والآن أمامنا مشكلة أخرى : لقد عبّر بعض الأسرى ، وهم فلاحون مجندون من إقليم ساراتوف ، عن رغبتهم في الانخراط في صفوفنا والقتال الى جانبنا . ان تعداد كتيبة المشاة الثالثة يقل عن ثلاثمائة رجل من حملة الحراب . أتظن أن من الممكن تنسيب بعض الأسرى المتطوعين لها ، بعد إجراء عملية انتقاء دقيق لهم . لدينا تعليمات دقيقة في هذا الموضوع من هيئة اركان الجيش .

فأعلن غريغوري عن رأيه بلا تحفظ :

ـ لن آخذ في أمرتي فلاحاً واحداً . ليسد النقص بقوزاق .

فجاهد أندريانوف ليناقشه الأمر :

ـ اسمع ، لن نتخاصم . أنا أفهم رغبتك في ألا تضم الفرقة غير القوزاق ، ولكن الضرورة تلزمنا بألا نشمخ بأنوفنا حتى بالنسبة للأسرى . حتى في «جيش المتطوعين» ، هناك بعض الكتائب التي عززت قوتها بالأسرى .

فقاطعه غريغوري محتداً :

ـ لهم أن يفعلوا ما يشاؤون ، أما أنا فأرفض قبول الفلاحين . انتهى!

وبعد ذلك بقليل خرج ليصدر تعليماته الخاصة بإرسال الأسرى الى المؤخرة . وأثناء العشاء قال اندريانوف بلهجة مشوبة بشيء من الانفعال :

ـ واضح أننا لن نستطيع العمل سوية...

فأجاب غريغوري بلامبالاة :

ـ هذا ما كنت أفكر به .

وبدون أن يعير ابتسامة سولين اهتماماً ما ، خوّض بأصابعه في صحنه حتى عثر على قطعة من لحم الضأن المسلوق ، فشرع يعالج غضروفها الصلب

قضماً ومضغاً في شهية تنم عن جوع شديد ، حتى أن سولين قطب حاجبيه لذلك ، وكأن به ألما ، وأغمض عينيه لحظة .

* * *

غب يومين ، أنيطت مهمة ملاحقة القوات الحمر المتقهقرة بمجموعة الجنرال سالنيكوف . واستدعى غريغوري على عجل الى مقر هيئة الأركان . فأطلعه رئيس هيئة الأركان ، وكان جنرالاً كهلاً لطيف المظهر ، على الأمر الصادر من قائد «جيش الدون» والقاضي بحل تنظيمات قوات المتمردين وإعادة توزيعها ، ثم قال من غير مقدمات أخرى :

ـ خلال حرب الأنصار ضد الحمر ، قدت فرقتك بشكل ناجح . أما الآن ، فليس باستطاعتنا أن نعهد اليك بقيادة كتيبة ، بله فرقة . إنك لم تحصل على تعليم عسكري . وفي الظروف الراهنة ، ظروف جبهة متسعة ووسائل حديثة في فن الحرب ، فأنت غير كفء لقيادة وحدة عسكرية كبيرة . أتتفق معي ؟

فأجاب غريغوري :

ـ أجل ، أنا أردت أن أستقيل من قيادة الفرقة على أية حال .

ـ جميل جداً أنك لا تثمن قابلياتك أكثر مما تستحق . فهذه الصفة يندر وجودها في الضباط الشباب هذه الأيام . والآن ، بأمر قيادة الجبهة ، لقد عينت آمراً للسرية الرابعة التابعة للكتيبة التاسعة عشرة . الكتيبة الآن ماضية في سيرها على مسافة خمسة عشر فرستاً من هنا ، في مكان ما بالقرب من قرية فيازنيكوف . التحق بالكتيبة اليوم ، أو غداً على أبعد تقدير . أظن أن لديك ما تقوله ؟

ـ كنت أود أن أنسب للعمل في الوحدة الإدارية .

ـ هذا مستحيل . سيحتاجونك في الجبهة .

ـ لقد جرحت ، خلال حربين ، وأصبت بالقذائف أربع عشرة مرة .

ـ ليس لهذا أية أهمية مطلقاً . أنت شاب ، مظهرك لائق ، ولايزال في

استطاعتك أن تقاتل . أما فيما يتعلق بجروحك ، فكم عدد الضباط الذين لم يجرحوا ؟ تستطيع أن تذهب . حظاً سعيداً!

منعاً للتذمر الذي كان قيامه حتماً بين قوزاق الدون الأعلى حينما شتت جيش المتمردين على هذه الشاكلة ، جرت في أعقاب الاستيلاء على أوست ـ مدفديتسكايا مباشرة ترقية العديد من الجنود القوزاق الذين أظهروا جدارتهم خلال الانتفاضة الى مرتبة ضباط صف ، وجميع العرفاء تقريباً الى مرتبة حملة أعلام ، كما كوفئ الضباط الذين أسهموا في الانتفاضة ورقيت رتبهم . ولم يغفل غريغوري . إذ كوفئ برتبة نقيب ، وبأمر عسكري يذكر خدماته الجلى في النضال ضد الحمر ويعبر عن امتنان القيادة .

نُفذ قرار تفريق كتائب المتمردين تنفيذاً كاملاً خلال بضعة أيام . واستبدل قواد الفرق والكتائب الأميون بجنرالات وعقداء ، كما عين ضباط متمرسون آمري سرايا ، وغيرت قيادات البطاريات وهيئات الأركان كلياً ، بينما نسب الجنود القوزاق الى مختلف كتائب الدون التي كان تعدادها قد انخفض كثيراً عن قواها الكاملة خلال المعارك التي جرت على نهر الدونيتس .

جمع غريغوري قوزاق فرقته عصراً ، وأعلن عليهم قرار تفريق جيش المتمردين ، وقال مودعاً :

ـ لا تحملوا أية ضغينة ضدي ، أيها الأخوة القوزاق! لقد خدمنا معاً . أجبرتنا الضرورة على ذلك . ولكن ، من اليوم فصاعداً ، سيقوم كل منا بالاهتمام بأحزانه على انفراد . الشيء المهم هو أن تحافظوا على رؤوسكم ، وألا تدعوا الحمر يحفرون ثقوباً فيها . قد تكون رؤوسنا بليدة ، ولكن لا معنى في إنزال رصاصة فيها حيث لا تستدعي الضرورة . سنظل نحتاجها للتفكير ، للتفكير العميق فيما سنعمل في الخطوة التالية...

لبث القوزاق ينصتون إليه في صمت وخيبة . وحينما انتهى ، شرعوا جميعاً يتكلمون في الحال بأصوات قساها الانفعال :

ـ إذن ، فالأيام السابقة عائدة إلينا من جديد .

ـ أين سنذهب الآن ؟
ـ إنهم يطبقون أسلوبهم على الناس ، هؤلاء الخنازير!
ـ لا نريد أن نتفرق! ما معنى هذا النظام الجديد الذي بدأوه ؟
ـ آه ، يا أولاد ، اتحدوا للدوس على أعناقنا!
ـ أصحاب السعادة سيعتصروننا من جديد!
ـ كونوا على حذر الآن! لسوف يمطون لنا مفاصلنا بحالتها الراهنة...
انتظر غريغوري حتى سكتوا ، ثم قال :
ـ لا فائدة ترجى من صياحكم وبح أصواتكم . لقد انقضت الأوقات السعيدة حين كان باستطاعتنا مناقشة الأوامر ومعارضة القادة . انصرفوا الى مقراتكم ولا تدعوا ألسنتكم تهتز كثيراً وإلا فإنكم ستجدونها هذه الأيام تؤدي بكم الى محاكم الميدان العرفية والسرايا التأديبية!
وجعل القوزاق يتقدمون منه في نظام الرعائل ويصافحونه قائلين :
ـ إلى اللقاء ، يا بانتلاييفتش! لا تظن بنا سوءاً ، أنت الآخر .
ـ لن يكون يسيراً علينا أن نخدم تحت امرة غرباء .
ـ ما كان يجدر بك أن تتخلى عنا . ما كان يجدر بك ان تستقيل من قيادة الفرقة .
ـ سنفتقدك ، يا ميليخوف! قد يكون القادة الجدد مثقفين أكثر منك ، ولكن ذلك لن يخفف البلوى علينا . سيكون ذلك أصعب علينا وأشقى . وهذه هي المصيبة .
إلا أن قوزاقياً واحداً ، وهو ثرثار السرية ومهرجها ، علّق قائلاً :
ـ لا تصدقهم ، يا غريغوري بانتلاييفتش! سواء خدمت مع جماعتك أو تحت امرة غرباء ، فالأمر سيان مادام ضميرك غير راض .

* * *

في تلك الليلة ، جلس غريغوري يشرب فودكا منزلية مع يرماكوف

والقادة الآخرين . وفي الصباح التالي ، انطلق مع بروخور زيكوف للحاق بالكتيبة التاسعة عشرة .

وقبل أن يتسنى له تسلم امرة السرية والتعرف على رجاله استدعي لمقابلة آمر الكتيبة ، كان ذلك في بكرة الصباح . ولم يستطع الذهاب الى مقر الآمر إلا بعد نصف ساعة ، إذ أعاقته عن ذلك اجراءات فحص الحصان . فتوقع أن يعنفه آمر الكتيبة لذلك ، وكان صارماً مع ضباطه ، لكن الآمر استقبله استقبالاً ودياً ، وتساءل :

ـ حسن ، ما رأيك بسريتك ؟ جماعة طيبة ، ها ؟

ومن غير أن ينتظر رداً ، استأنف كلامه دون أن ينظر في عيني غريغوري : حسن ، يا صديقي ، علي أن أبلغك نبأ مؤلماً جداً... لقد حدثت مصيبة كبيرة في بيتكم . وصلت برقية ليلة أمس من فيشنسكايا . إنني أمنحك شهراً إجازة لتدبير أمور عائلتك . بمقدورك أن تذهب في الحال .

فتمتم غريغوري شاحب الوجه :

ـ أعطني البرقية .

وتناول الورقة المطوية ، وفتحها وقرأها ، ثم سحقها في يده التي تبللت فجأة بالعرق . وبشيء من الجهد استعاد رباطة جأشه ، وقال في تأتأة قليلة لا تكاد تلحظ :

ـ لم أتوقع هذا . من الأفضل أن أذهب الى اللقاء .

ـ لا تنس أن تأخذ إذن المرور .

ـ طبعا . شكراً . لن أنسى .

وخطا في السقيفة ، ماشياً في ثبات وثقة ، وهو ممسك بسيفه مستقيماً كعادته . ولكن ، ما ان شرع ينزل من العتبة حتى توقف فجأة عن ملاحظة صوت خطواته ، وأحس كأن ألماً حاداً قد ضربه ، كحربة نفذت الى قلبه .

وتعثر في الدرجة السفلى . فأمسك بالدرابزين المتداعي بيده اليسرى

فيما فك باليمنى زر ياقة قمصلته بسرعة . ولبث قليلاً من الوقت يجر أنفاساً عميقة متلاحقة ، ولكنه في تلك اللحظة شعر كأن ألمه قد أسكره ، وحينما انتزع يده من الدرابزين واتجه صوب البوابة الصغيرة حيث كان حصانه مربوطاً ، كانت مشيته ثقيلة مترنحة .

١٦

ظلت ناتاليا عدة أيام ، بعد حديثها مع داريا ، تعاني كمن يعاني في نومه حينما يخنق صدره حلم مزعج ولا يستطيع الاستيقاظ . فبحثت عن عذر مقبول لزيارة زوجة بروخور زيكوف وبالتالي للوقوف على نوعية الحياة التي كان غريغوري قد عاشها في فيشنسكايا خلال فترة التقهقر وما إذا كان قد رأى أكسينيا أم لا . كانت تريد أن تقتنع بذنوب زوجها ، إذ أنها صدقت ولم تصدق رواية داريا في آن واحد .

في ساعة متأخرة من المغرب يممت صوب فناء آل زيكوف ، ملوحة في غير ما مبالاة بعسلوج صغير في يدها . وكانت زوجة بروخور قد أنهت عمل يومها فجلست عند البوابة .

هتفت ناتاليا نحوها :

ـ كيف الحال ، يا زوجة الجندي! هل رأيت عجلنا ؟

ـ الحمد لله يا عزيزتي! كلا لم أره .

ـ يا له من شرير ، عليه اللعنة! لا يستقر في البيت أبداً! لا أدري أين عساني أبحث عنه .

ـ تعالي واستريحي . سوف يظهر . هل ترغبين في شيء من بذور عباد الشمس ؟ فمضت ناتاليا وجلست الى جانبها . وسرعان ما انخرطتا في حديث نسوي . ثم تساءلت ناتاليا :

ـ هل من أخبار من جنديك ؟

ـ ولا كلمة . يبدو أنه تبخر في الهواء ، عدو المسيح هذا! وهل بعث زوجك إليك بأية أخبار ؟

ـ كلا . وعدني غريشا بالكتابة ، بيد أنه لم يبعث برسالة للآن . يقال إن قطعاتنا قد تعدّت أوست ـ مدفديتسكايا ، ولكنني لم أسمع بشيء غير هذا .

ثم غيّرت ناتاليا مجرى المحادثة وجعلت تتحدث عن الانسحاب الأخير عبر الدون وشرعت تسأل ، في حذر ، عن كيفية الحياة التي عاشها الجند في فيشنسكايا وما إذا كان أي من أبناء القرية هناك . وسرعان ما حزرت زوجة بروخور الحاذقة السبب الذي قدمت ناتاليا من أجله ، فكانت أجوبتها متحفظة ومقتضبة .

كان زوجها قد باح لها بكل شيء عن غريغوري ، بيد أنها ، وان كان لسانها يحكها ويستحثها على الثرثرة ، كانت تخشى أن تقول شيئاً ، مستعيدة تحذير بروخور لها :

ـ انقشي هذا الكلام في رأسك : لو فهت بكلمة مما أخبرتك به فسأضع رأسك على خشبة التقطيع وأسحب ياردة من لسانك وأبترها! فإذا بلغت أية شائعة من هذا الحديث مسامع غريغوري فلسوف يقتلني دون أن يفكر في الأمر مرتين . قد أكون سئماً منك ، لكني غير سئم من حياتي بعد ، فاهمة ؟ إذن فاغلقي فمك .

سألت ناتاليا مباشرة وقد نفد صبرها :

ـ هل حدث أن رأى بروخور أكسينيا أستاخوفا في فيشنسكايا ؟

ـ كيف يمكن أن يراها ؟ وهل لديه متسع من الوقت هناك لمثل هذه الأمور ؟ يشهد الله أنني لا أعرف شيئاً ، يا ميرونوفنا ، ما كان عليك أن تسأليني عن ذلك ، حتى مجرد سؤال . لن تستطيعي أن تفهمي شيئاً من شيطاني ذي الرأس الأبيض . كل ما يستطيع قوله هو : افعلي هذا ، افعلي ذاك .

وحينما تركتها ناتاليا أحست بغيظ وانفعال أكثر . لكنها لم تقدر أن تظل جاهلة أطول مما مضى ، فوجدت نفسها مدفوعة للذهاب الى أكسينيا نفسها .

كانتا خلال السنوات المنصرمة تلتقيان مراراً بحكم جيرتهما . وفي تلك المرات ، كانتا تتبادلان الانحناء الصامت أو ، أحياناً ، بضع كلمات . انقضت الأيام التي كانتا خلالها ترفضان تبادل التحية بل تتراشقان نظرات مشحونة كراهية . لقد فقد عداؤهما المتبادل فظاظته الأصلية ، وحينما مضت ناتاليا لرؤية أكسينيا أملت ألا تطردها وأن تكون راغبة في التحدث عن غريغوري . ولم تكن مخطئة في توقعها .

دعت أكسينيا ناتاليا للدخول الى غرفة الضيوف دون أن تحاول اخفاء دهشتها ، ثم سحبت الستار وأضاءت الفانوس ، وسألت :

ـ أية أنباء طيبة جاءت بك هنا ؟

ـ ليس عندي سبب يدعوني الى المجيء بأنباء طيبة لك...

ـ أخبريني بالأنباء السيئة إذن . هل حدث شيء لغريغوري بانتلاييفتش ؟

كان ثمة قلق عميق واضح في سؤال أكسينيا جعل ناتاليا تدرك كل شيء . لقد كشفت أكسينيا ، بجملة واحدة ، عن نفسها بأكملها ، وعن كل ما كانت تعيش من أجله وعن كل مخاوفها . وبعد ذلك ، لم تكن هناك حاجة ، في الواقع ، للسؤال عن علاقتها بغريغوري . ومع ذلك ، لم تنصرف ناتاليا ، بل قالت بعد تردد طارئ :

ـ كلا ، إن زوجي حي يرزق ، فلا تفزعي!

ـ لست فزعة ، ولماذا تظنين ذلك ؟ لك أنت أن تقلقي على صحته ، فلدي أنا مصائبي الكافية .

كانت أكسينيا تتحدث بيسر ، إلا أنها أحست بالدم يتدفق الى وجهها فانسلّت على عجل نحو المائدة . ولبثت وقتاً طويلاً تضبط فتيل الفانوس ،

وظهرها الى زائرتها ، على الرغم من أنه كان يضيء على نحو حسن .

ـ هل من أخبار عن ستيبانك ؟

ـ بعث الي بتحياته مؤخراً .

ـ هل هو بخير ؟

ـ يبدو كذلك .

وهزت أكسينيا كتفيها . ولم تستطع ، هذه المرة أيضاً ، أن تخادع نفسها أو تخفي مشاعرها . كان عدم اهتمامها بمصير زوجها جلياً بحيث لم تستطع ناتاليا إلا أن تبتسم :

ـ بوسعي أن أرى بأنك لست كثيرة القلق عليه... ولكن هذا من شؤونك الخاصة . وهذا ما جئت إليك من أجله . ثمة كلام يدور في القرية مفاده أن غريغوري استأنف علاقته بك ثانية ، وبأنك تلتقين به حينما يأتي لزيارتنا . هل هذا صحيح ؟

فقالت أكسينيا في لهجة هازئة :

ـ وجدت مَنْ تسأله! دعيني أنا أسألك ما إذا كان ذلك صحيحاً ؟

ـ أتخافين من إخباري بالحقيقة ؟

ـ كلا ، لست خائفة من ذلك .

ـ إذن فاخبريني ، لكي أعرف ولا أمضي في إيلام نفسي . لماذا يتعين عليّ أن أضطرب على لاشيء ؟

فاختلج حاجبا أكسينيا الغامقان فيما ضيقت عينيها ، وقالت في لهجة حادة :

ـ وبأية حال لن تستدري الشفقة مني . الوضع بين وبينك كما يلي : حينما أكون تعيسة تكونين أنتِ سعيدة . وحينما تكونين تعيسة أكون أنا سعيدة . ذلك لأننا نقتسم الرجل نفسه . أليس كذلك ؟ حسن ، سأخبرك بالحقيقة ، لكي تعرفيها في الوقت المناسب . كل ذلك صحيح ، وليس ما يقولونه هراء . لقد ظفرت بغريغوري ثانية ، وفي هذه المرة سأبذل قصاراي

فلا أدعه ينسل من يدي . والآن ماذا أنت فاعلة ؟ هل ستحطمين نوافذ بيتي ، أم تطعنينني بسكين ؟

عقدت ناتاليا العسلوج المرن في يدها ، ثم ألقت به صوب الموقد ، وأجابت بثبات غير طبيعي :

ـ لن أسيء إليك الآن . سأنتظر حتى يعود غريغوري وأحادثه . وآنذاك سنرى ما سأفعله بكما . لديّ طفلان ، وسوف أعرف كيف أدافع عنهما وعن نفسي ، كذلك!

فابتسمت أكسينيا وأجابت :

ـ إذن ففي الوقت الحاضر أستطيع أن أعيش دونما خوف من شيء!

ومن غير أن تلمح ناتاليا الهزء في جواب أكسينيا ، تقدمت منها ومست كمها :

ـ أكسينيا ، لقد وقفت ، طيلة حياتي ، في طريقي ، أما الآن فلن أتوسل إليك كما فعلت ذات مرة ، أتذكرين ؟ يومذاك ، كنت أصغر سناً وأكثر غباء . فكرت في سريرتي : سأتوسل إليها فتحسّ بالشفقة عليّ ويلين قلبها فتتخلى عن غريغوري . ولكنني لن أفعل ذلك هذه المرة . إنني أعرف شيئاً واحداً . أنت لا تحبينه ، إنما تتعلقين به لأن ذلك غدا عادة لديك . هل أحببته ، يوماً ، مثلما أحبه أنا ؟ لا يبدو ذلك . تعابثت مع لستنتسكي ، وأي رجل بقي لم تتعابثي معه ، أيتها اللعوب ؟ حينما تحب امرأة رجلاً لا تفعل ذلك .

استحال وجه أكسينيا شاحباً ، فقامت من على الصندوق منحية ناتاليا عنها :

ـ هو نفسه لم يوبخني على ذلك ، بينما أنت تفعلين! وما شأنك أنت في هذا ؟ طيب! أنا سيئة وأنت طاهرة ، ثم ماذا ؟

ـ هذا كل شيء . لا تغضبي أنا ذاهبة الآن . شكراً لإخباري بالحقيقة .

ـ لا تكلفي نفسك عناء شكري . كنت ستكتشفين الأمر بدون

مساعدتي . مهلاً لحظة ، أنا خارجة معك لإغلاق الأباجورات .

وحين صارتا في السقيفة توقفت أكسينيا وقالت :

ـ إنني سعيدة لأننا نفترق في سلام ، دون عراك . لكنني أقول لك ، يا جارتي العزيزة : بقدر ما يتعلق الأمر بالمستقبل ، فإنه سيكون كالآتي : إذا كانت لديك القوة ، خذيه . أما إذا لم تكن لديك ، فلا تستائي . لن أتخلى عنه بمرضاتي كما أنك لن تتخلي عنه بمرضاتك . أنا لم أعد شابة كما كنت . وعلى الرغم من أنك دعيتني باللعوب ، فما أنا مثل داريا . في حياتي كلها لم أمارس هذه الألعاب . إن لديك طفليك ، لكنه بالنسبة لي ـ وارتعش صوت أكسينيا ، وأمسى أشد بحة وعمقاً ـ إنه كل ما يهمني في العالم كله . إنه أول دنياي وآخرها . ولكن ، لنقطع الكلام عنه . لو عاد من الحرب حياً... لو أن ملكة السماء أنقذته من الموت وعاد ، فإنه هو الذي سيختار بنفسه...

في تلك الليلة ، لم تستطع ناتاليا أن تنام . وفي الصباح التالي خرجت مع ايلينشنا لتنظيف حديقة البطيخ من العشب الضار . فوجدت همومها أيسر حملاً أثناء انهماكها في العمل . ولم يعد ذهنها أقل انشغالاً وهي تهوي بالفأس ، في حركات ثابتة ، على كتل الطين الرملي الهشة المجففة بالشمس . ومن حين لآخر كانت تقوّم ظهرها التماساً للراحة ، وتمسح العرق من وجهها وترتشف شيئاً من الماء .

كانت ثمة غمائم بيض ، مزقتها الريح وأطارتها شعاعاً ، تمضي طافية ذائبة عبر السماء الزرقاء . وأشعة الشمس تصفع سطح الأرض المحرقة ، والمطر قادم من ناحية الشرق . ومن غير أن ترفع ناتاليا رأسها كانت تستطيع أن تستشعر متى كانت غمامة طافية تحجب الشمس ، فكانت تحس ببرودة خفيفة طارئة على ظهرها ، وظل رمادي اللون يسرع فوق الأرض السمراء الساخنة ، فوق شبكة سيقان البطيخ الملتفة على بعضها ، والبطيخ المنتشر على المنحدر ، والأعشاب الرخوة المنبسطة من أثر الحرارة ، وفوق أجمات الزعرور البري والتوت الشوكي بأوراقها ذات المنظر

الكثيب وقد رشت بزرق الطيور . وتعالى هتاف طيور السمان المتشوق . وتناهى الى الأذن غناء القبرات اللطيف أكثر وضوحاً مما مضى . حتى الريح ، وهي تحرك الأعشاب الدافئة ، بدت أقل حرارة . ثم سرعان ما كانت الشمس تخترق طرف الغمامة الأبيض الباهر فيما تطوف غرباً ، وتحرر نفسها من شبكة الغمامة ، لتشرع من جديد تصب على الأرض سيولاً من الضوء ، ذهبية ، مشعة ، ماثلة . وفي مكان ما ، بعيد ، فوق النتوءات اللازوردية للتلال القائمة على جانب الدون ، كان الظل المبقع للغمامة المبتعدة لايزال يتلمس الأرض . أما في حديقة البطيخ ، فقد عاد طوفان الظهيرة الأصفر بلون العنبر يغمر الأرض من جديد ، فيما كان الغبش السائل يهتز ويتراقص على الأفق ، والأرض والأعشاب التي تطعمها تفوح بروائح حريفة أشد .

عند الظهر ، ذهبت ناتاليا الى نبع على جرف النهر وعادت بسطل من الماء المثلج . فشربت هي وايلينشنا حتى ارتويتا ، وغسلتا أيديهما . ثم جلستا في الشمس لتتناولا طعام غدائهما . فبسطت ايلينشنا عصابة رأس وقطعت الخبز عليها قطعاً منتظماً . وأخرجت ملعقتين وقدحاً من الحقيبة ، وكوزاً دقيق العنق مليئاً باللبن الحامض من تحت سترتها حيث كانت قد أخفته عن حرارة الشمس .

لم تتناول ناتاليا سوى القليل ، فتساءلت حماتها :

ـ لقد لاحظت منذ مدة من الزمن أنك قد تغيرت بشكل ما... هل حدث ما يسيء بينك وبين غريشا ؟

فارتعشت شفتا ناتاليا الملفوحتان بحرارة الشمس ، في حركة يائسة :

ـ عادت علاقته بأكسينيا من جديد ، يا أمي .

ـ ماذا... كيف علمت ؟

ـ ذهبت لرؤيتها أمس .

ـ وهل اعترفت السفيهة بذلك ؟

ـ نعم .

فخلدت ايلينشنا الى الصمت مفكرة ، وقد اتخذ وجهها المجعد تعبيراً صارماً ، وتهدل طرفا شفتيها تجهماً :

ـ لعلها تقول هذا ادعاء وتفاخراً لا غير ، لعنة الله عليها!

ـ كلا ، يا أمي ، بل الأمر صحيح . لماذا يتوجب عليها أن... ؟

فقالت العجوز غير واثقة من كلامها :

ـ أنت لم تراقبيه جيداً... لا يمكنك أن تصرفي بصرك عن مثل هذا الزوج .

ـ ولكن كيف تستطيع أية امرأة أن تراقبه ؟ لقد اعتمدت على ضميره... هل كان علي أن أربطه بأشرطة وزرتي ؟

وابتسمت ناتاليا ابتسامة مريرة ، وأضافت بصوت يكاد لا يسمع :

ـ إنه ليس ميشاتكا ، لكي أربيه على الطاعة والنظام . لقد شاب رأسه ، غير أنه لا ينسى الماضي...

غسلت ايلينشنا الملعقتين ومسحتهما وخضت القدح وجمعت الأوعية في الحقيبة ، وحينذاك سألت :

ـ هل هذه كل المشكلة ؟

ـ أنت عجيبة ، يا أمي! إن هذه المشكلة وحدها كفيلة بجعل العمر بائساً .

ـ وماذا تنوين فعله ؟

ـ ماذا أستطيع فعله ؟ سآخذ الطفلين وأذهب إلى أهلي . لن أعيش معه بعد اليوم . ليأخذها الى بيته ويعيش معها... لقد تعذبت حتى الآن بما فيه الكفاية .

فقالت ايلينشنا متنهدة :

ـ أنا ، أيضاً ، فكرت مثلك حينما كنت شابة . كان زوجي كلباً ، هو الآخر ، لا جدال في ذلك . لن أستطيع إخبارك بكل ما عانيت بسببه . سوى

أن الأمر ليس بهذه السهولة ، أن تتركي زوجك . ثم ، ما نفع ذلك ؟ فكري في الأمر أكثر بقليل وستتوصلين الى النتيجة ذاتها بنفسك . وكيف تستطيعين ابعاد الطفلين عن أبيهما ؟ كلا . إنك تنطقين هراء . لا يجدر بك حتى مجرد التفكير بالموضوع . لن أسمح به!

ـ حسن ، يا أماه ، أنا لن أعيش معه مطلقاً ، فلا تتعبي نفسك .

فاستاءت ايلينشنا من كلامها ، وقالت :

ـ ماذا تقصدين بـ«لا تتعبي نفسك» ؟ ألست كنتي إذن ؟ ألست أنا حزينة بسببكما ، أيها اللعينان ؟ وكيف يتسنى لك أن تقولي مثل هذا الكلام لي ، لمن تقوم مقام والدتك ، لامرأة عجوز ؟ قلت لك اقلعي الفكرة من رأسك ، وكفى! أف! تقول : «سأترك البيت» وأين ستذهبين ؟ من مِن أهلك يريدك ؟ لا أب لك ، بيتكم احترق ، أمك تشكر المسيح لأنها تعيش في بيت شخص آخر . ومع ذلك فأنت تريدين أن تذهبي وتجرين حفيدي معك ؟ كلا ، يا عزيزتي ، هذا لن يحصل! سنتدبر ما سنفعله تجاه غريشا حينما يعود . أما الآن ، فليس عليك أن تذكري الموضوع أمامي أبداً . لن أقبل به ، ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى حوله!

فانفجرت فجأة كل الآلام التي كانت تتجمع منذ أمد طويل في قلب ناتاليا ، في نوبة عصبية من النشيج . انبعث منها نواح أليم وانتزعت عصابتها من رأسها ، وانكفأت على وجهها فوق الأرض القاسية الجافة ، وراحت تنشج وتنشج بلا دموع وهي تضغط صدرها على الأرض .

لم تتحرك ايلينشنا من مجلسها ، وهي العجوز الحكيمة الشجاعة . وبعد قليل ، لفت بسترتها الكوز بما يحتويه من بقايا اللبن ووضعته جانباً في موضع بارد ، وصبت شيئاً من الماء في القدح وقعدت الى جانب ناتاليا . كانت تدرك أن الكلمات لن تجدي نفعاً مع مثل هذا الحزن ، وكانت تدرك أيضاً أن الدموع خير من العينين الناشفتين والشفتين المزمومتين . فتركت ناتاليا تبكي حتى لم يعد في طاقتها البكاء ، وآنذاك وضعت يدها

المخشوشنة جراء العمل على رأس كنتها . وقالت بلهجة صارمة ، وهي تمسد شعر ناتاليا الأسود اللماع :

ـ كفى ، كفى! لا تسكبي كل دموعك . ابقي على بعضها الى وقت آخر . هاك جرعة ماء!

هدأت سورة ناتاليا ، غير أن كتفيها ظلا يختلجان من حين لآخر . وتملكت جسدها رعشة خفيفة . وعلى حين غرّة ، قفزت قائمة على قدميها ونحّت ايلينشنا جانباً ، وأدارت وجهها ناحية الشرق مطبقة راحتيها المبللتين بالدموع للدعاء ، وصرخت في عجالة ونشيج :

ـ رباه! لقد عذب روحي حتى الموت! لا طاقة لي على الاستمرار في حياتي على هذا النحو . رباه ، عاقبه ، العنه! انزل عليه الموت! عساه ألا يعيش بعد اليوم ، ألا يعذبني بعد اليوم!

ومن الشرق زحفت سحابة متلولبة سوداء . وهدر الرعد هديراً أجوف . وتلوى في السماء ، ثم انحدر ، وميض برق باهر البياض ، نافذاً خلل كتل الغيوم الهوجاء . وأحنت الريح الحشيش المتمتم باتجاه الغرب ، مثيرة غباراً حريف الرائحة من على الدرب ، ونكّست تيجان عباد الشمس ببذورها حتى كادت تلامس الأرض ، وجعلت تعبث بشدة في شعر ناتاليا المشعث ، وجففت وجهها ولفت تنورة العمل الرمادية حول ساقيها .

لبثت ايلينشنا ، بضع ثوان ، تحملق في كنتها برعب خرافي . كانت ناتاليا تبدو ، ازاء خلفية الغيمة الرعدية السوداء التي صعدت الى السمت ، مثل مخلوق غريب مريع .

ونزل المطر محتدماً . ولم يدم الهدوء الذي يسبق الزوبعة الرعدية سوى لحظة . وطفق باشق يطلق صيحات قلقة وهو يهوي على نحو مائل ، وسولق يصفر قريباً من جحره ، وقذفت الريح غباراً رملياً خفيفاً على وجه ايلينشنا وتولت ، معولة ، حدر السهب . وجاهدت العجوز للثبات على قدميها . وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى حين صرخت ، خلل هدير العاصفة المقبلة :

ـ ماذا أنت قائلة ؟ غفر الله لك! موت مَن تستنزلين ؟

فزعقت ناتاليا :

ـ رباه ، عاقبه! رباه!

وعيناها المجنونتان مسمّرتان في الغيوم المتجمعة في جلال وعنف ، وقد كومتها الريح كتلاً وأضاءتها ومضات البرق الباهرة .

انفجر الرعد فوق السهب أشبه بصوت حطام جاف . فرسمت ايلينشنا اشارة الصليب ، والفزع مطير صوابها ، وتقدمت في خطواتها مترددة من ناتاليا وأمسكت بكتفها :

ـ اركعي على ركبتيك! أتسمعين ، يا ناتاليا ؟

فنظرت ناتاليا الى حماتها بعينين تائهتين وهوت على ركبتيها متخاذلة . وأمرتها ايلينشنا بقولها :

ـ اطلبي المغفرة من الله! توسلي إليه ألا يستجيب لدعائك . موت من تطلبين ؟ والد طفليك ؟ أوه ، انها لخطيئة قاتلة... ارسمي الصليب عليك! انحني الى الأرض! قولي :

ـ يا رب ، اغفر لي اثمي ، رغم أنني آثمة .

فرسمت ناتاليا اشارة الصليب على نفسها وهمست شيئاً بشفتين بيضاوين ، وانطوت على جنبها متشنجة وأسنانها تصطك .

* * *

غدا السهب ، بعد أن اغتسل بشآبيب المطر ، أخضر ، رائع الاخضرار . وارتمى قوس قزح متألق من البركة البعيدة حتى الدون تماماً . وفي ناحية الغرب ، كان الرعد لايزال يهدر جافاً متكسراً . ومياه التلول الطينية تنهمر مغرغرة حدر المسارب . وسارت جداول مزبدة نحو الدون فوق المنحدر ، وفوق بقاع البطيخ ، حاملة معها أوراقاً انتزعها المطر وحشيشاً اقتلعه مع جذوره من تربته ، وسنابل شيلم مكسورة . وزحف غرين رملي خصب نحو

بقاع البطيخ ليتراكم على سيقان البطيخ ، أحمره وأصفره . وعلى امتداد المسالك الصيفية ، سال الماء المبتهج ، مكتسحاً الحفر العميقة . وكانت ثمة حزمة من العشب اليابس تلتهب على نتوء بارز من أخدود بعيد ، بعد أن أضرمت صاعقة فيها النار . وارتفع عمود الدخان الليلكي وتعالى ، حتى كاد أن يمس سفح قوس قزح الممتد فوق الأفق .

اتخذت ايلينشنا وناتاليا طريقهما المنحدر صوب القرية ، حذرتين في ايجاد مواضع لأقدامهما العارية في الطريق الموحل الزلق ، رافعتين تنورتيهما عن الأرض . وفيما هما سائرتان ، قالت ايلينشنا :

ـ أنتم ، أيها الشباب ، سريعو الانفجار بشكل فظيع . أي والله! أقل شيء ويستبد بكم الجنون . لو عشت أنت مثلما توجّب عليّ أنا أن أعيش ، فما كنت ستفعلين ؟ طوال حياته ، لم يرفع غريشا اصبعاً واحدة عليك ، ومع ذلك فأنت غير راضية ، أقمت هذه المناحة . تريدين أن تلقي به عرض الحائط ، وتنتابك نوبة ، ولا أدري ما الذي لم تفعليه علاوة على ذلك! حتى لقد أدخلت الله في شغلتك القذرة!... حسن ، أخبريني ، أيتها البائسة ، هل هذا شيء حسن ؟ أما أنا ، فحينما كنت شابة ، كان معبودي الأعرج يجلدني حتى أكاد أموت ، كل ذلك لا لشيء ، ولا بسبب أي شيء . لم أقترف أدنى ما يجعلني أستحقه . أما سلوكه هو فكان مقززاً ، ومع ذلك فقد اعتاد على التنفيس عن غضبه بي . كان يعود الى البيت مع الفجر ، فكنت أصرخ وأعول وأقذف بالملامة عليه ، وكان هو يطلق العنان لقبضته... فأظل شهراً زرقاء الجسم كالحديد ، ومع ذلك عشت وتحملت ذلك وأنشأت الأولاد ولم أحاول أبداً ، ولا مرة واحدة ، أن أهجر البيت . لن أمتدح غريشا ، لكن بمقدورك على الأقل أن تعيشي مع إنسان مثله . ولولا تلك الأفعى لكان زوجاً مثلما تشتهين أن يكون . لقد سحرته تلك ، من دون شك!

فمضت ناتاليا تسير بعضاً من الوقت صامتة ، تقلب فكرها في شيء ما ، ثم قالت :

ـ أنا لا أريد أن أتحدث عن الموضوع بعد الآن ، يا أمي . حينما يعود غريغوري ، سنرى ما سيتعين عليَ أن أفعل . ربما أترك البيت باختياري أو ربما يطردني هو . أما في الوقت الحاضر فلن أترك بيتكم للذهاب الى أي مكان آخر .

فابتهجت ايلينشنا وقالت :

ـ هذا ما كان يجب أن تقوليه منذ زمان! عسى الله أن يحل كل شيء الى ما فيه الخير . إنه لن يطردك مطلقاً ، وما كان لك أن تفكري بذلك قط! إنه يحبك ويحب الطفلين كثيراً ، فهل تظنين أنه سيقبل بسماع مثل هذا الكلام ؟ أبداً! لن يهجرك لأجل أكسينيا . لن يستطيع ذلك! أما الخصام فيحصل في أحسن العائلات! المهم أن يعود حياً...

ـ أنا لا أريده أن يموت . قلت ذلك في سورة غضبي . فلا تلوميني على ذلك... أنا لا أستطيع أن أخرجه من قلبي ، ومهما يكن من أمر ، فالحياة قاسية بما فيه الكفاية .

ـ يا عزيزتي ، يا ابنتي! أتحسبين أنني لا أدري ؟ ولكن ، عليك ألا تفعلي شيئاً في عجل . أنت محقة ، لنقطع الحديث عن الموضوع . وأرجوك ، بالله ، ألا تقولي شيئاً للعجوز . فالأمر لا يخصه بأي شكل .

ـ هناك شيء واحد يجب أن أخبرك به... ليس واضحاً الآن ما إذا كنت سأعيش مع غريغوري أم لا . لكنني لا أريد إنجاب مزيد من الأطفال منه . حتى بوجود الطفلين ، هناك شك في احتمال بقائي... لكنني حامل بآخر يا أماه...

ـ منذ متى ؟

ـ أنا في شهري الثالث .

ـ ولكن كيف تستطيعين الخلاص منه ؟ عليك أن تحمليه سواء شئت أم أبيت .

فأجابت ناتاليا بعزم :

ـ لن أحمله! سأذهب اليوم ، بالذات ، إلى كابيتونوفنا العجوز . ستخلصني منه... لقد فعلت الشيء نفسه لنساء أخريات .

فتوقفت ايلينشنا الغضبى في وسط الطريق وضربت يداً بيد وصاحت :

ـ ماذا ؟ أتريدين قتل النطفة ؟ وتستطيعين أن تتحدثي بالأمر على هذه الشاكلة ، أيتها السفيهة الصفيقة ؟

وكانت على وشك أن تضيف الى قولها شيئاً آخر ، بيد أن فرقعة عجلات انبعثت من ورائهما ، وصوت حوافر خيل تغوص في الوحل وصياح رجل على حصانه .

فتنحّت ايلينشنا وناتاليا عن الطريق منزلتين تنورتيهما المرفوعتين . كان الشيخ بسخليبنوف عائداً من الحقول ، وحينما حاذاهما جرّ عنان مهرته الصغيرة الجموح ، وقال :

ـ اصعدا ، أيتها المرأتان . سأوصلكما الى الدار . لا أظن أنكما تريدان عجن الوحل عبثاً .

فقالت ايلنشنا في رضى :

ـ نشكرك ، يا آجفيتش . لقد أتعبنا الانزلاق .

وكانت هي أول من صعدت الى العربة الواسعة .

* * *

بعد العشاء ، أرادت ايلينشنا أن تحادث ناتاليا لتشرح لها خطل فكرتها في إجهاض نفسها . وفكرت ، فيما كانت تغسل الصحون ، في النقاش الذي سيدور بينهما ، وبحثت عن الحجج الأقصى اقناعاً وحتى أنها فكرت في اخبار بانتلاي بقرار ناتاليا طالبة منه مساعدتها في اقناع كنتهما ، التي أطار الأسى صوابها ، لتعدل عن خطوتها الطائشة . ولكن ، وبينما كانت ايلينشنا تعالج بعض الشؤون المنزلية ، هيأت ناتاليا نفسها بهدوء وغادرت البيت .

وبعد ذلك بقليل ، كانت ايلينشنا تسأل دونيا :

ـ أين ناتاليا ؟

ـ جمعت لها صرة وخرجت .

ـ الى أين ؟ ماذا قالت ؟ ما شكل الصرة ؟

ـ كيف لي أن أعرف ، يا أمي ؟ وضعت تنورة نظيفة وشيئاً آخر في عصابة رأس وخرجت دون كلمة .

ـ يا للطفلة البائسة!

وانفجرت ايلينشنا في بكاء مرّ أثار دهشة دونيا ، وجلست على المصطبة .

ـ ما الأمر ، يا أمي ؟ كان الله في عونك ، ما الذي يبكيك ؟

ـ لا تتدخلي في شؤون غيرك ، أيتها الوباء! لا شأن لك فيه! ولكن ، ما الذي قالته ؟ ولم لم تخبريني حينما كانت تستعد للخروج ؟

فأجابت دونيا في لهجة محنقة :

ـ أوه ، انك فظيعة! كيف كان بإمكاني أن أعرف أنه كان عليّ أن أخبرك ؟ لعلها لم تخرج الى غير رجعة ، ها ؟ لابد أنها ذهبت لرؤية أمها ، أما سبب بكائك ، فلا أفهمه مطلقاً .

لبثت ايلينشنا تنتظر عودة ناتاليا في منتهى القلق . وقررت ، خوفاً من تعنيف زوجها وملامته ، ألا تخبره بالأمر .

مع الغروب ، عاد القطيع من السهب . وأفل الغسق الصيفي القصير ، وتوهجت الأضواء هنا وهناك في القرية ، لكن ناتاليا لم يبن لها أثر . جلست عائلة ميليخوف لتناول العشاء . وبوجه شاحب أعدت ايلينشنا الشعرية المنزلية مع البصل المقلي بالزيت النباتي . التقط العجوز ملعقته ، وسحق كسرات من الخبز البائت فيها ، وصبّها في فمه الملتحي ، ثم أجال بصره ساهماً في الجالسين الى إالمائدة وتساءل :

ـ أين ناتاليا ؟ لم لا تدعونها الى المائدة ؟

فردت ايلينشنا بصوت خفيض :

ـ هي في الخارج .

ـ أين في الخارج ؟

ـ لابد أنها ذهبت لترى أمها ثم قررت البقاء .

فتمتم بانتلاي في غير رضى :

ـ تأخرت . حان لها أن تعرف الأصول...

وكعادته ، تناول عشاءه في نهم وشهية ، واضعاً ملعقته بين حين وآخر على المائدة في وضع مقلوب ، ليلقي نظرة راضية من طرف عينه على ميشاتكا الذي كان جالساً بجواره ، ويقول له في لهجة قوية :

ـ استدر قليلاً ، يا بني ، دعني أمسح شفتيك . أمك جوالة ولا أحد يعتني بك...

ويمسح شفتي حفيده الورديتين الرقيقتين الصغيرتين براحته السوداء المتقرنة الكبيرة .

تناولوا عشاءهم صامتين ، ثم قاموا عن المائدة . وأصدر بانتلاي أمره :

ـ أطفئوا الضوء . ليس لدينا زيت كثير ، فلا معنى في تبديده .

فتساءلت ايلينشنا :

ـ هل أزلج الباب ؟

ـ نعم .

ـ فكيف الحال مع ناتاليا ؟

ـ ستدق الباب إن عادت . لعلها ستظل تتجول حتى الصباح . سلوك لطيف! يجدر بك ألا تدعيها تتصرف وفق هواها بعد الآن ، أيتها الساحرة الشمطاء! تقوم بزياراتها في الليل كما تهوى... سأقول لها هذا الصباح . إنها تتبع خطى داريا...

استلقت ايلينشنا دون أن تخلع ملابسها . ولبثت نصف ساعة تتقلب على الفراش وتطلق الحسرات في صمت . وكانت على وشك أن تنهض

وتخرج لرؤية كابيتونوفنا حينما تناهى الى أذنها وقع خطوات متعثرة متثاقلة من تحت النافذة . فقفزت بخفة ، غريبة على من في عمرها ، وهرعت خارجة الى الممر وفتحت الباب .

كانت ناتاليا شاحبة شحوب الموتى ، تصعد الدرجات ببطء ، ممسكة بالحاجز . كان البدر المكتمل يضيء وجهها الغائر وعينيها الفارغتين وحاجبيها المعقودين في ألم ، وهي تختض في مشيتها ، مثل حيوان مصعوق . وحيثما وضعت قدميها كانت تخلف بقعة دم قاتمة .

فلفتها ايلينشنا بذراعها في صمت ومشت بها الى السقيفة . فاتكأت ناتاليا بظهرها على الباب وهمست بصوت مبحوح :

ـ هل الجميع نائمون ؟ أماه ، امسحي الدم المتخلف ورائي... أنظري ، لقد تركت آثاراً...

فتساءلت ايلينشنا هامسة ، وهي تخنق غصات نشيجها ؟

ـ ماذا فعلت بنفسك ؟

فحاولت ناتاليا أن تبتسم ، غير أن تكشيرة بائسة شوهت وجهها :

ـ لا ترفعي صوتك ، يا أمي ، وإلا فستوقظين الآخرين... حسن ، لقد خلصت نفسي... الآن ، هدأ قلبي... سوى أن هناك دماً كثيراً . إنه ينهمر مني ، وكأني شطرت... أعط يدك ، أمي ، إن رأسي يدور .

فأزجلت ايلينشنا الباب . ثم ظلت زمناً طويلاً تتلمس بيد راعشة ، وكأنها في بيت غريب ، دون أن تستطيع العثور على مقبض الباب الداخلي في الظلمة . وعلى رؤوس أصابعها ، قادت ناتاليا الى غرفة الضيوف الواسعة . فأيقظت دونيا وأخرجتها من الغرفة ، واستدعت داريا وأضاءت الفانوس .

كان الباب المؤدي الى المطبخ مفتوحاً ، ومن خلاله انبعث شخير بانتلاي المرتفع المنتظم وكانت بوليوشكا الصغيرة تتلمظ شفتيها وتتمتم في نومها بشيء ما . ما أعمق نوم الطفل الهانئ الخلي!

وفيما كانت ايلينشنا تنفش الوسادة وتعد الفراش ، جلست ناتاليا على المصطبة ووضعت رأسها ، في ضعف بالغ ، على حافة المائدة . وأرادت دونيا أن تدخل الى الغرفة بيد أن ايلينشنا قالت لها في لهجة خشنة :

ـ ابتعدي من هنا ، أيتها السفيهة الصفيقة! ولا تنظري هنا! ليس الأمر يجدر أن تدسي أنفك فيه!

تناولت داريا ، متجهمة الوجه ، خرقة مبللة وخرجت بها الى السقيفة . ورفعت ناتاليا رأسها ، متألمة وقالت :

ـ ارفعي الغطاء النظيف عن السرير... افرشي لي قطعة خيش... سأوسخه بالتأكيد...

فأمرتها ايلينشنا قائلة :

ـ صه! اخلعي ملابسك وتمددي! أتشعرين بألم كبير ؟ أتريدين أن آتيك بشيء من الماء ؟

ـ إنني أشعر بضعف فظيع... اجلبي لي قميص نوم نظيفاً وماءً...

وبجهد جهيد قامت ناتاليا ومضت الى السرير .

ولم تلاحظ ايلينشنا إلا لحظتئذ بأن تنورتها كانت منقعة بالدم وأنها كانت سائبة من حولها ومتشبثة بساقيها . وحدقت في ناتاليا والرعب مستبد بها فيما انحنت ناتاليا وعصرت تنورتها وكأنها كانت قد أمضت وقتاً تحت المطر ، ثم بدأت تخلع ملابسها .

فقالت ايلينشنا ناشجة :

ـ لكنك تنزفين نزيفاً قتالاً!

فنضت ناتاليا ملابسها وأغمضت عينيها ، وهي تجر أنفاساً مختلجة متلاحقة . فألقت العجوز نظرة عليها ثم مضت الى المطبخ في هيئة من استقر على أمر . وأفلحت بعد لأي في أن توقظ العجوز ، وقالت له :

ـ ناتاليا مريضة... حالتها خطرة ، وقد تموت... أعد خيلك على الفور وانطلق الى فيشنسكايا واجلب الممرض .

ـ شيء شيطاني بديع! ماذا حدث لها ؟ ما مرضها ؟ من الأفضل لها أن تخرج تحوم في الليل أقل...

فشرحت العجوز له باختصار ما حدث . فقفز بانتلاي من سريره كالمجنون ، وخطا نحو غرفة الضيوف وهو يزرر سرواله :

ـ آه أيتها السفيهة القذرة! آه ، يا ابنة العاهرة! ما الذي فعلت ، ها ؟ الضرورة أجبرتها على ذلك! حسن ، لسوف ألقنها...

ـ أمجنون أنت ، عليك اللعنة ؟ أين تراك ذاهباً ؟ لا تدخل هناك ، فهي لا تريدك... ستوقظ الطفلين . أخرج الى الفناء وأعد الخيل سريعاً!

وحاولت ايلينشنا أن توقف العجوز . بيد أنه لم يأبه لها ، بل مضى الى باب غرفة الضيوف ورفسه برجله لينفتح . وزأر قائلاً ، وهو يتوقف عند العتبة :

ـ لقد عملت فعلاً بديعاً ، يا ابنة الشيطان!

فصرخت ناتاليا في زعيق نفاذ :

ـ لا تدخل ، يا أبتاه! يجب ألا تدخل! لا تدخل بحق المسيح!

فقذف بانتلاي سباباً مقذعاً ، ثم بحث عن معطفه وقبعته وعدة الخيل . وقد استغرق ذلك منه وقتاً طويلاً ، حتى أن دونيا لم تستطع أن تكبح جماح نفسها . فاندفعت الى المطبخ وانفجرت في أبيها ، فيما شرعت الدموع تترقرق في عينيها :

ـ انطلق في الحال! ماذا عساك تنقب كما تنقب خنفساء في الروث! ناتاليا تموت ، وهو يقضي ساعة كاملة في التهيؤ! ويسمي نفسه أباً! إن كنت لا تريد الذهاب ، فلمَ لا تقول ذلك ؟ سأعد الخيل بنفسي وأنطلق الى فيشنسكايا!

ـ أنت مخبولة! ما معنى جنونك هذا ؟ من سيأخذ الأوامر منك ، يا جرباً لصيقاً! دونك واحدة أخرى منهن تصرخ في وجه أبيها ، يا للداعرة!

وأهوى بانتلاي عليها بمعطفه في حركة خانقة ، ثم خرج الى الفناء مهمهماً بسيل من سباب .

بعد مغادرته البيت ، أصبح الجميع أقل تحفظاً . فغسلت داريا الأرضية ، مزحزحة الكراسي والمصطبة بعنف ، وسمحت ايلينشنا لدونيا بالدخول الى غرفة الضيوف . فجلست الفتاة عند رأس ناتاليا ، تسوي وسادتها وتسقيها الماء . وبين الفينة والأخرى ، كانت ايلينشنا تدلف ، بهدوء ، الى الغرفة الجانبية حيث كان الطفلان نائمين ، ثم تعود الى غرفة الضيوف لتحدق الى ناتاليا واضعة خدها على راحتها ، وهي تهز رأسها في مرارة .

لبثت ناتاليا مضطجعة ، صامتة ، ورأسها ، بخصلات الشعر المتشابكة المبللة بالعرق ، يتقلب على الوسادة . وفي كل نصف ساعة ، كانت ايلينشنا ترفعها برفق وتسحب الغطاء المشبع بالدم من تحتها وتبسط غطاء نظيفاً .

ومع كل ساعة تطوى كانت ناتاليا تمسي أشد ضعفاً ووهناً . وحدث في ساعة ما بعد منتصف الليل أن فتحت عينيها وسألت :

ـ هل سينبلج الضياء عما قريب ؟

فقالت العجوز تهدئها :

ـ لا علامة للضياء بعد .

وفي نفسها قالت :

ـ هذا يعني أنها لن تجتاز الأزمة حية . إنها تخشى أن ترحل دون رؤية الطفلين .

وقالت ناتاليا ، وكأنها تؤكد ما دار بخاطر ايلينشنا :

ـ أماه ، أيقظي ميشاتكا وبوليوشكا...

ـ ولماذا ، يا عزيزتي ؟ فيم عساك تريدين ازعاجهما في منتصف الليل ؟ سيفزعان إن وقع نظرهما عليك ، ويبدآن بالبكاء... فيم ايقاظهما ؟

ـ أود أن أراهما... إن وضعي سيئ جداً .

ـ رحماك يا رب... ما الذي تقولين ؟ بعد قليل يصل الوالد مع الممرض ، يا عزيزتي ، ألا ترتئين ذلك ؟

فردّت ناتاليا ومسحة من التضايق تشوب صوتها :

ـ وأين هو النوم ؟

ثم مضى وقت لم تقل خلاله شيئاً ، وأمسى تنفسها أكثر انتظاماً .

فانسلت ايلينشنا في هدوء خارجة الى درجات العتبة وأطلقت لدموعها العنان . ثم عادت الى الغرفة بوجه أحمر منتفخ حينما كان الفجر قد شرع يظهر ، بصيصاً خافتاً ، من ناحية الشرق . وحين صرّت الباب ، فتحت ناتاليا عينيها وأعادت السؤال :

ـ هل سينبلج الضياء عما قريب ؟

ـ الفجر يطلع الآن .

ـ غطي قدميّ بفروة .

فألقت دونيا فروة على قدميها ودثرت جنبيها بالبطانية الدافئة . فشكرتها ناتاليا بعينيها ، ثم طلبت من ايلينشنا أن تقترب منها وقالت :

ـ اجلسي بجانبي ، يا أماه . وأنتما ، يا دونيا وداريا ، أخرجا بعضاً من الوقت . أريد أن أتحدث على انفراد مع الأم...

ثم تساءلت دون أن تفتح عينيها :

ـ هل خرجتا ؟

ـ نعم .

ـ الوالد لم يعد بعد ؟

ـ سيعود عما قريب . أتشعرين أسوأ مما كنت ، إذن ؟

ـ كلا ، هذا لا أهمية له... إليك ما أردت قوله ، أماه . إنني سأموت عما قريب . أحس بذلك في قلبي . لقد فقدت دماً كثيراً ، إنه لأمر فظيع! أطلبي من داريا أن تضع ماء كثيراً حينما تشعل الموقد . أغسلوني بأنفسكم . لا أريد غرباء...

ـ ناتاليا! ارسمي الصليب عليك ، يا حبيبتي! فيم حديثك عن الموت ؟ الله رحيم ، وسوف تتحسن صحتك .

وبإيماءة موهنة طلبت ناتاليا من حماتها السكوت ، وقالت :

ـ لا تقاطعيني . تكفيني مشقة الحديث بالشكل الذي أستطيعه ، وأود أن أقول... آه ، رأسي يدور من جديد . هل أخبرتك عن الماء ؟ علي أن أكون قوية... فعلته كابيتونوفنا في وقت مبكر جداً ، حالما وصلت هناك بعد العشاء... لقد استبد بها الفزع مما حصل ، يا للمرأة المسكينة! فقدت كمية فظيعة من الدم... آه لو استطعت أن أظل حية حتى الصباح... سخنوا ماء كثيراً . أريد أن أكون نظيفة حينما أموت... أماه ، ألبسيني تنورتي الخضراء ، تلك المطرزة في حاشيتها . كان غريشا يحب حينما ألبسها... وسترتي البوبلين... إنها في الصندوق ، فوق ، في الجهة اليمنى ، مباشرة تحت شال... وحينما أموت ، تستطيعين إرسال الطفلين الى أهلي... قد يكون مناسباً أن ترسلي في طلب أمي . لتأت على الفور... يجب أن أودعها . اسحبي الغطاء من تحتي . لقد تنقع كله...

فسحبت ايلينشنا الغطاء وهي ترفع ناتاليا بيد من تحت ظهرها ، واستطاعت بشكل ما أن تدس غطاء آخر تحتها . فهمست ناتاليا بمشقة :

ـ اقلبيني... على جنبي .

وغابت عن الوعي .

أطل الفجر من الشباك ، رمادياً بلون الحمام . غسلت دونيا سطلاً وخرجت الى الفناء لتحلب البقرات . وفتحت ايلينشنا الشباك فإذا بغرفة الضيوف ، التي اختنقت برائحة الدم الجديد والكيروسين المحروق ، تنعشها برودة الصباح الصيفي ، حادة منشطة . واكتسحت الريح قطرات الندى على أوراق الكرز المتمددة على حافة الشباك الخارجية . وتناهت ، خلل الشباك ، أصوات الطيور المبكرة ، وخوار البقر ، وضربات السوط الثقيلة يهوي بها راعي القطيع على ظهور البقر .

فتحت ناتاليا عينيها ، ولعقت بطرف لسانها شفتيها اليابستين الصفراوين ، وطلبت شيئاً تشربه . ولم تعد تسأل في طلب الطفلين أو أمها . كان كل شيء ينسل منها ، ينسل الى الأبد .

أغلقت ايلينشنا الشباك واقتربت من السرير ، يا للفظاعة! لكم تغيرت ناتاليا خلال ليلة واحدة! بالأمس كانت مثل شجرة تفاح مزهرة ، جميلة ، معافاة ، قوية . أما الآن ، فوجنتاها كانتا أكثر بياضاً من كلس التلال القائمة على جانب الدون ، وأنفها مستدقاً ، وشفتاها فقدتا نضارتهما الأخيرة فأمستا رفيعتين ، وبدتا كأنهما تنكمشان بعيداً عن أسنانها المنفرجة . سوى أن عينيها ظلتا محتفظتين بألقهما السابق ، وإن كانت تعابيرهما قد تغيرت هي الأخرى . فأصبحت تنبعث منهما نظرة جديدة غريبة مفزعة كلما رفعت ، من حين لآخر ، جفنيها المزرقّين ، وكأنها تذعن لإرادة مبهمة ، وأجالت بصرها في الغرفة ليستقر بعد ذلك على ايلينشنا ثانية من الزمن .

عاد بانتلاي مع شروق الشمس ، فتمطى الممرض ، ذو العينين اللتين أثقلتهما ليال لم يعرف النوم خلالها ومتاعب لامتناهية مع المصابين بالتيفوس والجرحى ، وترجّل من عربة الترانتاس متناولاً صرّة من على المقعد ، ثم دلف داخل البيت . وعلى درجات العتبة خلع معطفه المشمع الواقي من المطر ، وقضى فترة طويلة يغسل يديه المشعرتين وهو منحن على الحاجز ، ناظراً الى دونيا من تحت حاجبيه ، فيما كانت تصب على راحتيه الماء من قارورة ، حتى أنه غمز لها . ثم مضى الى غرفة الضيوف وبقي زهاء عشر دقائق مع ناتاليا بعد أن أخرج الجميع من الغرفة . فجلس بانتلاي وايلنشنا في المطبخ .

سألها العجوز همساً حالما خرجا من غرفة الضيوف :

ـ كيف هي الآن ؟

ـ في حالة سيئة...

ـ فعلت ذلك من تلقاء نفسها ؟

فتملّصت ايلينشنا من السؤال بقولها :

ـ كانت فكرتها هي .

وجاء صوت الممرض آمراً وهو يدس رأسه الأشعث خارج الباب :

ـ ماء ساخن ، بسرعة!

وبينما كانوا يسخنون الماء ، جاء الى المطبخ . فلوح بيده يائساً ، جواباً لسؤال العجوز غير المنطوق :

ـ لن يطول أجلها أبعد من وقت الغداء . لقد فقدت كمية فظيعة من الدم . لا شيء يمكن عمله! هل أرسلتم الخبر الى غريغوري بانتلاييفتش ؟

ومن غير أن يجيب ، هرع بانتلاي خارجاً الى السقيفة وهو يعرج . فرأت داريا العجوز يمضي الى ما تحت أفاريز المأوى ، الى حيث ماكنة الحش ، فيضع رأسه على كومة من الجل من السنة الماضية ويبكي في صوت مسموع .

لبث الممرض نصف ساعة أخرى ، وقضى بعضا من الوقت جالساً على درجات العتبة ، غافياً تحت أشعة الشمس المشرقة . وحينما شرع السماور* يغلي عاد الى غرفة الضيوف وزرق ناتاليا بإبرة كافور ، ثم خرج وطلب شيئاً من اللبن . فشرب قدحين منه ليخمد تثاؤبه ، وقال :

ـ عد بي على الفور . لدي مرضى وجرحى في فيشنسكايا ، وليس ثمة ما أستطيع عمله هنا . الأمر ميئوس منه تماماً . بودي أن افعل أي شيء لأجل غريغوري بانتلاييفتش ، لكنني أقول لك بصراحة إنني لا أستطيع عمل أي شيء . في أفضل الحالات ، لا نستطيع فعل ما هو قليل قليل . لا نستطيع سوى شفاء المرضى ، لكننا لم نتعلم بعد كيف نبعث الموتى . أما امرأتكم الصغيرة فقد قطّعت بشكل خطير بحيث لم يبق لديها ما تعيش به... الرحم مزق تمزيقاً فظيعاً . لم يبق منه شيء . أخال أن الشيخة استعملت معها خطافاً حديدياً . إنه الجهل ، جهلنا ، لن نستطيع الخلاص منه!

فقذف بانتلاي تبناً في الترانتاس وقال لداريا :

ـ عودي أنت به . لا تنسي أن تسقي الفرس حينما تنزلين الى الدون .

وكان بصدد تقديم نقود الى الممرض ، إلا أن الرجل رفض رفضاً قاطعاً :

---

* وعاء لغلي الماء . المترجمون

ـ يجب أن تخجل من مجرد التفكير بذلك ، يا بانتلاي بروكوفتش! أنتم أهلي وتعرضون عليّ النقود! كلا ، لا تقترب مني بها ، كيف يتسنى لك أن تكافئني ؟ لا حاجة بك للسؤال . لو استطعت أن أقيم كنتكم على قدميها لاختلف الأمر .

في حوالي الساعة السادسة صباحاً ، شعرت ناتاليا بتحسن كبير لحالتها وطلبت أن تغتسل ، ومشطت شعرها أمام مرآة أمسكت بها دونيا . وأجالت بصرها باحثة عن طفليها العزيزين ، وعيناها متألقتان ، وانتزعت من نفسها ابتسامة :

ـ حسن ، أنا الآن في طريقي الى الشفاء! ولكن ما كان أشد خوفي! حسبت أنني انتهيت!... ولكن ، لم تأخر الطفلان في نومهما ؟ دونيا ، اذهبي وانظري ما إذا كانا لم يستيقظا بعد .

ثم وصلت أمها ، لوكينيشنا ، مع شقيقتها الصغرى ، أغريبينا . وحينما وقع نظر العجوز على ابنتها انفجرت بالدموع ، بيد أن ناتاليا قالت ، المرة تلو المرة ، في صوت منفعل :

ـ لماذا تبكين ، يا أمي ؟ أنا لست في حالة سيئة جداً الآن... ربما جئتِ لدفني ، أم ماذا ؟ أوه ، حقيقة ، تخبريني ، لماذا تبكين ؟

فلكزت أغريبينا أمها ، فأدركت لوكينيشنا السبب وأسرعت تمسح عينيها وقالت في لهجة مهدئة :

ـ لماذا ، يا ابنتي ، دموعي طفرت من شدة حمقي . اعتصرني قلبي حينما نظرت إليك . لقد تغيرت كثيراً...

توهّج تورد خفيف في وجنتي ناتاليا حينما سمعت صوت ميشاتكا وضحكة بوليوشكا . فقالت طالبة :

ـ اجلبوهما هنا! ادعوهما بسرعة! يستطيعان ارتداء ملابسهما فيما بعد .

فدخلت بوليوشكا أولاً وتوقفت عند الباب تدعك بقبضتها الصغيرة عينيها الناعستين ، فقالت ناتاليا مبتسمة :

ـ ماماتك أصبحت مريضة . تعالي إليّ ، يا كنزي!

فنظرت بوليوشكا مستغربة الى الكبار الجالسين في وجوم على المصاطب ، وقالت في لهجة مغضبة وهي تمضي الى أمها :

ـ لماذا لم توقظوني ؟ ولماذا جاءوا جميعاً ؟

ـ جاءوا ليروني... ولكن لأي شيء نوقظك ؟

ـ كنت آتيك بشيء من الماء وأجلس معك...

ـ حسن ، اذهبي واغتسلي ومشطي شعرك واتلي صلاتك ، وبعد ذلك تستطيعين أن تأتي وتجلسي معي .

ـ ولكن هل ستنهضين لتناول الفطور ؟

ـ لا أدري . لا أظن .

ـ حسن ، اذن فسأجلب لك فطورك هنا . هل ترغبين في ذلك يا مامي ؟

فقالت ناتاليا بابتسامة واهنة :

ـ إنها صورة طبق الأصل عن أبيها . سوى أن قلبها ليس كقلبه ، قلبها أرق...

وتركت رأسها يهوي الى وراء ، وسحبت البطانية حول ساقيها كما لو أصابها برد .

بعد ذلك بساعة ، عادت حالتها تسوء . فأشارت للطفلين أن يقتربا منها . احتضنتهما . رسمت اشارة الصليب عليهما . قبلتهما . وطلبت من أمها أن تأخذهما لديها . فعهدت لوكينيشنا بالطفلين إلى أغريبينا ، وبقيت مع ابنتها .

أغمضت ناتاليا عينيها ، وقالت ، وكأنها تهذي :

ـ إذن ، فلن أستطيع أن أراه...

ثم ، وكما لو أنها تذكرت شيئاً ما ، رفعت نفسها بقوة على السرير وقالت :

ـ أعيدوا ميشاتكا الى هنا .

فدفعت أغريبينا ، مخضلة الوجه بالدموع ، بالطفل الى داخل الغرفة وبقيت هي في المطبخ تئن في صمت .

تقدم ميشاتكا من السرير في حياء ، ووجهه متجهم ، يحمل سيماء آل ميليخوف القاسية .

كان التغيير الحاد الذي أصاب وجه أمه قد جعلها تبدو غريبة ، غير مميزة . فأدنت ناتاليا ولدها منها وأحست بفؤاده الصغير يدق عنيفاً ، كقلب سنونو واقع في فخ . فقالت له :

ـ مل عليّ يا ولدي الصغير! اقترب!

وهمست شيئاً ما في أذنه ، ثم نحته عنها ، وسددت الى عينيه نظرة مستفهمة ، وزمت شفتيها المرتعشتين ، وقالت وهي تغتصب ابتسامة معذبة بائسة :

ـ لن تنسى ؟ ستخبره ؟

ـ لن أنسى .

وقبض ميشاتكا على اصبع أمه الوسطى ، واعتصره في قبضته الصغيرة الساخنة ، ولبث ممسكاً به بقوة ثانية من الوقت ، ثم أرخاه . وحينما كان يخطو مبتعداً عن السرير ، جعل يسير ، لسبب ما ، على رؤوس أصابعه ، موازناً نفسه بذراعيه .

راقبته ناتاليا حتى بلغ الباب ، ثم استدارت فجأة نحو الحائط .

عند الظهر ، ماتت .

١٧

عديدة كانت أفكار غريغوري وذكرياته خلال رحلة اليومين من الجبهة الى قريته . اصطحب بروخور زيكوف معه خشية أن ينفرد في السهب مع أحزانه وأفكاره الدائمة في ناتاليا . وما ان خلّفا القرية التي كانت السرية

تعسكر فيها ، حتى شرع غريغوري يتحدث عن الحرب ، مستعيداً خدمته مع الكتيبة الثانية عشرة في الجبهة النمساوية ، وكيف زحفوا على رومانيا وكيف حاربوا الألمان . وظل يتكلم ويتكلم دونما توقف ، مستحضراً شتى صنوف الحوادث السخيفة التي وقعت لرفاق كتيبتهم ، وهو لا ينفك يتضاحك...

وكان بروخور الساذج يلقي ، في البدء ، نظرات استغراب من طرف عينه على غريغوري ، وقد أذهلته ثرثرته غير الاعتيادية . إلا أنه أدرك فيما بعد أن غريغوري كان يحاول أن ينفس عن كربة صدره بالحديث عن ذكريات الأيام السالفة ، فجعل يعينه على إدامة الحديث ، في جهد لعله لم يكن ضرورياً . وبينما كان يتحدث عن الفترة التي أمضاها في مستشفى تشيرنيكوف ، صادف أن نظر بروخور الى غريغوري فرأى الدموع تنهمر على خديه الأسمرين . فتباطأ بروخور ، عمداً واحتراماً ، ولبث يمضي على حصانه على مبعدة خطوات وراء غريغوري زهاء نصف ساعة . ثم حاذاه من جديد وحاول أن يتحدث عن أمور تافهة عابرة . بيد أن غريغوري لم يبادله الحوار . فمضيا يهذبان حتى حلول الظهر ، صامتين ، جنباً الى جنب ، ركاباً الى ركاب .

ظل غريغوري منطلقاً بسرعة جنونية . وعلى الرغم من شدة الحرارة ، فإنه جعل حصانه يعدو هذباً سريعاً ، ثم يخفف السرعة الى خبب ولا يبطنها الى سرعة المسير إلا من حين لآخر . ولم يتوقف إلا عند الظهيرة ، وذلك حينما شرعة أشعة الشمس العمودية تحرق الرأس حرقاً لا يحتمل . وآنذاك توقف داخل مسرب ورفع السرج من على حصانه وأطلقه يرعى . ومضى هو الى الظل ، وتمدد على بطنه ، ولبث على وضعه هذا الى أن انحسرت موجة الحر . فأطعما الحصانين شوفاناً ، لكن غريغوري لم يلاحظ أوقات إطعامهما بشكل صحيح . ولهذا فقد غارت جوانب الحصانين بعد اليوم الأول على الرغم من أنهما كانا معتادين على قطع المسافات الطويلة ، ولم يعودا قادرين على الحركة بمثل الاندفاع الذي انطلقا فيه صباحاً . فحدّث روخور نفسه محنقاً :

ـ نحن في الطريق الى هلاك الحصانين . من في الدنيا ينطلق بهذا الشكل ؟ هذا الشيطان ، لا يهمه شيء تماماً! يرهق حصانه ويزهق روحه ، ثم يستطيع أن يحصل على غيره في أي وقت يشاء . أما أنا ، فمن أين يمكن أن أحصل على مركوب ؟ إنه يدفع الحصانين حثيثاً نحو حتفهما ، ثم سيتعين علينا أن نقطع بقية الطريق الى تتارسكي على أقدامنا ، أو نجرجر أنفسنا في عربة معارة .

في الصباح التالي لم يستطع على السكوت صبراً ، فقال أخيراً لغريغوري :

ـ سيظن أي امرئ بأن هذا الحصان لم يكن ملكاً لك مطلقاً! من في الدنيا يهذب بحصانه هكذا ، ليلاً ونهاراً ، بلا استراحة ؟ أنظر كيف أُرهق الحصانان! لنعطهما طعاماً مناسباً حين يحل الليل بأية حال .

فأجاب غريغوري ، شارد الذهن :

ـ حافظ على سرعتك ، ولا تتباطأ!

ـ أنا لا أستطيع أن ألحق بك . حصاني كلّ . ألا نستريح ؟

فلم يجبه غريغوري . ولبثا نصف ساعة يهذبان دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ثم أعلن بروخور عازماً : لندعهما يجران نفساً على الأقل! أنا لن أمضي على هذه الشاكلة أتسمعني ؟

ـ الفحه بسوطك! الفحه بسوطك!

ـ ولكن ، الى متى نظل نلفحه بالسوط ؟ الى أن ينفق ؟

ـ لا تناقش!

ـ كن رحيماً ، يا غريغوري بانتلاييفتش! أنا لا أريد أن أسلخ حصاني ، ولكن الأمر سائر الى ذلك...

ـ حسن ، توقف اذن ، عليك اللعنة! ابحث عن موضع فيه عشب جيد .

* * *

كانت البرقية قد جالت في جميع مناطق اقليم الخوبر بحثاً عن غريغوري ، فبلغته متأخرة جداً . فوصل الدار في اليوم الثالث بعد دفن ناتاليا . ترجّل عند البوابة الصغيرة ، فهرعت دونيا خارجة من البيت وانفجرت تنشج . فاحتضنها عجلاً وقال عاقداً حاجبيه :

ـ امشي بالحصان مسافة طويلة... لا تجأري!

واستدار نحو بروخور آمراً :

ـ اذهب الى بيتك! اذا احتجت اليك سأرسل من يخبرك .

وخرجت ايلينشنا الى الدرجات لاستقبال ابنها وهي ممسكة بأيدي ميشاتكا وبوليوشكا .

فاختطف غريغوري الطفلين في ذراعيه وقال بصوت راعش :

ـ لا ، لا تبكيا! بلا دموع! يا حبيبي! اذن ، صرتما بلا أم ؟ كفى ، كفى... مانكا تركتنا في مأزق...

بيد أنه ، هو نفسه ، عانى صعوبة في خنق نشيجه وهو يمضي الى داخل الدار ويحيي أباه . فقال بانتلاي :

ـ لم نستطع إنقاذها...

ثم مضى في الحال الى الممر .

أخذت ايلينشنا بيد غريغوري الى غرفة الضيوف وأخبرته عما حدث لناتاليا ، إلا أنها لم تبح له بكل الحقيقة ، فسألها غريغوري :

ـ ولماذا قررت ألا تبقي على الجنين ؟ أتعرفين ؟

ـ نعم ، أعرف .

ـ أي ؟

ـ زارت عشيقـ.. تك... في اليوم السابق . فأخبرتها أكسينيا بكل شيء .

فاحمر وجه غريغوري غضباً وأسبل عينيه قائلاً :

ـ آها! إذن فهذا هو السبب!

ثم خرج من غرفة الضيوف وقد بدا أكبر سناً ، شديد شحوب الوجه .

فجلس الى المائدة ، محركاً شفتيه المرتعشتين المزرقتين دون أن تندّ عنهما نأمة ، وأقعد الطفلين على ركبتيه ، وقضى بعض الوقت يلاطفهما . ثم أخرج من حقيبة الميدان قطعة من السكر القاتم المغبر ، وقطعها بسكينه على راحته ، وابتسم ابتسامة من يشعر بالإثم :

ـ هذا كل ما استطعت أن أجلبه لكما... هذه شاكلة أبيكما... حسن ، اركضا الى الفناء وناديا جدكما .

تساءلت ايلينشنا :

ـ هل ستزور القبر ؟

ـ فيما بعد ، حينما تسنح لي الفرصة... الأموات لا يستاؤون مطلقاً... كيف حال ميشاتكا وبوليوشكا ؟ هل هما بخير ؟

ـ بكيا كثيراً في اليوم الأول ، وبالأخص بوليوشكا... أما الآن فيبدو وكأنهما توصلا الى اتفاق ، فلم يعودا يتحدثان عنها أمامنا . لكنني سمعت ميشاتكا يبكي بكاء مكتوماً . كان قد وضع رأسه تحت الوسادة لكي لا يسمعه أحد... فذهبت إليه وسألته :

ـ ما الأمر ، يا حبيبي ؟ أتحب أن تأتي وتنام معي ؟

بيد أنه أجاب :

ـ كل شيء على ما يرام يا جدتي . لابد أنني كنت أبكي في نومي...

حادثهما أنت ، اشفق عليهما . أمس صباحاً سمعتهما يتحدثان في الممر . كانت بوليوشكا تقول :

ـ ستعود إلينا . إنها شابة ، والشبان لا يموتون . ـ إنهما لايزالان أحمقين ، لكن قلبيهما الصغيرين يشعران بالألم مثل الكبار... لابد أنك جائع . اجلس وسأعد لك شيئاً... فيم جلوسك مطبق الفم ؟

مضى غريغوري الى غرفة الضيوف . كان تصرفه على نحو من وجد نفسه هناك لأول مرة في حياته : فجعل يمعن النظر الى الجدران ثم أراح بصره على السرير . كان معداً ، ووساداته منفوشة . على هذا السرير ماتت ناتاليا ،

ومن هذا السرير انبعث صوتها للمرة الأخيرة . وتخيلها وهي تودع الطفلين ، تقبلهما ، ولربما ترسم اشارة الصليب عليهما . ومن جديد ، وكما حدث لحظة تلا البرقية تخبره بوفاتها ، أحس بألم حاد ، كالطعنة ، في قلبه ، ورنين مكتوم يضج في أذنيه .

كان كل شيء في الدار يذكّره بناتاليا . كانت ذكرياته عنها مستديمة لا تفنى ، مؤلمة لا ترحم . وجعل ، لغير ما سبب واضح ، يتنقل من غرفة الى أخرى ، داخلاً الى جميع الغرف ، ثم خرج الى الخارج مسرعاً حتى كاد أن ينقلب على درجات العتبة ، وهو يضغط راحته ، وجلاً ، على صدره الأيسر ويقول في سريرته :

ـ هذا الحصان الأشيب العجوز صعد تلاً أو تلين شديدي الانحدار!

كانت دونيا تسير بالحصان داخل الفناء . وحينما بلغا مخزن الحبوب ، توقف الحصان مقاوماً العنان ، وجعل يتشمم الأرض ، باسطاً عنقه وقالباً شفته العليا ليكشف عن صفائح أسنانه الصفر . ثم زنخر وطوى ساقيه الأماميتين على نحو غير متسق ، فأخذت دونيا تجر العنان ، بيد أن الحيوان لم يأبه لها وشرع يتمدد .

فهتف بانتلاي من الاصطبل :

ـ لا تدعيه ينقلب! ألا ترين أنه مسرج ؟ لِمَ لم ترفعي عنه السرج ، أيتها الحمقاء الصغيرة ؟

فمضى غريغوري الى الحصان ، على مهل ، وهو لايزال يستمع الى ضربات صدره ، وأزاح السرج ، وقال لدونيا مغتصباً ابتسامة :

ـ الوالد لايزال يصيح ؟

فأجابت دونيا بابتسامة مقابلة :

ـ كالعادة!

ـ دوري به فترة أخرى قصيرة ، يا أخت!

ـ جف عرقه تماماً ، إلا أنني سأدور به اذا أردتني أن أفعل ذلك .

ـ دعيه يتقلب ان شاء ذلك ، لا تمنعيه .

ـ مهلاً ، مهلاً يا أخي... هل أنت حزين جداً ؟

فأجاب غريغوري والغصات تخنقه :

ـ وماذا تتوقعين غير ذلك ؟

فرقّ قلبها تعاطفاً ، وطبعت قبلة على كتفه ، وحينما أحست أنها على وشك البكاء استدارت بسرعة ومضت بالحصان الى الزريبة .

سار غريغوري الى حيث كان أبوه يجرف الروث من اسطبل في همة ونشاط . فقال العجوز :

ـ أنا أعد المكان لحصانك .

ـ لماذا لم تخبرني ؟ كنت أنا أنظفه بنفسي .

ـ فكرة بديعة! ولماذا ، هل أصبحت أنا عاجزاً ؟ يا ولدي ، إنني مثل بارودة ذات صوانة ، لا شيء يتلفني! إنني أفكر بالخروج غداً لبذر الذرة . هل ستبقى معنا مدة طويلة ؟

ـ شهراً .

ـ عظيم! هل سنخرج معاً الى الحقول ، إذن ؟ ستجد احتمال الوطأة أيسر حينما تعمل في الحقول...

ـ فكرت بالأمر في نفسي .

فألقى العجوز بالمذراة أرضاً ، ومسح العرق من وجهه بكمه ، وقال في لهجة مخلصة :

ـ لندخل الى الدار ونتناول شيئاً من الطعام . إنك لن تقدر على الخلاص منه ، أعني الحزن . لا حاجة بك للهرب منه ولا فائدة في محاولة إخفاء نفسك عنه . هكذا هي الحال...

أعدت ايلينشنا المائدة وناولت غريغوري منشفة نظيفة . وآنذاك أيضاً تذكر غريغوري : «في الأيام الخوالي ، كانت ناتاليا تقوم بخدمتي» .

ولكي يغطي على مشاعره ، اندفع نحو الطعام اندفاعاً . وحينما جلب

العجوز من القبو كوزاً مليئاً بالفودكا المنزلية مسدود العنق بحزمة من القش ، رفع الى أبيه نظرة امتنان . وقال بانتلاي في لهجة ثابتة :

ـ سنشرب نخب ذكرى الميتة... عسى أن ترقد في كنف الله ورحمته!

وتقارعا بالأقداح . ومن غير أن ينتظر ملأ العجوز قدحين آخرين وقال متنهداً :

ـ اثنان من العائلة رحلا في سنة واحدة... الموت أحب بيتنا .

فطلب غريغوري من أبيه قائلاً :

ـ دعنا لا نتحدث عن ذلك ، يا أبي!

وشرب قدحه الثاني جرعة واحدة ، وجعل يمضغ ببطء قطعة من السمك المجفف ، ولبث ينتظر صعود الشراب الى رأسه ليخمد أفكاره الثقيلة .

قال بانتلاي متفاخراً :

ـ الذرة رائعة هذا العام . وبذارنا أفضل بكثير من بذار الآخرين!

ومع ذلك ، ففي تفاخر أبيه هذا بالذات ، وفي لهجته ، استشعر غريغوري نغمة مفتعلة مغتصبة .

ـ ولكن ، ماذا عن القمح ؟

ـ القمح ؟ قرضه الصقيع بعض الشيء ، ولكنه ليس سيئاً جداً . سيكون حصاده متوسطاً . ثم نأتي الى موضوع الحنطة الصلبة . الآخرون توفقوا بها ، ولكن شاء الحظ ألا نكون قد بذرنا منها شيئاً . إلا أنني غير مبال كثيراً . ففي وسط كل هذا الدمار الذي تراه من حولك ، ماذا بوسعك أن تفعل بالحبوب ؟ أنت لا تستطيع بيعها ، ولا تقدر أن تحفظها في الصوامع . وحينما تعود الجبهة الى هذه الناحية ، سيأخذها الرفاق كلها ، ويخلّفون المكان قاعاً صفصفاً . ولكن لا عليك . لنصرف النظر عن حصاد هذا العام ، لدينا من الحبوب ما يكفي سنتين . الحمد لله ، صوامعنا مليئة الى حد الغطاء ، ولدينا كميات أخرى في مكان آخر... (وغمز العجوز غمزة شطارة)... اسأل داريا كم دفنا ليوم مطير! الحفرة في طولك عمقاً ، وعرضها

يساوي نصف ذراعيك ممدودتين الى الجانبين ، وقد ملأناها الى حافتها!

لقد جعلتنا هذه الحياة اللعينة فقراء ، وكنا في بحبوحة من العيش ذات يوم كما لا يخفى عليك...

وضحك العجوز ضحكة السكير ، ولكنه ما لبث أن مسد لحيته في وقار وقال بلهجة جادة :

ـ لعلك تفكر بامرأة عمك ، فدعني أخبرك بأنني لم أنسها ، وبأنني ساعدتهم وقت حاجتهم . وقبل أن تقول هي شيئاً كنت قد ملأت عربة بالحبوب ، حتى دون أن ألتفت لقياس سعتها ، وأخذتها إليها . وكم بعث ذلك السرور في ناتالياك الراحلة ، حتى أنها بكت حينما علمت بالأمر... أتود أن نفرغ قدحاً ثالثاً ، يا بني ؟ أنت المسرة الوحيدة التي بقيت لي في هذه الحياة .

فوافق غريغوري دافعاً قدحه عبر المائدة :

ـ حسن ، أفرغه!

وفي تلك اللحظة قدم ميشاتكا في خطى حيية ، متخذاً طريقه منحرفاً نحو المائدة . وصعد الى ركبة أبيه ، ووضع ذراعه اليسرى في اضطراب حول عنق غريغوري وطبع على شفتيه قبلة حارة .

فسأله غريغوري وقد هاجت مشاعره بعنف :

ـ ولأي شيء هذه القبلة ، يا ولدي ؟

ونظر في عيني الطفل المغرورقتين بالدموع ، وحاول أن يبعد أنفاسه الفائحة بالفودكا عن وجه ولده .

فأجاب ميشاتكا بصوت واطئ :

ـ حينما كانت مامي نائمة في غرفة الضيوف... حينما كانت لاتزال حية ، نادت عليّ وقالت :

ـ حينما يعود أبوك ، قبله عني واطلب منه أن يشفق عليكما . ـ وقالت شيئاً آخر أيضاً ، لكنني نسيت...

فوضع غريغوري قدحه على المائدة ، وأشاح بوجهه صوب النافذة . وخيم على الغرفة صمت مديد ثقيل .

ثم تساءل بانتلاي في نبرة خفيضة :

ـ هل سنفرغ قدحينا ؟

ـ لا أرغب في المزيد .

وأنزل ولده من على ركبته ، ونهض وأسرع متجهاً الى السقيفة . فهتفت ايلينشنا وهي تمرق الى الموقد :

ـ انتظر لحظة يا ولدي . ماذا عن اللحم الذي أعددته لك ؟ لدينا دجاج مسلوق وفطائر حلوة!

إلا أن غريغوري كان ، آنئذ ، قد صفق الباب وراءه .

ظل يروح ويجيء ، بلا هدف ، بين الزريبة والاسطبل . وحينما وقع بصره على حصانه ، قال في نفسه :

ـ يجب أن آخذه للاستحمام .

ثم مضى الى ما تحت أفاريز المأوى . فرأى ، بجوار الحاصدة المعدة للحش ، شظايا ونشارة صنوبر ولوحاً معوجاً على الأرض . فاستنتج في ذهنه :

ـ والدي هو الذي صنع تابوت ناتاليا . ـ وأسرع عائداً الى درجات عتبة المنزل .

استعد بانتلاي بسرعة ، استجابة لطلب ابنه ، وشد الحصانين الى الحاصدة ، وملأ برميلاً صغيراً بالماء ووضعه على دكة الماكنة . وفي تلك الليلة خرج وغريغوري الى الحقول .

١٨

كان غريغوري يعاني العذاب ليس فقط لأنه أحب ناتاليا ، بطريقته الخاصة ، وغدا معتاداً عليها خلال السنوات الست التي عاشاها معاً ، بل

ولأنه ، علاوة على هذا وذاك ، كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن وفاتها... ولو كانت قد نفذت وعيدها بأخذ الطفلين والعيش مع أمها ، فماتت هناك ، كارهة زوجها الخائن ، دون أن تقبل معه صلحاً ، لما كان غريغوري يحس بوطأة شعوره بالضياع على هذا النحو العنيف ، ولما عانى ، بلا شك ، الفداحة بمثل هذه القساوة . ومع ذلك ، فقد أخبرته أمه بأن ناتاليا قد غفرت له كل شيء ، وأنها ظلت باقية على حبها له ، تلهج بذكره حتى آخر لحظة من حياتها . ولكن هذا العلم زاد في طين عذابه بلة ، وأثقل ضميره بتعنيف مقيم ، وألزمه على أن ينظر الى السنين السابقة ، الى مجموع سلوكه ، على ضوء جديد .

لقد كان ، فيما مضى ، ولحين من الوقت ، لا يستشعر بغير اللامبالاة الباردة ، وأحياناً بالعداء ، تجاه زوجته . غير أن مشاعره تجاهها تغيرت تغيراً كبيراً خلال السنوات الأخيرة . ويعزى ذلك الى الطفلين بصورة رئيسية .

لم يكن غريغوري يشعر دائماً بأحاسيس الأبوة العميقة نحوهما ، كتلك التي نمت لديه خلال الفترة الأخيرة . كان ، حينما يعود الى أهله من الجبهة لفترات قصيرة ، يلاعبهما ويلاطفهما ، ولكن كمن يحس أن ذلك واجب ، ولإدخال البهجة في قلب أمهما . بيد أنه لم يكن قادراً على مشاهدة ناتاليا ومظاهر حبها الأمومي العنيف دون أن تنتابه دهشة شكوك . ما كان بمقدوره أن يدرك كيف يمكن لأيما إنسان أن يحب تلك المخلوقات الصغيرة الصاخبة بنكران الذات ذاك ، ولقد قال لناتاليا أكثر من مرة ، وبنبرة يشوبها الألم والهزء ، حينما كانت لاتزال ترضعهما من ثديها :

ـ ما الذي يجعلك تقفزين من نومك كالمجنونة هكذا ؟ تصبحين على قدميك حتى قبل أن يتسنى لهما البكاء . دعيهما يرفسان ويزعقان قليلاً . لا أحسب أن دموعهما من ذهب!

ولم يكن الطفلان أقل مبالاة منه ، غير أنهما كلما كانا ينموان كان تعلقهما بأبيهما ينمو هو الآخر . فاستثار حبهما استجابة في داخله ، وامتد شعوره نحوهما ليشمل أمهما أيضاً .

وبعد انفصاله عن أكسينيا ، لم يفكر غريغوري بشكل جاد في هجر زوجته ، ولم يخطر في باله قط ، حتى بعد استئناف علاقتهما ، أن تحتل أكسينيا محل أم طفليه . لم يضره أن يعيش معهما في آن واحد ، يحب كلاً منهما بطريقة مغايرة . أما الآن ، وقد فقد زوجته ، فقد أحس بشكل ما أنه غريب عن أكسينيا ، وضج صدره فجأة بغضب أبكم تجاهها لأنها كشفت عن علاقتهما وبالتالي ساقت ناتاليا الى حتفها .

وبينما كان يعمل في الحقول في محاولة لنسيان آلامه ، كانت هذه الآلام لا تنفك تقتحم ذهنه . فأنهك قواه عملاً ، ولم يترجل عن مقعد الحاصدة ساعات متواصلة ، ومع ذلك فقد كان فكره يستعيد ناتاليا . كانت ذاكرته تلح في بعث شتى الحوادث التافهة التي غطّى عليها الدهر مما وقعت خلال حياتهما معاً ، وأحاديثهما معاً . وما كان عليه سوى أن يزيح اللثام عن ذاكرته المريدة لحظة ، حتى تبرز أمامه من جديد ناتاليا ، حية ، مبتسمة . استعاد هيكلها ، مشيتها ، طريقة تصفيفها شعرها ، ابتسامتها ، نبرة صوتها .

في اليوم الثالث ، شرعا يحصدان الشعير . وعند منتصف النهار ، وحينما أوقف بانتلاي الحصانين للراحة ، ترجل غريغوري عن مقعد الحاصدة ووضع المذراة القصيرة على ألواح الأرضية وقال :

ـ أريد أن أذهب الى الدار ساعة أو بعض الساعة ، يا أبي .

ـ لماذا ؟

ـ لأرى الطفلين ، وحسب...

فوافقه الرجل راضياً :

ـ حسن ، هيا بك . وفي الوقت نفسه ، سنبدأ بالتكويم .

حل غريغوري حصانه من الحاصدة في الحال ، وامتطاه ، ومضى عليه بطيئاً فوق الهشيم الأصفر الخشن متجهاً صوب الطريق العام . وكان صوت ناتاليا يرن في أذنيه :

ـ أطلب منه أن يشفق عليكما!

فأغمض عينيه ، وأسقط العنان ، وترك الحصان يتخذ طريقه ، فيما غمرته موجة الذكريات من جديد .

في السماء عميقة الزرقة ، كانت سحابات قليلة مبعثرة عالقة تكاد لا تتحرك ، وفوق الهشيم تتقافز زيفان مشرعة الأجنحة حتى النصف ، وكانت تحط على الكومات أسراباً ، فتطعم الكبار منها ، منقاراً بمنقار ، صغارها التي لم يمض زمن طويل على ظهور الريش عليها ، فكانت ترتفع على أجنحتها في تردد واضطراب . وفوق القطع المحصودة من الأرض ، اختلط نعيق الزيفان في نواح متصل .

حاول حصان غريغوري أن يتخذ طريقه على امتداد جانب الطريق ، منتزعاً من حين لآخر ، كومات من البرسيم يلوكها في أثناء سيره ، وشكيمته السائبة تجلجل . وحدث مرتين أن توقف ، حينما وقع نظره على خيل على مبعدة ، وأطلق صهيلاً ، وآنذاك كان غريغوري ينتبه من شروده ، ويستحث الحيوان على المضي ، وهو يحدق ، بعينين ساهمتين ، في السهب ، والطريق المعفر ، ونقاط الكومات الصفر ، وبقاع الدخن الناضج ، البنية المخضرة .

ما أن بلغ الدار حتى ظهر كريستونيا ذو المظهر النكد . كان مرتدياً ، رغم الحرارة الشديدة ، قمصلة انكليزية من القماش ، وسروالاً عريضاً لركوب الخيل . فدخل متكئاً على عصا كبيرة مشذّبة حديثاً من خشب شجر الدردار ، وحيا غريغوري قائلاً :

ـ عرّجت على داركم لأراك . سمعت بمصيبتك . إذن فقد دفنت ناتاليا ميرونوفنا ؟

فسأله غريغوري ، متظاهراً بأنه لم يسمع سؤاله :

ـ كيف عدت من الجبهة ؟

وراحت عيناه تتفحصان باستمتاع قامة كريستونيا بهيكلها غير المتناسق وانحناءتها الخفيفة .

ـ أرسلوني الى أهلي للاستشفاء بعد إصابتي بجرح . أصابتني رصاصتان في وقت واحد عبر بطني . وهما لاتزالان لصيقتين هناك ، بالقرب من أمعائي كما يبدو ، عليهما اللعنة! وهذا هو سبب استعمالي عصا ، ألا ترى ؟

ـ وأين هرسوك على هذه الشاكلة ؟!

ـ بالقرب من بالاشوف .

ـ هل استوليتم عليها ؟ وكيف حصل لك ما حصل ؟

ـ كنا نشن هجوماً . تم الاستيلاء على بالاشوف ، وعلى بوفورينو كذلك .. أنا كنت هناك .

ـ حسن ، أخبرني في أية كتيبة كنت ، ومن غيرك من رجال قريتنا معك ؟ اجلس . أتريد أن تدخن ؟

كان سرور غريغوري كبيراً لدى رؤيته وجهاً جديداً ، وسنوح الفرصة للتحدث مع شخص من خارج العائلة ولم يكن ذا علاقة بمأساته . وتكشف كريستونيا عن شيء من الفهم وخمن أن غريغوري لم يكن بحاجة لمواساة . فشرع يقص ، عن رضى ولكن ببطء ، كيف تم الاستيلاء على بالاشوف وكيف جرح . وقال بصوته العميق الغليظ ، وهو يدخن سيكارة هائلة الحجم :

ـ كنا نتقدم مشاة خلل عباد الشمس . كان الحمر يطلقون عليها النار من رشاشاتهم ومدفعيتهم ، وبلا شك من بنادقهم أيضاً ، فهذا شيء بديهي . أنا ، من السهل اصطيادي . فأنا وسط الآخرين كالاوزة وسط الفراخ . ومهما انحنيت يستطيع أي امرئ أن يراني . وهكذا وجدني ـ أعني الرصاص ـ بسهولة . ومن هذه الناحية ، فكوني رجلاً ذا طول كامل شغلة مربحة . فلو كنت أقصر قامة لأصابوني في رأسي تماماً! يبدو أنهما لم تكونا رصاصتين في حدة انطلاقهما ، ولكن في اللحظة التي أصابتاني ، بدأ كل ما في بطني يحمحم . وكانتا شديدتي السخونة ، اللعنة عليهما ، وكأنهما قد خرجتا من موقد تواً . وضعت يدي على الموضع ، فاستطعت أن أحس بهما في داخلي

تدوران تحت جلدي مثل زوج من الحويصلات ، إحداهما قريبة من الأخرى . حسن ، شرعت أتحسسهما بأصابعي ، فإذا بهما تغوران . فقلت في نفسي : « هذه نكتة سخيفة! الى الجحيم بأمثال هذه النكات! الأفضل أن أظل بلا حراك وإلا فقد تأتي ثالثة طائشة ، أحدّ من الأخريين ، وتنفذ الى أعمق أعماقي » . حسن ، بقيت متمدداً هناك . وكنت أتحسسهما ـ أعني الرصاصتين ـ من وقت لآخر . كانتا لاتزالان هناك ، واحدة بالقرب من الأخرى . وبدأ الخوف يتملكني ، لأنني تصورت أنهما ستتخذان طريقهما الى بطني ، وآنذاك ما الذي سيحدث ؟ ستتدحرجان فيما بين مصاريني ، وآنذاك كيف سيكون في مقدور الأطباء أن يعثروا عليهما ؟ أضف الى ذلك أنهما لن تكونا مصدر متعة بالنسبة لي! فجسم كل إنسان ، حتى جسمي ، رخو في الداخل . وإذن ، ستظل الرصاصتان تتجولان كما يحلو لهما إلى أن تدخلا أمعائي ، وآنذاك ستنبعث مني أثناء السير جلجلة مثل جرس ساعي البريد . وسيجعل ذلك مني مخلوقاً شاذاً ، وأي شذوذ! فلبثت متمدداً واقتطعت زهرة عباد الشمس وأكلت بذورها ، ومع ذلك لم أستطع التغلب على مخاوفي... كان صفنا قد تقدم . حسن ، وحينما تم الاستيلاء على بالاشوف ، أفلحت في الوصول الى هناك على صورة ما ، ثم وضعوني في مستشفى الميدان في تيشانكا . كان الطبيب هناك كالسنونو وقاحة . ظل يسألني : « هل نستأصل الرصاصتين ؟ » . لكنني فكرت في الأمر من جميع وجوهه وأنا متمدد على السرير... ثم سألته : « يا صاحب السعادة ، هل يمكن لهما أن تتيها في داخلي ؟ » . فقال : « كلا ، لا يمكن لهما » . فقلت في نفسي : « إنني لن أدعهم يستأصلونهما! أعرف تلك اللعبة! سوف يعيدونني الى كتيبتي » . فقلت : « لا ، يا صاحب السعادة ، لا أريد استئصالهما . أفضل أن تبقيا في أحشائي . أريد أن أحملهما الى بلدي لأريهما لزوجتي ، وهما لا تزعجانني قط ، كما أن وزنهما ليس ثقيلاً » . فسبني سباباً كثيراً ومقذعاً ، لكنه سمح لي بالذهاب الى أهلي في إجازة مرضية أمدها أسبوع .

فابتسم غريغوري فيما كان ينصت للحكاية الساذجة ، وتساءل :
ـ في أية كتيبة كنت ؟
ـ الرابعة .
ـ ومن غيرك من رجال القرية معك ؟
ـ عدد كبير : أنيكوشكا ، بسخليبوف ، آكيم كولوفايدين ، سيومكا ميروشينكوف ، تيخون كورباتشيف .
ـ حسن ، وكيف هم القوزاق ؟ يشكون من شيء ؟
ـ يتضايقون من الضباط ، كما يبدو . عيّنوا علينا خنازير قذرين بحيث تستحيل الحياة معهم . ويكادون يكونون جميعاً من الروس . ليس بينهم قوزاقي واحد!

وفي أثناء كلامه سحب كريستونيا كم قمصلته القصير وجعل يتفحص ويمسّد القماش الفاخر لسروال ركوب الخيل الانكليزي ، وكأنه لا يكاد يصدق أنه كان مرتدياً ، فعلاً ، قماشاً جيداً كهذا . وقال متأملاً :
ـ ولكن ، أتدري... لم أستطع العثور على جزمة تناسب قدمي . يبدو أن الناس الذين يعيشون في البلاد الانكليزية ليست لهم أقدام كبيرة كهذه... نحن نبذر ونطعم الحنطة ، بيد أنني أظن أن الحال في انكلترا مثلها في روسيا . لا طعام لديهم غير الدخن . فكيف ، والحالة هذه ، يتسنى أن تكون لهم أقدام كبيرة كقدمي ؟ ألبسوا كل سرية ونعلوها ، وأرسلوا إلينا سكائر معطرة . ومع ذلك ، فالأحوال سيئة .

تساءل غريغوري مهتماً :
ـ ما السيئ في الأمر ؟
ابتسم كريستونيا وقال :
ـ يبدو كل شيء حسناً من الخارج ، أما من الداخل فسيئ . أنت تدري... يريد القوزاق من جديد أن يتركوا القتال . لن نجني شيئاً من هذه الحرب . وهم الآن يقولون بأنهم لن يمضوا الى أبعد من اقليم الخوبر .

وبعد أن ودّع غريغوري كريستونيا ، فكر لحظة ثم عقد عزمه :

ـ سأبقى أسبوعاً وبعده أعود الى الجبهة . لسوف يقتلني البؤس هنا .

لبث في الدار حتى المساء . تذكر أيام طفولته . فصنع لميشاتكا طاحونة هوائية من القصب ، وابتكر مصيدة للسنونو من شعر الخيل ، كما صنع لابنته عربة صغيرة دقيقة ذات عجلات تدور وعريش صبغه بألوان غريبة ، حتى أنه جرب أن يصنع دمية من خرق ، لكنه لم يفلح ، فساعدته دونيا على إتمامها .

في البداية كان الطفلان غير واثقين من نواياه ، إذ لم يكن غريغوري قد أبدى لهما اهتماماً كبيراً قط في الماضي . لكنهما بعدئذ ، لم يعودا يتركانه لحظة . وعند مغرب ذلك اليوم ، وبينا كان غريغوري يستعد للعودة الى الحقول ، قال ميشاتكا والدموع في عينيه :

ـ أنت دائماً هكذا! لا تكاد تكون معنا حتى تتركنا من جديد... خذ مصيدتك والطاحونة وعربة القعقعة معك! خذها جميعاً ، أنا لا أريدها .

فاحتوى غريغوري يدي ولده الصغيرتين في كفيه الكبيرتين وقال :

ـ إذا كان هذا شعورك ، فلنتصالح على هذه الصورة . أنت رجل ، ولهذا سوف تخرج معي الى الحقول . سنقوم بحش الشعير وتكديسه . تجلس مع جدك على الحاصدة ، وتسوق الخيل . ثم هناك الجنادب التي ستعثر عليها في الحشيش ، وما أكثرها! والطيور التي سترى في الأخاديد! أما بوليوشكا ، فإنها ستبقى في البيت مع جدتها . لن يضيرها ذلك . فهي بنت ، وعملها كنس الأرض وجلب الماء الى الجدة من الدون في سطل صغير . فللنساء مختلف صنوف الأعمال يؤدينها في البيت . والآن ، هل ستأتي معي ؟

فهتف ميشاتكا في لهفة :

ـ أوه ، نعم!

وتألقت عيناه بخيال الفكرة . إلا أن ايلينشنا حاولت أن تعترض :

ـ أين ذاهب به ؟ لا أدري ما الذي يجول في فكرك! أين تراه سينام ؟

ومن سيعتني به هناك ؟ رحماك يا رب ، فقد يقترب من الخيل فترفسه ، أو تلدغه أفعى .

والتفتت ناحية حفيدها :

ـ لا تذهب مع أبيك ، يا حبيبي . ابق في الدار!

غير أن عيني ميشاتكا الضيقتين ومضتا فجأة بوميض ينذر بالشؤم (مثل جده تماماً حين يفقد زمام نفسه غضباً) وضم قبضتيه الصغيرتين ، وصاح في نغمة عالية النبرة مشوبة بالدموع :

ـ اسكتي ، يا جدتي! سوف أذهب ، مهما حدث! لا تستمع إليها ، أبي!

فرفع غريغوري ولده بذراعيه ضاحكاً ، وقال مطمئناً ايلينشنا :

ـ سينام معي ، وسأجعل الحصان يسير متمهلاً طيلة الطريق . لن أدعه يسقط . أعدي ملابسه ، يا أماه ، ولا تخشي شيئاً . سأحرص على راحته وأمنه . سأعود به سليماً معافى غداً في المساء .

وهكذا انعقدت أواصر الصداقة بين غريغوري وميشاتكا .

خلال الأسبوعين اللذين قضاهما غريغوري في تتارسكي ، لم يقع بصره على أكسينيا سوى ثلاث مرات ، وفي تلكم المرات لم تزد رؤيته لها على لمحات قصار . وقد تجنبت هي ، مدفوعة بحسها وحذقها الأصيلين ، أي لقاء معه ، مدركة بأن من الخير لها ألا تكون على مرأى منه . فكأية امرأة أخرى ، فطنت الى حالته النفسية ، وأدركت أن أي تعبير عن عواطفها تجاهه ، لا يتسم بالحذر وملاءمة الظرف ، قد يضعه ضدها ويلقي سحابة فوق علاقتهما . فلبثت تنتظر أن يكلمها هو . ثم حل الوقت المناسب في اليوم السابق لرحيله الى الجبهة . كان يقود عربة محملة بالحبوب في طريق عودته من الحقول ، وقد تأخر النهار ، وفي غبشة الشفق التقى بأكسينيا على مقربة من الزقاق القريب من السهب . فانتحت له ، وهي لما تزل على مبعدة منه ، وابتسمت ابتسامة واهنة . فرد على انحناءتها ، لكنه لم يستطع أن يمر بها

من غير ما كلام . فسألها ، وهو يجر العنان جرة تكاد لا ترى ، فتباطأت الخيل المسرعة :

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير ، شكراً يا غريغوري بانتلاييفتش .

ـ كيف حصل أننا لم نرك مطلقاً ؟

ـ كنت في الحقول . لدي الكثير مما أعمله وحدي .

كان ميشاتكا جالساً مع غريغوري في العربة . ولعل غريغوري ، بسبب ذلك ، لم يوقف الحصانين ولم يتوقف هو لتبادل المزيد من الحديث . فمضى بضع خطوات ، فإذا به يسمعها تناديه ، فاستدار إليها . كانت أكسينيا واقفة ازاء السياج . فسألته ، وهي تقطع أوراق وردة أقحوان في حركة منفعلة :

ـ هل ستبقى في القرية مدة طويلة ؟

ـ راحل بعد أيام قليلة .

وترددت ثانية ، وكان جلياً أنها أرادت أن تقول شيئاً آخر . بيد أنها ، ولسبب ما ، لم تفعل ، بل لوّحت بيدها وأسرعت تستأنف سيرها نحو الأرض المشاعة دون أن تلتفت الى الخلف أبداً .

١٩

كانت السماء مدلهمة بالغيوم ، وثمة مطر خفيف يرذ وكأنه ينزل خلل غربال . ومن الحشة والنجيل وأجمات الشوك البري المتباعدة في السهب ، كان ينبعث ألق متلامع .

مضى بروخور على صهوة حصانه صامتاً ، وقد أحنقه أيما حنق رحيله المبكر عن القرية ، فقطع المسافة كلها الى الكتيبة يكاد لا يتحدث الى غريغوري . وقد حدث بعد أن اجتازا إحدى القرى أن التقيا بثلاثة قوزاق راكبين . كانوا يسيرون في صف واحد ، يستحثون خيلهم بأعقابهم ،

ويتحدثون بحماس فيما بينهم . فشخّص أحدهم غريغوري ، وكان يرتدي سترة فلاحية رمادية من نسيج بيتي ، وقال لرفيقيه بصوت عال :

ـ هذا ميليخوف ، يا أخوي!

وحينما حاذوا غريغوري أوقف القوزاقي كميته طويل السيقان ، وهتف قائلاً :

ـ تحياتنا ، يا غريغوري بانتلاييفتش!

فرد غريغوري :

ـ تحياتي!

وهو يحاول عبثاً أن يتذكر أين التقى بهذا القوزاقي ذي اللحية الحمراء والوجه العبوس . وكان من الواضح أنه لم يرقّ الى رتبة ضابط إلا مؤخراً ، ولكي لا يحسب قوزاقياً نفراً فإنه كان قد خاط شرائط الكتف على سترته الفلاحية .

وتوجه بالسؤال الى غريغوري وهو يقترب منه عن كثب ، ماداً ذراعه وزافراً الفودكا في وجهه :

ـ ألم تعرفني ؟

وشعّ في وجه الضابط الغر وميض من الرضا عن النفس ، وتألقت عيناه الزرقاوان الصغيرتان والتوت شفتاه بابتسامة من تحت شاربه الأحمر . فأحس غريغوري بالاستمتاع لمرأى هذا الضابط ذي السترة الفلاحية . ومن غير أن يحاول كتمان ابتسامته أجاب :

ـ لا ، لم أعرفك . لابد أنني التقيت بك حينما كنت لاتزال نفراً . هل جعلوك ضابطاً مؤخراً ؟

ـ أصبت الهدف! لم يمض سوى أسبوع منذ أن رقوني الى رتبتي الحالية . لكننا تقابلنا في إحدى اجتماعات هيئة أركان كودينوف ، في وقت ما حوالي «عيد السيدة» كما أظن . أنقذتني ، حينئذ ، من ورطة صغيرة ، هل تذكر ؟

ثم صاح بالقوزاقيين الآخرين اللذين كانا قد توقفا على مبعدة يسيرة :
ـ هي ، تريفون! امضيا على مهل ، وسوف ألحق بكما!
وبعد لأي تذكر غريغوري لقاءه السابق بالضابط الأحمر الشعر هذا وتعليق كودينوف عليه :
ـ لا يخطئ قط حينما يطلق النار . يستطيع أن يصيب الأرانب وهي لائذة بالفرار ببندقيته . وهو شيطان أثناء القتال ، كشاف ماهر ، لكنه طفل في ذكائه .
وكان الرجل آمراً لسرية خلال الانتفاضة ، وقد ارتكب خطأ ما ، فأراد كودينوف أن يعالج أمره بصرامة ، بيد أن غريغوري كان قد تدخل في الأمر فصفح عنه وأبقى على رتبته آمر سرية .
سأله غريغوري :
ـ قادم من الجبهة ؟
ـ نعم . أنا قادم من نوفوخوبرسك في إجازة . انحرفت مائة فرست عن طريقي الأصلي لزيارة أقربائي . عندي ذاكرة قوية ، يا غريغوري بانتلاييفتش! لا تحرمني من متعة استضافتك . لدي في حقيبتي قنينتان من شراب نقي مائة في المائة . لنفتحهما حالاً ، ما رأيك ؟
فرفض غريغوري رفضاً باتاً ، غير أنه قبل بالقنينة التي قدمها الرجل إليه هدية . وقال الضابط متفاخراً :
ـ آه ، لو كنت هناك! قوزاق وضباط حُمّلوا عن آخرهم بالسلع! أنا كنت في بالاشوف أيضاً . استولينا على المكان ثم اتجهنا مباشرة نحو المحطة ، حيث وجدنا جميع الخطوط مزدحمة بالشاحنات . شاحنة مليئة بالسكر ، ثانية مليئة بالبزات ، وثالثة بشتى أنواع الحاجيات . وبعد ذلك ، وحينما ذهبنا لترهيب اليهود ، أوه ، كنت ستضحك ملء شدقيك! في نصف سريتي ، استطاع أحد قناصة اليهود الحاذقين أن يجمع ثماني عشر ساعة ، عشر منها ذهبية . علقها جميعاً على صدره ، كما لو كان أغنى تاجر على الأرض . ثم

هناك الخواتم والأساور التي حصل عليها... ما كان بمقدورك أن تحصيها! لبس خاتمين أو ثلاثة في كل إصبع...

فأشار غريغوري الى خرجيّ الرجل المنتفخين :

ـ وما هذا الذي لديك ؟

ـ ماذا... كل صنوف الأشياء طبعاً .

ـ إذن فقد شاركت أنت في النهب كذلك ؟

ـ لا حاجة بك لإطلاق هذه الصفة على العملية... نحن لم ننهبها ، بل فزنا بها شرعياً . قال آمر الكتيبة لنا : «استولوا على البلدة فتكون حلالاً لكم مدة يومين» . فهل أنا أسوأ من الآخرين ؟ أنا أخذت أشياء محللة ، كل ما صادفني . أما الآخرون فقد كانوا أسوأ بكثير .

فحدج غريغوري الضابط باحتقار ، وقال :

ـ مقاتلون رائعون! إن أمثالك يحومون تحت الجسور في الطرق الخارجية ، لا يحاربون! لقد قلبتم الحرب الى غارة نهب وسلب . آه ، يا حثالة! لقد اتخذتم تجارة جديدة لكم! ولكن ألا تظن بأنك ، وآمرك كذلك ، ستجلدان في يوم من الأيام حيين بسبب ذلك ؟

ـ لأي سبب ؟

ـ لكل ذلك .

ـ ولكن من الذي سيقوم بالجلد ؟

ـ ضابط أعلى رتبة .

فابتسم الرجل ابتسامة لاذعة وقال :

ـ لكنهم جميعاً على شاكلة واحدة! نحن لم نأخذ أشياء إلا في خرجنا وعرباتنا ، أما هم فإنهم يرسلون قطراً من الأحمال الى أهليهم .

ـ وكيف ، هل رأيتهم أنت ؟

ـ هه ، هل رأيتهم أنا! أنا نفسي رافقت قطار سلع من هذا النوع الى ياريزنسكايا . كانت هناك عربة مشحونة حتى حافتها بصحون وأقداح

وملاعق فضية . وقد زعق بعض الضباط في وجوهنا قائلين : «ما هذا الذي عندكم ؟ هيا ، أكشفوه! » لكنني حينما قلت بأنها المتاع الشخصي للجنرال فلان ابن فلان انصرفوا صفر الأيدي .

فسأله غريغوري ، مضيقاً عينيه ومنقراً بإصبعه على العنان نقراً عصبياً :

ـ ومن هو هذا الجنرال ؟

فابتسم الرجل ابتسامة ماكرة وأجاب :

ـ لقد نسيت اسمه . ما كان اسمه ؟ رباه أعنّي على تذكره! لا ، لقد امحى عن عقلي . لا أستطيع تذكره! ولكن لا معنى لشتائمك يا غريغوري بانتلايتش . يشهد الله أن الجميع يفعلون الشيء نفسه ، وإذا قورنت أنا بهم فما أنا إلا حمل بين ذئاب . لم آخذ إلا القليل ، أما الآخرون فقد جردوا الناس من ملابسهم في وسط الشارع واغتصبوا الفتيات اليهوديات حيثما صادفوهن . أنا لم أتماد الى هذا الحد . فعندي زوجتي الشرعية ، وأية زوجة! إنها جواد فحل ، وليست امرأة! لا ، أبداً ، لا مبرر لغضبك عليّ . مهلاً ، انتظر . أين ذاهب ؟

لكن غريغوري هز رأسه ببرود مودعاً الرجل وأطلق العنان لحصانه خبباً وهو يقول لبروخور :

ـ هيا امش!

وفي الطريق صادفا عدداً متزايداً من القوزاق الذاهبين في اجازة ، أفراداً وأزواجاً وجماعات . كما مرا بعدد كبير من العربات يجرها زوج من الخيل ، وقد غطيت أحمالها بالقماش المشمع أو البطانيات المربوطة من أسفل باعتناء . وكان يخب وراءها ، واقفين على ركائب سروجهم ، قوزاق يرتدون قمصلات صيفية جديدة بسراويل خاكية مما كان يرتديها جنود الجيش الأحمر . وكانت وجوههم المغبرة الملفوحة ناضحة بالحيوية والبهجة . ولكن ما ان كانت عيونهم تقع على غريغوري حتى كانوا يغذون السير بأسرع ما يستطيعون ، صامتين ورافعين أيديهم الى رفاف قبعاتهم وكأن بأمر ، ولا

يستأنفون حديثهم إلا بعد أن يكونوا قد ابتعدوا عن غريغوري بمسافة مناسبة .

قال بروخور مازحاً حينما رأى عن بعد خيالة يرافقون عربة محملة بالأسلاب :

ـ ها قد جاء التجار!

بيد أنه ما كان كل الرجال الذين صادفاهم ذاهبين في إجازة محملين بالأسلاب . إذ حدث حينما توقفا ليوردا الحصانين من بئر في إحدى القرى أن سمع غريغوري غناء منبعثاً من الفناء المجاور . فاستنتج من الأصوات الفتية الصافية أن المغنين كانوا جماعة من القوزاق الشباب . فقال بروخور وهو يسحب سطلاً من الماء :

ـ أحسب أنهم يقيمون حفلة وداع لجندي .

وكانت قنينة الشراب ، التي قد أتيا عليها في المساء السابق ، قد وضعته في حالة تستحثه على الاستمرار في السكر ، ولهذا أسرع يورد الحصانين ويقترح متضاحكاً :

ـ ما رأيك ، يا بانتلايتش ؟ هل نمضي ونشاركهم ؟ لعلنا نحصل على قنينة أخرى للطريق أيضاً . الكوخ سقفه من قصب ، إلا أنك تستطيع أن تستنتج بأنهم أغنياء .

فوافق غريغوري على الذهاب ليشاهد كيفية توديع القوزاقي الشاب . فربطا الحصانين الى السياج ومضيا الى داخل الفناء . كان ثمة أربعة خيول واقفة ازاء معالف دائرية تحت أفاريز مأوى . وخرج من مخزن الحبوب صبي يحمل مكيالاً حديدياً طافحاً بالشوفان ، فألقى على غريغوري نظرة ثم مضى الى الخيل الصاهلة . وتناهت أغنية كانت تطوف حول ركن الكوخ . وكان صوت صادح مرتفع متماوج ينشد :

على ذلك الطريق لم تطأ قدم .
لم تطأ قدم...

فيردد المقطع الأخير صوت جهير غليظ ، ويأتلف مع الصوت الصادح ، ثم تشترك أصوات أخرى في انسجام ، فتنساب الأغنية مهيبة ، ترن ، حزينة . ولم يشأ غريغوري أن يقاطع المنشدين ، فلمس كم بروخور وهمس قائلاً :

ـ انتظر لحظة ، لا تجعلهم يرونك . دعهم يكملون .

فقال بروخور :

ـ ليست هذه حفلة وداع . إن قوزاق يلانسكايا هم الذين يغنون على هذه الصورة دائماً .

وأضاف معجباً :

ـ بيد أنهم فعلاً مغنون رائعون!

وبصق محنقاً . إذ بدا أن آماله في الحصول على الشراب لن تتحقق . ومضى المغني الصادح يروي ، حتى النهاية ، قصة القوزاقي الذي سها في الحرب :

على ذلك الطريق لم تطأ قدم ،
ولم تقع عين على أثر لسنابك خيل ،
لكن ، حدث مرة أن مرت على ذلك الطريق
كتيبة قوزاقية على خيولها ،
وكان يجري خلفها جواد جموح أصيل ،
وقد تدلى من جانبه سرج فاخر ،
وكان عنانه الحريري ، ولجامه ، وكل شيء عليه سائباً .
ووراءه كان قوزاقي شاب يركض ،
وبينما هو يركض ، كان يصرخ :
« مهلاً ، أواه مهلاً ، يا جوادي الوفي ،
لا تتركني ، لا تتركني في محنتي ،
وإلا فسوف أقع في يد التشيتشينيين »* .

---

* التشيتشينيون : قوم يسكنون السفوح الشمالية لجبال القفقاس . المترجمون

فلبث غريغوري واقفاً وهو متكئ على أساس الكوخ الأبيض ، وقد أطربه الغناء أيما طرب ، فلم يعد يسمع صهيل الخيل ولا صرير العربات المارة في الشارع .

وحينما انتهت الأغنية ، تنحنح أحد المغنين وقال :

ـ هذا هو الغناء الحقيقي . أحسن ما غنينا . وعليكن ، أيتها النسوة ، أن تزدن في العطاء للجنود ليبتلعوا به في الطريق . لقد أكلنا كفايتنا . والشكر للمسيح ، لكننا لا نملك قضمة أو مصة لنأخذها معنا أثناء الطريق...

فأيقظ غريغوري نفسه من حلم اليقظة الذي اكتنفه ، وسار حول الركن . كان ثمة أربعة قوزاق شباب يجلسون على العتبة السفلى تحت الباب ، وكانت النسوة والأطفال الذين هرعوا من الأكواخ المجاورة قد احتشدوا حولهم . وكان جمهور المتفرجات يبكين ويتمخطن ويمسحن دموعهن بأطراف عصابات رؤوسهن . وبينما كان غريغوري يقترب من الدرجات كانت امرأة عجوز ، مديدة القامة سوداء العينين لايزال وجهها المغضن يحمل آثار جمال صارم شبيه بجمال الايقونات ، تقول بلهجة متعثرة :

ـ ما أجمل غناءكم ، وما أحزنه ، يا أعزائي! ولابد أن لكل منكم أماً ، ولابد أنها حينما تفكر بولدها وكيف أنه يذوي في هذه الحرب تحرق عينيها بكاءً عليه .

وحينما حيّا غريغوري الجمع ، قالت فجأة وبلهجة غضبى ، وبياضا عينيها الأصفران يومضان نحوه :

ـ وأنت ، يا صاحب السعادة ، أنت تسوق هذه الورود الى حتفها ، أليس كذلك ؟ أنت تسوقهم لكي يُقتلوا في الحرب!

فأجاب غريغوري منقبض النفس :

ـ نحن نُقتل أيضاً ، أيتها العجوز .

أما القوزاق فقد فوجئوا بوصول ضابط غريب . فوثبوا بسرعة واقفين ، وهم ينحون جانباً الصحون وبقايا الطعام التي كانت موضوعة على الدرجات ،

ويسوون قمصلاتهم وسيور بنادقهم وأحزمتهم ، إذ كانوا يغنون حتى دون أن ينزلوا البنادق من على أكتافهم . ولم يكن يبدو على أكبرهم سناً أنه قد تجاوز الخامسة والعشرين .

سأل غريغوري وهو يجيل بصره في وجوه الرجال الغضة الفتية :

ـ من أين أنتم ؟

فأجاب فتى أفطس الأنف ذو عينين باسمتين من غير ما تفكير :

ـ من كتيبة...

ـ أعني ، أين ولدتم ، ما هي منطقتكم الأصلية ؟ أنتم لستم من هذه الديار ، أليس كذلك ؟

ـ نحن من يلانسكايا . نحن ذاهبون في إجازة ، يا صاحب السعادة .

فعرف غريغوري المغني المنفرد من صوته ، فسأله مبتسماً :

ـ أنت كنت المغني المنفرد ، صحيح ؟

ـ نعم .

ـ الواقع ، ان لك صوتاً بديعاً . ولكن ، ما كان سبب غنائكم ؟ طرباً ؟ لا يبدو عليكم الثمل!

فألقى فتى منهم ، مديد القامة ، أشقر ، ذو ناصية شاردة مغبرة ، نظرة من طرف عينه على العجائز ، وقد كست خديه الأسمرين حمرة قانية ، وأجاب متردداً وعلى شفتيه ابتسامة محرجة :

ـ أي طرب تظنه لدينا ؟ إن الحاجة هي التي تجعلنا نغني . الحياة ليست على ما يرام في هذه الأصقاع ، فهم لا يطعمونك جيداً... قضمة من الخبز ، هذا كل شيء . ولهذا خطرت على بالنا فكرة الغناء . وحالما نبدأ ، تهرع جميع النسوة للاستماع إلينا . فننشد أغنية من الأغاني الحزينة ، وسرعان ما ترق قلوبهن فيجلبن لنا قطعة من الزبدة أو قارورة لبن ، أو شيئا آخر مما يصلح للأكل...

وقال المغني المنفرد وهو يغمز لرفاقه الآخرين وتضيق عيناه الساخرتان ابتساماً : ـ نحن أشبه ما نكون بالقسس ، أيها النقيب!

وأخرج أحد الجنود ورقة دهينة من جيب الصدر ، ومدها الى غريغوري قائلاً :
ـ هذه هي ورقة إجازتنا .
ـ وما الذي أريده بها ؟
ـ لعلك تظن أننا هاربون .
فقال غريغوري ، مغتاظاً بعض الشيء :
ـ تستطيعون أن تظهروها حينما تصادفكم إحدى المفارز التأديبية .
لكنه ، مع ذلك ، توجه إليهم ناصحاً قبل أن يتركهم :
ـ سافروا ليلاً ، وانزووا في مكمن ما في النهار . إن ورقتكم هذه غير ذات نفع . حذار من الوقوع في مشكلة بسببها . هل هي مختومة ؟
ـ ليس لدى سريتنا ختم .
ـ اذن ، خذوا بنصيحتي اذا أردتم ألا يسومكم الكالميكيون عذاب الجلد بالسفاد .
وعلى مبعدة ثلاثة فراسخ تقريباً خارج القرية ، وعلى مسافة غير بعيدة من غابة تمتد حتى حافة الطريق ، شاهد غريغوري من جديد فارسين قادمين باتجاهه . فوقفا ولبثا يحدقان فيه لحظة ، ثم استدارا بحدة صوب الغابة .
فعلل بروخور ذلك بقوله :
ـ ليست لديهما أية أوراق . هل رأيت كيف استدارا الى داخل الأشجار ؟ لماذا يسافر هذان الشيطانان في وضح النهار ؟!
وفي أثناء ذلك النهار ، استدار العديد من الرجال وهرعوا يختبئون حينما وقع بصرهم على غريغوري وبروخور . وحدث أن كان قوزاقي كهل يغذ السير على قدميه الى قريته على نحو متلصص ، وحينما رأى غريغوري قذف بنفسه داخل عباد الشمس وتقرفص ، مثل أرنب ، على حافة الحقل . وبينما كانا يمران به ، قام بروخور على ركابه وهتف :
ـ أنت ، أيها المواطن ، ما هكذا يختبئ المرء . إنك تخفي رأسك ولكنك تظهر دبرك .

وصاح مصطنعاً الغضب :

ـ حسن ، هيا اخرج! دعنا نرى أوراقك!

قفز القوزاقي وانطلق هارباً خلل أشجار عباد الشمس وقد أحنى ظهره احناءة قوية فشرع بروخور يضحك ضحكاً صاخباً وكان على وشك أن يهمز حصانه لملاحقة الرجل ، لكن غريغوري أوقفه قائلاً :

ـ لا تتعابث! دعه يذهب الى الشيطان! سيظل يركض ويركض الى أن تنقطع أنفاسه وقد يموت من الفزع...

ـ ما هذا القول! إنك لن تستطيع اللحاق بهذا الرجل حتى ولو طاردته بكلاب البورزوي! لن يتوقف عن الخبب إلا بعد أن يقطع عشرة فراسخ محترمة . أرأيت كيف انطلق خلل عباد الشمس! بودي أن أعرف من أين يأتي المرء بكل هذه الطاقة في مثل هذه الأوقات .

وعبّر عن جملة آراء في الجنود الفارين عموماً ، ليست في صالحهم البتة ، ثم قال :

ـ انظر كيف يسافرون جماعات : مثل حبات تتساقط من زكيبة . حاذر ، يا بانتلايتش ، وإلا فلن يمضي وقت طويل حتى تخلو الجبهة إلا من كلينا ، أنا وأنت فقط!

وكلما اقتربا من الجبهة ، رأى غريغوري علامات أكثر لتدهور معنويات « جيش الدون » . فلقد حل انهيار المعنويات في اللحظة التي استطاع فيها الجيش ، وقد عززه المتمردون ، أن يحقق أعظم انتصاراته في الجبهة الشمالية . فأمست قواته عاجزة تمام العجز عن شن هجوم محكم لضرب مقاومة العدو ، بل انها لم تستطع حتى مجابهة أي هجوم قوي عليها .

وفي مراكز المناطق وقراها ، حيث عسكرت القوات الاحتياطية القريبة ، كان الضباط يواصلون حفلات السكر بلا انقطاع . وكانت قوافل البضاعة من جميع الأصناف تئن تحت وطأة أحمالها من الأسلاب التي لم ترسل بعد الى المؤخرة . ولم تكن أيما وحدة تضم أكثر من ستين بالمائة

من قوتها الكاملة . كان القوزاق يمضون في إجازات دون الحصول على إذن بها ، ولم تكن مفارز الكالميكيين التأديبية ، التي كانت تجوب أرجاء السهب ، من القوة بحيث تستطيع إيقاف طوفان الفارين . وفي القرى المحتلة في إقليم ساراتوف ، كان القوزاق يتصرفون وكأنهم فاتحون في أرض أجنبية . كانوا يسلبون السكان ويهتكون أعراض النساء ويدمرون مخازن الحبوب وينحرون الماشية . وكان الفتيان الأغرار والرجال الذين تجاوزوا الخمسين يجندون في الجيش بغية تعزيزه . وكان الحديث يدور صريحاً في أوساط السرايا المتقدمة عن عدم الرغبة في القتال ، بينما كان القوزاق في القوات الزاحفة باتجاه فورونيج يرفضون ، علانية ، إطاعة أوامر الضباط . وسرت الشائعات بأن حوادث اغتيال الضباط في المواقع الأمامية آخذة في الازدياد .

كان الغسق قد حل حينما توقف غريغوري في قرية صغيرة لا تبعد كثيراً عن بالاشوف لقضاء الليلة فيها . وكانت سرية الاحتياط الرابعة ، المكونة من قوزاق سحبوا من بين المجندين الأوائل ، وسرية هندسة تابعة لكتيبة تاكانروك ، قد احتلتا جميع أماكن السكن في القرية فقضى غريغوري وقتاً طويلاً يبحث عن مأوى له . وكان من الممكن أن يمضيا ليلتهما في الحقول كما اعتادا أن يفعلا ، لكن المطر بدأ يهطل وكان بروخور يرتجف ، إذ عاودته إحدى نوبات الملاريا ، ولهذا كان عليهما أن يقضيا الليلة تحت غطاء ما . في مدخل القرية ، كانت هناك سيارة مصفحة عطلتها قذيفة عن العمل ، وكان موقعها الى جوار بيت واسع تحيط به أشجار حور . وحينما مر بها غريغوري استطاع أن يقرأ على جانبها الأخضر كتابة لاتزال واضحة : «الموت للحثالة البيضاء!» وتحتها لقب الكاتب «الغضب» . كانت الخيل تزنخر عند المرابط في الفناء ، وأصوات بشرية تسمع . وفي الحديقة الكائنة خلف البيت ، كانت نار معسكر تضطرم والدخان ينساب فوق تيجان الأشجار الخضر . وكانت أجسام قوزاقية تتحرك حول النار ، وقد أضاءها الوهج . وعلقت في الهواء رائحة القش المحترق وشعر خنازير محروق .

ترجل غريغوري ومضى داخلاً الى البيت . وسأل فيما ولج الى غرفة واطئة السقف مليئة بالناس :

ـ من السيد هنا ؟

فاستدار فلاح مكتنز البدن صوب غريغوري وأجاب دون أن يغير وضعيته :

ـ أنا . ماذا تريد ؟

ـ نستطيع أن نقضي الليلة هنا ؟ نحن اثنان .

فنبح قوزاقي كهل ، كان مضطجعاً على مصطبة ، في لهجة حانقة :

ـ نحن محشورون ، مثل الحب في البطيخة!

فقال غريغوري في إصرار :

ـ سنجد موضعاً لنا بشكل أو آخر . نحن لا نستطيع قضاء الليلة تحت المطر ، أليس كذلك ؟ ثم إن مراسلي مريض .

فحمحم القوزاقي المضطجع على المصطبة وأنزل قدميه على الأرض ، وقال في لهجة مغايرة وهو يحدق في غريغوري :

ـ يا صاحب السعادة ، نحن أربعة عشر في غرفتين ، ناهيك عن العائلة وقد أخذ الغرفة الأخرى ضابط بريطاني ، ومراسلاه ، وبصحبتهم كذلك أحد ضباطنا .

وقال قوزاقي ثان بلهجة ودود :

ـ لعلك تستطيع تدبير حالك معهم بشكل ما .

وكان هذا قوزاقياً رشت لحيته بنثار من الشيب ، ضابط صف كما بدا ذلك من شرائط كتفه .

ـ كلا . إنني أفضل البقاء هنا . لن يلزمني موضع فسيح . فسوف أستلقي على الأرض . لن أزحمكم .

وخلع غريغوري معطفه الثقيل ، ومسد شعره براحة كفه وجلس الى المنضدة . أما بروخور ، فإنه خرج ليعتني بالحصانين . ولابد أن أصواتهم

سمعت في الغرفة المجاورة ، إذ أن الباب فتح بعد خمس دقائق وأطل منه ملازم أنيق صغير . وتوجه بالسؤال الى غريغوري :

ـ أتراك تبحث عن موضع لتنام فيه ؟

ثم ابتسم حين لاحظ بنظرة خاطفة شارات كتف غريغوري ، وقال متأدباً :

ـ هلا شاركتنا نصفنا ، يا آمر السرية . أنا والملازم كامبل ، وهو من الجيش البريطاني ، ندعوك . ستجد المكان أكثر راحة معنا . اسمي شتشيكلوف . واسمك ؟

وصافح غريغوري وسأله :

ـ هل جئت من الجبهة ؟ آه ، قد كنت في إجازة! تفضل ، تفضل سنكون مسرورين بصحبتك . لابد أنك جائع ، وباستطاعتنا أن نعطيك ما تطعم به .

وعلى قمصلة الملازم الخضراء الناصعة تدلى صليب القديس غيورغي ، وكان فرق شعره دقيقاً لا يقبل النقد ، وجزمته نظيفة لامعة ، وكانت وجنتاه الحليقتان السمراوان ، وقامته المتناسقة ، بل كل ما فيه ، يفوح بالنظافة وماء الكلونيا .

تنحى جانباً ليفسح المجال لغريغوري كي يمر ، وقال :

ـ الباب الى الشمال . حاذر ، فثمة صندوق في الطريق .

نهض ليستقبل غريغوري ملازم شاب ذو قامة متينة وعينين رماديتين متقاربتين وشارب أسود منفوش يكاد يخفي الندبة العميقة على شفته العليا . فقدم الملازم الروسي أحدهما للآخر ، متفوهاً ببعض الكلمات الانكليزية . فصافح الانكليزي غريغوري ، وقال بضع كلمات ، وهو ينقل نظراته بينه وبين مترجمه ، ثم أشار عليهما بالجلوس .

كانت ثمة أربعة أسرّة معسكر مصفوفة في وسط الغرفة ، وفي زاوية منها كومت حقائب معدات جلدية ، وعلى صندوق كبير وضعت رشاشة خفيفة من نوع لم يألفه غريغوري ، بالإضافة الى حافظة نظارة ميدان

وصناديق عتاد وقربينة ذات حاضن قاتم اللون وماسورة جديدة تلمع لمعاناً خافتاً .

قال الملازم بصوت خفيض أنيس ، وهو يلقي نظرة على غريغوري . فلم يقدر غريغوري أن يفهم كلمة من اللغة الأجنبية الغريبة ، لكنه أحس بشيء من الحرج بينما أدرك أنه كان موضوع الحديث . وكان الملازم الروسي يصغي الى الانكليزي مبتسماً ، وفي غضون ذلك أدخل يده منقباً في إحدى الحقائب وقال :

ـ يقول الملازم كامبل إنه يكن احتراماً كبيراً للقوزاق ، وإنه يعتبرهم فرساناً مهرة ومحاربين ممتازين . أتود أن تأكل شيئاً ؟ هل تشرب ؟ يقول إن الخطر يقارب بين الناس... أوه حسن ، إنه يقول شتى أنواع السخافات!

وأخرج الملازم من الحقيبة عدداً من العلب وقنينتين من البراندي ، وانحنى عليها ثانية وهو لا يكف عن الترجمة :

ـ يقول إنه لقي ترحيباً طيباً لدى الضباط القوزاق في أوست ـ مدفديتسكايا . شربوا برميلاً هائلاً من خمرة الدون . حتى كان الجميع في غاية السكر! وقضوا وقتاً مرحاً جداً مع بعض فتيات المدارس . أنت تدري كيف تكون هذه الأوقات! ولهذا فإنه يعتبر مقابلة كرمهم بالمثل واجباً مسراً بالنسبة له . وأنت ستكون الضحية . حسن ، إنني آسف لك... هل تشرب ؟

فأجاب غريغوري : ـ شكراً . نعم .

وهو يسترق النظر الى يديه اللتين اسودتا بوسخ غبار الطريق وجلد عدة حصانه . وضع الملازم العلب على المنضدة وفتحها بسكين فتحة خبير .

ـ أتدري ، إنه يوشك أن يزهق روحي ، أيها النقيب ، هذا الخنزير الانكليزي! يشرب من الصبح الى الليل . لا ينفك يصب في جوفه . لا ضير في الشرب بالنسبة لي ، ولكن ليس بهذا المعدل الهوميروسي* ـ وألقى نظرة

---

* نسبة الى الشاعر الاغريقي هوميروس . المترجمون

صوب الانكليزي مبتسماً ثم ، ولدهشة غريغوري ، أطلق كفراً فظيعاً . ـ أما هذا فيشرب حتى وهو خاوي المعدة .

فهز الملازم الانكليزي رأسه بابتسام وقال في روسية ركيكة :

ـ نعم ، نعم ، لازم نشرب نخبك .

فضحك غريغوري ودفع ناصيته الى الوراء . لقد أحس بميل تجاه هذين الرجلين . أما الملازم الانكليزي ، بابتسامته الخرقاء وطريقته المضحكة في التحدث بالروسية ، فقد كان رائعاً .

قال الملازم وهو يمسح الأقداح :

ـ مضى عليّ أسبوعان وأنا لصيق به ، ما رأيك في هذه الحالة ؟ إنه يدرب رجالنا على كيفية قيادة الدبابات التي ألحقت بفيلقنا الثاني ، ولقد عينوني مترجماً له . المصيبة أنني أتكلم الانكليزية بطلاقة ، وهذه هي مأساتي... إن جماعتنا يشربون ولكن ليس على هذه الشاكلة . سوف ترى بنفسك قابليته ، إنه يستطيع أن يفرغ أربع أو خمس قنان من البراندي في اليوم على فترات . ولن يثمل . ويستطيع أن يعمل حتى بعد شربه كمية كهذه . لقد أزهق روحي! لابد أنه يوجد خلل ما في معدتي ، فأنا أستيقظ كل يوم بحالة نفسية فظيعة وأكون مشبعاً بالكحول الى درجة أخشى معها الجلوس بجوار فانوس مشتعل... ذلك شيء لا يدرك كنهه إلا الشيطان!

وبينما كان يتحدث ، ملأ قدحين حتى الحافة وصب لنفسه شيئاً قليلاً . فنظر الانكليزي الى الأقداح ، وجعل يتكلم بحماسة وهو يتضاحك ، وكان الملازم الروسي يجيب ويده تتلمس موضع قلبه ، ولا تومض عيناه العطوفان السوداوان بالغضب ونفاد الصبر إلا من حين لآخر .

قرع غريغوري الأقداح مع مضيفيه الكريمين وشرب البراندي جرعة واحدة . فهتف الانكليزي معجباً : « أوه! » ونظر الى مترجمه بازدراء ، وهو يرتشف من قدحه .

كانت يدا الملازم الانكليزي الكبيرتان ، مثل أيدي العمال ، موضوعتين

على المنضدة . وكانت هناك آثار من شحم المكائن في مسامات جلده الذي اخشوشن من أثر استعمال البنزين والندب القديمة . غير أن وجهه كان ممتلئاً ، ناعماً ، أحمر . وكان التضاد بين الوجه واليدين كبيراً الى درجة أن غريغوري كاد أن يحسب الملازم واضعاً قناعاً على وجهه .

قال الملازم الروسي ، وهو يملأ قدحي صاحبيه حتى الحافة :

- إنك تنقذني!

فتساءل غريغوري :

- ألا يشرب بمفرده ؟

- تلك هي المصيبة ، يشرب بمفرده في الصباح ، لكنه لا يستطيع ذلك في المساء . حسن ، لنشرب .

- مشروب قوي...

ورشف غريغوري من قدحه قليلاً ، لكنه حينما أحس بنظرة الانكليزي المستغربة أفرغ البقية في فمه .

- يقول إنك رجل طيب . يحب طريقتك في الشرب .

فقال غريغوري مبتسماً :

- لن يضيرني أن نتبادل مأمورياتنا ، أنا وأنت!

- إنني واثق من أنك ستهرب منه خلال أسبوعين .

- من عمل خفيف كعملك ؟

- سوف أهرب أنا من هذا العمل الخفيف بأية حال .

- الأمر أدهى في الجبهة .

- هنا جبهة أيضاً . قد تصيبك رصاصة أو شظية قنبلة هناك ، ولكن ذلك ليس شيئاً محتماً ، بينما سأصاب هنا بهذاء السكارى* حتماً . ذق شيئاً من هذه الفاكهة المعلبة . أترغب في شيء من القديد ؟

---

* هذاء السكارى : هذيان مع ارتجاف شديد يصيبان شارب الكحول بكميات كبيرة أو لمدة طويلة . المترجمون

ـ شكراً ، لدي شيء منه .

ـ البريطانيون حاذقون في مثل هذه الأعمال . إنهم لا يطعمون جيشهم كما نطعم نحن جيشنا .

ـ وهل نطعم نحن جيشنا أصلاً ؟ إن جيشنا يعتاش على البلاد كلها .

ـ صحيح تماماً ، لسوء الحظ . إنه النظام الذي يطعم رجالك دون أن يحملك بعيداً ، خصوصاً إذا كنت تدعهم يسلبون الناس في الوقت والطريقة التي يشاؤون .

فنظر غريغوري باهتمام الى الملازم الروسي وسأله :

ـ وهل تتوقع الذهاب بعيداً ؟

ـ إننا جميعاً ماضون في الطريق نفسها . لماذا تسأل ؟

ولم يلاحظ الملازم الروسي أن صاحبه الانكليزي تناول القنينة وملأ قدحه حتى حافته . فابتسم غريغوري وقال :

ـ والآن عليك أن تشربه .

فنظر الملازم الى قدحه وتأوه :

ـ أوه ، يا إلهي!

وكست وجنتيه حمرة خفيفة .

وتقارع الثلاثة بالأقداح في صمت وشربوا .

واستأنف غريغوري الحديث وقد قطّب جبينه وهو يحاول ، عبثاً ، التقاط مشمشة زلقة بشوكته :

ـ أجل ، إننا جميعاً ماضون في الطريق نفسه... سيحيد بعضنا عنه آجلاً ، وبعضنا عاجلاً ، كما هو الأمر حينما نكون في قطار...

ـ ألا تتوقع أن تمضي بالرحلة حتى المحطة الأخيرة ؟

أحس غريغوري أنه كان في طريقه الى السكر ، ولكن المشروب لم يكن قد غلبه بعد . فأجاب ضاحكاً :

ـ لن يكون لدي من المال ما يكفي لشراء تذكرة للطريق كله . ماذا عنك ؟

ـ أنا في موقف مغاير . فأنا حتى لو طردت منه طرداً ، فلسوف أمشي بقية الطريق على قدمي .

ـ حظاً سعيداً لك ، إذن . لنشرب .

ـ سنشرب ، فأول الغيث قطر...

وقرع الملازم البريطاني قدحه مع غريغوري ومترجمه ، وشرب في صمت ، يكاد لا يأكل شيئاً . وكان وجهه قد استحال أحمر كالقرميد ، وعيناه غدتا أكثر التماعاً ، واتسمت حركاته ببطء وفتور . وقبل أن يجهز على القنينة الثانية ، قام ، باذلاً شيئاً من الجهد ، وخطا بثبات نحو الحقائب وعاد حاملاً ثلاث قنان أخر من البراندي . فوضعها على المنضدة وابتسامة تلوح في زاويتي شفتيه وقال شيئاً ما بصوته العميق .

ـ يقول الملازم كامبل إننا يجب أن نطيل متعتنا . عسى أن يزهق الشيطان روحه! كيف تشعر ؟

فأجاب غريغوري :

ـ أنا بخير .

ـ أية طاقة لدى هذا الرجل! إن في جسده الانكليزي روح تاجر روسي . يبدو أنني سكرت...

فقال غريغوري كاذباً :

ـ لا يبدو عليك .

ـ لا يبدو علي ، بالله عليك! إنني ضعيف مثل عذراء... لكنني لاأزال متمكناً من زمام مسؤولياتي . أجل ، ومتمكناً منها جيداً .

وظهر السكر على الملازم الروسي بشكل ملحوظ بعد أن شرب قدحاً مملوءاً . وأصبحت عيناه السوداوان زيتيتين ومحولتين بعض الشيء ، وانبسطت عضلات وجهه ، وأبت شفتاه أن تطاوعاه ، وسرت ، كالنبض ، ارتعاشات عصبية في وجنتيه الناعمتين . لقد ترك البراندي مفعولاً مدمراً فيه . ولاح على وجهه ما يظهر على بوز ثور عند الذبح بعد

أن تنزل على جمجمته مطرقة من زنة عشرة أرطال .

وأكد غريغوري كلامه قائلاً :

ـ لازلت على أفضل هيئة . لقد اعتدت عليه ولا يبدو أنه يؤثر فيك مطلقاً .

وكان غريغوري ، هو الآخر ، قد ظهر عليه السكر ، بيد أنه شعر أنه لا يزال في مستطاعه شرب المزيد من البراندي .

وتساءل الملازم الروسي منتعشاً :

ـ أأنت جاد ؟ أجل ، كنت في البداية أشعر بشيء من المرارة ، أما الآن فإنني مستعد لأيما شيء! أيما شيء! إنني أميل إليك ، أيها النقيب . إن فيك شيئاً من القوة والإخلاص . وأنا أحب ذلك . حسن ، فلنشرب نخب بلاد هذا الأحمق السكير . أنا أدري أنه حيوان ، لكن بلاده مكان رائع . «بريطانيا ، يا بريطانيا ، ابسطي سيطرتك على الأمواج!» هل سنشرب ؟ ولكن ، ليس حتى الثمالة . نخب بلادك ، يا مستر كامبل!

وقطب الملازم الروسي وجهه على نحو بائس وشرب ، ثم تناول قضمة من اللحم القديد . واستأنف كلامه :

ـ بلاد رائعة ، يا آمر السرية . إنك تعجز عن تصورها ، أما أنا فقد عشت هناك... حسن ، لنشرب .

ـ مهما كان شكلها ، فإن أرضك الأم أعز على القلب دائماً من أرض غيرك .

ـ لن نتجادل حول هذا ، لنشرب .

ـ لنشرب .

ـ إن على بلادنا أن تحرق عفنها بالنار والسيف ، غير أننا لا حول لنا ولا قوة . ولقد كشفت الحوادث عن حقيقة أننا بلا وطن . سحقاً ، ليذهب الوطن الى الشيطان! إن كامبل لا يعتقد بأننا قادرون على مقارعة الحمر .

ـ صحيح ؟

ـ أي ، نعم . إن فكرته عن جيشنا سيئة ، وهو يمتدح الحمر .

ـ هل شارك في المعارك ؟

ـ أي ، طبعاً . كاد الحمر أن يأسروه . اللعنة على هذا البراندي!

ـ مشروب قوي . قوي كالكحول ، أليس كذلك ؟

ـ ليس تماماً . الخيالة أنقذت كامبل ، ولولاهم لوقع في قبضة الحمر . كان ذلك في قرية جوكوف . استولى الحمر على إحدى دباباتنا... يبدو عليك الحزن . ما السبب ؟

ـ ماتت زوجتي منذ أمد ليس ببعيد .

ـ أمر فظيع . هل خلّفت أطفالاً ؟

ـ نعم .

ـ نخب صحة أطفالك . ليس لدي أطفال ، أو ربما لدي . فإذا كان عندي أطفال ، فمن المرجح أنهم يبيعون الصحف الآن في الشوارع في مكان ما... لكامبل خطيبة في انكلترا . يكتب لها في انتظام ، مرتين في الأسبوع . لابد أنه يكتب لها الكثير من الترهات . إني أكاد أكرهه . ماذا قلت ؟

ـ أنا لم أقل شيئاً . لماذا يحترم الحمر ؟

ـ من قال إنه يحترمهم ؟

ـ أنت قلت .

ـ مستحيل . إنه لا يحترمهم . أبداً ، أنت مخطئ . لكنني سأسأله .

واستمع كامبل باهتمام الى سؤال الملازم السكران الشاحب ، ثم شرع بإعطاء جواب مطول بالانكليزية . ومن غير أن ينتظر غريغوري إكمال جوابه ، سأل :

ـ ما الذي يثرثر به ؟

ـ رأى مشاتهم يهاجمون الدبابات وأحذية ليفية في أقدامهم . هل هذا كاف ؟ يقول إن الشعب لا يمكن قهره . يا للأحمق! لا تصدق بكلامه .

ـ ولمَ لا ؟

ـ إن الفكرة برمتها خاطئة .
ـ ولماذا ؟
ـ إنه سكران ، وينطق هراء . ماذا يعني... الشعب لا يمكن قهره ؟ بعضهم يمكن أن يفنى والبقية يجبرون على الطاعة . كم قنينة شربنا حتى الآن ؟

وتهاوى الملازم الروسي على المنضدة ، قالباً علبة فاكهة ، ولبث جالساً زهاء عشر دقائق ووجهه فوق ذراعيه وهو يجر أنفاساً ثقيلة .

في الخارج ، كانت الليلة حالكة السواد ، والمطر يضرب الأباجورات . ومن بعيد ، كان هدير يتناهى الى الأسماع ، ولم يستطع غريغوري أن يتبين ما إذا كان ذلك هدير رعد أو قذائف مدافع . في حين لبث كامبل جالساً وهو يرتشف البراندي وقد تلفّع بغلالة من دخان السيكار . فهز غريغوري المترجم وقال وهو يقوم ، متمايلاً ، على قدميه :

ـ هيا ، اسأله لماذا سيهزمنا الحمر ؟

فجمجم الملازم الروسي محنقاً :

ـ عليك اللعنة!
ـ هيا ، اسأله .
ـ عليك اللعنة! اذهب الى الشيطان!
ـ أقول لك ، اسأله .

فنظر الملازم الروسي الى غريغوري لحظة بعينين متوحشتين ، ثم تمتم بشيء الى الانكليزي المتيقظ ، وأهوى رأسه من جديد فوق ذراعيه . فنظر إليه كامبل بابتسامة مزدرية ، ومس كُم سترة غريغوري وحاول أن يوضح الجواب بصمت . فدفع نواة مشمشة الى وسط المنضدة ووضع راحته الكبيرة الى جانبها ، ثم طق لسانه فجأة وغطى النواة براحته .

فتمتم غريغوري في سريرته متفكراً :

ـ ذكي أنت ، ها ؟ كان بمستطاعي أن أقول الشيء نفسه...

وتقدم من الملازم المضياف ، وهو يترنح على قدميه ، ومد ذراعيه فوق المنضدة وانحنى قائلاً :

ـ شكراً لضيافتك . الى اللقاء . أتدري ما أريد أن أقوله لك ؟ عد الى بلادك بسرعة قبل أن يطاح برأسك هنا . هذه هي الحقيقة الخالصة . أتفهمني ؟ لا داع لديك للتدخل في شؤوننا . أتفهمني ؟ أرجوك ، عد الى بلادك ، يا فتاي ، وإلا فستحصل على زوج من العكازات هنا!

فوقف الملازم وانحنى ، وشرع من جديد يتكلم بحماسة ، وهو يرمق مترجمه النائم في يأس ويربت ببشاشة على ظهر غريغوري .

عثر غريغوري بصعوبة على أكرة الباب ، ومضى الى السقيفة مترنحاً ، فلفح وجهه مطر خفيف مائل السقوط . وأضاءت ومضة برق الفناء الواسع والسياج المبلل والأوراق المتلامعة لأشجار البستان . بينما كان غريغوري ينزل الدرجات ، انزلق وسقط على الأرض ، وحينما أنهض نفسه سمع أصواتاً . كان أحدهم يتساءل وهو يشعل عود ثقاب في المجاز :

ـ أولئك الضباط لايزالون يشربون ؟

فرد صوت أجش :

ـ سيشربون... ويشربون حتى يختنقوا .

٢٠

كما في عام ١٩١٨ ، عاد جيش الدون ، بعد أن اجتاز حدود منطقة الخوبر ، ففقد زخمه الهجومي . إذ كان قوزاق الدون الأعلى المتمردون ، والعديد من قوزاق نهر الخوبر أيضاً ، لايزالون غير راغبين في القتال خارج إقليم الدون . كما أنهم كانوا يجابهون مقاومة أقوى من وحدات الجيش الأحمر التي كانت قد عززت وكانت تعمل آنذك في أرض يتعاطف سكانها المحليون معهم . ومن جديد عاد القوزاق يميلون الى التحول لاتخاذ موقف

الدفاع ، وما كان باستطاعة قيادة الجيش الأبيض ، مهما استعملت من دهاء ، أن تجبرهم على القتال بمثل العناد الذي كانوا قد أظهروه مؤخراً في إقليمهم هم ، على الرغم من أن ميزان القوى في ذلك القطاع كان في صالحهم ، إذ كان الجيش الأحمر التاسع المشتت بقوته المؤلفة من ١١٠٠٠ حامل حربة و٥٠٠٠ حامل سيف و٥٢ مدفعاً يجابه قطعات القوزاق المؤلفة من ١٤٤٠٠ حامل حربة و١٠٦٠٠ حامل سيف و٥٣ مدفعاً .

وجرت أكثر العمليات فعالية في أجنحة الجبهة ، وخصوصاً حيث كانت تعمل وحدات جيش متطوعي الكوبان الجنوبي . وفي الوقت نفسه كان جزء من جيش المتطوعين بقيادة الجنرال فرانجل يمارس ، بعد تقدمه الناجح داخل أوكرانيا ، ضغطاً قوياً على الجيش الأحمر العاشر ، محاولاً اجباره على التراجع ، وحينما جابه مقاومة عنيفة تحرك باتجاه ساراتوف . وفي ٢٨ تموز ، استولت خيالة الكوبان على بلدة كاميشين وأسروا عدداً كبيراً من القوة المدافعة . وشنّ الجيش الأحمر العاشر هجوماً مضاداً ، غير أنه ردّ . ولما كان الجناح الأيسر للجيش الأحمر العاشر مهدداً بفرقة خيالة كوبانية لا تنفك تكرّ عليه بجرأة ، فإن الجيش برمّته انسحب الى محور بوررزنكوفو ـ لاتيشيفو ـ كراسني يار ـ كامنكا ـ بانويه . وآنذاك كان الجيش العاشر مؤلفاً من ١٨٠٠٠ حامل حربة و٨٠٠٠ حامل سيف و١٣٢ مدفعاً ، في حين كان جيش متطوعي الكوبان يتألف من ٧٦٠٠ حامل حربة و١٠٧٥٠ حامل سيف و٦٨ مدفعاً . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان البيض مسندين بوحدات دبابات وبعدد كبير من الطائرات التي كانت تستعمل لأغراض الاستطلاع والهجوم معاً . ولكن ، لم تستطع طائرات فرانجل الفرنسية ولا دباباته ومدافعه البريطانية أن تساعده ، فلم يتقدم الى أبعد من كاميشين . وقد أدى القتال الطويل العنيد الذي استمر في هذا القطاع الى إحداث بضعة تغييرات في خط الجبهة .

في نهاية تموز ، بدأت الجيوش الحمراء تستعد لشن هجوم واسع

النطاق على القطاع الجنوبي من الجبهة الجنوبية . وجمع الجيشان التاسع والعاشر ليكونا قوة ضاربة تحت قطادة شورين . أما بالنسبة لقوتهما الاحتياطية ، فقد تقرر أن تسحب فرقتان من منطقتي الدفاع في كازان وساراتوف في الجبهة الجنوبية ، على أن تجري تقوية القوة الضاربة نفسها بقوات من احتياطي الجبهة وفرقة المشاة السادسة والخمسين . كما تقرر أيضاً انزال ضربة مساعدة بواسطة قوات الجيش الثامن تساندها فرقتان اضافيتان .

جرى انتقال للهجوم على أساس الشروع به الأيام العشرة الأولى من شهر آب . وكانت خطة القيادة العليا للجيش الأحمر أن يكون هجوم الجيشين الثامن والتاسع مصحوباً بحركات التفاف على الأجنحة ، وأن يعهد الى الجيش العاشر بمهمة معقدة وحيوية بشكل خاص ، هي الاشتباك مع العدو في الجانب الأيسر من الدون وفصل قواته الرئيسية عن القفقاس الشمالي . وفي الغرب ، تقرر أن يستخدم جزء من الجيش الرابع عشر للقيام بزحف للخديعة باتجاه محور تشابلينو ـ لوزوفايا .

وبينما كان الجيشان التاسع والعاشر ينفّذان عملية إعادة التجميع المقترحة ، كانت القيادة البيضاء تكمل تكوين فيلق الجنرال مامونتوف ، لغرض تقويض هجوم الحمر ، وكانت تأمل أن تنفذ بهذا الفيلق خلال الجبهة وتشن غارة قوية على مؤخرة الجيوش الحمراء . وقد أدى نجاح جيش فرانجل في ناحية تساريتسين الى توسيع جبهة فرانجل من الجانب الأيسر ، وبالتالي الى تضييق جبهة جيش الدون بحيث أصبح في الإمكان سحب عدة فرق خيالة منها . وفي السابع من آب ، حشد في منطقة أورويوبنسكايا ٦٠٠٠ حامل سيف و ٢٨٠٠ حامل حربة وثلاث بطاريات من ذوات الأربعة مدافع . وفي العاشر منه ، دقّ فيلق الجنرال مامونتوف إسفيناً بين الجيشين الأحمرين الثامن والتاسع وضرب باتجاه تامبوف .

وكانت نية القيادة البيضاء الأصلية دعم غارة مامونتوف على مؤخرة

الجيوش الحمراء بفيلق خيالة الجنرال كونوفالوف ، غير أن القتال العنيف الذي نشب في قطاع الجبهة الذي يسيطر عليه كونوفالوف جعل من المستحيل عليه سحب فيلقه لهذا الغرض . وهذا هو العامل الذي يفسر الصفة المحدودة للمهمة التي كلّف بها مامونتوف الذي صدرت إليه الأوامر بالامتناع عن التوغل مسافة بعيدة داخل المؤخرة أو التفكير بالزحف على موسكو ، وأن يعود للالتحاق بالجيش الأبيض الرئيسي حالما يكون قد فرغ من تحطيم مواصلات وخدمات مؤخرة العدو . وكانت التعليمات الأصلية التي أعطيت لمامونتوف وكونوفالوف تقضي بأن يسددا ضربة قاصمة الى جناح ومؤخرة الجيوش الحمراء المركزية ، ثم يمضيان ، في مسيرات إجبارية ، باتجاه أعماق روسيا ، ويكملان قواتهما برجال من فصائل السكان المعادية للسوفييت ، ثم يشقان طريقهما نحو موسكو .

أفلح الجيش الأحمر الثامن في استعادة موقعه على جناحه الأيسر باستدعاء قواته الاحتياطية . غير أن جناح الجيش التاسع الأيمن أصيب بأضرار أفدح . ونجح قائد القوة الضاربة الرئيسة ، شورين ، في سد الثغرة ما بين الجيشين من الداخل ، إلا أنه لم يستطع إيقاف تقدم خيالة مامونتوف . وأصدر شورين أمره الى فرقة الاحتياط السادسة والخمسين بسد الطريق على مامونتوف . وقد قضى على أحد أفواج هذه الفرقة ، الذي كان قد نقل على عربات وأرسل سلفاً الى محطة سامبور ، أثناء صدام رأسي مع مفرزة جناح من فيلق مامونتوف . وقد لقي المصير ذاته لواء الخيالة التابع لفرقة المشاة السادسة والثلاثين الذي كان قد نقل لحماية سكة حديد تامبوف ـ بالاشوف . وقد تم القضاء على هذا اللواء بعد اشتباك قصير مع خيالة مامونتوف برمتها .

في الثامن عشر من آب ، اندفع مامونتوف الى داخل تامبوف . لكن هذا الحدث لم يمنع قوة شورين الضاربة من شنّ هجومها ، بالرغم من أنه تعين تخصيص فرقتي مشاة بكاملهما تقريباً لمقارعة مامونتوف . وفي الوقت

نفسه ، شرع بشن هجوم على القطاع الأوكراني من الجبهة الجنوبية .

وبدأت الجبهة تتسع ، وكانت آنذاك قد امتدت في الشمال والشمال الشرقي في خط يكاد يكون مستقيماً من ستاري أوسكول الى بالاشوف مع امتداد باتجاه تساريتسين . وانسحبت كتائب القوزاق تحت ضغط قوات متفوقة عليها ، باتجاه الجنوب ، وهم يشنون هجمات مضادة متتالية ويعملون على إعاقة تقدم العدو في كل نقطة قوية . وحينما حطوا أقدامهم على أرض قوزاقية استعادوا قابليتهم القتالية التي كانوا قد فقدوها حينما ابتعدوا عن أرضهم . فانقطعت حوادث الفرار بشكل حاد ، وتدفقت التعزيزات من مناطق الدون الأوسط . وكلما كانت قوة شورين الضاربة تنفذ الى داخل اقليم جيش قوزاق الدون ، كانت مقاومة القوزاق تشتد عنفواناً وضراوة . وفي اجتماعات القرى ، دعا قوزاق المناطق المتمردة في الدون بأنفسهم الى التعبئة العامة ، وأقاموا الصلوات في الكنائس ثم انطلقوا الى الجبهة رأساً .

وفيما كانت قوة شورين تشق طريقها باتجاه الخوبر والدون ، قاهرة مقاومة البيض المريرة ونافذة أعمق فأعمق داخل الأرض التي كان سكانها المحليون أعداء مكشوفين للجيش الأحمر ، بدأت تفقد زخم اندفاعها الأولي شيئاً فشيئاً . وفي الوقت نفسه ، كانت القيادة البيضاء في كاتشالينسكايا ومحطة كوتولبان قد أعدّت مجموعة قوية للمناورات مؤلفة من ثلاثة فيالق كوبانية وفرقة المشاة السادسة بغية شن هجوم على الجيش الأحمر العاشر الذي كان يمضي في هجومه بنجاح ساحق .

٢١

في غضون اثني عشر شهراً ، تقلصت عائلة ميليخوف الى النصف . كان بانتلاي محقاً حينما قال ذات يوم بأن الموت قد افتتن بدارهم . فلم يكادوا يفرغون من دفن ناتاليا حتى عادت رائحة البخور وأزهار الذرة تملأ غرفة

الضيوف الفسيحة في دار آل ميليخوف . فبعد عودة غريغوري الى الجبهة بزهاء عشرة أيام ، أغرقت داريا نفسها في الدون .

ففي يوم السبت ، وبعد العودة من الحقول ، ذهبت مع دونيا للاستحمام . فخلعتا ملابسهما في الحدائق الواقعة تحت المطبخ ولبثتا زمناً طويلاً جالستين على الحشيش الناعم المداس . كانت داريا منذ الصباح الباكر منحرفة المزاج ، تشكو من صداع الرأس والانحلال ، وانخرطت عدة مرات في بكاء مرير . وقبل أن تنزل دونيا في الماء ، عقدت شعرها بعصابة رأس مثلثة ، وقالت في إشفاق وهي تنظر الى داريا بطرف عينها :

ـ لكم أمسيت نحيلة يا داريا . لقد بانت كل عروقك .

ـ سأتحسن عما قريب .

ـ وهل زال صداعك ؟

ـ أجل . حسن ، لنستحم ، فالوقت متأخر .

وركضت داريا نحو الماء . فغطست فيه ، ثم ارتفعت فوقه ، دافعة الماء خلل أنفها وفمها ، وجعلت تسبح نحو وسط النهر . وتلقفها التيار السريع وبدأ يحملها بعيداً .

خاضت دونيا حتى بلغ الماء خصرها ، وهي تراقب داريا في إعجاب فيما كانت تنطلق الى أمام بضربات رجولية قوية ، ثم اغتسلت وبللت صدرها وذراعيها القويين الملفوحين والمكورين على نحو أنثوي بديع . وكانت زوجتا ولدي أوبينيزوف تسقيان الكرنب في حديقة مجاورة ، وسمعتا دونيا تنادي داريا ضاحكة :

ـ عودي ، يا داريا ، وإلا ستأكلك قرموطة!*

فاستدارت داريا ، وسبحت مسافة قصيرة أخرى ، ثم دفعت نفسها فجأة خارج سطح الماء الى حد خصرها ، وطوت ذراعيها خلف رأسها وهتفت :

---

* قرموطة : نوع من السمك . المترجمون

ـ وداعاً ، أيتها النسوة!

وهوت الى داخل الماء كما يهوي حجر .

بعد زهاء خمس عشرة دقيقة ، لم تضع دونيا على جسدها غير قميصها الداخلي ، وقد استحال وجهها أبيض ، وهرعت الى الدار . ولهثت بالكلمات :

ـ داريا غرقت ، يا ماما!

لم يعثروا على جثة داريا إلا في اليوم التالي ، وبواسطة شباك الصيد . ففي فجر ذلك اليوم ألقى أرخيب بسكوفاتسكوف ، أكبر صيادي تتارسكي سناً وأغناهم خبرة ، بأطراف شباكه الست عبر التيار تحت الموضع الذي غرقت فيه داريا ، وعاد مع بانتلاي فيما بعد ليفحص الخيوط . وكان ثمة حشد من الأطفال والنساء متجمع على الشاطئ ، بينهم دونيا . وحينما كان يرفع الخيط الرابع بمقبض مجذافه ، وكان قد ابتعد عن الشاطئ بحوالي ستين قدماً ، سمعته دونيا بوضوح وهو يتمتم :

ـ يبدو أن هذا هو المطلوب .

وشرع يسحب الشبكة بمزيد من الحذر ، باذلاً جهداً واضحاً في جر الخيط الذي كان متجهاً الى الأعماق بشكل شاقولي . ثم ظهر شيء أبيض من الجهة المقابلة للجانب الأيمن للنهر ، فانحنى كلا العجوزين فوق الماء ، فضرب الماء حافة ظهر القارب ، وتناهى الى آذان الحشد الصامت صوت ارتطام الجثة حينما ألقيت في القارب . فسرت فيهم جميعاً قشعريرة مفاجئة . وأجهشت إحدى النساء تنشج بصمت . زعق كريستونيا في الأطفال ، وكان يقف على مبعدة قليلة :

ـ هي ، انقشعوا!

ورأت دونيا خلل دموعها أرخيب يقف في مؤخرة القارب ويجذف بمهارة وصمت بمجذاف واحد تجاه الشاطئ . وانسحب القارب على حصى الشاطئ الكلسي محدثاً خشخشة وصريراً . كانت داريا ممددة وقد طويت

ساقاها كالجماد ، وخدها لصيق بقعر القارب . وكان جسدها الأبيض قد شرع يستحيل أزرق ، وبانت في اللحم حفر عميقة من أثر الصنارات . وعلى ربلة ساقها السمراء اللدنة ، تحت الركبة مباشرة ، وبجانب ربطة الساق الكتانية التي لابد أنها قد نسيت أن تخلعها قبل نزولها الى الماء ، كان ثمة جرح وردي جديد ينزف قليلاً . وكان رأس صنارة قد حفر ساقها في خط متعرج مشقوق .

كانت دونيا أول من اقترب من داريا ، وهي تدعك وزرتها في حركة تشنجية ، وغطت الجثة بزكيبة شُقت حتى أسفل درزاتها . وشمّر بانتلاي أطراف بنطلونه في عجالة منتظمة ، وسحب القارب فوق الجرف . وبعد دقيقة أو دقيقتين جيء بعربة ونُقلت داريا الى دار ميليخوف .

وتعاونت دونيا مع أمها ، وهي تحاول أن تسيطر على خوفها وشعورها بالتقزز ، فغسلتا الجثة الباردة التي كانت لاتزال تحتفظ ببرودة تيار الدون العميق . كان ثمة شيء ما غريب وصارم في وجه داريا المتورم قليلاً ، وفي الألق الباهت لعينيها اللتين غدتا كالزجاج بعد بقائهما مغمورتين بالماء يوماً كاملاً . وفي شعرها كانت تتوهج ذرات رمل فضية ، وعلى وجنتيها التصقت خيوط بليلة من الأعشاب المائية ذات لون أخضر باهر ، وفي ذراعيها المنبسطتين والمتدليتين من المصطبة ، في بؤس ووهن ، كانت صورة الهمود المطبق مريعة بحيث ما أن ألقت دونيا نظرة عابرة عليهما حتى انكفأت الى وراء بسرعة . وقد أذهلها وأرعبها الانعدام الكلي لأي شبه بين هذه المرأة الميتة وداريا الساخرة الضحوك التي كانت تعشق الحياة أيما عشق . وصارت دونيا زمناً طويلاً ، غب ذلك ، كلما تذكرت الهمود الصخري لثديي داريا وبطنها وتوتر أطرافها المتصلبة ، تختض في تشنج عصبي وتحاول ما في وسعها لنسيان ذلك كله . وغدت تخشى أن تراودها المرأة الميتة أثناء نومها في الليل ، فلبثت أسبوعاً كاملاً تنام في سرير ايلينشنا ، وتدعو من الله قبل أن تأوي الى الفراش :

ـ رباه ، لا تجعلني أحلم بها . احمني ، يا إلهي!

لو لم تسمع زوجتا ولدي أوبنيزوف داريا تهتف : «وداعاً ، أيتها النسوة!» ، لدفنوها في صمت ومن غير ما ضجة . لكن الأب فيساريون ، حينما سمع بنبأ تلك الصيحة الأخيرة التي أبانت بوضوح أن داريا كانت عازمة على الانتحار ، أعلن بإصرار أنه لن يقوم بدفن المنتحرة . فاستبد الهياج ببانتلاي :

ـ ماذا تقصد ، من أنك لن تدفنها ؟ ألم تعمّد ، أم ماذا ؟

ـ أنا لا أستطيع أن أدفن المنتحرين . القانون لا يبيح ذلك .

ـ إذن ، فكيف تدفن ، في رأيك ؟ كما يدفن كلب ؟

ـ في رأيي ، تدفن كيفما شئت وحيثما شئت ، إلا في المقبرة حيث يدفن المسيحيون الشرفاء .

فحاول بانتلاي بروكوفتش أن يقنعه :

ـ كن شفيقاً بعض الشيء . نحن لم نعرف عاراً كهذا في عائلتنا من قبل .

إلا أن القس أصرّ على موقفه بعناد :

ـ لا أقدر . إنني أكنّ لك احتراماً كبيراً ، يا بانتلاي بروكوفتش ، باعتبارك مثالاً يحتذى في خدمة الكنيسة ، لكنني لا أقدر . يصل الخبر الى رئيس الشمامسة ، ولن أستطيع تجنب العواقب .

كان ذلك عاراً . جرّب بانتلاي كل وسيلة لإقناع القس العنيد ، فوعده بدفع المزيد له ، وبروبلات قيصرية معتمدة ، وعرض عليه إهداءه حملاً صغيراً . وحين أدرك أن نقاشه لم يجد نفعاً ، لجأ الى التهديد :

ـ لن أدفنها خارج المقبرة . إنها ليست مخلوقاً سائباً بالنسبة لي ، فهي زوجة ابني . زوجها سقط أثناء المعارك ضد الحمر وكان في مرتبة ضابط ، وهي نفسها مُنحت وسام القديس غيورغي ، ورغم ذلك أراك تلغط بالترهات أمامي! لا ، أيها الأب ، لن يجدي ذلك معي . ستقوم بدفنها مثلما أخبرك تماماً . لتظل الآن ممدة في غرفة الضيوف عندنا في الوقت

الراهن ، وسأقوم بإخبار أتمان المنطقة حول الموضوع . سيكلمك هو .

وغادر بانتلاي دار القس بلا كلمة وداع ، وفي غمرة هياجه صفق الباب بشدة . غير أن التهديد أجدى . فبعد نصف ساعة قدم ساع من القس ليقول بأن الأب فيـاريون سيصل بعد قليل لتلاوة الصلوات .

دفنوا داريا باللياقة المناسبة في المقبرة بجوار بيوتر . وحينما كانوا يحفرون القبر ، أحب لنفسه هذا الموضع . ففيما كان يعمل بمجرفته ، أجال ببصره فيما حوله وحدّث نفسه بأنه لن يجد موضعاً أفضل لنفسه ؛ ولم يكن من الجدير البحث عن غيره . ففوق قبر بيوتر كانت شجرة حور زرعت مؤخراً تخشخش بأغصانها الطرية . كان الخريف المقبل قد صبغ أوراق قمتها بصبغة الذبول الصفراء المريرة . وكانت حملان قد حادت عن دربها وولجت عبر السياج المهدوم الى ما بين القبور . وكان الطريق المؤدي الى الطاحونة يمر بحذاء السياج ، والأشجار التي شتلتها الأيدي المشفقة لأقارب الموتى ـ أشجار غرب وحور وأكاسيا ، والأشواك البرية ـ تقف ثمة مرحبة ، خضراء يانعة . ومن حولها كانت النباتات المتسلقة ملتفة في كثرة وحيوية ، والشلغم المتأخر مصفراً ، والشوفان البري ظهرت سنابله بنجم مثقل بالحب . ووقفت الصلبان ملفوفة ، من أسافلها حتى أعاليها ، بمتسلقات زرقاء اللون ، أليفة . كان الموضع ، بما لا يقبل الشك ، بهيجاً ، وأرضه جافة...

كان الشيخ يحفر القبر وكثيراً ما يترك مجرفته ويجلس على الأرض الطينية الرطبة وهو يدخن ويفكر عن الموت . ولكن ، كما يبدو ، لم يحن الوقت ليستطيع الشيوخ أن يموتوا بهدوء وسلام في ضياعهم ويرقدوا في مثاويهم الأخيرة بجانب آبائهم وأجدادهم...

داريا دُفنت ، فأضحى بيت ميليخوف أكثر صمتاً من قبل . نقلوا الحبوب بالعربات ، درسوها ، وجمعوا حاصلاً كبيراً من مزرعة البطيخ . كانوا يتوقعون ورود أنباء من غريغوري ، ولكن لم يأت منه خبر منذ أن غادرهم الى الجبهة . وقالت ايلينشنا أكثر من مرة :

ـ الشيطان لا يرسل حتى التحيات الى طفليه . ماتت زوجته ، فلم يعد بحاجة إلى أي منا...

ثم شرع قوزاق عاملون بالخدمة الفعلية يعودون بأعداد متزايدة لزيارة أهليهم في تتارسكي . وانتشرت شائعات بأن القوزاق قد دحروا في جبهة بالاشوف وأنهم يتقهقرون باتجاه الدون حيث يحتمون خلف خط الدفاع المائي وأنهم يتخذون موقف الدفاع حتى حلول الشتاء . أما ما الذي سيحدث في الشتاء ، فإن جميع رجال الخطوط الأمامية تحدثوا عن ذلك بلا أدنى محاولة لكتمانه :

ـ حينما يتجمد الدون ، سيدفع الحمر بنا الى البحر .

أما بانتلاي ، فلم يبد عليه أي اهتمام معين بالشائعات الحائمة فوق أراضي الدون ، بل ظل يعمل في دأب وحماس على آلة الدرس . ومع ذلك ، فما كان بمقدوره أن يظل بمنأى عما كان يحدث . فغدا يزعق في وجه ايلينشنا ودونيا أكثر من أي وقت مضى ، وصار سريع الهياج على نحو أشد كلما سمع بأن الجبهة كانت تقترب من ناحية تتارسكي . كان غالباً ما يشرع في عمل ما من الأعمال التي تهم الحقل ، ولكنه لا يلبث العمل أن يخرج سيئاً من بين يديه ، فيقذفه على الأرض مهتاجاً ، وينطلق نحو ساحة درس الحبوب باصقاً ولاعناً ، حيث ينفّس عن هياجه ، فيبرد . وكانت دونيا ، أكثر من مرة ، شاهدة على مثل هذه النوبات .

حدث ذات يوم أنه شرع يصلح نيراً . لم يسر العمل على ما يرام ، ولغير ما سبب مطلقاً التقط العجوز فأساً وأعمل بالنير تكسيراً حتى لم تبق منه سوى شظايا . وحدث الشيء نفسه لطوق حصان . ففي ذات مساء برم خيطاً شمعياً وبدأ يخيط بطانة الطوق المفتوقة . ولربما كان الخيط تالفاً ، أو العجوز نفسه متحركاً أكثر مما هو في العادة ، غير أن الخيط انقطع مرتين على التوالي . وكان في ذلك الكفاية ، فأطلق بانتلاي سباباً مقذعاً وقفز ، ورفس مقعده ، فطار هذا في الهواء باتجاه الموقد ، وجعل يعمل أسنانه

ممزقاً بطانة الطوق الجلدية وهو يحمحم كالكلب . ثم قذف بالطوق على الأرض وشرع يتقافز عليه كالديك . وإذ سمعت ايلنشنا الجلبة ، وكانت قد آوت الى فراشها مبكرة ، قفزت من السرير فزعة . بيد أنها ، حينما رأت ما كان يحدث ، فقدت زمام أعصابها وانطلقت تعنفه .

ـ هل جننت ، عليك اللعنة ، في أواخر أيامك ؟ ما هي جناية الطوق عليك ؟

فحملق بانتلاي في زوجته بعينين مخبولتين ، وهدر قائلاً :

ـ اخرسي ، يا كذا وكيت!

والتقط قطعة من الطوق الممزق وقذفها على الزوجة العجوز .

وغصّت دونيا بالضحك ، فاندفعت كالرصاصة خارجة الى السقيفة . لكن العجوز ما لبث أن هدأ بعد هياج قصير ، وطلب الغفران من زوجته للكلمات التي كان قد أطلقها في غضبه ، وظل زمناً طويلاً يحك مؤخرة رأسه وهو يحدّق في شظايا الطوق المنكود ، ويفكر في ما عسى أن تصلح له هذه الشظايا . وتكررت أمثال نوبات الجنون هذه أكثر من مرة ، لكن ايلينشنا ، وقد علمتها الخبرة المريرة ، وجدت طريقة مغايرة للتدخل . ففي اللحظة التي يشرع فيها بانتلاي بقذف الشتائم وتحطيم حاجة منزلية ما ، تنبري العجوز قائلة ، بتواضع لكنما بصوت مرتفع بما فيه الكفاية :

ـ حطّمها ، يا بروكوفتش! اكسرها! سنعمل أنا وأنت على توفير المال لشراء المزيد منها!

حتى أنها كانت تحاول مساعدته في التهشيم . وآنذاك ، تهدأ سورة بانتلاي في الحال ، فيحدق في زوجته لحظة بعينين فارغتين ، وينبش بيديه في جيوبه حتى يعثر على كيس تبغه ، فيجلس مصعوقاً في ركن من الأركان يدخن ويهدئ أعصابه المتوترة ، وهو يلعن في دخيلته طبعه المتفجّر ، متذكراً الخسائر التي ألحقها بنفسه في غمرة انفعاله .

وحدث مرة أن وقع خنزير عمره ثلاثة شهور ، كان قد دخل الى الفناء ، ضحية لهياج بانتلاي الكهولي الجامح . فقصم ظهره بوتد ، ثم

ذبحه ، وبعد ذلك بخمس دقائق ، وبينما كان يجز شعره بمسمار ، علا وجهه الشعور بالإثم وقال لزوجته المتجهمة ، متملقاً :

ـ أنت تدرين أن هذا الخنزير لم يجلب لنا غير المتاعب . كان سيموت بأية حال . الخنازير دائماً تصاب بالوباء في هذا الوقت من السنة ، أما الآن فإننا ، على الأقل ، سنأكله ، وإلا لكنا فقدناه تماماً . هذا حقّ ، أليس كذلك ، أيتها السيدة العجوز ؟ حسن ، لماذا تنظرين إليّ وكأنك غيمة رعدية ؟ اللعنة عليه مضاعفة ثلاث مرات ، هذا الخنزير! وليته كان خنزيراً كاملاً . لم يزد على فخذ فقط! لم تكن هناك حاجة في الواقع لاستعمال وتد للإجهاز عليه ، فمجرد البصق عليه كان كفيلاً بإنجاز المهمة! ولكم كان فضولياً ، يدس فنطيسته في كل مكان! لقد نبش زهاء أربعين غرسة من البطاطس .

فصححت ايلينشنا كلامه في هدوء :

ـ لو كان قد أتلف جميع غرسات البطاطس في الحديقة لما بلغ عددها مجتمعة أكثر من ثلاثين .

فأجاب بانتلاي بروكوفتش بلا تفكير :

ـ ربما . ولكن ، لو كان هناك أربعون لأتلف الأربعين برمتها . إنه على هذه الشاكلة . احمدي الله عنا أننا تخلصنا منه ، من هذا العدو!

والطفلان أيضاً ، سرى إليهما التمرد بعد رحيل والدهما الى الجبهة . ولم تعد ايلينشنا تستطيع أن توليهما الاهتام الكافي وهي مشغتولة بشؤون المنزل ، فتركتهما لشأنهما ، فكانا يقضيان ساعات لا حصر لها يلعبان في البستان أو ساحة درس الحبوب . وحدث ذات يوم أن اختفى ميشاتكا بعد الغداء ولم يعد إلا عند الغروب . وحينما سألته ايلينشنا أين كان ، أجاب بأنه كان يلعب مع الصبية الآخرين على شاطئ الدون . بيد أن بوليوشكا سرعان ما فضحته :

ـ إنه يكذب ، يا جدتي . كان عند الخالة أكسينيا .

فسألتها ايلينشنا وقد استغربت وتضايقت للخبر :

ـ وكيف عرفت ؟

ـ رأيته يتسلق السياج من فنائهم .

ـ هل كنت حقاً هناك ؟ هيا ، أنطق ، يا ولد . لماذا يحمر وجهك ؟

فحدق ميشاتكا في عيني جدته مباشرة ، وأجاب :

ـ كنت أخدعك ، يا جدتي . صحيح أنني لم أنزل الى شاطئ الدون ، إنما كنت عند الخالة أكسينيا .

ـ ولماذا ذهبت هناك ؟

ـ طلبت مني هي أن أدخل ، فدخلت .

ـ ولماذا أخبرتني أنك كنت مع الأولاد ؟

فلبث ميشاتكا صامتاً بعضاً من الوقت ، ثم رفع إليها عينين صادقتين وهمس قائلاً :

ـ كنت أخاف أن تغضبي مني .

ـ ولماذا أغضب منك ؟ كلا... ولكن ، ما الذي أرادته منك ؟ ماذا عملت هناك ؟

ـ لا شيء . رأتني فصاحت : ـ تعال هنا! فاقتربت منها ، وأخذتني الى داخل البيت وأجلستني على كرسي...

فتساءلت ايلينشنا نافدة الصبر ، وهي تحاول أن تخفي انفعالها المتزايد :

ـ حسن ؟

ـ أعطتني فطائر باردة ، أكلتها ، ثم أعطتني هذه .

وأخرج ميشاتكا قطعة من السكر من جيبه ، وعرضها متفاخراً ، ثم خبأها في جيبه ثانية .

ـ ولكن ، ماذا قالت لك ؟ هل طلبت منك شيئاً ؟

ـ قالت يجب أن أذهب لزيارتها دائماً ، لأنها وحيدة تماماً ، ووعدت

أن تتحفني بشيء... قالت يجب ألا أخبر أحداً بأنني كنت عندها . قالت إنك ستغضبين مني لو عرفت .

فتمتمت ايلينشنا بغضب مكتوم :

ـ هكذا! حسن ، وهل سألتك عن شيء ؟

ـ نعم .

ـ ماذا سألتك ؟ هيا أخبرني ، يا حبيبي . لا تخف .

ـ سألتني إن كنت أشتاق الى أبي . قلت نعم . وسألتني متى سيعود وما هي أخباره ، فقلت إنني لا أدري وإنه يقاتل في الحرب . ثم أجلستني على ركبتها وحكت لي حكاية عن الجن (وتألقت عينا ميشاتكا وابتسمت شفتاه) ، كانت حكاية حلوة . عن شخص اسمه فانيا ، وكيف حملته البجعات على أجنحتها ، وعن باباياغا الساحرة .

زمت ايلينشنا شفتيها فيما كانت تستمع الى اعتراف ميشاتكا . وأخيراً ، قالت له في لهجة صارمة :

ـ إنك لن تذهب هناك بعد الآن ، يا حفيدي . ولا تأخذ منها أية هدايا . عليك ألا تفعل ذلك ، وإلا فسيسمع بذلك جدك ويضربك بالسوط . أرجو من الله أن لا يجعل جدك يكتشف ما فعلت اليوم ، وإلا فإنه سيسلخ لك جلدك . لا تذهب مرة أخرى ، يا طفلي العزيز .

بيد أن ميشاتكا ، وبالرغم من أمر الحظر المشدد ، زار دار أستاخوف ثانية بعد ذلك بيومين . واكتشفت ايلينشنا أمر هذه الزيارة حينما وقع بصرها على قميص ميشاتكا . كان كمه الممزق ، الذي لم تستطع رتقه في الصباح ، قد رُتق بشكل دقيق ، كما كان هناك زرّ جديد من الصدف يشع بياضاً على ياقته . وكانت ايلينشنا تعلم أن دونيا كانت مشغولة بدرس الحبوب فلم يتسنَ لها خلال النهار أن ترتق ثياب الطفلين ، فسألت ميشاتكا لائمة :

ـ زرت الجيران من جديد ؟

فأجاب ميشاتكا بالايجاب في غمرة اضطرابه ، وما لبث أن أضاف :

ـ لن أفعل ذلك مرة أخرى ، يا جدتي ، لا تغضبي مني .

عقدت ايلينشنا العزم على محادثة أكسينيا في الموضوع والطلب إليها أن تترك ميشاتكا لشأنه وألا تستميل رضاه سواء عن طريق الهدايا أو حكاية القصص . وقالت العجوز في سريرتها :

ـ لقد دفعت بناتاليا بعيداً عن هذه الأرض ، والآن تحاول هذه الشيطانة أن تشق طريقها خلل طوايا الطفلين الطيبة ، لكي تصطاد غريغوري بواسطتهما . يا للأفعى! تسعى لكي تصبح كنتي ، وزوجها لايزال حياً! لن يجدي ذلك شيئاً قط . ثم ، هل سيقبلها غريغوري بعد كل هذه المصائب ؟

ولم تكن نظرتها النفاذة الغيور ، نظرة أم حريصة ، قد غفلت عن حقيقة أن غريغوري كان قد تجنب الالتقاء بأكسينيا طيلة وجوده في القرية . وأدركت أن غريغوري لم يتصرف على هذا النحو خشية كلام الناس ، بل لأنه اعتبر أكسينيا مسؤولة عن مصرع زوجته . وأملت ايلينشنا في سرها أن تؤدي وفاة ناتاليا الى انفصال غريغوري عن أكسينيا نهائياً ، وألا تغدو أكسينيا في يوم ما فرداً في عائلة ميليخوف .

في المساء نفسه ، وقع نظر ايلينشنا على أكسينيا عند المرسى على الدون ، فنادتها :

ـ اسمعي ، تعالي هنا لحظة ، أريد أن أحدثك...

فأنزلت أكسينيا سطليها وسارت نحو ايلينشنا بهدوء وحيتها . فشرعت ايلينشنا تتحدث ، وهي تجيل بصرها في وجه جارتها الجميل الممقوت :

ـ اسمعي ، يا عزيزتي . لماذا تحاولين سلب أطفال غيرك من الناس ؟ لماذا تدعين الصبي وتتقربين إليه ؟ من طلب منك رتق قميصه وإعطاءه الهدايا ؟ ما الذي في ذهنك ؟... تظنين أن أحداً لا يرعاه ، بعد أن توفيت والدته ؟ أم أننا لا نستطيع تدبير أمورنا بدونك ؟ أليس لديك ما يكفي من الضمير ، لا أنت ولا عينيك الوقحتين ؟

فتساءلت أكسينيا ، والغضب يتّقد في صدرها :

ـ ماذا فعلت من سوء ؟ لماذا تشتمين ، يا جدة ؟

ـ كيف هذا : ماذا فعلت من سوء ؟ هل لديك حق في مس ابن ناتاليا ، وأنت التي دفعت بها الى القبر ؟

ـ ما هذا ، يا جدة! عودي الى صوابك! من دفع بها الى القبر ؟ هي التي قتلت نفسها .

ـ أولم يكن ذلك بسببك ؟

ـ أنا لا علم لي بذلك مطلقاً .

فصرخت ايلينشنا بانفعال :

ـ لكنني ، أنا ، أعلم .

ـ لا تصرخي ، يا عجوز! لست كنتك ، كي تصرخي في . لدي زوج ، وهو الذي يتولى مهمة الصراخ!

ـ أنا أرى ما في داخلك! وأستطيع أن أرى حتى ما تأملين! أنت لست كنتي ، لكنك ترغبين في أن تكونيها! تريدين في البدء أن تكسبي الطفلين الى جانبك ، ثم تتقربين الى غريشا . صحيح أم لا ؟

ـ ليست عندي أية نية في أن أصبح كنتك . أتراك سائرة نحو الجنون ، يا عجوز ؟ لي زوج مايزال على قيد الحياة .

ـ فعلاً وبالضبط . تحاولين أن تتخلصي من زوج حي وتربطي نفسك بآخر!

فاستحال وجه أكسينيا شاحباً ، على نحو ملحوظ ، وقالت :

ـ أنا أعرف لماذا تلصقين التهم بي وتسيئين إليّ . أنا لم أربط نفسي بأي رجل مطلقاً ، ولا نية لي في ذلك أبداً . أما بخصوص مودتي لحفيدك ، فأي ضرر في هذا ؟ أنت تعرفين تمام المعرفة أنني بلا أطفال ويسعدني أن أرى أطفال الآخرين ، ولهذا دعوته . أما فيما يتعلق بإعطائي الهدايا له ، فقد أعطيته قطعة من السكر ، إن كانت هذه ما تسمينها هدايا! ثم ، ماذا لو أهديت له شيئاً ؟ أنت تهرفين بما لا يدري به غير الله!

ـ لم يحصل أن دعوته الى بيتك حينما كانت أمه على قيد الحياة . ولكن ، ما أن توفيت ناتاليا حتى غدوت فجأة طيبة عطوفاً .

فأجابت أكسينيا وشبح ابتسامة يتخايل على شفتيها :

ـ كان يزورني حتى حينما كانت ناتاليا على قيد الحياة!

ـ لا تكذبي ، أيتها السفيهة الصفيقة!

ـ اسأليه ، ثم اهرفي ما شئت!

ـ حسن ، أنا لا أهتم بما كان . ولكن ، حذار من دعوته الى بيتك بعد اليوم . ولا تتصوري أنك ستنالين رضى غريغوري بهذه الوسيلة . لن تصبحي زوجته مطلقاً ، اعلمي هذا!

فقالت أكسينيا ، وقد شوه الغضب وجهها :

ـ اخرسي! إنه لا يستشيرك! ثم لا تدسي أنفك في شؤون الآخرين!

وكانت ايلينشنا على وشك أن ترد بشيء ، لكن أكسينيا استدارت بصمت ومضت الى سطليها ، ورفعت النير الى فوق كتفيها وراحت تخطو بسرعة صاعدة في الممشى والماء يطشّ في السطلين .

ومنذ ذلك اليوم ، غدت أكسينيا إذا التقت بأحد من آل ميليخوف ، لا تنبس بكلمة تحية له ، بل تمر بأنفة شيطانية ومنخرين موسعين . بيد أنها حين كانت ترى ميشاتكا بمفرده ، تجيل بصرها حولها في استيحاء ، فإذا لم تجد أحداً في الجوار ، ركضت إليه ومالت عليه وضمته الى صدرها . وتظل تهمس همسات متقطعة وهي تضحك وتبكي ، وتقبّل جبينه الملفوح وعينيه الميليخوفيتين التركيتين ، السوداوين ، الصارمتين :

ـ يا عزيزي الصغير غريغورييفتش! يا حبيبي! لكم اشتقت لك! إن خالتك أكسينيا حمقاء... آه ، وأية حمقاء!

وعيناها الدامعتان تشعان سعادة مثل فتاة يافعة .

في نهاية آب ، جُند بانتلاي . وخرج الى الجبهة أيضاً مثل كل القوزاق القادرين على حمل السلاح في تتارسكي . ولم يبق من الذكور في القرية

سوى جرحى الحرب والصبيان والعجزة . وشملت التعبئة الجميع حتى آخر رجل . ولم تعف اللجان الطبية إلا ذوي العاهات البدنية البارزة .

وحين تسلم بانتلاي الأمر من أتمان القرية للحضور في منطقة التجمع ، ودّع على عجل عجوزه وحفيديه ودونيا ، وركع على ركبتيه محمحماً . فحنى رأسه الى الأرض مرتين ، وقال وهو يرسم اشارة الصليب أمام الأيقونات :

ـ وداعاً يا أعزائي . يبدو أن أحدنا لن يرى الآخر بعد الآن فقد جاءت الساعة الأخيرة . ونصيحتي لكما هي : ادرسا الحبوب في الليل والنهار معاً ، وحاولا أن تنتهيا منها قبل هطول الأمطار . وإذا دعت الحاجة ، أجّرا رجلاً لمساعدتكما ، وإذا لم أعد في الخريف ، قوما بالأعمال بدوني ، أحرثا الحقول الخريفية بكل ما فيكما من قوة . وابذرا ذرة ، على الأقل فدانين منها . افتحي عينيك ، يا عجوز ، وقومي بالعمل على النحو المطلوب ، ولا تعوّدي يديك على الكسل! فإذا عدنا ، أنا وغريغوري ، أو لم نعد ، فستحتاجون الى الحبوب أكثر من أي شيء آخر . الحرب حرب ، ولكن الحياة بلا خبز حياة بائسة . طيب ، ليحفظكم الله!

رافقت ايلينشنا زوجها الى الساحة ، ولبثت تراقبه آخر مرة فيما مضى يعرج الى جانب كريستونيا ، مسرعين وراء العربة ، ثم مسحت بوزرتها عينيها المنتفختين واتخذت طريقها عائدة الى البيت دون أن تلقي نظرة الى الخلف . كانت ثمة كومة من الحنطة في انتظارها في ساحة درس الحبوب ، واللبن على الموقد والطفلان لم يطعما شيئاً منذ الصباح ، وغير ذلك من الأعمال التي يجب أن توليها العجوز اهتمامها . فأسرعت نحو البيت دونما توقف ، ودون الانخراط في أحاديث مع النسوة الأخريات ، واكتفت بهز رأسها ايجاباً حينما كانت واحدة من معارفها تسأل في تعاطف وإشفاق :

ـ إذن ، فقد ودّعت جنديّك ؟

ثم مرت بضعة أيام . وذات يوم ، كانت ايلينشنا قد حلبت البقرات في الفجر ، ثم قادتها الى الزقاق ، وكانت بصدد أن تعود الى الفناء حين تناهى

الى أذنيها رعد مكتوم مقبض . فأجالت بصرها في السماء . غير أنها لم تستطع أن ترى غيمة على صفحتها . وبعد قليل ، عاد الرعد من جديد .

فسألها راعي القطيع المسنّ وهو يجمع البقرات :

ـ أتسمعين تلك الموسيقى ، أيتها العجوز ؟

ـ أية موسيقى ؟

ـ عجباً! كل تلك الموسيقى ذات النغمات الواطئة .

ـ أسمعها فعلاً ، لكنني لا أستطيع أن أجزم ما هي .

ـ ستجزمين عما قريب . حينما تضرب القرية من هناك ، ستجزمين في الحال! ذلك رمي مدافع . إنهم ينتزعون مصارين كهولنا...

فرسمت ايلينشنا اشارة الصليب عليها ودلفت في صمت خلل البوابة الصغرى .

ظل رمي المدافع يرسل هديره أربعة أيام متواصلة . وكان القصف عالياً بشكل بارز في الفجر والغسق . ولكن ، حينما كانت تهب ريح شمالية شرقية ، كان في الإمكان سماع رعود المعارك البعيدة في منتصف النهار أيضاً . فكان العمل يتوقف لحظة في ساحات درس الحبوب ، وترسم النسوة اشارات الصليب على أنفسهن ويتنهدن نهدات عميقة وهنّ يتذكّرن أعزاءهن بالدعاء . ثم تعود الدارسات الصخرية تهدر من جديد فوق ساحات درس الحبوب ، والصبية السائقون يستحثون الخيل والثيران ويزاول يوم الكدح حقوقه التي لا تنفصم . وكانت آخر أيام آب لطيفة جافة على نحو عجيب . وراحت الريح تحمل غبار قشور الحبوب خلل القرية ، فعلقت في كل مكان رائحة تبن الذرة الحلوة ، وبالرغم من أن الشمس كانت لاتزال شديدة الوطأة ، إلا أن مقدم الخريف غدا بادياً في كل مكان ، وانعكست أوراق الشيح الذابلة الرمادية ، بلون الحمام ، على أرضية المرعى فبدت مشوبة ببياض خفيف ، واستحالت ذؤابات الحور القائمة وراء الدون صفراء اللون ، واشتد فواح عطر تفاح الخريف في البساتين ، وغدت الآفاق النائية واضحة

للعيان كما هو شأنها في الخريف ، وشوهدت الأسراب الأولى لطيور الكراكي المهاجرة في الحقول المحصودة .

وعلى طريق «هتمان» العام كانت قوافل الحمل تنطلق من الشرق الى الغرب حاملة المؤن العسكرية الى حيث المعابر على الدون ، وشرع اللاجئون يصلون الى القرى الواقعة على ضفة الدون . قالوا إن القوزاق كانوا يتراجعون ، وهم يقاتلون أثناء تراجعهم . وأفاد بعضهم أن هذا التقهقر كان متعمداً ، الغرض منه جرّ الحمر الى الداخل ثم الإحاطة بهم وإفناؤهم . وبدأ البعض من أهالي تتاركسي يعدون العدة سراً للهرب . فأشبعوا ثيرانهم وخيلهم ، ودفنوا داخل حفر ، ليلاً ، حبوبهم والصناديق الحاوية أثمن ممتلكاتهم . أما رمي المدافع ، الذي كان قد انقطع وقتئذ ، فقد استؤنف في الخامس من أيلول بقصف أشد ، وغدا الآن أوضح رعيداً وأرهب وعيداً . كان القتال يدور على مبعدة حوالي أربعين فرستا من الدون ، الى الشمال الشرقي من تتارسكي . وفي اليوم الثاني ، سُمع رمي المدافع من جهة المجرى الأعلى ، ومن الغرب أيضاً . كانت الجبهة تقترب باطراد من النهر .

حينما سمعت ايلينشنا بأن أغلب القرويين كانوا يعدون العدة للهرب ، اقترحت على دونيا أن تتهيآ هما أيضاً للرحيل . وتملّكها شعور بالذهول والحيرة ، ولم تدر ما الذي ينبغي عليها أن تفعل بشأن الحقل ، والبيت : هل تترك كل شيء وتخرج مع الآخرين ، أم تبقى في البيت . لقد تحدث بانتلاي قبل رحيله عن درس الحبوب والحرث والمواشي ، لكنه لم ينطق بكلمة عما يمكن أن تفعلاه حينما تقترب الجبهة من تتارسكي . وأخيراً ، قررت ايلينشنا ، أن تسفّر دونيا والطفلين مع أغلى ممتلكاتهم بصحبة أحد القرويين ، وأن تبقى هي في الدار حتى ولو احتل الحمر القرية .

وفي ليلة السابع عشر من أيلول وصل بانتلاي الى الدار دون أن يتوقعه أحد . كان قد قدم ماشياً على قدميه من مكان ما على مقربة من مركز منطقة كازانسكايا ، وكان منهوك القوى ، سيئ المزاج . وبعد أن استراح

زهاء نصف ساعة ، جلس الى المائدة وشرع يأكل بصورة لم تكن ايلينشنا قد شهدت مثلها خلال كل حياتهما معاً . حشا ما مقداره نصف سطل من حساء الكرنب الخفيف في بلعومه ، ثم انكب على عصيدة الدخن . فصفقت ايلينشنا كفيها مذهولة ، وقالت :

ـ يا إلهي! أتدري كيف تأكل ، يا بروكوفتش! أستطيع أن أجزم بأنك لم تأكل شيئاً لمدة ثلاثة أيام!

ـ حسن ، وهل تظنين أنني أكلت شيئاً ، أيتها الحمقاء العجوز ؟ في الثلاثة أيام السابقة لم يدخل حلقي مقدار قطرة ندى .

ـ لماذا ؟ ألا يطعمونكم في الجيش إذن ؟

فأجاب بانتلاي وهو يموء كالقطة وفمه محشو حتى شفتيه :

ـ أطعمهم الشيطان! كل ما يستطيع المرء وضع اليد عليه ، يلتهمه . لكنني لم أتعلم السرقة بعد . هذا كله سهل بالنسبة للفتيان إذ لم تعد لهم بقية من ضمير . عودتهم هذه الحرب اللعينة على النهب والسلب بشكل يبعث على الرعدة في أوصالي . لكنني تغلبت على الصدمة أخيراً . إنهم يختطفون كل ما تقع عليه عينهم وينتشلونه... هذه ليست حرباً بل هي غضب من عند الله!

ـ من الأفضل ألا تلتهم كل هذا الطعام دفعة واحدة . فقد يحدث لك شيء . أنظر كيف انتفخت مثل عنكبوت .

ـ اسكتي! اجلبي شيئاً من اللبن ، أكبر كوز لديك .

فانفجرت ايلينشنا باكية فيما كانت ترى الى زوجها الجائع . وسألته حينما تنحى أخيراً عن صحنه :

ـ هل عدت نهائياً ؟

فأجاب متملصاً :

ـ سنرى!

ـ أحسب أنهم سمحوا لكم ، أنتم الشيوخ ، بالعودة الى أهاليكم ؟

ـ لم يسمحوا لأي امرئ بالعودة الى أهله . كيف يستطيعون ذلك حينما يتقدم الحمر باتجاه الدون ؟ كل ما في الأمر أنني تركت وحدتي .

فتساءلت ايلينشنا فزعة :

ـ ولكن ، ألا تتحمل المسؤولية عن ذلك ؟

ـ قد أتحمل إذا أمسكوا بي .

ـ كيف ؟ أتنوي إخفاء نفسك إذن ؟

ـ وهل كنت تظنين أنني سأذهب لزيارة الأصدقاء أو للرقص والغناء في ساحة القرية ؟ أف ، يا لك من بليدة حمقاء .

وبصق بانتلاي في خضم حنقه ، غير أن العجوز لم تتوقف عن مضايقته :

ـ أوه ، يا إلهي ، يا إلهي! كأن أحزاننا لا تكفينا ، والآن سيلقون القبض عليك .

فقال بانتلاي في كلال :

ـ حسن ، قد يكون السجن أفضل من أن يجرجر المرء نفسه وبندقيته على السهب . أنا لست شاباً بينهم حتى أقطع مسيرة أربعين فرستا في اليوم ، أحفر الخنادق ، حانياً ظهري ، وأزحف على الأرض متحاشياً الرصاص . الشيطان نفسه لا يستطيع ذلك! لي رفيق من كريفايا رتشكا أصابته رصاصة تحت عظم الترقوة الأيسر تماماً ، ومات في الحال دون أن يرفس رفسة واحدة . هذا عمل قليل المتعة!

ثم حمل العجوز بندقيته وكيس طلقاته وخبأهما في مأوى التبن . وحينما سألته ايلينشنا عن سترته ، أجاب مكتئباً ومتردداً :

ـ أتلفتها ، أو بالأحرى ، رميتها . فعلى مبعدة من شوميلنسك كان ضغط الحمر علينا شديداً بحيث ألقى الجميع كل شيء ولاذوا بالفرار كالمجانين . ولم يكن هناك متسع من الوقت للاهتمام بالسترة وما شاكلها... كان لبعض الرجال فروات ، وألقوا بها هي أيضاً . ثم ، لماذا بحق ابليس تفكرين بتلك السترة ؟ وليتها كانت سترة جيدة... لم تكن تليق حتى بشحاذ .

وفي واقع الحال ، كانت السترة جيدة ، لكن كل ما تخلى العجوز عنه لا ينفع لشيء ، حسب قوله . فتلك كانت طريقته في تعزية نفسه . وكانت ايلينشنا تدرك ذلك ، ولهذا لم تشأ أن تجادل في نوعية السترة وقيمتها .

في تلك الليلة اتخذوا قراراً ، في اجتماع عائلي ، بأن يظل بانتلاي وايلينشنا مع الطفلين في الدار حتى اللحظة الأخيرة ، لرعاية ممتلكاتهم ودفن الحبوب التي كانت قد دُرست ، وتذهب دونيا مع الثورين العجوزين وصناديق العائلة الى أقرباء لهم في قرية لاتيشيف الوقعة على نهر تشير .

على أن هذه الخطة لم يكتب لها أن تتحقق كاملة . ففي صباح اليوم التالي ودّعوا دونيا ، ولكن ما أن حل الظهر حتى دخلت تتارسكي مفرزة تأديبية من الكالميكيين . ولابد أن أحد قرويي تتارسكي كان قد شاهد بانتلاي ميمماً صوب بيته ، إذ لم تمض ساعة على وصول الكالميكيين حتى هذبوا الى فناء ميليخوف . وحينما وقع بصر بانتلاي على الفرسان أسرع يرتقي الى العلية بخفة ونشاط فائقين . وخرجت ايلينشنا لمقابلة الطارقين . فسألها كالميكي متقدم في السن ، متين البنية ، يحمل شرائط رئيس عرفاء ، وهو يترجل وينفذ خلل البوابة الصغيرة متخطياً ايلينشنا :

ـ أين عجوزك ؟

فأجابته ايلينشنا بخشونة :

ـ في الجبهة . وأين يمكن أن يكون ؟

ـ سيري أمامنا الى البيت . سنفتشه .

ـ ولماذا ؟

فقال عريف ، فتي المظهر ، وهو يهز رأسه ، لائماً وكاشفاً عن أسنان بيض متراصة :

ـ لنبحث عن العجوز . آه ، يا للعار! عجوز مثلك ، وتكذبين!

ـ لا تكشر ، أيها الكافر الدنس! قلت إنه ليس هنا ، وهذا يعني ليس هنا!

فقال الكالميكي المستاء بلهجة صارمة :
ـ كفاك ثرثرة! سيري أمامنا الى البيت ، وإلا فسندخل بأنفسنا .
وخطا بثبات نحو السقيفة على قدميه الفحجاوين .
فتشوا الغرف تفتيشاً دقيقاً ثم تحدثوا باللغة الكالميكية ، فمضى اثنان منهم ليفتشا الفناء الخلفي ، فيما شمر آخر بنطاله الفضفاض ، وكان قصيراً قاتم السمرة ، يكاد يكون أسود السحنة ، ذا وجه مجدور وأنفس أفطس ، وخرج الى السقيفة . ومن خلل الباب المشرع ، شاهدت ايلينشنا الكالميكي يقفز ويتعلق بلوح السقف بيديه ويرفع نفسه بحركة حاذقة . وبعد ذلك بخمس دقائق ، قفز الى الأرض ثانية ، ومن ورائه كان بانتلاي ينزل في حذر محمحماً وقد تلطخ وجهه بالطين واشتبك نسيج عنكبوت بلحيته . وحين وقع نظره على زوجته التي كانت تقف مزمومة الشفتين ، قال :
ـ إذن ، فقد عثروا عليّ . لعنة الله عليهم! لابد أن أحدهم قد أخبرهم...
واقتيد تحت حراسة الى مركز منطقة كارغينسكايا ، حيث كانت تُعقد جلسات محكمة الميدان العرفية . فبكت ايلينشنا قليلاً ، وما لبثت ، حين بلغ سماعها من جديد رمي المدافع وثرثرة الرشاشات الواضحة تأتي من وراء الدون ، أن دخلت الى مخزن الحبوب لكي تخفي بعضاً من الحبوب على الأقل .

٢٢

كان أربعة عشر هارباً ينتظرون محاكمتهم . وكانت المحاكمات تجري بصورة مختصرة وقاسية . فكان رئيس المحكمة المتقدم في السن ، وهو برتبة نقيب ، يسأل المتهم عن اسمه وكنيته ويكتشف المدة التي قضاها هارباً ، ثم يتبادل بضع كلمات خافتة مع العضوين الآخرين ـ وكان أحدهما برتبة ملازم وقد فقد إحدى ذراعيه ، والثاني عريفاً ملتحياً مكتنز الوجه والجسم من أثر حياة لم يعرف خلالها التعب ـ ويصدر الحكم . وكان معظم

الهاربين يتلقون أحكاماً بالضرب بالعصا ، فينفذ الحكم كالميكيون في بيت مهجور أفرد خصيصاً لهذا الغرض . وكان الهرب من «جيش الدون» المحارب قد اتسع نطاقه الى حد لم يعد سليماً القيام بعملية الجلد على مرأى ومسمع من الناس ، كما كانت الحال عام ١٩١٨ .

كان بانتلاي سادس من استدعى للمثول أمام المحكمة . فوقف أمام منصة الحكم منفعلاً ، شاحب الوجه ، ويداه مهدولتان حدر طيات بنطلونه .

سأل النقيب ، دون أن ينظر الى المتهم :

ـ لقبك ؟

ـ ميليخوف ، يا صاحب السعادة .

ـ اسمك الأول واسم أبيك ؟

ـ بانتلاي بروكوفتش ، يا صاحب السعادة .

فرفع النقيب عينيه عن أوراقه وسمّر نظرته على العجوز وسأله :

ـ من أين أنت ؟

ـ من قرية تتارسكي في منطقة فيشنسكايا ، يا صاحب السعادة .

ـ ألست والد آمر السرية غريغوري ميليخوف ، ها ؟

ـ بلى ، يا صاحب السعادة .

واستعاد بانتلاي في الحال معنوياته ، شاعراً بأن العصا بدأت تبتعد عن جسمه الكهل .

وسأله النقيب ، دون أن يحوّل عينيه الشائكتين عن وجهه الغائر :

ـ اسمع ، ألست خجلاً من نفسك ؟

وعند ذلك ، حط العجوز يده اليسرى على صدره ، مخالفاً بذلك الأصول وقال في لهجة باكية :

ـ يا صاحب السعادة! يا حضرة النقيب! اجعلني أدعو لك بقية عمري! لا تحكم عليّ بالجلد! كان لديّ ولدان متزوجان . أكبرهما قتله الحمر... لديّ أحفاد ، وهل من الضروري جلد عجوز نكد الطالع مثلي ؟

فقاطعه الملازم الأقطع ، وزاويتا فمه تختلجان بعصبية :

ـ يجب علينا أن نعلم الكبار والصغار معاً كيف يخدمون . هل حسبت أنك ستكافأ بالأوسمة جزاء هربك من الجيش ؟

ـ لا حاجة لي بوسام... أرسلني الى كتيبتي ولسوف أخدم بإخلاص وصدق... أنا نفسي لا أدري كيف هربت . لابد أن روحاً نجسة حلت بي .

ومضى بانتلاي يتمتم كلاماً عن الحبوب غير المدروسة ، وعرجه ، وعن الحقل المهمل . بيد أن النقيب أسكته بحركة من يده ، ثم مال على الملازم وهمس بشيء في أذنه . فهز الملازم رأسه موافقاً ، والتفت النقيب الى بانتلاي :

ـ بديع! هل قلت كل ما شئت أن تقول ؟ أنا أعرف ولدك ، وأستغرب أن يكون والده على هذه الشاكلة . متى هربت من الجيش ؟ قبل أسبوع ؟ حسن ، فهل تود أن يحتل الحمر قريتك ويسلخوا لك جلدك ؟ أهذه هي القدوة التي تظهرها للقوزاق الشباب ؟ بحكم القانون ، يجب أن ندينك ونصدر عليك حكماً بالعقاب البدني . ولكن ، تقديراً لرتبة ولدك باعتباره ضابطاً ، فأنا أعفيك من هذا العار . هل كنت ضابط صف ؟

ـ نعم ، يا صاحب السعادة .

ـ بأية رتبة ؟

ـ كنت نائب عريف ، يا صاحب السعادة .

فرفع النقيب صوته وقال آمراً :

ـ تنزل الى رتبة جندي نفر! التحق بكتيبتك فوراً! بلغ آمر سريتك بأنك قد جرّدت من رتبة نائب عريف بقرار من محكمة الميدان العرفية . هل حصلت على أية أوسمة في هذه الحرب أو الحرب السابقة ؟... أغرب عن وجهي!

فخرج بانتلاي ، يكاد يطير من الفرح ، ورسم اشارة الصليب على نفسه أمام كنيسة ، ثم اتخذ طريقاً مستقيماً عبر التلال باتجاه قريته . وفيما كان

يقزل عبر حقل الحصيد وقد تكاثرت عليه أعشاب المروج ، كان يحدث نفسه :
ـ حسن ، لسوف أختبئ هذه المرة بشكل أفضل بكثير! لسوف يحتاجون الى الأبالسة أنفسها كي يعثروا عليّ . وليرسلوا ثلاث سرايا من الكالميكيين للبحث عني!
وحينما بلغ السهب ، قرر أن من الأفضل له أن يسير على الطريق العام لكي لا يجتذب اهتمام العابرين ركوباً . فقال لنفسه ، بصوت عال :
ـ لابد أنهم سيحسبونني هارباً . وإذا صادفت جنوداً فإنهم سينزلون عليّ السوط دون أن يستجوبوني أولاً .
وانعطف عن الأرض المحروثة واتخذ مسلكاً صيفياً مهملاً يغطيه نبات الطلح . ولسبب ما لم يعد يعتبر نفسه هارباً من الجيش .
صار كلما يقترب من الدون يلتقي بأعداد أكبر من عربات اللاجئين . كانت مشاهد التقهقر ، التي كانت قد حدثت في الربيع ، تتكرر الآن من جديد . فقد امتدت في شتى الاتجاهات فوق السهب عربات حمل وعربات بريتزكا ، محملة بشتى الأمتعة المنزلية ، وقطعان من الماشية الخائرة ، وكأنها خيالة تمضي في مسيرة عسكرية ، وقطعان أغنام تثير سحائب من غبار . وامتلأت أرجاء السهب الساكنة بضجيج متصل مزعج من صرير العجلات وصهيل الخيل والصحيات البشرية ووقع سنابك لا تحصى وثغاء الأغنام وبكاء الأطفال .
هتف قوزاقي معصوب الرأس من على عربة عابرة :
ـ إلى أين ذاهب يا جد ؟ ارجع ، فالحمر في أعقابنا تماماً!
فتوقف بانتلاي فزعاً ، وقال :
ـ يكفيك من الكذب! أين الحمر الآن ؟
ـ في الجانب الآخر من الدون . إنهم يقتربون من فيشنسكايا . هل أنت ذاهب لملاقاتهم ؟!
فلما استعاد بانتلاي أنفاسه ، واصل رحلته ، حتى اذا اقترب المساء

كان قد شارف على بلوغ تتارسكي . وفيما كان ينزل حدر التل ظل يجول بعينيه حوله . فأذهله أن يرى القرية تبدو وكأنها مهجورة تماماً . لم يكن في شوارعها أحد ، ونوافذ البيوت مغلقة ، والبيوت ساكنة . ولم تندَ أصوات بشرية من أيما مكان ولا انبعث خوار ماشية . غير أن ثمة حركة ما كانت تجري عند النهر وحينما اقترب بانتلاي ، لم يجد صعوبة في تمييز هياكل قوزاق مسلحين يسحبون جنيبات من النهر ويحملونها الى القرية . فخمن أن تتارسكي قد هجرت تماماً من ساكنيها . فانعطف محترساً الى زقاق جانبي ، ومضى صوب بيته . وكانت ايلينشنا والحفيدان آنذاك جالسين في المطبخ .

فهتف ميشاتكا في فرحة غامرة وهو يطوّق رقبة العجوز بذراعيه :

ـ هو ذا جدي!

فانفجرت ايلينشنا تسكب دموع الفرح ، وقالت خللها :

ـ لم يكن لدي أمل في أن أراك ثانية! حسن ، يا بروكوفتش ، افعل كما تشاء لكنني لا أرغب في البقاء هنا بعد الآن . فليحترق كل شيء عن آخره ، لكنني لن أقوم بحراسة بيت فارغ . لقد ترك القرية كل الباقين تقريباً ، ولكن ها أنني أجلس كالحمقاء مع الطفلين . أعدّ الفرس في الحال ، ولنمض عليها الى حيث نستطيع . هل أطلقوا سراحك ؟

ـ نعم .

ـ نهائياً ؟

ـ نهائياً ، ماداموا لا يعثرون عليّ!

ـ حسن ، إنك لا تستطيع الاختفاء هنا . هذا الصباح ، حينما كان الحمر يطلقون النار من الضفة المقابلة ، كان الأمر فظيعاً . أخذت الطفلين الى داخل القبو طوال مدة اطلاق النار . أما الآن ، فقد أبعدوا . جاء بعض القوزاق يطلبون اللبن ، وقد نصحونا بالجلاء من هنا .

فتساءل بانتلاي مهتماً ، وهو يتفحص عن كثب ثقباً حديثاً أحدثته رصاصة في إطار النافذة :

ـ قوزاق ؟ لعلهم ليسوا من أبناء قريتنا ؟
ـ كلا . إنهم غرباء . من الخوبر ، كما أظن .
فقال بانتلاي متنهداً :
ـ إذن ، يجب أن نذهب .

وفي ساعة متأخرة من المغرب ، حفر تحت كومة الجل ، ودحرج فيها سبع زكائب من القمح ، ثم وارى التراب على نحو متقن ، وكوم فوقها طابوقاً من الجل . وما أن حل الغسق حتى وضع العدة على الفرس وربطها بالعربة الصغيرة ووضع عليها فروتين وزكيبة من الدقيق ، والدخن ، وخروفاً معقول الأرجل ، وربط كلا البقرتين الى الخلف ، وأجلس ايلينشنا والطفلين فوق الزكائب وقال :

ـ حسن ، والآن فلنسر في حفظ الله ورعايته!

وساق العربة الى خارج الفناء ، ثم سلّم الأعنة لزوجته العجوز ، وترجل ليغلق البوابات ، ومضى يسير الى جانب العربة متنشقاً وماسحاً دموعه بكم سترته ، حتى بلغوا التلال .

٢٣

في ١٧ أيلول ، بلغت ضفة الدون وحدات متقدمة من الجيش الأحمر بقيادة شورين ، بعد أن قطعت مسافة ثلاثين فرستا في مسيرة عسكرية خفيفة القيود . وفي صباح ١٨ أيلول ، فتحت البطاريات الحمراء نيرانها على امتداد الخط ما بين أول مدفديتسا ومنطقة كازانسكايا . وأفلح المشاة ، بعد قصف قصير من المدفعية ، في احتلال قرى ومراكز بوكونوفسكايا وبيلانسكايا وفيشنسكايا الواقعة على الضفة اليسرى ، ومع غروب شمس ذلك اليوم كان أكثر من مائة وخمسين فرستا على الشاطئ الأيسر قد أخليت من البيض . وانسحبت سرايا القوزاق بانتظام الى مواقع كانت قد أعدت في

السابق . وكانت جميع وسائل عبور النهر في أيديهم ، عدا جسر فيشنسكايا الذي كان الحمر قد أوشكوا آنذاك على الاستيلاء عليه . بيد أن القوزاق كانوا قد كوموا أكداساً من القش حوله ونقعوا ألواحه الخشبية بالنفط الأبيض بغية احراقه عند تراجعهم . وكانوا على وشك أن يضرموا النار فيه حينما وصل مراسل ، مسرعاً على حصانه ، لينقل نبأ أن احدى سرايا الكتيبة السابعة والثلاثين كانت تتراجع من قرية بيريغوري الى جسر فيشنسكايا . ثم تدفقت السرية المتأخرة في سرعة جنونية نحو الجسر في اللحظة التي كان المشاة الحمر يدخلون الى المكان . وعلى الرغم من وطأة نيران المدافع الرشاشة ، استطاع القوزاق عبور الجسر وأضرموا النار فيه وراءهم ، وقد بلغت خسائرهم في هذه العملية أكثر من عشرة رجال ، ما بين قتيل وجريح ، وعدداً مماثلاً من الخيل .

ظلت كتائب الفرقتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين التابعتين للجيش الأحمر التاسع مسيطرة على الضفة اليسرى للدون حتى نهاية شهر أيلول . كانت القوات المتقابلة يفصلها نهر لم يتجاوز عرضه في تلكم الأيام مائتي ياردة ، وفي أماكن منه سبعين ياردة ، ولم يظهر الحمر أية محاولات قوية لعبوره ، غير أنهم حاولوا ، هنا وهناك ، عند المخاضات ، فردّوا على أعقابهم . ولمدة أسبوعين ، استمر قصف المدفعية واطلاق نيران الاسلحة الصغيرة بشكل قوي على امتداد قطاع الجبهة . كان القوزاق يسيطرون على المرتفعات الهامة وكان في مقدورهم قصف تجمعات أعدائهم في المسالك المؤدية الى الدون ، فيحولون دون بلوغهم ضفة النهر خلال النهار . ولكن ، حيث أن سرايا القوزاق في هذا القطاع كانت تتألف من أضعف القطعات (من شيوخ وفتية بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة) ، فانهم لم يحاولوا من جانبهم عبور الدون أو شن هجوم على الضفة اليسرى لرد الحمر .

ومنذ اليوم الأول لتراجع القوزاق الى الضفة اليمنى ، ظلوا يتوقعون رؤية ألسنة اللهيب ترتفع من القرى التي استولى عليها الحمر ، ولكن العجب

استبد بهم حين مضت الأيام دون أن تلوح نفثة دخان على الضفة اليسرى ، بل ان القرويين الذين عبروا الى صوبهم أثناء الليل أخبروهم أن جنود الجيش الأحمر لم يكونوا يصادرون أية ممتلكات ، بل كانوا يدفعون النقود بسخاء لقاء ما يأخذون من طعام ، بما في ذلك البطيخ ، وبعملة سوفييتية . ولقد أثار ذلك موجة كبيرة من الذهول والاستغراب في صفوف القوزاق . فقد كان يخيل اليهم أن الحمر من الممكن بعد انتفاضة القوزاق ان يدكوا جميع قرى ومراكز مناطق التمرد حتى تمسي تراباً يباباً . وكانوا يتوقعون أن يقوم الحمر بابادة جميع السكان الذين تخلّفوا أثناء التراجع ، أو ابادة الذكور منهم على أقل تقدير ، لكن المعلومات الموثوقة أفادت بأن الحمر لم يؤذوا مواطناً مسالماً واحداً ودلّت جميع الدلائل على أنه لم يكن في نيتهم الانتقام أبداً .

في ليلة التاسع عشر ، قرر قوزاق الخوبر المعسكرون قبالة فيشنسكايا التأكد من ذلك المسلك الغريب من جانب العدو . فضم قوزاقي ، له صوت كالبوق ، راحتيه على هيئة قدح ووضعهما حول فمه وهتف صائحاً :

ـ أنتم ، أيتها الكروش الحمراء! لماذا لا تحرقون بيوتنا ؟ أليس لديكم عيدان ثقاب ؟ تعالوا سباحة الى هنا وسوف نعطيكم بعضاً منها!

فرد عليه صوت جهير من العتمة :

ـ لم نظفر بكم في بيوتكم ، والا لكنا حرقناكم وبيوتكم معاً!

فأجابه القوزاقي بانفعال :

ـ أمسيتم فقراء ، ها ؟ لا شيء تحرقون به ؟

وعاد الجواب الهادئ المرح يرد عليه :

ـ تعال أعبر النهر ، أيها النغل الأبيض ، وسنضع بضع جمرات حارة في سروالك الداخلي تجعلك تحك وتحك جلدك بقية حياتك!

وتبادل الموقعان الأماميان الشتائم وصرخات الهزء ، وبضع صليات من النار ، ثم خلدا الى الصمت .

في أوائل تشرين الأول ، تحولت الى الهجوم القوات الرئيسية لجيش الدون المتكونة من فيلقين عسكريين متجمعين في قطاع كازانسكايا ـ بافلوفسك . أما فيلق الدون الثالث ، الذي بلغ تعداده ٨٠٠٠ حامل حربة وأكثر من ٦٠٠٠ حامل سيف والذي كان معسكراً على جانب الدون على مسافة ليست ببعيدة عن بافلوفسك ، فقد أفلح في رد فرقة الجيش الأحمر السادسة والخمسين ، وشرع يتقدم بنجاح في اتجاه الشرق . وما لبث الفيلق الثاني ، بقيادة الجنرال كونوفالوف ، أن عبر الدون الى الضفة اليسرى . واستطاع ، بغالبية تعداده المتكونة من الخيالة ، أن يتوغل بعيداً داخل مواقع العدو وأن يسدد له عدداً من الضربات القاصمة . فاستدعيت فرقة المشاة الحمراء الحادية والعشرون ، التي كانت حتى ذلك الوقت احتياطية ، وأفلحت في ايقاف تقدم فيلق الدون الثالث بعض الوقت ، غير أنها أجبرت على التراجع تحت الضغط الموحد لكلا فيلقي الدون . وفي اشتباك مرير في الرابع عشر من تشرين الأول ، أباد الفيلق الثاني ، عملياً ، فرقة مشاة الحمر الرابعة عشرة . وما ان انقضى أسبوع حتى ردّ الحمر عن منطقة الضفة اليسرى حتى فيشنسكايا . ولما غدا رأس الجسر الواسع هذا في حوزة فيلقي الدون ، واصلا ضغطهما لاجبار الجيش الأحمر التاسع على التراجع .

وفي الوقت الذي عبر فيه الفيلق الثاني نهر الدون ، قام فيلق الدون الأول ، الذي كان موقعه في منطقة كلتسكايا ، بعبور النهر أيضاً .

وغدت فرق الجناح الأيسر التابعة للجيش الأحمر التاسع مهددة بخطر التطويق ، فأصدر قائد الجبهة الجنوبية الشرقية أمراً بالانسحاب من جديد الى خط يمتد من مصب نهر ايكوريتس الى كوميلزنسكايا . بيد أن الجيش التاسع لم يكن قادراً على الصمود على هذا الخط أيضاً . فقد عبرت من الضفة اليمنى للنهر سرايا قوزاقية عديدة شكلت على نحو عشوائي أثناء التعبئة العامة ، والتحقت بالوحدات النظامية لفيلق الدون الثاني ، وواصلت رد

القوات الحمراء باتجاه الشمال . وما ان حل التاسع والعشرون من تشرين الأول حتى كان البيض قد احتلوا محطتي فيلونوفو وبورفورينو وبلدة نوفوخوبرسك . ومع ذلك ، وعلى الرغم من الانتصارات التي أحرزها جيش الدون في تشرين الأول ، الا أن القوزاق لم تعد لديهم تلك الثقة التي رفعت معنوياتهم في الربيع ، خلال تقدمهم المكلل بالانتصارات صوب الحدود الشمالية للاقليم . وأدرك معظم رجال الخطوط الأمامية أن هذا النصر كان نصراً مؤقتاً وأنهم لن يفلحوا في الصمود الى أبعد من الشتاء .

وسرعان ما تغير الوضع في الجبهة الجنوبية بشكل مفاجئ . وتقررت نتيجة الصراع باندحار «جيش المتطوعين» في اشتباك عام في جبهة أورل ـ كرومي وبالعمليات الرائعة التي أبداها خيالة بوديوني في قطاع فورونيج . وفي تشرين الثاني ، انكفأ «جيش المتطوعين» باتجاه الجنوب ، فكشف بذلك الجناح الأيسر لجيش الدون وجره معه الى التقهقر هو الآخر .

٢٤

عاش بانتلاي مع عائلته في أمان مدة أسبوعين في قرية لاتيشيف الصغيرة . لكنه ما ان سمع أن الحمر قد تراجعوا عن الدون ، حتى استعد للعودة الى قريته .

وحينما بلغوا موضعاً يبعد حوالي خمسة فرستات عن تتارسكي ترجل عن العربة الصغيرة في عزم وتصميم وقال :

ـ أنا لا أطيق هذا الخطو البطيء! ولا يمكن الانطلاق خبباً بهاتين البقرتين اللعينتين! لماذا ، بحق الشيطان ، جئنا بهما ؟ دونيا ، أوقفي ثوريك! وأربطي البقرتين بعربتك ، وسوف أنطلق الى القرية . ربما لم يبق من بيتنا سوى الرماد .

وبهمة همزها نفاد صبره ، نقل الطفلين من عربته الصغيرة الى عربة

دونيا الكبيرة ، كما وضع فيها جميع الحمل الفائض ، وانطلقت عربته ، التي غدت خفيفة آنذاك ، تقعقع على الطريق كثير النتوءات . وما ان قطع فرستا حتى غمر العرق جسم الفرس . لم يحدث قط ان عاملها سيدها بمثل هذه القساوة . وظل يلفحها بسوطه بدون توقف ودون أن ينحّيه جانباً قط .

فصرخت ايلينشنا ، متشبثة بدعائم العربة الصغيرة ، ووجهها يتلوى عذاباً من الارتجاج :

ـ ستهلك الفرس! لمَ كل هذه السرعة الجنونية ؟

فأجاب بانتلاي من خلال أسنانه المصكوكة :

ـ على أية حال ، لن تأتي هذه الفرس الى قبري لتبكي علي... والآن! ها! أيتها الشيطانة! تعرقين ، ها ؟ سأجعلك تعرقين صدقاً! ربما لم يبق من بيتنا غير الأعقاب...

غير أن مخاوفه لم تتحقق . كان البيت لا يزال قائماً . لكن نوافذه كلها تقريباً كانت مهشمة ، كما انتزع الباب من مفاصله ، والجدران مثقبة بالرصاص . وكان كل ما في الفناء يفصح عن الاهمال والخراب . وكان ركن من الاسطبل قد شطرته قذيفة ، بينما حفرت قذيفة ثانية تجويفاً غير عميق بالقرب من الجدار ، محطمة اطار البئر ، وشاطرة رافعته الى نصفين . لقد جاءت الحرب بنفسها الى دار بانتلاي ، وهي التي كان قد رحل هرباً منها ، وولت مخلّفة آثار الدمار البشعة . ومع ذلك ، فقد كان الخراب الذي أنزله بالحقل قوزاق الخوبر الذين كانوا معسكرين في تتارسكي ، أفظع وأوسع . ففي الزريبة كانوا قد قذفوا بالاسيجة أرضاً وحفروا خنادق بعمق قامة . ولكي يتجنبوا مزيداً من العمل ، كانوا قد هدموا أحد أسيجة مخزن الغلال وقطعوه واستخدموا أعمدته لدعم خنادقهم ، كما أسقطوا حجارة من الجدار الحجري ليصنعوا بها مكمناً لرشاشة . وأتلفوا نصف كومة من التبن في اطعام خيلهم بلا أدنى احتراس وأضرموا النار في أسيجة الاسفندان وهدموا التنور .

وحينما تفحّص بانتلاي البيت والمرافق الخارجية ، أمسك برأسه بين

يديه . وفي هذه المرة ، لم تعاوده عادته في التقليل من قيمة خساراته . اللعنة ، فما كان بمستطاعه أن يقول ان كل ما فقده لم يكن قد كلفه شيئاً وانه لم يكن ذا منفعة الا كحطب! فمخزن الحبوب ليس سترة ، ولم تكن كلفة بنانه بالشيء الزهيد!

وقالت ايلنشنا متنهدة :

ـ يبدو وكأنما لم يكن هناك مخزن للغلال في يوم ما .

فقال بانتلاي بسرعة :

ـ لم يكن ذا...

لكنه لم يكمل جملته ، بل لوح يده ومضى الى ساحة درس الحبوب .

كانت جدران البيت المجدورة ، وقد ترك الرصاص وشظايا القذائف ندباً عليها ، تبدو مهملة الى حدّ فظيع . وكانت الريح تصفر خلل الغرف ، والغبار متراكماً على الموائد والمصطبات . لكم ستستغرق من الوقت اعادة كل شيء الى حالته الاعتيادية!

وفي اليوم الثاني ذهب بانتلاي على صهوة فرسه الى فيشنسكايا ، واستطاع ، بعد شيء من المماحكة مع صديقه الممرض ، أن ينتزع منه وثيقة تقر بأن القوزاقي بانتلاي بروكوفتش ميليخوف ، نظراً لاصابته في ساقه ، غير قادر على السير ، وأنه يحتاج الى دورة علاجية . فأنقذت هذه الوثيقة العجوز من خطر اعادته الى الجبهة . فقدمها الى الأتمان ، وصار كلما ذهب الى ادارة القرية يميل بانحناءة أشد على عصاه ويقزل على كل ساق بالتناوب .

لم تشهد الحياة في تتارسكي من قبل مثل تلك الفوضى التي شهدتها بعد العودة من التراجع . جعل الناس يتنقلون من فناء الى فناء لتشخيص ممتلكاتهم التي كان قوزاق الخوبر قد بعثروها . وهاموا في السهب وخلل المسارب بحثاً عن بقراتهم السائبة . وقد حدث أن اختفى ، في اليوم الأول الذي تعرضت فيه تتارسكي لقصف المدفعية ، قطيع يتكون من ثلاثمائة رأس

من الأغنام من طرف القرية الأعلى . واستناداً الى أقوال الراعي ، فان احدى القذائف انفجرت أمام القطيع الراعي مباشرة ، فلاذت الأغنام بالفرار نحو السهب وهي تليح بمؤخراتها الثقيلة ، واختفت من يومئذ . ثم عثر عليها على مبعدة حوالي أربعين فرستا بعد مضي أسبوع على عودة السكان الى قريتهم المهجورة . على أنه تبين ، بعد اعادتها الى القرية وفرزها ، أن أكثر من نصف القطيع كان غريباً ، اذ كانت هذه الأغنام تحمل مشابك غير معروفة في آذانها ، بينما كان أكثر من خمسين رأساً من أغنام تتارسكي لا يزال مفقوداً .

وعثر على ماكنة خياطة تعود لآل بوغاتيريوف في حديقة ميليخوف ، بينما اكتشف بانتلاي السقف الحديدي لمخزن غلاله ملقى في ساحة درس الحبوب في فناء أنيكوشكا . وقد حدث الشيء نفسه في جميع القرى المجاورة . ولبث أهالي القرى القريبة والبعيدة الواقعة في منطقة ضفة الدون ، زمناً طويلاً ، يؤمون تتارسكي ، وظلت ، فيما بعد ذلك أمداً مديداً ، والأسئلة تتناقل على الألسن :

ـ لعلك شاهدت بقرتي ، وهي حمراء ذات غرة بيضاء على جبهتها ، وقرنها الأيسر قصير ، مكسور ؟

ـ ثور صغير ، أشهب ، هل حدث أن شاهدته تائهاً في قريتكم ؟

وليس ثمة ريب في أن أكثر من ثور صغير كان قد سلق في قزانات ومطابخ وسرايا القوزاق . بيد أن الأمل ظلّ يستحث أصحابها على التجول في أرجاء السهب بحثاً عنها ، حتى اقتنعوا بأنهم لن يعثروا قطّ على كل ما كانوا قد فقدوه .

الآن ، وقد أعفي بانتلاي من الخدمة ، انطلق يصلح المرافق الخارجية والاسيجة . لكن حزماً فوق حزم من الحبوب غير المدروسة ظلت مكومة في ساحة درس الحبوب دون أن يشرع العجوز بدرسها ، وأنى له ذلك والحقل بلا سياج ، ومخزن الغلال بلا وجود ، وكل شيء في الحقل ينبئ عن فوضى

معيبة ؟ يضاف الى ذلك ، أن الخريف أتى بطقس لطيف ، فلم تعد هناك حاجة للاسراع بالدرس .

قامت ايلينشنا ودونيا بطلاء الدار بالكلس من جديد وتبييضه ، كما ساعدتا بانتلاي في اقامة سياج مؤقت وأداء أعمال أخرى . وأفلحوا ، بطريقة ما ، في العثور على زجاج ، فأعادوا تزجيج النوافذ ، وأزاحوا الركام من المطبخ الصيفي والبئر . وقد نزل العجوز بنفسه في البئر ، فأصيب جراء ذلك بزكام ولبث أسبوعاً يسعل ويعطس بينما كان قميصه منقعاً بالعرق . ولكن ، ما كان عليه سوى أن يشرب قنينتين من الفودكا المنزلية في جلسة واحدة ، ثم يستلقي بعضاً من الوقت على الموقد الحار ، حتى تلاشت اصابته تماماً ، وكأن سحراً مسها .

ظلت أخبار غريغوري منقطعة ، حتى أواخر تشرين الأول حينما علم بانتلاي بالصدفة أن ولده كان سالماً معافى ، وأنه وكتيبته في مكان ما في اقليم فورونيج . استقى بانتلاي هذه المعلومات من جندي جريح من كتيبة غريغوري مرّ بالقرية . فطار العجوز من الفرح ، وشرب ـ في غمرة فرحه ـ قنينة الفودكا الطيبة الأخيرة ، المقطرة مع الفلفل الأحمر . وفي أعقاب ذلك ، جعل يثرثر طيلة ذلك اليوم ، متفاخراً كأنه ديك . وصار يوقف كل عابر في الطريق ليقول له :

ـ هل بلغك الخبر ؟ استولى ولدنا غريغوري على فورونيج . بلغتنا شائعات بأنه قد رقّي ، وهو الآن قائد فرقة من جديد ، وربما قائد فيلق . ستتعب نفسك حتى تعثر على جندي مثله! أنت تعرف ذلك بنفسك...

وهكذا ، مضى العجوز يغزل القصص ، وهو يستشعر بحاجة لاتقهر الى من يشاركه فرحته وثرثرته .

وكان القرويون يقولون له :

ـ ان ولدك لبطل .

فيجيبهم :

ـ وكيف يستطيع ألا يكون بطلاً وأنتم تعلمون ابن من هو ؟... حينما كنت شاباً ، لم أكن ـ وأقول هذا بدون تفاخر ـ لم أكن أقل منه! ان ساقي تمنعني ، والا ما كنت أدعه يفضلني ، حتى الآن! ليس فرقة ، ربما ، لكنني كنت أعرف كيف أعالج أمور سرية . لو كان في الجبهة عدد أكثر منا ، معشر الشيوخ ، لكنا قد استولينا على موسكو منذ أمد طويل . لكننا الآن نحسب الوقت وحسب ، ولا نستطيع معالجة أمر هؤلاء الفلاحين...

وحدث أن كان آخر شخص تحدّث اليه بانتلاي في ذلك اليوم هو العجوز بسخليبنوف . كان ماراً بفناء آل ميليخوف ، ولم يفشل بانتلاي في ايقافه ، بقوله :

ـ يا أنت ، انتظر لحظة ، يا فيليب ايجفتش! كيف حالك هذه الأيام ؟ أدخل قليلاً لنتحدث .

فتقدم بسخليبنوف وحيا بانتلاي ، الذي بادره بالسؤال :

ـ هل سمعت بمآثر ولدي غريشا ؟

ـ ماذا جرى له ؟

ـ عينوه قائد فرقة من جديد . هو ذا الهول الهائل الذي يمسك غريغوري بزمام مسؤوليته الآن!

ـ فرقة ، تقول ؟

ـ أجل . فرقة .

ـ لا أظنك تعني ما تقول!

ـ بل أعنيه! انهم لن يعينوا لقيادتها أي شخص ، كيفما اتفق ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، دون شك .

فحدق بانتلاي في رفيقه مبتهجاً واستأنف الحديث العزيز على قلبه :

ـ لدي ولد مثار اعجاب الجميع! ملء صدره أوسمة ، ما قولك بهذا ؟ والمرات التي جرح فيها وأصابته صدمات القذائف! لو كان أي امرئ آخر

مكانه لأسلم الروح منذ أجل بعيد ، ولكن ذلك كله لا شيء بالنسبة اليه ، بل هو كالماء على ظهر بطة! كلا ، لم ينقرض كل القوزاق الأقحاح من أراضي الدون ، بعد .

فردد بسخليبنوف العجوز متفكراً ، وهو الذي لم يكن بالمتحدث المفوّه في يوم من حياته :

ـ أنت على حق . لكننا ، وبشكل ما ، لا يبدو أننا نجني منهم منفعة كبيرة .

ـ كيف يتسنى لك أن تستنتج هذا الاستنتاج ؟ أنظر الى أي مدى ردوا الحمر على أعقابهم ، الى ما وراء فورونيج ، وهم يقتربون من موسكو .

ـ انهم يقتربون من موسكو منذ زمن طويل جداً...

ـ ليس في الامكان انجاز ذلك بسرعة ، يا فيليب ايجفتش . عليك أن تدرك بأنه لا شيء في الحرب يمكن انجازه بسرعة . الفعل المستعجل يولد العميان . عليك أن تفعل كل شيء ، قليلاً فقليلاً ، استناداً الى الخرائط ، استناداً الى المخططات... استناداً الى مختلف أنواع الأشياء . الفلاحون في روسيا كالجراد كثرة ، وكم من القوزاق لدينا هناك ؟ لا أكثر من حفنة!

ـ كل ذلك صحيح ، ولكن يبدو وكأن رجالك لن يقدروا على الصمود طويلاً . علينا أن نتوقع مجيء زوار الينا من جديد عند حلول الشتاء ، هكذا يقول الناس .

ـ ان لم يستولوا على موسكو الآن بسرعة ، فان الحمر سيعودون الى هنا ثانية . أنت على حق في هذه النقطة .

ـ ولكن ، هل تظن أنهم سيستولون على موسكو ؟

ـ يجب عليهم . ولكن الأمر رهن بارادة الله . لا بدّ أن رجالنا قادرون على ذلك! القوزاق جُندوا عن آخرهم ، اثنا عشر فيلقا ، ألا يستطيعون ذلك ؟

ـ الشيطان يدري! وماذا عنك... تخليت عن القتال ؟

ـ وماذا كان يمكن أن يكون نفعي غير عرقلة المسير ؟ ولكن ، لولا اصابة ساقي هذه لأريتهم كيف تكون مقاتلة العدو! نحن الكهول من طينة صلدة!

ـ يقال ان الكهول الصلدين هربوا من الحمر على الجانب الآخر من الدون بحيث لم تبق على أيّ منهم فروته . خلعوا ملابسهم كلها حتى الجلد وقذفوا بها . يقال ان السهب غدا ، جميعه ، أصفر اللون بالفروات ، وصار يبدو مثل سجادة من الأزهار .

فألقى بانتلاي نظرة على بسخليبنوف من طرف عينه وقال في لهجة جافة :

ـ في رأيي ان ذلك كله كذب في كذب! قد يكون بعضهم قذف بملابسه فعلاً لكي يصبح أخف حركة ، ولكن ما الذي يجعل الناس يزيفون الواقع مائة مرة ؟ قضية كبيرة... سترة ، أو فروة! الحياة أغلى من هذه بكثير... أم لا ، أنا أسألك ؟ أضف الى ذلك ، أنه ليس في استطاعة كل عجوز أن يركض بصورة جيدة وهو في ملابسه . في هذه الحرب اللعينة ، يحتاج المرء الى ساقين كسيقان كلبة بوروزية . وخذني مثالاً : أين يمكن ان أحصل على سيقان كهذه ؟ وفيم اهتمامك الزائد هذا كله ، يا فيليب ايجفتش ؟ فليغفر الله لي ، ولكن ما نفعها ـ أعني ، الفروات ـ لك ، بحق الشيطان ؟ ليست المسألة مسألة فروات ، ولا حتى سترات ، ولكنها جلد العدو جلداً طيباً فعلاً . هكذا ، أليس كذلك ؟ حسن ، طاب يومك ، سرحنا في الحديث ، والعمل في انتظاري . وبالمناسبة ، هل عثرت على جديك ؟ أما زلت تبحث عنه ؟ لا خبر عنه ؟ حسن ، أظن أن رجال الخوبر أكلوه ، عسى أن يختنقوا به! ولكن ، لا تحمل نفسك الهموم بسبب الحرب . لسوف يلقن رجالنا أولئك الفلاحين درساً لن ينسوه!

وخطا بانتلاي باتجاه الدرجات في خطو وقور .

غير أن من الواضح أن الأمر لم يكن في سهولة «تلقين أولئك الفلاحين درساً لن ينسوه» . فما كان الهجوم القوزاقي الأخير ممكناً بدون تكبد خسائر فادحة .ولم تكد تمضي ساعة على حديث بانتلاي مع بسخليبنوف حتى بلغته أنباء سيئة أحالت مزاجه البهيج الى كآبة وغم . فبينما كان يصلح

من أمر لوح خشبي لإطار البئر ، سمع امرأة تعول وتندب الموتى . ثم اقتربت الأصوات ، فأرسل بانتلاي دونيا لتقصي جلية الأمر قائلاً ، وهو يحط فأسه على خشبة التقطيع :

ـ اهرعي واكتشفي من الميت .

وسرعان ما عادت دونيا بنبأ أن ثلاثة قوزاق قتلى قد جيء بهم من جبهة الدون الأعلى : أنيكوشكا ، كريستونيا ، وثالث ، فتى من طرف القرية الآخر يبلغ من العمر السابعة عشرة . فنزل الخبر على بانتلاي كالصاعقة ، وانعقد لسانه . فخلع قبعته ورسم اشارة الصليب على نفسه . وتمتم ، كليم الفؤاد :

ـ عسى الله يسكنهم مملكته!

وأضاف متذكراً كريستونيا ، وكيف أنهما ، هو وكريستونيا ، كانا قد انطلقا من القرية للذهاب الى نقطة التجمع :

ـ كان قوزاقياً طيباً!

ولم يعد في مقدوره الاستمرار في العمل . كانت زوجة أنيكوشكا تعول وكأن سكيناً يحز رقبتها ، وتندب بمرارة جعلت قلب العجوز يغور أسى ، فدلف الى داخل الدار ليبتعد عن الصراخ الأليم ، وأغلق الباب وراءه . فألفى دونيا في غرفة الضيوف تغص بالكلمات انفعالاً فيما كانت تروى ما رأت لايلينشنا :

ـ نظرت... نظرت ، يا إماه العزيزة ، فاذا أنيكوشكا... لا يكاد يبقى من رأسه شيء ، أبداً... لم يكن سوى خليط دبق . أواه ، كان فظيعاً! وكانت تنبعث منه رائحة كريهة بحيث كان بالامكان المرء أن يشمها من مبعدة فرست ، لماذا جاءوا بهم الى القرية ، لا أدري! لكن كريستونيا كان ممدداً على ظهره على امتداد العربة كلها ، وساقاه متدليتان من تحت معطفه الثقيل... كان نظيفاً ، وشديد البياض... شديد البياض وكأنه صنع من جليد . لكن ، تحت عينه اليمنى ، كان هناك ثقب صغير ، لا أكبر من قطعة من فئة الكويك ، وكان المرء يستطيع أن يرى الدم خلف أذنه .

فبصق بانتلاي محنقاً ، وخرج الى الفناء وأخذ الفأس ومجذافاً ،مضى يقزل بهما باتجاه الدون . وفيما كان يمشي نادى ميشاتكا الذي كان يلعب بجوار المطبخ الصيفي :

ـ قل لجدتك انني عبرت بالزورق الى ضفة النهر الأخرى لقطع شيء من الحطب . أسمعت يا عزيزي ؟

في الغابات الممتدة وراء الدون ، كان الخريف الجليل قد استقر به المقام . كانت الأوراق اليابسة تتساقط ، مخشخشة ، من أشجار الحور . وبدت أجمات الشوك كأنها ملفعة باللهب ، ومن خلل أوراقها النزر كانت حبات التوت البري القرمزية تتوهج مثل ألسنة صغيرة من النار . وتشبّعت الغابة بالرائحة المرة النفاذة للحاء أشجار السنديان المتعفنة . واشتبكت على الأرض أجمات التوت البري الأزرق ، كثيفة شائكة ، وتحت شبكة أغصانها الزاحفة ، أخفت عناقيد التوت الزرقاء القاتمة نفسها عن الشمس بشكل حاذق . وفي الفيء ، كان العشب الميت لا يزال يحمل قطرات الندى ، وثمة نسيج عنكبوت يتألق فضياً مع القطرات . ولم يكن ثمة ما يفسد السكون الشامل سوى ضربات طير نقار الخشب المنتظمة وتغريد طيور دج الدبق .

فترك جمال الغابة الساكن الجليل أثراً مهدئاً في نفس بانتلاي . وفيما كان يخطو على مهل بين الأجمات ، وقدماه تخربشان على الغطاء الندي من الأوراق الساقطة ، حدث نفسه :

ـ تلك هي الحياة ، تلك هي! قبل قليل ، كانوا أحياء ، واليوم يمددون في القبور . وعلى رأس أي قوزاقي نزلت النازلة ؟ فكأن ذلك حدث بالامس حين جاء يزورنا ، ووقف عند النهر حينما كنا نخرج جثة داريا . آه ، يا كريستونيا . اذن ، كانت هناك رصاصة أعداء في انتظارك أنت أيضاً! وأنيكوشكا . ما كان أظرفه! كان يحب الشراب والهزل ، أما الآن ، فلم يعد سوى جثة!

وتذكر بانتلاي وصف دونيا ، واستعاد بصفاء عجيب وجه أنيكوشكا

البسام الأملط الأنثوي ، فتعذر عليه تصوره ميتاً ، مهشم الرأس . ولام نفسه حين تذكر كلامه مع بسخليبنوف :

ـ لقد أخطأت حينما أغضبت الله بتفاخري الكاذب عن غريغوري . من يدري ، فلربما غريغوري نفسه ممدد ، الآن ، في مكان ما ، وقد نقره الرصاص تنقيراً . لا سمح الله! فمن سيعتني بنا ، نحن الكهول ، حينذاك ؟

وفجأة انطلق ديك غاب من تحت احدى الأجمات ، فانكفأ بانتلاي فزعاً . ولبث يراقب خط الطيران المائل النزق الذي اتخذه الطير الصغير ، ثم استأنف سيره . وبحذاء بركة غابية صغيرة أعجبه دغل هناك . فشرع يقطعه . وبينما كان يعمل ، حاول أن يفكر بأيما شيء . لقد اقتنص الموت في سنة واحدة عدداً كبيراً من الأعزاء والأصدقاء بحيث غدا مجرد التفكير يرهق النفس ، ويشحب العالم وكأنه تكفف بسواد .

جعل يحدث نفسه بصوت مسموع كي يصرف الأفكار عن ذهنه :

ـ الآن ، علي أن أقطع هذا الدغل! انه دغل ممتاز ، أي نعم! ملائم لصنع سياج اسفنداني .

وحينما قطع شوطاً كافياً من العمل ، خلع سترته وجلس على كومة الدغل المقطوع . وجعل يعب رائحة الأوراق الذاوية الحريفة عباً ، وهو يتطلع الى الأفق البعيد وقد تداخل مع غلالة الضباب اللازوردي ، والى الأجمات المموهة بصفرة الخريف وهي تتألق بجمالها الأخير وعلى مسافة ليست ببعيدة ، كانت هناك شجيرة اسفندان ، ذات جمال لا يوصف تتوهج ، بمجموعها ، تحت شمس الخريف الباردة ، وأغصانها المنتشرة ، الثقيلة بأوراق أرجوانية ، منشورة كجناحي طائر خرافي يهم بالانطلاق من على الأرض . لبث بانتلاي مدة طويلة ينظر اليها في اعجاب ، ثم حدث أن أنزل نظره على البركة فرأى في الماء الراكد الصافي الظهور السوداء لأسماك شبوط تعوم قريبة من السطح بحيث استطاع أن يرى زعانفها وذيولها الأرجوانية المتحركة . كانت حوالي ثماني سمكات . واختفت برهة تحت

الأغطية الخضر لزنابق الماء ، ثم ما عتمت أن ظهرت ثانية تسبح في الماء الصافي منطلقة صوب الأوراق المبللة الغارقة ، المتساقطة ، من شجيرة صفصاف . كان الخريف الجاف قد جعل البركة ضحلة . ولم يكن اصطياد الشبوط ليستدعي جهداً فائقاً . وسرعان ما استطاع بانتلاي العثور على زكيبة لا قعر لها تركت على جانب بركة مجاورة . فعاد الى البركة الأولى ونزع بنطلونه وخاض بالزكيبة في الماء ، محمحماً ومرتعشاً ، وهو يضغط على طرفها الأسفل باتجاه قاع البركة ، ومن حين لآخر ، يدس يده داخلاً للتأكد من أنها كانت تحتوي على سمكة قوية تطش الماء وتبقبق .

وتكللت جهوده بالنجاح ، اذ أفلح في اصطياد ثلاث شبوطات ، زنة كل منها زهاء عشرة أرطال . بيد أنه لم يعد بمقدوره الاستمرار في الصيد ، اذ ان برودة الماء جعلت ساقه العرجاء تتشنج . وكان الرضى قد شاع في نفسه للصيد الذي أصابه ، فمسح ساقيه حتى جفتا . وارتدى ثيابه ، وشرع ثانية يقطع الحطب ابتغاء الدفء . ومهما يكن من أمر ، فقد أنجز عمل يوم طيباً . فليس من نصيب كائن من كان أن يفلح في اصطياد ثلاث سمكات يكاد وزنها ينوف على الثلاثين رطلاً! وكان الصيد قد حرف أفكاره وأجلى عنه مزاجه الكئيب . وعزم على العودة الى البركة في وقت لاحق لاصطياد بقية السمك ، فقام يخفي الزكيبة باحتراس ، متلفتاً حوله في قلق للتأكد من ان أحداً لم يره فيما كان يمضي بالشبوطات السمينة الذهبية ، التي تكاد تشبه الخنازير شكلاً ، نحو شاطئ النهر . ثم ربط السمكات بعسلوج ، ورفع حمله من الحطب واتخذ طريقه ، متمهلاً ، صوب النهر .

حين بلغ الدار ، أخبر ايلينشنا عما أصاب من حظ في الصيد ، وابتسامة رضية على فمه ، وألقى من جديد نظرة اعجاب على اللون النحاسي المائل الى الاحمرار للشبوطات . غير أن ايلينشنا لم تكن مستعدة لمشاركته أفراحه . كانت قد ذهبت لالقاء نظرة على القتلى ، فعادت حزينة دامعة العينين . وتساءلت :

ـ هل ستذهب لترى أنيكوشكا ؟

ـ كلا . لن أذهب . ألم أر موتى من قبل قط ؟ لقد رأيت ما يكفيني بقية عمري .

ـ قد يكون أحسن لو ذهبت . عدم مجيئك غير مناسب . سيقولون بأنك لم تأت لوداعه .

ـ اتركيني من أجل المسيح . انا لم اعتمد الاطفال معه وليس هناك داع لوداعي له! ـ أجاب بنتلاي بروكوفتش باستياء وضجر .

ولم يكن قد ذهب الى تشييع الجنازة بل عبر الدون عند الصباح وبقي هناك يوماً كاملاً . وأجبره رنين النواقيس ان يخلع قبعته وهو في الغابة وان يرسم شارة الصليب . ومن ثم زعل على القس : هل من المعقول ان يرن الناقوس فترة طويلة بهذا الشكل ؟ كان يكفي لو ان النواقيس قرعت مرة واحدة فقط ولكنه ظل يقرع لساعة كاملة! وما الفائدة من كل هذا الرنين . ليؤلم قلوب الناس فقط ويجعلهم يتذكرون الموت مرة زائدة . كان كل شيء في الخريف يذكر به بلا قرع نواقيس : الورق المتساقط وصراخ الاوز الطائر في السماء الزرقاء فوق القرية والعشب المنبسط الميت...

ومهما حاول بنتلاي بروكوفتش أن يجنّب نفسه الانفعالات النفسية العصبية ، الا أنه سرعان ما اضطر الى تحمل صدمة جديدة . ذات يوم اثناء تناول الغداء نظرت دونيا الى النافذة وقالت :

ـ انَهم يأتون بميت آخر من الجبهة . وهناك حصان يسير مسرجاً وراء العربة مربوطاً بقوسها . لا يتعجلون... احدهم يقود الحصانين والميت مغطى بمعطف ثقيل . والرجل الذي يقود الحصانين يجلس وظهره الينا ولا أستطيع ان اميزه : هل هو من قريتنا او لا... أمعنت دونيا النظر واصبحت وجنتاها بيضاوين كالكتان : ... هذا... هذا انه... ـ همست بصوت غير واضح وفجأة صرخت برعب انهم يوصلون غريشا!... وذاك الحصان حصانه!

ـ وركضت مرتعبة الى الخارج .

غطت ايلينشنا عينيها براحة يدها دون أن تنهض من الطاولة . اما بنتلاي بروكوفتش فنهض بصعوبة من المصطبة وذهب الى الباب ماداً ذراعيه كالأعمى .

فتح بروخور زيكوف البوابة وألقى نظرة سريعة الى دونيا وهي تنزل من العتبة وقال بلا سرور :

ـ استقبلوا الضيوف... هل كنتم في انتظارنا ؟

ـ يا حبيبنا! يا أخي! ـ أنت دونيا شابكة يديها .

وعندئذ فقط ، أراد بروخور أن يقول وهو ينظر الى وجهها المبلل بالدموع والى بنتلاي بروكوفتش الواقف صامتاً على العتبة :

ـ لا تخافوا . لا تخافوا! انه حي . ولكنه مصاب بالتيفوس .

استند بنتلاي بروكوفتش منهوك القوى بظهره الى إطار الباب .

ـ انه حي!!! ـ صاحت له دونيا وهي تضحك وتبكي . ـ غريشا حي! هل تسمع ؟! جاءوا به مريضاً . اذهب وقل ذلك لأمي! اذهب ، لماذا تقف ؟!

ـ لا تخف ، يا بنتلاي بروكوفتش! أوصلته حياً ودع عنك صحته ـ أكد بروخور بعجلة وهو يدخل الحصانين الى الدار .

خطا بنتلاي بروكوفتش عدة خطوات غير ثابتة وجلس على احدى الدرجات . وقد اندفعت دونيا مارة به كالعاصفة هارعة الى البيت لتهدئ أمها . أوقف بروخور الحصانين قرب العتبة ونظر الى بنتلاي بروكوفتش .

ـ لماذا جلست ؟ احضر البطانية لنحمله .

كان بنتلاي بروكوفتش يجلس صامتاً ووجهه لا يتحرك والدموع تتدفق من عينيه . رفع يده مرتين لكي يرسم شارة صليب ولكنه أنزلها لعجزه عن اتمام ذلك . وكان شيء في بلعومه يبقبق ويخرخر .

ـ جننت من الذعر ، كما يبدو . ـ قال بروخور آسفاً . ـ وكيف لم يخطر على بالي ارسال احد لينبهكم مسبقاً ؟ أصبحت احمق ، فعلاً احمق ، لا أكثر! طيب قم ، يا بروكوفتش ، يجب نقل المريض . اين البطانية ؟ او نحمله بدونها ؟

ـ انتظر قليلاً... ـ قال بنتلاي بروكوفتش بصوت أبحَ ـ شُلت رجلاي... فكرت انه مقتول... حمداً لله... لم أكن أتوقع...

وفك ، بسرعة ، أزرار ياقة قميصه ، وفتحها ، وعب الهواء خلل فمه المفغور .

فاستحثه بروخور قائلاً :

ـ هيا ، هيا ، يا بروكوفتش! ليس هناك من يحمله الى الداخل غيرنا ، أليس كذلك ؟

فنهض بانتلاي في مشقة ونزل درجات العتبة ، ثم رفع المعطف الثقيل وانحنى على غريغوري الغائب عن الوعي . وشرع شيء ما يغرغر في بلعومه ، الا أنه أمسك بزمام نفسه والتفت الى بروخور قائلاً :

ـ امسك بساقيه . سنحمله .

وحملا غريغوري الي غرفة الضيوف حيث نزعا جزمته وخلعا ملابسه ومدداه على السرير . ومن المطبخ جاء هتاف دونيا قلقاً :

ـ أبتاه! أمي في حالة سيئة! تعال!

كانت ايلينشنا متمددة على أرضية المطبخ ، ودونيا راكعة بجانبها ترش الماء على وجهها الشاحب . فأصدر بانتلاي أمرهُ :

ـ اركضي وابحثي عن العجوز كابيتونوفنا ، بسرعة! هي تعرف كيف تفصد الدم . قولي لها ان أمك بحاجة الى فصد الدم . أخبريها أن تجلب أدواتها معها .

لكن دونيا ، وهي الفتاة التي كانت في عمر الزِواج ، ما كانت لتركض في القرية حاسرة الرأس . فخطفت عصابة وقالت وهي تلفع رأسها على عجل :

ـ الطفلان استبد بهما الفزع . يا آلهي ، ما أكثر المصائب التي تجمعت في هذا اليوم!... اعتن بهما ، يا أبتاه ، وسأعود بعد لحظة .

وكان من الجائز أن تتوقف دونيا كي تلقي نظرة على هيئتها في المرآة . ، لكن بانتلاي ، الذي كان قد استعاد رباطة جأشه الآن ، سدد

اليها نظرة كانت من الضراوة بحيث جعلتها تنطلق خارجة من المطبخ لا تلوي على شيء .

وبينما كانت تركض خارجة من البوابة الصغيرة ، رأت أكسينيا . لم تكن في وجه أكسينيا الأبيض قطرة دم واحدة . كانت تقف متكئة على سياج الاسفندان ، ويداها مدلاتان بلا حياة . ولم تتألق دموع في عينيها السوداوين المضببتين ، ولكن كان فيهما من الألم والتضرع الأخرس ما جعل دونيا تتوقف ثانية وتقول مترددة ، ومثيرة العجب في نفسها :

ـ انه حي ، حي! مصاب بالتيفوس .

وانطلقت في الزقاق الجانبي بأقصى سرعتها مسندة بيديها نهديها اللدنين المتراقصين .

ومن كل صوب وحدب ، تقاطرت النساء المتسائلات مسرعات صوب فناء آل ميليخوف . فشاهدوا أكسينيا تبتعد ببطء عن البوابة الصغيرة ، ثم تسرع خطاها فجأة ، وتخفي رأسها وتغطي وجهها بيديها .

٢٥

شهر مضى ، وأبل غريغوري من مرضه . كان أول قيامه من فراش المرض في أواخر تشرين الثاني ، فبدا طويلاً ، نحيلاً مثل هيكل عظمي ، وقطع الغرفة في مشي مترنح وتوقف ازاء النافذة .

كان رشاش من ثلج جديد يتألق ببياض باهر على الأرض وعلى السقوف المغطاة بالقش . وكانت آثار الزحافات ترى في الزقاق الجانبي . وانتشر على الأسيجة والأشجار ندف أزرق من الثلج ، متألق بألوان قوس قزح تحت أشعة الشمس الغاربة .

فلبث غريغوري واقفاً يحدّق عبر الشباك ويبتسم متفكراً ، وهو يمسّد شاربيه بيديه النحيلتين . ولو رآه امرؤ في حالته تلك لحسب أنه لم يكن قد

رأى في حياته شتاء مهيباً كهذا . كان كل شي ، بالنسبة اليه ، عجيباً ، مشبعاً بالنضارة والدلالة . وبدا كأن المرض قد قوّى بصره ، فطفق يكتشف أشياء جديدة فيما حوله ، ويلاحظ تبدلات قد طرأت على أشياء كان قد عرفها سنين عديدة .

وتولدت لديه ، فجأة ، رغبة عجيبة في التقصي والاهتمام بكل ما كان يجري في القرية والحقل . واتخذ كل شيء في حياته مغزى خفياً جديداً ، وغدا كل شيء يجلب اهتمامه . وبعينين تعبران عن شيء من التعجب ، جعل ينظر الى العالم الجديد الذي تكشف له . فحامت ابتسامة ساذجة طفولية على وجهه ، مؤلفة تضاداً عجيباً مع سيمائه الخشنة ، وتعبير عينيه الشبيهتين بعيون الحيوانات ، وبين الفينة والفينة ، كان يلتقط حاجة منزلية عرفها منذ الصغر ، ويتفحصها ، عاقداً حاجبيه بشدة وهو يمعن النظر فيها وكأنه امرؤ كان قد وصل تواً من أرض قصية غريبة ووقع نظره عليها لأول مرة . وقد استبدت الدهشة بايلينشنا الى أقصى حد حينما وجدته ذات يوم يتفحص مغزلاً من جميع جوانبه . وفي اللحظة التي وصلت فيها الغرفة ، ابتعد عن المغزل محرجاً بعض الشيء .

أما دونيا فلم تكن تستطيع رؤية هيكله الضامر ، بارز العظام ، دون أن تضحك . كان يتجول داخل الغرفة بملابسه الداخلية فقط ، ممسكاً بسرواله الداخلي المنزلق ، حادباً ظهره ، مستعيناً بساقيه النحيفتين العظميتين على نحو مضطرب . واذا ما كان يجلس ، كان يمسك بيده شيئاً مخافة السقوط . وكان شعره الأسود ، الذي طال في مرضه ، يتساقط ، وأمست ناصيته المجعدة الشائبة خفيفة مسترسلة .

جعلت دونيا تساعده في حلاقة رأسه ، وحينما أدار وجهه ناحية دونيا أسقطت الموسى من يدها على الأرض ، وأمسكت ببطنها وانكفأت على السرير تكاد تختنق ضحكاً .

فلبث غريغوري ينتظر أن تشبع ضحكاً ، لكنه ، أخيراً ، لم يعد يستطيع مزيداً من الانتظار فقال في صوت عميق واهن مرتعش :

ـ حاذري ألا تندفعي في ضحكك! ستخجلين من نفسك فيما بعد ، فأنت امرأة الآن ، كما لا يخفى عليك!

وكانت تشوب كلماته لمحة من كدر .

ـ أوه يا أخي! يا عزيزي! يحسن بي أن أخرج... لا طاقة لي! أوه ، منظرك! عجباً ، انت صورة طبق الأصل من دمية الحقل!*

وكانت الكلمات لا تكاد تخرج من فم دونيا في نوبة الضحك التي انتابتها .

ـ بودي أن أرى كيف سيكون منظرك بعد اصابتك أنت بالتيفوس! التقطي الموسى! الآن!

وهنا تولت ايلينشنا تقريعها نيابة عنه ، قائلة في لهجة محنقة :

ـ فيم صهيلك هذا كله ؟ ما أنت الا حمقاء ، يا دونيا!

فقالت دونيا وهي تمسح دموعها :

ـ لكن ، أنظري كيف يبدو ، يا أمي! ان رأسه مغطى بالنتوءات ، وهو كروي مثل بطيخة ، وغامق اللون مثلها... أوه ، ليس لدي مزيد من الطاقة!

فطلب اليها غريغوري قائلاً :

ـ أعطني مرآة .

ونظر في كسرة المرآة الصغيرة ، وظل بعد ذلك يضحك ، هو الآخر ، مدة طويلة ضحكاً صامتاً .

وقالت ايلينشنا متضايقة :

ـ لِمَ حلقت رأسك ، يا بني ؟ كان الأفضل أن تتركه كما كان .

ـ يعني تعتقدين من الأفضل أن أصير أصلع ؟

ـ حسن ، ولكن ، حتى شكلك الحاضر ، انما هو عيب شنيع...

فقال غريغوري مغضباً وهو يخفق رغوة صابونية بفرشاته :

---

* دمية الحقل : نصب ، أشبه بالدمية ، على صورة انسان لذود الطير عن الثمر والبذور . المترجمون

ـ أوه ، انك لا تطاقين!

ولما كان غير قادر على الخروج من البيت ، فقد كان يقضي الكثير من وقته مع طفليه يحدثهما عن كل شيء ، لكنه كان يتجنب ذكر ناتاليا . غير أن بوليوشكا التصقت به ذات يوم وسألته :

ـ بابا ، ألن تعود ماما الينا ؟

ـ لا يا عزيزتي . فالناس لا يعودون من هناك .

ـ من أين ؟ من المقبرة ؟

ـ اسمعي . الموتى لا يعودون أبداً .

ـ ولكن ، هل هي ميتة تماماً ؟

ـ عجباً ، وكيف لا ؟ لا شك أنها ميتة .

فهمست بوليوشكا همساً لا يكاد يسمع :

لكنني ظننت أنها ، ربما ، بدأت تشتاق الينا وتعود...

فقال غريغوري بصوت أجش :

ـ لا تفكري بها ، يا عزيزتي . من الأفضل ألا تفكري بها .

ـ وكيف أستطيع ألا أفكر بها ؟ ولكن ، ألا يأتون لرؤيتنا أبداً ؟ حتى ولا لحظة من الوقت ؟ مطلقاً ؟

ـ كلا . اذهبي الآن والعبي مع ميشاتكا .

وأشاح غريغوري بوجهه . كان جلياً أن المرض قد سلبه قوة ارادته . فترقرقت عيناه بالدموع ، ولكي يخفيها عن الطفلين ، قام ولبث واقفاً عند النافذة مدة طويلة ووجهه لصيق بالزجاج .

كان لا يحب الحديث عن الحرب مع طفليه ، بيد أن ميشاتكا كان مولعاً بالحرب أكثر من أي شيء آخر في الدنيا . وكان غالباً ما يضايق والده بالأسئلة : كيف حارب الناس ، وكيف كان الحمر ، وبم كانوا يقتلون ، ولأي سبب ؟ فكان وجه غريغوري يتجهم ويجيب مغتاظاً :

ـ عدت الى النغمة القديمة من جديد ؟ لماذا تقلقك... هذه الحرب ؟

لنتكلم عن صيدنا للسمك بالصنارات حينما يأتي الصيف . أتريدني أن أعمل لك صنارة ؟ حالما أستطيع الخروج الى الفناء سأبرم لك خيطاً من ذيل الحصان .

كان يستشعر خجلاً داخلياً كلما شرع ميشاتكا يتحدث عن الحرب . كان لا يجد أجوبة على أسئلة الطفل الساذجة . من كان بمقدوره أن يقول لماذا ؟ ربما لأنه ، هو نفسه ، لم يجد أجوبة على هذه الأسئلة . ولكن ، لم يكن من اليسير الخلاص من ميشاتكا . كانت تبدو عليه علائم الانتباه الدقيق لمشاريع والده عن صيد السمك ، لكنه سرعان ما يعود الى السؤال :

ـ بابا ، هل قتلت أحداً في الحرب ؟

ـ كفاك ان تزعجني ، أيها الثرثار الصغير!

ـ هل تستشعر بالخوف حينما تقتلهم ؟ هل يسيل الدم منهم حينما يقتلون ؟ كثير من الدم ؟ أكثر مما يسيل من دجاجة أو خروف ؟

ـ طلبت اليك أن تتوقف عن كل هذا الكلام!

فيصمت ميشاتكا هنيهة ، ثم يقول متفكراً :

ـ رأيت جدي يقتل خروفاً قبل مدة قصيرة . لم أشعر بالخوف... ربما قليلاً جداً جداً ، ولكن ليس خوفاً حقيقياً .

فتقول ايلينشنا مغضبة :

ـ أبعده عنك! سينقلب قاتلاً علاوة على ذلك ، مجرماً حقيقياً! كل ما يتحدث عنه هو الحرب . لا يعرف أي شيء آخر للحديث . من سمع بطفل يتحدث عن هذه الحرب اللعينة ، غفرانك يا رب ؟ تعال هنا! خذ هذه الكعكة الحلوة . ستسكتك قليلاً على الأقل .

هيهات ، ففي كل يوم كانت الحرب تذكرهم بوجودها . كان القوزاق يعودون من الجبهة ويأتون لزيارة غريغوري ويخبرونه كيف دحر فرسان بوديوني الجنرالين شكورو ومامونتوف ، وعن المعارك الفاشلة في أوريل ، والتقهقر الذي شمل جميع الجبهات . وقُتل قوزاقيان آخران من تتارسكي

أثناء القتال في كريبانوفسكايا وكاراديل . وجيء بجيراسيم أخفانكين جريحاً الى القرية ، كما أن ديمتري كولوستشوكوف قد مات بالتيفوس . واستعرض غريغوري جميع قوزاق قريته الذين قتلوا في الحربين ، وتبين أنه لم يبق بيت في تتارسكي بلا ميت .

كان غريغوري لا يزال غير قادر على مغادرة البيت حين جاءه أتمان القرية بأمر كان قد تسلمه من أتمان المنطقة يقضي بابلاغ آمر السرية ميليخوف بأن عليه أن يمثل على الفور أمام لجنة طبية لاجراء فحص آخر عليه .

فقال غريغوري غاضباً :

ـ أجبه بكتاب وقل له انني حالما أتعلم السير سآتي بملء ارادتي ، دون حاجة الى أمر تذكير .

كانت الجبهة تقترب ، بانتظام ، من الدون . وفي القرية بدأ الحديث يتجدد ، كرة أخرى ، عن التراجع . وسرعان ما تُلي في ساحة القرية أمر صادر من أتمان الاقليم يقضي بوجوب اشتراك جميع القوزاق الراشدين في عملية التراجع .

ـ عاد بانتلاي من الساحة الى الدار وأخبر غريغوري بمضمون الأمر ، وقال :

ـ ماذا سنفعل ؟

فهز غريغوري كتفيه :

ـ ماذا في استطاعتنا أن نفعل ؟ علينا أن نتراجع .

حتى بدون هذا الأمر ، سيشترك الجميع في التراجع .

ـ أنا أتحدث عنك وعني... هل سنمضي معاً ، أم ماذا ؟

ـ لا نستطيع أن نمضي معاً . في غضون يوم أو يومين سأذهب الى فيشنسكايا لمعرفة القطعات التي ستمر من هنا ، لكي أنضم الى احدى الكتائب . أما بالنسبة اليك ، فيتعين عليك الهروب لاجئاً . أم تراك ترغب في الالتحاق بقوة عسكرية ؟

فقال بانتلاي فزعاً :

ـ لا سمح الله! اذا كانت الحالة كهذه ، سأرحل مع الثرثار العجوز بسخليبنوف . قبل أيام دعاني لمرافقته في الرحلة ، انه عجوز مسالم ، ولديه حصان جيد ، وعليه فاننا سنعد حصانه وفرسي وننطلق . لقد آن الأوان للفرس أن تتخلص من بعض سمنتها . غدت تأكل بنهم كما يأكل الخنزير ، وهي ترفس رفسات فظيعة .

فأيد غريغوري الفكرة راضياً :

ـ حسن ، فاذهب معه . وفي غضون ذلك ، دعنا نتباحث حول الطريق الذي ستتخذه ، فربما سأتخذ الطريق نفسه .

وأخرج من حقيبة الميدان خريطة لروسيا الجنوبية وبين لوالده القرى التي سيتعين على العجوز السفر خلالها ، ثم شرع يكتب الأسماء على ورقة . بيد أن العجوز ، الذي كان يتفحص الخريطة باحترام ، اعترض قائلاً :

ـ قف ، لا تكتبها! لا شك أنك تفهم في هذه الأمور أحسن مني ، والخريطة شيء لا يستهان به . انها لا تكذب مطلقاً بل تريك الطريق المستقيم . ولكن ، كيف لي أن أحافظ على الطريق نفسه اذا كان غير ملائم لي ؟ أنت تقول ان علينا أن نمر ، أول ما نمر ، بكارغينسكايا ، وباستطاعتي ، حقاً ، أن أرى بأنه طريق أكثر استقامة ومع ذلك فيتوجب عليَ أن أسلك طريقاً منحرفاً .

ـ ولماذا يتوجب ذلك عليك ؟

ـ لأن لديّ ابن عم لحاً يعيش في لاتيشيف ، وأستطيع أن أحصل منه على طعام لي وللخيل . أما اذا بقيت مع غرباء فسأضطر الى استعمال الطعام الذي معي . وتقول أيضاً إن عليّ أن أمر بقرية أستاخوف . أنا أدري أن هذا هو الطريق الأكثر استقامة ، لكنني سأمر بمالاخوفسكي . فلديّ ، هناك أيضاً ، أقرباء بعيدون ، وأستطيع أن أبقى على تبني وأستعمل تبن الآخرين . تذكّر ، أنك لا تقدر أن تحمل كومة من التبن معك أينما ذهبت ، وقد تجد من الصعب عليك ، وأنت في منطقة غريبة ، حتى ابتياع التبن ، ناهيك عن استجدائه .

فتساءل غريغوري متخابثاً :

ـ ولكن ، أليس لديك أقرباء في الجانب الآخر من الدون ؟

ـ بلى ، لديّ .

ـ اذن ، فأحسب أنك ستذهب الى ذلك الجانب أيضاً .

فهاج بانتلاي غضباً :

ـ لا تفه بالترهات . تكلم في الموضوع ، ولا تحاول أن تكون ظريفاً! ما أنسبه من وقت للتنكيت! لعمري أن لدينا رجلاً ذكياً في العائلة هذه الأيام!

ـ لا حاجة بك لزيارة جميع أقربائك . التراجع هو التراجع ، وليس هو قضية زيارة الأقارب . ليس الوقت وقت مهرجان .

ـ حسن ، لا تدلني على الطريق ، فأنا أعرفه بدونك .

ـ ان كنت تعرف ، فاذهب حيث تشاء .

ـ لا فائدة في السير وفق خططك . العقعق وحده يطير باتجاه مستقيم ، لا بد أنك سمعت بهذا المثل ، أليس كذلك ؟ قد أمضي الى حيث يدري الشيطان ، في أماكن حيث لا طرق في الشتاء بتاتاً . هل كنت حقاً تستخدم عقلك حينما شرعت تفوه بهذه الترهات ؟ والأدهى ، أنك كنت قائد فرقة!

واستمر غريغوري والعجوز يتجادلان زمناً طويلاً ، غير أن غريغوري اضطر ، بعد أن قلّب الأمر في فكره ، الى الاقرار بأن ملاحظات العجوز كانت على جانب كبير من الصحة ، فقال في لهجة مراضاة :

ـ لا تغضب ، يا أبتاه ، لن أحاول اجبارك على اتباع طريقي . امض حيثما تشاء . وسأحاول أن أعثر عليك في الجانب الآخر من الدونيتس .

فابتهج بانتلاي وقال :

ـ كان عليك أن تقول هذا منذ وقت بعيد . امض في اقتراح شتى أنواع الخطط والطرق ، ولكن الشيء الوحيد الذي لن تفهمه هو أن الخطة شيء ، في حين أن الخيل لا تستطيع السير الى أيما مكان بلا علف ، وهذا شيء ثان .

وشرع العجوز يعد عدته للرحيل في هدوء حتى حينما كان غريغوري لايزال مريضاً . فأطعم فرسه بعناية غير اعتيادية ، وأصلح الزحافة ، وأوصى أن يصنع له زوج جديد من الأحذية اللبادية ، وأضاف لهما نعلاً جلدياً من عنده لكي لا تنفذ فيهما الرطوبة والبلل في الطرق المبللة ، كما سبق له أن ملأ زكائب بشوفان منتقى . ولقد كان سيد دار حقيقياً في اتخاذه التحضيرات ، حتى بعملية التراجع ، مهيئاً ، بحصافة ، كل ما يمكن أن يكون ذا فائدة في الرحلة : فمن فأس ، الى منشار يدوي وازميل وأدوات رتق الأحذية ، الى خيوط ونعال احتياطية ومسامير ومطرقة وحزمة من السيور وحبال وكتلة من القار ، كل شيء نزولاً الى حدوات الخيل ومسامير الحدوات ، لفه بالقماش المشمع وغدا مهيئاً لوضعه على الزحافة خلال دقيقة واحدة . حتى أنه اقترح أن يأخذ قباناً معه ، وحينما استفسرت ايلينشنا عن حاجته الى القبان أجابها لائماً :

ـ تعرفين ، أيتها الزوجة ، أنك كلما حاولت أكثر أصبحت على درجة من الغباء أكبر . هل حقاً أنك لا تستطيعين الجواب على سؤال بسيط كهذا بنفسك ؟ ألن يتوجب عليّ شراء نشارة أو تبن بالوزن أثناء التراجع ؟ هل يقيسون التبن بالياردة ؟

فتساءلت ايلينشنا مستغربة :

ـ ولكن ، ألن تكون لدى الناس قباناتهم ؟

فأمسى بانتلاي محنقاً :

ـ أنّى للمرء أن يعرف نوع القبانات التي سيستعملونها ؟ لعل جميع موازينهم مغشوشة ، لكي يعطوا موازين أقل لمن هم على شاكلتنا . هذا هو الموضوع! نحن أعرف بنوعية الناس الذين يعيشون هناك! تشترين ثلاثين رطلاً ، لكنك تدفعين من النقود ما يكفي لبود* . واذا كان عليّ أن أشهد مثل هذه الخسارة في كل مرة نتوقف فيها ، فمن الخير أن آخذ قباني معي .

---

* البود : ٣٦ رطلا . المترجمون

انه لن يخوننا في الوزن! وتستطيعين أنت أن تتدبري أمورك بدون قبان ، اذ ماذا يمكن ، بحق الشيطان ، أن تكون فائدته لك ؟ اذا جاء الجيش ، فسيأخذ التبن دون وزن . وكل ما يهمهم هو شحنه بعرباتهم . لقد رأيتهم ، أولئك الأبالسة ذوي القرون المقطوعة! انني أعرفهم تمام المعرفة!

وفي البدء ، خطر له حتى أن يأخذ عربة صغيرة يضعها فوق الزحافة ، كي لا يبدد نقوده في شراء واحدة في الربيع . لكنه فكر في الامر من جديد ، ثم قرر التخلي عن هذه الفكرة الفاشلة .

وشرع غريغوري ، هو الآخر ، يعد عدته . فنظف بندقيته الماوزر ، وبندقيته الاعتيادية ، وهيأ سيفه الوفي . وبعد مضي أسبوع على تعافيه ، خرج الى الفناء ليلقي نظرة على حصانه ، وحينما شاهد مذيلته المتألقة اقتنع ، راضياً ، بأن العجوز لم يقتصر على اطعام فرسه هو فقط ، فارتقى حصانه بصعوبة ، ومضى به مسافة طويلة ، وعند عودته الى الدار شاهد ـ أو ربما خيل اليه أنه شاهد ـ أحداً يلوّح له بمنديل أبيض عبر شباك كوخ آل أستاخوف .

قرر رجال تتارسكي في اجتماع مجلس القرية أن يغادروها في يوم واحد . فلبثت النسوة يومين يخبزن ويقلين شتى أصناف الزاد لرحلة القوزاق . وحدد الثاني عشر من كانون الأول موعداً للرحيل . وفي المساء السابق لذلك ، وضع بانتلاي التبن والشوفان في الزحافة . وفي اليوم التالي ، ومع انبلاج الفجر ، ارتدى فروته الثقيلة وشد نطاقه شداً محكماً ودس قفازي السياقة الجلديين الواسعين في نطاقه وتلا دعاءه للرب ، ثم ودع عائلته .

وسرعان ما امتدت قافلة أمتعة صعد التل من القرية . وخرجت النساء الى المرعى المشاع ، ولبثن وقتاً طويلاً ، يلوحن بمناديلهن للرجال الراحلين . ثم هب نسيم خفيض على السهب ، ولم يعد بالامكان رؤية العربات الزاحفة صعد التل ببطء ولا القوزاق السائرين بجانبها ، خلل الضباب الثلجي الموّار .

التقى غريغوري بأكسينيا قبل رحيله الى فشنسكايا . اذ انه ذهب لرؤيتها في المساء ، حينما كانت الأنوار قد أضيئت في القرية . وكانت أكسينيا تغزل ،

في حين كانت أرملة أنيكوشكا الى جانبها تحوك الجوارب وتروي قصة ما . واذ وقعت عينه على الزائرة ، قال لأكسينيا باقتضاب :

ـ تعالي الى الخارج لحظة . لديّ شغل معك .

في السقيفة ، وضع يده على كتفها وسألها قائلاً :

ـ هل تأتين معي في التراجع ؟

فلبثت صامتة مدة طويلة تفكر بالجواب . ثم قالت في هدوء :

ـ ولكن ، ماذا بشأن الحقل ؟ والخيل ؟

ـ يجب أن توكلي بكل شيء لاحد ما ، علينا أن نتراجع .

ـ ولكن ، متى ؟

ـ سأمر عليك غداً .

فقالت أكسينيا وهي تبتسم في الكلام :

ـ أتذكر أنني قلت لك ، منذ زمن بعيد ، انني مستعدة للذهاب معك الى نهاية العالم ؟ وأنا لا زلت كما كنت تماماً . ان حبي لك حب صادق . لسوف أذهب معك دون أن ألتفت مرة الى الوراء . متى تريدني أن أكون في انتظارك ؟

ـ عند المساء . لا تجلبي اشياء كثيرة معك . ملابس وأكثر ما تستطيعين من الطعام ، وهذا كل شيء... الى اللقاء .

ـ الى اللقاء . ولكن ، لعلك تستطيع أن تدخل الآن ؟ انها ستخرج بعد قليل ، لم أرك منذ زمن طويل! حبيبي ، غريشا! لكنني بدأت أظن أنك... لا ، لا ، لن أقوله .

ـ كلا ، لا أستطيع الدخول . عليّ أن أذهب الى فيشنسكايا الآن ، الى اللقاء . انتظريني غداً .

وخرج غريغوري وعبر من خلال البوابة الصغيرة . بيد أن أكسينيا لبثت واقفة في السقيفة ، تبتسم وتفرك براحتيها وجنتيها الملتهبتين .

* * *

في فيشنسكايا ، كان جلاء الدوائر والهيئات الاقليمية ومستودعات القوميسارية قد بدأ فعلاً . وفي دائرة أتمان الاقليم ، استفسر غريغوري عن الموقف في الجبهة . فقال له ضابط شاب يعمل مساعداً :

ـ وصل الحمر بالقرب من الكسييفسكايا . نحن لا ندري أية قطعات ستمر بفيشنسكايا ، أو ما اذا ستمر بها أية قطعات أصلاً . وتستطيع أن ترى بأم عينك أنه لا أحد يعرف أي شيء ، فالكل يتعجل الهرب... ونصيحتي اليك ألا تبحث عن كتيبتك الآن ، بل امض الى ميليروفو . أسهل عليك هناك أن تكتشف مكانها الحالي ، ومهما يكن من أمر ، فان كتيبتك ستتراجع على امتداد خط السكة الحديد . هل سيوقّف زحف العدو عند الدون ؟ كلا ، لا أظن . ستستسلم فيشنسكايا بلا قتال ، هذا شيء حتمي .

عاد غريغوري الى القرية في ساعة متأخرة من الليل . فقالت له ايلينشنا فيما كانت تعد عشاءه :

ـ جاء بروخورك . جاء بعد رحيلك بساعة وقال انه سيأتي ثانية فيما بعد . لكنه لم يأت منذئذ .

فابتهج غريغوري للنبأ ، وتناول عشاءه على عجل . ثم خرج ليرى بروخور ، فرحب به مراسله بابتسامة خالية من السرور وقال :

ـ بدأت أحسب أنك انطلقت تتراجع من فيشنسكايا مباشرة .

فتساءل غريغوري ضاحكاً وهو يربت على كتف مراسله الوفي :

ـ من أين نبعت ، بحق الشيطان ؟

ـ من الجبهة ، طبعاً .

ـ فررت منها ؟

ـ ما الذي يجعلك تظن هذا ؟ جندي مثلي يفر ؟ حدث كل شيء فجأة . لم أشأ أن أذهب الى البلاد الدافئة بدونك . لقد ارتكبنا الخطايا معاً ، ويجب أن نمضي معاً حتى يوم القيامة .ان أمورنا لا تسوى قرصة تبغ ، كما لا يخفى عليك .

ـ أجل ، أدري . انما قل لي كيف تسنى لهم أن يعفوك من الكتيبة ؟
فقال بروخور متملصاً :
ـ انها قصة طويلة . سأخبرك بها فيما بعد .
وأمسى أكثر كآبة .
ـ أين الكتيبة ؟
ـ الشيطان يعلم أين هي في هذه اللحظة .
ـ اذا ، كم مضى عليك منذ تركتها ؟
فقال بروخور مغتاظاً وهو يلقي نظرة من طرف عينه على زوجته :
ـ كم أنت مزعج ، بحق الله! بكمك وكيفك ولماذاتك... حيثما كنت ، أنا لم أعد هناك . قلت سأخبرك وهذا يعني أني سأخبرك . أنت ، أيتها الزوجة! ألديك أي شراب ؟ حينما أقابل آمري يجب أن أرطب صفارتي ، وعليه فهل لديك ما يُشرب ؟ لا ؟ اذا ، اركضي واحصلي على شيء منه ، واحرصي على العودة حالاً! لقد نسيت الضبط العسكري اثناء غياب زوجك ، لقد خرجت من يدي .
فسألت زوجته مبتسمة :
ـ وفيم تنفث بخار غضبك على هذا النحو ؟ تصرخ في وجهي أكثر من اللازم ، فلست بالسيد الحقيقي للدار . أنت لا تقضي في الدار سوى يومين كل اثنى عشر شهراً .
ـ الكل يصرخ في وجهي ، وأنا لا أصرخ في وجه أحد سواك . انتظري حتى أرقّى الى رتبة جنرال ، وآنذاك سأصرخ في وجوه الآخرين . ولكن ، الى أن يحين ذلك الوقت ، عليك أن تبتسمي وترضخي . البسي بزتك بسرعة ، واركضي!
وحينما ارتدت زوجته ملابس الخروج وخرجت ، سدد بروخور لغريغوري نظرة لائمة وقال :
ـ أتدري ، يا بانتلايفتش ، أنك لا تملك شيئاً من الفهم! أنا لا أستطيع

اخبارك بكل شيء بحضور امرأة ، وأنت تظل تستحثني بكيف ولماذا وماذا . حسن ، هل شفيت من التيفوس ؟

ـ نعم ، شفيت . والآن ، احك لي عما حدث لك . انك لا تخفي شيئاً ما ، يا ابن العدو! ابصقه . ما الذي تورطت فيه ؟ كيف هربت ؟

ـ الأمر أدهى من مجرد الهرب... فبعد أن جئت بك الى القرية عدت الى الكتيبة فنسبوني الى الرعيل الثالث في سريتك . ولكن لديّ حساسية فظيعة تجاه القتال! اشتركت في هجومين ، ثم قلت في نفسي : « سيكون في هذا موتي! عليك أن تجد لنفسك جحراً ، والا سوف ينتهي أمرك ، يا ولدي يا بروخور! » . وآنذاك ، وكما شاء الحظ ، بدأ الحمر يضغطون ضغطاً قاسياً وحدثت معارك كانت من الضراوة بحيث لم يعطونا مجالاً لجر الأنفاس . وحيثما كان الحمر يجدون منفذاً ، كانوا يسددون دفعة الينا . وحيثما كان هناك عدم ائتمان ، كانت الدفعة تصيب وحدتنا . وفي خلال أسبوع غادر هذه الدنيا أحد عشر قوزاقياً من سريتنا ، وكأنهم لحسوا بلسان بقرة . حسن ، لقد بلغ السأم بي حد الجنون!

وأشعل بروخور سيكارة ، ومد كيسه الى غريغوري ، ثم استأنف كلامه متنداً :

ـ ثم شاء طالعي أن أذهب مع مفرزة استطلاعية على مقربة من ليسكي . كنا ثلاثة . كنا ماضين على خيلنا في خبب يسير صعد ربوة ، مفتحي الاعين ، فاذا بنا نشاهد واحداً من الحمر يزحف خارجاً من جدول ، ويرفع يديه مستسلماً . فانطلقنا نحوه ، بيد أنه هتف صائحاً :

ـ أيها القوزاق ، انني من جانبكم . لا تقتلوني ، أنا واحد منكم .

ولكن ، لا بد أن الشيطان تملكني ، لأنني غدوت شرساً ، لسبب ما ، فاقتربت من الرجل وقلت :

ـ يا ابن العاهرة ، اذا كنت قد قررت القتال ، اذن فلا يجدر بك أن تستسلم! أنت خنزير قذر!

وقلت أيضاً :

ـ ألا ترى أننا لا نكاد نصمد الا بالقدرة ؟ وها أنت تستسلم ، جالباً لنا تعزيزات!

وعند هذا ضربت ظهره بغمد السيف . وقال له القوزاقيان الآخران اللذان كانا معي الشيء نفسه :

ـ ما معنى مثل هذا القتال ، تلف وتدور في جميع الجبهات ؟ لو أنكم جميعاً جئتم الى صفوفنا ، معاً ، لكانت الحرب قد انتهت الآن!

ولكن ، أنى لي آنذاك ، بحق الشيطان ، أن أعلم بأن هذا الخائن كان ضابطاً ؟ ومع ذلك ، فهذا كان ما تبين أنه فيما بعد! فحينما ضربته بغمدي شحب وجهه وقال بهدوء :

ـ انني ضابط ، كيف تجرؤ على ضربي ؟ لقد خدمت في خيالة الهوزر في السابق ، ووقعت في قبضة الحمر أثناء التعبئة . خذوني الى آمركم ، وهناك سأخبره بكل شيء .

فقلنا : «هات أوراقك» فأجاب متعالياً :

ـ لا رغبة لدي في التحدث اليكم . خذوني الى آمركم .

فتساءل غريغوري مستغرباً :

ـ ولكن ، لمَ لم تشأ أن تتحدث عن هذا أمام زوجتك ؟

ـ أنا لم أبلغ تلك النقطة بعد ، وأرجو ألا تقاطعني . قررنا أن نمضي به تحت الحراسة الى السرية ، لكننا كنا أغبياء . كان علينا أن نقتله في الحال ، فنكون قد وضعنا نهاية للأمر . لكننا أخذناه الى السرية ، كما كان المفروض علينا أن نفعل ، وبعد ذلك بيوم وجدنا أنه عُين آمراً لسريتنا . وكانت شغلة فاخرة! وفعلاً بدأت الجوقة تعزف من جديد! فبعد ذلك بيوم أو يومين أرسل في طلبي وسألني :

ـ اذا ، فأنت تحارب من أجل روسيا موحدة غير مجزأة ، أليس كذلك ، يا ابن القحبة ؟ أتذكر ؟

حاولت أن أجد لي منفذاً للخروج ، غير أنه لم يبد أية شفقة . وحينما

تذكّر ضربتي بالغمد على ظهره ، جعل يرتجف من رأسه الى قدمه وقال :
ـ أتعلم بأنني آمر كتيبة خيالة هوزر ،ونبيل ، وأنت ، أنت أيها الجلف ، تجرأت على ضربي ؟

أرسل يطلبني مرة ، وأرسل يطلبني مرتين ، ولم أعرف الرحمة منه أبداً . أمر آمر الرعيل بأن يرسلني للعمل في نقطة أمامية وفي واجب حراسة خلافاً لدوري ، وقذف بالمتاعب على رأسي كما يقذف الحصى من سطل . وباختصار ، أحال حياتي بؤساً ، ذلك الخنزير! وفعل الشيء نفسه مع الاثنين الآخرين اللذين كانا معي في الاستطلاع يوم أسرناه . وتحمل الولدان بقدر ما استطاعا ، لكنهما حدثاني ذات يوم وقالا :
ـ لنقض عليه ، والا فلن يكون لحياتنا معنى .

الا أن ضميري ما كان ليبيح لي قتله ، فدرست الموضوع في فكري وقررت أن أخبر آمر الكتيبة بكل شيء . كان في استطاعتنا أن نقتله حينما أسرناه ، أما فيما بعد فما كان في استطاعتي ، لسبب ما ، حتى مجرد رفع يدي . انني أغمض عيني حينما تقطع زوجتي رقبة دجاجة ، بينما كانت المسألة مسألة قتل انسان .

فقاطعه غريغوري في حديثه :
ـ لكنكم قتلتموه فيما بعد ؟
ـ صبراً . ستعرف كل شيء في الوقت المناسب . حسن ، أخبرت آمر الكتيبة . ذهبت لرؤيته ، لكنه لم يزد على أن تضاحك وقال :
ـ لا معنى لقلقك ، يا زيكوف ، لأنك ضربته مرة . وهو على حق في استعادته الضبط . انه ضابط طيب وذكي .

فخرجت ، بيد أنني قلت في نفسي :«تستطيع أن تعلق ذلك الضابط الطيب حول عنقك بدلاً من الصليب ، لكنني لن أخدم في سريته!» وطلبت نقلي الى سرية أخرى ، ولكن لم يجد ذلك نفعاً . ما كانوا ليفعلوا ذلك . ثم فكرت بالابتعاد كلية . لكن هذا أيسر قولاً منه عملاً . نقلونا الى المؤخرة

لقضاء أسبوع راحة ، وآنذاك وسوس لي الشيطان مرة أخرى . فقررت أن الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله هو أن أعثر على امرأة بائسة ما ، مصابة بالسيلان ، وبعد ذلك سينسبونني لواجبات خفيفة بسبب المرض ، وبعدها يبدأ التراجع ، وتسوى الأمور تلقائياً . وعليه ، بدأت ألاحق النسوة ـ وهو شيء لم أفعله في السابق قط ـ لأرى من منهن تبدو أسوأهن . ولكن ، أنّى لك أن تعرف ؟ ليس منقوشاً على جبين المرأة أنها مصابة بكذا أو بكيت . اذن ماذا كان بامكاني أن أفعل ؟

وبصق بروخور بصقاً قوياً وأصاخ السمع ليطمئن الى أن زوجته لم تعد بعد .

فغطى غريغوري فمه بيده مخفياً ابتسامته . وتألقت عيناه وهو يسأل :

ـ وهل حصلت على السيلان ؟

فحدّق فيه بروخور بعينين مخضلتين بالدموع . كانت نظرته حزينة خرساء ، كنظرة كلب عجوز تقضت أيامه . وبعد فترة صمت قال :

ـ وهل تظن أنه كان من اليسير الحصول عليه ؟ حينما لا تريده تجده حتى في الهواء الذي تتنفسه! أما آنذاك فلم أكن قادراً على الحصول عليه في أي مكان ، حتى لو ناديت عليه تطلبه .

فأشاح غريغوري وجهه قليلاً وجعل يضحك بلا صوت ، ثم أنزل يده عن وجهه وسأل في صوت مخنوق :

ـ لا تعذبني ، بحب المسيح! هل حصلت عليه أم لا ؟

فقال بروخور في لهجة مستاءة :

ـ لا ريب أن الأمر يبدو مضحكاً بالنسبة لك! الحمقى فقط هم الذين يضحكون من مصائب الآخرين ، أو على الأقل هذا ما أعتقده أنا .

ـ لكنني لست بضاحك... حسن ، وماذا حدث ؟

ـ ثم بدأت أغازل بنت صاحب الدار التي نزلنا فيها . كانت عانساً ، في الأربعين من عمرها ، أو ربما أصغر بقليل . كان وجهها ملطخاً بالبثور ،

وكان منظرها... حسن باختصار ، عسى الله أن يحمينا من أمثالها! كان الجيران يلمّحون بأنها كانت تذهب الى طبيب في المدة الأخيرة . فقلت في نفسي : «حسن ، أنا متأكد بأنني سأحصل عليه منها!» .

وجعلت ألاحقها مثل ديك فتي ، تماماً . تبخترت أمامها ، ونفخت حوصلتي وأسمعتها شتى أصناف الكلام... ومن أين أتاني كل ذلك ، لا أدري بالضبط...

وابتسم ابتسامة خجلة ، وبدا أنه انتعش قليلاً للذكرى :

ـ وعدتها بالزواج . وقلت لها كل ما يخطر على البال من قذارات... وأخيراً ظفرت بها ، وأوشك الأمر أن يصبح خطيئة . فاذا بها تنفجر ، على حين غرة ، في البكاء . حاولت أن أهدئها وقلت :

ـ لعلك مصابة بمرض ؟ هذا لا يهم ، بل هذا أفضل .

لكنني ، أنا نفسي ، صرت أخاف . كان الوقت ليلاً ، وماذا كان سيحدث لو أن شخصاً سمع صوتنا وأتى زاحفاً الى مأوى النشارة . فقلت لها :

ـ لا تصرخي ، بحق المسيح! واذا كنت مريضة ، لا تخشي شيئاً . انني أحبك الى درجة أنني مستعد لأي شيء!

بيد أنها أجابتني :

ـ يا عزيزي بروشنكا ، أنا لست مصابة بأي مرض . انني فتاة طاهرة ، وأنا خائفة ، ولهذا بكيت .

صدقني أو لا تصدقني ، يا غريغوري بانتلايفتش ، ولكن ما ان قالت ذلك حتى صرت أتصبب عرقاً بارداً . وقلت في نفسي :«يا سيدنا المسيح ، على مَنْ وقعت!» وصرخت فيها مزمجراً :

ـ ولكن فيم كان ذهابك الى الطبيب ؟ لماذا أوحيت للناس بشتى الايحاءات ؟

ـ ذهبت اليه للحصول على مرهم ما لتصفية بشرة وجهي .

فأمسكت رأسي بيدي وصحت بها :

ـ انهضي واغربي عن وجهي حالاً ، لعنة الله عليك ، أيتها الساحرة المريعة! أنا لا أريدك طاهرة ، ولن أتزوجك أبداً .

وبصق بروخور بصقة أقوى من السابقة ، واستأنف حديثه متردداً :

ـ وهكذا ، ذهبت كل جهودي عبثاً . فعدت الى الكوخ وجمعت حوانجي وانتقلت الى المنزل الثاني في الليلة نفسها . ثم لمح لي الفتية بشيء ، فحصلت على ما كنت بحاجة اليه من احدى الأرامل ، الا أنني في هذه المرة دخلت في صميم الموضوع مباشرة : سألتها :

ـ هل أنت مصابة بمرض ؟

وأجابت :«نعم ، قليلاً» .

قلت :

ـ حسن أنا لا أريد طناً منه .

وأعطيتها ورقة من فئة العشرين روبلاً لمساعدتي على الخروج من المحنة ، وفي اليوم التالي تفاخرت بالعمل الذي أنجزته ، فوضعوني في قائمة الأعمال الخفيفة . ومن هناك جئت الى القرية رأساً .

ـ هل جئت بدون حصانك ؟

ـ طبعاً لا! جئت على صهوة حصاني وبكامل هيئة القتال . كان الفتية قد أرسلوا حصاني الى حيث كان عليّ أن أقضي اجازتي المرضية . ولكن ، ما هذا بالمهم . أعطني نصيحتك فيما عساي أن أخبر زوجتي به . أم أن من الأفضل أن أوفر على نفسي المتاعب بالمبيت لديك ؟

ـ كلا ، بحق الجحيم! نم في بيتك . قل انك مجروح . هل لديك أية ضمادات ؟

ـ لديّ لفافات الميدان .

ـ اذا ، استعملها .

فقال بروخور يائساً :

ـ لن تصدقني .

لكنه نهض ، رغم ذلك ، ونبش خرج السرج ، ثم مضى الى غرفة الضيوف وهمس من هناك :

ـ اذا عادت ، اشغلها بالحديث ، وسوف أخرج بعد قليل .

وبينما كان غريغوري يلف لنفسه سيكارة عاود التفكير بخططه الخاصة بالرحيل : «سننشد كلا الحصانين الى زحافة» .

ثم قر عزمه : «يجب أن نرحل في المساء كي لا يرى الناس أكسينيا معي . رغم أنهم سيكتشفون الأمر حتما» .

خرج بروخور يقزل من غرفة الضيوف وجلس الى المائدة قائلاً :

ـ أنا لم أنه قصة آمر السرية . في اليوم الثالث بعد مرضي ، قتله رجالنا .

ـ صحيح ؟

ـ أي والله! أطلقوا عليه الرصاص من الخلف أثناء احدى المعارك ، وكانت في ذلك نهايته . وهكذا حصلت على السيلان بلا فائدة ، وهذا المزعج .

فتساءل غريغوري شارداً ، وأفكاره منصرفة نحو رحيله من تتارسكي :

ـ ألم يلقوا القبض على الفاعل ؟

ـ وهل لديهم فرصة للبحث عنه ؟ كان التراجع من الشمول بحيث لم يكن هناك متسع من الوقت للبحث عن أيما شخص! ولكن ، أين ولت زوجتي ؟ انا في أشد الحاجة الى الشراب! متى تعتزم الرحيل ؟

ـ غداً .

ـ ألا تستطيع تأجيله يوماً آخر فحسب ؟

ـ لماذا ؟

ـ كي أنفض القمل عني على الأقل . ليس متعة أن أحمله مع حصاني!

ـ تستطيع أن تنفضه في الطريق . ليس الظرف مناسباً للتسكع . الحمر لا يبعدون اكثر من مسيرة يومين عن فيشنسكايا .

ـ هل نبدأ الرحيل في الصباح ؟

ـ كلا ، في الليل . ليس علينا الا أن نبلغ كارغينسكايا ، وسنقضي الليلة هناك .

ـ ولكن ، ألن يلقي الحمر القبض علينا ؟

ـ يجب أن نكون مستعدين للمضي في أية لحظة... كنت أفكر بـ... فكرت باصطحاب أكسينيا استاخوفا معي . لا أظنك تمانع ؟

ـ وماذا يعنيني ذلك ؟ يمكنك ، ان شئت ، أن تصطحب اكسينيتين لا اكسينيا واحدة . الخيول ستزداد حمولتها .

ـ ليست هي بثقيلة الوزن .

ـ من الصعب السفر مع النساء... ثم ما الداعي ، بحق الجحيم ، الى أين تأخذها معك ؟ وكأن مصاعبنا بدونها لن تكون كافية!...

وتنهد بروخور . ثم أضاف ، وعيناه منحرفتان :

ـ كنت أعرف أنك ستجرجرها وراءك . انك دائماً تلعب دور الزوج! آه ، يا غريغوري بانتلاييفتش ، السوط يتلهف لجلدك منذ زمان ، ويبكي دموعاً مريرة!

فقال غريغوري في لهجة جافة :

ـ ليس هذا من شأنك . لا تثرثر بذلك لزوجتك .

ـ هل ثرثرت لها بشيء في حياتي ؟ ليكن لديك ضمير على الأقل! ولكن ، بعهدة مَنْ ستترك بيتها ؟

وبلغ أسماعهما صوت خطوات في السقيفة . ثم دخلت زوجة بروخور . كان الثلج يتلألأ على عصابة رأسها الرمادية الفضفاضة .

ـ الثلج شديد .

وأخرج بروخور قدحين من الدولاب ، ولم يخطر بباله إلا آنئذ أن يسألها :

ـ ولكن ، هل جئت بشيء ؟

فأخرجت زوجته ، محمرة الوجه ، قنينتين مضببتين من صدرها ووضعتهما على المنضدة . فقال بروخور مبتهجاً :

ـ حسن ، الآن سيكون في مقدورنا التلذذ باحداهما في الطريق!

وتشمم الفودكا وقال :

ـ من الصنف الأول! وفي مثل قوة الشيطان!

لم يشرب غريغوري غير قدحين صغيرين من الفودكا ، ثم اعتذر لكونه تعباً وعاد الى داره .

٢٦

قال بروخور فيما كانوا يرتقون التل :

ـ حسن ، لقد انتهت الحرب . الحمر يشددون الضغط علينا حتى أننا سنظل نتراجع ونتراجع الى أن نغمس عجيزاتنا في الماء المالح .

والى أسفل ، كانت تتارسكي متلفعة بضباب مائل للزرقة . وكانت الشمس قد غربت خلف هدب الأفق الوردي الموشح بالثلج . وكان الثلج يخشخش تحت مزالق الزحافة ، والحصانان يمضيان بسرعة يسيرة . واتكأ غريغوري في مؤخرة الزحافة ذات الحصانين وكتفاه على السروج ، فيما جلست أكسينيا الى جانبه متدثرة بسترة من جلد الخروف ذات حاشية من الفراء . وكانت عيناها السوداوان تتألقان وتومضان لهباً ، في سعادة وحبور ، من تحت عصابة رأسها البيضاء الفضفاضة . فنظر غريغوري بطرف عينه اليها والى وجنتها التي ترك الزمهرير أثراً قرمزياً خفيفاً عليها ، والى حاجبيها الأسودين الكثيفين والى بياضي عينيها المائلين للزرقة ، والمتألقين تحت أهدابها الطويلة المعقوفة التي علق بها غبار الثلج . كانت أكسينيا تجيل البصر حولها في تطلع وشوق ، فحدقت في السهب المغطى بالثلج المكتوم ، وفي الطريق الذي تآكلته الزحافات حتى أمسى صقيلاً أملس ، وفي الآفاق النائية المضببة . كان كل شيء

جديداً طريفاً لديها رغم أنها لم تكن قد ابتعدت كثيراً عن قريتها بعد . كان كل شيء مجلباً لاهتمامها . بيد أنها كانت ، من حين الى حين ، تخفض عينيها فتحس بالبرودة القارصة اللذيذة لغبار الثلج على أهدابها . فكانت تبتسم لخاطرة أن الحلم الذي كان قد تملكها منذ أمد بعيد غدا حقيقة واقعة على نحو غريب وغير متوقع البتة . فها هي ذي الآن وغريغوري ماضيان الى مكان ما بعيد عن تتارسكي ، قصي عن موطنها الكريه حيث قاست الأمرين وحيث قضت نصف عمرها في عذابات متصلة مع زوج غير محبوب ، وحيث كل ما فيه مثير لذكريات أليمة . وافترّ ثغرها عن ابتسامة وهي تستشعر ، بكل جسدها ، وجود غريغوري الى جانبها ، فلم تفكر بالثمن الذي دفعته للحصول على هذه السعادة ، ولا ما يخبئه المستقبل ، هذا المستقبل الذي كان ملفّعاً بضباب قاتم كتلك الآفاق القصية التي كانت تومئ اليها من بعيد .

وحدث أن تلفت بروخور فلاحظ الابتسامة الراعشة على شفتي أكسينيا القرمزيتين المتورمتين ، فسألها في لهجة مستاءة :

ـ حسن ، ولأي شيء تتبسمين ؟ مثل عروس فرحة تماماً! أسعيدة أنت بتركك القرية ؟

فسألته أكسينيا بدورها في صوت رنان :

ـ وهل تظنني غير سعيدة ؟

ـ وجدت ما تسعدين به! أنت حمقاء ، أيتها المرأة! أنت لا تعرفين ، حتى الآن ، كيف ستنتهي هذه الرحلة الصغيرة ، فلا تتعجلي اصطناع الابتسام! احتفظي بأسنانك ليوم آخر!

ـ لن يكون المستقبل أسوأ من ماضيّ .

ـ النظر اليكما يثير الغثيان...

وهوى بروخور بسوطه في اهتياج شديد على ظهري الحصانين . غير أن أكسينيا توجهت اليه بالنصح قائلة :

ـ حسن ، أشح بوجهك وادحس اصبعك في فمك!

ـ ها انت تكشفين عن حماقتك من جديد! ولماذا علي أن أدحس اصبعي في فمي طوال الطريق الى البحر ؟ يا لها من فكرة بديعة!

ـ ما الذي يثير غثيانك ؟

ـ لمَ لا تسكتين! متورطة مع رجل لا يخصك وماضية الى حيث لا يدري الا الشيطان! افرضي أن ستيبان وصل الى القرية الآن فجأة ، فماذا سيحدث ؟

ـ أتدري ، يا بروخور ؟ لا يجدر بك أن تتورط في شؤوننا ، والا فلن تكون محظوظاً انت ايضاً!

ـ انا لا أتدخل في شؤونكما ، ولا حاجة بك للرد عليَ بهذه الفظاظة! من حقي أن أتفوه بما أعتقد ، أم لا ؟ ام تعتبرينني حوذيكم ولا يحق لي أن أتحدث الا الى الخيل ؟ فكرة رائعة أخرى! تستائين أو لا تستائين ، كما تشائين يا أكسينيا ، ولكنك تستحقين الجلد بعسلوج جيد . تجلدين وتؤمرين بألا تصرخي! ولكن ، لا تحاولي اخافتي بالبؤس! انا أحمل حظي معي . ان لدي حظاً خالصاً ، قد لا يغني ، لكنه لا يدعني أنام...

وصرخ في الحصانين :

ـ ها ، أيها الشيطانان! تحاولان دائماً استغلال الفرصة للتباطؤ ، أيها الشيطانان الأبتران!

لبث غريغوري يستمع ، مبتسماً ، ثم قال أخيراً بلهجة مهدئة :

ـ لا تشرعا بتبادل الشتائم في حين أننا لم نكد نغادر القرية! أمامنا طريق طويل ، وستجدان متسعاً من الوقت لذلك . لماذا تنكّد عيشها ، يا بروخور ؟

فأجاب بروخور بخشونة :

ـ انني أنكّد عيشها لأن من الخير لها ألا ترد على ما أقول! أنا ، في هذه اللحظة ، أعتقد بأنه ليس ما هو أسوأ من النساء في كل عالمنا الواسع . ما هنَ الا كومة من قريض* وخَاز... أنت تعلم ، النساء كنَ أسوأ خلق الله طراً! ولو

* قريض : نوع من الأخشاب الواخزة . المترجمون

تركت لي معالجة أمرهن لما بقيت في الأرض رائحة منهن! الى هذه الدرجة صرت أتقزز منهن . وما الذي يضحكك ؟ الحمقى فقط هم الذين يضحكون من مصائب الآخرين . تولّ أمر الأعنة أنت ، فانا نازل من الزحافة لبعض الوقت .

لبث بروخور يسير على قدميه ردحاً من الوقت ، ثم عاد فركب الزحافة واخلد الى الصمت .

قضوا الليلة في كارغينسكايا ، وانطلقوا ثانية في الصباح الباكر بعد الافطار . وحينما حلّ الليل كانوا قد قطعوا زهاء ستين فرستا بعيداً عن تتارسكي .

كانت قوافل أمتعة لا حدّ لها تزحف باتجاه الجنوب . وعلى مقربة من موروزوفسكي ، التقوا بأولى قطعات القوزاق . كانت سرايا ، لا يزيد تعدادها على ثلاثين أو أربعين راكباً ، تمضي في الطريق تتبعها قوافل أمتعتها . وكانوا كلما توغلوا جنوباً يلاقون مشقة أشد في العثور على مكان للمبيت . فقد كانت جميع الأماكن الصالحة للجوء اليها في القرى تحتل قبل حلول المساء ، حتى أنه لم يكن ثمة موضع لايواء الخيل ، ناهيك عن موضع لايوانهم هم . وحدث في احدى مناطق تافاريدا أن ظلّ غريغوري ينتقل من باب الى باب ، يبحث عبثاً عن مبيت لهم ، ثم اضطروا أخيراً الى قضاء الليلة في مأوى خارجي . فتنقعت ملابسهم عن آخرها بفعل الريح الثلجية ، وحين حلّ الصباح كانت ملابسهم متجمدة متصلبة ، وغدت تصرّ وتطق مع كل حركة يأتونها . فقد أمضوا الليلة يكاد لا يغمض لهم جفن ، ولم يفلحوا في الحصول على شيء من الدفء الا قبيل الفجر حينما أوقدوا ناراً من القش في الفناء .

وفي الصباح قالت أكسينيا مقترحة في حياء :

ـ غريشا ، ألا تظنّ أن من الأفضل أن نقضي النهار هنا ؟ كانت ليلتنا سيئة جداً ببردها ، وزمهريرها ولم ننم كفايتنا قط ، ولهذا يجب أن نريح أنفسنا بعض الشيء .

فوافق غريغوري . ثم عثر ، بعد لأي ، على مكان أوسع . وكان اللاجئون الآخرون قد رحلوا عند الفجر ، غير أن مستشفى ميدان يحمل أكثر من مائة شخص ، ما بين جريح ومصاب بالتيفوس ، بقي في القرية كذلك لتمضية النهار .

كان عشرة قوزاق يفترشون الأرضية الترابية القذرة في غرفة صغيرة واحدة . فجلب بروخور مرشحة خيل وزكيبة من الزاد ، ونشر شيئاً من القش بمحاذاة الباب مباشرة ، وأمسك بقدمي قوزاقي عجوز مستغرق في النوم وجره الى أحد الجوانب ، وقال لأكسينيا في لهجة امتزجت فيها الخشونة والرقة :

ـ تمددي هنا ، فانت منهكة بحيث لا تبدين بصورتك الأصلية .

ومع مقدم المساء ، عادت القرية فاكتظت بالناس من جديد . وفي الأزقة الجانبية أوقدت النيران ابتغاء للدفء ، وظل المكان طوال الليل يضج بالأصوات البشرية وصهيل الخيل وصرير زلآقات الزحافات . وما كاد أول بصيص من الضوء ينبلج حتى أيقظ غريغوري بروخور وقال له هامساً :

ـ هيا ، ضع العدة على الحصانين . علينا أن نمضي .

فتساءل بروخور متثائباً :

ـ ولمَ الرحيل في مثل هذا الوقت المبكر ؟

ـ اسمع!

فرفع بروخور رأسه من على قربوس سرجه وتسمع الى لعلعة رشاشات بعيدة مكتومة .

اغتسلوا ، وتناولوا وجبة من شحم الخنزير ، ثم انطلقوا الى خارج الفناء الذي كان قد بدأ يتململ . كان الناس يروحون ويغدون حول صفوف الزحافات ، وانطلق صوت أجش في عتمة الصباح الباكر :

ـ كلا ، تستطيعون أن تدفنوهم بأنفسكم! فحفر قبر لستة رجال سيستغرق منا نصف نهار .

فرد صوت آخر باللهجة الأوكرانية في هدوء :

ـ هل من واجبنا دفنهم ؟

فصرخ الصوت الأجش :

ـ ستدفنونهم حتماً! أما اذا كنتم لا ترغبون ، فاتركوهم في فنائكم ليملأوه جيفة وعفناً . هذا لا يعنيني .

ـ ولكن ، اسمعني ، أيها الطبيب . اذا دفنا كل اللاجئين الذين يقضون نحبهم هنا ، فسنظل نفعل ذلك طول الوقت . هلا فعلتم ذلك بأنفسكم ؟

ـ اذهب الى الجحيم ، أيها البليد المزعج! هل تتوقع مني أن أسلم المستشفى للحمر اكراماً لك ؟

فتمتم غريغوري فيما كان يسوق الزحافة متحاشياً الزحافات الواقفة في منتصف الطريق :

ـ لا أحد يريد الموتى...

وقال بروخور :

ـ لا أحد يستطيع الاهتمام بالأحياء ، ناهيك عن الموتى .

كانت جميع المناطق الشمالية للدون تتدفق صوب الجنوب وكانت قوافل أمتعة لاجئين لا حصر لها تنطلق عبر خط السكة الحديد من « تسارتسين » الى « ليخايا » ثم تنعطف باتجاه « مانيتش » .

وكان غريغوري ، خلال الأسبوع الأول للرحلة ، يستفسر في كل نقطة توقف عن أبناء قرية تتارسكي ، غير أنه لم يعثر على أي منهم في جميع القرى التي مرّ بها . ولا بد أن يكون والده والآخرون قد اتخذوا لهم طريقاً جانبياً الى اليسار ، متجنبين المضارب الأوكرانية ومخترقين القرى القوزاقية الى أويلفسكايا . ولم يعثر على أثر لهم الا في اليوم الثالث عشر . فقد حدث ذات مساء ، حينما كان يعد العدة للمبيت ، أن علم بوجود قوزاقي من منطقة فيشنسكايا ممَدد في الكوخ المجاور وهو مصاب بالتيفوس . فمضى غريغوري ليقف على موطن الرجل الأصلي ، وحينما دخل الغرفة الصغيرة ذات

السقف الواطئ وقع نظره على أوبنيزوف العجوز ممدداً على الأرض . فعلم منه أن لاجني تتارسكي كانوا قد تركوا هذه القرية بالذات قبل يومين ، وأن العديد منهم وقعوا في براثن التيفوس ومات منهم اثنان ، وأنهم رحلوا تاركين أوبنيزوف بناء على طلبه .

وقال العجوز فيما كان غريغوري يودعه :

ـ اذا تحسنت صحتي ، وأشفق الرفاق الحمر عليّ فلم يقتلوني ، سأتخذ طريقي عائداً الى القرية بشكل من الأشكال . والا ، فسأموت هنا وسيان لدي أين أموت . حينما يأتي الموت ، فليس هو الا... حلو...

وسأله غريغوري عن أبيه ، بيد أن أوبنيزوف أجاب بأنه لم يكن ليعلم شيئاً عنه لأنه ، هو ، رحل في احدى الزحافات الأخيرة ، وأنه لم ير بانتلاي بروكوفتش منذ مرورهم بقرية مالاخوفسكي .

وفي نقطة التوقف الثانية ، صادف غريغوري نصيباً أفضل من الحظ في العثور على مكان للمبيت . اذ التقى في أول بيت دخله بمعارف من القوزاق من قرية فيرخنه ـ تشيرسكويه ، فأفسحوا له المجال وأراح رفيقيه الى جانب الموقد . كان خمسة عشر لاجئاً ممددين على الأرض ، متراصين كما يرص السمك في البراميل . وكان ثلاثة منهم مصابين بالتيفوس ، وآخر يعاني من لسعة الثلج .

طبخ القوزاق شيئاً من عصيد الدخن ، وأعدوه مع شحم الخنزير عشاء قدموا منه ، بكرم وضيافة ، لغريغوري ورفيقيه . فأكل بروخور وغريغوري في شهية ونهم ، بيد أن أكسينيا رفضت أن تمس الطعام . فسألها بروخور :

ـ عجباً ، ألست جائعة ؟

وكان خلال الأيام القليلة الماضية قد غير موقفه من أكسينيا على نحو عجيب ، فغدا يتكلم اليها بلهجة جافة ، ولكنها مشوبة بالعطف والشفقة .

ـ انا أشعر بتوعك...

وألقت أكسينيا بعصابتها على رأسها وخرجت الى الفناء . فسأل بروخور غريغوري :

ـ لعلها لم تصب بالتيفوس بعد ، ها ؟
ـ من يدري ؟
ووضع غريغوري صحن عصيدة على الأرض وخرج وراءها . فوجدها واقفة بجانب درجات العتبة ويدها مضغوطة على صدرها . فوضع ذراعه حولها وسألها قلقاً :
ـ ما بك ، يا عزيزتي ؟
ـ أشعر بتوعك ، وبوجع في رأسي .
ـ تعالي الى داخل الكوخ واضطجعي .
ـ أدخل أنت ، وسأتبعك بعد قليل .
وكان صوتها غليظاً لا نغم فيه ، وحركاتها ثقيلة بطيئة ، فراقبها غريغوري عن كثب فيما كانت تدلف الى الغرفة المختنقة بالحرارة . ولاحظ التوهج القرمزي في وجنتيها واللمعان المشبوه في عينيها . فغاص فؤاده . كانت مريضة بما لا شك فيه . وتذكّر أنها قد شكت ، في اليوم السابق ، من قشعريرة ودوخة ، وأنه حينما أفاق في الصباح الباكر لاحظ أنها كانت قد عرقت كثيراً حتى أن شعرها المجعد كان مبللاً على رقبتها وكأنها قد غسلته تواً . فلبث مستلقياً يحدق فيها أثناء نومها ، ولا يجرؤ على النهوض مخافة اقلاق راحتها .
كانت قد تحملت مصاعب السفر بشجاعة ، حتى أنها أفلحت في انعاش روح بروخور حينما قال أكثر من مرة :
ـ لِمَ هذه الحرب ، بحق الشيطان ، ومن الذي فكر بها ؟ نظل نسير ونسير ونسير طوال النهار ، وليس من مكان لقضاء الليل ، ولسنا ندري كم ستدوم هذه الشغلة العفنة .
على أنها في ذلك اليوم فشلت حتى في الحفاظ على معنوياتها هي . وحينما أووا للنوم ، هجس غريغوري أنها كانت تبكي ، فسألها هامساً :
ـ ما الخبر ؟ أين تحسين بالألم ؟

ـ أنا مريضة حقاً... والآن ، ماذا نفعل ؟ هل ستتركني ؟

ـ أنت حمقاء! كيف أتركك ؟ لا تبكي ، لعل كل ما في الأمر أنك أصبت ببرد أثناء الطريق . فما الداعي الى كل هذا الخوف ؟

ـ غريشا ، يا عزيزي ، انه التيفوس .

فطمأنها غريغوري قائلاً :

ـ لا تنطقي هراء! لا علامة له . رأسك بارد تماماً . ولمَ يجب أن يكون تيفوساً ؟

بيد أنه كان يعلم ، في أعماق قلبه ، أنه كان التيفوس ، وتاهت أفكاره على نحو بائس في ما عساهما أن يفعلا بها اذا ما ستضطر الى ملازمة الفراش .

فهمست ، وهي تحتمي بيده :

ـ أواه ، من العسير الاستمرار في الرحلة وأنا على هذه الحال! أنظر الى مجموعة الناس الذين يملأون الأماكن كل ليلة . سيأكلنا القمل جميعاً ، يا غريشا! وأنا لا فرصة لي للعناية بنفسي بوجود هؤلاء الرجال في كل مكان... أمس ، ذهبت داخل مأوى وخلعت ملابسي ، فوجدت أعداداً كبيرة من القمل في قميصي... رباه ، أنا لم أر في حياتي منظراً كهذا! أنا أشعر بالغثيان كلما فكرت فيه ولاتبقى لي شهية في طعام... ولكن ، هل رأيت عدد القمل الذي كان على ذلك العجوز الراقد على المصطبة أمس ؟ كان يزحف في كل بقعة من سترته .

فهمس غريغوري محنقاً :

ـ لا تفكري بهم! هذا وسواس الشيطان! القمل قمل . فلا تحصي عدده .

ـ جسمي كله يحكني .

ـ الجميع تحكهم أجسامهم كلها . ماذا نقدر أن نفعل ؟ تحاملي على نفسك! وحينما نبلغ « يكاتيرينودار »سنأخذ حماماً جيداً .

فقالت أكسينيا متنهدة :

ـ ولكننا لا نستطيع ارتداء ملابس نظيفة! سيهلكنا هذا القمل يا غريشا!

ـ عليك أن تنامي الآن . سنستأنف الرحلة في الصباح الباكر .

ومرّت ساعات دون أن أن يستطيع غريغوري أن ينام . ولم تنم أكسينيا . وبكت في هدوء أكثر من مرة ، وهي تغطي رأسها بسترتها الفرو الثقيلة . ثم لبثت وقتاً تتقلب وتطلق الحسرات ، ولم تغف الا بعد أن وضع غريغوري ذراعيه حولها .

وخلال الليل ، أزعجه طرق عال على الباب ، وكان شخص ينادي :

ـ يا أنتم ، افتحوا الباب والا فاننا سنحطمه! تنامون ملء جفونكم ، أيها الشياطين!

فخرج ربّ البيت ، وكان قوزاقياً كهلاً مسالماً ، الى السقيفة وسأل :

ـ من هناك ؟ ماذا تريدون ؟ اذا كنتم تبحثون عن مكان لقضاء الليلة ، فلا فائدة في مجيئكم هنا ، المكان مكتظ تماماً وليس فيه مجال حتى للتململ .

فجاءت صرخة أخرى من الخارج :

ـ قلت لك ، افتح الباب!

وما هي الا برهة أخرى حتى اخترق الباب ستة قوزاق مسلحين وتدفقوا داخل الغرفة الأمامية . وتساءل أحدهم ، وكان قد اسود وجهه من أثر الصقيع ، لا يكاد يستطيع تحريك شفتيه المتجمدتين :

ـ من يقض لديك الليلة هنا ؟

ـ لاجئون . ولكن ، من أنت ؟

وبدون أن يجيبه خطا أحد القوزاق الى داخل غرفة الضيوف وصاح :

ـ أنتم ، متمددون بصورة مريحة ، ها ؟ أخرجوا من هنا على الفور! ان قطعات عسكرية ستتخذ مقرها هنا . انهضوا ، انهضوا! وأسرعوا والا سنقذفكم الى الخارج فوراً!

فتساءل غريغوري بصوت أجش وهو ينهض ببطء :
ـ من أنت ، حتى تصيح بهذا الشكل ؟
ـ سأريك من أنا!

وتقدم القوزاقي باتجاه غريغوري ، وتلامعت في الضوء الخافت للفانوس البارافيني الصغير ماسورة مسدس كان في يده .

فقال غريغوري في لهجة رقيقة :
ـ أنت شاطر ، أليس كذلك ؟... حسن ، أرنا لعبتك!

وبحركة سريعة أمسك بالقوزاقي من رسغه وجعل يعصره بقوة الى أن شرع الرجل يئن ويفتح أصابعه . فوقع المسدس على مرشحة الخيل . ودفع غريغوري القوزاقي بعيداً عنه ، وانحنى بسرعة والتقط المسدس ووضعه في جيبه قائلاً في هدوء :

ـ والآن ، دعنا نتكلم . من أية كتيبة أنت ؟ وكم عدد أمثالك من الأذكياء هنا ؟

فصاح القوزاقي ، وهو يتغلب على ذهوله :
ـ يا أولاد! لنخرج!

فمضى غريغوري الى الباب . ووقف على العتبة متكئاً على عامود وقال :
ـ انا آمر سرية من كتيبة الدون التاسعة عشرة . كونوا أهدأ الآن! كفوا عن الزعيق! من هذا الذي ينبح ؟ حسن ، يا رفاقي القوزاق الأعزاء ، لماذا تثيرون كل هذه الضجة ؟ من أنتم حتى تعرفوا كيف تخرجوننا ؟ من أعطاكم مثل هذه الصلاحيات ؟ هيا ، عادة سر ، الى الخارج!

فقال أحد القوزاق بصوت عال :

ـ ولماذا تزعق أنت ؟ نحن رأينا شتى أصناف آمري السرايا! هل يتوجب علينا أن نقضي الليلة في الفناء ؟ هيا ، على الجميع أن يخرجوا من البيت! أعطونا أوامر باخراج جميع اللاجئين ، فاهم ؟ بينما تثير أنت كل هذه الضجة! لقد رأيت من هم على شاكلتك من قبل!

فتقدم غريغوري من المتكلم حتى واجهه ، وقال هامساً خلل أسنانه المصكوكة :

ـ انت لم تر من هو على شاكلتي من قبل قط . أتريد أن أجعل من الأحمق الذي هو أنت أحمقين ؟ سأفعل ذلك! لا تتراجع! ليس هذا مسدسي ، بل أخذته من صاحبك . هاك ، أعده اليه ، وانقشع بسرعة قبل أن أشرع بضربكم وآنذاك سأسلخ عنكم جلودكم!

وبرفق ، أدار القوزاقي ثم دفعه صوب الباب .

فتساءل قوزاقي آخر ، كبير الجرم وقد لفع وجهه بقلنسوة من وبر الجمل :

ـ أتودون أن القنه درساً ؟

وكان يقف وراء غريغوري ، وهو يتفحصه عن كثب ، وكانت جزمته اللبادية الكبيرة ، ذات النعال الجلدية ، تصر كلما نقل وقفته من قدم الى قدم .

فاستدار غريغوري اليه ، فاقداً زمام نفسه ، وضم قبضتيه ، غير أن القوزاقي رفع يده وقال في لهجة ودود :

ـ اسمعني ، يا صاحب السعادة ، أو مهما تسمي نفسك . تمهل قليلاً ، لا ترفع قبضتيك! سوف نتجنب حصول أية متاعب . ولكن ، يجدر بك في مثل هذه الأوقات ألا تعصر القوزاق كثيراً! الظروف الصعبة في انتظارنا من جديد ، كما في عام ١٩١٧ . وقد تصادف بعضاً من الرجال البائسين ، ولن يجعلوا منك اثنين بل خمسة! نستطيع أن نرى أنك ضابط شديد البأس ، واستنتاجاً من كلامك ، فقد ولدت كأي واحد منا ، ولهذا فليكن سلوكك أكثر هدوءاً ، والا فستورط نفسك في متاعب...

فقال الرجل الذي كان غريغوري قد انتزع المسدس منه ، بلهجة حانقة :

ـ لا تقف هناك تتلو قداساً عليه! لنذهب الى الكوخ المجاور .

وكان هو أول من خطا صوب الباب ، وفيما كان غريغوري يمر ، حدجه بنظرة من طرف عينه وقال متأسفاً :

ـ لا نريد أن نورط أنفسنا بك ، يا حضرة الضابط ، والا لعمّدناك!

فلوى غريغوري شفتيه ازدراء وأجاب :

ـ كنت ستعمد بذلك نفسك ؟ هيا ، انصرف قبل أن أخلع عنك بنطلونك! يعني ظهر لدينا معمدان الآن! خسارة أنني أرجعت اليك مسدسك . ان لعيناً مثلك ستكون صورته أفضل مع مشط خروف بدلاً من مسدس .

فقال قوزاقي آخر ، لم يكن قد شارك في الحديث ، في قهقهة لطيفة :

ـ هيا ، يا أولاد ، ليذهب الى الشيطان! لو لم تثر الروث ، ما فاحت جيفته!

فمضى القوزاق الى الباب ، مطلقين السباب والشتائم ، ومحدثين جلبة عالية بجزمهم المتجمدة .

وأمر غريغوري رب الدار في لهجة صارمة :

ـ اياك أن تفتح هذا الباب ثانية! باستطاعتهم أن يقرعوه ثم ينصرفوا . واذالم ينصرفوا ، أيقظني!

وانغمر رجال فيرخنه تشيرسكويه ، الذين كانوا قد استيقظوا على صوت الجلبة ، في حديث خافت فيما بينهم . فقال عجوز منهم وهو يتنهد متأسياً :

ـ أنظروا كيف انهار الضبط والنظام! كيف يكلم ابناء القحبة هؤلاء ضابطاً! ما كان مثل هذا ليحدث في الايام الخوالي . كانوا سيشحنون في الحال ويرسلون الى حيث الأشغال الشاقة!

ـ كلا! ما قيمة الكلام ؟ ارأيتم كيف كانوا يتهيأون للقتال ؟ هل سمعت ما قال ذو القلنسوة الشبيه بشجرة حور جرداء ؟ قال :

ـ أتودون أن ألقنه درساً! يا للأنذال!

وتساءل أحد القوزاق :

ـ لم تساهلت معهم ، يا غريغوري بانتلاييفتش ؟

وكان غريغوري يستمع الى الحديث وابتسامة ودود على شفتيه . وأجاب فيما كان يلف نفسه بمعطفه الثقيل :

ـ حسن ، ماذا يستطيع المرء أن يفعل معهم ؟ لقد أفلتوا من الزمام تماماً ولن يعطوا أذاناً صاغية لأيما انسبان . وهم يحومون هنا وهناك عصابات لا قائد لها . من سيكون حكمهم وآمرهم ؟ آمرهم ، بكل بساطة ، هو ذاك الذي يفلح في اظهار تفوقه عليهم في القوة . أنا لا أظن أنه تبقى لديهم أي ضابط في وحدتهم كلها . لقد رأيت سرايا بكاملها على هذه الشاكلة ، مثل شرذمة من الأيتام . على أية حال ، هيا الى النوم .

فهمست أكسينيا له :

ـ ولكن ، ما الذي جعلك تصطدم بهم ، يا غريشا ؟ لا تتسرع مع أمثال هؤلاء الرجال ، بحب المسيح! انهم متوحشون حد القتل .

ـ عليك أن تنامي . يجب أن ننهض في الصباح الباكر غداً . وكيف تشعرين الآن ؟ بنوع من التحسن ؟

ـ كما كنت .

ـ أمايزال الصداع في رأسك ؟

ـ بلى ، وأخشى ألا أستطيع النهوض أبداً...

فوضع غريغوري راحته على جبهتها وتنهد :

ـ أنت تتوهجين حرارة كالموقد! حسن ، وعلى أية حال ، لا عليك! انت امرأة قوية البنية ، وسوف تتغلبين على المرض!

فلم تجب أكسينيا . كان العطش يؤلمها . فخرجت مرات عديدة الى المطبخ لتشرب شيئاً من الماء الساخن المج ، ثم تعود تستلقي على مرشحة الخيل وهي تكبح شعورها بالغثيان والدوار .

وخلال الليل ، قدمت الى الكوخ أربع جماعات أخرى في طلب المبيت . فقرعوا الباب بأعقاب بنادقهم ، وفتحوا أباجورات النوافذ ، وظلوا يضربون

على الشبابيك ، ولم يولّوا الا بعد أن صاح رب الدار بهم من الممر ، منفذاً تعليمات غريغوري :

ـ انقشعوا من هنا! هذا مقر لواء!

في الفجر ، قام بروخور وغريغوري بوضع العدة على الحصانين . وبذلت أكسينيا جهداً كبيراً في ارتداء ملابس الخروج ، ثم خرجت الى الفناء . كانت الشمس ترتفع ، ودخان رمادي خفيف ينساب من المداخن الى السماء اللازوردية ، وكانت ثمة غيمة وردية تطفو في الأعالي وقد أضيء أسفلها بنور الشمس . وعلى الأسيجة وسقوف المآوي تراكم غبار ثلج كثيف . وكان البخار ينضح من جسمي الحصانين .

أعان غريغوري أكسينيا على الصعود الى الزحافة ، وقال :

ـ لعلك تستطيعين الاستلقاء ، ستجدينه أكثر راحة .

فهزت رأسها موافقة ، ونظرت اليه في امتنان فيما كان يدثر ساقيها باعتناء ، ثم أغمضت عينيها .

عند الظهر ، وحينما توقفوا لاطعام الحصانين في قرية تبعد حوالي فرستين عن الطريق الرئيسي ، لم تستطع أكسينيا النزول من الزحافة . فأمسك بها غريغوري من ذراعها وأخذها الى الدار ووضعها في السرير الذي سمحت لهم ربة البيت باستعماله عن طيب خاطر وضيافة .

وتساءل منحنياً فوق وجه أكسينيا الشاحب :

ـ هل حالتك سيئة ، يا أعز من لديّ ؟

فتحاملت على فتح عينيها ، ونظرت اليه ببؤبؤين مضببين ، ثم ما لبثت أن أغفت من جديد فيما يشبه الغيبوبة ، فأزاح العصابة عن رأسها بيدين مرتعشتين . كانت وجنتاها باردتين كالجليد ، في حين كانت جبهتها تضطرم ناراً . ومع دنو المساء فقدت وعيها تماماً . وكانت قبل ذلك بقليل قد طلبت شيئاً من الماء ، هامسة :

ـ قليلاً من الماء البارد ، فقط . قليلاً من ذوب الثلج .

وخيم عليها الصمت برهة ، ثم قالت في وضوح :
ـ ناد غريشا .
ـ ها أنذا . ماذا تريدين ، يا عزيزتي أكسينيا ؟
وتناول يدها وجعل يمسدها على نحو مضطرب وخجول .
ـ لا تتركني وترحل ، يا عزيزي غريشا!
ـ لن أتركك وأرحل . ما الذي يجعلك تظنين أنني سأفعل ؟
ـ لا تتركني في مكان غريب... سأموت هنا .
وناولها بروخور الماء . فوضعت شفتيها المتيبستين الظمآوين على حافة الكوز النحاسي ، وشربت بضع قطرات ، ثم سقط رأسها على الوسادة وهي تئن . ومرت خمس دقائق شرعت بعدها تنطق كلاماً غير مترابط أو مفهوم . ومن حيث كان غريغوري يجلس في جوار رأسها ، استطاع أن يميز بضع كلمات :
يجب أن أغسل الملابس... أحصل على شيء من الصبغة الزرقاء... في وقت قريب...
وخفت هذيانها حتى أمسى همساً . فهزّ بروخور رأسه لائماً :
ـ قلت لك الا تصحبها في هذه الرحلة . ما عسانا نفعل الآن ؟ انه عقاب ، هذا هو كل ما في الأمر ، والله! هل سنقضي الليلة هنا ؟ هل صرت أطرش ، أم ماذا ؟ انا أسألك : هل سنقضي الليلة هنا أم نواصل الرحلة ؟
لم يجب غريغوري . كان متكوماً في جلسته لا يحوّل عينه عن وجه أكسينيا الرمادي . وأشارت ربة البيت ، وكانت سيدة مضيافة طيبة ، الى أكسينيا بعينيها وسألت بروخور في صوت خفيض :
ـ هل هي زوجته ؟ هل لديهما أطفال ؟
فتمتم بروخور :
ـ نعم ولديهما أطفال أيضاً . لدينا كل شيء ما عدا الحظ السعيد .
خرج غريغوري الى الفناء وجلس على الزحافة يدخن سيكارة اثر

سيكارة . كان لابد من ابقاء أكسينيا في هذه القرية والرحيل . أما المضي بها في الرحلة ، فسيكون فيه موتها . كانت رؤيته واضحة . ثم دخل الى البيت وجلس ثانية بجانب السرير .

فتساءل بروخور :

ـ سنقضي الليلة هنا ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، وقد نظل غداً .

وما لبث ربّ البيت أن وصل . كان فلاحاً قميئاً ، ذا عينين قويتين خبيثتين ، وكانت احدى ساقيه مقطوعة عند الركبة ، فخطا يعرج بخفة نحو المائدة وهو ينقر بساقه الخشبية . خلع ملابس الخروج وسدد الى بروخور نظرة من طرف عينه وقال :

ـ اذن ، فقد أرسل الباري لنا ضيوفاً ؟ من أين أنتم ؟

وبدون أن ينتظر الجواب ، أصدر الى زوجته أمراً :

ـ أسرعي في جلب شيء آكله . أنا جائع كالكلب .

ولبث يأكل بنهم وقتاً طويلاً . وكانت عيناه الحركتان لا تنفكان تنتقلان من بروخور الى هيكل أكسينيا الهامد . ثم جاء غريغوري من غرفة الضيوف وحيّاه . فهز الرجل رأسه :

ـ تتراجعون ؟

ـ نعم .

ـ اذا فقد نلتم كفايتكم من القتال ، يا صاحب السعادة ؟

ـ صحيح ، على نحو ما .

ـ من تلك... زوجتك ؟

وأشار الى أكسينيا برأسه .

ـ نعم

فاستدار نحو زوجته متضايقاً :

ـ لماذا وضعت المرأة على السرير ؟ أين سننام ؟

ـ انها مريضة ، يا فانيا ، فلم أقدر الا أن أشفق عليها .

ـ تشفقين! لا يمكنك أن تشفقي عليهم جميعاً ، وانظري ما أكثرهم ، أولئك الذين يمرون من هنا! سوف تزحموننا ، يا صاحب السعادة!

وحينما تكلم غريغوري ، وهو يستدير صوب الرجل وزوجته ويضغط يده على صدره ، كانت في صوته نغمة غريبة مستعطفة ، تكاد تكون متضرعة :

ـ أيها الأخيار ، ساعدوني في محنتي ، بحب المسيح! لو مضينا بها لأية مسافة أخرى في رحلتنا ، فستموت . دعونا نتركها لديكم . سأدفع لكم لقاء اعتنائكم بها ، بقدر ما تطلبون . وسأظل طوال حياتي أذكر فضلكم... لا تقولوا لا ، افعلوا هذا الاحسان لي!

في البدء رفض ربّ الدار رفضاً قاطعاً ، قائلاً انه لم يكن لديهم متسع من الوقت للاعتناء بامرأة مريضة وانه لا غرفة لديهم لايوائها . الا أنه قال أخيراً ، وبعد أن أنهى طعامه :

ـ حسن ، لا أحد سيعتني بها مقابل لا شيء ، أليس كذلك ؟ ولكن ، كم ستعطينا لقاء عنايتنا بها ؟ كم تستطيع أن تقدم مقابل أتعابنا ؟

فأخرج غريغوري من جيبه كل النقود التي كانت معه وقدمها للرجل . فتناول الفلاح ، متردداً ، حزمة أوراق نقد حكومة الدون ، وبصق على أصابعه وعدها ، ثم تساءل :

ـ ولكن ، أليست لديك أية نقود قيصرية ؟

ـ كلا .

ـ لعل لديك بعضاً من روبلات كيرنسكي ؟ فهذا الصنف ليس مأموناً جداً...

ـ لا أملك أية كيرنسكيات . اذا شئت أترك لك حصاني .

فصفن الرجل بعضاً من الوقت ، ثم أجاب متفكراً :

ـ كلا . طبعاً ، كنت سآخذ الحصان . فالحصان بالنسبة لنا ، نحن

الفلاحين ، هو أهم ما نملك . ولكنه ، في مثل هذه الأوقات ، ليس ذا نفع قط . فاذا لم يأخذه البيض أخذه الحمر ، ولن ننتفع منه في كلتا الحالتين . لدي فرس صغيرة لا خير فيها أبداً ، ولكنهم سيقودونها الى خارج الفناء قبل أن تستطيع الالتفات .

وسكت برهة ، يفكر . ثم أضاف قائلاً ، وكأنه يريد أن يبرر نفسه :

ـ لا تظن أنني بخيل . معاذ الله! ولكن ، كن أنت الحكم ، يا صاحب السعادة! فقد تظل في الفراش شهراً ، أو حتى أكثر من شهر ، ولن يكون همنا سوى اعطائها هذا الشيء أو أخذ ذلك . كما يجب أن تطعم خبزاً ولبناً ، وبيضة أو اثنتين ، ولحماً ، وكل ذلك يكلفنا نقوداً ، هذا حق ، أليس كذلك ؟ وملابسها يجب أن تغسل وهي يجب أن تغسل أيضاً ، وجميع الأشياء الأخرى... زوجتي مشغولة بشؤون المنزل والحقل ، وسيتعين عليها العناية بها . فليس ذلك بالأمر اليسير . لا تبخل بنقودك ، أضف شيئاً آخر . أنا عاجز ، فقدت ساقي كما ترى . ما فائدتي أنا كاسباً وعاملاً ؟ نحن نعيش على ما يبعثه الله لنا وندبر معيشتنا بعرق جبيننا...

فقال غريغوري والغيظ يتأجج في صدره :

ـ لست أبخل بشيء ، يا صاحبي العطوف . لقد أعطيتك كل ما لديّ من نقود . أستطيع أن أدبر حالي بلا نقود . فماذا تريد مني أيضاً ؟

فتضاحك الرجل غير موقن :

ـ اذا ، فقد أعطيتني كل نقودك ؟ مع راتبك ، يلزم أن تكون لديك خرج محشوة بالنقود .

فقال غريغوري ووجهه يشحب :

ـ قل لي مباشرة ، هل ستبقى المرأة المريضة لديك أم لا ؟

فأجاب الرجل وقد اتسم صوته بنغمة استياء :

ـ كلا . اذا كانت هذه طريقتك في تقدير الأمر فليس هناك أي داع لابقائها معنا . ليس الأمر يسيراً ، كما لا يخفى عليك... زوجة ضابط ، وما

الى ذلك كله . سيكتشف الجيران الحقيقة . والرفاق في أعقابكم . وسيبلغهم ذلك فتنزل الطامة على رؤوسنا ، كلا ، خذها في هذه الحالة معك . لعل أحداً من الجيران يقبل العناية بها .

وناول غريغوري النقود في ندم واضح ، وأخرج كيس تبغه وشرع يلف سيكارة له .

فارتدى غريغوري معطفه الثقيل وقال لبروخور :

ـ امكث بجانبها . سأخرج للبحث عن بيت آخر .

وكان غريغوري يرفع سقاطة الباب حينما أوقفه رب البيت قائلاً :

ـ مهلاً ، يا صاحب السعادة . فيم العجلة ؟ أتحسب أنني لا أشفق على المرأة المسكينة ؟ انني متألم جداً بسببها ، ولقد كنت أنا في الجيش كذلك وأنا أحترم مركزك ورتبتك ، ولكن ، أليس في مقدورك أن تضيف شيئاً الى النقود ؟

فلم يستطع بروخور أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك ، فزمجر قائلاً وقد ازرقّ وجهه غضباً :

ـ ماذا بمقدورنا أن نضيف ، أيها الصل المبتور الساق ؟ يجب أن تُقطع ساقك الأخرى ، هذا ما تستحق! يا غريغوري بانتلاييفتش! دعني أخضّه قليلاً ، ثم نضع أكسينيا في الزحافة ونمضي . عسى أن تحل عليه لعنة مكعبة ، هذا الشيطان!

لبث رب البيت يستمع الى بروخور دون أن يقاطعه ، ثم قال :

ـ لا مبرر لإهانتي ، أيها الجندي! هذه قضية يجب أن تسوى على نحو يرضي الجميع ، وليس لدينا ما نتصايح أو نتخاصم عليه . فيم زعيقك ، أيها القوزاقي ؟ أتظن أن ما أتحدث عنه هو النقود ؟ لم أكن أفكر بذلك النوع من الاضافة أبداً . ان الذي عنيته هو احتمال أن تكون لديكما بعض المعدات الزائدة ، ولنقل بندقية أو مسدساً... فسيان لديكما أن تكون أو لا تكون هذه في حوزتكما . لكنها في مثل هذه الظروف كنز بالنسبة لنا . يجب أن تكون لدينا

أسلحة لحراسة الدار بها . هذا هو ما كنت أقصده . أعد لي النقود التي عرضتها عليّ ، وأضف بندقيتك الى الصفقة ، ونتصافح عليها . أترك امرأتك المريضة هنا ، وسنعتني بها كما لو كانت واحدة من عائلتنا . أقسم لك على ذلك .

فنظر غريغوري الى بروخور وقال في هدوء :

ـ أعطه بندقيتي والخراطيش ، ثم اذهب وأعدّ الحصانين... أكسينيا ستبقى... ليحكم الله ، فأنا لا أستطيع أن أحملها الى حتفها .

٢٧

امتدت الأيام ، كئيبة كالحة . فمنذ اللحظة التي ترك غريغوري فيها أكسينيا ورحل ، فقد كل اهتمام بأيما شيء في الدنيا . كان في كل صباح يصعد الى زحافته ويمضي بها فوق السهب اللامتناهي والمكسو بالثلج ، وفي كل مساء يبحث عن مستقر لقضاء الليلة ، فيستلقي لينام . وهكذا ، يوماً اثر يوم ، فقد اهتمامه بما كان يجري في الجبهة ، التي كانت آنذاك تنحدر في انتظام صوب الجنوب . وأدرك أن كل مقاومة حقيقية قد انتهت ، وأنه لم يعد من تصميم غالبية القوزاق أن يدافعوا حتى عن مناطقهم هم ، وأن جيوش البيض ـ كما كانت كل الدلائل تشير ـ كانت في ختام حملتها الأخيرة ، وأنها ، ما دامت لم تستطع ايقاف تقدّم الحمر عند الدون ، فلن تستطيع ايقافه عند الكوبان .

كانت الحرب تقترب من نهايتها ، والخاتمة تدنو مسرعة محتومة . وكان قوزاق الكوبان يتركون الجبهة بالآلاف ، منتشرين صوب قراهم . أما قوزاق الدون فقد أمسوا حطاماً ، وغدا جيش «المتطوعين» الذي عانى الأمرّين من القتال والتيفوس وفقد ثلاثة أرباع تعداده ، غير قادر على الصمود أمام ضغط الجيش الأحمر في زحفه الكاسح على أجنحة النصر .

وسرت شائعات بين صفوف اللاجئين مفادها ان هناك شعوراً متزايداً

بالاستياء في الكوبان من المذبحة الوحشية التي دبّرها الجنرال دنيكين ضد أعضاء «رادا الكوبان» . وقيل ان اقليم الكوبان كان يعد العدة للانتفاض على جيش المتطوعين وان مفاوضات كانت جارية بالفعل مع ممثلين من الجيش الأحمر تستهدف فتح المجال أمام القطعات السوفيتية للمرور باتجاه القفقاس ، كما سرت شائعة قوية بأن أهل الكوبان والتيريك قد أمسوا يكنون عداء كبيراً لقوزاق الدون وجيش المتطوعين ، وأن معركة كبيرة دارت رحاها فعلاً بين فرقة من قوزاق الدون ومشاة من قوزاق الكوبان .

وفي الأماكن التي كان يتوقف فيها غريغوري ، كان يصغي الى الأحاديث فيغدو أكثر اقتناعاً باندحار البيض النهائي المحتم . ومع ذلك ، فقد كان في بعض الأحيان يخامره أمل حزين في أن يضطر الخطر الداهم القوات البيضاء المتفرقة ، الخائرة والمتنازعة فيما بينها ، الى أن تضم صفوفها من جديد وتستأنف صمودها وتصد القوات الحمراء في تقدمها المكلل بالنجاح . لكنه فقد هذا الأمل بعد سقوط روستوف ، ولم يصدق الرواية القائلة بأن الحمر شرعوا بالانسحاب بعد معارك ضارية في باتايسك . وحين ثقل عليه خموله ، أراد أن يلتحق باحدى القطعات العسكرية . غير أنه حين عرض الفكرة على بروخور ، جابهه هذا بمعارضة قوية ، وقال في حنق :

ـ رأسك فرغ من أي عقل ، يا غريغوري بنتلاييفتش! لماذا ، بحق الشيطان ، يتوجب علينا دس أنوفنا في ذلك الجحيم من جديد ؟ المسألة انتهت ، وباستطاعتك أن ترى ذلك بأمّ عينك . فما الداعي ، اذن ، لقذف حياتنا في الهلاك ؟ أم هل تحسب أن في مقدورنا ، نحن الاثنين ، أن نفيد بشكل ما ؟ فما دام ليس هناك من يحاول دفعنا الى الجيش بالقوة ، فعلينا أن نجلو عن طريق المتاعب بأسرع ما نستطيع . ثم تأتي بهذا الهراء! كلا ، أرجو أن تدعنا ننسحب في هدوء ، كما يفعل المسنون . لقد قاتلنا ، أنا وأنت ، خلال السنوات الخمس الماضية ، بما فيه الكفاية ويزيد . فدع الآخرين يجربون أذرعهم الآن . أهذا هو ما أصبت بالسيلان من أجله ، ألكي

أصاب بالعجز في الجبهة ثانية ؟ شكراً لك! انك في منتهى اللطف! لقد سئمت هذه الحرب بحيث لا تكاد تخطر على بالي حتى تنقلب أحشاء بطني . تستطيع أنت أن تلتحق بالجيش ان شئت ، أما أنا فلا . وفي تلك الحالة سأدخل الى مستشفى . لقد نلت كفايتي!

فقال غريغوري بعد صمت طويل :

ـ ليكن كما تشاء . سنمضي الى الكوبان ، ثم نرى ما نفعله آنئذ .

كانت لبروخور وسائله الخاصة . كان يبحث ، في كل مكان مأهول بعدد كبير من السكان ، عن الممرض ويأتي بمساحيق وسوائل . لكنه لم يبد رغبة كبيرة في التخلص من مرضه . وحينما سأله غريغوري عن السبب الذي كان يستعمل من أجله مسحوقاً واحداً فقط ويقذف بالباقي في غير مبالاة على الثلج ، أفاد بأنه لم يشأ أن يتخلص من مرضه كلياً ، ولكنه كان يحول دون استفحاله ، حتى اذا دعي الى اجراء فحص طبي تيسّر له التملص من الحاقه بالكتيبة . وحدث في احدى القرى أن نصحه قوزاقي خبير بشؤون الدنيا بعلاج نفسه بخميرة مصنوعة من أقدام البط . فصار بروخور ، غب ذلك ، يسأل أول شخص يصادفه في كل قرية يدخلانها :

ـ قل لي ، هل تربون البط في هذه القرية ؟

فاذا رد القروي المتعجب بأنه لم يكن ثمة ماء في المنطقة وبالتالي لم يكن لتربية البط أي معنى ، كان بروخور يقول في فحيح مشبع بالازدراء :

ـ انتم لا تعيشون كما يعيش البشر! يخيل لي أنكم لم تسمعوا بطة تصيح في كل حياتكم . أيها الأغبياء يا أهل السهب .

ويضيف مستديراً ناحية غريغوري ، وفي لهجة تنضح استحقاراً مريراً :

ـ لابد أن قسيساً عبر دربنا . نحن لا حظ لنا . آه ، لو كان لديهم بط لاشتريت واحدة في الحال وبأي ثمن ، أو لسرقت واحدة ، وآنذاك تبدأ أموري تنصلح . أما الآن فان مرضي يتلاعب أكثر مما ينبغي بقليل! في البداية كان مصدر تسلية لي ، ولو أنه ما كان ليدعني أغفو أثناء الطريق .

أما الآن ، لعنة الله عليه ، فقد أمسى عذاباً حقيقياً . أنا لا أستطيع أن أظل قاعداً في الزحافة .

وحينما كان يجد غريغوري غير متعاطف معه ، كان يخلد الى الصمت ، وفي بعض الاحيان يمسي بارداً نفوراً ، فيلبث ساعات يسوق الزحافة دون أن ينبس بكلمة .

لكم بدت الأيام طويلة مرهقة في الترحل من منطقة الى أخرى ، على أن ليالي الشتاء اللامتناهية بدت أطول بكثير . وكان لدى غريغوري فيض من الوقت للتفكير بالحاضر واستعادة الماضي . فأمضى ساعات مستعيداً السنوات الغاربة بسرعة لحياته الغريبة المضطربة . وما اكثر الوقت الذي كان يقضيه وهو جالس في الزحافة ، مسمراً عينيه المضببتين في الأرجاء الفسيحة المغطاة بالثلج للسهب الصامت في كآبة ، أو وهو مستلق في الليل في غرفة صغيرة ما ، مكتظة خانقة ، وعيناه مغلقتان وأسنانه مصكوكة ، لا يفكر الا بأكسينيا المريضة ، الغائبة عن الوعي ، متروكة في قرية صغيرة مجهولة ، وبأهله في تتارسكي . فهناك ، في اقليم الدون ، كان الحكم السوفيتي قد تأسس ، فكان غريغوري لا ينفك يسائل نفسه والقلق يأخذ بخناقه : «لابد أنهم لن يسيئوا معاملة أمي ودونيا بسببي ؟ » ويطمئن نفسه في الحال وهو يستعيد ما كان سمعه المرة تلو المرة أثناء الرحلة من أن الجيش الأحمر كان يتقدم في نظام وأن سلوك رجاله مع أهالي مناطق القوزاق المحتلة كان متسامحاً . وسرعان ما زال قلقه ، اذ بدت فكرة أن تتحمل والدته جريرته فكرة غير قابلة للتصديق ، وحشية ، لا مبرر لها اطلاقاً . وحينما تذكّر طفليه اختلج قلبه برهة ، فقد خشي ألا يستطيعا تجنب الاصابة بالتيفوس . بيد أنه شعر أن ليس هناك من حزن ، بعد وفاة ناتاليا ، يقدر على زعزعته بمثل تلك القوة ، مع حبه الشديد لطفليه...

لبثا أربعة أيام ، هو وبروخور ، في أحد الأكواخ الشتوية في سهب « سالسك » بغية اراحة الحصانين . وفي خلال هذه المدة ، تباحثا أكثر من مرة فيما سيفعلان بعد ذلك . وما كادا أن يبلغا الكوخ حتى توجه بروخور بالسؤال :

ـ هل ستصمد قواتنا في جبهة الكوبان أم تستمر في الانسحاب حتى تصل القفقاس ؟ ما رأيك ؟

ـ لا أدري . ولكن ، هل يغيّر ذلك من أمرك شيئاً ؟

ـ فكرة لطيفة! لا شك أن ذلك يغيّر من أمري . لأنهم سيدفعوننا دفعاً الى أحد بلدان الكفار ، الى مكان ما تحت سيطرة الأتراك ، وآنذاك سنلقى « أهلاً وسهلاً » فاخرة! فأجاب غريغوري :

ـ لست دنيكين ، فلا تسألني أين سيدفعون بنا . ـ أنا أسأل لأنني سمعت شائعة بأنهم سيقفون موقف الدفاع عند نهر الكوبان ، ثم يشرعون بالزحف نحو الوطن في فصل الربيع .

فضحك غريغوري هازئاً :

ـ من ذا الذي سيقف موقف الدفاع ؟

ـ عجباً... القوزاق والكاديت . فمن هناك غيرهم ؟

ـ أنت تخرج من فمك عفناً! ألا تستطيع أن ترى ما يجري حواليك ؟ الجميع يحاول الافلات بأسرع ما يمكن ، فمن سيقوم بالمقاومة ؟

فهتف بروخور قائلاً :

ـ آه ، يا بني ، أستطيع أن أرى بأم عيني أن أمورنا لم تعد تساوي قرصة سعوط ، لكنني مع ذلك لا أزال غير قادر على التصديق . ولكن ، لنفرض أن الحال ستتدهور الى أن نواجه قضية الابحار الى أرض أجنبية أو الزحف هناك مثل سرطان بحري ، فماذا ستفعل ؟ هل ستذهب ؟

ـ حسن ، ما الذي ستفعله أنت ؟

ـ موقفي هو : أينما تذهب ، أذهب . لن أظل وحدي حينما يذهب الجميع .

ـ هذا هو بالضبط ما كان يدور في ذهني . ما دمت قد وضعت نفسك في قطيع الأغنام ، عليك أن تظل مع القطيع!

ـ لكن الشيطان يسوق الأغنام الى حيث يشاء لغبائها . كلا ، دعك من هذا الكلام . كن جاداً في كلامك!

ـ لا تظل تنق برأسي! سنرى ما سنفعله حينما نصل الى هناك . لمَ يجب أن نقابل المتاعب في منتصف الطريق ؟

قال بروخور موافقاً :

ـ حسن ، آمين! لن أسألك بعد اليوم .

لكنه استأنف الموضوع ثانية في اليوم التالي بينما كانا ذاهبين لاحضار الحصانين ، فتساءل عرضاً وهو يتظاهر بفحص مقبض مذراة :

ـ هل سمعت شيئاً عن «الخضر ؟ »

ـ نعم . ماذا عنهم ؟

ـ حسن . من هم هؤلاء ، «الخضر» الذين ظهروا في آخر الزمان ؟ وبجانب من يقفون ؟

ـ بجانب الحمر .

ـ اذا ، فلماذا يدعون «خضراً» ؟

ـ الشيطان يدري! ربما لأنهم يختبئون في الغابات .

ثم اقترح بروخور متردداً وبعد تفكير طويل :

ـ ما رأيك في أن نصبح أنا وأنت من الخضر ؟

ـ أنا لا أشعر بميل كبير لذلك .

ـ ولكن ، فيما عدا الخضر ، ليست هناك أية وسيلة لعودتنا الى القرية في وقت قريب ، أليس كذلك ؟ الأمر كله سيان لدي سواء كانوا شياطين خضراً أو زرقاً أو شياطين بلون صفار البيض ، ما داموا ضد الحرب ويسمحون للجنود بالعودة الى ديارهم...

فقال له غريغوري ناصحاً :

ـ اصبر قليلاً ، وقد يستجد شيء من هذا القبيل .

في نهاية كانون الثاني ، ذات ظهيرة متشحة بالضباب المخيم على الثلوج الذائبة ، بلغ غريغوري وبروخور قرية «بيلاياكلينا» وكان قد تكدس فيها حوالي خمسة عشر ألف لاجئ ، نصفهم صرعى التيفوس . كان قوزاق

بمعاطف انكليزية ثقيلة قصيرة ، وفروات قصيرة وسترات قفقاسية طويلة ، يقطعون الشوارع بحثاً عن مستقرات وطعام لهم ولخيلهم ، وراكبو خيل وزحافات ينطلقون في جميع الاتجاهات . وكانت عشرات من الخيل الضامرة تقف حول المعالف في كل فناء ، تلوك القش بشكل بائس ، في حين كانت ترى في الشوارع والازقة زحافات مهجورة ، وعربات عسكرية صغيرة وصناديق عتاد . وبينما كان غريغوري وبروخور يمضيان حدر أحد الشوارع ، ألقى بروخور نظرة فاحصة على حصان كميت طويل السيقان كان مربوطاً الى سياج ، وقال :

ـ عجباً ، هذا حصان ابن العم اندريه! اذا ، فلا بد أن أصحابنا من تتارسكي موجودون هنا .

وقفز بخفة من على الزحافة ودخل الى البيت للاستفسار .

وبعد بضع دقائق خرج من الكوخ ابن عم بروخور وجاره ، أندريه توبولسكوف ، ومعطفه الثقيل ملقى على كتفيه . فسار متمهلاً نحو الزحافة ، يصحبه بروخور ، ومدّ لغريغوري يداً وسخة تفوح برائحة عرق الخيل . فسأله غريغوري :

ـ هل أنت مع أبناء قريتنا ؟

ـ نحن في البلوى سوى .

ـ حسن ، كيف كانت الرحلة ؟

ـ كرحلة أي امرئ آخر . بعد كل وقفة للمبيت نخلف وراءنا أناساً وخيلاً...

ـ هل لا يزال أبي حياً معافى ؟

ـ لدي أنباء سيئة ، غريغوري بنتلاييفتش... سيئة جداً... أتل الصلاة على روح والدك . سلّم الروح لباريها أمس مساء . لقد مات...

ـ وهل دُفن ؟

ـ لا أدري . لم أذهب الى هناك اليوم . سأريك الدار... حاذ جهة

اليمين ، يا ابن العم . انه البيت الرابع على اليمين من تلك الزاوية .

فمضى غريغوري بالزحافة الى بيت كبير ذي سقف من الصفائح الحديدية ، وأوقف الحصانين بجانب السياج . غير أن توبولسكوف نصحه بادخال الزحافة داخل الفناء . وقال فيما كان يقزل نازلاً من الزحافة لفتح البوابة :

ـ ان المكان مكتظ هنا بعض الشيء ، فيه حوالي عشرون رجلاً . لكنك ستجد لك مكاناً فيه .

كان غريغوري أول من ولج الى غرفة شديدة الحرارة . كان معارف من قريته متمددين أو جالسين متراصين على الأرض ، كان بعضهم يرتق جزماً أو عدة خيل ، وثلاثة منهم ، بمن فيهم بسخليبنوف العجوز الذي كان بانتلاي قد رحل معه ، يتناولون الحساء جالسين الى مائدة . وحينما شاهد القوزاق غريغوري نهضوا وردوا على تحيته المقتضبة مجتمعين .

وتساءل ، وهو يخلع طاقيته المصنوعة من جلد الغنم ويجيل النظر في أرجاء الغرفة :

ـ أين أبي ؟

فرد بسخليبنوف في صوت خافت :

ـ لدي أنباء سيئة... لقد مات بانتلاي بروكوفتش .

ووضع ملعقته على المائدة ومسح فمه بكمّ سترته ، ورسم اشارة الصليب على نفسه :

ـ قضى نحبه أمس مساء . عسى أن يسكنه الرب الى جواره!

ـ أعرف ذلك ، انما هل تمّ دفنه ؟

ـ للآن ، لا . كنا بصدد دفنه اليوم ، على أنه لا يزال هناك . لقد حملناه الى غرفة الضيوف ، حيث الجو فيها بارد . من هنا .

وفتح بسخليبنوف الباب المؤدي الى الغرفة الثانية وقال في شبه اعتذار :

ـ لم يشأ القوزاق أن يقضوا الليلة في الغرفة نفسها ، اذ ان الرائحة شديدة ، أضف الى ذلك ، أن مكانه هنا أفضل... فهذه الغرفة ليست مدفأة .

كانت ثمة في الغرفة الفسيحة رائحة قوية لبذور القنب والفئران ، وكانت زاوية منها برمتها مملوءة بكومة من الدخن والقنب ، كما وضعت براميل دقيق وزبدة على مصطبة . وكان بانتلاي بروكوفتش ممدداً على مرشحة خيل في وسط الغرفة . فسحب غريغوري بسخليبنوف جانباً ، ودخل الى الغرفة وتوقف الى جانب أبيه .

وقال بسخليبنوف في صوت خافت :

ـ ظلّ مريضاً آسبوعين . أصابه التيفوس منذ كنا في متشنكا . وهنا وجد أبوك مستقره الأخير... هذه هي حياتنا...

فانحنى غريغوري محدّقاً في وجه أبيه . كانت ملامحه قد غيرها المرض وأمسى غريباً بشكل مذهل . كانت وجنتا بانتلاي الشاحبتان الغائرتان مغطاتين بلحية شائبة ، وتدلى شاربه فوق فمه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وكان فكّ العجوز الأسفل معقوداً بمنديل أحمر ، فبدت لحيته الرمادية المجعدة ازاء القماش الأحمر أشد بياضاً .

ركع غريغوري على ركبتيه ليملأ نظره للمرة الأخيرة بذلك الوجه العزيز وليحفظه في ذاكرته ، فارتعد ، بصورة غير ارادية ، رعباً ونفوراً ، فعلى وجه بانتلاي الرمادي الشمعي ، كان القمل يزحف ، مالئاً حدقتي العينين وغضون الوجنتين . وكان يغطي الوجه بغلالة حية متحركة ، ويموج في اللحية ويتحرك بين الحاجبين ، ويشكل نطاقاً محكماً رمادياً حول الياقة الصلبة لسترته الزرقاء الطويلة...

* * *

قام غريغوري وقوزاقيان آخران بحفر قبر في الأرض الطينية المتجمدة

المتصلبة كالحديد . ولجأوا في ذلك الى استعمال أمخال* واستطاع بروخور أن يصنع تابوتاً كيفما اتفق من قطع الخشب . وفي خاتمة ذلك النهار ، حملوا بانتلاي بروكوفتش الى الخارج ودفنوه في أرض ستافروبول الغريبة . وغب ذلك بساعة ، وفيما شرعت أضواء القرية تتلألأ ، غادر غريغوري بيلايا كلينا ميمماً ناحية نوفوبوكروفسكايا .

في قريةكورنوفسكي أحس بوعكة . فأمضى بروخور نصف نهار في البحث عن طبيب ، الى أن أفلح أخيراً في العثور على جراح عسكري نصف مخمور وأقنعه ، بعد لأي ، بالحضور الى الكوخ . ففحص الطبيب غريغوري ، من غير أن يخلع معطفه الثقيل ، وجس نبضه وقال عن ثقة :

ـ عودة تيفوس قديم . أنا أنصحك ، أيها النقيب أن تقطع رحلتك ، والا فستموت في الطريق .

فابتسم غريغوري ابتسامة شوهاء :

ـ أن أنتظر مقدم الحمر ؟

ـ الحمر لا يزالون بعيدين من هنا .

ـ ولكنهم سيصلون الي هنا .

ـ لا شك لديّ في ذلك . ولكن من الأفضل لك أن تبقى . لو كنت في مكانك لاخترت هذا باعتباره أهون الشرين .

فقال غريغوري عازماً وهو يرتدي قمصلته :

ـ كلا . سأستمر في رحلتي على نحو ما . ستعطيني أنت بعض الدواء ، أليس كذلك ؟

ـ استمر ، ان شئت ، فليس هذا من شأني . كنت ملزماً باعطائك مشورتي ، وبعد ذلك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك . أما بالنسبة للدواء ، فان أفضل شيء هو الراحة والعناية . باستطاعتي أن أعطيك وصفة ، ولكن الصيدلي

---

* مفردها مخل : آلة مستطيلة من حديد أو نحوه ترفع أو تقلع بها الحجارة . المترجمون

رحل عن القرية ، وليس لدي سوى الكلوروفورم واليود وكحول الجراحة .

ـ حسن ، اذن أعطني شيئاً من الكحول .

ـ بكل سرور . ولكنك ستموت في الطريق بأية حال من الأحوال ، ولهذا فلن يغير الكحول من الأمر شيئاً . أرسل مراسلك معي ، سأعطيك ألف غرام . انني انسان طيب...

وألقى الطبيب بالتحية ، وخرج في خطى مترنحة .

جاء بروخور بالكحول ، ووضع يده على عربة صغيرة من النوع الذي يجره حصانان ، وذلك من مكان ما أو من غيره . وشدّ اليها الحصانين ، وقال في تهكم عابس وهو يدخل الى الغرفة :

ـ العربة في انتظاركم ، يا صاحب السعادة!

ومن جديد ، تزاحفت الأيام الكئيبة ، يوماً في أذيال يوم .

في الكوبان ، كان ربيع جنوبي متعجل يقدم من سفوح القفقاس . فذاب الثلج فجأة في السهب ، معرياً بقعاً من أرض سوداء لامعة ، وثرثرت الجداول في كركرات فضية الرنين . وتناثرت على الطريق برك ثلجية ، واتشحت المتاهات النائية اللازوردية بلؤلؤ ربيعي السمات ، وغدت سماء الكوبان الفسيحة أعمق وأدفأ وأشد زرقة .

وفي غضون أسبوعين ، تعرت الحنطة الشتائية تحت ضوء الشمس ، وارتفع ضباب أبيض فوق الأراضي المحروثة . وصارت سنابك الحصانين تخبط على الطريق الموحل وتغوص ، حتى الرسغ ، في الطين ، وتعيقهما المسارب عن السير ، فيجهدان ظهريهما ويتفصد العرق على اهابهما . فعقد بروخور باعتناء ذيليهما الى أعلى ، وجعل في كثير من الأحيان يترجل من العربة الصغيرة ويسير بجانبهما ، مجرجراً قدميه بمشقة من الوحل ، وهو يهمهم :

ـ هذا ليس طيناً ، انما قار ، والله انه قار! لقد أصبح على الحصانين أن يظلا يعرقان طوال الطريق!

لبث غريغوري صامتاً ، وهو مستلق في العربة الصغيرة . يرتعش ويدثر

نفسه . بيد أن بروخور أمسى يجد الرحلة مرهقة من غير شخص يسامره . فكان يلمس قدم غريغوري أو كمّه ويقول : «هذا الوحل فوق الاحتمال! قم وجربه! لعمري أنك ابن حلال ، أن تمرض في هذا الوقت!» .

فكان غريغوري يهمس بصوت لا يكاد يسمع :

ـ اذهب الى الشيطان!

وكان بروخور متى صادف امرءاً يسأله :

ـ هل الوحل أسوأ هناك أم على الحالة ذاتها ؟

فكان الرد يأتي في ضحكة أو مزحة ، وحينذاك يستشعر بروخور بالسعادة اذ يكون قد تبادل كلمة أو كلمتين مع كائن حي ، فيروح سائراً بعض الوقت في صمت ، ويوقف الحصانين من حين لآخر ليمسح حبات العرق الكبيرة من جبينه الأسمر . وكان خيالة يلحقون بهما ، بين الفينة والفينة ، فيحس بروخور أن عليه أن يوقفهم لتبادل التحية والاستفهام عن المكان الذي قدموا منه والذي يتجهون اليه . وكان ينهي كلامه معهم بقوله دائماً :

ـ انكم تضيعون وقتكم بالسير الى أمام... انتم لن تقدروا على قطع المزيد من المسافة عل خيلكم . لماذا ؟ عجباً ، لأن الوحل شديد السمك هناك ، كما أخبرني بذلك أناس جاءوا من تلك الأطراف ، بحيث يبلغ بطون الخيل ولن تقدر عجلات العربات على الدوران ، أما بالنسبة للرجال القصار فلا أكثر من أنهم ينكفئون على وجوههم ويغرقون في الطريق .ان كلبة بتراء الذيل قد تكذب ، أما أنا فلا! ولماذا نحن نسير الى أمام ؟ لأننا لا نستطيع غير ذلك . انني أصطحب أسقفاً مريضاً ، ولا شك أنه والحمر لا يستطيعان العيش معاً .

فكان معظم الخيالة يطلقون السباب على بروخور متمازحين ويواصلون مسيرتهم . الا أن بعضهم كان يتوقف ويحدجه بنظرات قاسية ، ويفوه بتعليق مهين ، مثل :

ـ اذن ، فالحمقى يتراجعون من الدون كذلك ؟ هل كل مَنْ في منطقتك على شاكلتك ؟

وحدث أن استبد الحنق بأحد قوزاق الكوبان ، وكان قد انفصل من جماعته حينما أوقفه بروخور ليسمعه كلامه الفارغ ، فأوشك أن يهوي بسوطه على وجه بروخور ، بيد أن هذا قفز ، في خفة خارقة ، الى العربة الصغيرة والتقط غدّارته من تحت مرشحة الخيل وحطها على ركبتيه . فمضى القوزاقي الكوباني مبتعداً ومطلقاً سباباً مقذعاً ، بينما زعق بروخور وراءه وهو يهدر ضحكاً :

ـ ليس هذا المكان مثل تساريتسين حيث تستطيع الاختفاء ، في حقول الذرة! أيها الجلمود ، أيها الأخرق مقطوع الأكمام! يا أنت ، ارجع ، يا عصيد جريش الذرة! ارفع سروالك والا فسوف تجرجره في الوحل! في الهزيمة كالغزال ، يا قاتل الدجاج! يا فخذ أنثى اللخنزير! ليست لدي رصاصة قذرة والا لكنت سددتها نحوك! انزل سوطك ، أتسمعني ؟

كان بروخور قد غدا أشبه بالأبله من جراء الملل والخمول ، ولهذا كان يلجأ الى وسائله الخاصة لتسلية نفسه .

ظل غريغوري يعيش ، منذ اليوم الأول لمرضه ، وكأنه في حلم . وكان في بعض الأحيان يغيب عن الوعي ، ثم يصحو من جديد . وفي احدى هذه النوبات ، وحين استعاد صوابه بعد أن مضت عليه مدة طويلة وهو غائب عن الوعي ، انحنى عليه بروخور وسأله محدقاً في اشفاق في عينيه الغائمتين :

ـ ألا زلت حياً ؟

كانت الشمس تشع فوقهما . وكانت أسراب من الاوزّ قاتم الأجنحة تطلق نداءاتهاعبر زرقة السماء العميقة ، وهي تتجمع تارة وتمتد في خط مخملي السواد ، منكسر ، تارة أخرى . وكانت الأرض المستدفئة ، وقد غطاها عشب غضّ ، تبعث رائحة مسكرة . فجعل غريغوري يعب ، بأنفاسه السريعة ، هواء الربيع المنعش . وكان صوت بروخور لا يبلغ مسامعه الا خافتاً ، وبدا كل ما حوله غير حقيقي ، باهتاً الى حد لا يصدق ، ونائياً كل النأي . ومن ورائهما ، كان رمي المدافع يهدر مكتوماً من بعيد . و على

مسافة ليست بالبعيدة ، كانت عجلات عربات ذوات حواف حديدية ترسل قعقعتها في توافق ثابت ، وينبعث صهيل خيل وزنخرتها وأصوات بشرية . واستطاع أن يتشمم الرائحة القوية للخبز والتبن وعرق الخيل . كان كل شيء يلج الى وعي غريغوري وكأنه قادم من عالم آخر . واستجمع كل ارادته كي يسمع صوت بروخور . وأدرك بمجهود شاق أن مراسله كان يسأله :

ـ أترغب في شيء من اللبن ؟

ولعق غريغوري شفتيه المتقشرتين ، لا يكاد يقوى على تحريك لسانه ، واستشعر سائلاً بارداً كثيفاً ذا طعم طازج أليف يصب في حلقه . وبعد بضع رشفات صك أسنانه . فسد بروخور الدورق واحنى على غريغوري ثانية . واستطاع غريغوري أن يحزر من حركة شفتي بروخور اللتين ترك الجو عليهما آثاره ، أكثر مما سمع من كلامه ، أنه كان يسأله :

ـ ألا تعتقد أنه من واجبي أن أتركك في هذه القرية ؟ الرحلة شاقة عليك ، أليس كذلك ؟

فبدت على غريغوري نظرة معاناة وقلق . ومن جديد ، استجمع كل ارادته وقال هامساً :

ـ سر بي... الى أن أموت...

وأدرك من وجه بروخور أنه قد سمعه ، واذ اطمأن الى ذلك ، أغلق عينيه مرحباً بمقدم الغيبوبة كوسيلة للخلاص ، وغارقاً في عتمة النسيان الكثيفة ومنسحباً من عالم الصخب والهرج...

٢٨

وفي الطريق الى قرية أبنسكايا ، لم يتذكر غريغوري سوى شيء واحد : ذات ليلة حالكة السواد أيقظه لسع برد نفاذ حاد . كانت ثمة عربات تمضي جماعات في الطريق . واستطاع أن يدرك من الأصوات

والقعقعة المتواصلة المكتومة للعجلات أن قافلة العربات كانت طويلة . وكانت العربة التي تمدد فيها غريغوري في مكان ما متوسط بينها . كان الحصانان يسيران ببطء ، وبروخور يطق لسانه ويصيح من آن لآخر : ـ هيا... ديخ! ـ ويلوّح بسوطه . واستطاع غريغوري أن يسمع الصفير الخافت للسوط الجلدي ، وأحس بالحصانين يشدان على الأعنة على نحو أقوى ، مقعقعين العرائش ، فتندفع العربة بسرعة أكثر صادمة ، في بعض الأحيان ، طرف عريشها الأوسط بمؤخرة عربة برتيزكا أمامها .

وأفلح غريغوري ، بعد لأي ، في سحب أطراف فروته وانقلب على ظهره . كانت الريح تسوق عبر السماء الدكناء غمائم هائلة متدحرجة صوب الجنوب . ولم يحدث الا نادراً أن شعّت نجمة منفردة لحظة خلل فجوة صغيرة بين الغمائم ، ومثل شرارة صفراء ، ثم لا تلبث العتمة المنيعة أن تغلف السهب من جديد ، والريح لا تنفك تصفر في كآبة خلل أسلاك البرق ، ويشرع مطر خرزي خفيف يرش الأرض .

كان طابور من الخيالة يتحرك في الجانب الأيمن من الطريق . واستطاع غريغوري أن يستمع الى الوقع المألوف لجلجلة عدة القوزاق محكمة الشد ، والخبط الرتيب المكتوم لسنابك لا حصر لها على الوحل . وكانت قد مرت سريتان على الأقل ، بيد أن خبط السنابك لم ينقطع . لا بد أنها كانت كتيبة اذاً . وعلى حين غرة ، انطلق من الأمام صوت جريء لمنشد منفرد ، كما ينطلق الطير ، ليحلق فوق السهب الصامت :

أواه ، فثمة على شاطئ النهر ، أيها الأخوة ، على شاطئ كاميشنكا ،
وعلى السهب الجليل ، سهب ساراتوف اللامتناهي...

والتقطت الأغنية القوزاقية القديمة عدة مئات من الحناجر ، وتراقص فوقها جميعاً صوت جهير في غاية من القوة والرخامة . وبينما كانت الأصوات الخفيضة تتلاشى ظلّ الصوت الجهير المرنان يخفق في مكان ما في العتمة ، متعلقاً بشغاف

القلوب . بيد أن المنشد المنفرد كان قد بدأ المقطع الثاني :

هناك ، هناك ، عاش القوزاق وقضوا حياتهم شعباً حراً ،
كل قوزاق «الدون» ، وقوزاق «الغريبن» ، وقوزاق «البيك»...

وفي داخل غريغوري ، بدا وكأن شيئاً انقطع . وارتجَ جسده في نوبة فجائية من الدموع ، وغصّ بلعومه بالألم . ولبث ينتظر شروع المنشد المنفرد بالغناء من جديد في لهفة وشوق ، وهو يخنق دموعه . وحينما صدح المنشد ثانية جعل غريغوري يهمس معه ، بلا صوت ، كلمات الأغنية التي حفظها منذ طفولته :

وكان أتمانهم يرماك بن تيموفي ،
في حين كان قائدهم استاشكا بن لافرنتي...

وفي اللحظة التي انطلق فيها المنشد المنفرد بالكلمات الأولى للأغنية ، توقف القوزاق المرتحلون عن الكلام ولم يعد السائقون يستحثون خيلهم ، وأمسى قطار آلاف العربات يتحرك في صمت عميق مرهف . ولم يكن في المستطاع سماع شيء سوى قعقعة العجلات وخبط السنابك وهي تعجن الطين ، فيما كان المنشد المنفرد يصدح بالكلمات الأولى لكل مقطع مشدداً باعتناء على مخارج المقاطع الصوتية . لقد عادت تلك الأغنية القديمة التي عركت الدهور لتحيا من جديد وتبسط هيمنتها على السهب الجليل . وبكلمات بسيطة ساذجة ، مضت تحكي قصة أسلاف القوزاق الأحرار الذين أنزلوا ذات يوم ضربة قاصمة على ظهر القوات القيصرية ، والذين ركبوا الدون والفولغا في مراكبهم القرصانية الصغيرة يسلبون سفن القيصر و«يعصرون» التجار والنبلاء والحكام ، أولئك القوزاق الذين جعلوا سيبيريا القصية تركع على ركبتيها أمامهم . والآن ، تنطلق الأغنية الجبارة ليستمع اليها خلل الصمت الكئيب أسلاف أولئك القوزاق الأحرار وهم يتراجعون

مكللين بالعار بعد أن اندحروا في حرب غير مشرّفة خاضوها ضد شعب روسيا .

مرت الكتيبة وسبق المنشدون العربات وتقدموا اللاجنين بمسافات كبيرة . غير أن العربات لبثت ، بعد ذلك بوقت طويل ، تمضي في صمت مسحور دون أن تندّ عن راكبيها كلمة أو صيحة على الخيل التعبى . بيد أن الأغنية ظلت تطوف خلل العتمة وتتسع انتشاراً ، مثل الدون في فيضانه :

... كانت ثمة فكرة في أذهانهم .
سيمضي الصيف ، ودفء الصيف ،
وسيأتي الشتاء ، أيها الأخوة ، ببرد الشتاء .
كيف سنقضي الشتاء ، أيها الأخوة ، وأين ؟
أن نمضي الى «أليك» مسيرة طويلة مديدة .
واذا حمنا على شطآن «الفولغا» سيحسبنا الجميع من اللصوص .
واذا يممنا صوب مدينة «قازان» وجدنا القيصر أمامنا ،
القيصر الرهيب ، ايفان فاسيلييفتش...

والآن ، لم يعد في المستطاع سماع صوت المنشدين ، أما صوت المنشد المنفرد فكان لا يزال يدوي عالياً فمنخفضاً ، ثم عالياً من جديد . ولبث الجميع يرهفون السمع اليه في صمت كنيب متوتر شامل .

وتذكر غريغوري كذلك ، وكأنه في حلم ، عودته الى الوعي داخل غرفة دافئة : استشعر بكل أطرافه ، ومن غير أن يفتح عينيه ، الطراوة اللطيفة لمفارش السرير النظيفة . كما استثارت أنفه رائحة الأدوية الحادة . فخيل اليه ، في البدء ، أنه كان راقداً في مستشفى ، لكن تناهى الى سمعه من الغرفة الثانية انفجار ضحك رجال وجلجلة أطباق وجلبة مخمورين . وقال صوت منخفض النغم ، مألوف :

ـ هذا ، وأنت رجل ذكي! كان عليك أن تعثر على موقع كتيبتنا أولاً ،

وآنذاك سيكون في مقدورنا مد يد المساعدة . حسن ، اشرب! لماذا تثرثر بحق الشيطان ؟

فرد بروخور ، بصوت مخمور ومشوب بالدموع :

ـ بالله عليكم ، كيف كان لي أن أعرف ؟ أتحسب أنني وجدت تمريضه أمراً هيناً ؟ أطعمته رشفة رشفة ، وكان علي أن أمضغ الطعام له ، وكأنه طفل صغير ، وسقيته اللبن ، أي نعم ، وبحق المسيح الحي! مضغت الخبز ودسسته في حلقه ، أي والله! فتحت أسنانه برأس سيفي . وحدث مرة أنني بدأت أصب اللبن في بلعومه فاختنق وكاد يموت... حسبك أن تتصور ذلك...

ـ هل أعطيته حماماً أمس ؟

ـ أعطيته حماماً ومشطت شعره بالمجز ، وأنفقت كل ما لديّ على اللبن... لست نادماً ، فأنا لا أهتم بذلك البتة . ولكن أن أمضغ الطعام له وأطعمه باليد! أتحسب أن ذلك يسير ؟ لا تقل نعم ، والا سأضربك ، رغم رتبتك!

ثم جاءوا الى غرفة غريغوري : بروخور وخارلامبي يرماكوف وبيوتر بوكاتييريوف ـ وقد دفع طاقيته المصنوعة من فرو الكاراكول الرمادي الى مؤخرة رأسه وغدا وجهه أحمر كالبنجر ـ وكذلك بلاتون ريابتشيكوف وقوزاقيان غريبان آخران .

فندّت عن يرماكوف صرخة مخبولة وهو يتقدم صوب غريغوري بخطى مترنحة :

ـ لقد استيقظ!

وزعق بلاتون ريابتشيكوف كبير الجرم وهو يهز بيده قنينة ويبكي :

ـ غريشا! يا ولدي العجوز العزيز! أتذكر أيامنا الممتعة على نهر « تشير » ؟ وكيف حاربنا! أين ذهب مجدنا ؟ ماذا يفعل الجنرالات بنا وماذا فعلوا بجيشنا ؟ لعنة الله عليهم! أنت حي من جديد ، ها ؟ هاك ، اشرب ، ستشعر بالتحسن حالاً . انه شراب خاص!

وتمتم يرماكوف ، وعيناه السوداوان الزيتيتان تتلامعان فرحاً :

ـ اذن ، فقد عثرنا عليك أخيراً!

وقذف بنفسه على سرير غريغوري حتى هدل من تحته .

فتساءل غريغوري بصوت واهن ، رافعاً عينيه لينظر الى وجوه القوزاق الأليفة :

ـ أين نحن ؟

ـ لقد استولينا على يكاترينودار الآن! ولسوف نتراجع أبعد عما قريب! اشرب ، يا غريغوري بانتلاييفتش ، يا رفيقنا القديم! انهض ، بالله عليك! أنا لا أتحمل رؤيتك راقداً هنا!

وانكفأ ريابتشيكوف على قدمي غريغوري . بيد أن بوغاتيريوف الذي كان يبتسم في هدوء وبدا أنه أكثر صحواً من الآخرين أمسك به من نطاقه ورفعه بيسر وحطه على الأرض في اعتناء .

فهتف يرماكوف فزعاً :

ـ خذ القنينة منه ، والا فستنسكب .

وأضاف قائلاً وهو يستدير ناحية غريغوري وعلى شفتيه ابتسامة واسعة مخمورة :

ـ آتعلم لماذا نشرب ؟ كنا نشعر بظمأ في حلوقنا ثم تسنى لنا أن نضرب ضربة ممتازة على حساب أحدهم! نهبنا مخزناً للنبيذ كي لا يقع في أيدي الحمر . وأي شراب عثرنا عليه! لن تصدق! أطلقنا الرصاص من بندقية على صهريج وثقبناه ، فانبثق الشراب منه كما ينبثق الماء من الحنفية . ثقبنا الصهريج بالرصاص ، فوقف كل رجل منا أمام ثقب واضعاً قبعات وسطولاً وقوارير تحته ، في حين تلقفه آخرون براحات آيديهم مباشرة وجعلوا يشربون منه رأساً . وكنا قد طعنّا المتطوعين اللذين كانا في حراسة المخزن ،اتخذنا طريقنا نحو الشراب ، وحينذاك بدأت الحفلة! رأيت قوزاقيا يتسلق إلى أعلى الصهريج ، وأراد أن يغرف الشراب خلال الفتحة العليا بسطل خيل ، لكنه سقط

في الصهريج وغرق . كانت الأرض كونكريتية ، وانهمر الشراب عليها حتى بلغ ركبنا علواً ، وجعل القوزاق يخوضون فيه ، وينحنون ليشربوا ، كما تشرب الخيل من ساقية ، من تحت آقدامهم تماماً . وكانوا يتساقطون حيث هم... كان المنظر فظيعاً ، لكنك كنت تضحك بلا ارادتك! سيموت أكثر من واحد من كثرة الشرب . ولقد قمنا ، نحن ، بمأثرة هناك أيضاً . لم نكن في حاجة الى الكثير : دحرجنا الى الخارج برميلاً يحتوي على خمس سطلات من الشراب على الأقل ، وهذا يكفينا . اشرب حتى تمتلئ ، يا روحي! الدون الهادئ في طريقه الى الهلاك . أوشك بلاتون على الغرق . هوت عليه ضربات الآخرين فسقط على الأرض وصاروا يدوسون عليه . بلع ملء فمه مرتين وكان على وشك أن يعطس عطسته بشق النفس ، أن أجره خارجاً .

وكانوا جميعاً ، يفوحون برائحة الشراب والبصل والتبغ . وغمر غريغوري شعور خفيف بالغثيان والدوار . وابتسم ابتسامة واهنة مرهقة ، ثم أغمض عينيه .

لبث أسبوعاً في يكاترينودار راقداً في دار تعود الى طبيب من معارف بوغاتيريوف ، متعافياً ببطء من مرضه . ثم «بدأ وضعه ينصلح ، كما قال بروخور» ، وفي قرية أبينسكايا استطاع أن يمتطي حصاناً لأول مرة منذ بدء التراجع .

* * *

كان الناس يجلون عن نوفوروسيسك . كانت البواخر تنقل الاغنياء وعوائل الجنرالات وملاك الأراضي والسياسيين المتنفذين الى تركيا . وكانت عمليات تحميلها تجري ليلاً ونهاراً في جميع الأرصفة . وكان «الكاديت» يعملون في التحميل على شكل فرق ، فيملأون عنابر السفن بالمعدات الحربية وصناديق وحقائب الأغنياء من بين اللاجئين .

كانت قوات «جيش المتطوعين» قد سبقت قوزاق الدون والكوبان في

الطريق ، فكانوا أول من بلغ نوفوروسيسك . فتزاحموا على سفن النقل ، واتخذ ضباط أركان جيش المتطوعين ، في حركة تنمّ عن مهارة وحسن تدبير ، أماكنهم على ظهر البارجة الحربية البريطانية «أمبراطور الهند» التي كانت قد رست في الخليج . وكان القتال محتدماً بالقرب من تونلنايا ، واستمرت القوات العسكرية تتدفق ، ونشأ على الأرصفة زحام من الناس يعز على الوصف . وعلى المنحدرات الكلسية للتلال المحيطة بنوفوروسيسك كانت خيل سائبة تجوب في قطعان بالآلاف . وفي الشوارع المحيطة بالميناء ارتفعت أكوام مما خلّفه المتراجعون من سروج ومعدات قوزاقية ومخزونات عسكرية . وسرت ، كالبرق ، شائعة في البلدة تفيد بأنه لن يسمح بالصعود الى ظهر السفن الا لوحدات جيش المتطوعين في حين سيتعين على قوزاق الدون والكوبان مواصلة السير الى جورجيا .

في صباح الخامس والعشرين من آذار عام ١٩٢٠ ، ذهب غريغوري وبلاتون ريابتشكوف الى الرصيف لاستطلاع ما إذا كانت قوات فيلق الدون الثاني ستحمل . وكانت شائعة قد انتشرت في المساء السابق في أوساط القوزاق تقول ان الجنرال دنيكين قد أصدر أمراً يقضي بنقل جميع قوزاق الدون الذين كانوا قد احتفظوا بعدتهم الى شبه جزيرة القرم .

كان الرصيف كتلة صلدة من الكالميكيين القادمين من اقليم «سالسك» . كانوا قد ساقوا قطعان خيلهم وجمالهم من «مانيتش» و «سال» وجاءوا بأكواخهم الخشبية حتى بلغوا البحر .

شق غريغوري وريابتشيكوف طريقهما خلل الحشد ، وقد زكمت مناخيرهما عفونة سمن الغنم ، ميممين صوب معبر سفينة نقل كبيرة راسية ازاء الرصيف . وكان يقوم على حراسة المعابر حرس معزز من الضباط من فرقة ماركوف . وكان مدفعيون من قوزاق الدون متجمهرين على مقربة من المعبر في انتظار الصعود الى ظهر السفينة . وكانت المدافع المغطاة بمشمعات خاكية متناثرة على موخرة السفينة .

شق غريغوري طريقه بمرفقه خلل الحشد ، وتوجه بالسؤال الى عريف بادى الوسامة أسود الشاربين :

ـ أية بطارية هذه ، أيها الصديق ؟

فألقى العريف نظرة على غريغوري من طرف عينه ، وأجاب على مضض :

ـ السادسة والثلاثون .

ـ تحت أمرة كارغين ؟

ـ نعم .

ـ من المسؤول عن الصعود الى ظهر السفينة ؟

ـ هو ذاك ، الى جانب السياج . برتبة عقيد .

فسحب ريابتشيكوف غريغوري من كمّه وقال محنقاً :

ـ دعنا نمضي من هنا ، وليذهبوا الى الشيطان! أتظن أن في مقدورك أن تفهم شيئاً من هذه الزمرة ؟ كانوا بحاجة الينا حينما كنا نحارب ، أما الآن فهم لايجدون فينا أي نفع... فابتسم العريف وغمز بعينه ناحية المدفعيين الذين اصطفوا في انتظام :

ـ أنتم محظوظون ، يا أصحابي! انهم يرفضون حتى الضباط .

وفي هذه الأثناء قدم العقيد المسؤول عن عملية الصعود الى ظهر السفينة ، نازلا المعبر في خطوات خفيفة ، وكان يسرع وراءه موظف أصلع الرأس ، وسترته الفرو الواسعة غير مزررة .

وضغط الرجل طاقيته المصنوعة من فرو الفقمة على صدره متوسلا ونطق بشيء . كان ثمة تعبير عن التضرع مرتسم على وجهه العرق وعينيه قصيرتي البصر جعل العقيد يشيح بوجهه عنه ويصرخ :

ـ لقد سبق أن أخبرتك مرة . لا تزعجني والا أصدرت أمراً بانزالك الى اليابسة . أنت مجنون! أين ، بحق الشيطان ، نضع أغراضك ؟ هل أنت أعمى ؟ ألا تستطيع أن ترى ما يجري ؟ أوه ، ابتعد! اذهب ، بحق الله ، وارفع

شكوى الى الجنرال دنيكين اذا شئت . قلت لا أستطيع... وأنا لا أستطيع! ألا تفهم اللغة الروسية ؟

واستدار العقيد ليخلّص نفسه من الموظف اللجوج ، فحاول أن يجتاز غريغوري . غير أن غريغوري اعترض طريقه وسأله منفعلاً ، وهو يضع يده على رفرف قبعته :

ـ هل يستطيع الضباط أن يعتمدوا على أمل الاقلاع ؟

ـ ليس على ظهر هذه السفينة . فليس فيها متسع للمزيد .

ـ فعلى ظهر أية سفينة ، اذن ؟

ـ ستعرف ذلك عند نقطة الاجلاء .

ـ كنا هناك ، ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً .

ـ حسن ، وأنا لا أعرف شيئاً أيضاً . دعني أمرّ .

ـ لكنك تصعّد البطارية السادسة والثلاثين ، فلم لا يكون هناك متسع لنا ؟

ـ قلت لك ، دعني أمرّ . لست مكتب استعلامات . وحاول العقيد أن ينحّي غريغوري جانباً بحركة رقيقة ، بيد أن غريغوري كان قد زرع قدميه على الأرض في ثبات .

واضطرمت في عينيه شرارات زرق ، ثم خبت من جديد :

ـ اذن ، فلستم بحاجة الينا الآن ؟ لكنكم كنتم بحاجة الينا في الماضي ، أليس كذلك ؟ ارفع يدك عني ، فلن تستطيع زحزحتي!

فحدّق العقيد في عيني غريغوري ، ثم أجال بصره فيما حوله . كان رجال فرقة ماركوف الواقفون عند المعبر ، وبنادقهم عبر صدورهم ، لا يكادون يستطيعون ايقاف حشد الناس المانج ، فمرر العقيد عينيه على غريغوري وتساءل في لهجة متعبة :

ـ من أي كتيبة أنت ؟

ـ من كتيبة الدون التاسعة عشرة . والآخرون من كتائب مختلفة .

ـ كم عددهم ؟

ـ عشرة .

ـ لا أستطيع . ليس هناك متسع .

ورأى ريابتشيكوف منخري غريغوري يرتعشان فيما قال في صوت منخفض :

ـ أية لعبة هذه التي تلعبها ، أيها الكلب الهجين ؟ ياقملة المؤخرة! دعنا نصعد في الحال ، والا...

فحدّث ريابتشيكوف نفسه في رضى وانفعال :

ـ لسوف يشطره غريشا بسيفه حالاً!

غير أنه حينما رأى رجلين من فرقة ماركوف يشقان طريقهما خلل الحشد بعقبي بندقيتيهما لانقاذ العقيد ، مسّ كم غريغوري وقال :

ـ لا تشتبك معه يا غريغوري . هيا...

فقال العقيد ، متبيض الوجه :

ـ أنت أحمق! ولسوف تحاسب على سلوكك!

ثم التفت صوب رجلي ماركوف وأشار ناحية غريغوري قائلاً :

ـ أيها السيدان! هدّئا هذا المصروع! يجب اقرار النظام هنا . لديّ عمل مستعجل مع القيادة ، وها أنا أقف أستمع الى شتى أصناف المزح...

وانسلت من جانب غريغوري مسرعاً .

وتقدّم من غريغوري أحد رجلي ماركوف ، وكان طويلاً ذا شاربين مشذّبين يحمل شارات كتف ملازم على قمصلته الزرقاء الغامقة ، وقال في لهجة آمرة :

ـ ماذا تريد ؟ لماذا تخرق النظام ؟

ـ أريد مكاناً على ظهر السفينة... هذا ما أريد .

ـ أين كتيبتك ؟

ـ لا أدري .

ـ أرني أوراقك .

فقال الرجل الثاني ، وكان فتى منتفخ الوجه يعلّق على أنفه عوينات ، في صوت خفيف مهزوز :

ـ من الأفضل أن نقتاده الى غرفة الحرس . لماذا تضيع وقتك يا فايسوتسكي ؟

قرأ الملازم أوراق غريغوري بامعان ، ثم أعادها اليه :

ـ عليك آن تجد كتيبتك . وأنصحك بالخروج من هنا وعدم التدخل في شؤون الصعود الى ظهر السفينة . ولدينا أمر باعتقال كل من يخرق النظام أو يتدخل في شؤون التحميل ، بصرف النظر عن الرتبة التي يحملها .

وزم الملازم شفتيه ، وحدج ريابتشيكوف بنظرة من طرف عينه ، ثم مال على أذن غريغوري وهمس :

ـ أنصحك بمفاتحة آمر البطارية السادسة والثلاثين . قف في صفوفهم وسوف تفلح في الصعود الى ظهر السفينة .

فقال ريابتشيكوف ، الذي كان قد التقط همسة الملازم ، في صوت مبتهج :

ـ اذهب أنت الى جماعة كارغين ، وسأهرع أنا في طلب الفتية . ماذا تريدني أن أجلب بالاضافة الى حقيبة اللوازم ؟

قال غريغوري في غير حماس :

ـ سنذهب معاً .

وفي طريقهما صادفا أحد معارفهما من قوزاق قرية سميونوفسكي . كان يقود عربة كبيرة محملة بالخبز ، وقد غطى الخبز بقماش مشمع ، متجها بها ناحية الرصيف . فنادى عليه ريابتشيكوف :

ـ مرحبا ، يافيوذور . أين ذاهب ؟

ـ ها ، بلاتون ، وغريغوري بانتلانيفتش! تحيات! انني أنقل مؤونة كتيبتي من الخبز للطريق . لقد صادفنا متاعب شاقة في خبزه ، ومع ذلك فلولاه ما كان لدينا غير العصيد نأكله طوال الرحلة .

فاقترب غريغوري من العربة وسأله :

ـ هل أرغفة خبزك كلها موزونة ، أم أنها معدودة ؟

ـ وأي شيطان عدها ؟ ماذا ، أترغب في شئ من الخبز ؟

ـ نعم .

ـ خذ بعضاً منه اذن .

ـ كم استطيع أن آخذ ؟

ـ بقدر ما تستطيع ان تحمل . لدينا الكثير .

وشرع غريغوري يلتقط الرغيف تلو الرغيف ، وريابتشيكوف يحدق فيه مذهولا ، وحينما لم يعد في استطاعته كبح جماح فضوله سأله بقوله :

ـ لماذا تأخذ كل هذه الكمية ، بحق الشيطان ؟

فرد غريغوري باقتضاب :

ـ أحتاج اليها .

ثم طلب من السائق زكيبتين ، ووضع الخبز فيهما ، وشكر له لطفه وودعه ، وأمر ريابتشيكوف قائلاً :

ـ احمل احداها ، فسنأخذهما معنا .

فتساءل ريابتشيكوف متمازحا فيما حط الزكيبة على كتفه :

ـ هل نويت قضاء فصل الشتاء هنا ؟

ـ ليس الخبز لي .

ـ لمن ، اذن ؟

ـ لحصاني .

فأنزل ريابتشيكوف الزكيبة الى الأرض ، في حركة سريعة ، وتساءل مذهولاً :

ـ أتراك تمزح ؟

ـ كلا ، بل أعني ما قلت .

ـ اذاً فأنت... قل لي ما الذي عزمت عليه ، يا بانتلاييفتش ؟ هل تنوي البقاء هنا ؟ أهذه هي فكرتك ؟

ـ أصبت . هيا ، احمل الزكيبة ولنمض . يجب اطعام حصاني . فقد مضغ معلفه حتى أحاله مزقا . يظل الحصان ذا نفع رغم كل شئ ، فليس بمستطاع المرء أن يشترك في الحرب على قدميه .

ولبث ريابتشيكوف طيلة الطريق لا ينبس بشيء ، ولم يزد على الحمحمة ونقل الزكيبة من كتف الى كتف . وفيما كانا يقتربان من البوابة ، سأل غريغوري :

ـ هل ستخبر الأولاد ؟

ثم ، ومن غير أن ينتظر جواب غريغوري ، قال في لهجة مفجوعة :

ـ انتويت فكرة رائعة! ولكن ماذا عنا نحن ؟

فرد غريغوري بلامبالاة مفتعلة :

ـ الأمر رهن مشيئتكم . ماداموا لن يأخذونا على سفنهم ، ماداموا عاجزين عن ايجاد مكان لنا... حسن ، فلا عليهم! ما حاجتنا بهم ، بحق الشيطان ؟ أنتعلق بأذيالهم ؟ سنبقى . سنجرب حظنا . هيا امض . لماذا تلتصق بالبوابة ولا تتحرك ؟

ـ الطريقة التي تتكلم بها تثير الغثيان في نفس أي امرئ! حسن هذا شيء لطيف . لقد لطمت أذني لطمة ابن حلال ، يا غريشا! طرحتني أرضاً بريشة! هذا وأنا الذي كنت أسائل نفسي :

ـ لماذا طلبت ، بحق الشيطان ، كل هذا الخبز ؟ والآن ، سيكتشف الاصحاب ذلك ويثورون

فتساءل غريغوري :

ـ حسن ، وماذا عنك ؟ ألن تبقى ؟

فهتف ريابتشيكوف مذهولاً :

ـ ماذا ؟!

ـ فكر في الموضوع!

ـ ليس هناك ما أفكر فيه . سأرحل طالما لاتزال الفرصة في يدي . سأربط نفسي بأذيال بطارية كارغين وأجلو معهم .

ـ ستندم على ذلك!

ـ أتظن ذلك حقاً ؟ أنا أعتز برأسي أكثر من ذلك ، أيها الأخ! ليست بي رغبة في أن يجرب الحمر سيوفهم عليه .

ـ عليك أن تعيد النظر في الأمر ، يا بلاتون ، فالوضع الراهن...

ـ أنا أعرفه . وأنا راحل في الحال .

فقال غريغوري مغتاظاً :

ـ حسن ، افعل ما يحلو لك . لن أحاول مناقشتك...

وتقدم غريغوري ليرتقي الدرجات الحجرية المؤدية الى السقيفة .

لم يكن يرماكوف وبروخور وبوغاتيريوف في الدار . وأخبرتهما ربة البيت ، وكانت سيدة حدباء متقدمة في السن ، أن القوزاق قالوا عند خروجهم بأنهم سيعودون عما قريب . فتناول غريغوري رغيفا من الخبز وقطعه قطعا كبيرة ثم مضى الى الخيل في الاسطبل وقسّم الخبز الى قسمين أعطى نصفه الى حصانه والنصف الآخر الى حصان بروخور . وكان قد رفع لتوه السطل ليجلب شيئا من الماء حينما ظهر ريابتشيكوف عند باب الاسطبل . وكان بلاتون يحمل باعتناء في طيات معطفه الثقيل قطعاً كبيرة من الخبز . وحين بلغت حصانه رائحة سيده أطلق زنخرة قصيرة . فمرّ ريابتشيكوف صامتاً بغريغوري المبتسم . وقال دون أن ينظر الى أعلى ، وهو يقذف بقطع الخبز في المعلف :

ـ لا تبتسم هكذا! فازاء تطور الأمور ، يجدر بي أن أطعم حصاني أيضاً . اتحسب أنني سأكون سعيداً لو رحلت ؟ كان علي أن أحمل نفسي من ياقتي وأهرع بها نحو تلك السفينة الملعونة! ما كان بمستطاعي أن أذهب الى هنالك بغير هذه الطريقة . هو الخوف الحي الذي يستحثني على المضي... انني أحمل رأسا واحدا على كتفي ، أليس الأمر كذلك ؟ عسى الله أن يقيه شر البتر فلن ينمو لي رأس ثان قبل حلول عيد القديس ميخائيل!

لم يعد بروخور والآخرون الاعند المغرب . وكان يرماكوف يحمل قنينة

كبيرة من الكحول ، بينما كان لدى بروخور كيس مليء بقوارير مختومة فيها سائل أصفر ثخين .

وقال يرماكوف متفاخراً وهو يشير الى القنينة :

ومضى يشرح الأمر بقوله :

ـ لقد أنجزنا العمل ، وهذه تكفينا لليلة كلها!

ـ صادفنا طبيب عسكري سألنا أن نساعده في نقل بضائع طبية من مستودع الى رصيف الميناء . وكان المفرغون قد رفضوا العمل ولم يكن ثمة سوى بضعة أفراد من التلاميذ الحربيين يجرجرون الأشياء من المستودعات ، ولهذا انضممنا اليهم . وقد كافأنا الطبيب لقاء مساعدتنا اياه بالشراب ، وخطف بروخور هذه القوارير علاوة على ذلك! فليصعقني الله ان كنت كاذباً!

فتساءل ريابتشيكوف متلهفاً :

ـ ولكن ، ماذا في داخلها ؟

فأجاب بروخور :

ـ هذا احسن من الكحول ، أيها الأخ!

وخض القوارير ورفعها الى الضوء فبدا سائل ثخين يبقبق داخل الزجاج الأسود ، وأنهى كلامه في نغمة راضية :

ـ هذا نبيذ أجنبي نادر الوجود ، أي نعم! وهم لا يصفونه الا للمرضى... هذا ما أخبرني به واحد من أبناء الزنى ، التلاميذ الحربيين أولئك ، ممن يعرفون اللغة الانكليزية . سنصعد الى ظهر السفينة ، ونشرب لنفرج عن همومنا ، ونغني «يا وطني العزيز الحبيب» ، ،نظل نشرب طوال الرحلة الى القرم . وسنلقي القوارير في البحر .

فقال ريابتشيكوف بلهجة هازئة :

ـ هيا أسرع واصعد الى ظهر السفينة ، فانهم ينتظرونك ولا يستطيعون الاقلاع بدونك . انهم يقولون : أين بروخور زيكوف ، بطل الأبطال ؟ نحن لا نستطيع الاقلاع بدونه!

وأضاف وهو يشير الى غريغوري باصبع اصفرّ لونه من أثر الدخان :
ـ غير فكره في موضوع الرحيل . وكذلك أنا .
فحمحم بروخور ، وكاد أن يسقط قارورة من يده لفرط استغرابه :
ـ لا!
وتساءل يرماكوف مقطب الجبين ومسمراً نظره على غريغوري :
ـ مامعنى هذاكله ؟ ما الذي في ذهنك الآن ؟
ـ قررنا عدم الرحيل .
ـ لماذا ؟
ـ ليس ثمة مكان لناعلى ظهر السفينة .
فقال بوغاتيريوف عن ثقة :
ـ اذا لم يكن ثمة مكان لنا اليوم ، فسيكون غدا .
ـ هل ذهبت الى الرصيف ؟
ـ نعم ، ثم ماذا ؟
ـ أرأيت مايجري هناك ؟
ـ نعم رأيت .
ـ «نعم! نعم!» مادمت قد رأيت ، فأي تفسير تريد ؟ لن يأخذوا سواي وريابتشيكوف ، ثم أخبرني متطوع أن علينا أن ننضم الى بطارية كارغين ، والا فلن يكون رحيلنا ممكناً .
وسأل بوغاتيريوف بسرعة :
ـ هل صعدت الى ظهر السفينة... أعني ، البطارية ؟
واذ علم أن رجال البطارية كانوا مصطفين في انتظار الصعود ، تهيأ في الحال للمضي ، فحزم ملابسه السفلى وسرواله الفضفاض الاحتياطي وقمصلته في خرجه ، وأضاف الى ذلك بعضاً من الخبز وودع الجميع :
فتوجه يرماكوف اليه بالنصيحة قائلاً :
ـ ابق معنا ، يا بيوتر! لا تسهم في تشتيت شملنا .

وبدون أن يجيب ، مد بوغاتيريوف يده العرقة ، وانحنى ثانية عند الباب ، وقال :

ـ حافظوا على أنفسكم! اذا شاء الله ، فسنلتقي ثانية . ثم هرع الى الخارج .

بعد ذهابه ، خيم على الغرفة صمت ثقيل . ثم مضى يرماكوف الى المطبخ ليرى ربة الدار ، وعاد حاملاً أربعة أقداح ، فملأها بالكحول ووضع على المائدة ابريق شاي نحاسياً كبيراً مليئاً بالماء البارد ، وقطع شيئاً من شحم الخنزير ، وجلس الى المائدة ـ وهو لا يزال صامتاً ـ ووضع مرفقيه عليها ، ولبث يحدق باكتئاب في قدميه بضع دقائق ، ثم شرب شيئاً من الماء من فمّ الابريق مباشرة ، وتساءل في صوت أجش :

ـ لماذا يفوح الماء دائماً برائحة البارافين في الكوبان ؟

فلم يجبه أحد . ومسح ريابتشيكوف نصل سيفه المعتم بخرقة نظيفة ، ونبش غريغوري في حقيبته ، وحدّق بروخور ساهما خلل النافذة في منحدرات التلال الجرد وقد تناثرت عليها قطعان الخيل .

ـ اجلسوا الى المائدة ولنشرب .

ومن غير أن ينتظر الآخرين ، قذف يرماكوف بنصف قدح من الشراب في بلعومه وشرب جرعة من الماء . وتساءل ، وهو يلوك قطعة من شحم الخنزير وينظر الى غريغوري بعينين أكثر مرحاً :

ـ لا أظن الرفاق الحمر سيفرموننا ؟

فأجاب غريغوري :

ـ لن يقتلونا جميعاً . فسيبقى هنا الوف من الناس .

فقال يرماكوف ضاحكاً :

ـ لست قلقاً على مجموعتنا! انما كنت أفكر بجلدي أنا .

وبعد أن قطعوا شوطاً بعيداً في الشرب ، اتخذ الحديث منعطفاً أكثر مرحاً . على أنه لم يمض وقت طويل حتى عاد بوغاتيريوف ، على غير توقع ،

عابساً ، قاتم السحنة وقد ازرقّ وجهه من البرد ، فقذف عند الباب ببالة كاملة من المعاطف الانكليزية جديدة المظهر وشرع يخلع سترته في صمت .

فقال بروخور بلهجة ساخرة وهو ينحني لبوغاتيريوف :

ـ مرحباً بعودتك!

فأصلاه بوغاتيريوف بنظرة وقال متنهداً :

ـ لو جاءني كل رجال دنيكين وأولاد الزنى الآخرين راكعين على ركبهم لما رضيت بالذهاب معهم! لقد وقفت في الطابور ، وتجمد بدني ، بلا ثمرة . فقد توقفوا أمامي تماماً ، كان أمامي رجلان ، فأخذوا واحداً منهما فقط . وتركوا نصف البطارية على اليابسة . ماذا تسمي هذه الحالة ؟

فانفجر يرماكوف مقهقهاً وقال :

ـ هكذا يعاملون من هم على شاكلتنا!

وصبّ قدحاً مليناً لبوغاتيريوف ، والشراب يطش من القنينة التي في يده :

ـ هاك ، اشرب نخب فجيعتك! أم تراك تريد أن تنتظر حتى يأتوا في طلبك ؟ أنظر من النافذة! أليس هذا هو الجنرال فرانجل قادماً في طلبك ، ها ؟

وبدون أن يجيب ، أخذ بوغاتيريوف جرعة من الشراب . لم يكن مزاجه مستعداً لتقبل المزاح . غير أن يرماكوف وريابتشيكوف ، وقد ثملا بعض الشيء ، جعلا يسقيان العجوز الأرمنية حتى لم يعد في طاقتها احتمال المزيد ، فشرعا يتحدثان عن الخروج للبحث عن عازف أكورديون في مكان ما أو في غيره . فنصحهما بوغاتيريوف بقوله :

ـ بدلاً من ذلك اذهبا الى المحطة . فهناك ينهبون عربات القطار وفي جميعها بزات عسكرية .

ـ ما حاجتنا ، بحق ابليس ، لبزاتك العسكرية ؟ ستفي بحاجتنا المعاطف التي جلبتها معك . انهم ، على أية حال ، سيجردوننا من كل ما هو زائد . بيوتر ، أيهاالكلب السلوقي ، لقد قررنا أن ننتقل الى جانب الحمر ، فاهم ؟

أنحن قوزاق أم ماذا! اذا سمح لنا بالحياة فاننا سنذهب الى جانبهم ونحارب في صفوفهم . نحن قوزاق الدون! قوزاق ذوو أنقى دم ، دون أي خليط! القتال مهنتنا! أتعرف كيف ألعب بسيفي ؟ كما لو كنت أقطع جذع كرنبة! قف على قدميك وسأجرب يدي عليك! ماذا ، هل غلبك الضعف ؟ نحن لا يعنينا من نضرب بسيفنا ، ما دام هناك من نضربه . هذا صحيح ، أليس كذلك يا ميليخوف ؟

فأجابه غريغوري متعباً :

ـ دعك!

وحاول يرماكوف ، وقد احولت عيناه المحمرتان ، أن يبلغ سيفه الموضوع على صندوق ، غير أن بوغاتيريوف نحّاه جانباً برفق وبشاشة ، ورجاه بقوله :

ـ لا تثر كثيراً ، يا أنيكا المحارب ، والا فسأخمد أنفاسك في الحال . كفاك شراباً! تذكر أنك ضابط!

ـ سأستقيل من منصبي ، وأتخلى كذلك عن شارات كتفي! انني أحتاج الى منصبي في الوقت الحاضر بقدر ما يحتاج خنزير الى رسن . لا تذكرني به! أتريدني أن أقطع شارات كتفك لك ؟ يا بيوتر ، يا دمعة أحزاني ، مهلاً لحظة ، فلسوف أخلصك منها في لمح البصر .

فتضاحك بوغاتيريوف قائلاً ، وهو يبتعد عن صديقه الجامح :

ـ لم يحن الوقت لهذا بعد . لا زال أمامنا متسع من الوقت له .

لبثوا يشربون حتى الفجر . وخلال الأمسية جاء قوزاق آخرون ، يحمل أحدهم آلة أكورديون . فرقص يرماكوف رقصة القوزاق حتى هوى على الأرض . فسحبوه جانباً ، وأغفى في الحال على الأرض العارية وقد انفرجت ساقاه وارتمى رأسه الى الوراء على نحو منكسر . واستمرت الحفلة الخالية من البهجة حتى الصباح . وقال ، خلالها ، أحد الغرباء ، وهو ينشج نشيجاً ثملاً ، وكان قوزاقيا متقدماً في السن :

ـ أنا من منطقة كومتشاتسكايا . كانت لدينا ثيران ضخمة حتى لا

تستطيع الوصول الى قرونها . وكانت خيلي مثل الأسود . والآن ، ما الذي تبقى لدينا في الحقل ؟ لا شئ سوى كلبة جرباء واحدة . وستموت عما قريب ، فليس لديها ما تطعم به .

ثم طلب قوزاقي من الكوبان ، يرتدي سترة شركسية خلقة ، من عازف الاكورديون أن يعزف رقصة من رقصات نورسكايا ، وحينما انبعث اللحن نثر ذراعيه على نحو تصويري بديع وانطلق يرقص داخل الغرفة في خفة مذهلة جعلت غريغوري يتخيل أن نعلي جزمته لم يكونا يلمسان الأرض الوسخة المخدشة مطلقاً .

وعند منتصف الليل جاء أحد القوزاق من مكان ما بجرتين طويلتين من الفخار ذواتي عنقين دقيقين . وكانت ثمة علامات ملصوقة على جانبيهما ، وقد تهرأت وحال لونها ، وكانت سدادتاهما مختومتين ، وتدلت منهما أختام رصاصية كبيرة من شمع الختم الأحمر بلون الكرز . فأمسك بروخور باحدى الجرتين في يديه ، وكانت تحتوي على زهاء سطل من سائل ، وجعل يحرك شفتيه في حركة مؤلمة محاولا أن يقرأ الكلمات الأجنبية المكتوبة على العلامة . وكان يرماكوف قد استيقظ ، فأخذ الجرة منه ووضعها على الأرض واستل سيفه ، وقبل أن يتسنى لبروخور أن يفتح فمه ، كان يرماكوف قد قطع عنق الجرة بضربة مائلة من سيفه ، وهتف :

ـ هاتوا أقداحكم!

وفي دقائق قليلة ، استنفد النبيذ الثخين ذو الرائحة الأخاذة ، وجعل ريابتشيكوف يطق لسانه المرة تلو المرة في انتشاء كبير ويتمتم :

ـ ليس هذا بنبيذ ، بل هو العشاء الرباني . لا يشرب هذا الا عند الاحتضار ، وليس لكائن من كان أن يشربه ، انما أولئك الذين لم يلعبوا القمار قط ، ولم يدخنوا التبغ قط ، ولم يمسوا النساء قط..باختصار ، انه مشروب الأساقفة! ثم تذكر بروخور الخمر العلاجي الموجودة في خرجه ، فهتف :

ـ مهلاً ، يا بلاتون! لا تفاخر قبل الأوان! فلديّ نبيذ أفضل من هذا! هذا مجرد روث سائل بمقارنته بالنبيذ الذي حصلت عليه من المستودع... آه ، هوذا النبيذ الحقيقي! مطيب بالعسل ، أو ما هو أفضل! وما هو بخمر الأساقفة ، أيها الأخ ، بل ـ وأقولها مجابهة ـ هو خمر القيصر . كان القياصرة يشربونه في الأيام الخوالي ، أما اليوم فقد انحدر الى أيدي أمثالنا...

ومضى يتفاخر وهو يفتح احدى القوارير .

وكرع ريابتشيكوف ، ذو الاستعداد الدائم للشراب ، نصف قدح من السائل الثخين جرعة واحدة ، وفي الحال ، شحب وجهه وجحظت عيناه ، وصرخ في صوت أجش :

ـ ليس هذا خمراً ، بل هو كاربوليك!

وفي غمرة هياجه ، بصق بقية قدحه على قميص بروخور واندفع يترنح صوب الممّر .

فزعق بروخور بأعلى صوته ، محاولاً أن يسمعه الآخرون فوق ضجيج الأصوات :

ـ انه يكذب ، هذا الثعبان! هذا نبيذ انكليزي ، أجود نوع! لا تصدقوه ، أيها الأخوة!

وشرب قدحاً كاملاً من السائل ، فاستحال وجهه ، على الفور ، أشد شحوباً حتى من وجه ريابتشيكوف .

وتساءل يرماكوف ، وقد اتسع منخراه وتسمرت عيناه في عيني بروخور العمشاوين :

ـ خمر القيصر ، ها ؟ قوي ، ها ؟ حلو ؟ هيا أنطق ، أيها الشيطان ، والا فسأحطم هذه القارورة على رأسك!

وكان بروخور يهز رأسه ، ويقاسي الألم في صمت ، ويتقوق ، ثم هب على قدميه وانطلق الى الخارج في أثر ريابتشيكوف . وفي غمرة نوبة الضحك التي انتابت يرماكوف ، غمز بعينه لغريغوري غمزة خبيثة ، ثم خرج الى

الفناء . وبعد قليل عاد يضحك في هدير صخاب غطى جميع الأصوات الأخرى في الغرفة .

فتساءل غريغوري ضجرا :

ـ والآن ، ماذا حدث ؟ لماذا تصهل ، يا أبله ؟

ـ آه ، يا ولدي ، اذهب وانظر كيف يقذفان بأحشائهما الى الخارج . أتدري ماالذي شرباه ؟

ـ حسن ، ماذا ؟

ـ سائل انكليزي من السوائل المبيدة للقمل .

ـ أنت تكذب!

ـ لا والله ، لا أكذب! حينما كنت في المستودع ظننت أنا الآخر أنه خمر ، غير أنني سألت الطبيب : ـ ما هذا السائل ، أيها الطبيب ؟

فقال : دواء .

فسألته :

ـ أتراه دواء كل الأحزان ؟ أهو خمر ؟

فقال :

ـ معاذ الله! انه صنف من السوائل المبيدة للقمل أرسله الحلفاء لنا . انه للاستعمال الخارجي ، ولايمكنك استعماله داخلياً .

فسأله غريغوري مؤنباً غضباً :

ـ ولماذا لم تخبرهم بالامر ، اذن ، أيها الأحمق ؟

ـ دع الشياطين ينظفون أنفسهم قبل الاستسلام! لا أظن أنهم سيموتون .

ومسح يرماكوف الدموع من عينيه ، وأضاف بلهجة مشوبة بشيء من الضغينة :

ـ وعلاوة على ذلك ، فانهم سيتحفظون الآن في شربهم بعض الشيء . لم يكن في امكانك اللحاق بهم في السابق . فان مثل هذه الأرواح الظمأى

بحاجة الى درس . حسن ، هل سنشرب ، أنا وأنت ، أم سننتظر بعض الوقت ؟ لنشرب نخب نهايتنا!

وقبيل انبلاج الصبح ، خرج غريغوري الى درجات العتبة ، وبأصابع مرتعشة لف سيكارة وأشعلها ، ولبث واقفاً وسط الضباب وظهره مسند الى الحائط الرطب .

كان المنزل يضج بهتافات مخمورة ، ونغمات نائحة من الأكوردیون ، وصفير هائج ، وكانت كعاب الراقصين المتحمسين تقرع قرعاً ناشطاً بلا كلال . ومن الخليج تناهى النعيب الخافت المكتوم لصافرة باخرة ، وعلى أرصفة الميناء التحمت الأصوات البشرية في هدير قوى تتخلله هتافات أوامر عالية ، وصهيل خيل وأزيز محركات . وفي موضع ما على خط سكة الحديد كان القتال مستمرا . كان ثمة رعيد مدافع مكتوم ، وفي الفترات ما بين رمى المدافع كانت لعلعة الرشاشات تسمع خافتة مطموسة . وفوق ممر في الجبال ، انطلق في الفضاء صاروخ لهاب يرش الضوء في المنطقة . فتلألأت ، لثوان قليلة ، قمم الجبال الحدباء تحت الضياء الأخضر الشفاف ، ثم خيمت العتمة اللزجة لليل الربيع الجنوبي على التلال من جديد ،وانبعث رمى المدافع بشدة أقوى من السابق ، ملتحماً في هدير ثابت متواصل .

٢٩

كانت تهب من جهة البحر ريح باردة ، مالحة ، ثقيلة ، تحمل الى الشاطئ رائحة أصقاع غريبة مجهولة . أما بالنسبة لقوزاق الدون ، فلم تكن الريح وحدها غريبة ، بل كل شيء في تلك البلدة الساحلية القاحلة . كانوا يقفون على الرصيف كتلة صلدة ، في انتظار السماح لهم بالصعود الى ظهر سفينة . وعلى الشاطئ ، كانت أمواج خضر تمور وتزبد ، فيما كانت شمس مقرورة تطل على الأرض خلل السحائب . وفي البحر ، كانت مدمرات

بريطانية وفرنسية ترسل دخانها ، وبارجة حربية رفعت جسمها الرمادي المخيف فوق سطح الماء ، وقد انبسط فوقها غطاء أسود من الدخان . وخيم على الأرصفة صمت منذر بالشؤم . وحيث كانت آخر سفن النقل تتمايل في مرساها قبل وقت قليل ، تخلّفت طافية على الماء سروج وحقائب وملابس وفروات وكراس منجدة بقطيفة قرمزية ، وسقط المتاع الأخرى قد قذفوا بها الى الماء من على المعابر...

في بكرة الصبح ، مضى غريغوري على صهوة حصانه الى الرصيف . فعهد بالحصان الى بروخور ، وراح يتجول وقتاً طويلاً بين صفوف الحشد ، باحثاً عن معارف له ومتسمعاً الى الكلام القلق المشوّش . وشاهد عقيداً متقاعداً كهلاً يطلق النار على نفسه في المعبر بعد أن رفضوا اعطاءه مكاناً على السفينة .

وكان العقيد رجلاً قميئاً كثير الصخب يعلو وجنتيه شعر رمادي أشعث وتترقرق الدموع في عينيه المنتفختين ، وكان قبل انتحاره ببضع دقائق يتشبث بالضابط المسؤول عن الحرس من سير نطاق سيفه ، ويهمس في أذنه همساً مفجوعاً ، وهو لا ينفك ينشق ويمسح بمنديل وسخ شاربه المصفر من أثر الدخان وشفتيه المرتعشتين . ثم بدا ، فجأة ، أنه اتخذ قراراً ما... وبعد ذلك بقليل ، سحب قوزاقي خفيف اليد المسدس اللماع من صنف «براوننغ» من يد القتيل الدافئة ودحرج بقدمه جثته الملتفة بمعطف الضباط الرمادي الفاتح ، صوب كومة من الصناديق . وآنذاك ، ماد الحشد المتجمهر حول المعبر في حنق أشد ضراوة ، وهبت أصوات اللاجئين المبحوحة في زعيق وحشي غاضب .

وحينما ابتعدت باخرة أخرى عن جانب الرصيف ، ارتفعت ، في قوة متصاعدة ، نشجات نساء وصراخ هستيري وشتائم . وقبل أن يتلاشى الهدير العميق المقتضب لصافرة الباخرة ، قفز الى الماء كالميكي شاب يعتمر طاقية من جلد الثعلب وجعل يسبح وراء الباخرة . فقال أحد القوزاق متنهدا : ـ لم يستطع الصبر!

وقال قوزاقي يقف بالقرب من غريغوري : ـ انه لم يتحمل البقاء ، هذا واضح ، لابد أنه قد أذاق الحمر الأمرّين...

فلبث غريغوري ، وقد اصطكت أسنانه ، يحدّق في الكالميكي السابح ، بينما تراخت حركة ذراعي هذا شيئاً فشيئاً وغاصت كتفاه أسفل . وكان معطفه الثقيل الذي تشبع بالماء يشدّه الى القعر . ثم جرفت موجة طاقيته الحمراء الخلقة من على رأسه وقذفتها الى الوراء .

وقال عجوز يرتدي معطفاً قفقاسياً طويلاً في لهجة مشفقة :

ـ لسوف يغرق هذا الكافر الملعون!

فاستدار غريغوري علي عقبيه بحدة ومضى صوب حصانه . فوجد بروخور منفعلاً يحدث ريابتشيكوف وبوغاتيريوف اللذين كانا قد وصلا على حصانيهما تواً . وحين وقعت عينا ريابتشيكوف على غريغوري ، تلململ في سرجه ، ثم همز جنبي حصانه بعقبيه ، وصاح :

ـ أسرع ، يا بانتلاييفتش!

وبدون أن ينتظر وصول غريغوري اليهم ، هتف اليه :

ـ لنتراجع قبل أن يفوت الأوان . لقد جمعنا زهاء نصف سرية من القوزاق ، ونحن مزمعون على اتخاذ طريقنا الى جلندزيك ، ومنها الى جورجيا . ما رأيك ؟

فاتجه غريغوري ناحيتهم ، ويداه مدسوستان في أعماق جيبي معطفه الثقيل ، وهو ينحّي جانباً القوزاق المتجمعين بلا هدف على الرصيف .

فسأله ريابتشيكوف ملحاً ، وهو يقترب بحصانه منه :

ـ هل ستأتي معنا أم لا ؟

ـ كلا ، لن آتي!

ـ ان قائداً قوزاقياً سينضم إلينا . يعفر كل بوصة من الطريق ويقول انه يستطيع قيادتنا ، مغمض العينين ، في كل الطريق الى تفليس . هيا ، يا غريشا! ومن هناك سننتقل الى جانب الاتراك . ما قولك ؟ علينا أن ننقذ

أنفسنا بطريقة من الطرق! ها نحن ندنو من نهايتنا ، وأنت أشبه ما تكون بسمكة نصف ميتة .

ـ كلا ، لن آتي .

وتناول غريغوري العنان من يد بروخور وارتقى حصانه بحركة تنم عن وهن وارهاق ، وأضاف قائلاً :

ـ لن أذهب معكم! لا جدوى في ذلك ، علاوة على أن الأوان قد فاتنا بعض الشيء... أنظروا!

فتلفت ريابتشيكوف حوله ، وفي غمرة يأسه وحنقه سحق عقدة سيفه وانتزعها منه : كانت صفوف من رجال الجيش الأحمر تتدفق حدر الجبال ، وشرعت المدافع الرشاشة تلعلع ، محمومة ، على مقربة من مصانع الاسمنت وفتحت مدافع قطر مدرعة النار على صفوف الرجال ، فانفجرت أولى القذائف بجوار طاحونة هوائية .

فأصدر غريغوري أمره ، وقد دبت الحياة فيه على حين غرة ، وانتصب بقامته على حصانه من جديد :

ـ هيا الى مقرنا ، يا أولاد ، وظلوا ورائي مباشرة!

بيد أن ريابتشيكوف امسك بحصان غريغوري من عنانه وهتف في فزع :

ـ لا تذهب! لنبق هنا... فالموت ، كما تعلم ، ليس سيئاً كثيراً حينما تكون محاطاً بالناس...

ـ آه ، أيها الشيطان ، هيا لنذهب! لماذا تتحدث عن الموت ؟ فيم هذيانك ؟

وكان غريغوري على وشك أن يضيف الى ذلك شيئاً آخر ، غير أن صوته ضاع وسط زئير جاء من ناحية البحر . كانت بارجة انجليزية «امبراطور الهند» قد أبحرت من شواطئ روسيا الحليفة وأرسلت حزمة من القذائف من مدافعها ذوات الاثنتي عشرة بوصة وجعلت تحمي السفن الخارجة من الخليج

بضرب صفوف رجال الجيشين الأحمر والأخضر المتدفقين صوب ضواحي البلدة ، ثم حوّلت اتجاه نيرانها الى ناحية ذروة الممر حيث كانت البطاريات الحمر قد اتخذت مواقعها . وراحت القذائف البريطانية تتطاير في ارعاد ماحق ثقيل فوق رؤوس القوزاق المحتشدين على الرصيف .

وهتف بوغاتيريوف خلل رعيد القذائف ، وهو يشد على عنان حصانه الذي انكفأ على كفله :

ـ المدفعية البريطانية تستخدم لغة قوية! لكنهم يبددون نيرانهم هباء . انها لا تفعل شيئاً سوى خلق ضجيج كبير!

فقال غريغوري :

ـ دعها ترعد! فالأمر سيان لدينا الآن .

وهمز غريغوري حصانه ، مبتسماً ، وانطلق في الشارع ، ومن منعطف ، ظهر ستة فرسان منطلقين في هذب جنوني على خيلهم ، واندفعوا تجاه غريغوري وقد استلّوا سيوفهم . وكان على صدر الفارس الأول شريط أحمر اللون بلون الجرح .

الجزء الثامن

١

يومان مرّا ، وريح دافئة لا تنفك تهب من الجنوب .

ذابت الثلوج الأخيرة من على الحقول ، وانقطع هدير مسارب الربيع المزبدة ، وأتعبت أخاديد السهب وجداوله نفسها لعباً وتصخاباً . وفي فجر اليوم الثالث ، تلاشت الريح ، وانحدرت على السهب ضبابات ثقيلة وازدانت بقايا العشب الريشي المتخلف من السنة المنصرمة بقطرات ندى فضية . وتغلّفت الهضاب والوهاد والقرى وقباب الكنائس والذؤابات المدبّبة لأشجار الحور الهرمية ، بغشاوة لبنية منيعة : فقد حل الربيع في سهوب الدون الفسيحة .

في ذلك الصباح المضبب ، خرجت أكسينيا الى السقيفة ، لأول مرة مذ تعافيها من المرض ، ولبثت واقفة ثمة زمناً طويلاً وقد أسكرتها الحلاوة المثيرة التي يفوح بها هواء الربيع الطلق . فمشت ، وهي تحاول السيطرة على شعورها بالدوار ، حتى بلغت البئر الكائنة في البستان ، فوضعت دلوها على الأرض واقتعدت حافة البئر .

لكم بدا العالم في عيني أكسينيا مختلفاً اختلافاً كلياً عما عهدته في السابق ، غضاً ، آسراً على نحو رائع! وجعلت تحدق فيما حواليها بعينين

كانتا تلتمعان ببريق الانفعال ، وهي تتحسس طيات ثوبها بأصابعها مثلما يفعل الأطفال . وبدا الضباب الممتد على البعد ، وأشجار التفاح العائمة مع البستان على مياه الذوبان ، وعصي السياج المبللة ، والطريق من ورائه بحفره العميقة المليئة بالماء... بدا كل ذلك لعينيها جميلا بما يعز على التصديق . كان كل شيء يتفتح عن ألوان غامقة ، ولكنها رقيقة ، وكأنها أحيطت بهالات من نور الشمس .

وحينما أطلت رقعة من السماء الصافية خلل الضباب ، انبهرت عيناها بزرقتها الباعثة على البرد . كانت رائحة التبن المتعفن والأرض السوداء التي ذاب عنها الجليد أليفة ومحببة اليها ، حتى لقد تنهدت نهدة عميقة وحامت ابتسامة على زاويتي شفتيها . غير أن طرفاً عفوياً من غناء قبّرة بلغ أذنيها من موضع ما فوق السهب المضبب ، أيقظ في صدرها حزناً لا شعورياً . ولقد كان ذلك الطرف من غناء القبرة ، وقد سمعته في موضع ناء عن بلدها ، هو الذي جعل قلب أكسينيا يشتدّ خفقانه وعينيها ترسلان دمعتين صغيرتين بائستين .

أما وقد غمرتها البهجة بالحياة التي عادت اليها من جديد ، فقد استشعرت رغبة جامحة للمس كل شيء بيديها ، ولرؤية كل ما هو كائن ، فرغبت في لمس شجيرة من شجيرات عنب الثعلب كانت قائمة هناك وقد صبغها الندى بالسواد ، ووضعت خدها على غصن من شجرة التفاح غطته أزاهير مخملية ذات لون وردي شاحب . وودت أن تخطو عبر السياج الساقط وتمشي في الوحل مبتعدة عن كل المسالك ، الى حيث تتألق حقول القمح الشتوي ، فيما وراء وهدة واسعة ، بخضرة ساحرة ممزوجة بالضباب المنسفح على الأبعاد...

ظلت أكسينيا عدة أيام تعيش على أمل أن يظهر غريغوري في أية لحظة . لكنها علمت ، أخيراً ، من جيران أتوا لزيارة مضيفها أن الحرب كانت لا تزال مستعرة ، وأن العديد من القوزاق قد أبحروا من نوفوروسيسك الى القرم ،

بينما انضم من تخلّف منهم الى صفوف الجيش الأحمر أو أرسلوا الى المناجم .

وما ان حلت نهاية الأسبوع حتى كانت قد عقدت العزم على العودة الى قريتها ، وما لبث أن تهيأ لها رفيق سفر . ذلك أنه حدث ذات مساء أن دخل الكوخ دونما طرق على الباب عجوز قميء القامة أحدب الظهر ، وانحنى احتراماً دون أن ينبس بشيء ، ثم شرع يفك أزرار معطفه الانكليزي الموحل ، وقد تفتقت درزاته ، وتدلى من حوله مثل زكيبة .

فتساءل رب المنزل ، محدقاً باستغراب في الضيف غير المدعو :

عجباً ، يا صاحبي ، أتتوقع أن تمنح سقفاً يغطي رأسك حتى بدون أن تقول «مساء الخير» ؟

فخلع العجوز معطفه بحركة ناشطة ، ونفضه فوق العتبة ثم علقه باحتراس على خطاف وتبسم ، وهو يمسد لحيته القصيرة الشهباء ، وقال :

ـ أستميحك المعذرة ، بحق المسيح يا صاحبي العزيز ، لكنني قد تعلمت حسب هذه الأوقات! أولاً ، اخلع معطفك ، ثم اسأل ان كان بإمكانك قضاء الليلة! وإلا ، فلن يسمح لك بالدخول . فإن الناس صاروا غلاظاً هذه الأيام ، ولم تعد رؤية الضيوف تسرهم...

فقال رب المنزل في لهجة أكثر وداً :

ـ ولكن ، أين سنضعك ؟ بإمكانك أن ترى أننا مزدحمون فعلاً .

ـ أنا لا أحتاج إلى مجال أكثر مما يحتاجه كلب . سأطوي نفسي هنا عند الباب وأنام .

فتساءلت ربة المنزل يستحثها الفضول :

ـ ولكن ، من أنت ، أيها الجد ؟ هل أنت من اللاجئين ؟

فرد العجوز المهذار وهو يجلس القرفصاء بجانب الباب :

ـ لقد أصبت الحقيقة . أنا من اللاجئين فعلاً . هربت وهربت وهربت ركضاً طوال الطريق إلى البحر . أما الآن ، فها أنا في طريق العودة على مهل . لقد أتعبني الركض...

فاستأنف رب المنزل التحقيق سائلاً :

ـ ولكن ، من أنت ، على أية حال ؟ من أين أنت ؟

فأخرج العجوز من جيبه مقصاً كبيراً مما يستعمله الخياطون عادة ، وجعل يقلبه بين يديه ، ثم قال والابتسامة الثابتة نفسها على شفتيه :

ـ هوذا جواز سفري : لقد جاء بي طوال الطريق من نوفوروسيسك . لكن بلدتي نائية جداً فهي في الطرف الآخر من منطقة فيشنسكايا . والى هناك أيمّم وجهتي الآن ، بعد أن عرفت طعم الماء المالح في البحر .

فهتفت أكسينيا جذلة :

ـ أنا من فيشنسكايا أيضاً ، أيها الجد .

فتساءل العجوز دهشاً :

ـ أصحيح ؟ يا للصدفة العجيبة ، أن ألتقي بامرأة من دياري هنا! علما بأنه حتى هذا ليس بالعجيب هذه الأيام . فنحن الآن مثل اليهود مبعثرون على وجه الأرض . في الكوبان ، كان الأمر في منتهى الفظاعة بحيث اذا رميت كلباً بعصا أصبت قوزاقياً من قوزاق الدون . كنت تلتقي بهم في كل مكان ، وما كان بوسعك أن تتخلص منهم ، وهناك عدد أكبر من هؤلاء دفنوا تحت الأرض . يا أصحابي الأعزاء ، لقد وقعت عيناي على شتى ضروب المشاهد خلال هذا التقهقر . ليس بوسعكم أن تصدقوا مدى البؤس الذي كان يعانيه الناس . قبل يومين كنت جالساً في غرفة الانتظار في احدى المحطات ، وكانت الى جانبي سيدة تضع نظارات على عينيها ، وكانت تحملق من خلال نظاراتها بحثاً عن القمل . وكان القمل يدب عليها طوابير . والمسكينة تلتقطه بأصابعها وقد عبس وجهها وعلته سيماء النكد ، وكأنها كانت قد قضمت تفاحة مرة الطعم . وكانت كلما سحقت قملة صغيرة بائسة ، ازداد وجهها عبوساً فوق عبوس . كان التقزز بادياً عليها الى درجة ان المرء كان يتوقع أن تنكفئ على نفسها وتقذف ما في جوفها . ومع ذلك ، بينما تجد رجلاً قوياً يزهق روح رجل آخر من غير ما أدنى عبوس ، بل من غير أن يبعد أنفه . لقد رأيت لعيناً من هذه الشاكلة

يجهز على ثلاثة كالميكيين بسيفه ، وبعد ذلك مسح سيفه بعرف حصانه ، وأخرج سيكارة ، وأشعلها ، ثم اقترب مني على حصانه وقال :

ـ ما الذي تحملق فيه ، أيها الجد ؟ أتريدني أن أقطع رأسك أنت أيضاً ؟

فقلت له :

ـ ما الذي تقوله ، يا بني ؟ لو أنك قطعت رأسي ـ لا سمح الله ـ فكيف سيتسنى لي أن أمضغ خبزي ؟

فضحك وانصرف .

فقال رب المنزل معلقاً على ذلك بايجاز :

ـ قل ما شئت ، ولكن أن يقتل رجل متمرس بهذه الشغلة رجلاً آخر أسهل عليه من أن يسحق قملة . لقد أمست قيمة الأفراد رخيصة خلال الثورة .

فقال الضيف مؤكداً :

ـ هذا صحيح! فالرجل ليس بهيمة ، يعتاد على أي شيء . وهكذا توجهت بالسؤال الى هذه المرأة :

ـ من أنت ؟ فمن سيمائك ، يبدو أنك لست من بسطاء الناس .

فنظرت إليَّ ، ووجهها يسبح في الدموع ، وقالت :

ـ أنا زوجة أمير اللواء كريتشخين .

فقلت في نفسي :

ـ حسن ، ومع كل امارتك وكل لوائك ، ما أنت إلا قملاء مثل قطة جرباء!

وقلت لها :

ـ معذرة ، يا صاحبة السعادة ، ولكن اذا كان في نيتك أن تقتلي جميع حشراتك الزاحفة على هذا المعدل من السرعة فستظلين منهمكة بهذا العمل حتى حلول عيد العذراء المباركة وستكسرين جميع أظافرك الصغيرة . اسحقيها جميعاً بضربة واحدة .

فسألتني :

ـ ولكن ، كيف أستطيع ذلك ؟

فأخبرتها كيف . قلت :

ـ اخلعي جميع ملابسك وانشريها على موضع صلب ، واسحقيها بقنينة تدحرجينها عليها .

ورأيت زوجة أمير اللواء تنهض وتهرع وراء برج ماء ورأيتها تدحرج قنينة من الزجاج الأخضر على ملابسها ، وكانت تؤدي ذلك بمهارة حتى ليخيل للمرء أنها كانت معتادة على ذلك طوال حياتها . فلبثت واقفاً أنظر إليها بإعجاب وأحدث نفسي :

ـ لله في خلقه شؤون . لقد أطلق الباري عقال الحشرات حتى على أناس ذوي منبت نبيل . فلتمصّ دمهم الحلو ـ اذا جاز هذا التعبير ـ كي لا تظل تشرب حتى الارتواء من دم الكادحين . الله ليس رجلاً اعتيادياً ، وهو يعرف شغله . فهو في بعض الأحيان عطوف على الناس ، يسوي القضايا بالعدل حتى يعجز ذهنك عن تصور ما هو خير من تلك الحال...

ومضى الخياط يثرثر بلا توقف ، لكنه حين لاحظ أن رب المنزل وزوجته كانا يستمعان إليه في منتهى الاهتمام ، لمح لهما بمهارة بأن في جعبته العديد من الحكايات على جانب أكبر من المتعة ، غير أنه كان على درجة من الجوع بحيث لم يعد يستطيع مغالبة النعاس .

بعد العشاء ، وفيما كان يتهيأ للنوم ، سأل أكسينيا :

ـ وأنت يا مواطنتي ، أفي نيتك أن تبقي هنا مدة طويلة في ضيافتهم ؟

ـ أنا أتهيأ للعودة ، أيها الجد .

ـ عال ، اذاً ، تعالي معي . ستكون السفرة أكثر متعة لكلينا .

فوافقت أكسينيا عن رضى . وفي اليوم التالي ، ودعَت مضيفها ومضيفتها ، ثم غادرا نوفو ـ ميخائيلوفسكي ، قرية السهب المتوحدة تلك .

* * *

بلغا قرية ميليوتنسكايا بعد حلول الليل في اليوم الثاني عشر من رحلتهما . وسألا في بيت كبير بادي اليسار أن يؤذن لهما بالمبيت . وفي الصباح التالي قرر رفيق أكسينيا البقاء أسبوعاً في تلك القرية للراحة ومداواة قدميه اللتين تقشرتا وصار الدم ينزف منهما ، بحيث لم يعد في مستطاعه أن يمشي الى أبعد مما قد مشى . ثم ما لبث أن عثر في الدار على عمل من أعمال الخياطة ، ولما كان الشوق قد استبد بالعجوز الى حرفته فإنه سرعان ما اتخذ له ركناً مريحاً بجانب النافذة وأخرج مقصه ونظارتيه المعلقتين بخيط ، وشرع يفرغ محتويات احدى صرره .

وبينما كان العجوز الساخر يودع أكسينيا ، رسم اشارة الصليب عليها وذرف ، على حين غرة ، دمعة أو دمعتين . لكنه ما لبث أن مسحهما وقال في لهجته الهازلة الاعتيادية :

ـ ليست الحاجة أم تلد ، لكنها تجعل من الناس أقرباء... فها أنذا أشعر بالحزن لمفارقتك... حسن ، ما بيدنا حيلة ، فامضي وحدك ، يا بنيتي ، فان دليلك قد أصابه العرج في ساقيه معاً ، وأحسب أن أحدهم قد أطعمه خبز شعير في مكان ما... وعلاوة على ذلك ، فبالنسبة لسني السبعين ، كانت مسيرتي معك مسيرة جيدة ، بل أكثر من جيدة . ان سنحت لك الفرصة ، أخبري عجوزتي بأن طيرها الأشيب لا يزال حيا يرزق . لقد دقوه في هاون دقاً ، بيد أنه لا يزال حياً . وهو الآن يخيط بنطلونات أناس طيبين في طريق عودته ، وبأنه قد يظهر في الدار في أية لحظة . قولي لها : لقد أتم الغبي تراجعه وهو الآن يتقدم عائداً الى القرية . انه يتحرق شوقاً للصعود الى سطح الموقد من جديد...

أمضت أكسينيا عدة أيام أخر في الطريق . وفي بوكوفسكايا صادفت عربة ماضية في طريقها نفسه فركبت فيها حتى بلغت تتارسكي . ومع حلول المساء دلفت عبر بوابة بيتها المشرعة وألقت نظرة على بيت آل ميليخوف ، فاختنقت بغصة صعدت فجأة الى بلعومها . وفي المطبخ الخالي ، الذي كان يفوح برائحة الإهمال ، أهرقت كل الدموع النسائية المرّة التي ظلت تختزنها

زمناً طال أمده ، ثم مضت نازلة صوب الدون طلباً للماء . وعادت فأشعلت النار بالموقد وجلست الى المائدة وقد سقطت يداها على ركبتيها . ولفرط ما شردت بأفكارها لم تسمع صرير الباب ولم تفق من استغراقها في لتأمل إلا بعد أن دخلت ايلينشنا وقالت في هدوء :

ـ تحيات ، يا جارة . غيبتك طالت...

فنظرت إليها أكسينيا مندهشة وقامت على قدميها . وقالت ايلينشنا :

ـ ولكن ، فيم تحدقين في على هذه الصورة ؟ لم لا تتكلمين ؟ عسى ألا تكوني قد جئت بأنباء سيئة ؟

وتقدمت ايلينشنا على مهل من المائدة وجلست على حافة المصطبة دون أن تحوّل نظرتها المستفهمة عن وجه أكسينيا .

فقالت أكسينيا في لهجة يشوبها الحرج :

ـ ولماذا أكون أنا من يجيء بأنباء ؟... كل ما في الأمر ، أنني لم أكن أتوقع مجيئك . كنت جالسة أفكر ولم أسمعك تدخلين .

ـ نحفت كثيراً . كأنك روح بلا بدن .

ـ أصبت بالتيفوس...

ـ وابننا غريغوري... كيف هو ؟ أين تركته ؟ أما زال حياً ؟

فروت أكسينيا لها باختصار كل ما كانت تعرفه . وأصغت إليها ايلينشنا دون أن تنبس ببنت شفة ، ثم سألت :

ـ حينما تركك... لعله لم يكن مريضاً ؟

ـ كلا ، لم يكن مريضاً .

ـ ولم يبلغك شيء عنه منذ ذلك الوقت ؟

ـ لا .

فتنفست ايلينشنا الصعداء :

ـ حسن ، شكراً لك على الأنباء الطيبة . ففي القرية هنا ، تروى عنه مختلف القصص .

فتساءلت أكسينيا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ أية قصص ؟

ـ أوه ، كلها هراء . ليس في وسعك أن تسمعي كل القصص التي تدور... من رجال قريتنا جميعاً ، لم يعد سوى بسخليبنوف الشاب . كان قد رأى غريغوري مريضاً في يكاتيرينودار ، وأنا لا أصدق أياً من القصص الأخرى .

ـ ولكن ، ما الذي يقولونه ، يا جدتي ؟

ـ قيل لنا بأن قوزاقياً من قرية سينكين روى بأن الحمر قتلوا غريغوري في نوفوروسيسك . فقطعت كل الطريق الى سينكين سيراً على القدمين ـ فليس ثمة ما يقف حائلاً أمام قلب الأم ـ وعثرت على القوزاقي . فأنكر الرواية برمتها . قال أنه لم ير أو يسمع بغريغوري . ثم دارت شائعة أخرى تقول أنه سُجن ، وأنه مات فيه بالتيفوس...

وأسبلت ايلينشنا عينيها ، ولبثت وقتاً طويلاً صامتة تحدق النظر في يديها الثقيلتين المتآكلتين . كان ثمة استرخاء يكسو وجه العجوز وخديها المترهلين بفعل الزمن ، وقد زمت شفتيها بصرامة . وعلى حين غرة ، فاضت حمرة خفيفة على خديها الأسمرين وجعل جفناها يرتعشان . ونظرت الى أكسينيا بعينين نابضتين تومضان لهباً محموماً وقالت في صوت أجش :

ـ لكنني لا أصدقها! لا يمكن أن يسلب مني آخر أولادي . لا يملك الله سبباً لمعاقبتي... لم يبق من عمري إلا القليل... إلا القليل القليل ، وكفى ما تحمل قلبي من أحزان . إن غريشا حي . لم ير قلبي علامة ، ولهذا فان حبيبي حي .

فأشاحت أكسينيا بوجهها دون أن تنطق بشيء .

وخيّم على المطبخ سكون طويل . وفجأة هبت الريح وفتحت باب السقيفة على مصراعيه ، فبلغ سمعهما صوت هدير ماء الفيضان متدفقاً بين أشجار الحور في الجانب الآخر من الدون والاوز البري يتنادى فيما بينه قلقاً عبر المياه .

فأغلقت أكسينيا الباب ومضت فارتكنت الى الموقد . وقالت بصوت خفيض :

ـ لا تحزني ، يا جدة . لا يوجد مرض قادر على الاطاحة برجل مثله . انه قوي ، قوي كالحديد . فالرجال على شاكلته لا يموتون . حينما غادرنا القرية كان كل شيء متجمداً ، غير أنه ظل طوال الطريق بلا قفازين .

وسألت ايلينشنا في كلال :

ـ هل حدث أن تطرق الى الطفلين في حديثه ؟

ـ كان يذكرك ويذكرهما . أهما بخير ؟

ـ بخير ، ماذا يمكن أن يصيبهما ؟ لكن زوجي بانتلاي بروكوفييفتش مات أثناء التراجع . بقينا وحيدين...

فرسمت أكسينيا اشارة الصليب على نفسها دون أن تنطق بشيء . كان العجب قد استبد بها ازاء الهدوء الذي روت فيه العجوز نبأ موت زوجها .

ثم قامت ايلينشنا متثاقلة وهي تتكئ بيديها على المائدة ، وقالت :

ـ ها أنا أقضي الوقت معك ، في حين أن الظلام قد خيّم على الفناء .

ـ ابقي ما يحلو لك البقاء ، يا جدة .

ـ دونيا وحيدة في البيت ، وعليّ أن أذهب .

وفيما كانت تسوي عصابة رأسها ، ألقت نظرة في أرجاء المطبخ ثم عقدت حاجبيها وقالت :

ـ موقدك يدخن . كان عليك أن ترتبي مجيء أحد للسكن هنا حينما رحلت . حسن ، الى اللقاء .

وقالت ، فيما أمسكت بسقاطة الباب ، دون أن تدير وجهها :

ـ حينما تستقرين قليلاً ، تعالي لرؤيتنا . زورينا . ولربما تتلقين خبراً عن غريغوري فتخبرينا به .

ومنذ ذلك اليوم ، طرأ تغيير شامل على العلاقات ما بين آل ميليخوف وأكسينيا . فكأن قلقهن على غريغوري قد قارب وألف بينهن .

في الصباح التالي ، وقع نظر دونيا على أكسينيا في الفناء ، فنادتها ومضت الى السياج ووضعت ذراعيها حول كتفي أكسينيا الهزيلين وابتسمت في وجهها في ألفة وبساطة ، قائلة :

ـ أوه ، ما أشد هزالك يا أكسينيا! لا شيء غير جلد وعظم!

ـ كل انسان يصاب بالهزال في مثل هذه الحياة .

وابتسمت أكسينيا في جوابها ، وهي تستشعر دفقة من الغيرة تجتاحها اذ لاحظت وجه الفتاة الوردي وقد تفتح بالجمال الناضج . وتساءلت دونيا ، وهي تخفض صوتها لسبب ما حتى غدا همساً :

ـ هل جاءتك أمي أمس ؟

ـ نعم .

ـ هذا ما ظننت . هل سألتك عن غريشا ؟

ـ نعم .

ـ ولم تبك قط ؟

ـ كلا . انها عجوز قوية القلب .

فقالت دونيا ، وهي تلقي على أكسينيا نظرة وثوق :

ـ كان من الأفضل لو بكت . اذن ، لغدت الأمور أيسر عليها... أتدرين يا أكسينيا ، أمي أمست غريبة الأطوار منذ الشتاء الماضي ، ولم تعد مثلما كانت في السابق . حينما بلغها نبأ والدي حسبت أن قلبها سينفطر ، وانتابني هلع فظيع . غير أنها لم تدع دمعة واحدة تسقط . كل ما في الأمر أنها قالت : «عسى أن يدخل مملكة السماء . لقد أنهى زوجي آلامه...» . وحتى حلول الليل ، لم تنبس بكلمة لأحد . حاولت أن أفتح معها شتى أنواع الأحاديث ، لكنها لم تزد على أن أشارت علي بالصمت وبقيت هي ساكتة . أوه ، يا لبؤسي بها في ذلك اليوم! ولكنني في المساء ، وبعد أن جئت بالقطيع ، دخلت الى الدار وسألتها :

ـ ماما ، هل سنطبخ شيئاً للعشاء ؟

وآنذاك ، انحسر ألمها وعادت تتكلم .

وتنهدت دونيا ، ثم سألت وهي تحدق عبر كتف أكسينيا :

ـ هل مات غريغوري حقاً ؟ هل صحيح ما يقوله الناس ؟

ـ لا أدري ، يا عزيزتي .

فألقت دونيا على أكسينيا نظرة شاكة من طرف عينيها وتنهدت ثانية نهدة أعمق :

ـ ليس لدى أمي شيء غير الحنين إليه . لا تتحدث عنه إلا بقولها «ابني الأصغر» . وهي لا تصدق أبداً بأنه ربما فارق الحياة . على أنها ، وكما تعلمين يا أكسينيا ، لو يأتيها نبأ وفاته فعلاً فانها ستموت هي الأخرى كمداً . انه كل ما بقي لها في هذه الحياة . غريغوري هو الأمل الوحيد الذي تتشبث به . ولم تعد ترغب حتى في حفيديها . وليس في استطاعتها أن تركز ذهنها في عمل ما . حسبك أن تفكري : في سنة واحدة مات أربعة من عائلتنا...

واستبدّ بأكسينيا التأثر ، فمالت عبر السياج واحتضنت دونيا وطبعت على خدها قبلة حارة :

ـ اشغلي أمك بشيء ما ، يا عزيزتي . لا تدعيها تحزن أكثر مما ينبغي .

فمسحت دونيا عينيها بطرف عصابتها وسألت :

ـ بم أشغلها ؟ تعالي عندنا كلما تسنى لك ذلك وحادثيها . سيهوّن ذلك عليها . ليس هناك ما يدعوك لمقاطعتنا .

ـ سأمر بكم من حين لآخر . أي والله ، سأفعل!

ـ يلزم علي أن أخرج غداً الى الحقول . لقد أعددنا العدة مع أرملة أنيكوشكا ، فنحن نريد أن نبذر شيئاً من القمح . أتنوين بذر أي شيء لك ؟

فابتسمت أكسينيا ابتسامة باهتة وقالت :

ـ كأنني باذرة ممتازة! ليس لديّ ما أبذره ، ثم ما نفع البذار ؟ أنا لا أحتاج الى الكثير لقوتي ، وسوف أتدبر أمري بشكل ما .

ـ هل من أحبار عن زوجك ستيبان ؟

فأجابت أكسينيا بغير اهتمام :

ـ كلا ، ولا كلمة .

ثم أضافت الى ذلك قولها ، حتى أنها أدهشت نفسها به :

ـ لست كثيرة القلق عليه .

وقد فلت هذا الاعتراف من فمها على نحو غير متوقع ، فأحسّت بالحرج ، ولكي تخفي اضطرابها قالت :

ـ حسن ، الى اللقاء يا فتاتي . عليَّ أن أمضي وأرتب البيت .

وتظاهرت دونيا بأنها لم تلاحظ اضطراب أكسينيا ، فأشاحت بنظرها وهي تقول :

ـ مهلاً لحظة . كنت على وشك أن أسألك ، هل تمانعين في مساعدتنا في العمل ؟ ستكون الأرض جافة صلدة ، وأخشى ألا يكون في مستطاعنا القيام بالعمل . ولم يبق في القرية سوى قوزاقيين اثنين ، وكلاهما أعرجان .

فوافقت أكسينيا عن طيب خاطر ، ومضت دونيا مبسوطة تعد العدة .

وظلت طوال ذلك اليوم تتهيأ للصباح التالي . وبمساعدة أرملة أنيكوشكا غربلت البذور وأفلحت في اصلاح المسحاة وتشحيم عجلات العربة وأصلحت الباذرة . وفي المساء ، وضعت قليلاً من بذور القمح المغربلة في عصابة رأس وحملتها الى المقبرة حيث نثرتها على قبور بيوتر وناتاليا وداريا ، كي تطير الطيور في اليوم الثاني الى قبور أقربائها . فلسذاجة قلبها ، كانت تعتقد حقاً أن الأموات سيستمعون الى تغريد الطيور الممراح ، ويبتهجون له .

* * *

لم يهبط السكون على ضفاف الدون الا قبيل طلوع الفجر . ظلت المياه تمور برفق خلل الغابة المغمورة ، وتغسل الجذوع الخضر الكالحة لأشجار

الحور ، وتؤرجح ذؤابات شجيرات البلوط والحور الرجراج اليانعة المغمورة بمياه الفيضان . وكانت أشجار الحلال ، وقد أمالها ضغط التيار ، ترسل خشخشة في البحيرات الفائضة . وفوق الحقول المغمورة ، وعلى امتداد الخلجان المتفردة ـ حيث لبث ماء الفيضان راكداً وكأن سحراً قد حل به ، وهو يعكس على صفحته نور السماء المطرزة بالنجوم ـ كان الاوز الحلزوني يتنادى في هدوء بالغ ، وذكور الصنصن تتهامس في كسل وسنان ، ولم تسمع سوى مرة أو مرتين أصوات البجع المهاجر الفضية البوقية . ومن حين لآخر ، تقفز سمكة في بحيرة الفيضان وسط الظلام فتتدحرج موجة راعشة عبر المياه المتلألئة ، ويطلق طير فزع صرخة تحذير . ثم تعود ضفاف الدون من جديد فتتلفع بالسكون . ولكن ، ومع طلوع الفجر ، ما ان بدأت قمم التلال الكلسية تكتسي لوناً وردياً ، حتى شرع نسيم بري في الهبوب . وسرعان ما اشتد وتسارع في هبوبه باتجاه معاكس للتيار . وتلاطمت على امتداد النهر موجات كبيرة بلغ علوها سبعة أقدام ، وهاجت المياه وماجت في الغابة ، وأنّت الأشجار فيما كانت تتمايل مع الريح . واستمرت الريح تزمجر طوال النهار ، ولم تفتر إلا في وقت متأخر من الليل . واستمر هذا الطقس عدة أيام .

تلفع السهب بضبابة ليلكية . كانت الأرض قد جفت ، وتوقف نمو الحشائش ، وامتدت الشقوق عبر حقول الخريف المحروثة . كانت الأرض تزداد جفافاً ، ساعة إثر ساعة ، إلا أن المرء لا يكاد يرى أحداً في حقول تتارسكي . فلم يبق في القرية إلا بضعة شيوخ فانين ، أما القوزاق الذين كانوا قد عادوا من التراجع فكانوا مصابين بلسعة الثلج أو مرضى أو عاجزين ، ولم يكن يعمل في الحقول سوى النساء والصبيان . وكانت الريح تجرف التراب صوب القرية الخالية وتصفق أباجورات البيوت وتنبش قش سطوح المآوي . فقال الشيوخ :

ـ سنقضي هذه السنة بلا خبز . ليس سوى النسوة في الحقول ، وفوق

هذا ليس سوى بيت من كل ثلاثة يبذر بذارا . لن تعطي الأرض الميتة ثمراً .

كانت دونيا والنسوة الأخريات قد أمضين يومين في البذار ، حينما ذهبت أكسنيا تسوق الثيران حدر البركة . وكان ابن أوبنيزوف البالغ من العمر عشر سنين يقف بحذاء السدّ ممسكاً بعنان حصان مسرج . وكان الحصان يلوك شيئاً ما بين شفتيه ويرش قطرات من الماء من خطمه الرمادي المخملي ، فيما كان الصبي يسلي نفسه بالقاء كتل من الطين اليابس في الماء ومتابعة حلقات الماء بنظره وهي تتسع أكثر فأكثر .

سألته أكسينيا :

ـ ماذا تفعل هنا ، يا فانيا ؟

ـ جئت بالعظام لأمي .

ـ حسن ، وما هي أخبار القرية ؟

ـ أوه ، لا شيء . اصطاد الجد جيراسيم شبوطاً جيداً بشبكته ليلة أمس . وعاد فيودور ملنيكوف من التراجع .

ثم وقف الصبي على أصابع قدميه ، وألجم الحصان ، ثم أمسك بخصلة من عرفه بيده وقفز الى السرج بخفة عجيبة . وابتعد عن البركة على مهل ، كما يجب على الفلاح الحصيف بيد أنه ما أن قطع بعض المسافة حتى استدار ليلقي نظرة على أكسينيا وانطلق هذبا ، فانفتح قميصه الأزرق الكالح مثل بالون وراءه .

تمددت أكسينيا على السد فيما كانت الثيران ترد الماء ، وفجأة عقدت العزم على الرجوع الى القرية . لقد كان ملنيكوف جندياً من القوزاق ، ولا بد أن لديه خبراً عن مصير غريغوري . وحينما عادت بالثيران الى المخيم قالت لدونيا :

ـ سأذهب الى القرية ، وسأعود في الصباح الباكر .

ـ هل لقضاء عمل ما ؟

ـ أجل .

وفي صباح اليوم التالي ، عادت . وكانت تؤرجح في يدها عسلوجاً بلا مبالاة فيما كانت تقترب من دونيا ، التي كانت تضع العدة على الثورين ، غير أن حاجبيها كانا معقودين وزاويتا شفتيها مزمومتين في مرارة .

وقالت باقتضاب :

فيودور ملنيكوف عاد . ذهبت لأسأله عن غريغوري . انه لايعرف عنه شيئاً .

واستدارت على عقبيها وانصرفت نحو الباذرة .

بعد البذار ، شرعت أكسينيا تعمل في حقلها هي . فبذرت بذور بطيخ في حديقة البطيخ ، ورممت البيت وطلته بالجبس وغطت سقف المأوى على أفضل ما استطاعت بما تبقى لديها من قش . وتتالت الأيام في زحمة من العمل ، الا أن قلقها على غريغوري لم ينحسر قيد أنملة . أما ستيبان ، فكانت لا تفكر به الا على مضض ولسبب ما كانت تحس بأنه لن يعود . ومع ذلك فحينما كان يعود قوزاقي من القوزاق ، كان أول سؤال تتوجه به إليه دائماً :

ـ ألم تر زوجي ستيبان ؟ ـ وآنذاك فقط ، كانت تحاول ، بحذر ، أن تستخلص خبراً ما عن غريغوري . كان كل من في القرية يعرف علاقتهما ، ولم تعد حتى النساء المحبات للفضائح يخضن في شأنهما . بيد أن أكسينيا ظلت تخجل من الكشف عن مشاعرها ، الآ حين لا يذكر جندي عائداً مقتصداً في كلامه شيئاً عن غريغوري ، عند ذاك كانت تسأله ، وهي تضيق عينيها وتحاول أن تخفي الحرج الواضح عليها :

ـ ولكن ، ألم يصدف أن رأيت جارنا غريغوري بانتلاييفتش ؟ ان أمه قلقة عليه . وهي تلوب كمداً...

لم يكن أي من قوزاق القرية قد وقعت عينه على غريغوري أو ستيبان بعد استسلام « جيش الدون » في نوفوروسيسك . بيد أن أحد رفاق ستيبان في كتيبته السابقة عرج على دار أكسينيا ، في أواخر حزيران ، وهو في طريق عودته الى قريته .

ـ ستيبان ذهب الى القرم... اعطيك كلمة شرف! لقد رأيته بأم عيني يصعد الى المركب . لم يتسنّ لي أن أكلمه . كان الزحام شديداً بحيث كان الناس يسيرون على رؤوس بعضهم!

وحينما سألته عن غريغوري ، رد عليها بجواب مراوغ :

ـ رأيته على رصيف الميناء . كان يرتدي شارات الكتف . لكنني لم أره بعد ذلك ، فقد نقلوا عدداً كبيراً من الضباط الى موسكو ، ومن يدري أين هو الآن ؟...

على أنه لم يمض أسبوع حتى ظهر بروخور زيكوف في تتارسكي . كان قد جرح ، وقد جيء به من محطة ميليروفو على عربة . وما ان بلغ أكسينيا نبأ وصوله ، حتى تخلت عن حلب البقرة وتركت العجل يمضي إلى أمه ، ووضعت عصابتها على رأسها فيما هرعت صوب فناء آل زيكوف وهي تكاد تعدو . وكانت تحدث نفسها اثناء سيرها :

ـ لا بد أن بروخور يعرف . حتماً يعرف! ولكن ، ماذا لو قال غريغوري مات ؟ ماذا أفعل آنذاك ؟

ومع كل خطوة ، صار سيرها يتباطأ ، وهي تضغط يدها على قلبها متوجسة خيفة من سماع أخبار سيئة .

رحب بروخور بها في غرفة الضيوف وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويحاول أن يخفي عقب ذراعه اليسرى خلف ظهره :

ـ مرحباً ، يا رفيقتنا في السلاح! تحياتنا! أنا سعيد برؤيتك حية . كنا نحسب أنك قد أسلمت الروح في تلك القرية الصغيرة . آه ، لكم كانت حالتك سيئة هناك... حسن ، وما أبدع ما يضفى على أمثالك من جمال... أقصد التيفوس! ولكن ، أنظري كيف نحتني البولونيون نحتاً ، لعنة الله عليهم!

وعرض بروخور عليها الكم المعقود لقمصلته الخاكية .

ـ وحينما وقع نظر زوجتي عليها ، ناحت وبكت ، بيد أنني قلت لها : ـ لا تجأري هكذا ، أيتها الحمقاء! لقد قطعت رؤوس آخرين ومع ذلك فهم لا

يتبرمون» . أما ذراع واحدة ، فلا شيء على الاطلاق! يستطيعون دائماً أن يصنعوا للمرء ذراعاً من خشب . ثم ان الذراع الخشبية لن تخشى الاصابة بالبرد ، واذا جرحت لا تنزف دماً . الشيء الوحيد الذي يدعو الى الأسف ، يا فتاتي هو أنني لن أفلح في تدبير أموري بيد واحدة . أنا لا أستطيع تزرير بنطلوني ، هذه هي مصيبتي! فلذلك لا تؤاخذيني إذا رأيت شيئاً غير ملائم... طيب ، تعالي واجلسي . وكوني ضيفتي . فنتحادث مستغلاً فرصة عدم وجود زوجتي . لقد أرسلتها ، عدوة المسيح هذه ، لتجلب الفودكا! ها هوذا زوجها يعود الى الدار مبتور الذراع ، وليس لديها ما تشرب نخب صحته! أنتن ، معشر النساء ، جميعكن على شاكلة واحدة حينما يغيب أزواجكن . أنا أعرفكن جميعاً بشكل جيد ، أيتها الأبالسة ذوات الذيول المبلولة!

ـ لعلك ستحدثني عن...

ـ اعرف! سأخبرك! طلب مني أن أنحني لك هكذا .

انحنى بروخور متمازحاً ، ثم نظر إليها ، فارتفع حاجباه دهشة :

ـ تحية لانقة بك! فلماذا تبكين ، أيتها الحمقاء ؟ أنتن ، أيتها النساء ، مصنوعات من غزل واحد! اذا مات رجلهن بكين ، واذا عاد حياً بكين أيضاً . امسحي عينيك ، امسحي عينيك . فيم تشرقين بالبكاء على هذه الصورة ؟ في نوفوروسيسك التحقنا ، معاً ، بخيالة الرفيق بوديوني ، الفرقة الرابعة عشرة . تولى غريغوري بانتلاييفتش أمرة سرية... أعني سرية خيالة . وبالطبع أصبحت أنا مراسله ، وقطعنا الطريق الى كييف في مسيرات اضطرارية . حسن ، يا بنت ، لقد أذقنا هؤلاء البولونيين طعم المرارة! وفي الطريق قال غريغوري بانتلاييفتش :

ـ لقد قتلت ألماناً ، وجرّبت سيفي على شتى فصائل النمساويين ، ولا أظن أن جماجم البولونيين أقوى . وأعتقد أن من الأيسر علينا انزال سيوفنا عليهم بدلاً من انزالها على جماعتنا الروس ، ألا توافقني ؟

وغمز لي بعينيه وابتسم . لقد تغير كلياً حينما التحق بالجيش الأحمر . غدا مرحاً كثير المرح ورقيقاً مثل جواد مخصي . حسن ، لكننا ، أنا وهو ،

لم نفلح في المضي معاً دونما عراك عائلي... ففي ذات يوم اقتربت منه على حصاني وقلت له على سبيل المزاح :

ـ حان الوقت للتوقف ، يا صاحب السعادة ، أيها الرفيق ميليخوف!

فحدجني بعينين قادحتين وقال :

ـ كفّ عن مثل هذا المزاح والا فستكون عاقبتك وخيمة! وفي ذلك المساء نفسه ، أرسل يطلبني لأمر أو لآخر ، ولا بد أن الشيطان نفسه هو الذي وسوس لي فناديته :

ـ يا صاحب السعادة ـ مرة ثانية... كان عليك أن تشاهدي كيف اختطف مسدسه الماوزر! واستحال وجهه أبيض تماماً وكشر عن أسنانه كالذئب... ولديه فم مليء بالأسنان ، بطابور منها على الأقل! فخبأت رأسي تحت بطن حصان وهربت منه . كاد أن يقتلني الشيطان!

فقالت أكسينيا متلعثمة :

ـ لعله سيأتي الى القرية في اجازة...

قال بروخور مزنخراً :

ـ لا تفكري بذلك! يقول انه سيظل يخدم الى أن يكفّر عن خطاياه السابقة . ولسوف يفعل ذلك حقاً! فليس عمل الأحمق بالمهمة الصعبة! قادنا مرة في هجوم على مقربة من بلدة صغيرة . ورأيته بعيني يقتل بسيفه أربعة من أوغلانهم* . كان الشيطان أعسر منذ طفولته ، ولهذا راح يسدد الضربات اليهم من كلا الجانبين . وبعد انتهاء المعركة صافحه بوديوني بنفسه أمام الكتيبة ، وتلقى هو والسرية شكراً على ذلك .

ظلت أكسينيا تستمع إليه وكأنها في حمى... ولم تستعد رشدها إلا عند بوابة آل ميليخوف . كانت دونيا في السقيفة تصفي اللبن ، فتساءلت دون أن ترفع عينيها :

---

* الأوغلان : خيالة في منطقة بروسيا الألمانية . المترجمون

ـ هل جئت في طلب خميرة ؟ أدري أنني وعدت بجلبها لك ، ولكنني نسيت .

لكنها حينما نظرت الى عيني أكسينيا المبللتين بالدموع والمتألقتين بالسعادة ، أدركت كل شيء دون أن تتبادلا كلمة .

فهمست أكسينيا وهي تضغط وجهها الملتهب على كتف دونيا وتلهث في غمرة ابتهاجها :

ـ حيّ وعلى ما يرام... لقد بعث بتحياته... اذهبي! اذهبي واخبري أمك!

٢

من بين قوزاق تتارسكي الذين كانوا قد تراجعوا مع البيض ، لم يعد اليها مع حلول الصيف غير ما يقرب من ثلاثين قوزاقياً . وكان هؤلاء في الأغلب شيوخاً وجنوداً كهولاً ، أما الشباب منهم فما يزالون غائبين باستثناء المرضى والجرحى . كان بعضهم يخدم في صفوف الجيش الأحمر ، وآخرون يقضون أيامهم في القرم ويستعدون لشن زحف جديد صوب منطقة الدون .

كان زهاء نصف أولئك الذين ذهبوا سيظلون الى الأبد في تلك الأصقاع الغربية : فقد قضى على بعضهم التيفوس ، ولقي آخرون حتفهم خلال المعارك الأخيرة في منطقة الكوبان ، وتجمّد حتى الموت عدد ممن كان قد انفصل عن الأرتال المتراجعة في السهب على مبعدة من مانيتش ، ووقع اثنان في أسر الأنصار وأمحت آثارهما من يومئذ . كانت تتارسكي تفتقد العديد من قوزاقها . ولبثت النساء يقضين أيامهن في ترقب متوقب مقلق ، وكن في المساء اذا مضين لاقتياد بقراتهن العائدات من المراعي يقفن زمناً طويلاً على قارعة الطريق يحدقن في الأفق من تحت راحاتهن . فمن يدري ؟ لعل عابراً متخلفاً يقدم على الطريق العام وسط ضبابة المساء الليلكية .

ويعود الى داره ربّ بيت ما ، رث الثياب ، قذراً ، سقيماً ، ولكن أهل بيته كانوا في انتظاره طويلاً ، فيمتلىء البيت في الحال بهرج ومرج وفرح .

فيعد الماء الساخن للجندي الذي اسودّ لونه قذارة ، ويتنافس الأطفال لخدمة أبيهم ويراقبون كل حركة تصدر عنه ، وتهرع الزوجة ، يكاد صوابها يطير سعادة ، لتعد المائدة ، ثم تسرع الى الصندوق ، لتخرج منه طقماً نظيفاً من ملابس زوجها الداخلية . ولكن ، وكأن الأمر مقصود لاغاظتها ، يتبين أن الملابس غير مرتقة ، وليس في مقدور أصابع الزوجة المرتعشة ساعتئذ أن تدخل الخيط في خرم الابرة . وفي مثل تلك الأوقات يسمح حتى لكلب الفناء ، الذي يكون قد شخّص سيده من مسافة بعيدة وظل يعدو وراءه حتى عتبة الباب ، بالدخول الى البيت . والأطفال يمضون ، مهما عملوا ، دون عقاب حتى وان حطموا آنية من الخزف أو دلقوا اللبن على الأرض . وقبل أن يتسنى لرب البيت أن يرتدي ملابسه النظيفة بعد الاغتسال ، تكون الدار قد اكتظت بالنسوة : يأتين لمعرفة مصير أحبانهن ، ويتلقفن في مزيج من الخوف واللهفة كل كلمة يتفوّه بها القوزاقي . وما تلبث احدى النساء أن تخرج الى الفناء وهي تضغط براحتيها وجهها المبلل بالدموع وتمضي في الزقاق كالعمياء لا تتبين دربها . ثم تشرع أرملة جديدة تندب ميتها في احدى الدور الصغيرة ، تصاحبها أصوات الأطفال الباكين الرفيعة . هكذا كانت الحال في تتارسكي : كان الفرح الذي يدخل دارا مجلبا للآلام والفجيعة في دار أخرى .

وفي الصباح التالي ، يستيقظ رب البيت قبل طلوع الفجر ، حليقاً ، بادي الفتوة ، ويمضي في جولة في أرجاء الدار ، ملاحظاً الأعمال التي تستدعي التنفيذ الفوري . ويشرع في العمل بعد الفطور مباشرة . فتهس المسحاة بيده هساً طروباً وتنقر الفأس في موضع ما تحت أفاريز المأوى ، في الفيء البارد ، وكأنها تعلن بأن اليدين الرجوليتين المقتدرتين قد عادتا الى ذلك الفناء يحدوهما ظمأ الى العمل . أما في دار وفناء من علموا بوفاة الوالد أو الزوج ، فإن صمتٌ أبكم يخيم هناك . فتتمدد الأم خرساء هدها الحزن ، ويتجمع حولها الأطفال اليتامى وقد بان عليهم الكبر بين عشية وضحاها .

كانت ايلينشنا ، متى سمعت بعودة قوزاقي ، تقول :

ـ ومتى سيعود رجلنا ؟ الآخرون يعودون ، ولا كلمة عن ولدي .

فكانت دونيا تجيبها بلهجة حانقة :

ـ انهم لا يسرحون القوزاق الشباب ، ألا تفهمين يا أمي ؟

ـ لا يسرحونهم ؟ وتيخون جيراسيموف ؟ إنه أصغر من غريشا بعام .

ـ لكنه مصاب بجرح ، يا أمي .

فتعترض ايلينشنا بقولها :

ـ مصاب بجرح... أف! رأيته بالأمس خارج دكان الحداد ، وكان يسير وكأنه في استعراض . الجرحى لا يسيرون هنا وهناك بهذا الشكل .

ـ كان جريحاً ، ولكنه يتماثل للشفاء الآن .

ـ حسن ، ألم يصب رجلنا بالعديد من الجروح ؟ ان جسمه مليء بالندب . ألا تعتقدين أنه بحاجة الى أن «يتماثل للشفاء» هو الآخر ؟

فكانت دونيا تبذل ما في وسعها لكي تفهم أمها أن من العبث عقد الآمال على عودة غريغوري الوشيكة . غير أن اقناع ايلينشنا بأيما شيء لم يكن بالأمر اليسير . فكانت ايلينشنا تقول بلهجة آمرة :

ـ أسكتي ، أيتها الحمقاء! أنا أعرف بقدر ما تعرفين ، ولم تكبري الى العمر الذي تعلمين فيه أمك . قلت يجب أن يعود ، وهذا يعني أنه سيعود . اغربي عن وجهي ، أنا لا أريد حتى أن أبدد كلامي عليك .

كانت العجوز تنتظر عودة ولدها في منتهى نفاد الصبر وتذكر اسمه في كل مناسبة ممكنة . وكانت كلما امتنع ميشاتكا عن اطاعتها تهدده بقولها :

ـ انتظر حتى يعود أبوك ، يا قرداً كث الشعر! سأخبره وسيلقنك درساً!

واذا حدث أن وقع نظرها على عربة بعوارض جديدة في جوانبها تمر بازاء النافذة ، كانت تتنهد وتقول :

ـ في استطاعتك أن تستنتجي بأن صاحب تلك العربة قد عاد الى أهله ، أما رجلنا فيبدو وكأن أحداً قد حبسه الى الأبد .

ولم يحدث قط في حياتها أن كانت ايلينشنا تحب دخان التبغ ، بل كانت تطرد المدخنين على الدوام الى خارج المطبخ ، أما الآن ، فقد تغير طبعها حتى في هذا الشأن . فكانت غالباً ما تقول لدونيا :

اذهبي الى بروخور واطلبي منه المجيء : ليأت ويدخن سيكارة ، لأن البيت يفوح برائحة الموت . يوم يعود غريشا من الخدمة ، سيفوح المكان كما يجب حينما يعيش قوزاقي فيه .

وكانت تطبخ كل يوم ما يفيض عن حاجتهم وتضع في الموقد بعد العشاء دائماً قدراً معدنياً مليئاً بحساء الكرنب . وحينما كانت دونيا تسألها عن سبب ذلك ، كانت ايلينشنا تجيبها في استغراب :

ـ عجباً ، وماذا أفعل غير هذا ؟ فقد يعود جندينا اليوم ، وآنذاك يستطيع أن اطعمه شيئاً ساخناً في الحال . فقد يشتد به الجوع وأنت تسخنين له هذا أو ذاك .

وحدث ذات يوم حينما عادت دونيا من حديقة البطيخ أن وقع نظرها على سترة غريغوري القديمة وقبعته ذات الرفرف بشريطها الأحمر الحائل معلقتين على مسمار في المطبخ . فنظرت الى أمها مستفهمة ، فقالت ايلينشنا وقد ارتسمت على فمها ابتسامة مذنبة تكاد تكون مثيرة للاشفاق : أخرجتهما من الصندوق ، يا دونيا . تستطيعين أن تشاهديهما وأنت قادمة من الفناء ، وهما ـ تضفيان على الدار جواً أكثر ألفة... وكأنه قد عاد إلينا من جديد...

أما دونيا ، فقد كلّت من الحديث الذي لا ينتهي عن غريغوري . وذات مرة ، لم تستطع أن تصطبر على سماع المزيد منه ، فقالت لأمها لائمة :

ـ أما تعبت ، يا أمي ، من التحدث دائماً عن الشيء نفسه ؟ لقد جعلت الجميع يسأمون الحديث معك . وكل الذي نسمعه منك هو « غريشا » ، « غريشا »...

فأجابت ايلينشنا في لهجة هادئة :

ـ لماذا يجب عليّ أن أتعب من التحدث عن ولدي ؟ حسبك أن تنتظري حتى تخلّفي أطفالاً ، وآنذاك ستفهمين...

وبعد ذلك ، أخذت قبعة غريغوري وسترته من المطبخ الى غرفتها ، ولبثت عدة أيام لا تذكره بكلمة . ولكن ، ما ان اقترب موسم حش الأعشاب حتى قالت لدونيا :

ـ قد تغضبين حينما أتحدث عن غريشا ، ولكن كيف يتسنى لنا أن نعيش بدونه ؟ هل حدث أن فكرت في ذلك ، أيتها الخرقاء ؟ هذا أوان الحش يدنو وليس لدينا من يقوم حتى بشحذ مجرفة التبن . أنظري كيف يؤول كل شيء الى خراب ، وليس في مستطاعنا ، نحن الاثنتين ، أن ندبّر أمورنا . حينما يغيب رب الدار ، يبكي حتى الأثاث .

ولم تقل دونيا شيئاً . كانت تدرك جيداً أن مشاكل الحقل لم تكن ، بأية حال من الأحوال ، هي التي تسبب قلق أمها ، لكنها كانت بمثابة حجة ، فحسب ، للتحدث عن غريغوري وللتنفيس عن كربة صدرها . فقد شرعت ايلينشنا تتلهف على ولدها بقوة متجددة ، ولم يعد في مكنتها اخفاء مشاعرها . وفي ذلك المساء رفضت أن تتناول عشاءها ، وحينما تساءلت دونيا ما اذا كانت تشعر بتوعك أجابت مترددة :

ـ شختُ... وقلبي يتوجع على غريشا... يتوجع الى حدّ انني لا أشعر بالحنين الى شيء وعيني لا تريد التطلع الى العالم الخارجي .

ولكن لم يقدّر لغريغوري أن يتولى مسؤوليات فناء آل ميليخوف . اذ حدث قبيل ميعاد الحش أن وصل القرية عائداً من الجبهة ميشا كوشيفوي . فبات ليلته لدى أقرباء بعيدين ، وجاء في صباح اليوم التالي لزيارة آل ميليخوف . كانت ايلينشنا تطبخ حينما طرق الباب مؤدباً ، ولما لم يتلقَ رداً دخل الى المطبخ وخلع قبعة الجنود القديمة التي كان يعتمرها ، وقال مبتسماً لها :

ـ مرحباً ، خالتي ايلينشنا . لم تكوني تتوقعين حضوري ، أليس كذلك ؟

فردّت ايلينشنا في لهجة خشنة وهي تحدج وجه كوشيفوي المقيت اليها ، بنظرة غاضبة :

ـ صباح الخير . وما أنت بالنسبة لي حتى أتوقع حضورك ؟ هل أنت ضفيرة لا تتجزأ من ضفائر سياج الاسفندان في دارنا ؟

فقال ميشا دون أن يثبط هذا الاستقبال من عزيمته قط :

ـ كنا ، على أية حال ، معارف .

ـ ولا أكثر من معارف .

ـ وهذا كاف بالنسبة لي كي أجيء لرؤيتكم . ثم انني لم أجيء لأعيش معكم .

فقالت ايلينشنا محتدة :

ـ هذا الذي كان يعوزنا .

وعادت الى طبخها دون أن تعير الزائر مزيداً من الاهتمام .

ولم يأبه ميشا لكلماتها . بل جعل يجيل بصره في أرجاء المطبخ ، وقال :

ـ جئت لرؤيتكم والاطلاع على حالتكم . لقد مضى عام أو يزيد دون أن نرى بعضنا .

فردت ايلينشنا مزنخرة ، وهي لا تنفك تنقل الأوعية على الفحم :

ـ لم نفتقدك كثيراً!

كانت دونيا ترتب غرفة الضيوف . وحينما تناهى صوت ميشا الى أسماعها شحب لونها وضربت يداً بيد في صمت . وجلست على المصطبة لا تجرؤ على الحركة وهي تتسمع الى الحوار الدائر في المطبخ ، ووجهها يلتهب بالدم المتدفق عليه حيناً ، ووجنتاها تشحبان ، حيناً آخر ، حتى تظهر خطوط بيض صغيرة على جسر أنفها الدقيق . وسمعت صوت خطوات ميشا يتمشى في المطبخ ، ثم يجلس على كرسي ، فيصرّ الكرسي من تحته ، ويشعل عود ثقاب . ثم انسابت رائحة دخان سيكارة الى غرفة الضيوف .

ـ سمعت بأن العجوز قد مات .

ـ نعم .

ـ وماذا عن غريغوري ؟

فلبثت ايلينشنا صامتة وقتاً طويلاً ، ثم أجابت في تردد جلي :

ـ انه يحارب الى جانب الحمر ، وهو يحمل على قبعته مثل النجمة التي تحملها أنت .

ـ كان عليه أن يحملها منذ زمان...

ـ ذلك من شأنه هو .

ثم تساءل ميشا ، وقد شابت صوته نغمة انفعال واضحة :

ـ وماذا عن يفدوكيا بانتلاييفنا ؟*

ـ انها ترتب الدار . أنت مبكر جداً في الزيارة . أهل الخير لا يشرعون بالتجوال في مثل هذا الوقت الباكر .

ـ قد يكون الانسان سيئاً أحياناً . أردت أن أراها ولهذا جئت . فعلام اختار الوقت المناسب ؟

ـ أواه ، يا ميخائيل ، لا تغيظني!

ـ وكيف اغيظك ، يا خالتي ؟

ـ عجباً ، بهذا الأسلوب .

ـ بأي أسلوب ؟

ـ عجباً ، بأسلوب كلامك .

وسمعت دونيا ميشا يطلق حسرة عميقة . فلم يعد في طاقتها احتمال المزيد ، فوثبت وسوّت تنورتها ومضت الى المطبخ . كان ميشا جالساً الى جانب النافذة يتم تدخين سيكارته . كانت بشرته صفراء اللون ، وكان على درجة من الهزال بحيث كاد التعرف عليه يكون مستحيلاً . غير أن عينيه

---

* اسم دونيا الكامل . المترجمون

الذاويتين اتقدتا حينما رأى دونيا واكتسى خداه بحمرة لا تكاد ترى . فقام مسرعاً وقال في صوت أبح :

ـ أهلاً . صباح الخير .

فردّت دونيا بصوت لا يكاد يسمع : ـ صباح الخير .

فأمرتها ايلينشنا في الحال وهي تلقي عليها نظرة خاطفة :

ـ اذهبي واجلبي ماء!

ولبث ميشا في انتظار أوبة دونيا صابراً . وفي غضون ذلك ، لم تفه ايلينشنا بشيء ، وظل هو صامتاً أيضاً ، وأخيراً سحق عقب سيكارته بين أصابعه وتساءل قائلاً :

ـ فيم حنقك عليَّ ، يا خالتي ؟ هل أسأت إليك ، أم ماذا ؟

فاستدارت ايلينشنا من أمام الموقد فجأة وكأنها لُسعت ، وقالت :

ـ كيف يبيح لك ضميرك القدوم الى هنا ، يا ذا العينين الوقحتين! أتجرؤ على سؤالي ذلك! يا قاتل ؟!

ـ وكيف أكون قاتلاً ؟

ـ قاتل حقيقي! من قتل بيوتر ؟ ألم يكن أنت ؟

ـ بلى .

ـ حسن جداً ، اذن . فما أنت بعد ذلك ؟ ثم تأتي وتزورنا... وتجلس هنا وكأن...

وغصت ايلينشنا فسكنت . ثم استعادت زمام نفسها واستأنفت :

ـ ألست أمه ، أم ماذا ؟ كيف تجرؤ على النظر في عيني ؟

فاستحال وجه ميشا شاحباً . كان يتوقع كل هذا الكلام . فقال وهو يتلعثم في غمرة انفعاله :

ـ ليس ثمة ما يدعوني الى الخجل من النظر في عينيك . ماذا كان بيوتر سيفعل لو ظفر بي ؟ أتظنين أنه كان سيقبّلني على خصلة شعري ؟ كان سيقتلني هو الآخر . هل جئنا الى تلك التلال لنلعب لعبة « حلقة القبل » ؟ تلك هي الحرب!

ـ ونسيبنا كورشونوف* العجوز ؟ هل قتل الشيوخ الآمنين هي الحرب أيضاً ؟

فقال ميشا مستغرباً :

ـ عجباً ، وكيف لا ؟ لا شك أنها الحرب! أنا أعرف هؤلاء الشيوخ الآمنين خير معرفة . هؤلاء الشيوخ الآمنون يقبعون في بيوتهم ممسكين بسراويلهم ، لكنهم يسببون ضرراً أكبر مما يسببه الآخرون في الجبهة . لقد كان أمثال الثرثار العجوز غريشاكا يحرّضون القوزاق ضدنا . لقد بدأت كل هذه الحرب بسببهم . من الذي بدأ بالتحريض ضدنا ؟ هم... هؤلاء الآمنون! ثم تسمينني « قاتلاً »! في السابق ، كنت لا أقوى على نحر خروف أو خنزير ، وأعرف أنني لا أقوى على ذلك حتى الآن . لا أستطيع أن أضع يدي على مثل هذه المخلوقات . الآخرون يستطيعون نحر الحيوانات ، في حين أنني أصم أذني وأبتعد كي لا أسمع ذلك أو أراه .

ـ لكن نسيبنا...

فقاطعها ميشا مغضباً :

ـ أخذ عقلك نسيبك هذا! نفعه لا يزيد عن نفع حليب من ذكر ماعز! لكن ضرره كبير . طلبت منه أن يخرج من الدار ، غير أنه لم يفعل ، فلقي حتفه حيث كان . ان الغضب ليستبد بي مع هؤلاء... مع هولاء الشياطين العجائز! أنا لا أستطيع أن أقتل حيواناً ، إلا في حالات الهياج على الأقل ، أما مثل هذه ـ أستميحك المعذرة لاستعمال هذا التعبير ـ مثل هذه القذارات ، كنسيبك وأضرابه ، فباستطاعتي أن أقتل منهم بقدر ما تشائين . ان يدي متينة مع الأعداء من شاكلة هؤلاء الذين لا نفع لهم في هذه الدنيا .

فقالت ايلينشنا في حقد :

ـ انها قساوة قلبك التي أحالتك جلداً على عظم! وأحسب أن ضميرك يؤنبك...

---

* هو غريشاكا كورشونوف ، جد ناتاليا لأبيها . المترجمون

فابتسم ميشا ببشاشة وقال :

ـ أشك في ذلك . لن يؤنبني ضميري على نفاية كذلك العجوز المهذار . لقد أصبتَ بالحمّى . وقد هدّت كياني هذا ، يا أمي ، وكنت...

فزعقت ايلينشنا به :

ـ وكيف أكون أُماً لك ؟ يا ابن الكلبة!

فقال ميشا بصوت غليظ ، وهو يضيّق عينيه متوعداً :

ـ لا تشتميني! هناك حدود لما أستطيع أن أتحمل منك . لكنني أود أن أقول لك مواجهة ، يا خالة . ليس لك أن تحنقي عليَّ بسبب بيوتر . لقد نال ما كان يسعى اليه .

فهتفت ايلينشنا في غلظة :

ـ انك قاتل! قاتل! أخرج من هنا ، أنا لا أستطيع تحمل رؤيتك!

فأشعل ميشا سيكارة أخرى وتساءل في لهجة هادئة :

ـ وما رأيك بميتكا كورشونوف ، نسيب آخر من أنسبائك ، أليس هو قاتلاً ؟ وما هو ولدك غريغوري ؟ أنت لا تقولين شيئاً عن ولدك الحبيب ، بيد أنه قاتل حقيقي ، لا جدال في ذلك .

ـ لا تكذب!

ـ ودَعت الكذب يوم أمس . من هو غريغوري في رأيك ؟ كم من رجالنا قضى عليهم ، أتعرفين ؟ هذا هو المهم . وإذا كنت ستطلقين هذه الصفة على كل من شارك في الحرب ، فنحن جميعاً قتلة ، اذن .

وأضاف قائلاً في لهجة ذات مغزى :

ـ المهم هو : من نقتل ، ولأي سبب ؟

فخلدت ايلينشنا الى الصمت . غير أنها ، اذ رأت أن ضيفها لم يكن مزمعاً الرحيل ، قالت في خشونة :

ـ كفى! ليس لدي متسع من الوقت للحديث معك ، ويحسن بك أن تذهب الى بيتك .

فقال ميشا ضاحكاً وهو ينهض :

ـ ان لديَّ بيوتاً بقدر ما للأرانب من غرف للنوم!

عجباً ، فكأن في الامكان اخافته بمثل هذا الكلام وتلك النعوت! لم يكن من رهافة الحساسية بحيث يتأثر بإهانات امرأة عجوز حاقدة . كان يعلم أن دونيا تكنّ له الحب ، ولم يعنه شيء آخر غير هذا ، بما في ذلك ايلينشنا .

وفي الصباح التالي ، جاء ثانية وحيا ايلينشنا وكأن شيئاً لم يكن ، ثم جلس الى جانب النافذة يراقب كل حركة تقوم بها دونيا .

فجابهته ايلينشنا بقولها دون أن ترد على تحيته :

ـ انك تكثر من زيارتنا .

فاحمر وجه دونيا حنقا وحدجت أمها بعينين ملتهبتين ، ثم ما لبثت أن خفضت بصرها دون أن تفوه بكلمة . ورد ميشا متبسماً :

ـ أنا لم آت لزيارتك ، يا خالة ايلينشنا ، فلا تحرقي نفسك عبثاً .

ـ الأفضل أن تنسى طريق بيتنا بالمرة .

فتساءل ميشا وقد بدا جاداً :

ـ لماذا ، وأين سأذهب ؟ فبرحمة نسيبك ميتكا وشفقته أمسيت وحيداً في هذا العالم ، وليس في امكان المرء أن يظل وحيداً متفرداً ، كالذئب ، في كوخ خال . وسواء رضيت أم أبيت فسأظل أزوركم .

قال ذلك ومدد ساقيه متخذاً له جلسة أكثر راحة . فحدّقت فيه ايلينشنا بثبات : حقاً ، انه لم يكن من الصنف الذي يستطيع المرء أن يقذفه خارج الباب! كان هيكله القوي والطريقة التي رفع بها رأسه وشفتاه المزمومتان تنم عن عناد كعناد الثور...

وبعد أن غادر الدار ، أرسلت ايلينشنا الطفلين الى الفناء واستدارت نحو دونيا قائلة :

ـ إياك أن تدعيه يضع قدمه هنا ثانية! فاهمة ؟

فحدجت دونيا أمها دون أن يطرف لها جفن . وبدا شيء مألوف لدى

جميع آل ميليخوف في عينيها المضيقتين ، برهة من الزمن ، فيما قالت وكأنها تنهش كل كلمة تفوه بها نهشاً : كلا . بل سيأتي! لن تمنعيه! سيأتي بالتأكيد!

ولما لم تستطع السيطرة على زمام نفسها ، غطت وجهها بوزرتها وهرعت خارجة الى السقيفة .

فبقيت ايلينشنا جالسة عند النافذة ، وهي تجر أنفاساً ثقيلة ، وبقيت تهز رأسها في صمت وتحدق بعينين لا تريان في أفق السهب حيث كان هدب من شجيرات الشيح اليافعة ، فضي الألاء تحت نور الشمس ، يفصل ما بين الأرض والسماء .

في وقت مبكر من ذلك المساء ، كانت دونيا وأمها تقيمان ، في صمت وجفاء ، سياجاً منهاراً في حديقة الخضار عند شاطئ الدون ، حينما قدم ميشا ، وتناول المجرفة من يدي دونيا في هدوء وقال :

ـ انك لا تحفرين الى عمق كاف ، ستهب الريح ، وتطيح السياج من جديد . وشرع يعمق الحفر المعدة للأعمدة ، ثم أعانهما على إقامة السياج وربطه بالأعمدة ، وبعدها انصرف . وفي الصباح التالي ، جاء بمجرفتين كانتا قد شحذتا حديثاً ومقبض مذراة ، ووضعها خارج سقيفة آل ميليخوف . وتساءل ، بعد أن حيا ايلينشنا ، في لهجة عملية :

ـ أتنوين حش عشب المرج ؟ الآخرون خرجوا عبر الدون فعلاً .

فلم ترد عليه ايلينشنا ، بل نطقت دونيا بدلاً عنها :

ـ ليس لدينا ما نعبر النهر به . قاربنا ملقى في المأوى منذ الخريف ، وقد يبس خشبه عن آخره .

فقال ميشا لائماً :

ـ كان يجدر بكم أن تضعوه في الماء في الربيع ، ما رأيك بتقييره ؟ أنتم لا تستطيعون تدبير أموركم بدون قارب .

فألقت دونيا على أمها نظرة توسل وترقب . بيد أن ايلينشنا مضت

تعجن العجين وكأن الحديث لم يكن يعنيها في شيء . فسأل ميشا وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تلحظ :

ـ هل لديكم مشاقة قنب ؟

فمضت دونيا الى المخزن وعادت بملء ذراعها من خيوط القنب .

وما أن حلّ وقت العشاء حتى كان ميشا قد أكمل اصلاح القارب . فجاء الى المطبخ وقال :

ـ حسن ، لقد سحبت القارب الى الماء ، وهو الآن يتشبع به . اربطيه الى جذع شجرة وإلا فقد يسرقه بعضهم .

ثم كرر السؤال ثانية :

ـ حسن ، وماذا عن حش الأعشاب ، يا خالة ؟ ليس لدي ما أعمله في الوقت الحاضر .

فقالت ايلينشنا وهي تومىء برأسها الى دونيا :

ـ توجه بالسؤال اليها .

ـ انني أسأل ربة البيت .

ـ في استطاعة أيما انسان أن يرى بأنني لست ربة البيت هنا...

فانفجرت دونيا باكية ومضت الى غرفة الضيوف . فقال ميشا بلهجة حاسمة :

ـ اذاً ، فسأقوم بمساعدتكما . أين عدة النجارة ؟ أريد أن أصنع مجرفة لكم ، فأنا لا أعتقد أن المجارف القديمة بذات نفع .

وذهب الى المأوى ، وهنا شرع ، وهو يصفر ، يجري أسناناً خشبية للمجرفة . ولبث ميشاتكا الصغير يتراقص حوله ويسأله :

ـ اصنع لي مجرفة صغيرة : ياعمّ ميشا ، فليس لديَّ من يصنع واحدة لي . جدتي لا تعرف ، ولا عمتي . أنت الوحيد الذي يستطيع صنعها ، وأنت شاطر في ذلك .

فقال له كوشيفوي ضاحكاً :

ـ سأصنع لك واحدة ، يا سميّي* ، والله سأصنع لك واحدة . ولكن ، ابتعد قليلاً وإلا فقد تصيب نشارة عينك .

وحدّث نفسه متعجباً :

ـ عجباً ، أليس هو شبيهاً بوالده ، هذا الشيطان الصغير! شقة من أبيه! عيناه وحاجباه وثنية شفته ذاتها... غريغوري أنجز عملاً جيداً!

وشرع يصنع مجرفة صغيرة للعب ، بيد أنه لم يستطع اكمال العمل ، فقد ازرقت شفتاه وظهر على وجهه الأصفر تعبير محنق ، ولكنه مستسلم . فتوقف عن الصفير ووضع السكين على الأرض والتوى كتفاه كمن أصابه برد . ثم طلب من ميشاتكا قائلاً :

ـ يا ميخائيل غريغوريفتش ، يا سميّي ، اذهب واجلب لي قطعة من الجوت أو من شيء آخر لأنني أريد أن أتمدد .

فتساءل الصبي مستفهماً :

ـ ولكن ، لأي غرض ؟

ـ أريد أن أمرض .

ـ لماذا ؟

ـ أف من الطريقة التي تلتصق بها بالناس ، مثل الشوكة تماماً ، حان الوقت لكي أكون مريضاً ، وهذا كل ما في الأمر . هاتها بسرعة .

ـ ولكن ، ماذا عن مجرفتي ؟

ـ سأكملها فيما بعد .

وسرت رجفة عنيفة في جسد ميشا فخضته خضاً ، وصارت أسنانه تطقطق . وتمدّد على الزكيبة التي جلبها ميشاتكا ، ثم خلع طاقيته وغطى وجهه بها .

وتساءل ميشاتكا قانطاً :

---

* الاسم الحقيقي لكل من ميشا وميشاتكا هو ميخائيل . فهما سميّان . المترجمون

ـ هل مرضت حقاً ؟
ـ نعم ، أنا مريض الآن .
ـ ولكن ، لماذا ترتجف ؟
ـ هي الحمى تخضني .
ـ ولكن لماذا تطقطق أسنانك ؟

فنظر ميشا بعين واحدة من تحت طاقيته الى سميّه الصغير المزعج ، وابتسم ابتسامة مقتضبة ، ولم يعد يجيبه على أسئلته .

فحدق فيه ميشاتكا مذهولاً ثم عدا الى داخل البيت :

ـ جدتي ، العم ميشا ممدد في المأوى وهو يرتعش ويرتعش حتى يكاد يرقص من الارتعاش .

فألقت ايلينشنا نظرة عبر الشبّاك ، ثم مضت الى المائدة وخلدت الى الصمت تقلب شيئاً ما في فكرها .

فسألها ميشاتكا نافد الصبر وهو يجرجركمْ صدريتها الداخلية :

ـ لم لا تنطقي بشيء ، يا جدتي ؟

فاستدارت ايلينشنا نحوه وقالت في عزم :

ـ يا صغيري ، خذ بطانية واحملها اليه ، الى عدو المسيح ذاك ، لكي يتدثر بها . هي الحمى التي تخضه ، نوع من المرض . هل تستطيع حمل البطانية ؟

ومضت الى الشباك ثانية ، وألقت نظرة على الفناء ، ثم قالت على عجل :

ـ قف ، قف . لا تحملها ، لا حاجة .

كانت دونيا قد دثّرت كوشيفوي بفروتها هي ، وكانت لحظتئذ منحنية عليه وهي تقول له شيئاً ما .

وبعد أن مرت النوبة ، قضى ميشا بقية النهار يعد العدة للحش . وكان جلياً أنه غدا أوهن قوة ، واتسمت حركاته بالفتور والاضطراب ، غير أنه أكمل مجرفة ميشاتكا بأية حال .

وفي المساء ، أعدت ايلينشنا العشاء ، فأجلست الطفلين الى المائدة ، وقالت لدونيا دون أن تنظر اليها :

ـ اذهبي وادعي ذاك ـ ما اسمه ؟ ـ الى العشاء .

جلس ميشا الى المائدة دون أن يرسم اشارة الصليب على نفسه ، وقد تكوّم جسده على المقعد بوهن وكان وجهه ، وقد تلطخ بالعرق الوسخ ، ينم عن ارهاق شديد ، وكانت يده ترتعش قليلاً فيما كان يرفع ملعقته الى شفتيه . وتناول من الطعام قليله على مضض ، وهو يجيل عينيه بين الحين والحين في وجوه الآخرين بنظرات شاردة . الا أن ايلينشنا استبد بها العجب حينما لاحظت عيني «القاتل» الذاويتين تدفآن وتنتعشان كلما حطتا على ميشاتكا الصغير ، فكانت تقدح فيهما لحظة شرارة صغيرة من الاعجاب والمحبة ثم تنطفئ ، وترتسم في زاويتي شفتيه ابتسامة لا تكاد تلحظ . ثم كان يحوّل نظراته عن ميشاتكا فيكتنف سيماءه ، كالظل ، شرود حذر من جديد .

وشرعت ايلينشنا تسترق النظر الى كوشيفوي . ولم تدرك الا آنذاك مدى النحول الفظيع الذي أصابه بنتيجة مرضه . كان عظم الترقوة يلوح واضحاً من تحت قمصلته الرمادية المعفرة ، وكتفاه العريضتان محدبتين ، والعظام تكاد تنفذ خلال الجلد ، فيما بدت جوزة عنقه المشعر نشازاً في رقبته النحيلة الشبيهة برقاب الأطفال . وكانت ايلينشنا كلما أمعنت النظر في «القاتل» وجسمه المحني ووجه الشمعي ، أحست بمزيد من القلق في داخلها ، وكأن شيئاً ما كان يتمزق في أحشائها . وفجأة استيقظت في قلبها شفقة غير متوقعة نحو هذا الرجل الذي كرهته كرهاً شديداً... تلك الشفقة الأمومية التي تعصر القلب عصراً فتلين لها أقوى النساء . واذ عجزت ايلينشنا عن كبح جماح هذا الشعور ، دفعت نحو ميشا بصحن مملوء لبناً وقالت :

ـ كل حتى الشبع بحق الرب! انك من الهزال بحيث يسبب النظر اليك الغثيان... وتعتبر نفسك عريساً!

٣

شرع القرويون يتقوّلون حول كوشيفوي ودونيا . وصادف أن التقت احدى النساء بدونيا عند المرسى فسألتها وفي لهجتها سخرية بينة :

ـ هل استخدمتم ميخائيل أجيراً لديكم ؟ لا يبدو أنه يغادر فناءكم .

أما ايلينشنا ، فكانت ترد بعناد على كل محاولات الاقناع التي كانت تبديها :

ـ مهما طلبتِ لن أزوجك إياه . لن تنالي بركتي!

ولم تحد ايلينشنا عن قرارها الا حينما أعلنت دونيا أنها ستمضي لتعيش مع كوشيفوي ، وبدأت في الحال تجمع ملابسها . فهتفت ايلينشنا مذعورة :

ـ افيقي على نفسك! ماذا سأفعل وحدي مع الطفلين ؟ مهلك ؟

فقالت دونيا بهدوء وهي لا تنفك تخرج حلي صباها من الصندوق :

ـ أنت أدرى ، يا أمي . لكنني لا أود أن أكون موضع تندر القرية .

فلبثت ايلينشنا واقفة لا تقول شيئاً ، وشفتاها تعتملان . بيد أنها أخيراً ، وبعد فترة صمت طويلة ، مشت في اتجاه ركن الأيقونة وهي تحرك قدميها في خطو ثقيل . ثم همست وهي تنزل الأيقونة من موضعها :

ـ حسن ، فليكن ، يا ابنتي . اذا كان هذا هو تفكريك ، فليكن الله في عونك! تعالي هنا...

وفي فرح غامر ركعت دونيا على ركبتيها . فباركتها ايلينشنا ، ثم أضافت الى ذلك قولها في صوت راعش :

ـ لقد باركتني أمي المرحومة بهذه الأيقونة... أواه ، لو قدّر لأبيك أن يراك الآن... أتذكرين ما قاله عن عريسك ؟ يعلم الله كم يشق عليه هذا...

وفي هدوء ، استدارت وخرجت الى السقيفة .

ومهما حاول ميشا أن يقنع الفتاة العنود بأن لا يجري القران في

الكنيسة ، فانها أصرت على رأيها . وأخيراً ، اضطر ميشا الى الرضوخ وهو يصرف بأسنانه . واستعد للاحتفال لاعناً في سريرته كل ما في العالم ، وكأنه كان يتسعد لتنفيذ حكم بالاعدام عليه . وقام الأب فيساريون بالمهمة ليلاً بهدوء في الكنيسة الخالية . وبعد الاحتفال ، هنأ العروسين الشابين وقال في لهجة تهذيبية :

ـ حسن ، أيها الرفيق السوفييتي الشاب ، أرأيت كيف يدور دولاب الحياة ؟ في العام الماضي ، قمت باضرام النار في بيتي بيديك ، سلمته للحريق ـ كما يقولون ـ واليوم كان من نصيبي ان اعقد قرانك وكما يقول المثل «لا تبصق في البئر ، فقد تحتاج الى شرب مائها» . ومع ذلك ، فانني سعيد ، سعيد من صميم قلبي ، لأنك عدت ووجدت طريقك الى كنيسة المسيح .

وبذلك ، طفح كيل ميشا . كان شعوره بالخجل لضعف ارادته وحنقه من نفسه قد جعلاه لا ينبس بكلمة طيلة الوقت في الكنيسة . أما الآن ، فانه صوّب نظرة هائجة نحو القس المبتهج وقال له هامساً كيلا تسمعه دونيا :

ـ مع الأسف ، أنك هربت من القرية يومئذ ، وإلا لأحرقتك مع بيتك ، يا شيطاناً طويل العرف! أتفهم هذا ؟

فحملق القس بعينين رامشتين في ميشا وقد عقدت لسانه الدهشة . غير أن العريس قال في لهجة قوية لزوجته الشابة وهو يسحبها من كمها :

ـ هيا!

واتجه صوب الباب وجزمته العسكرية تقعقع على أرض الكنيسة .

وفي هذا الزفاف الخالي من البهجة ، لم تشرب فودكا ولم تهدر أغان . وفي اليوم التالي شكا بروخور زيكوف ، الذي قام بدور الاشبين ، من ذلك لأكسينيا بقوله وهو لا ينفعك يبصق تقززاً :

ـ حسن ، يا فتاة ، أستطيع أن أقول لك بأنه كان زفافاً بديعاً! في الكنيسة ، همهم ميخائيل بشيء جعل فك القسيس يتدلى . وفي العشاء ،

أتدرين ما الذي تناولناه ؟ دجاج مسلوق ولبن حامض... وليت الأبالسة قدموا لنا قطرة صغيرة من الفودكا! كان يجدر بغريغوري بانتلايفتش أن يرى كيف زوجت أخته! كان سيضرب رأسه! كلا ، يا فتاة ، لقد نلت الكفاية . لن أحضر بعد اليوم أياً من حفلات الزفاف المتسحدثة هذه! ان زواج الكلاب أكثر مرحاً : فعلى الأقل يجز الكلاب شعر بعضهم البعض ، ويحدثون هرجاً ومرجاً . أما هنا ، فلا شراب ولا تصخاب ، لعنة الله على هؤلاء الزناديق! أتعلمين ، لقد انزعجت بعد الزفاف أيما انزعاج حتى أنني لم أذق طعم النوم طوال الليلة . لبثت أحكّ جسمي وكأنهم قد وضعوا لي حفنة من البراغيث تحت قميصي...

منذ اليوم الذي وضع فيه كوشيفوي نفسه في دار آل ميليخوف ، اتخذ كل ما في الفناء اتجاهاً جديداً . ففي غضون مدة قصيرة ، أصلح السياج ونقل عشب السهب بالعربة وكوّمه في ساحة درس الحبوب ، مغطياً أعلاه بالقش . واستعدادا للحصاد ، قام بتركيب منصة وحاجز جديد للحاصدة ، ونظف أرضية ساحة درس الحبوب تنظيفاً دقيقاً تمهيداً للدرس ، وأصلح المذراة القديمة ورتق عدة الخيل ، وذلك لأنه كان يحلم ، في سره ، بمقايضة زوج الثيران بحصان ، وقال أكثر من مرة لدونيا :

ـ يجب أن نجهّز أنفسنا بحصان . ان السير بهذين البرذونين المربوطين الى النير أشبه ما يكون بالسير وراء جنازة .

وذات يوم عثر في المخزن على علبة من دهان قصديري أبيض ولازوردي ، فقرر في الحال طلاء أباجورات الدار التي حال لونها من أثر القدم . وبعد ذلك ، بدا دار آل ميليخوف كأنه استعاد شبابه وهو يطل على الدنيا بشبابيكه المؤطرة باللون الأزرق .

وأثبت ميشا أنه فلاح دؤوب . فكان ، رغم ابتلائه بالحمى ، يعمل ويعمل دون أن ينحيَ أدواته لحظة عن يده . وكانت دونيا تساعده في كل شيء .

في الأيام القليلة الأولى من حياتهما الزوجية غدت دونيا أنضر جمالاً ، بشكل جلي ، ولاح عليها شيء من الامتلاء في الكتفين والردفين . واتسمت عيناها ومشيتها ، وحتى طريقة تصفيف شعرها ، بتعبير جديد . وتلاشت صفة النشاز وعدم الاتساق من حركاتها ، واختفت منها الخفة والحيوية الطفوليتان . وصارت تمعن النظر في زوجها بعينين مولهتين ، مبتسمة رضية ، غافلة عما كان يدور حولها فالسعادة الجديدة لا عين لها .

أما ايلينشنا فقد أمست تشعر ، مع كل يوم يمر ، بوطأة الوحدة التي اكتنفتها ، أثقل وأثقل . لقد غدت طافية على سطح الدار الذي كانت قد قضت فيه كل عمرها تقريباً . كانت دونيا وزوجها يعملان وكأنهما كانا يبنيان عشاً لهما في موقع جديد . لم يكونا يستشيرانها في أيما أمر ، ولم يكونا يسألان موافقتها على أيما شيء مبتكر يدخلانه على الحقل ، حتى أنهما لم يكلّفا نفسيهما عناء استعمال كلمة لطيفة عند الحديث معها . وحينما كانا يجلسان الى المائدة ، كانا لا يزيدان على تبادل بضع جمل تافهة معها ، فكانت ايلينشنا تنفرد من جديد بأفكارها الكئيبة . لم تكسب أية بهجة من السعادة التي غمرت حياة ابنتها ، كما أن وجود رجل غريب في البيت (وقد ظل نسيبها غريباً بالنسبة لها كما كان في السابق) كان يثقل صدرها ويكربه . بل ان الحياة نفسها أمست حملاً ثقيلاً عليها . ففي عام واحد ، فقدت العديد من أعزائها ، وبقيت هي وقد حطمتها الآلام وبان عليها العجز حتى غدت مثيرة للاشفاق . لقد كابدت أحزاناً جمة في حياتها ، أحزاناً فوق طاقة احتمالها . والآن ، لم يعد في مكنتها ابداء المزيد من المقاومة ، وغدت أسيرة وسواس بأن الموت ، الذي كان قد اعتاد على زيارة عائلتها ، سيأتي أكثر من مرة أخرى ليعبر عتبة آل ميليخوف من جديد . والآن ، وقد اطمأنت الى زواج ابنتها لم تعد لديها سوى أمنية واحدة : أن تعيش لترى غريغوري يعود وتسلّم له طفليه ، ثم لتغمض عينيها الى الأبد . فلقد عانت في حياتها الطويلة العسيرة ما يعطيها الحق في نشدان الراحة .

مرت أيام الصيف الطويلة بلا نهاية . كانت الشمس ساطعة خارقة . غير أن لسع ضيائها لم يعد يشيع الدفء في ايلينشنا . كانت تلبث ساعات جالسة على درجات العتبة بدون حراك ، وضياء الشمس يغمرها ، ولكن دون أن يبدو عليها اهتمام بما يجري حولها . لم تعد كعهدها في السابق ، ربة بيت دؤوبة شغالة . لم تكن تشعر برغبة في القيام بأي عمل . كان كل شيء عبثاً ، وغدا يبدو الآن غير ضروري وغير حقيقي . ثم انها لم تعد تملك القوة علي العمل ، كما كانت في الأيام السابقة . كانت كثيراً ما تمعن النظر في يديها اللتين خلّفت سنوات العمل الطويلة شقوقاً فيهما ، وتحدث نفسها :

ـ حسن ، يداي أدتا عملهما... وآن الهجوع... عشت ما عليَّ ، وفي هذا الكفاية . يكفيني أن أبقي حية حتى أرى غريشا...

ولم يحدث الا مرّة واحدة فقط أن استعادت حيويتها السابقة ، ثم ما لبثت أن فقدتها ثانية . كان ذلك حينما مرّ بها بروخور ذات يوم في طريق عودته من فيشنسكايا . فهتف وهو لما يزل على مبعدة :

ـ اعطيني اكرامية ، يا جدة ايلينشنا . لقد جئتك برسالة من ولدك .

فاستحال وجه العجوز شاحباً . ففي ذهنها كانت الرسالة ، أية رسالة ، مقرونة حتما بكارثة جديدة . ولكن ، حينما تلا بروخور رسالة غريغوري القصيرة ، وكان نصفها تقريباً عبارة عن تحيات يرسلها الى أعزائه ، ولم يشر الا في ختامها الى أنه سيحاول القدوم الى القرية في اجازة في الخريف ، ظلت ايلينشنا وقتاً طويلاً عاجزة عن النطق لفرط فرحها . وانهمرت دموع صغيرة ، كالخرز حجماً ، على وجهها الأسمر خلل غضون خديها العميقة . وجعلت تمسحها ، مطأطأة الرأس ، بكم صدريتها الداخلية ويدها الخشنة . لكنها ظلت تنهمر على وجهها ، وتتساقط ، دمعة اثر دمعة ، على وزرتها ، عليها كما يتناثر مطر دافئ مدرار . ولم يكن بروخور يكره دموع النساء فحسب ، بل كان لا يستطيع تحملها . فقال مقطب الجبين محنقاً :

ـ ها أنت أتعبت نفسك الى هذا الحدّ ، يا جدة! ما أكثر ما تسكبن من دموع ، يا معشر النساء! كان يجب أن تكوني سعيدة ، لا أن تبكي! حسن ، أنا ذاهب . الى اللقاء! فليس مما يسرني كثيراً أن أنظر اليك وأنت في هذه الحال .

فتوقفت ايلينشنا عن البكاء واستوقفت بروخور ، ثم تمتمت في لهجة غير مفهومة وهي تخرج من الصندوق قنينة الفودكا ، كانت قد حفظتها زمناً طويلاً :

ـ هذه اكراميتي على هذا النبأ المفرح ، يا عزيزي... كيف يمكنني أن أدعك تذهب على هذا النحو ؟ مهلاً... وسأتضيفك...

فقعد بروخور ومسّد شاربه . وسألها :

ـ أتشاركينني بقدح ، ما دمت سعيدة الى هذا الحد ؟ على أنه ما لبث أن حدث نفسه قلقاً :

ـ ها هو ابليس ركب لساني ثانية! ستمضي وتأخذ نصيبها ، وليس في القنينة من الفودكا البيتية ما يكفي لشمة...

بيد أن ايلينشنا رفضت . طوت الرسالة في اعتناء ووضعتها على رف الأيقونات . غير أنها ، وبعد أن فكرت في الأمر ثانية ، لم تلبث أن رفعتها من جديد ، وأمسكت بها في يديها بعض الوقت ، ثم دستها في صدرهاوضغطتها بثبات على موضع قلبها .

وحينما عادت دونيا من الحقول . جعلت تتلو الرسالة المرة تلو المرة ، وأخيراً ابتسمت وتنهدت قائلة :

ـ أواه ، ليته يعود بسرعة! لكم تغيرت ، يا أمي!

فأخذت ايلينشنا الرسالة منها ، في حركة تنم عن شيء من الغيرة ، وأخفتها ثانية في صدرها وقالت مبتسمة وهي تنظر الى ابنتها بعينين متألقتين نصف مغمضتين :

ـ حتى الكلاب لم تعد تنبح عليّ ، فأنا عديمة النفع تماماً هذه الأيام ، لكن ولدي الأصغر تذكّر أمه! ما أحلى كتابته! ويسميني باسمي الكامل ،

أيضاً! أنحنى اجلالاً لك ، ياوالدتي ـ هكذا يقول ، ـ وللطفلين أيضاً . ولم ينسك أنت يا دونيا... حسن ، ما الذي تتضاحكين منه ؟ أنت حمقاء ، حمقاء فعلاً!

ـ عجباً ، أمي ، ألا أستطيع أن أبتسم ؟ ولكن أين ذاهبة ؟

ـ ذاهبة الى الحديقة لعزق شيء من البطاطس .

ـ سأفعل ذلك بنفسي غداً . عليك أن تبقي في الدار . كنت دائماً تتشكين من المرض ، واذا بك الآن تجدين عملاً تقومين به!

فقالت ايلينشنا معترفة :

ـ لا ، أنا ذاهبة... أنا سعيدة وأحب أن أنفرد بنفسي . وبحركة فتية ناشطة ، عقدت عصابتها على رأسها .

وفي طريقها الى الحديقة عرّجت على دار أكسينيا . في البداية ، ومن قبيل مقتضيات الرزانة ، تحدثت عن أشياء عامة . وبعد ذلك أخرجت الرسالة .

ـ ولدنا أرسل رسالة اليَّ . أسعد أمه ، فهو يعد بالمجيء الينا في اجازة . هي ذي ، يا جارة ، اقرئيها وسأستمع اليها ثانية .

وغب ذلك ، غدا من واجب أكسينيا أن تقرأ الرسالة مرة اثر مرة . كانت ايلينشنا تأتي في المساء ، فتخرج الظرف الملفوف بمنديل في اعتناء وتطلب من أكسينيا متنهدة :

ـ اقرئيها ، يا عزيزتي أكسينيا . اليوم أشعر بضيق في قلبي ، وقد رأيته في منامي صغيراً جداً ، مثلما كان أيام ذهابه الى المدرسة!

وبمرور الأيام ، بدأت الكلمات المكتوبة بقلم الرصاص تمحى ، ولم يعد بالمستطاع تمييز بعضها . لكن ذلك لم يؤثر على أكسينيا . فقد قرأت الرسالة مرات كثيرة حتى حفظت محتواها عن ظهر قلب . وبعد ذلك بزمن ، وحينما بليت وتمزقت الورقة الخفيفة ، جلعت أكسينيا تروى لايلينشنا بلا تردد جميع ما حوته الرسالة حتى سطرها الأخير .

بعد أسبوعين بدأت ايلينشنا تستشعر انحرافاً في صحتها . كانت دونيا منهمكة بدرس الحبوب ، فلم تشأ العجوز أن تلهيها عن العمل ، بيد أنها لم تفلح حتى في طبخ الطعام بنفسها .

وقالت لابنتها :

ـ لن أنهض من الفراش اليوم . دبروا حالكم بأنفسكم على نحو ما .

ـ لماذا ، ما الذي يؤلمك ، يا أمي ؟

فسوّت ايلينشنا الطيات في صدريتها الداخلية القديمة بيدها ، وأجابت دون أن ترفع عينيها :

ـ كل جسمي يتوجع... كأن كل ما في داخلي قد ضرب حتى أمسى كاللهب... في شبابي ، اعتاد والدك المتوفي أن يتهيج فيضربني... وكانت قبضتاه حديديتين... فكنت أرتمي على الفراش أسبوعاً كالميتة . وهذا هو بالضبط ما أشعر به الآن . كل ما في داخلي يبدو مهشماً ، وكأن بدني كله قد جلد بالسوط .

ـ أترغبين أن أرسل ميخائيل لاستدعاء الممرض ؟

ـ ما حاجتي اليه ؟ سأنهض على نحو ما .

وفي اليوم التالي ، نهضت بالفعل وخرجت الى الفناء ، ولكنها عادت الى الفراش مع حلول المساء . تورّم وجهها قليلاً ، كما ظهرت أكياس مائية تحت عينيها . وحدث خلال الليل أن أقامت نفسها على ذراعيها عدة مرات ، رافعة رأسها من الوسائد المكومة ، تجر أنفاساً متلاحقة وتعاني من نوبات انقطاع النفس . ثم تخلى عنها الشعور بالاختناق . وصار في مستطاعها التمدّد على ظهرها في هدوء ، بل النهوض من على السرير . وقضت عدة أيام في حالة من الهدوء والتفرد . كانت تميل الى البقاء وحيدة ، وحينما كانت أكسينيا تأتي لزيارتها كانت تجيب على أسئلتها باقتضاب وتتنفس الصعداء حين تغادرها . وشعرت بالارتياح لقضاء الطفلين معظم النهار في الخارج ولأن دونيا كانت لا تدخل الى غرفتها الا لماماً ولا تضايقها

بالأسئلة . لم تعد في حاجة الى أية شفقة أو عزاء . وقد حان وقت أحسّت خلاله برغبة جامحة في البقاء وحيدة ، لكي تستعيد الكثير مما تصرّم من حياتها . فاستلقت ساعات مغمضة عينيها نصف اغماضة ، ومن غير أن تنبعث منها حركة ، الا من أصابعها المتورمة وهي تلملم البطانية . وفي خلال هذه الساعات ، مرت بخاطرها حياتها كلها .

لقد أذهلها أن تتكشف تلك الحياة عن مدى قصرها وتفاهتها ، وعن مدى المرارة والكآبة اللتين انطوى عليهما جزء كبير منها ، وكم من تلك الحياة عافت نفسها استعادة أيامها . ولسبب من الأسباب ، اتجهت معظم ذكرياتها وأفكارها ناحية غريغوري . ربما لأنها لم تعرف معنى التحرر من الخوف والقلق عليه طوال كل هذه السنوات منذ اندلاع الحرب ، ولأنه كان السبب الوحيد الذي يشدها الى هذه الحياة . أو لعل حنينها لولدها الأكبر وزوجها قد أصابه الخدر ، ذوى مع الأيام ، لأنها لم تكن تتذكرهما الا نادراً وبدا أنها كانت لا تراهما الا خلل سديم رمادي . كما أنها لم تكن تستعيد شبابها وحياتها الزوجية لا على مضض . فلم يكن ثمة داع لذلك كله ، اذ كان قد انحسر نحو البعيد البعيد ، ولم يعد يجلب مسرة ولا عزاء . وحينما كانت تعود بذكرياتها الى الماضي يكان فكرها يظل ثابتاً واضحاً . على أن ذكرياتها عن « ولدها الأصغر » كانت على درجة أشد من الوضوح ، بل تكاد تلمسها باليد . وكانت ما أن تشرع في تذكره حتى تتسارع ضربات قلبها ، ثم يعاودها الشعور بالاختناق ، وتمسي سحنة وجهها قاتمة ، وتأخذها غيبوبة طويلة . ولكن ، ما أن تستعيد وعيها حتى تتجه أفكارها اليه من جديد . لم تكن بقادرة على نسيان ولدها الأخير...

ذات يوم ، كانت مستلقية في غرفة الضيوف . وكانت شمس الظهيرة تغمر الدنيا في الخارج بشعاعها . وفي طرف السماء الجنوبي كانت غمائم بيض ، نشرتها الريح ، تطفو في جلال ومهابة عبر الزرقة الباهرة . ولم يكن هناك ما يقطع السكون الكئيب سوى طنين الجنادب الكسول الرتيب . ففي

الخارج ، تحت النافذة مباشرة ، كانت ثمة حشائش متكومة على أساس البيت ـ حشيش اوزة شبه ذابل مختلط بنجيل وشوفان بري ـ لم تكن الشمس قد أذوتها بعد . وفي ظل هذه الحشائش وجدت الجنادب لها ملجأ . فلبثت ايلينشنا تتسمع الى سقسقتها الموصولة ، وتتشمم فوح الحشائش المستدفئة بحرارة الشمس ينفذ الى داخل الغرفة . واستطاعت أن تلقي نظرة خاطفة على سهب آب اللهاب ، وجذامة الحنطة الذهبية ، والسماء اللازوردية المتوهجة وقد تغلّفت بضبابة رمادية بلون الحمام .

ورأت في وضوح الثيران ترعى عند حدود الحقل المغطاة بالشيح ، والى العربة وظلتها الممدودة عليها . واستمعت الى طنين الجنادب المنكسر ، واستنشقت رائحة الشيح المرة الغامرة... ورأت نفسها شابة ، صحيحة البنية ، جميلة ، تمضي الى هناك ، مسرعة خطاها نحو المضرب . وجعلت جذامة الحنطة تخشخش عند قدميها وتخز ربلتي ساقيها العاريتين ، وعلى ظهرها جففت الريح اللاهبة قميصها المبتل بالعرق والمدسوسة أذياله في تنورتها ، وأحرقت عنقها . واجتاح وجنتيها فيض قرمزي ، ونتج عن تدفق الدم على رأسها رنين خفيف في أذنيها . وبذراع مطوية واحدة أسندت ثدييها الثقيلين الممتلئين لبناً ، وحينما تناهى الى سمعها صراخ طفل باك أسرعت خطاها وفكت زر ياقة قميصها .

وارتعشت شفتاها الملفوحتان ، وابتسمتا ، فيما رفعت غريشا الصغير الأسمر من المهد المعلق تحت العربة . فأمسكت بين أسنانها بخيط الصليب المبلل بالعرق بعيداً عن رقبتها ، وأسرعت تعطيه ثديها ، وهي تهمس خلال أسنانها المصكوكة :

ـ يا حبيبي . يا ولدي الصغير! يا ولدي الحلو!... لقد تركتك أمك تتلوى من الجوع...

فجعل غريشا الصغير ، وهو لا يزال ينشج مستاء ، يمص حلمة الثدي . ويعضها عضاً مؤلماً بلثتيه الصغيرتين . وكان يقف الى جانبها والده الشاب

ذو الشارب الأسود يشحذ منجلاً . ومن تحت أهدابها المسبلة ، رأت الى ابتسامته والبياضين المزرقين لعينيه المتلامعتين . وتعسرت أنفاسها من شدة الحرّ ، والعرق ينهمر من جبينها ويدغدغ وجنتيها ، ثم ذوى الضياء ، وذوى من أمام عينيها...

أيقظت نفسها من الحلم ، ومرت بيدها على وجهها المبلل بالدموع ، ثم لبثت ساكنة ، تعذبها نوبة اختناق عنيفة ، وتغيب عن الوعي بين الحين والحين .

في ساعة متأخرة من ذلك المساء ، وحينما كانت دونيا وزوجها قد ذهبا الى سريرهما ، جمعت البقية الباقية من حولها ونهضت ثم خرجت الى الفناء . وكانت أكسينيا في الخارج تبحث عن بقرتها التي كانت قد انفصلت عن القطيع ، وبينما كانت عائدة الى منزلها شاهدت ايلينشنا تسير في خطى بطيئة مترنحة صوب ساحة درس الحبوب . فتساءلت أكسينيا في سريرتها : ـ ماذا تفعل هناك ، وهي المريضة ؟ ـ واسترقت الخطى حتى بلغت السياج الذي يحد ساحة درس الحبوب العائدة لآل ميليخوف ، ونظرت هناك . كان البدر كاملاً ، ونسيم يهب من ناحية السهب ، وكداس القش يلقي ظلاً كثيفاً على الساحة الجرداء الصقيلة من أثر الحادلات . وكانت ايلينشنا تسند نفسها بكلتا يديها على السياج ، محدقة في السهب حيث كانت نار مضيئة أشعلها الحاشون تتلألأ مثل نجمة صغيرة نائية منيعة . واستطاعت أكسينيا أن تشاهد بوضوح وجه العجوز المنتفخ وقد أضاءه نور القمر المائل للزرقة ، وخصلة شعرها الشائبة المنفلتة من تحت شالها الأسود .

لبثت ايلينشنا وقتاً طويلاً تحدق في السهب المعتم ، ثم نادت غريغوري بهدوء ، وكأنه كان واقفاً الى جوارها :

ـ غريشا! يا عزيزي! يا ولدي الحبيب!

وخلدت الى الصمت برهة ، ثم قالت بصوت مغاير ، خفيض ، أجش :

ـ يا روح دمي!

فسرت رعشة في أوصال أكسينيا ، واعتصرها شعور باللهفة والخوف معاً . فتراجعت في الحال عن السياج ومضت الى داخل بيتها .

في تلك الليلة ، أدركت ايلينشنا أن أجلها قد دنا ، وأن الموت كان في انتظارها عند سريرها . وفي الفجر أخرجت قميص غريغوري من الصندوق ، فكورته ووضعته تحت وسادتها . كما أعدت ملابس القبر والقميص الذي كانت سترتديه بعد أن تكون قد لفظت نفسها الأخير .

وفي الصباح التالي ، دخلت دونيا لترى أمها كالعادة ، فتناولت ايلينشنا قميص غريغوري باعتناء من تحت الوسادة ومدت به يدها الى دونيا دونما كلمة . فتساءلت دونيا مستغربة :

ـ ما هذا ؟

فأجابت ايلينشنا بصوت واهن :

ـ قميص غريشا... خذيه الى زوجك ، ودعيه يرتديه . لابد أن قميصه القديم قد تعفّن من أثر العرق .

فلاحظت دونيا تنورة أمها السوداء وقميصها وخفيها على المصطبة ـ وهي الملابس التي يكسى بها الجسد حينما يرسل في رحلته الطويلة ـ وشحب وجهها :

ـ فيم هيأت هذه الأشياء ، يا أمي ؟ أبعديها عنك ، بحق المسيح! فليباركك الله ، لم يحن الوقت بعد لتفكري بالموت!

فأجابت ايلينشنا همساً :

ـ كلا ، لقد آن أجلي... جاء دوري... اعتني بالطفلين ، ارعيهما حتى يعود غريغوري... أستطيع أن أرى الآن بأنني لن أعيش حتى أراه... أواه ، لن أعيش حتى أراه...

واستدارت ايلينشنا ناحية الجدار كيلا ترى دونيا دموعها ، وغطت وجهها بعصابتها .

ماتت غب ذلك بثلاثة أيام . فقامت عجائز أخريات بغسل جسدها

والباسها ملابس الدفن وتمديدها على المائدة في غرفة الضيوف . وفي المساء جاءت أكسينيا لتودع الراحلة ، فوجدت مشقة في التعرف على ملامح ايلينشنا الأنوف الجلدة القديمة في هذا الوجه الجامد الجميل لهذه العجوز العزيزة . وفيما كانت أكسينينا تلمس الجبهة الصفراء الباردة بشفتيها ، لاحظت خصلة الشعر الشائبة العنود المعهودة منفلتة من تحت العصابة البيضاء ، وحلقة أذنها الصغيرة المدورة ، كحلقة أذن امرأة شابة .

أخذت أكسينيا الطفلين الى بيتها بموافقة دونيا ، وكانا قد أمسيا صامتين فزعين ازاء هذا الموت الجديد . فأطعمتهما وأخذتهما الى سريرها معها . وغمرها احساس غريب فيما كانت تحتضن طفلي الرجل الذي أحبته ، هذين الجسمين الصغيرين وقد تكوم كل منهما على جانب منها . وشرعت تقص عليهما ، في نغم رقيق ، حكايات جن تذكرتها من أيام طفولتها بغية صرف ذهنهما عن التفكير بجدتهما الراحلة . وحكت عليهما قصة اليتيم الفقير فانيوشكا ، في صوت منغم هادىء :

أيتها البجعة
احمليني
على جناحيك الأبيضين
احمليني بعيداً
الى أرض آبائي
إلى أرض آبائي الحبيبة...

وقبل أن تتم الحكاية ، سمعت الطفلين يجران أنفاساً منتظمة هادئة . كان ميشاتكا مستلقياً على ظهره ، وقد ألصق وجهه بكتفها . فأراحت أكسينينا بحركة من كتفها رأسه الصغير المائل الى وراء الى وضع مريح ، وداهمها فجأة حنين عنيف لا يرحم ، حتى أحست بغصة تأخذ بخناق

بلعومها . فانفجرت في بكاء مرير شديد ارتج لنشيجها بدنها كله . بيد أنها لم تستطع حتى مسح دموعها : فطفلا غريغوري نائمان بين ذراعيها ، ولم تود أن توقظهما .

٤

أصبح كوشيفوي ، بعد وفاة ايلينشنا ، سيد الدار الأوحد بلا منازع . وكان طبيعياً أن يعكف ، بحماسة أشد ، على أحياء الحقل وتوسيعه ، بيد أنه في واقع الحال كان بعيداً كل البعد عن هذا الاتجاه . فمع كل يوم يمر كان فتوره ازاء العمل يتزايد شيئاً فشيئاً . وغدا يكثر من الخروج وقضاء الأماسي جالساً في السقيفة حتى يوغل الليل ، يدخن السكائر ويقلّب أمراً ما في فكره . ولم تستطع دونيا الا أن تلاحظ التغيير الذي طرأ على زوجها . وحدث أكثر من مرة أن رأت ميشا ، والعجب يأخذها ، يلقي بالفأس أو المسحاة أرضاً فجأة ولغير ما سبب جلي ، ويجلس على الأرض ابتغاء للراحة ، وهو الذي كان يعمل في السابق دون أدنى اهتمام بنفسه . وحدث الشيء نفسه في الحقول حينما كانا يبذران الذرة الشتوية . كان يبذر سافتين أو ثلاثاً ثم يوقف الثورين ، ويلف سيكارة ويقتعد الأرض المحروثة معقود الحاجبين ، زمناً ليس بالقصير .

فكانت دونيا ، التي ورثت من أبيها فطنته العملية ، تحدث نفسها في قلق :

ـ لم يقاوم طويلاً... إما أنه مريض ، أو كسول لا غير . لن أحصل الا على المتاعب من هذا الزوج! قد يحسب المرء أنه عائش مع غرباء . يدخن نصف النهار ويتمدد في نصفه الآخر ، ولا شيء للعمل... يجب أن أكلمه في الأمر ، بطريقة غير مباشرة كي لا أقلقه ، وإلا فإنه اذا استمر في العمل على هذا المعدّل فلن نستطيع أن نجرف العوز الى خارج البيت بمجرفة...

وهكذا ، توجهت دونيا اليه بالسؤال ذات يوم ، في حذر :

ـ انك لست كما اعتدت أن تكون ، يا ميشا ، هل الحمى هي التي تنال منك ؟

فردّ ميشا محنقاً :

ـ ولم الحمى ؟ الحياة مملة هنا بما فيه الكفاية ، حتى بدون حمى!

ولفح الثورين بالسوط ومضى وراء الباذرة .

ورأت دونيا أن مواصلة أسئلتها لن تكون تصرفاً حكيماً . فقبل هذا وذاك ، لم يكن من حق المرأة اصدار التعليمات الى زوجها . وانتهى الأمر عند ذاك الحد .

بيد أنها كانت مخطئة في افتراضاتها . فقد كان السبب الوحيد الذي يحول دون اكباب ميشا على العمل بذات الاندفاع السابق هو اعتقاده ، الذي تركز لديه مع مرور الأيام ، بأنه كان قد استقر في قريته قبل الأوان بوقت طويل . وكان يحدث نفسه حانقاً حينما كان يقرأ تقارير الحرب في الجريدة الاقليمية أو يستمع في الأماسي الى القصص التي يرويها القوزاق الحمر المسرّحون :

ـ لقد تسرعت بعض الشيء في التحول الى الفلاحة . كنت مستعجلاً أكثر مما ينبغي...

على أن الذي كان يمضّه على وجه خاص موقف أبناء قريته . كان عدد منهم يقول بصراحة ان أمر الحكومة السوفييتية سينتهي قبل حلول الشتاء ، وان فرانجل كان قد زحف من تافريا ، بصحبة ماخنو ، وانه قد اقترب من روستوف فعلاً ، وأن الحلفاء قد أنزلوا في نوفوروسيسك قوة استطلاعية كبيرة . وراحت الشائعات تنتشر في القرية ، وكل منها أخرق من سابقتها . أما القوزاق الذين كانوا قد عادوا من معسكرات الاعتقال او المناجم ، فقد سمنت أجسامهم على الاطعمة البيتية خلال الصيف ، وانزووا بأنفسهم يشربون الفودكا في الليالي ، ويتبادلون أحاديثهم الخاصة فيما بينهم ، واذا التقوا بميشا سألوه في لامبالاة مقنّعة :

ـ أنت تقرأ الصحف ، ياكوشيفوي . هلا أخبرتنا عن فرانجل ، وهل سيقضون عليه عما قريب ؟ وهل حق أم أنه مجرد كلام أن الحلفاء يشددون علينا من جديد ؟

ذات يوم أحد ، بعد الظهر ، عرّج بروخور زيكوف على دارهم . كان ميشا قد عاد للتو من الحقول وكان واقفاً بالقرب من السقيفة يغتسل ، فيما كانت دونيا تصب الماء على يديه من دلو تحمله وهي تنظر الى رقبة زوجها النحيفة الملفوحة ، وقد علت شفتيها ابتسامة . فحياهما بروخور وقعد على درجة السقيفة السفلى ، ثم سأل :

ـ أحسب أنكما لم تتسلما أي خبر عن غريغوري بانتلاييفتش ؟

فأجابت دونيا :

ـ كلا . لم يكتب لنا .

فقال ميشا وهو يمسح وجهه ويديه وينظر في عيني بروخور دونما ابتسام :

ـ وهل أنت شديد الشوق إليه ؟

فتنهد بروخور وسوى قميصه الأجوف ثم قال :

ـ بالطبع . فلقد خدمنا طوال الوقت معاً .

ـ وهل تفكر بالاستمرار الآن ؟

ـ ماذا ؟

ـ عجباً . بالخدمة!

ـ انتهت أيام خدمتي معه .

ـ لكنني حسبت بأنك تتلهف في انتظاره لتخدم من جديد . وتستأنف القتال ضد الحكومة السوفييتية...

فقال بروخور بلهجة مستاءة :

ـ عبثاً أن تتكلم على هذا النحو ، يا ميخائيل .

ـ ولم لا ؟ أنا أسمع شتى الأحاديث تتناقلها الألسن في القرية .

ـ وهل سمعتني أتحدث هكذا ؟ أين سمعت هذه الأحاديث ؟

ـ ليس أنت وحسب ، ولكن الرهط الذي على شاكلتك وشاكلة غريغوري ، الذين ينتظرون ربعهم ، على أحر من الجمر .

ـ أنا لا أنتظر « ربعهم » فالكل سواسية لدي .

ـ هذه هي المصيبة بالضبط ، أن يكون الكل سواسية لديك . مهما يكن من أمر ، تعال ندخل الى البيت ، ولا تستأ مني ، فقد كنت أمزح .

وارتقى بروخور الدرجات على مضض ، وهو يقول فيما اجتاز العتبة :

ـ ان نكاتك ، يا أخي ، لا تبعث كثيراً على الضحك... يجب أن يُنسى الماضي . ولقد دفعت ثمن ماضيَّ .

فقال ميشا في لهجة جافة فيما كان يجلس الى المائدة :

ـ ليس بالامكان نسيان كل الماضي . ابق معنا لتناول العشاء .

ـ شكراً ، لا شك أنه ليس بالامكان نسيان كل الماضي . وعلى سبيل المثال ، أنا فقدت يدي ولسوف يسرني أن أستطيع نسيان ذلك . ولكنه شيء لا يمكن نسيانه . انها تذكرني كل ثانية بنفسها .

وقالت دونيا لزوجها فيما كانت تعدّ المائدة ، دون أن تنظر اليه :

ـ هل من رأيك أن أي شخص كان مع البيض لا يمكن أن يصفح عنه ؟

ـ عجباً ، وماذا ظننت أنت ؟

ـ حسن ، ظننت بأن كل من ينبش الماضي تقلع عيناه ، كما يقولون .

فقال ميشا في لهجة باردة :

ـ قد تجدين هذا القول في الانجيل . أما في رأيي ، فان على الرجل أن يتحمل مسؤولية افعاله .

فعلّقت دونيا على ذلك في هدوء :

ـ لكن الحكومة لم تقل شيئاً مثل هذا .

ولم تشأ أن تشتبك مع زوجها بحضور قوزاقي آخر . بيد أنها كانت مستاءة في قرارة نفسها من ميشا لمزاحه السمج . كما بدا لها ذلك . مع

بروخور وللعداء الذي كان يبديه صراحة ضد أخيها .

ـ الحكومة لا تقول شيئاً لك . فليس لديها ما تتحدث به معك . ولكن يجب محاسبة أولئك الذين خدموا مع البيض وفقاً لأحكام القانون السوفييتي .

فتساءل بروخور :

ـ وهل سيتعين عليَ أن أحاسب عن خدمتي معهم ، أنا أيضاً ؟

ـ أنت لم تكن سوى عجل . نلت شيئاً من الكلأ في المرعي ، وعدت الآن الى حظيرتك! لا ، لن يستجوب المراسلون . أما غريغوري فيسأل حينما يعود . سنستجوبه عن الانتفاضة .

فتساءلت دونيا وعيناها تتطايران شرراً فيما كانت تضع قدحاً من اللبن الحامض على المائدة :

ـ ومن سيقوم بالاستجواب ، أنت ؟

فأجاب ميشا بهدوء :

ـ أجل ، أنا الذي سأستجوبه أيضاً .

ـ ليس هذا من شأنك... سيكون هناك ما يكفي من المستجوبين بدونك . لقد استحق العفو بخدمته في صفوف الجيش الأحمر...

وارتعش صوت دونيا ، فجلست الى المائدة تلملم زركش وزرتها بين أصابعها . بيد أن ميشا استأنف كلامه وكأنه لم يلاحظ انفعال زوجته :

ـ سيكون من الممتع لي أن أقوم بشيء من الاستجواب كذلك... أما فيما يتعلق بالعفو عنه ، فسنرى... سنعيد النظر في مدى استحقاقه لهذا العفو . لقد سفك الكثير من دمائنا . وسنزن الكفتين لنرى دم أيهما أثقل...

كان هذا أول خلاف يقع بين ميشا ودونيا منذ زواجهما . فخيّم على المطبخ صمت ثقيل . وتناول ميشا اللبن في صمت ، ماسحاً شفتيه بمنشفة صغيرة بين الفينة والفينة ، فيما جعل بروخور يدخن سيكارة ويختلس النظر الى دونيا . ثم طفق يتحدث عن شؤون الحقل . ولبث نصف ساعة اخرى ، ثم قام وقال فيما كان يتأهب للخروج :

ـ كيريل كروموف عاد ، هل سمعت ذلك ؟
ـ كلا . من أين ؟
ـ من صفوف الحمر . وكان في جيش الخيالة الأول ، أيضاً .
ـ أهو الذي كان يخدم تحت امرة مامونتوف ؟
ـ هو .
فضحك ميشا متهكماً :
ـ كان مقاتلاً طيباً!
ـ طيباً جداً حينما كان الأمر يتعلق بالسلب والنهب . ان له يداً مطواعة لمثل هذه الأشياء .
ـ يقال انه كان يضرب الأسرى بالسيف بلا رحمة . يقتلهم من أجل جزمهم . يقتلهم لمجرد الحصول على جزمهم ، ولا شيء آخر .
فأكد بروخور ذلك بقوله :
ـ هكذا يقال .
فتساءل ميشا في لهجة مفتعلة الرقة :
ـ وهل يجب العفو عنه أيضاً ؟ عفا الله عن أعدائه وأمرنا بفعل الشيء نفسه ، أم ماذا ؟
ـ ليس من اليسير الاجابة عن هذا... ولكن ، ماذا تستطيع أن تفعل به ؟
فضيّق ميشا عينيه وقال :
ـ حسن ، سأفعل الشيء المناسب... سأفعل ما يزهق روحه! ولن ينجو من ذلك ، أبداً! ان «تشيكا»* الدون موجودة الآن في فيشنسكايا ، ولسوف يطوقونه بأذرعهم المتلهفة .
فابتسم بروخور وقال :
ـ صدق من قال ألا شيء غير القبر يقوّم ظهر الأحدب! لقد عاد

* التشيكا : هيئة تحقيق سوفييتية في ذلك الوقت . المترجمون

بأسلاب حتى من الجيش الأحمر . كانت زوجته تتباهى أمام زوجتي أنه قد جلب لها معطفاً نسائياً ، ولا أدري كم ثوب ، وأشياء أخرى أيضاً . كان في لواء «ماسلاك» ، واتخذ طريقه الى القرية من هناك . وأحسب أنه لا بد أن يكون قد فرّ من الجيش . وقد عاد بأسلحته معه كذلك .

فسأله ميشا :

ـ أي نوع من الأسلحة ؟

ـ لا يخفى عليك ذلك : قربينة ومسدس ولربما أشياء أخرى .

ـ هل تدري ان كان قد ذهب الى مقر السوفييت لتسجيل نفسه ؟

فضحك بروخور ولوّح بيده :

ـ ليس بإمكانك أن تجرّه الى هناك حتى بأنشوطة جرّ الماشية من قرونها! أنا لا أستطيع إلا أن أتصور بأنه على وشك الفرار . سينسل من بيته إن لم يكن اليوم ، فغداً . والآن نعود الى موضوعنا : ان كيريل يفكر بمعاودة القتال ، كما تدل على ذلك جيمع الدلائل ، أما فكرتك عني فهي مغلوطة . كلا ، يا صاحبي ، لقد قمت بما يكفيني من القتال . وبلغ سأمي من هذا النمط الى حلقومي .

ثم انصرف بروخور بعد ذلك بقليل . ولم يلبث ميشا أن خرج هو أيضاً . فأطعمت دونيا الطفلين ، وكانت تتهيأ للنوم حينما رجع ميشا وكان يحمل بيديه شيئاً ما ملفوفاً بزكيبة . فتساءلت دونيا في غلظة :

ـ أين كنت ، بحق الشيطان ؟

فأجاب ميشا مبتسماً ابتسامة ودوداً :

ـ كنت آتى بصداقي!

فكشف الغطاء عن بندقية ملفوفة باعتناء ، وكيس منتفخ بخراطيش الرصاص ومسدس وقنبلتين يدويتين . فوضعها جميعاً على مصطبة وصب باحتراس قليلاً من البارافين في صحن .

فسألته دونيا ، مشيرة الى الأسلحة بحاجبيها :

ـ من أين جئت بكل هذه ؟

ـ انها لي . لقد جلبتها معي من الجبهة .

ـ فأين كنت تخفيها ، اذن ؟

ـ لا عليك . كانت في حرز حريز .

ـ حسن ، لا بد لي من القول بأنك مغرم بالاحتفاظ بالأسرار لنفسك... لم تشر إليها بكلمة . تخفي الأشياء حتى عن زوجتك ؟

فقال ميشا ، متصنعاً ابتسامة لامبالية ، ومتوددا لدونيا :

ـ ولماذا يتعين عليَّ أن أخبرك ، يا دونيا ؟ فما هذا من شأن النساء . دعيها نائمة هنا ، وليس مما يعيب أن أحتفظ بها الى جانب احتفاظي بك ، يا فتاتي!

ـ ولكن علام جئت بها الى داخل الدار ؟ أنت قوزاقي ملتزم بالقوانين... وتعرف كل شيء... ولكن ، ألا تعرض نفسك للعقاب بسببها ؟

فأمسى وجه ميشا قاسي السيماء ، وقال :

ـ أنت حمقاء! حينما يعود كيريل كروموف بأسلحته ، فثمة خطر على الحكم السوفييتي... أما حينما أعود أنا بها ، فليس ذلك سوى مكسب للحكم السوفييتي . أتعرفين ؟ من سيحاسبني ؟ أنت تهرفين بما لا يعلمه إلا الله . اذهبي الى السرير ونامي .

كان قد توصل الي الاستنتاج السليم الوحيد في رأيه : ما دام البيض الذين لم يتم القضاء عليهم نهائياً يعودون بأسلحتهم ، فعليه هو أن يحترس . فنظف البندقية والمسدس تنظيفاً دقيقاً ، وما أن انبلج ضوء النهار التالي حتى تهيأ للمضي الى فيشنسكايا سيراً على قدميه .

وبينماكانت دونيا تضع الزاد في خرجه . قالت في مرارة وغضب :

ـ أنت دائماً تخفي شيئاً ما عني! قل على الأقل ، أين أنت ذاهب ولماذا ، ماذا تسمى هذه الحياة ، بحق الشيطان ؟ حسبه أن يتهيأ للذهاب ، ولا يمكن للمرء أن يستل كلمة منه! أأنت زوجي أم زرّ في قميصي ؟

ـ أنا ذاهب الى فيشنسكايا ، الى اللجنة . فماذا تريدين اخبارك غير ذلك ؟ ستعرفين كل شيء حينما أعود .

ومضى ميشا نازلاً حدر الدون ، وهو يحمل خرجه الى جنبه ، ثم ركب في القارب وطفق يجذّف مسرعاً صوب الضفة الأخرى .

* * *

وفي فيشنسكايا ، قال الطبيب لميشا في اقتضاب بعد أن فحصه :

ـ يا رفيقي العزيز ، أنت لا تصلح للخدمة في صفوف الجيش الأحمر . الملاريا لاكتك لوكاً . ويجب أن تتعالج وإلا فإن حالتك ستزداد سوأ . إن الجيش الأحمر ليس بحاجة الى من هم على شاكلتك .

ـ على أية شاكلة ، اذن ؟ لقد خدمت طوال سنتين ، أما الآن فلا حاجة اليَّ ، أليس كذلك ؟

ـ من نحتاجهم ، أولاً وقبل كل شيء ، رجال أصحاء . استرجع صحتك ، وستكون صالحاً للخدمة آنذاك . خذ هذه الوصفة وستحصل على الكينين من الصيدلي .

ـ هكذا!

وارتدى ميشا قميصه وكأنه يضع طوقاً على حصان جامح ، وبدا غير قادر على ادخال رأسه من الفتحة . وزرر بنطلونه في الشارع واتجه مباشرة الى مقر لجنة الحزب الاقليمية .

عاد الى تتارسكي رئيساً للجنة الثورية في القرية . فحيا زوجته متعجلاً ، وقال :

ـ حسن ، سنرى الآن!

فسألته دونيا مندهشة :

ـ ماذا تعني ؟

ـ الشيء نفسه .

ـ وما هو ؟
ـ ها أنا عيّنت رئيساً للجنة الثورية . أتفهمين ؟
فضربت دونيا كفا بكف غيظاً . وكانت تهم أن تعلق على ذلك ، بيد أن ميشا لم يتريث ليستمع اليها ، بل وقف أمام المرآة يسوي نطاقه على قمصلته الخاكية الحائلة ، ثم مضى خارجاً نحو مقر السوفييت .
كان ميخييف العجوز قد عيّن في الشتاء الماضي رئيساً للجنة الثورية ، وبقي في هذا المنصب منذ ذلك الحين . وكان شبه أعمى وشبه أصمّ ، فأربكته مسؤولياته وسببت له الكدر ، ولهذا شعر بالراحة حينما أخبره كوشيفوي بأمر اعفائه .
وقال في سرور غير مكتوم وهو يرسم اشارة الصليب على نفسه ويفرك راحتيه :
ـ هي ذي الأوراق ، يا نسري العزيز . هوذا ختم القرية . خذها ، بحب المسيح! أنا الآن في عقدي الثامن ، ولم يحدث قط طوال حياتي أن شغلت منصباً . ولكن ذلك شاء أن يحدث في أواخر أيامي... أنه العمل المناسب لأمثالك من الشباب ، أما أنا ، فما نفعي ؟ رؤيتي ضعيفة ، وسمعي ضعيف... حان الوقت لاعتكافي للصلاة ، لكنهم ذهبوا وعينوني رئيساً...
ألقى ميشا نظرة سريعة على التعليمات والأوامر المرسلة من لجنة المنطقة الثورية ، ثم تساءل :
ـ أين السكرتير ؟
ـ ايه ؟
ـ اللعنة ، قلت أين السكرتير ؟
ـ السكرتير ؟ انه يبذر الذرة . ولا يأتي الى هنا إلا مرة في الأسبوع ، عسى أن تصعقه صاعقة! تأتي أحياناً ورقة من المنطقة ، ويجب أن تقرأ ، لكنك لن تستطيع العثور عليه حتى لو أطلقت في أثره كلاباً سلوقية! والنتيجة أن تظل الورقة المهمة ملقاة عدة أيام دون أن يقرأها أحد . وذلك لأنني ضعيف في

الكتابة وضعيف جداً! لا أستطيع إلا أن أوقع اسمي ، ولا أستطيع القراءة قط . كل ما أستطيعه هو استعمال الختم فحسب...

تفحص كوشيفوي ، عاقد الحاجبين ، الحيطان المخربشة الوسخة لغرفة اللجنة الثورية ، وليس مايزينها سوى إعلان حانطي قديم منقط ببراز الذباب .

وقد بلغ سرورميخييف العجوز بنبأ اعفانه غير المتوقع حداً جعله يجرؤ على التمازح ، فقال وهو يسلم كوشيفوي الختم الملفوف بخرقة :

ـ هذه هي كل ممتلكات القرية . ليس هناك مال لتسليمه . أما شارات الاتمان ، فلا تلقى احتراماً تحت الحكم السوفييتي . وإذا شئت ، أستطيع أن أعطيك عصاي القديمة .

وتكشفت ابتسامة عن فم خال من الأسنان وهو يمد عصاه المقطوعة من شجرة دردار وقد التمع مقبضها من الاستعمال الطويل .

بيد أن كوشيفوي لم يستشعر رغبة في المزاح . بل ألقى نظرة ثانية على الغرفة البائسة المهملة ، وقطب جبينه وقال متنهداً :

ـ نعتبر ، بهذا ، أنني قد تسلمت كل شيء منك ، أيها الجد ، والآن ، انقشع من هنا واذهب الى الشيطان!

وأشار له بعينه ناحية الباب .

ثم جلس الى المنضدة ممطياً مرفقيه ، ولبث ثمة جالساً وحده ، يصر أسنانه ويدفع فكه الأسفل الى الأمام . رباه . لكم كان غبياً كالحمار خلال تلك الأيام ، حينما كان يقضي الوقت مخربشاً في الأرض دون أن يرفع رأسه أو يصيخ السمع لكل ما كان يدور حوله! واستبد به الحنق من نفسه ومن كل شيء ، فقام عن المنضدة وسوى قمصلته ، وقال خلل أسنانه وهو يحدق في الأبعاد :

ـ أجل ، أيها الفتية ، لسوف أريكم كيف تكون الحكومة السوفيتية!

أغلق الباب وربطه بالسلسلة ، ثم خطا عبر الساحة نحو بيته . وعلى مقربة من الكنيسة التقى أوبنيزوف الشاب ، فهز له رأسه دونما اهتمام ، واجتازه ، ثم خطرت في ذهنه فكرة على حين غرة ، فاستدار وهتف اليه :

ـ أنت ، يا أندريوشا! انتظر قليلاً . تعال ، أنا أريدك!

فجاء الصبي الخجول ، ذو الشعر الأشقر ، وتقدم من ميشا بلا كلام . فمد اليه ميشا يده ، كما لو كان رجلاً ، وسأله :

ـ أين كنت ذاهباً ؟ الى طرف القرية الآخر ؟ إذا فقد كنت تتمشى ، اليس كذلك ؟ إن ما أردت أن أسألك اياه هو : أنت درست في المدرسة الأولية المتقدمة ، أليس كذلك ؟ درست هناك ؟ عظيم! هل لديك المام بالعمل المكتبي ؟

ـ أي نوع من العمل المكتبي ؟

ـ أوه ، العمل الاعتيادي . أنت تعرف ، الوارد والصادر ، هذا النوع من العمل .

ـ ما الذي تهدف اليه ، أيها الرفيق كوشيفوي ؟

ـ عجباً الأوراق التي تتلقاها في مكتب . هل أنت ملم بها ؟ أنت تعرف ، هناك الأوراق التي يجب أن تصدر ، وهناك أمور أخرى أيضاً .

وجعل ميشا يلوي أصابعه على نحو ما لتصوير الأمر للصبي ، ثم قال بلجهة حازمة دون أن ينتظر جواباً :

ـ إذا كنت لا تعرف ذلك ، فستتعلمه ، في وقت قصير . أنا الآن رئيس اللجنة الثورية في القرية ، وحيث أنك صبي متعلم ، فإنني أعينك سكرتيراً . إذهب الى مقر اللجنة الثورية وقم على شؤونه . ستجد الأوراق جميعاً ملقاة على المنضدة . وسأعود بعد قليل . فاهم ؟

ـ لكن ، أيها الرفيق كوشيفوي ؟

فلوح ميشا بيده وقال نافد الصبر :

ـ نستطيع أن نتداول في الموضوع فيما بعد . إذهب وتولّ واجباتك .

ثم استأنف سيره في الشارع ، بطيئاً وفي خطو منتظم .

وحين بلغ الدار ، ارتدى بنطلوناً جديداً : ودس مسدسه في جيبه ، وأمضى بعض الوقت يسوي وضعية قبعته أمام المرآة . ثم قال لدونيا :

ـ أنا ذاهب الى مكان ما في مهمة . فإذا سأل أحدهم أين الرئيس ، أخبريه أنني سأعود بعد قليل .

جعل منصب الرئيس من بعض الأشياء المعينة ذات طابع الزامي . فغدت مشية ميشا بطيئة جليلة ، وكان هذا شيئاً مغايراً لعادته حتى أن بعض القرويين صاروا يتوقفون ويحدقون فيه من ورائه والابتسامات تعلو وجوههم . وحينما التقى به بروخور زيكوف في الشارع ، تراجع الى السياج في حركة تنم عن الاحترام وقال متسائلاً :

ـ ولكن ، علام كل هذا ، ياميخائيل ؟ ترتدي أفضل ثيابك في يوم عمل ، وتمشي في مسيرة عسكرية وكأنك في استعراض ؟ أذاهب أنت لخطوبة مرة أخرى ؟

فرد ميشا ، شاداً على شفتيه بشيء من الغيظ :

ـ شيء من هذا القبيل .

وحينما بلغ بوابة آل كروموف ، دس يده في جيبه منقباً عن كيس تبغه ، وألقى نظرة فاحصة على الفناء الفسيح والمنشآت المتناثرة عليه ، وعلى نوافذ البيت .

وحدث أن كانت أم كيريل كروموف خارجة من السقيفة تحمل صحناً حاوياً على قرع مقطع قطعاً صغيرة لاطعام الماشية ، فحياها ميشا باحترام وخطا باتجاه درجات العتبة .

ـ هل كيريل في البيت ، ياخالة ؟

فأجابت العجوز ، متنحية لتفسح المجال لمروره :

ـ نعم ، في البيت . تفضل وادخل!

فدخل ميشا الى السقيفة المظلمة وبحث بيده عن مقبض الباب وسط الغبش .

فتح كيريل بنفسه باب غرفة الضيوف له وتراجع خطوة الى وراء . وألقى نظرة خاطفة فاحصة على ميشا ، وكان حليقاً ، مبتسماً ، ثملاً بعض الشيء ،

وقال في لهجة ودود :

ـ هوذا جندي آخر! أدخل ، ياكوشيفوي ، واجلس . كن ضيفنا . نحن نتناول قليلاً من الشراب ، قليلاً منه فقط...

ـ أكرم الضيف بما يشتهي!

وصافح ميشا يد كيريل فيما أجال بصره في الضيوف المتحلقين حول المائدة .

كان جلياً أن مجيئه لم يكن مناسباً . فصوب قوزاقي عريض المنكبين ، غريب على كوشيفوي ، نظرة خاطفة مستفهمة نحو كيريل وهو يبعد قدحه عنه من حيث كان يجلس جلسة مريحة في الركن القصي تحت الايقونات . وعبس وجه سيمون أخفاتكين ، وهو من أقرباء آل كورشونوف البعيدين وكان يجلس في الطرف المقابل ، حينما وقع بصره على ميشا وأشاح عنه نظره .

دعا كيريل مشيا الى الجلوس .

ـ شكراً للدعوة .

ـ لكن لابد أن تجلس . لا تهيننا . إشرب قدحاً معنا .

فجلس ميشا الى المائدة ، وتناول قدح الفودكا المنزلية من يدي مضيفه وقال هازاً رأسه :

ـ نخب عودتك الى أهلك ، ياكيريل ايفانوفتش!

ـ شكراً لك ، وهل مضى زمن طويل على عودتك من الجيش ؟

ـ زمن طويل جداً . حتى لقد تسنى لي أن أستقر .

ـ تستقر وتتزوج ، أيضاً . ولكن ، علام تحفظك ؟ إشربه عن آخره!

ـ لا أرغب بالمزيد . لدي عمل أود أن أكلمك بشأنه .

ـ كلا ، إن هذا فوق الاحتمال! لا تحاول ذلك معي! إنني لن أتكلم بشؤون أى عمل اليوم! اليوم أمتع نفسي مع أصدقائي . فإذا جئت لتتباحث في أمور العمل ، تعال ثانية غداً .

فقام ميشا عن المائدة ، وقال مبتسماً في هدوء :

ـ ماهو الا أمر بسيط ، لكنه لا يحتمل الانتظار . تعال أخرج معي لحظة .

فلزم كيريل الصمت بعض الوقت وهو يمسد شاربيه الأسودين المفتولين ، ثم قام :

ـ لعلنا نستطيع التحدث هنا . لماذا تفرط عقد الجلسة ؟

فأجابه ميشا في هدوء ، لكن في إصرار :

ـ كلا ، دعنا نخرج .

فقال القوزاقي الغريب ذو المنكبين العريضين :

ـ اصحبه الى الخارج . علام تساوم معه ؟

فتقدم كيريل ميشا ، على مضض ، الى داخل المطبخ . وتمتم لزوجته التي كانت منهمكة بالعمل أمام الموقد :

ـ إخرجي من هنا ، ياكاترينا!

ثم تساءل في إقتضاب وهو يقتعد المصطبة :

ـ حسن ، ماهي الشغلة ؟

ـ كم يوماً مضى عليك منذ عودتك ؟

ـ لماذا ؟ ماالأمر ؟

ـ سألتك ، كم يوماً مضى عليك منذ عودتك ؟

ـ اليوم هو الرابع ، كما أظن .

ـ وهل راجعت اللجنة الثورية ؟

ـ لا ، حتى الآن .

ـ وهل تنوي الذهاب الى فيشنسكايا لمقابلة اللجنة العسكرية ؟

ـ ماالذي ترمي اليه ؟ إذا كنت قد جئت بشأن عمل ، فتكلم عنه .

ـ أنا أتكلم عن عملي .

ـ إذن ، فاذهب الى الشيطان! ماذا . بحق جهنم ، تحسب نفسك .

حتى يتوجب علي الإجابة عن أسئلتك ؟

ـ أنا رئيس اللجنة الثورية . أرني أوراقك الصادرة من كتيبتك .

فقال كيريل متغتغاً وهو يسدد الى عيني ميشا نظرة حادة صاحية ، على حين غرة :

ـ هكذا ، إذن! هذا هو ماترمي اليه ؟

ـ نعم ، لقد أصبت! سلمني أوراقك .

ـ سآتي الى السوفييت اليوم .

ـ أبرزها حالاً!

ـ إنها مرزومة في مكان ما .

ـ فابحث عنها ، إذاً!

ـ كلا ، لن أبحث عنها الآن . إذهب الى دارك ، ياميخائيل ، لا تخلق ضجة مفتعلة .

ـ ضجتي معك قصيرة!

ووضع ميشا يده اليمنى داخل جيبه ، وأضاف :

ـ ارتد سترتك!

ـ كف عن هذا ، يا ميخائيل! يحسن بك ألا تضع يديك علي...

ـ قلت لك هيا!

ـ الى أين ؟

ـ الى اللجنة الثورية .

فاستحال وجه كيريل شاحباً ، الا أنه قال وعلى وجهه إبتسامة هازلة :

ـ لا أريد أن أفعل ذلك على وجه الخصوص...

فمال ميشا قليلاً الى الشمال ، وأخرج مسدسه من جيبه وفتح زناده . وتساءل في لهجة هادئة :

ـ هل ستأتي أم لا ؟

فخطا كيريل دونما كلام . باتجاه غرفة الضيوف . الا أن ميشا اعترض

طريقه وأومأ بعينيه ناحية الباب المؤدي الى السقيفة . فهتف كيريل بلا مبالاة مفتعلة :

ـ يا أولاد! يبدو أنهم ألقوا القبض عليّ . اقضوا على الفودكا بدوني .

ففتح باب غرفة الضيوف ، وكان أخفاتكين على وشك أن يعبر العتبة ، لكنه إذ رأى المسدس مصوباً اليه أسرع يتراجع خلف عمود باب .

وأصدر ميشا أمره لكيريل :

ـ هيا امش!

فخطا كيريل نحو الباب بخطوات مفتعلة المرح ووضع يده على المزلاج بحركة كسول ، وعلى حين غرة . قفز عبر السقيفة بخطوة واحدة وصفق الباب الخارجي بعنف ، ووثب حدر درجات العتبة . وفيما كان يعدو عبر الفناء باتجاه البستان ، محني الهامة ، أطلق ميشا عليه النار مرتين دون أن يصيبه . فسمر ميشا قدميه بالأرض ووضع ماسورة مسدسه على مرفق ذراعه الأيسر المحني ، وصوب المسدس على نحو متأن . وبعد الاطلاقة الثالثة ، بدا وكأن كيريل قد تعثر ، لكنه مالبث أن استعاد زمام نفسه ووثب في حركة ناشطة عبر السياج . فركض ميشا نازلاً درجات العتبة . وانبعث وراءه من ناحية المنزل صوت إطلاقة بندقية ، جافاً متكسراً . ومن أمامه انبعث صوت خبطة حيث اقتلعت رصاصة البندقية الطين من حائط مأوى فتطايرت منه على الأرض شظايا صخرية رمادية اللون .

ظل كيريل يعدو بسرعة ، وكان هيكله المحني يومض خلال أوراق أشجار التفاح الخضر . فقفز ميشا عبر السياج ، لكنه تعثر وسقط على الأرض . ومع ذلك أطلق رصاصتين على الهارب من موضع سقوطه ، ثم استدار ليواجه المنزل ، كان الباب الخارجي مفتوحاً على مصراعيه ، وكانت والدة كيريل تقف على الدرجات تظلل عينيها براحتها وتحدق باتجاه البستان . فحدث ميشا نفسه في كلال :

ـ كان علي أن أصرعه في الحال دون حاجة للكلام معه!

ولبث مستلقياً الى جانب السياج بعض الوقت ، شاخصاً ببصره ناحية المنزل ، وبحركة آلية دقيقة نظف ركبتيه من الوحل العالق بهما . ثم نهض وتسلق السياج بصعوبة ، ومضى عائداً الى المنزل وماسورة مسدسه مصوبة الى أسفل .

٥

توارى عن الأنظار ، بالإضافة الى كيريل غروموف ، أخفاتكين والقوزاقي الغريب الذي كان ميشا قد رآه في غرفة غروموف . وفي تلك الليلة اختفى قوزاقيان آخران من القرية . ثم وصلت تتارسكي مفرزة صغيرة من «تشيكا الدون» قادمة من فيشنسكايا . فألقت القبض على قوزاق معينين وأرسلت أربعة منهم ، كانوا قد عادوا الى ذويهم من كتائبهم بدون إذن ، الى السرية التأديبية في فيشنسكايا .

ظل كوشيفوي يقضي جميع ساعات النهار جالساً في غرفة اللجنة الثورية ، ولا يعود الى داره الا بعد الغروب . وكان يضع على الدوام بندقيته المحشوة الى جانب سريره ، ويدس مسدسه تحت الوسادة ، ويستلقي للنوم دون دون أن يخلع ملابسه . وفي اليوم الثالث بعد حادثة كيريل قال لدونيا :

ـ لننم في السقيفة .

فسألته دونيا مستغربة :

ـ ولماذا ، بالله عليك ؟

ـ من الجائز أن يطلقوا النار من النافذة . فالسرير قريب منها .

ومن غير أن تنبس دونيا بشيء ، نقلت موضع السرير الى السقيفة . لكنها تساءلت في ذلك المساء :

ـ حسن ، والى متى سنظل نعيش مثل أرانب مطاردة ؟ الشتاء مقبل ، فهل علينا أن نعيش في السقيفة ؟

ـ لا يزال الشتاء بعيداً عنا ، ولكن علينا في الوقت الحاضر أن نعيش على هذ النحو .

ـ وكم سيطول «الوقت الحاضر» هذا ؟

ـ الى أن أصفي الحساب مع كيريل .

ـ وهل تحسب أنه سيضع رأسه بين يديك ؟

فأجاب ميشا واثقاً :

ـ سيفعل ذلك ذات يوم .

لكنه كان على خطأ . فقد اختبأ كيريل غروموف وأصحابه في مكان ما في الجانب الآخر من الدون . وحينما بلغ أسماعه أن القائد الفوضوي ماخنو كان يقترب من المنطقة ، اتخذوا طريقهم عائدين الى الضفة الأخرى ومضوا الى قصبة كراسنوكوتسكايا حيث ذكرت الشائعات بأن المفارز المتقدمة من عصابة ماخنو كانت قد ظهرت فعلاً . وكان كيريل قد أمضى الليلة في تتارسكي ، وصادف أن التقى ببروخور زيكوف في الشارع فطلب منه أن يبلغ كوشيفوي تحياته واحتراماته وأن عليه أن يتوقع قيام كيريل برد الزيارة اليه قبل مرور وقت طويل وفي الصباح التالي أخبر بروخور ميشا بأمر التقائه بكيريل وحديثه معه . فقال ميشا مغضباً :

ـ حسن جداً! فليظهر كيريل! لقد أفلت مرة ، لكنه لن يفلت ثانية . لقد علمني كيفية معاملة أمثاله ، وأنا أشكره على ذلك .

كان ماخنو وعصابته قد بلغوا ، في الواقع ، إقليم الدون الأعلى . وإستطاع بعد معركة قصيرة أن يدمر فوجاً من المشاة كان قد أرسل من فيشنسكايا لمجابهته . الا أنه لم يزحف ، بعد ذلك ، باتجاه مركز الاقليم ، بل ضرب في إتجاه محطة ميليروفو ، حيث عبر السكة الحديد الى الشمال منها ، وكر عائداً بإتجاه ستاروبلسك . وقد إنضمت اليه أكثر عناصر «الحرس الأبيض» نشاطاً من بين القوزاق ، بيد أن معظمهم بقي في القرى في إنتظار ما ستتمخض عنه الأحداث .

كان كوشيفوي يعيش وأذنه على الأرض ، يراقب عن كثب كل ماكان يدور في القرية . غير أن الحياة في تتارسكي لم تكن مريحة جداً . كان القوزاق يصبون لعنتهم على الحكم السوفييتي ويحملونه وزر جميع الأزمات التي كانوا يعانونها . ففي الحانوت الصغير الذي كانت الجمعية التعاونية المحلية قد فتحته ، لم يكن ثمة شيء تقريباً . كان الصابون والسكر والملح والبرافين والكبريت والتبغ وشحم المحاور مفقوداً ، وكانت كل هذه المواد ذات أهمية قصوى بالنسبة لحياتهم ، ولم تحمل الرفوف الجرد سوى علب من السكائر باهظة الثمن وبضع قطع حديدية لم تمتد يد لشرائها شهوراً عديدة .

وأمسى القرويون يستخدمون الزبدة أو السمن المذاب في صحون بدلاً من الكيروسين . واستبدل التبغ المصنع في المعامل بتبغ مزروع محلياً . وازاء إنعدام عيدان الكبريت ، عم استعمال أحجار الصوان والمقادح يصنعها الحدادون كيفما اتفق . وكان الصوفان يغلي في محلول من سيقان نبات عباد الشمس والماء لزيادة قابليته على الاشتعال ، ورغم هذا ظلت قضية الحصول على لهب مسألة صعبة . وحدث أكثر من مرة أن يرى ميشا ، وهو عائد الى المنزل من اللجنة الثورية ، قوزاقاً متحلقين في ركن من الشارع وهم منهمكون في محاولات عنيفة لقدح شرارة من حجر صوان بغية اشعال سكائرهم بها ، وهم يصبون الشتائم سراً ويتهامسون :

ـ أيتها الحكومة السوفيتية ، اعطينا ناراً!

ويفلح أخيراً واحد منهم في إشعال الصوفان الجاف ، فيتوهج ، ويشعل الجميع سكائرهم معاً من اللهب الضنيل . ثم يجلسون القرفصاء على أعقابهم ويشرعون في تبادل الأخبار .

ولم يكن ثمة ورق للف التبغ به . كانت جميع سجلات مكتب الأبرشية في الكنسية قد أخذت ، وحينما دخن القوزاق جميع أوراقها لجأوا الى استعمال كل ما كان موجوداً في بيوتهم نفسها لصنع السكائر ، بما في ذلك

دفاتر الأطفال المدرسية ، بل أمتدت أيديهم حتى الى كتب الكهول الدينية .

ظفر بروخور زيكوف ، الذي كان يواظب على زيارة فناء آل ميليخوف ، بكل ماastطاع الحصول عليه من ورق من ميخائيل ، وقال متأسياً :

ـ غطاء صندوق زوجتي العائلي مغطى بجرائد قديمة لصقت عليه ، فنزعتها ودخنتها . كانت لدينا نسخة من «العهد الجديد» وهو كتاب ديني كما تعلم ، لكنني دخنته هو الآخر وقد دخنت «العهد القديم» أيضاً . إن القديسين المقدسين لم يكتبوا عدداً كافياً من هذه «العهود» . كان لدى زوجتي سجل عائلي كتبت فيه أسماء جميع أقربائنا ، الأحياء منهم والأموات ودخنت هذا السجل أيضاً . والآن ، ماذا... هل علي أن أدخن أوراق الكرنب أو أستعمل الأرقطيون بدلاً من الورق ؟ لا ياميخائيل ، لك أن تقول ما تشاء ، ولكن أعطنا جريدة . فلا أستطيع أن أحيا بلا تدخين . حينما كنت في الجبهة الألمانية قايضت حصتي من الخبز أكثر من مرة لقاء قليل من التبغ .

في ذلك الخريف ، كانت الحياة في تتارسكي أبعد من أن تكون حياة بهجة . كانت عجلات الشاحنات غير المشحمة ترسل صريراً حاداً فيما كانت تمضي في الطرقات . وانقطعت العدد الجلدية والأحذية متيبسة متشققة بسبب قلة الشحم ، بيد أن أشد الأزمات وحشة كانت أزمة الملح . كان أهالي تتارسكي يذهبون الى فيشنسكايا ويبيعون خروفاً سميناً لقاء خمسة أرطال من الملح ، ويعودون الى تتارسكي وهم يلعنون الحكومة السوفيتية وكان الملح اللعين يورث ميخائيل مرارة كبيرة . جاءه الى مقر السوفييت ذات يوم جمع من الشيوخ . فحيوا الرئيس برصانة ، وخلعوا قبعاتهم ثم جلسوا على المصاطب . وقال أحدهم .

ـ ليس ثمة ملح في القرية ، أيها السيد الرئيس .

فعقب ميشا بقوله مصححاً :

ـ ليس هناك سادة الآن .

ـ أرجو المعذرة ، فأنا أستعملها دائماً بحكم العادة...

نستطيع أن نعيش بدون سادة ، لكننا لا نستطيع أن نعيش بدون ملح .

ـ حسن ، ماالذي تريدونه أيها الشيوخ ؟

ـ أيها الرئيس ، يجب أن تفعل شيئاً كي يجلب الملح الى القرية . نحن لا نستطيع نقله بواسطة الثيران طوال الطريق من مانيتش .

ـ أرسلت تقريراً عن الموضوع الى الأقليم . إنهم على إطلاع تام بالأمر . ولا بد أنهم سيرسلون شيئاً منه عما قريب .

فقال أحد الشيوخ وهو يحدق في الأرض :

ـ الى أن تشرق الشمس يكون البذر قد تعفن بالندى .

فاحتدم ميشا وقام عن المائدة ، وقلب جيوبه الى الخارج وقد ازرق وجهه غضباً وقال :

ـ ليس لدي ملح . ألا ترون ؟ أنا لا أحمله معي هنا وهناك ، كما أنني لاأستطيع أن أمصه من أصابعي مصاً لأجلكم . أتفهمون ، أيها الشيوخ ؟

وبعد لحظة سكوت ، تساءل تشوماكوف الأعور وهو يجيل عينه الواحدة فيما حوله باستغراب :

ـ أين ولّى ، إذن ، هذا الملح ؟ في الأيام السالفة ، تحت حكم الحكومة السابقة ، ما كان المرء يذكره حتى بالاسم . كان موجوداً في كل مكان ، أكواماً فوق أكوام ، أما الآن فأنت لا تستطيع أن تحصل على قرصة منه...

فقال ميشا في لهجة أكثر هدوءا :

ـ ليس لحكومتنا يد في هذه الأزمة . الحكومة الوحيدة التي يجب أن يلقى عليها اللوم هي حكومتكم السابقة ، حكومة «الكاديت» . هم الذين تسببوا في كل هذا الخراب حتى لم يكن هناك ماينقل الملح بواسطته . دمرت جميع خطوط السكة الحديد ، ودمرت الشاحنات كذلك .

وأمضى وقتاً طويلاً يحدث الشيوخ عن كيفية قيام البيض خلال تراجعهم بتدمير ممتلكات الدولة ونسف المعامل وحرق المستودعات . كان ميشا قد شاهد بعضاً من هذه الوقائع بنفسه أثناء الحرب ، وسمع ببعضها ، أما البقية

فقد اخترعها لا لشيء الا لازاحة السخط عن حكومته السوفيتية . ولغرض الدفاع عن هذه الحكومة إزاء الانتقادات الموجهة لها إخترع بضع حكايات متقنة ، وهو يحدث نفسه :

ـ ليس ثمة ضير كبير إذا ضخمت الأمر هؤلاء الحثالة البيضاء . إنهم حثالة بأية حال من الأحوال ، فلن يضيرهم ذلك ، بينما سيكون فيه كسب لصالحنا .

فقال ، وعيناه تتألقان :

ـ أتعتقدون أن هؤلاء البورجوازيين بلا ذكاء ، أم ماذا ؟ إنهم ليسوا أغبياء لقد جمعوا جميع مخزونات السكر والملح ، آلاف الأرطال منها ، من جميع أرجاء روسيا ، وهربوا بها الى القرم ، وهناك شحنوها في مركب وأرسلوها الى أقطار أخرى للبيع .

فتساءل تشوماكوف الأعور متشككاً :

ـ وهل نقلوا كل شحم محاور العربات أيضاً ؟

ـ أتحسب أنهم كانوا سيتركونه وراءهم لك ، أيها الجد ؟ عجباً أتظن أنهم بحاجة اليكم أو الى الكادحين عموماً ؟ لسوف يجدون من يبيعونه حتى شحم محاور العربات . كانوا سينقلون كل شيء معهم لو إستطاعوا ذلك ، كي يموت الناس هنا جوعاً .

فقال أحد الشيوخ موافقاً :

ـ هذا صحيح بلا شك . الأغنياء جميعاً على هذه الشاكلة ، ينافحون من أجل آخر حبة قمح . كلما أصبحوا أوسع ثراء ، صاروا أشد طمعاً ، لقد شهدنا ذلك جميعاً على مدى طويل من السنين . في فيشنسكايا ، كان هناك تاجر قد كوم كل ما يملك في عربات نقل حينما بدأ التراجع الأول . حمل فيها جميع ممتلكاته حتى آخر بكرة من الخيوط . وكان الحمر قد اقتربوا من البلدة ، غير أنه لم يكن قد أتم استعداده لمغادرة فنائه ، بل كان يهرع هنا وهناك مرتدياً فروته ويخلع المسامير من الحيطان بكلابين ، وكان يقول : ـ

لن أترك لهم مسماراً واحداً ، عليهم اللعنة! إذن ، والحالة هذه ، ليس مما يدعوا الى الاستغراب الكبير أن يحملوا معهم الشحم أيضاً .

ثم تساءل ماكساييف العجوز في لهجة ودود حينما قارب الحديث نهايته :

ـ مهما يكن من أمر ، كيف يمكن أن ندبر أمورنا بدون ملح ؟

فقال لهم ميشا ناصحاً في احتراس :

ـ سيقوم عمالنا بجمع المزيد من الملح عما قريب ، وفي غضون ذلك تستطيون إرسال العربات الى مانيتش .

ـ الناس لا يرغبون في الذهاب الى هناك ، فالكالميكيون يسببون لنا المتاعب . فلم يدعونا نحصل على الملح من البحيرات . كما أنهم يسلبوننا ثيراننا . لقد عاد أحد معارفي من هناك وليس لديه سوى سوطه . فذات ليلة داهمه ثلاثة كالمكيين مسلحين على خيولهم وسرقوا ثيرانه وقالوا له وهم يشيرون الى بلاعيمهم : «احرص على أن يظل فمك مغلوقاً ، والا فستكون نهايتك سيئة ، يارجل» . تلك هي الحالة حينما يذهب المرء الى تلك الديار!

فقال تشوماكوف متنهداً :

ـ سيتوجب علينا أن ننتظر بعض الوقت .

وهكذا أفلح ميشا في الوصول الى نوع من الإتفاق مع الشيوخ . أما بيته فقد تبادل هو ودونيا كلمات محتدة حول موضوع الملح بالذات . كان ثمة بالتأكيد ما يعكر صفو علاقات ميشا وزوجته .

لقد بدا كل شيء في ذلك اليوم المشهود حينما تحدث عن غريغوري بحضور بروخور . ولم يطو النسيان تلك : المشادة الصغيرة . وحدث ذات مساء أن قال ميشا أثناء العشاء :

ـ ليس في حسائك ملح ، يا سيدة الدار . إن لم يوجد منه الكفاية على المائدة ، فسأنثر الملح على جلد ظهرك المسلوخ .

ـ تحت هذا الحكم ، ليس محتملاً قط أن يتوفر الملح في وقت قريب في أيما مكان . هل تعرف كم بقي لدينا من الملح ؟

ـ حسن ؟

ـ حفنتان .

فقال ميشا متنهداً :

ـ الأمور ليست على ما يرام .

فعقبت دونيا لائمة :

ـ الآخرون ذهبوا الى مانيتش طلباً للملح في الصيف ، أما أنت فلم يتسن لك حتى أن تفكر في الأمر .

ـ وبأية واسطة سأمضي الى هناك ؟ في أول عام من حياتنا الزوجية لا يصح أن أجعلك حصاناً للعربة ، أما بالنسبة للثيران الحقيقية...

ـ أجّل نكاتك الى وقت آخر! يوم تأكل طعاماً بلا ملح ، تستطيع أن تمزح .

ـ لماذا تناكدينني ؟ أخبريني من أين يمكن أن نحصل على الملح ؟ يالكن من رهط ، يانسوان! تجشأه أن شئت ، ولكن أعطنا ملحاً! ولكن إذا لم يكن لدينا هذا لملح الملعون ثلاثاً!

ـ الناس الآخرون ساروا بثيرانهم الى مانيتش . والآن ، لديهم ملح وكل شيء ، أما نحن فسنلوك طعاماً لا مذاق له...

ـ سنجتاز الأزمة على صورة ما ، يادونيا . لابد أنهم سيرسلون لنا ملحاً عما قريب أليس لدينا منه سوى القليل ، حقاً ؟

ـ لديكم الكثير من كل شيء!

ـ من تعنين ؟

ـ الحمر .

ـ ومن أنت ، إذن ؟

ـ إنا كما تراني ، لقد قلتم وقلتم : «سيكون لنا الكثير من كل شيء ، وسنعيش جميعاً في مستوى واحد ، وستكون حياتنا على مايرام...» أهذه ما تسمونها حياة على مايرام ؟ ولا شيء نملح به حساءنا ؟

فحملق ميشا في زوجته مذهولاً وشحب وجهه :

ـ علام كل هذا ، يا دونيا ؟ ما الذي تقولينه ؟ كيف تستطيعين أن تتكلمي على هذا النحو ؟

لكن الشكيمة كانت قد أفلتت من بين أسنان دونيا ، فشحب وجهها هي الأخرى غضباً وسخطاً ، ومضت تقول وقد ارتفع صوتها حتى غدا أشبه بالصياح :

ـ حسن ، كيف نستطيع أن نعيش على هذا النحو ؟ فيم تحملق عينيك هكذا ؟ أتعرف ، أيها الرئيس ، أن لثات الناس بدأت تتورم من قلة الملح ؟ إنهم يحفرون التراب في البقاع السبخة ، ويذهب الناس حتى الى ربوة تتشاييف بحثاً عنه ، وهم يضعون هذا التراب في حسائهم... هل سمعت بذلك ؟

ـ مهلاً ، مهلاً ، لاتصرخي هكذا... عظيم ، وماذا بعد ؟

فضربت دونيا كفاً بكف :

ـ وماذا تريد غير ذلك ؟

ـ ولكن ، يجب علينا أن نتحمل ذلك بطريقة من الطرق ، أليس كذلك ؟

ـ حسن ، تحمّله أنت!

ـ سأتحمله ، أما أنت... إن طبعك الميليخوفي كله بدأ يظهر الآن .

ـ أي طبع ؟

فقال ميشا في صوت غليظ وهو يقوم عن المائدة :

ـ طبعكم المناهض للثورة ، هو ذا!

ولبث يحدق بالأرض دون أن يرفع عينيه الى زوجته . وحينما تكلم كانت شفتاه ترتعشان :

ـ إن تكلمت على هذا النحو ثانية ، فلن نعيش ، أنا وأنت ، تحت سقف واحد ، إفهمي هذا! إن كلامك كلام عدو...

وكانت دونيا على وشك أن ترد عليه ، غير أنه ضيّق عينيه باتجاهها ورفع قبضته ، وقال بصوت متحشرج :

ـ إخرسي!

فنظرت دونيا إليه غير هيابة ، وفي تطلع جلي . وما لبثت ، بعد لحظة ، أن قالت في هدوء ولهجة مرحة :

ـ عال ، الشيطان يدري كم هو لطيف التحدث حول هذا الموضوع... سنتدبر أمورنا بلا ملح!

وسكتت ثانية ، ثم أضافت بتلك الابتسامة الهادئة التي كان ميشا يهواها كثيراً :

ـ لا تغضب ، ياميشا! إن كنت ستغضب منا ، نحن معشر النساء ، على كل شيء ، فلن يتخلى عنك الغضب . مالذي تتوقعه ، غير هذا ، من رأس بليد كرأسي ؟ أترغب في شيء من الفاكهة المغلية أم تريد أن أصب لك شيئاً من اللبن الحامض ؟

فعلى الرغم من حداثة سنها ، كانت دونيا غنية بالحكمة والتعقل في معالجة أمور الدنيا ، وكانت تعرف متى تكون عنوداً في الجدال ومتى يلزم أن تسكت وتتراجع .

بعد ذلك بأسبوعين ، جاءت رسالة من غريغوري ، يقول فيها بأنه قد جرح في جبهة فرانجل وأن من الجائز أن يتم تسريحه بعد شفائه . فأخبرت دونيا ميشا بمحتويات الرسالة ، ثم سألته باحتراس :

ـ ميشا ، حينما يعود غريغوري ، كيف سندبر أمرنا ؟

ـ سننتقل نحن الى كوخي . ويستطيع هو أن يعيش هنا وحده . وسنتقاسم الممتلكات .

ـ نحن بالتأكيد لن نستطيع العيش سوية . فجميع الدلائل تشير الى أنه سيأتي بأكسينيا لتعيش هنا .

فقال ميشا في لهجة حادة :

ـ حتى لو كان ذلك ممكناً . فإنني لن أعيش تحت سقف واحد مع أخيك .

فرفعت دونيا حاجبيها مستغربة :

ـ ولم لا ، ياميشا ؟

ـ أنت تعرفين حق المعرفة لماذا ؟

ـ أتعني لأنه حارب الى جانب البيض ؟

ـ نعم ، بالضبط!

ـ ماأشد بغضك له! هذا ، وقد كنتما صديقين ذات يوم .

ـ ما الذي يدفعني الى حبه ، بحق الشيطان ؟ كنا صديقين حقاً ، بيد أن صداقتنا انتهت منذ أمد بعيد .

كانت دونيا جالسة أمام المغزل ، وكان المغزل يرسل أنيناً منتظماً ، وفجأة انقطع الخيط ، فأوقفت دونيا العجلة براحة يدها ، وفيما كانت تبرم طرفي الخيط تساءلت دون أن ترفع بصرها الى زوجها :

ـ حينما يعود ، ماالذي سيحدث بشأن خدمته السابقة مع القوزاق ؟

ـ سيحاكم... أمام محكمة عرفية!

ـ ولكن ، ماذا يمكن أن يكون الحكم عليه ؟

ـ حسن ، ما أنا الذي يعرف ذلك . فما أنا بالقاضي .

ـ أمن الجائز أن يعدم ؟

فشخص ميشا ببصره ناحية السرير الذي كان ميشاتكا وبوليوشكا نائمين عليه ، وأصغى الى أنفاسهما المنتظمة ، ثم أجاب مخفضاً صوته :

ـ ذلك جائز .

ولم تسأل دونيا أية أسئلة أخرى . وفي الصباح التالي ، ذهبت بعد حلب البقرة لترى أكسينيا :

قالت لها :

ـ سيعود غريشا ، ولهذا جئت لأبشرك بالخبر .

فوضعت أكسينيا قدراً معدنياً من الماء على الفحم وشدت بيديها الى صدرها . فنظرت دونيا الى وجهها الملتهب وقالت :

ـ ولكن ، لا تبتهجي أكثر مما ينبغي! زوجي يقول إنه لن يفلت من المحاكمة . لا يدري الا الله ماذا سيكون الحكم عليه .

فبان الفزع ، لحظة ، في عيني أكسينيا النديتين المتوهجتين . ثم سألت في صوت مهزوز وهي لا تزال غير قادرة على محو الابتسامة المتخلفة من شفتيها :

ـ عن أي شيء ؟

ـ عن الانتفاضة... عن كل شيء .

ـ هراء! لن يحاكموه . إن ميخائيلك لا يفهم شيئاً . ياله من علامة فاخر!

ـ ربما لن يحاكموه .

وخلدت دونيا الى الصمت لحظة ، ثم أضافت وهي تكبح حسرة جاشت في صدرها :

ـ إنه شديد الضراوة مع أخي . وكم يثقل ذلك على قلبي ، حتى أنني لا أستطيع أن أصور لك ثقل الوطأة علي! إنني حزينة كل الحزن على غريغوري . لقد جرح ثانية ، تلك حياته المتزعزعة .

فقالت اكسينيا منفعلة :

ـ لا عليك مادام سيعود! سنأخذ الطفلين ونختفي في مكان ما .

ولسبب ما ، أزاحت عصابتها ، ثم وضعتها ثانية ، وجعلت تنقل القدور على المصطبة بلا غاية ، دون أن تستطيع السيطرة على زمام الانفعال الشديد الذي تملكها . ولاحظت دونيا كيف كانت يداها ترتعشان فيما اقتعدت المصطبة وشرعت تمسد طيات وزرتها القديمة الخلقة على ركبتها .

فصعد شيء ما الى بلعوم دونيا . وأحست برغبة في الهروب الى موضع ما كي تبكي وحدها .

ثم قالت في هدوء :

ـ لم تعش أمي لتراه يعود... حسن ، أنا ذاهبة . عليَ أن أشعل الموقد .

وفي الممر طبعت اكسينيا قبلة سريعة مضطربة على رقبة دونيا ، ثم تناولت يدها بسرعة وقبلتها فسألتها دونيا في صوت خفيض مهزوز :

ـ أتشعرين بالسعادة ؟

فأجابت اكسينيا ، محاولة أن تتمازح كي تخفي دموعها وراء إبتسامة مختلجة :

ـ أجل ، قليلاً ، قليلاً جداً فقط .

٦

في محطة ميليروفو ، أعطي غريغوري ، بإعتباره آمراً أحمر مسرحاً ، عربة وحصانين . وفي كل مضرب من المضارب الأوكرانية التي مر بها في طريق عودته الى القرية ، كان يستبدل الحصانين بآخرين الى أن بلغ مشارف اقليم الدون الأعلى في اليوم نفسه . بيد أنه ، وفي أول قرية قوزاقية دخلها ، تلقى هذا الرد من رئيس اللجنة الثورية ، وكان رجلاً شاباً لم يرجع من صفوف الجيش الأحمر إلا مؤخراً :

ـ سيتعين عليك استعمال الثيران ، أيها الرفيق الآمر . فليس لدينا في القرية كلها سوى حصان واحد ، وهو يقزل على ثلاث قوائم . فقد خلّفوا جميع الخيل في الكوبان خلال التراجع .

فتساءل غريغوري وهو ينقر أصابعه على المنضدة وينظر مستفهماً في عيني الرئيس المرحتين :

ـ ربما أستطيع أن أتدبر الأمر مع هذا الحصان الأوحد ؟

ـ لن تصل الى غايتك أبداً . ستظل تسوق عربتك أسبوعاً دون أن تصل الى هناك! ولكن لا تخف ، فلدينا ثيران جيدة ذات خطى واسعة ، وعلينا أن نرسل عربة الى فيشنسكايا بأية حال لنقل أسلاك هاتفية من مخلفات الحرب . فلن يلزمك أن تغير عربتك ، بل ستضعك عربتنا على عتبة دارك تماماً .

وضيق الرئيس عينه اليسرى وأضاف وهو يبتسم ويغمز في خبث :

ـ سنعطيك أفضل ثيراننا وأرملة شابة لتقود العربة . فلدينا واحدة هنا حامية الى درجة لن تستطيع أن تحلم بأحمى منها! ففي صحبتها ، ستصل قريتك قبل أن تدرك ذلك . لقد كنت أنا نفسي في الجيش ، وأنا عليم بجميع ما يحتاج اليه الجندي...

فقلّب غريغوري الأمر في فكره ، وقرر أن إنتظاره لعربة ماضية في طريقه سيكون شيئاً غير معقول ، كما أن المسافة كانت أطول من أن يستطيع قطعها مشياً على الأقدام . فاضطر الى الموافقة وقبول الثورين .

جاءت العربة بعد ساعة من الزمن . كانت عربة عتيقة ، وكانت عجلاتها ترسل صريراً فظيعاً ، وإطارها الخلفي محطماً مثلماً ، والقش المحمل عليها في غير اعتناء مدلى من جوانبها حزماً . فحدث غريغوري نفسه وهو ينظر الى العربة البائسة :

ـ هي ذي الحرب ، حربك!

وكانت السائقة تسير الى جانب الثورين ملوحة بسوطها . وكانت ، بلا ريب ، إمرأة جميلة الوجه ، متينة القوام . على أن ثدييها الكبيرين ، غير المتناسقين مع طوال قامتها ، كانا يشوهان شكل جسمها ، في حين كان أثر جرح مائل على ذقنها المكور يضفي على وجهها الأسمر النحاسي سيماء الصلابة وكبر السن ، وكان ثمة حول جسر أنفها نمش ذهبي اللون رقيق مثل حب الدخن .

وفيما كانت تسوي عصابة رأسها ، ضيقت عينيها وأجالت بصرها في غريغوري وتساءلت :

ـ هل أنت من سيتوجب علي نقله ؟

فنهض غريغوري من على الدرجة وألقى بمعطفه الثقيل على كتفيه ، وقال :

ـ أجل . هل وضعت الأسلاك في انعربة ؟

ـ ماذا تحسبني ؟ يريدونني في كل يوم أن أسوق العربة الى مكان ما

وأن أقوم بالعمل عنهم! أهذه هي مهمتي عندهم ؟ فليضعوا الأسلاك في العربة بأنفسهم ، وإذا لم يفعلوا سأمضي بالعربة فارغة .

ومع ذلك ، جرّت بكرات الأسلاك ووضعتها في العربة وهي تتبادل الشتائم مع رئيس اللجنة الثورية ، في ضجيج ولكن في بشاشة أيضاً ، وتشخص الى غريغوري بعينين متفحصتين من حين لآخر . وكان الرئيس يضحك وينظر الى الأرملة الشابة في إعجاب جلي ، ويغمز بين الفينة والفينة لغريغوري وكأنه يقول :

ـ هوذا صنف النساء الذي لدينا! ألم أخبرك ؟!

خارج القرية ، كان السهب الخريفي الذاوي يمتد ، بني اللون ، نحو الأبعاد . وكان شريط من الدخان رمادي بلون الحمام ، ينسل من الأراضي المحروثة عبر الطريق . كان الحارثون يحرقون الأدغال : قريض القنب ، يابساً ، شائكاً ، وأعشاب المروج الذابلة . فأيقظت رائحة الدخان ذكريات حزينة في نفس غريغوري . لقد قام هو أيضاً ذات مرة بحراثة الأراضي في السهب الخريفي المتوحد ، والتطلع الى النجوم المتلألئة في متاهات السماء المعتمة ، والاصغاء الى نداءات أسراب الأوز الطائرة في السماء . فتقلب متململاً على القش ، ونظر الى سائقته :

ـ كم عمرك ، أيتها المرأة الطيبة ؟

فردت ، متعابثة ، وهي تبتسم في عينيها فقط :

ـ قرابة الستين!

ـ لا بدون مزاح .

ـ عشرون .

ـ وأرملة ؟

ـ نعم .

ـ ماذا حدث لزوجك إذن ؟

ـ قتل .

ـ مؤخراً ؟
ـ منذ سنتين .
ـ خلال الانتفاضة ، إذن ؟
ـ بعدها في الخريف .
ـ وكيف تدبرين أمرك ؟
ـ أوه ، أدبره على نحو ما .
ـ أتجدين حياتك موحشة ؟
فحدقت نظرها فيه ثم غطت شفتيها بعصابة رأسها لتخفي إبتسامتها . وحينما أجابت بدا صوتها أكثر غلظة وقد شابته نغمة جديدة :
ـ لامجال للشعور بالوحشة حينما تكون مشغولاً .
ـ ولكن ، ألا تشعرين بالوحشة بلا زوج ؟
ـ أنا أعيش مع حماتي ، ولدينا الكثير مما يشغلنا في الحقل .
ـ ولكن ، كيف تدبرين أمرك بدون زوج ؟
فأدارت وجهها ناحيةغريغوري ، وقد تضرج خداها الأسمران بحمرة خفيفة ، وتألقت شرارات وردية صغيرة في عينيها ، ثم خبت :
ـ ماالذي تعنيه ؟
ـ ماقلته ، فحسب .
فأماطت عصابة الرأس عن شفتيها وقالت متغشغة :
ـ حسن ، إن هناك الكفاية من هذه البركات في هذه الحياة! هناك الكثير من الناس الكرماء في هذه الدنيا!
واستأنفت كلامها بعد فترة صمت :
ـ لم يتسن لي أن أذوق طعم مسرات الحياة الزوجية مع زوجي . عشنا شهراً واحداً معاً فقط ثم أخذوه الى الجيش . أنا أستطيع أن أدبر أمري بدونه على نحو ما . الأمر أيسر الآن بعد أن عاد القوزاق الشباب الى القرية ، أما قبل ذلك فكانت الأحوال عسيرة!

هيا ، تحرك يا أصلع الرأس! ديخ ، ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ديخ! والآن ، قد عرفت أيها الجندي! هي ذي حياتي!

توقف غريغوري عن الحديث . لم تكن به رغبة لمواصلة الحوار على هذه النغمة المتماجنة . وخامره إحساس بالندم لشروعه به أساساً .

مضى الثوران الكبيران المربيان يخبطان الأرض بذات المشية المنتظمة القازلة . وكان قرن أحدهما المكسور قد نما الى أسفل ، قاطعاً وجهه باتجاه مائل . أما غريغوري فقد تمدد في العربة متكئاً على مرفقه ، نصف مغمض العينين . وشرع يستعيد صورة الثيران التي كدح معها في طفولته ، ثم في شبابه . كانت ، جميعها ، متباينة في اللون والبنية والطباع ، ولقد كانت لكل منها سماتها المميزة حتى في قرونها . وكان لديهم ذات يوم ثور ذو قرن متعرج كهذا تماماً . كان ثوراً سيء الطبع ، خبيثاً ، لا ينفك ينظر من طرفي عينيه ، مدوراً بياضهما المصطبغين بالدم . وكان يحاول أن يرفس إذا ما تقدم منه إمرؤ من الخلف ، وحينما تطلق الحيوانات للرعي أثناء الليل ، كان يتخذ طريقه عائداً الى الدار ، أو الأنكى أن يختبئ في الغابة أو في الوهاد النائية . وكم قضى غريغوري نهاراً كاملاً يطوي السهب على صهوة حصانه بحثاً عن الثور المفقود ، وحين يوشك أن يفقد الأمل في العثور عليه يجده ، فجأة ، مختبئاً في قعر أخدود أو داخل أجمة منيعة من الشوك أو تحت ظل شجرة تفاح بري عتيقة . كان ذلك الشيطان ذو القرن المتعرج يستطيع أن يفلت رأسه من حبل الثيران ، واعتاد في الليل أن يرفع عارضة البوابة المؤدية الى حظيرة الماشية ، ومنها يعبر الدون سباحة فاذا مابلغ الضفة الأخرى إنطلق يجوب أرض المروج . أجل ، لقد أورث ذلك الثور غريغوري الكثير من المتاعب في زمانه .

سأل غريغوري المرأة :

ـ كيف طباع ذلك الثور ذي القرن المتعرج ؟ هادئة ؟

ـ هادئة ، ولماذا تسأل ؟

ـ مجرد سؤال .

فقالت المرأة مبتسمة :

ـ إن كلمة «مجرد سؤال» كلمة جيدة حينما لا يكون هناك موضوع للحديث!

وعاد غريغوري الى صمته . كان يلذ له أن يجول بفكره في أرجاء الماضي . في أيام السلم تلك ، في العمل ، في كل ما ليس له علاقة بالحرب . لقد أتعبته سنوات الحرب السبع بما يعز على الوصف ، وغدا يحس بدوار فظيع ونفور مطبق لدى مجرد تذكرها ، أو تذكر حادثة تمت بصلة لأيام خدمته العسكرية .

لقد طلّق القتال... نال كفايته منه . وهاهو ذا الآن عائد الى بيته كيما ينكبَ ، أخيراً ، على عمله ويعيش مع طفليه ، ومع أكسينيا . وكان قد عقد العزم ، حتى مذ كان لا يزال في الجبهة ، على أن يضم اكسينيا اليه ، كي تقوم على تربية طفليه ولكي تكون بجانبه على الدوام . فتلك القصة ، هي الأخرى ، يجب أن يضع لها حداً ، وكلما تم ذلك بصورة أسرع كان المآل أفضل .

وتصور ، في حلم يقظته ذاك ، كيف أنه حينما يبلغ داره سيخلع عنه قمصلته وجزمته ، ويحتذي صندله الواسع ، ويدس بنطلونه في جواربه الصوفية البيضاء ـ على الطريقة القوزاقية ـ ثم يلقي معطفه المنسوج في المنزل على سترته الدافئة وينطلق الى الحقول . ولكم سيشعر بالسعادة حينما سيضع يديه على مقبضي المحراث ويسير على الشق الندي حذو المحراث ، ومنخراه يعبان ، في نهم ، الفواح الطري الرطب المنعبث من التربة المحروثة ، والرائحة المرة التي يرسلها العشب المقطوع برأس المحراث . لقد كان حتى للتربة والأعشاب في البلدان الأخرى رائحة مغايرة . وفي بولونيا ، في أوكرانيا وفي القرم ، تناول ـ أكثر من مرة ـ ساق شيح رمادياً وسحقه بين راحتيه ، وتشممه ، ثم حدث نفسه التائقة :

ـ لا ، إنه لا يشبه شيحنا ، إنه مختلف...

غير أن سانقته كانت تجد الدنيا مملة .

كانت تريد أن تتحدث . فتوقفت عن استحثاث الثورين ، واتخذت لها جلسة مريحة ، وشرعت وهي تعبث بشرابة سوطها الجلدية تسترق نظرات متفحصة نحو غريغوري وسيماء التفكير البادية على وجهه وعينيه نصف المغمضتين :

ـ إنه ليس طاعناً في السن ، رغم أنه شائب الشعر . وهو شخصية غريبة الأطوار ، نوعاً ما ؟ يضيق عينيه طوال الوقت . فلماذا يفعل ذلك ؟ ليحسب المرء أنه في منتهى الإرهاق ، أو يحسب أنه شخصاً كان يستخدمه حصاناً يجر عربة... يبدو وكأنه قد عانى كارثة ما في زمانه . لكنه ، والحق يقال ، لا بأس بوسامته . اللهم إلا كثرة الشيب في شعره ، كما أن شاربه قد شاب أو كاد ، أيضاً . وفيما عدا ذلك ، لابأس به . علام يستغرقه كل هذا التفكير ؟ في البداية ، بدا أنه سيكون لطيف المعشر ، ثم أقفل فاه ، وبعدها سأل عن الثور ، لسبب ما . ألا يعرف بما يتحدث ؟ أم لعله خجول . لكنه لا يبدو خجولاً ، إن له عينين قويتين . كلا ، إنه قوزاقي جيد ، سوى أنه غريب الأطوار على نحو ما . حسن إذاً ، لا تفتح فمك ، أيها الشيطان الأحدب! وكأنما أنا بحاجة إليك كثيراً! أنا ، الأخرى ، أستطيع أن أصمت . إنه متلهف للوصول الى داره ، الى زوجته! حسن ، إصمت قدر ما تشاء!

ومالت بظهرها ، في استرخاء ، على حاجز العربة وشرعت تتمتم بأغنية . فرفع غريغوري رأسه ورنا الى الشمس : كان النهار لا يزال فتياً ، فعلى جانب الطريق كانت تقف في اكتئاب ، كالحرس ، نباتات العوسج المتخلفة من السنة الماضية وهي تلقي ظلاً يبلغ نصف خطوة طولاً ، فلا بد أن الوقت لم يتجاوز الساعة الثانية بعد الظهر .

كان السهب مغلفاً بسكون شامل وكأن سحراً قد مسه . وكانت الشمس لا تشيع من الدفء الا قليلاً ، وثمة نسيم خفيف يحرك الأعشاب

الذاوية التي أمسى لونها أسمر مائلاً للإحمرار ، دون أن تند عنها خشخشة أو حفيف . ولم يسمع نداء من طير أو صفير من سولق . ولا كانت ثمة حدآت أو نسور تحلق في السماء الباردة الزرقاء الشاحبة . ولم يحدث الا مرة أن مرق ظل رمادي عبر الطريق ، وقبل أن يرفع غريغوري رأسه ، سمع صوت الخفقان الثقيل لجناحين كبيرين فيما كان حبارى رمادي اللون يعبر طائراً . ثم يحط بازاء ربوة بعيدة حيث كانت ثمة وهدة ممتدة في الفيء المشوب بالعتمة الليلكية التي يسببها بعد المسافة .

لم يكن غريغوري قد عرف مثل هذا السكون العميق الأسيان يغلف السهب الا في أواخر الخريف ، حينما كان يبدو له أنه يستمع الى الدغل المتطاير مع الريح يرسل خشخشة فوق الأعشاب اليابسة ، ويروح يقطع أرجاء السهب نحو البعيد البعيد .

بدا أن الطريق لم يكن له آخر . كان يتعرج صاعداً ربوة ، ثم ينحدر داخل أخدود ويعود يتسلق نحو قمة هضبة . كان ثابتاً لا يتغير لاحدود له على مد البصر ، ومرامي السهب المقفرة مترامية في كل جانب .

سرت عينا غريغوري لمرأى شجرة غَرَب نامية على منحدر الأخدود . وكانت أوراقها ، وقد أماتتها بواكير الصقيع ، تتألق بلون أرجواني في لون الشفق ، وكأنها قد رشت بجذوات من نار مضرب متلاشية .

سألته سانقته وهي تلمس كتفه بصوتها لمساً رقيقاً :

ـ مااسمك ، يارجل ؟

فجفل ، وأدار وجهه ناحيتها . فأشاحت عنه وجهها :

ـ غريغوري ، وما إسمك أنت ؟

ـ سمني ماشنت .

ـ يجب عليك أن تصمتي ، يا« ماشنت »!

ـ سئمت من الصمت . هاقد قضيت نصف نهار صامتة ، وقد جف حلقي . ما سبب حزنك يا عم غريشا ؟

ـ حسن ، ولماذا يجدر بي أن أكون مرحاً ؟
ـ أنت ذاهب الى أهلك ، فيجب عليك أن تكون مرحاً .
ـ أيام مراحي إنقضت .
ـ إستمر! ستقول إنك طاعن في السن ، أليس كذلك ؟ ولكن ، قل لي ، مالذي شيب شعرك وأنت في شبابك ؟
ـ تريدين أن تعرفي كل شيء... الحياة الرضية شيبتني كما يبدو .
ـ هل أنت متزوج ياعم غريشا ؟
ـ نعم ، وأنت أيضاً يجب أن تتزوجي بأسرع وقت .
ـ لماذا ؟
ـ حسن ، لأنك لعوب كثيراً...
ـ وهل هذا فظيع جداً ؟
ـ ربما ، كنت أعرف إمرأة لعوباً مثلك ذات مرة ، وكانت أرملة أيضاً . ظلت تلعب وتلعب ، ثم مالبث أنفها أن شرع ينخلع!

فهتفت المرأة في ذعر مصطنع :
ـ ياإلهي ، ماأفظع ذلك!
ومالبثت أن أضافت بلهجة عملية :
ـ إن حياة الأرملة على هذا النحو . إذا كنت خائفاً من الذئب ، فلا تذهب الى الغابة!

فألقى غريغوري نظرة عليها . كانت تضحك بلا صوت ، وأسنانها البيض اللطيفة مشدودة الى بعضها . واختلجت شفتها العليا العبوس ، وتلامعت عيناها في خبث من تحت أهدابها المسبلة .

فلم يستطع غريغوري الا أن يضحك ، ووضع يده على ركبتها المكورة الدافئة . وقال في إشفاق :
ـ يا للطفلة المسكينة! أنت في العشرين ، بينما الحياة عبثت بك .
وفي لمح البصر ، لم يبق أثر لمرحها . فدفعت يده عنها بخشونة ، وانعقد

حاجباها واحمر وجهها حتى إختفى النمش الصغير من على جسر أنفها :

ـ أشفق على زوجتك حينما تصل الى بيتك! لدي ما يكفيني من المشفقين ويزيد ، حتى بدونك!

ـ لا تغتاظي! مهلاً مهلاً!

ـ أوه ، إذهب الى الشيطان!

ـ قلت ماقلت لأنني كنت حزيناً بالفعل ، لأجلك .

ـ تستطيع أن تدخل حزنك في ...

وجاءت الشتيمة البذيئة ، التي لا يستعملها الا الرجال ، سهلة مطواعة على شفتيها وقدحت عيناها شرراً أسود .

فرفع غريغوري حاجبيه وحمحم متلعثماً :

ـ عال! أنت حاذقة في السباب ، لا نكران لذلك! يالك من مخلوق متوحش!

ـ وما أنت! لست سوى قديس في معطف قذر ، هو ذا أنت! أنا أعرفك! متزوج ، والى آخر ذلك كله! لكن ، كم مضى عليك وأنت متسربل مسوح القديسين!

فأجاب غريغوري ضاحكاً :

ـ ليس بالزمن الطويل جداً .

ـ فعلام تطبق القوانين علي إذاً ؟ لديّ حماتي التي تقوم بهذه المهمة .

فقال غريغوري في لهجة مراضاة :

ـ كفى ، كفى! لماذا كل هذا الغضب ياحمقاء النساء! كل مافي الأمر أنني نطقت ذلك على تلك الصورة . والآن ، انظري! فيما كنا منهمكين بالحديث ، حاد الثوران عن الطريق .

وإتخذ غريغوري لنفسه جلسة أكثر راحة وألقى نظرة خاطفة على الأرملة الطروب فألفى دموعاً في عينيها . فقال في سريرته وشعور بعدم الارتياح والغيظ يخامره :

ـ أوه ، كأن المشاكل لم تكفني! هؤلاء النسوة على هذه الشاكلة دائماً...

وسرعان ماأغفى ، مضجعاً على ظهره ومغطياً وجهه بطرف معطفه الثقيل ، ولم يستيقظ الا بعد غروب الشمس .

وكانت نجوم المساء ترسل أشعة باهتة في السماء . وبلغت منخرية رائحة تبن طرية مبهجة :

قالت سائقته :

ـ يجب إطعام الثورين .

ـ حسن ، فلنتوقف .

وتولى غريغوري بنفسه رفع العدة عن الثورين ، ثم أخرج من حقيبة ميدانية علبة من اللحم المقدد وخبزاً . وجمع من النجيل اليابس وأشعل به ناراً على مسافة ليست بعيدة عن العربة ثم قال للمرأة :

ـ حسن ، فاجلسي وتناولي بعض العشاء . لقد طال غضبك .

فجلست بجانب النار ومن غير أن تنبس بشيء نفضت من خرجها خبزاً وقطة من شحم الخنزير قتِم لونها لقدمها . وخلال العشاء تبادلا حديثاً قصيراً هادئاً . ثم إرتقت العربة استعداداً للنوم ، فيما ألقى غريغوري عدة كتل من جل الثيران اليابس على النار لادامتها ، وتمدد بجانبها على نحو مايفعل الجنود ، ولبث بعض الوقت يحدق في السماء المتلألئة بالنجوم ، وقد أراح رأسه على حقيبة الميدان ، وهو يفكر ، تفكيراً غير موصول ، بطفليه واكسينيا ، ثم أغفى وبعد مضي بعض الوقت ، أيقظه صوت إمرأة متهيب :

ـ هل أنت نائم ، أيها الجندي ؟ هل أنت نائم أم لا ؟

فرفع رأسه . كانت رفيقته تتكئ على مرفقيها وقد تدلى نصف بدنها خارج العربة . وكانت سيماء وجهها شهية ومصطبغة باللون الوردي من أثر الشعاع القلق المنبعث من النار الخامدة من أسفل . وكانت أسنانها والأطراف المطرزة لعصابة رأسها تتألق بشدة خلل العتمة . وابتسمت ثانية .

فكأنه لم يكن ثمة ما يقال بينهما ، وقالت وهي تحرك حاجبيها :

ـ أخشى أن تتجمد في مكانك هناك . فالأرض باردة . إذا كنت تشعر بشدة البرد ، فاصعد معي ، إن فروتي دافئة على الدوام . ألن تصعد ؟

فقلب غريغوري الأمر في ذهنه بعض الوقت ، ثم أجاب متنهداً :

ـ شكراً ، يا فتاة . لكنني لا أرغب . لو حدث هذا قبل عام أو عامين... لا أظن أنني سأتجمد وأنا بجانب النار .

فتنهدت هي أيضاً وقالت :

ـ حسن ، كما تشاء .

وسحبت فروتها فوق رأسها .

بعد ذلك بقليل ، قام غريغوري على قدميه وجمع حوائجه . فقد عقد العزم على مواصلة الرحلة سيراً على قدميه لكي يبلغ تتارسكي مع الفجر . لقد كان من غير المعقول أن يدخل قريته ـ وهو الآمر العائد من الخدمة ـ على عربة ثيران في وضح النهار . فإن عودة كهذه كانت ستحدث موجة من التندر والتقول .

أيقظ المرأة وقال لها :

ـ سأواصل الرحلة على قدمي . هل تخشين البقاء وحيدة في السهب ؟

ـ كلا . أنا لست من الصنف الضعيف الأعصاب ، كما أن ثمة قرية ليست ببعيدة من هنا . لكن ، ماخطبك ؟ هل نفد صبرك ؟

ـ لقد أصبت . حسن ، الى اللقاء . لا تأخذي فكرة سيئة عني!

واستدار ناحية الطريق ورفع ياقة معطفه الثقيل . وسقطت ندفة من بواكير الثلج المألوفة المنعشة .

* * *

كان كوشيفوي قد ذهب الى فيشنسكايا ، ثم عاد في المساء فرأته دونيا من خلال الشباك ، يسوق العربة حتى بلغ البوابة ، فأسرعت تضع شالاً على كتفيها ، وخرجت الى الفناء .

وقالت لزوجها عند البوابة الصغيرة ، وهي ترنو اليه في قلق وترقب :
ـ عاد غريشا هذا الصباح .
فأجاب ميشا ، في لهجة متحفظة مشوبة بتهكم :
ـ هنيئاً لك .

ومضى الى المطبخ مزموم الشفتين . واختلجت عضلات وجهه تحت وجنتيه . كانت بوليوشكا قد ارتقت ركبة غريغوري وهي في معطفها النظيف الذي ألبستها إياه عمتها . فأنزل غريغوري الطفلة الى الأرض على مهل ومضى ليلاقي نسيبه ، مبتسماً ومادأ يده الكبيرة السمراء . وكان على وشك أن يعانق ميخانيل ، بيد أنه لاحظ السيماء الباردة غير الودود في عينيه الباسمتين ، فأحجم عن ذلك .

ـ حسن ، تحيات ، ياميشا!
ـ تحيات .
ـ مضى وقت طويل منذ أن تلاقينا آخر مرة . ويبدو كأنه قرن من الزمان .
ـ أجل ، وقت طويل... مرحباً بعودتك .
ـ شكراً . إذن ، فنحن أنسباء الآن ؟
ـ يبدو أن الأمر كذلك... ما هذا الدم الذي على خدك ؟
ـ لاشيء . جرحت وجهي بالموسي في غمرة عجلتي .

وجلسا الى المائدة . وجعل كل منها يتفحص الآخر في صمت ، وكلاهما يهجس شعوراً بالضيق والتباعد . كان لابد لهما من تبادل حديث جاد معاً ، الا أن ذلك كان مستحيلاً في تلك اللحظة . كان لميخانيل من ضبط النفس ماجعله يواصل في هدوء حديثاً عن الحقل والتغيرات التي كانت قد طرأت .

بعد ذلك بوقت قصير خرج ميخانيل . وفي الممر شحذ سكينه في اعتناء على حجر مسن وقال لدونيا :

ـ أنا ذاهب للبحث عمن ينحر لنا خروفاً . فلا بد أن يقابل رب الدار بالاستقبال اللائق . أسرعي واحصلي على شيء من الفودكا . لا ، انتظري! إذهبي الى بروخور وقولي له أن عليه أن يحصل على الفودكا من أيما مكان ، ولو من تحت الأرض . إنه يستطيع ذلك أفضل منك . وادعيه للعشاء أيضاً .

فتوهجت عينا دونيا فرحاً وألقت على زوجها نظرة امتنان صامت . وقالت لنفسها فيما كانت تتخذ طريقها صوب كوخ بروخور :

ـ لعل الأمور ستتخذ إتجاهاً خيراً... لقد إنتهينا من القتال ، فعلى أي شيء آخر سيتعاركان ؟ عسى الله أن يهديهما!

وفي أقل من نصف ساعة ، جاء بروخور راكضاً ، مبهور النفس . فهتف بصوت عال ، مشوب بالدموع :

ـ غريغوري بانتلايفتش! يا ولدي العجوز... حسبت أنني لن أراك ثانية أبداً!

وتعثر بعتبة الباب حتى كاد أن يحطم جرة الفودكا الكبيرة التي كان يحملها .

وعانق غريغوري ، وهو ينشج ويمسح عينيه ويمسد شاربه المبلل بالدموع . فاختلج شيء ما في بلعوم غريغوري ، لكنه كبح جماح عواطفه ، فربت على ظهر مراسله الوفي بضربات عنيفة ، وقد إنفعل أيما إنفعال ، وقال له في غير ترابط :

ـ حسن ، إذاً ، فقد التقينا من جديد... حسن ، وإنني لسعيد يا بروخور ، سعيد جداً! علام تبكي ، أيها الولد العجوز ؟ لم تعد تقوى على ضبط سلحك ؟ براغيك مرتخية ؟ كيف هي ذراعك ؟ إذا فإن زوجتك لم تخلع الثانية بعد ؟

فتمخط بروخور بعنف ونضا عنه فروته . وقال في مرحه المعتاد ، وهو يلوح بكم قميصه الخالي :

ـ أنا والعجوز نعيش هذه الأيام مثل زوج من الحمام . وكما قلت أنت ،

فإن ذراعي الأخرى سليمة ، وهذه التي بترها البولونيون البيض بدأت تنمو من جديد ، أي والله! ولن تمر سنة حتى ترى أصابع عليها!

كانت الحرب قد علمتهما كيف يخفيان مشاعرهما الحقيقية وراء إبتسامة ، كيف يرشان مقداراً كبيراً من الملح على الخبز والكلام معاً ، وهكذا مضى غريغوري ، في استفساراته بذات النغم الهازل :

ـ كيف تقضي حياتك ، أيها الماعز العجوز ؟ كيف نشاطك هذه الأيام ؟

ـ مثل رجل عجوز ، في التأني والسلامة!

ـ ألم تصب بشيء آخر مذ تركتني ، ها ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ عجباً ، الشيء الذي كنت تتباهى به في الشتاء الماضي...

ـ بانتلاييفتش! معاذ الله! مافائدة مثل هذا الترف الآن ؟ أضف الى ذلك ، كيف كان سيتسنى لي أن أتبخر وأنا بذراع واحدة ؟ إن ذلك من شأنك . إنها شغلة رجل شاب... لقد مضى وقت طويل منذ أن أعطيت مدادي لزوجتي لتدهن به مقالي المطبخ .

ولبثا يرنوان الى بعضهما ، رفيقا الخنادق القديمان هذان ، يضحكان ويبتهجان للقائهما من جديد .

وتساءل بروخور :

ـ هل عودتك نهائية ؟

ـ نهائية ، والى الأبد!

ـ وعلى أية رتبة حصلت ؟

ـ كنت الثاني في إمرة الكتيبة!

ـ إذن ، فلماذا سرحوك بهذه السرعة ؟

فغام وجه غريغوري ، وأجاب باقتضاب :

ـ لم تعد لهم حاجة إليّ .

ـ ولماذا ؟

ـ لاأدري ، بسبب من ماضي ، كما أظن .

ـ لكنك مررت بسلام مع «لجنة المكتب الخاص» التي قامت بغربلة جميع الضباط ، إذاً فكيف تسنى لهم أن يثيروا سيرة الماضي الآن ؟

ـ من يدري ؟

ـ ولكن أين هو ميخائيل ؟

ـ في الفناء . . إنه يسرح الماشية .

فاقترب بروخور من غريغوري وقال في صوت خفيض :

ـ أعدموا بلاتون ريابتشيكوف قبل شهر .

ـ ماهذا الذي تقوله ؟

ـ صدقني بالله!

وانبعث صرير باب السقيفة . فهمس بروخور :

ـ سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وأضاف في صوت أعلى :

ـ حسن ، أيها الرفيق الآمر ، هلا شربنا ، احتفالاً بهذه السعادة الكبرى ؟ هل أذهب وأدعو ميخائيل ؟

ـ أجل .

وأعدت دونيا المائدة . كانت لا تدري كيف تخدم أخاها بأفضل ما تستطيع . فوضعت منشفة نظيفة على ركبته ، وقدمت له صينية مليئة بالبطيخ المملح ، ومسحت قدحه خمس مرات على الأقل . ولاحظ غريغوري مبتسماً أن دونيا كانت تستحي من مخاطبته ولم تعد تستعمل صيغة «أنتم» المعهودة معه .

على المائدة ، ظل ميخائيل في البدء مطبق الفم ، وهو يصغي في انتباه الى حديث غريغوري . ولم يشرب الا قليلاً ، وعلى مضض . أما بروخور فكان يعب الفودكا قدحاً إثر قدح ، ويستحيل وجهه أرجواني اللون ولا ينفك يمسد بيده شاربه الأشقر في تكرار متزايد .

وبعد أن أطعمت دونيا الطفلين ووضعتهما في السرير ، وضعت على المائدة صحناً كبيراً من لحم الخروف المسلوق وهمست لغريغوري :

ـ أخي ، أنا ذاهبة الآن لأستدعي اكسينيا . أنت لا تمانع ، أليس كذلك ؟

فهز غريغوري رأسه موافقاً دون أن يتكلم . كان طوال ذلك المساء يعاني حالة متوترة من الترقب ، ومع ذلك فقد كان متأكداً من أن أحداً لم يكن قد لاحظ ذلك . بيد أن دونيا كانت تراه يصيخ السمع لكل ضربة على الباب ، وينظر من طرف عينه ناحيتها . إن عيني تلك الفتاة كانتا أقوى مما ينبغي ، ولم يكن ثمة ما يلفت من انتباههما!

وتساءل بروخور ، وهو لا يني يمسك بالقدح بقوة ، شأن الخائف أن يأخذه منه أحد :

ـ وذاك القوزاقي الكوباني تيرشتشنكو ، ألا يزال آمر رعيل ؟

ـ قتل في لفوف .

ـ حسن ، رحمة الله على روحه! كان خيالاً جيداً!

وفي حركة عاجلة رسم بروخور إشارة الصليب على نفسه دون أن يلاحظ إبتسامة كوشيفوي الهازئة ، ثم رشف شيئاً من قدحه .

ـ وماذا عن ذاك ، ذي الاسم الغريب ؟ ذاك الذي كان يسير في الجناح الأيمن... اللعنة ، ماذا كان إسمه ؟ آه ، فيبورودا ، أليس كذلك ؟ الأوكراني ، السمين المرح ، الذي شطر ضابطاً بولونياً شطرين في برودى . ألا يزال حياً يرزق ؟

ـ مثل جواد فحل! نقل الى سرية رشاشات .

ـ ولمن سلمت حصانك ؟

ـ كنت آنذاك قد تسلمت حصاناً آخر .

ـ إذن ماذا جرى للحصان ذي النجمة ؟

ـ صرعته شظية قذيفة .

ـ خلال معركة ؟

ـ كنا معسكرين في بلدة صغيرة وقد وجهت علينا القذائف . فقتل عند مربطه .

ـ آه ، ياللأسف ! ماكان أفضله من حصان!

وتنهد بروخور ، ومن جديد وضع شفته على القدح .

قعقعت سقاطة البوابة . فجفل غريغوري ، ثم اجتازت اكسينيا العتبة ، وتمتمت في لهجة غير واضحة :

ـ تحيات!

وشرعت تنضو عنها عصابة رأسها ، وهي تجر أنفاساً سريعة وتسمرت عينيها الواسعتين المتوهجتين على غريغوري . واقتربت من المائدة وجلست بجانب دونيا . وكانت ثمة ندف صغيرة من الثلج تذوب على حاجبيها وأهدابها وعلى وجنتيها الشاحبتين . ومسحت وجهها براحة يدها ، وهي تضيق عينيها ، وتنهدت بعمق ، وآنذاك فقط استطاعت أن تمسك زمام نفسها وأن تنظر الى غريغوري ، وقد قتمت عيناها بفيض من العاطفة .

قال بروخور :

ـ يا رفيقتنا الجندية! يا اكسينيا! معاً تراجعنا ، معاً أطعمنا القمل... رغم أننا هجرناك في الكوبان ، ماذا كان بوسعنا أن نفعل غير ذلك ؟

ومد بروخور قدحه لها ، ساكباً الفودكا على المائدة ، وقال :

ـ اشربي نخب غريغوري بانتلاييفتش! هنئيه على عودته... لقد قلت لك أنه سيعود سالماً معافى ، وها هوذا . تستطيعين أن تأخذيه مقابل روبل! عجباً ، هوذا يجلس هناك ، يلمع مثل دبوس جديد!

ـ إنه ثمل ، يا جارة ، فلا تأبهي لكلامه!

فانحنت اكسينيا لغريغوري ودونيا ولم ترفع قدحها عن المائدة إلا قليلاً . فقد كانت تخشى أن يلاحظ الجميع إرتعاش يدها . وقالت :

ـ نخب وصولك ، يا غريغوري بانتلاييفتش ، ونخب فرحتك ، يادونيا!

فهتف بروخور :

ـ وأنت ، نخب ماذا ؟ الحزن ؟

وانفجر في هدير من الضحك ، ولكز ميخانيل في جنبه .

فاحمر وجه اكسينيا احمراراً شديداً ، حتى أن شحمتي أذنيها الصغيرتين أمستا ورديتي اللون ، شفافتين . بيد أنها سددت نظرة ثابتة غاضبة الى بروخور ، وردت بقولها :

ـ ونخب فرحتي! فرحتي الكبرى!

فأسقط في يدي بروخور إزاء صراحتها ، وهتف :

ـ اشربيه حتى الثمالة ، بالله عليك ، حتى آخر قطرة منه! أنت تعرفين أن تتكلمي الى الآخر ، فتعلمي الآن أن تشربي الى الآخر . يطعن قلبي من يبقي شيئاً من الشراب .

لم تلبث اكسينيا طويلاً ، بل الى الحد الذي اعتبرته مناسباً . ورغم ذلك ، لم تنظر الى حبيبها الا لماماً ، ولثانية من الوقت فقط . بل قسرت نفسها على إبقاء نظرها على الآخرين وتجنب النظر الى عيني غريغوري ، فما كان في مكنتها أن تتظاهر باللامبالاة ولم تشأ أن تعري مشاعرها . ولم تلتق عيناها بعيني غريغوري سوى مرة واحدة ، وذلك حينما كانت واقفة عند عتبة الباب ، وكانت نظرة خاطفة مباشرة ، مليئة بالحب والوله ، ولكنها نظرة حدثته عن كل شيء . فقام ليوصلها الى الباب ، فلم يتمالك بروخور الثمل الا أن يهتف وراءهما :

ـ لا تتأخر! فسوف نقضي على الفودكا!

وفي السقيفة ، قبل غريغوري اكسينيا ، دونما كلام ، في جبهتها ، وقال متسائلاً :

ـ حسن ، كيف الحال ، يا اكسينيا ؟

ـ أوه ، أنا لا أقدر أن أخبرك بكل شيء... هل ستأتي غداً ؟

ـ نعم .

وأسرعت الخطى الى دارها ، وكأن واجباً عاجلاً كان ينتظرها هناك . ولم تبطىء سيرها السريع الا حينما بلغت باب بيتها ، فارتقت في احتراس درجات العتبة الصارة تحت قدميها . كانت تريد أن تنفرد في أقرب وقت بأفكارها ، بالسعادة التي هبطت عليها على غير موعد .

نضت عنها سترتها وعصابة رأسها ، ومن غير أن تشعل ضياء مادلفت الى غرفة الضيوف . كان بصيص الليل الليلكي الغامق ينسل الى داخل الغرفة خلل النافذة مفتوحة الأباجور . وكان ثمة صرصار يرسل سقسقة موسقة من وراء الموقد . وألقت اكسينيا ، بحكم العادة ، نظرة على نفسها في المرآة ، وعلى الرغم من أنها لم تميز صورتها عليها خلال العتمة الا أنها صففت شعرها ومسدت طيات قميصها الموسلين عند الصدر ، ثم مضت صوب النافذة وألقت بنفسها ، في كلال ، على المصطبة .

لقد حدث ، مرات كثيرة ، في حياتها أن تبين لها أنه لم يكن لآمالها وأمانيها مايبررها ، ولعل ذلك كان السبب الذي جعل القلق المقيم يحل محل الفرحة التي عرفتها أخيراً . أي اتجاه ستأخذه حياتها الآن ؟ ماالذي كان يترصدها في مسالك المستقبل ؟ ثم ، ألم تكن سعادة المرأة المريرة تبتسم لها بعد فوات الأوان ؟

لبثت جالسة وقد هدت حولها الانفعالات التي أحست بها طوال تلك الأمسية ، واضعة خدها على لوح النافذة الزجاجي المغطى بالجمد ، ومسمرة نظرتها الساكنة والمشوبة ببعض الأسى في طيات العتمة التي لم تكن يضينها سوى بياض الثلج الخفيف .

* * *

جلس غريغوري الى المائدة وصب لنفسه من الجرة قدحاً مليئاً ، وعبّه جرعة واحدة .

فتساءل بروخور :

ـ صنف جيد ؟

ـ لا أدري . مضى قرن منذ أن شربت آخر مرة .

فقال بروخور في لهجة واثقة :

ـ إنه ، والله ، مثل فودكا القياصرة!

ومال ، فعانق ميشا :

ـ فهمك في مثل هذه الأمور ، ياميشا ، أقل من فهم عجل في شؤون القمامة . أما أنا ، فعليم خبير حيثما كان الأمر متعلقاً بالخمر . حسبك أن تتصور الخمور والنبائذ التي شربتها في حياتي! فهناك النبيذ الذي يرغو من القنينة ، مثلما يزبد كلب مسعور ، حتى قبل أن تسحب السدادة... يشهد الله أنني لا أكذب! ففي بولونيا ، حينما اخترقنا الجبهة وانطلقنا على صهوات خيلنا مع بوديوني لتحطيم صفوف البولونين ، حدث أن استولينا على ضيعة من الضياع في هجوم خاطف . كانت دار الضيعة ذات طابقين أو أكثر ، وكانت الماشية محشورة في الفناء قرناً لقرن ، وكانت شتى أصناف الدواجن تجول هنا وهناك ، ولم يكن ثمة متسع ليبصق المرء فيه . باختصار ، كان صاحب الضيعة تلك يعيش كما يعيش أمير . وحينما مرق رعيلنا الى داخل الضيعة على صهوات الخيل كان هناك ضباط منكبون على الطعام والشراب مع صاحب الدار... لم يكونوا يتوقعون هجومنا . فصرعناهم جميعاً بالسيف في البستان وعلى السلم ، بيد أننا اقتدنا واحداً منهم أسيراً . كان يبدو ضابطاً مهماً ، ولكن حينما أسرناه تهدل شاربه وأمسى لا يقوى على الوقوف لشدة ذعره . وكان غريغوري بانتلاييفتش قد استدعي الى مقر الأركان لأمر عاجل ، فأنيطت المسؤولية بنا . نزلنا الى الغرف السفلى ، وهناك وجدنا مائدة هائلة . حسبك أن تتصور الأصناف التي كانت عليها! فلبثنا نحدق فيها ، الا أننا توجسنا خفية من الشروع في الأكل رغم أننا كنا نشعر بجوع فظيع . وكنا نفكر :

ـ قد يكون الطعام كله مسموماً .

وكان أسيرنا يسدد نحونا نظرات أشبه بالخناجر . وهكذا قلنا له آمرين :

ـ كل!

فأكل . لم يفعل ذلك في الحال ، لكنه أكل فعلاً .

ـ اشرب!

وشرب . جعلناه يأكل لقمة كبيرة من كل صحن ويشرب قدحاًمن كل قنينة . فانتفخ الشيطان أمام عيوننا بما أكل كل الانتفاخ ، ونحن ننظر اليه وأفواهنا تتحلب . ثم وجدنا أن الضابط باق على قيد الحياة ، فشرعنا نعمل . أكلنا وشربنا من النبيذ المزيد حتى أتخمنا الى حد عيوننا . ثم لاحظنا أن الضابط شرع يقذف ما في جوفه من طرفيه! فقلنا في أنفسنا :

ـ يا للجحيم! لقد قضي علينا! تعمد ذلك الثعبان أن يأكل من الطعام المسموم للايقاع بنا جميعاً . فاندفعنا عليه بسيوفنا المسلولة ، غير أنه صار يلوح بذراعيه وساقيه ، وهتف :

ـ كل ما في الأمر أنني أكلت أكثر مما ينبغي بناء على الحاحكم . لا تخشوا شيئاً ، فالطعام سليم .

فعدنا الى النبيذ . كنا نسحب سدادة ، فكانت تنطلق مثل رصاصة وتفور الرغوة مثل غيمة كبيرة . لقد جعلني ذلك النبيذ أسقط من على حصاني ثلاث مرات تلك الليلة . كنت في اللحظة التي أرتقي فيها السرج أقع ثانية وكأن الريح كانت تطير بي . آه ، يا ليتني أن أشرب نبيذاً مثل ذلك دائماً ، قدحاً أو قدحين منه قبل الأكل ، اذن لعشت المائة . ولكن ، والأمور كما هي عليه الآن ، هل من المحتمل أن يعيش أي امرئ ما كتب له من العمر ؟ أتسمي هذا شراباً ، مثلاً ؟ انه وباء معد ، وليس شراباً! هذا يجعلك تفارق الدنيا قبل الأوان ، ولا شيء أكثر من هذا!

وبايماءة من رأسه ، أشار بروخور نحو جرة الفودكا ، ثم صبّ لنفسه قدحاً طافحاً آخر .

مضت دونيا لتنام مع الطفلين ، وما لبث بروخور أن نهض . فألقى بفروته على كتفيه ، وهو يترنح ، وقال :

ـ لن آخذ الجرة معي . نفسي لا تطاوعني على حمل الجرة فارغة ... . حينما أبلغ البيت ، ستبدأ زوجتي بعزف أسطوانتها . وهي حاذقة في ذلك ! من أين تحصل على مثل تلك التعابير القذرة ، لا أدري! أعود الى البيت عقب تناولي بعض الشراب فتزعق بوجهي على النحو التالي :

ـ أيها السلوقي السكير ، يا كلباً مقطوع الذراع ، ياكذا وياكيت!

فأحاول بكل هدوء ورقة أن أفتح عينيها على المنطق . فأقول لها :

ـ أيتها الحمقاء الشيطانية ، ياضرع الكلبة ، هل رأيت سلوقياً سكيراً ، مقطوع الذراع أيضاً ؟ لا وجود لمثل هذه الأشياء في العالم .

أفند احدى مزاعمها المعيبة ، فتأتيني بثانية في الحال . أفند الثانية ، فتهينني بثالثة ، ويستمر الحال على هذا المنوال طوال الليل حتى الفجر ... . أحياناً ينفد صبري من الاستماع اليها فأخرج الى المأوى وأنام هناك . ولكن ، يحدث في بعض الأحيان حين أعود الى البيت ، ثملاً بعض الشيء ، وتسكت هي دون أن تشتمني ، آنذاك لا أستطيع النوم ، أي وحق الله! يكون الأمر وكأن شيئاً ماينقصني ، وينتابني شيء مثل الحكة ، وفي ذلك منتهاها . وآنذاك أتحرش بزوجتي ، فتشرع بالزعيق في وجهي من جديد الى أن يتطاير الشرر مني . إن في داخلها شيطاناً ، أي نعم ، وليس بمقدوري أن أفعل شيئاً في هذا الشأن ، فلتستمر على ذلك ، ولسوف تغدو عاملة أفضل . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ حسن ، أنا ذاهب ، الى اللقاء! أم ترى من الخير أن أقضي الليلة في الاسطبل ولا أزعجها ؟

فسأله غريغوري ضاحكاً :

ـ هل تستطيع الوصول الى البيت ؟

ـ ولو بالزحف كالسرطان البحري! ألست قوزاقياً . يا بانتلايفتش ؟ أنا منزعج تماماً لسماع مثل هذا السؤال منك .

ـ حسن ، إذاً ، فلتصحبك السلامة!

وأوصل غريغوري صديقه حتى البوابة الصغيرة ، ثم عاد الى المطبخ .

ـ حسن ، أتود أن نتبادل الحديث ، يا ميخائيل ؟

ـ لا بأس .

جلسا وجهاً لوجه ، تفصل المائدة بينهما ، وخلدا الى الصمت . ثم قال غريغوري أخيراً :

ـ ثمة شيء بيننا . أستطيع أن أستشف من النظر الى وجهك بأن هناك أمراً على غير مايرام . لعلك لم تفرح بعودتي ؟ أم لعلي مخطئ ؟

ـ كلا . أصبت في حدسك . لم أفرح لعودتك .

ـ لماذا ؟

ـ إنها تنطوي على إضافة سبب آخر الى أسباب القلق .

ـ أنا عازم على أن أكسب قوتي بجهدي .

ـ لست أفكّر في هذا الاتجاه .

ـ ماالذي تفكّر فيه اذن ؟

ـ نحن عدوّان .

ـ كنّا عدوّين .

ـ أجل ، ويبدو الأمر وكأننا سنظل عدوّين .

ـ أنا لاأفهم . لماذا ؟

ـ لايمكن الركون اليك .

ـ أنت على خطأ . كلامك خاطئ .

ـ كلا ، لست على خطأ . لماذا سرحت في وقت كهذا ؟ هلا أخبرتني بصراحة ؟

ـ لاأدري لماذا .

ـ بل تدري ، لكنّك لاتريد أن تقوله . إنهم لايثقون بك... أليس هذا هو السبب ؟

ـ لو لم يثقوا بي ، ماكانوا ليعينونني آمر سرّية .

ـ كان ذلك أوّل انضمامك اليهم . ولكن ، حيث أنهم لم يبقوك في الجيش ، فالأمر واضح جداً ، أيها الأخ ؟

فتساءل غريغوري محدّقاً في عيني ميشا :

ـ ولكن ، هل تثق أنت فيّ ؟

ـ كلاّ! مهما أطعمت الذئب فإن عينه ستظل على الغابة .

ـ شربت أكثر مما ينبغي هذا المساء ، ياميخائيل .

ـ تستطيع أن تكف عن هذا! لست أكثر سكراً منك . إنهم لم يثقوا بك هناك ، وهم لن يضعوا كبير ثقة فيك هنا ، فليكن هذا مفهوماً لديك!

لم يجب غريغوري . بل تناول قطعة من الخيار المخلل من الصحن ، ولاكها في فمه ، ثمّ بصقها .

سأله ميخائيل :

ـ هل أخبرتك زوجتي عن كيريل غروموف ؟

ـ نعم .

ـ هو الآخر لم تعجبني دعوته . حالما سمعت بها ، وفي اليوم نفسه...

فشحب اللون من وجه غريغوري ، وجحظت عيناه غضباً :

ـ فما أنا بالنسبة اليك إذاً : كيريل غروموف ؟

ـ لا تصرخ! بأية صورة أنت أفضل منه ؟

ـ حسن ، أنت تعرف...

ـ ليس الموضوع موضوع معرفة . لقد عرفنا كل شيء منذ أمد طويل . ثم هب أن ميتكا كورشونوف عاد الى القرية... هل يتعيّن علي أن أفرح بعودته أيضاً ؟ كلا ، كان من الأفضل لو أنك لم تظهر في القرية .

ـ أفضل بالنسبة لك ؟

ـ أفضل بالنسبة لي وبالنسبة للناس... اهدأ .

ـ لاتقارنّي بهؤلاء الآخرين .

ـ سبق أن قلت لك ، ياغريغوري ، ولامعنى في غضبك من ذلك ؛ لست بأفضل منهم . أنت ، في الواقع ، أسوأ . إنّك أشد خطراً .

ـ وكيف هو ذلك ؟ ماالذي تعنيه ؟

ـ ما هم إلا قوزاق من المراتب الدنيا ، ولكن أنت الذي بدأ الانتفاضة .

ـ أنا لم أبدأها . أنا كنت قائداً للفرقة .

ـ أوليس ذلك كافياً ؟ وهل هذا قليل ؟

ـ قليل أم كثير ، ماهذا بالموضوع... لو لم يكن رجال الجيش الأحمر قد عقدوا العزم على اغتيالي في تلك الليلة ، لكان من الجائز ألا أشارك في الإنتفاضة .

ـ لو لم تكن ضابطاً ، ماكان لأحد أن يمسك بشيء .

ـ لو لم أجنّد في الجيش ، ماكنت لأصبح ضابطاً... إن القصة ستطول على هذا النحو .

ـ وهي قصة طويلة وعفنة معاً .

ـ وليس في الإمكان تكرار سردها الآن ، بأية حال ، بعد أن مضت وانتهت!

لبثا يدخّنان في صمت . ثمّ قال كوشيفوي وهو ينفض رماد سيكارته بأظفره :

ـ أنا عليم ببطولاتك كلّها . لقد سمعت بها . لقد صرعت عدداً كبيراً من رجالنا ، ولن يجعل ذلك من اليسير عليّ أن أراك أمامي... فليس ذلك مما يمكن نسيانه بسرعة!

فضحك غريغوري ضحكة لاذعة ، وقال :

ـ إنّ لك ذاكرة حسنة! لقد قتلت أخي بيوتر . لكنني لم أرد أن أشير لك الى ذلك... اذا كان علينا أن نتذكّر كل شيء ، فسيلزم أن نعيش كما تعيش الذئاب .

ـ حسن ، لقد قتلته فعلاً ، لست أنكر ذلك . ولو حالفني الحظ بوقوعك في يديّ يومئذ لقتلتك أيضاً عن رغبة!

ـ أمّا أنا ، فحينمااقتادوا ايفان أليكسييفتش أسيراً من أوست ـ خوبرسكايا ، أسرعت الى القرية لأنني خشيت أن تكون أنت من بين الأسرى ، خشيت أن يقتلك القوزاق... يعني أن اسراعي كان عبثاً .

ـ يا لنبلك! أستطيع أن أتخيّل كيف كنت ستكلّمني لوكنتم قد انتصرتم ، أحسب أنّك كنت ستمزّق ظهري شرائط شرائط . أصبحت الآن طيباً فجأة...

ـ ربّما كان الآخرون سيقتلونك ، أمّا أنا فما كنت لألوّث يدي بدمك .

ـ اذاً ، فنحن مجبولان من طينتين متباينتين... أنا لم أخش قط تلويث يدي بدماء الأعداء ، ولن أحيد الآن قيد شعرة عن ذلك اذا دعت الحاجة...

وصبّ ميشا بقية الفودكا في القدحين وسأل غريغوري :

ـ أتشرب . لا بأس . صحونا أكثر مما يستدعيه حديث كهذا...

وتقارعا بالقدحين وشربا في صمت . ومال غريغوري الى أمام فوق المائدة ، وجعل يجيل بصره خلال عينيه نصف المغمضتين وهو يفتل شاربه . ثمّ قال :

ـ ولكن ، ماالذي تخشاه ، ياميخائيل ؟ أن أثور ثانية ضد الحكم السوفييتي ؟

ـ أنا لا أخشى شيئاً ، ولكن ما أفكّر به فعلاً هو : لو حدث شيء فستنسل أنت الى الجانب الآخر من جديد .

ـ ألا تظن أنّه بإمكاني أن أفعل ذلك مع البولونيين ؟ لقد انضمّت اليهم كتيبة بكاملها .

ـ لم يسعفك الوقت ؟

ـ بل لم أرد ، وهذا كل مافي الأمر . لقد خدمت مافيه الكفاية . أنا لا أريد أن أخدم كائناً ما كان بعد اليوم . لقد حاربت أكثر مما ينبغي بالنسبة لعمري ، وأنا الآن في غاية التعب . لقد سئمت كل شيء ، سئمت الثورة وسئمت الثورة المضادة . فليذهب كل ذلك... كل شيء الى الجحيم! أريد أن أحيا بقية حياتي مع طفليّ ، أن أعود الى الحقل ، فحسب . صدّقني ،

ياميخانيل ، أنا أقول هذا من صميم قلبي!

ولكن ، لم يكن لأيما تأكيد أن يقنع ميخانيل .وأراد غريغوري ذلك ، فخلد الى الصمت . وخامره شعور طارئ بالحنق المرير من نفسه فيم ، بحق الشيطان كانت محاولته لتبرير نفسه أمامه ، للبرهنة على أيما شيء ؟ أي معنى كان في مواصلة هذا الحوار الثمل والاستماع الى مواعظ ميخانيل السخيفة ؟ الى الجحيم بها جميعاً! وقام على قدميه .

ـ يجب أن نتوقف عن مواصلة هذا الحديث غير المجدي . لقد نلت الكفاية! على أن هنالك شيئاً واحداً أخيراً أريد أن أقوله لك : أنا لن أقوم بأي عمل ضد الحكومة طالما أن الحكومة لا تمسك بي من بلعومي . على أنّها لوفعلت ، فسأدافع عن نفسي! ومهما يكن من أمر ، فإنني لن أضحّي برأسي بسبب الانتفاضة ، كما فعل بلاتون ريابتشيكوف .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني ماأقول . فليأخذوا في حسابهم خدمتي في صفوف الجيش الأحمر والجروح التي أصبت بها نتيجة لذلك . انني مستعد لدخول السجن بسبب اشتراكي في الإنتفاضة ، أمّا إذا حكموا بإعدامي بسببها ، فلا عذر لي! لأن ذلك سيكون أكثر من اللازم!

فضحك ميخانيل بازدراء ، وقال :

ـ هذه فكرة لطيفة جالت في رأسك! المحكمة الثورية أو« التشيكا » لن تسألك ماذا تريد ولاتريد . كما أنَهم لن يبدأوا أية مساومة معك . متى ماقرروا ادانتك ، تتلقّى نصيبك الى حد القيراط! فالديون القديمة يجب تسديدها كاملة .

ـ سنرى .

ـ لاشك أننا سنرى .

خلع غريغوري نطاقه وقميصه ، وبدأ يخلع جزمته وهو يحمحم . ثمّ تساءل وهو يتفحّص ، باهتمام مبالغ فيه . كعب جزمته المكسور :

ـ هل سنتقاسم هذا المكان ؟
ـ لن تطول إقامتي . سأهيىء كوخي وأنتقل اليه في الحال .
ـ نعم ، فلنكن مبتعدين عن بعضنا . لن ننسجم في العيش معاً .
فقال ميخائيل موافقاً :
ـ لا ،لن ننسجم .
ـ حسن ، لم أقدر أن يكون رأيك بي على هذا النحو... ومع ذلك ، فأنا أحسب أن... .
ـ لقد أخبرتك كل شيء بصراحة . بحت لك بما في ذهني . متى ستذهب الى فيشنسكايا ؟
ـ في أحد الأيام القريبة .
ـ هذا ليس مقبولاً . عليك أن تذهب غداً .
ـ لقد قطعت أربعين فرستاً سيراً على الأقدام ، وأنا مرهق تماماً . سأستريح غداً وأذهب لتسجيل اسمي بعد غد .
ـ يجب أن تسجّل فوراً . اذهب غداً .
ـ لابد أن أرتاح يوماً ، أليس كذلك ؟ لن أهرب .
ـ الشيطان يدري ماذا يمكن أن تفعل . أنا لاأريد أن أكون مسؤولاً عنك .
فقال غريغوري ، وهو يراقب بشيء من الاستغراب وجه صديقه السابق ، بسيمانه القاسية :
ـ الى هذا الحد صرت وغداً ، يا ميخائيل!
ـ لاتتطاول علي بكلمة« وغد »! فلست معتاداً على ذلك .
وجرّ ميخائيل نفساً قصيراً ، ثمّ أضاف بصوت عال :
ـ يجدر بك أن تتخلّى عن عادات الضبّاط هذه! اذهب غداً ، واذا لم تذهب بنفسك فسأرسلك تحت الحراسة . أفهمتني ؟
ـ أجل ، فهمت كل شيء الآن... .

لبث غريغوري يحدّق في ظهر ميخائيل بنظرة كارهة أثناء خروجه من الغرفة ، ثمّ استلقى على السرير دون أن يخلع ملابسه .

حسن ، هاقد حدث كل شيء على الوجه الذي كان لابد أن يحدث . أية معاملة أخرى كان هو ، غريغوري ، يتوقّع أن يلقى لدى وصوله ؟ ما الذي كان يدفعه الى الظن بأن خدمته المشرفة الوجيزة في صفوف الجيش الأحمر ستشفع لمحو آثامه السابقة جميعاً ؟ ولعل ميخائيل كان على حق حينما قال بأن ليس لكل شيء أن يغتفر ، وأن الديون القديمة يجب تسديدها كاملة .

وفي نومه ، رأى غريغوري السهب الطلق ، ورأى كتيبة موزّعة استعداداً لشن هجوم . ومن مكان ما ، من بعيد ، جاء الأمر بالنبرة المستطيلة الممدودة :« سريـــة! » ، ولم يدرك غريغوري الا آنذاك أن أحزمة السرج لم تكن مشدودة تحت حصانه . فوضع كل ثقل جسمه على الركاب الأيسر ، فانزلق السرج من تحته . فانتابه شعور بالخزي والخوف وقفز عن حصانه ليشد أحزمة السرج .

وفي تلك اللحظة سمع ارعاد سنابك الخيل يرتفع لحظة ثمّ ينخفض بسرعة . لقد انطلقت الكتيبة الى الهجوم بدونه .

تقلّب على جنبه ، واذ استيقظ من نومه سمع صوت أنينه المتحشرج هو .

خارج النافذة ، كان النهار قد شرع بالطلوع . ولابد أنّ الريح هي التي فتحت الأباجورات خلال الليل ، اذ استطاع أن يرى خلل الزجاج المغطّى بالجمد الى القرص الأخضر المشع للقمر الآفل . وتلمّست يداه طريقهما الى كيس التبغ ، وأشعل سيكاره . كان قلبه لايزال يدق دقاً أجوف سريعاً . فاستلقى على ظهره وابتسم . أي حلم شيطاني سخيف! أن يتخلّف عن الاشتراك في معركة! ولم يخطر بباله في ذلك الصباح الباكر ، أنّه سيشترك في الهجوم من جديد ، وأكثر من مرة ، ليس في أحلامه ، وحسب ، بل في ساعات يقظته أيضاً .

٧

استيقظت دونيا في وقت مبكّر . كان عليها أن تحلب البقرة . وكان غريغوري يتمشّى متمهلاً داخل المطبخ وهو لاينفك يسعل . سحبت دونيا البطانية على الطفلين ، ثمّ ارتدت ملابسها بسرعة ومضت الى المطبخ . فوجدت أخاها يزرر معطفه الثقيل .

ـ الى أين ذاهب في هذا الوقت المبكّر ، ياأخي ؟

ـ ذاهب لأتمشّى في القرية ، لمجرّد القاء نظرة عليها .

ـ لطيف لو تفطر قليلاً ، وبعدها...

ـ لاأرغب بشيء . أشعر بصداع .

ـ هل ستعود مع موعد الفطور ؟ أنا ذاهبة في الحال لإيقاد النار في الموقد .

ـ لاداعي لانتظاري . لن أعود قبل مضي بعض الوقت .

خرج غريغوري الى الشارع . كان ذوبان الجليد قد بدأ مع اقتراب الصبح . وكانت الريح القادمة من الجنوب رطبة دافئة ، والثلج المختلط بالتراب يعلق بكعبي جزمته . وفيما كان غريغوري يسير على مهل باتجاه القرية جعل يتفحّص باهتمام البيوت والمآوي . كان يعرفها منذ نعومة أظفاره ، وكأنّه كان في مكان غريب . كانت خرائب دور التجّار ومخازنهم التي كان كوشيفوي قد أضرم فيها النار في العام الماضي تبدو سوداء قاتمة في ساحة القرية ، وثمة ثغرات متثائبة في حائط القرية شبه الممحوق . فحدّث غريغوري نفسه في غير اهتمام كبير :«لقد غدا الطابوق صالحاً لاستعماله في المواقد » . وكانت الكنيسة في مكانها ، كعهده بها في السابق ، قمينة مهدولة على الأرض ، وكان سقفها الطويل غير المطلي موشّحاً بالصدأ ، وجدرانها مبقّعة بآثار الرطوبة ، وحيثما كان الطلاء مكشوطاً بان الطابوق الأجرد أحمر ، جديداً ، لامعاً .

كانت الشوارع مهجورة . مرت به ، في موضع ليس ببعيد عن البئر ، امرأتان أو ثلاث ، مثقلات العيون بالنعاس ، فانحنين له في صمت وكأنه كان شخصاً غريباً عن القرية ، ولم يتوقّفن ليحدّقن فيه الا بعد أن كان قد اجتازهن .

توقّف ، ثمّ كرّ عائداً :

ـ يجب أن اذهب الى المقبرة لزيارة قبري أمي وناتاليا .

وسار في زقاق يؤدّي الى المقبرة . لكنّه ما أن قطع بعض المسافة حتّى توقّف ، كان قلبه مثقلاً بالهم بما يكفي حتّى بدون زيارة المقبرة . فحدّث نفسه :

ـ سأذهب في وقت آخر .

واستدار ميمّماً شطر بيت بروخور :

ـ الأمر سيّان لديهم إن زرتهم أم لا . إنهم راقدون بسلام الآن . لقد انتهى كل شيء بالنسبة لهم . قبورهم مرشوشة بالثلج . على أن الأرض لابد أن تكون شديدة البرودة في الداخل... حسن ، لقد انقضت حياتهم ، وبسرعة بالغة ، كالحلم . وهناك ، كلهم راقدون معاً ، جنباً الى جنب : زوجتي وأمّي وبيوتر وداريا... لقد انتقلت العائلة برمّتها الى هناك لترقد جنباً الى جنب . هم بخير هناك ، إلا أبي الذي يرقد وحده في أرض غريبة . موحش له أن يرقد بين غرباء .

ولم يعد غريغوري ينظر الى ما حوله ، بل واصل سيره وعيناه مسمّرتان على قدميه ، وعلى الثلج الأبيض الذائب الذي كان رقيقاً الى حد أنه لم يكن يشعر به وهو يستسلم الى وطء قدميه ، لاتكاد تندّ عنه نأمة .

ثم عرجت أفكاره ناحية طفليه . لقد أمسيا متحفّظين بشكل غريب . صموتين بما لايأتلف مع عمريهما ، وليسا كما كانا أيام كانت أمهما على قيد الحياة . لقد سلبهما الموت أكثر مما ينبغي . كانا خائفين . لمَ انفجرت بوليوشكا بالدموع أمس حينما رأته ؟ فالأطفال لايبكون عادة أثناء مثل هذه

اللقاءات ، ماالذي كان يدور بخلدها ؟ ولماذا ومض الفزع في عينيها حينما احتواها بين ذراعيه ؟ لعلّها كانت طوال ذلك الوقت تحسب أن أباها قد مات وأنه لن يعود ، وحينما وقع بصرها عليه انتابها الخوف . وعلى أية حال ، فليس ثمة مايدعوه الى أن يلوم نفسه بسببهما . بيد أن عليه أن يطلب من اكسينيا أن تكون رؤوماً بهما وأن تحاول أن تشغل مكان أمهما بقدر ماتستطيع... لعلّهما سيتعلقان بإمرأة أبيهما مع مرور الزمن . إنها امرأة طيبة عطوف ، ولحبّها له ، ستغدق الحب على طفليه أيضاً .

ووجد أن التفكير بهذا الموضوع مؤلم ومرير ، هو الآخر . لم يكن الأمر على هذا اليسر . فالحياة نفسها كانت تتكشّف له عن أنّها لم تكن على اليسر الذي تصوّرها عليه في الآونة الأخيرة .

ففي بساطته الطفولية الخرقاء كان قد افترض أنّ بمجرد أن يعود الى القرية ، بمجرد أن يستبدل معطفه الثقيل بسترته الفلاحية ، فإن كل شيء سيغدو على مايرام . لن يفوه أحد بكلمة تجاهه ، لن يلومه امرؤ ، سيسوّي كل شيء من تلقاء ذاته ، وسيعيش هو بقية أيامه مزارع حبوب مسالماً ورب عائلة مثاليّاً . لا ، فالواقع لايبدو على هذه الدرجة من اليسر .

فتح ، بحذر ، بوابة دار زيكوف الصغيرة المتشبّثة بمفصلة واحدة . كان بروخور يسير باتجاه درجات العتبة ، محتذياً جزمة لبّادية واسعة متقنة الترقيع ، ومعتمراً قبعة مثلّثة الزوايا منكوسة الى عينيه ، وهو يؤرجح بيده سطلاً فارغاً مما يحمل به اللبن . وكانت قطرات بيض من اللبن تترشرش على الثلج دون أن تراها العين .

حيّا غريغوري بقوله :

ـ هل قضيت ليلة هادئة ، أيها الرفيق الآمر ؟

ـ الحمد لله!

ـ يجدر بنا أن نشرب قطرة لإزالة الخمار ، أنا أحس برأسي فارغ كهذا السطل .

ـ فكرة حسنة ، ولكن لماذا السطل فارغ ؟ هل حلبت البقرة بنفسك ؟

وبهزّة من رأسه ، نحّى بروخور قبعته الى مؤخرة رأسه ، فلاحظ غريغوري آنذاك أن وجه صاحبه كان كئيباً على غير عادته .

ـ حسن ، هل كان الشيطان سيحلبها عنّي ؟ نعم ، أنا الذي حلبتها ، بدلاً من امرأتي اللعينة! لاأريد سوى أن تصاب بالزحار جزاء عملها هذا!

وقذف بروخور بالسطل عنه مغتاظاً ، وقال باقتضاب :

ـ لندخل!

وتساءل غريغوري من غير ما تصميم :

ـ وماذا عن زوجتك ؟

ـ لقد أكلتها الأبالسة مع لبن «الكفاس» الحامض! قبل أن يطر الفجر لملمت نفسها ومضت الى كروجيلينسكي للحصول على الزعرور . انفجرت بي حالما عدت الى البيت ليلة أمس . ألقت عليّ محاضرة وأصدرت اليّ أوامر إضافية ، ثمّ قفزت الى العربة قائلة :

ـ أنا ذاهبة لجمع شيء من الزعرور . فإنّ كنّات ماكاساييف ذاهبات اليوم ، سأذهب أنا معهن . ـ فقلت مع نفسي :«اذهبي كما يحلو لك ، اذهبي لجمع الكمثرى إن شئت ، ففي ذلك خلاصي! » نهضت ، أوقدت الموقد ، وخرجت لحلب البقرة . وقد حلبتها على نحو بديع! أتظن أن رجلاً يستطيع القيام بمثل هذه الأعمال بذراع واحدة ؟

ـ كان يجدر بك أن تطلب من إحدى النسوة أن تفعل ذلك عنك ، يا بليد!

ـ الخروف بليد ، سيظل يمص ضرع أمه الى أن يحل عيد العذراء المباركة! أمّا أنا فلم أكن بليداً قط طوال حياتي . حسبت أنني سأدبّر ذلك بنفسي . وقد دبّرته فعلاً . قعدت على عجزي تحت البقرة . ولكن ، عليها اللعنة ، ماكانت لتقف في مكانها لحظة ، بل ظلّت تتحرّك الى جميع الجهات طوال الوقت . حتّى أنني نزعت قبعتي كيلا تخاف منها ، ولم ينفع ذلك . تنقع قميصي كله بالعرق فيما كنت أحلبها ولم أكد أمد يدي لأرفع السطل من تحتها

حتّى هبّت كما يهب الطير . فانقذف السطل من ناحية وأنا من الناحية الأخرى . هكذا حلبتها . إنها ليست بقرة ، بل هي شيطان ذو قرنين! فبصقت في وجهها وتركتها . أستطيع أن أدبّر أمري بدون لبن . هل ترغب في شيء من الشراب ؟

ـ ألديك شيء منه ؟

ـ لدي قنينة واحدة . كنت أدخرها حتّى الآن .

ـ حسن ، ستكون كافية .

ـ تعال ادخل ، كن ضيفي ، أترغب في أن أقلي لك شيئاً من البيض ؟ أستطيع أن أعدّه في ثانيتين .

قطع غريغوري بعضاً من شحم الخنزير وساعد بروخور على اشعال النار في مقدمة الموقد ولبثا يراقبان ، دونما كلام ، قطع الشحم الوردية تهس وتذوب ثم تسيل على جوانب المقلاة . ثم أخرج بروخور قنينة يعلوها الغبار من وراء الأيقونة . وقال موضّحاً باختصار :

ـ هنا احتفظ بأسراري كلها بعيداً عن زوجتي .

تناولا الفطور في غرفة الضيوف الصغيرة الدافئة ، وشربا ، وتبادلا حديثاً خافتاً .

مع من ، سوى بروخور ، كان لغريغوري أن يشارك أفكاره الخبيئة ؟ فجلس ، ثمة ، الى المائدة ، وقد باعد مابين ساقيه الطويلتين المتينتين ، وانبعث صوته العميق متحشرجاً :

ـ حينما كنت في الجيش ، وطوال طريق العودة الى القرية ، كنت أفكّر كيف سأعيش بالقرب من الأرض ، واستريح مع عائلتي من عناء الحرب الشيطانية . ليس مزاحاً أن ينزل المرء عن حصانه بعد سبع سنوات أو أكثر لاتكاد تمضي ليلة دون أن تحلم بذلك ، تحلم بكل ذلك المجد : أمّا أن تقتل رجلاً ، أو أنهم يقتلونك... أمّا الآن ، فأستطيع أن أرى ، يابروخور ، أن الحال لم تكن كما كنت أتخيّلها... أستطيع أن أرى أنا الاخرين ، لا أنا ، سيقومون بحراثة الأرض ورعايتها...

ـ هل تحادثت مع ميخائيل أمس ؟

ـ ذقت تلك المسرة المعسّلة!

ـ وماذا قال ؟

فشكّل غريغوري باصبعيه صورة سيفين متقاطعين ، وقال :

ـ هي ذي حال صداقتنا . إنه يقذف في وجهي خدمتي في صفوف البيض . يعتقد أنني أحمل ضغينة ضد الحكم الجديد ، أخفي سكّيناً في صدري ضدّه . إنّه يخشى من قيام إنتفاضة . ولكن ما نفعي منها ، هو نفسه لا يدري ، يا للأحمق!

ـ لقد قال الشيء نفسه لي .

فابتسم غريغوري ابتسامة باهتة ، ثمّ قال :

ـ خلال زحفنا على بولونيا ، التقينا بأوكراني طلب منّا أن نزوّده بالسلاح للدفاع عن قريته . كان قطاع الطرق قد استباحوا المنطقة ونحروا الماشية . فقال له آمر كتيبتنا ، وكنت أنا حاضراً في حينه :

ـ نعطيكم السلاح فتنضمّون الى قطّاع الطرق أنتم أيضاً ، ها ؟!

بيد أن الاوكراني ضحك وقال :

ـ سلحنا ، يارفيق ، وسترانا لا نمنع قطّاع الطرق عن قريتنا ، بل نمنعكم أيضاً!

ـ وأنا ، الآن ، أفكّر مثلما كان ذلك الاوكراني يفكر : لو أن بالإمكان إبقاء تتارسكي بلا بيض أو حمر ، فلن يكون ثمة ما هو أفضل من تلك الحال . في رأيي أن نسيبي ميتكا كورشونوف ، مثلاً ، وميخائيل كوشيفوي مطليّان بالقار بفرشاة واحدة . ميخائيل يعتقد بأنني مخلص للبيض بحيث لاأستطيع أن أحيا بدونهم . يا له من جرجير*! حقاً انني مخلص لهم! وأي خلاص! منذ زمن ليس ببعيد وحينما كنّا نزحف على شبه جزيرة القرم ،

---

* الجرجير : نبات كالفجل . المترجمون

حدث أن اصطدمت بضابط من ضبّاط كورنيلوف ، وكان عقيداً متأنّقاً قميناً له شارب مقصوص على الطريقة الانكليزية . خطّان يشبهان المخاط تحت أنفه . وقد عالجت أمره باندفاع وحماسة الى درجة صار قلبي معها يرقص فرحاً! وتركت ذلك العقيد الصغير المسكين بنصف قبعة ونصف رأس على كتفيه ، في حين طارت شارة قبعة الضابطية البيضاء في الهواء... الى هذا الحد أنا مخلص لهم! لقد سبّبوا هم أيضاً ، الكثير من المتاعب لي في حياتي . لقد حصلت على رتبة الضابط اللعينة تلك بدمي المسفوح ، ومع ذلك فقد كنت كالغراب الأبيض بين معشر الضبّاط! لم يعتبرني أولئك الخنازير ، قط ، انساناً ، وكانوا يتقزّزون من مد أيديهم لي . فهل تظن أنني بعد هذا . أوه ، ليذهبوا الى الجحيم! أنا أشعر بالغثيان لمجرّد الحديث عن الموضوع ، ثمّ يأتي من يقول بأنني أود أن يعود حكمهم! أن ندعوا الجنرال فتشالوروف وأمثاله الى هنا! لقد جرّبت تلك اللعبة مرة وبقيت صريع الفواق عاماً كاملاً بعد ذلك . لقد نلت الكفاية ، تعلّمت دروسي ، وشعرت بوطأتها جميعاً على ظهري .

فقال بروخور فيما كان ينقع خبزه بالسمن الحار :

ـ لن تحدث أيه انتفاضة . فقبل كل شيء ، لم يبق سوى بضعة قوزاق ، وهؤلاء الذين اجتازوا الحرب أحياء تعلّموا درسهم أيضاً . لقد فقد أشقاؤنا الكثير من الدماء وغدوا من الحكمة مايجعل من المستحيل على امرىء أن يجرهم الى الإنتفاض حتّى ولو بحبل من أعناقهم . أضف الى ذلك ، أن الناس أمسوا متلهفين الى حياة السلم . ليتك رأيت كيف كان الجميع يعملون خلال هذا الصيف : كوّموا تلالاً من القش وحصدوا جميع القمح الى آخر حبة .

إنهم يئنون لفرط الجهد الذي يبذلون ، بيد أنهم يحرثون ويبذرون كما لو أن كلاً منهم قد عقد العزم على العيش مائة سنة . كلا ، لاجدوى من التحدث عن قيام انتفاضة . من الحماقة التحدّث عنها . رغم أن الشيطان وحده هو الذي يعلم ماذا يمكن أن يخطر ببال القوزاق .

ـ ماذا يمكن أن يخطر في بالهم ؟ ماالذي تلمّح اليه ؟
ـ لقد خطر ببال جيران لنا...
ـ حسن ؟
ـ سمّها« حسن » إن شئت! لكن إنتفاضة قد انفجرت في اقليم فورونيج ، في مكان ما وراء بوغوتشار .
ـ هذا كذب!
ـ كلا ، إنه ليس كذباً . لقد أخبرني بذلك رجل من رجال الميليشيا من معارفي . ويبدو أن السلطات عازمة على إرسال الميليشيا الى هناك .
ـ ولكن أين« هناك » هذه ؟
ـ موناستيرشتشينا ، سوخوي دونيتس ، باسيكا ، ستاريا ، نوفايا كاليتفا وغيرها في تلك المنطقة . ويقولون أنها إنتفاضة واسعة .
ـ ولِمَ لم تقل شيئاً أمس ، أيها الماعز المنتوف ؟
ـ لم أشأ أن أتحدّث عنها أمام ميخانيل ، أضف الى ذلك أن التحدّث عن مثل هذه الأشياء ليس مما يسر . أنا لاأريد أبداً أن أسمع كلمة أخرى حول مثل هذه الأمور .
فبدا العبوس على وجه غريغوري . أمعن فكره بعضاً من الوقت ثمّ قال :
ـ هذه أنباء سيئة!
ـ ليس الأمر مما يعنيك . دع الخوخوليين يعانون القلق منه . لسوف تضرب أعجازهم حتّى تتقرّح ، وآنذاك سيتعلمون كيف ينتفضون . لكن الأمر لايعنيك أو يعنيني في شيء قط . أنا لا أشعر بالحزن عليهم أبداً .
ـ سيكون ذلك أصعب عليّ الآن .
ـ كيف ؟
ـ ألا تستطيع أن ترى ؟ اذا كانت سلطات الاقليم تشاطر كوشيفوي رأيه عنّي ، فإنني لن أستطيع تجنّب دخول السجن . انتفاضة في الاقليم المجاور ، وأنا ضابط سابق ومتمرّد سابق وما الى ذلك . والآن هل رأيت ؟

فتوقّف بروخورعن مضغ لقمته واستغرقه التفكير . لم يخطر بباله هذا الجانب من قبل . كان الشراب قد أثقل رأسه ، فأمسى تفكيره بطيئاً مسبّباً للألم . فتساءل مستغرباً :

ـ ولكن ، ماعلاقتك بذلك ، ياباتنلاييفتش ؟

فعقد غريغوري حاجبيه غيظاً ولم يجب . كان من الجلي أن تلك الأنباء قد شوشته . وكان بروخور على وشك أن يمرّر قدحه اليه الا أنّه نحّى يد صديقه وقال في تصميم :

ـ لن أشرب المزيد .

ـ ولكن ، ألن تشرب قدحاً آخر فقط ؟ اشرب حتّى تسودّ! الطريقة الوحيدة لخنق هذه الحياة البهيجة هي بالفودكا .

ـ اسودّ أنت وحدك! الغباء زحف الى رأسك فعلاً ، وسيكون في ذلك حتفك عاجلاً أو آجلاً . أمّا أنا ، فيجب علي أن أذهب الى فيشنسكايا اليوم لأسجّل نفسي .

فسمّر بروخور عينيه عليه . كان وجه غريغوري الملفوح بأشعة الشمس وعوامل الجو يتأجج بحمرة داكنة ، ولم يكن جلده أبيض ، بياضاً باهتاً ، إلا عند جذور شعره الممشّط الى وراء عن جبهته . لقد كان ثابت الزمام ، هذا الجندي الذي وقعت عيناه على الكثير الكثير ، والذي جعلت الحرب والشدائد من بروخور له نسيباً . وكانت عيناه المنتفختان قليلاً تحملان نظرة كئيبة ، وكلالاً فظيعاً .

سأله بروخور :

ـ ألعلّك تخشى أن تسجن ؟

فأجاب غريغوري على عجل :

ـ هذا هو ماأخشاه بالضبط ، ياولدي! أنا لم أدخل السجن في حياتي ، وأنا أخاف من السجون أكثر مما أخاف من الموت . ولكن يبدو وكأن علي أن أجرّب هذه المتعة أيضاً .

فقال بروخور مواسياً :

ـ ما كان عليك أن تعود .

ـ ولكن ، أين كنت سأذهب ؟

ـ كان عليك أن تختبىء في مكان ما ، في بلدة ما ، وتنتظر الى أن تسوى هذه الشغلة ، ثمَ تعود الى القرية .

فلوّح غريغوري بيده وضحك :

ـ ليس هذا اسلوبي . ليس هناك ما هو أسوأ من الانتظار هنا وهناك ومحاولة اللحاق . وكيف يتسنّى لي أن أترك الطفلين ؟

ـ فكرة بديعة! ألم يعيشا بدونك فعلاً ؟ كان بمستطاعك أن تأخذهما فيما بعد ، وتأخذ حبيبتك أيضاً . وبالمناسبة ، نسيت أن أخبرك أن سادتك السابقين ، هؤلاء الذين عملت أنت واكسينيا لديهم قبل الحرب... قد ماتا ، كلاهما .

ـ آل ليستنسكي ؟

ـ بالضبط كان قريبي زاخار قد عمل مراسلاً لليستنسكي الشاب ، وهو الذي أخبرني أن العجوز قد مات بالتيفوس في موروزوفسكي ، أمّا الشاب فقد أفلح في الوصول الى يكاتيرينودار . وهناك نشأت علاقة بين زوجته والجنرال بوكروفسكي ، فلم يستطع صاحبنا تحمّل الصدمة ، فأطلق النار على نفسه في غمرة هياجه .

فعلّق غريغوري على ذلك بغير اهتمام :

ـ حسن ، يستطيعان أن يذهبا الى الشيطان! أنا أحزن على الرجال الطيبين الذين فقدناهم ، أمّا هذان فليس هناك من سيحزن عليهما .

وقام على قدميه وارتدى معطفه الثقيل ، وقال متفكّراً ويده على أكرة الباب :

ـ هذا ، اللعنة ، على الرغم من أنني كنت دائماً أغبط رجالاً ممن هم على شاكلة ليستنسكي الشاب أو صاحبنا كوشيفوي... لقد كان كل شيء واضحاً

أمام أعينهم منذ البدء ، ولكن ليس ثمة ما هو واضح لدي حتّى الآن . فقد رأى كلاهما الطرق المستقيمة أمامهما ورأيا نهاية المطاف أيضاً . أمّا أنا ، فقد ظللت منذ عام ١٩١٧ أدور وأدور في حلقة مفرغة ، أترنّح مثل رجل سكير . انفصلت عن البيض ، لكنني لم أنضم الى الحمر ، وها انني أعوم مثل كتلة من الروث في حفرة وسط الجليد . أتدري ، يابروخور ، لاشكّ أنه كان عليّ أن أظل مع الجيش الأحمر طوال الوقت . ولو فعلت ذلك ، لسارت ـ ربّما ـ كل أموري على ما يرام . وكما تعلم ، فانني خدمت الحكومة السوفييتية في البدء من صميم قلبي . ولكن ، مالبثت الأمور بعد ذلك أن ساءت . أمّا مع البيض فقد كنت غريباً ، وعلى الأخص مع قادتهم . كانوا يشكّون في أمري دائماً . وكيف كان لهم ألا يشكّوا فيّ ؟ ابن فلاح ، قوزاقي أمّي... أية رابطة تجمعني بهم ؟ لم يثقوا بي قط! وبعد ذلك تكرّر الشيء نفسه مع الحمر . كلا ، لست بالأعمى ، فقد رأيت كيف كان القوميسار والشيوعيون في السرّية يراقبونني... كانوا ، خلال المعارك ، لايرفعون أعينهم عنّي ، بل كانوا يراقبون كل خطوة أخطوها ، وأحسب أن لسان حالهم كان :« آه ، هذا الخنزير ، هذا الأبيض السابق ، الضابط القوزاقي ، يجب أن نحتاط كيلا يخوننا! » وحينما كنت ألاحظ ذلك ، كان قلبي يستحيل كالثلج . وفي الأيام الأخيرة لم أعد أستطيع تحمّل تلك الحال . وكيف لا ، فحتّى الصخر ينفجر عند اشتداد الحرارة . وحسناً فعلوا حينما سرّحوني . فقد وضع ذلك حدّاً سريعاً للأمر .

وتنحنح في صوت مبحوح ، وصمت قليلاً ، ثمّ استأنف كلامه في نبرة مغايرة ، دون أن ينظر الى بروخور :

ـ شكراً على الوجبة . أنا راحل الآن . اعتن بنفسك . اذا عدت فإنني سأعرج عليك مع حلول المساء . أبعد تلك القنينة ، فإن عادت زوجتك ستحطم مقلاة على ظهرك .

رافقه بروخور حتى درجات العتبة ، وحينما كانا في السقيفة همس في اذن غريغوري :

ـ آه ، يابانتلاييفتش ، حذار أن يجعلوك تنحاز هناك!
فأجابه غريغوري في لهجة متحفّظة :
ـ سأحاول!
لم يذهب الى داره ، بل انحدر ناحية النهر ، وهناك حلّ قارب شخص ما من المرسى وغرف الماء منه براحتيه ، ثم انتزع عوداً من السياج ، وشقّ قنالاً خلال جليد الساحل ، ومضى يجذف صوب الضفة الأخرى .
كانت موجات غامقة الخضرة تضربها الريح فتتدحرج مع الدون ناحية الغرب . وعلى المياه الساكنة عند الضفاف ، كانت الموجات تهشّم الجليد الرقيق الشفّاف وتؤرجح الخيوط الزمرّدية للأدغال المائية . وعلى امتداد الضفاف ، كان الجليد المتكسّر يرسل رنيناً بلوريّاً ، وحصباء الشواطىء تهس هسّاً رقيقاً فيما كان الماء يغمرها . أمّا في وسط النهر ، حيث كان التيّار سريعاً منتظماً ، فلم يكن غريغوري يسمع سوى الصمت المكتوم لارتطام الأمواج بجانب القارب الأيسر ، وهدير الريح العميق الموصول ينبعث من غابات شواطىء الدون .
سحب القارب خارج الماء حتّى نصفه ، ثم جلس القرفصاء وخلع جزمته ، ولف باعتناء لفافي ساقيه من جديد استعداداً للسير .
بلغ فيشنسكايا والنهار يوشك أن ينتصف .
كانت قوميسارية الاقليم العسكرية مزدحمة كثيرة الضجيج . كانت أجراس الهاتف ترن رنيناً حاداً ، والأبواب تصفق بعنف ، ورجال مسلّحون يدخلون ويخرجون ، وجلبة الآلات الطابعة تنبعث من غرف شتى . وفي الممر كان أكثر من عشرين من رجال الجيش الأحمر محيطين برجل قميء متين البنية يرتدي فروة مزركشة ، وهم يتحدّثون ويقاطع بعضهم بعضاً في حماس ، ويهدرون بالضحك . وفيما كان غريغوري يقطع الممر ، كان جنديّان من جنود الجيش الأحمر يدفعان مدفعاً رشّاشاً على عجلات من احدى الغرف البعيدة . وكانت عجلاته الصغيرة تقرقع قرقعة خفيفة على

الأرضية الخشبية غير المستوية . وهتف أحد هذين المدفعيين متمازحاً ، وكان رجلاً مديد القامة كبير البنية :

ـ هيّا ، تنحّوا عن الطريق ، ياسريّة التأديب ، وإلا فسألصقكم على الأرض!

فحدّث غريغوري نفسه :

ـ يبدو وكأنهم ، فعلاً ، يتهيأون لإخماد انتفاضة .

عوّق مدة غير طويلة عند عملية التسجيل . وأخيراً ، قام سكرتير القوميسارية العسكرية بالاطلاع على أوراقه بسرعة ، ثمّ قال له :

ـ اذهب الى الدائرة السياسية لتشيكا الدون . فبصفتك ضابطاً سابقاً ، يجب أن تراجعهم هناك .

فقال غريغوري :

ـ حسن ، ـ وأدّى التحية ، دون أن يكشف عن سورة الانفعال التي داهمته .

وحينما بلغ الساحة ، توقّف عن السير متردّداً . كان عليه أن يذهب الى الدائرة السياسية حقّاً ، بيد أن وجوده كلّه كان يقاوم الفكرة بضراوة وكان صوت في داخله يحدّثه :

ـ لسوف يطبّقون عليك السجن! ـ وارتعش بدنه خوفاً ونفوراً . فلبث واقفاً بإزاء سياج المدرسة ، يحدّق بعينين لاتريان في الأرض المغطّاة بالروث ، ورأى نفسه مقيّد اليدين ينزل سلّماً قذراً الى داخل زنزانة ، ومن ورائه رجل ممسك ، بيد ثابتة ، مقبض المسدّس الخشن . فشد قبضتيه وحدّق في عروق يديه الزرقاء المنتفخة . ولسوف يقيدون هاتين اليدين ؟ واندفع الدم الى وجهه . كلاً ، لن يذهب اليهم اليوم! غداً! ، إن شئت ، أمّا اليوم فسيعود الى القرية . سيقضي اليوم مع طفليه ، ويذهب لدى اكسينيا ، ويعود الى فيشنسكايا غداً . فلتتقرّح قدماه بكل هذه المسيرات الطويلة! سيعود الى بيته ليوم واحد فقط ثمّ يعود الى هنا... لا ريب أنّه سيعود . ليكن

مايكون غداً ، أمّا اليوم ، فلا .

ـ آه ، ميليخوف! لم أرك منذ دهور طويلة ، طويلة...

فاستَدار غريغوري . كان القادم نحوه ياكوف فومين ، رفيق أخيه بيوتر في الكتيبة ، وآمر كتيبة المتمردين الثامنة والعشرين التابعة لجيش الدون ، سابقاً .

لم يعد فومين قوزاقي« كتيبة الأتمان » سيء الهندام المعهود ، كما كان يعرفه غريغوري في السابق . فقد تغيّر في غضون سنتين تغيّراً مذهلاً : كان معطف الخيّالة الثقيل الأنيق ملائماً له على نحو بديع ، ولشاربه الأحمر فتلة خبيثة ، وكان كل مافيه ـ حركاته التي كان يتعمّد ابطاءها ، وابتسامته الوثوق ـ يكشف عن شعوره بسموّه وامتيازه عن الآخرين .

تساءل وهو يصافح غريغوري وينظر اليه بعينيه الزرقاوين المتباعدتين :

ـ ماالذي جاء بك الى هنا ؟

ـ لقد سرّحت من الخدمة . كنت قبل حين في القوميسارية العسكرية .

ـ هل مضى عليك وقت طويل مذ عودتك ؟

ـ عدت البارحة .

ـ كثيراً ما أستعيد في ذاكرتي أخاك بيوتر بانتلاييفتش . لقد كان قوزاقياً طيباً ، بيد أن مصرعه كان شيئاً مؤسفاً . كنّا صديقين حميمين . ماكان يجدر بك أن تنضم الى الانتفاضة في العام الماضي ، ياميليخوف . لقد اقترفت خطأ...

فأحس غريغوري بأن عليه أن يقول شيئاً ، فقال :

ـ أجل . اقترف القوزاق خطأ...

ـ في أية قوة كنت تخدم ؟

ـ في لواء الخيّالة الأول .

ـ بأية صفة ؟

ـ آمر سريّة .

ـ هكذا! أنا آمر سرية الآن أيضاً . لدينا قوة دفاعية هنا في فيشنسكايا .

وتلفّت حوله ، ثمّ اقترح على غريغوري ، مخفضاً صوته ، بقوله :

ـ اسمع ، لتبتعد من هنا . سر معي قليلاً . إن المكان هنا مكتظ بالناس ولن تسنح لنا فرصة للحديث .

ومضيا يسيران في الشارع . تساءل فومين وهو ينظر الى غريغوري من زاوية عينه :

ـ أتنوي العيش في القرية ؟

ـ وأين يمكن أن أعيش اذا لم يكن فيها ، بالتأكيد .

ـ وتعمل في الأرض ؟

ـ أجل .

فهز فومين رأسه مشفقاً وقال متنهداً :

ـ اخترت وقتاً سيئاً ، ياميليخوف ، سيئاً جداً... ما كان لك أن تعود قبل مضي عام آخر أو حتّى عامين .

ـ ولم لا ؟

فأمسك فومين بمرفق غريغوري ومال عليه قليلاً وقال في صوت هامس :

ـ ثمّة اضطراب في الاقليم . القوزاق حانقون جداً على الحكومة بسبب عمليّات تجميع المؤونة لتجهيز الجيش الأحمر بها . هناك انتفاضة في منطقة بوغوتشار ، نحن خارجون لها اليوم لإخمادها . إن خير نصيحة تقدّم اليك ، أيها الشاب ، هي أن تنسل من هنا في الحال ، وبسرعة! كنّا ، أنا وبيوتر ، صديقين صدوقين ، ولهذا أنصحك بالإبتعاد من هنا .

ـ ليس لدي مكان أذهب إليه .

ـ حسن ، خذ حذرك! وأنا أقول لك هذا لأن الدائرة السياسية شرعت باعتقال الضباط السابقين . ففي خلال هذا الاسبوع فقط ، جيء بثلاثة حاملي علم من دوداريفكا وواحد من ريشتوفكا ، وهم الآن يساقون زرافات من

الجانب الآخر للدون ، حتّى أنهم شرعوا يشددون على الأنفار من القوزاق . والآن ، استنتج بنفسك ، ياغريغوري بانتلاييفتش .

فقال غريغوري بعناد :

ـ شكراً للنصيحة ، لكنني لست ذاهباً الى أي مكان بأية حال .

ـ حسن ، ذلك من شأنك أنت .

ثمّ حوّل فومين وجهة الحديث نحو الوضع في الاقليم ، وعلاقاته هو بسلطاته والقوميسار العسكري في الاقليم ، شاخاييف . فاستمع اليه غريغوري دون انتباه ، اذ كان هو غارقاً في أفكاره الخاصة . ومضيا يسيران مسافة أخرى ، ثمّ توقّف فومين .

ـ لدي زيارة عليّ أن أؤديها . الى اللقاء .

وأدّى التحية واضعاً يده الى طاقية الفرو ، وودّع غريغوري وداعاً بارداً ، ومضى حدر منعطف جانبي ، منتصب القامة ، مترفّعاً على نحو سخيف ، وسيور نطاقه الجديدة لاتنفك ترسل صريراً منتظماً . فتابعه غريغوري بنظره ثمّ استدار .

وفيما كان يرتقي درجات سلّم الدائرة السياسية الحجري ، حدّث نفسه :

«اذا كانت هذه هي النهاية ، فالخير في عاجلها . لامعنى في تمطيطها . لقد عرفت كيف تقترف الأذى ، ياغريغوري ، فعليك الآن أن تعرف كيف تتحمّل تبعة ذلك» .

٨

في حوالي الساعة الثامنة صباحاً ، كوّمت اكسينيا الفحم في الموقد ثمّ اقتعدت المصطبة تمسح بوزرتها وجهها المضرّج بالدم ، والمندّى بالعرق . كانت قد أفاقت من النوم منذ الفجر لكي تنهي طبخها في أقرب وقت

ممكن . أعدّت مرق الدجاج مع الشعرية ، وبعضاً من الزلابيات ، وصبّت كثيراً من القشدة على فطائر مسكّرة صغيرة وضعتها في المقلاة : كانت تعرف حب غريغوري للفطائر المقلية ، وقد أعدّت هذه الوجبة الفاخرة على أمل أن يتغدّى حبيبها لديها .

كانت الرغبة تعصف بها للذهاب الى دار آل ميليخوف متعلّلة بأي عذر لتمضي دقيقة فقط ، هناك ، ولتسترق نظرة خاطفة الى غريغوري ، فحسب ، لقد بدا لها من المستحيل أن يكون هو هناك ، في الدار المجاورة ، ولاتراه . ومع ذلك ، سيطرت على زمام عاطفتها ولم تذهب . فلم تكن بالصبية . ولامبرّر لمن كان في عمرها أن يتصرّف تصرفاً أرعن .

غسلت وجهها ويديها باعتناء أكثر من العادة ، وارتدت قميصاً نظيفاً وتنورة جديدة مطرّزة . ولبثت وقتاً طويلاً متردّدة أمام الصندوق المفتوح . كان عليها الآن أن تختار ما الذي سترتدي . لم يكن من المناسب قط أن ترتدي أفضل مالديها في يوم عمل ، ومع ذلك لم تود أن تبقى في ملابس العمل البسيطة . وازاء حيرتها فيما ستلبس ، عقدت حاجبيها وشرعت تقلّب التنورات المكوية في غير احتراس . وأخيراً استقر رأيها على تنورة غامقة وصدرية داخلية شبه جديدة مطرّزة الأطراف بشريط مخرّم أسود كانت أفضل ما تملك . ما همها ما سيقول الجيران ؟ فليكن اليوم يوم عمل لهم . أمّا لها فكان يوم عيد . وأسرعت ترتدي أفضل حللها ، ثمّ مضت الى المرآة فانحدرت على شفتيها ابتسامة صغيرة مندهشة . كانت عيناها الفتيتان المتأججتان تحدّقان فيها باهتمام وطرب . تطلّعت اكسينيا بصرامة في وجهها عن كثب ، ثمّ تنفّست الصعداء .لا ، فإن جمالها لم يذو بعد ، ولسوف يستوقف كل قوزاقي إن مرّ بها ، ولسوف يلتهمها بعينين ملتهبتين اذ تجتازه!

وفيما كانت تسوّي تنورتها أمام المرآة ، قالت بصوت مسموع :

ـ حسن ، ياغريغوري بانتلاييفتش ، والآن ، تماسك!

وحينما أحسّت بأن وجهها اصطبغ بالدم ، انفجرت في ضحك هادىء مخنوق . على انها لم تعدم أن عثرت على بضع شعرات شائبة على صدغيها ، فانتزعتها : يجب ألا تقع عين غريغوري على مايذكّره بعمرها . كانت تريد أن تظل ، بالنسبة له ، تلك الفتاة التي عرفها قبل سبع سنوات .

أفلحت ، على نحو ما ، في إبقاء نفسها في الدار حتّى وقت الغداء ، بيد أنها لم تستطع آنئذ أن تمسك بزمام نفسها أكثر من ذلك ، فألقت شالاً من صوف الماعز الأبيض على كتفيها ومضت الى دار آل ميليخوف . فوجدت دونيا وحدها في الدار . حيّتها وسألتها :

ـ لم تتناولوا غداءكم بعد ، أليس كذلك ؟

ـ كيف يتسنّى لنا تناول الغداء في وقته مع كل من هم في الخارج ؟ زوجي في مقر السوفييت . وغريغوري ذهب الى فيشنسكايا . لقد أطعمت الطفلين ، وها أنا الآن في انتظار الكل .

فقالت اكسينيا بادية الهدوء ودون أن تكشف ، بكلمة أو بحركة ، عن الخيبة التي أحسّت بها .

ـ وقد حسبت أنكم جميعاً في الدار . ومتى سيعود غريشا... غريغوري بانتلاييفتش ؟ اليوم .

فأحالت دونيا نظرة سريعة على جارتها المتزيّنة بأفضل حللها ، وقالت على مضض :

ـ ذهب ليسجّل نفسه .

ـ ومتى وعد أن يعود ؟

فتلألأت الدموع في عيني دونيا . وقالت واللوم يشوب صوتها المتعثّر :

ـ كأنك وجدت الوقت المناسب... للتأنّق... لكنّك لاتعرفين... ربما لايعود الى بيته .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ يقول ميخائيل انه سيعتقل في فيشنسكايا...

وشرعت دونيا تسكب دموعاً شحيحة خانقة . وصرخت وهي تمسح عينيها بكمّها :

ـ اللعنة! اللعنة على هذه الحياة! متى سينتهي كل هذا ؟ لقد ذهب ، والطفلان جنّ جنونهما ، ولاينفع الكلام معهما :

ـ أين ذهب بابا ومتى سيعود ؟

ـ وكيف لي أن أعلم ؟ أخرجتهما الى الفناء ، لكن الألم يعصر فؤادي عصراً... ماذا تسمّين هذه الحياة اللعينة ؟ ليست هناك راحة قط ، ولو ملأت الدنيا صراخاً... .

ـ اذا لم يعد في المساء فسأذهب الى فيشنسكايا غداً لاستكناه جلية الأمر .

فاهت اكسينيا بهذه الكلمات في لامبالاة عجيبة وكأنّها تتحدّث عن امر اعتيادي لا يستلزم أدنى إنفعال .

فتنهدت دونيا ، وقد أذهلها هدوء اكسينيا ، وقالت :

ـ لاخير يتوقّعه الآن ، هذا واضح . لقد عاد ليلاقي الكثير من المصاعب!

ـ نحن لانعلم شيئاً بعد . والآن ، كفّي عن البكاء ، وإلا فإن الطفلين سيفكرّان... الى اللقاء!

* * *

عاد غريغوري في وقت متأخر من ذلك المساء . فلبث بعض الوقت في الدار ، ثمّ مضى ليرى اكسينيا .

لقد عمل القلق الذي عاشت غماره اكسينيا طوال ذلك اليوم على تقليل بهجة اللقاء على نحو ما . اذ ما أن حلّ المساء حتى هجست وكأنّها قد عملت طوال النهار دون أن تقيم مرة ظهرها . وحينما استبدّت بها الكآبة والكلال وأمضّها الترقّب والانتظار ، استلقت على السرير وشرعت الغفوة تأخذها .

ولكن ، ما أن سمعت وقع خطوات خارج النافذة حتّى قفزت بخفّة فتاة صبية .

سألته وهي تضع ذراعيها حوله وتفكّك أزرار معطفه الثقيل :

ـ لمَ لم تخبرني بأنّك ذاهب الى فيشنسكايا ؟

ـ لم تسنح لي الفرصة .

ـ تقرّحت أجفاننا ، دونيا وأنا ، من البكاء منفردتين مخافة ألا تعود .

فابتسم غريغوري ابتسامة موهنة :

ـ لا ، ليس الأمر على هذه الدرجة من السوء .

ثمّ أضاف :

ـ ... حتّى الآن ، على الأقل .

وجرّ خطى ثقيلة حتّى بلغ المائدة وجلس . كانت غرفة الضيوف ، والسرير الخشبي الواسع في إحدى زواياها ، والصندوق بأحزمته النحاسية المشعّة في خفوت ، مرئية خلل الباب المفتوح . كان كل شيء كما عهده في تلكم الأيام ، حينما جاءها فتياً ، في غياب ستيبان . لم تعثر عينه على أي تغيير يذكر . يبدو كأنّ الزمن قد مرّ بهذا المكان دون أن يلقي نظرة على داخله . حتّى الرائحة القديمة لاتزال باقية ، الرائحة المخمّرة للكروم البرّية الغضة ، والأرضية الممسوحة ، وبقايا فواح خفيف ، لايكاد يشم ، لصعتر ذاو ، بدا كل شيء وكأنّه لم يغادره الا في فجر اليوم السابق . أمّا في الواقع فما كان أطوله دهراً!... .

كتم زفرة ، وشرع يلف سيكارة على مهل . بيد أن يديه ارتعشتا ، لسبب ما ، فطش التبغ على ركبتيه .

أسرعت اكسينيا تعد المائدة . كان عليها أن تسخن الشعرية ، فهرعت الى المأوى طلباً للحطب ، ثمّ عادت ، مبهورة الأنفاس شاحبة الوجه قليلاً ، لتضرم النار في الموقد . وجعلت تنفخ في الجمر والشرارات تتطاير منه ، بيد أنها لم تعدم أن تلقي نظرة على غريغوري الجالس ثمّة ، كتفاه هادلان وهو يدخّن سيكارة في صمت .

ـ كيف سارت أمورك ؟ هل سوّيت كل شيء ؟
ـ سار كل شيء على مايرام .
ـ لماذا ادخلت دونيا في عقلها أنهم لابد أن يعتقلوك ؟ لقد افزعتني حتّى الموت .

فقطب غريغوري جبينه وقذف سيكارته بحركة محنقة :

ـ كان ميخائيل ينفخ في اذنها! انه هو الذي يخلق كل هذه القلائل ويصبّها على رأسي .

مضت اكسينيا الى المائدة ، فتناول يديها . وقال وهو يرفع عينيه الى عينيها :

ـ ولكن ، أتعلمين ، أن أموري ليست على مايرام تماماً . فحينما كنت أدخل الى الدائرة السياسية كنت أعتقد ، أنا أيضاً ، أنني لن أخرج من هناك ثانية . لامجال للإنكار ، فلقد كنت قائد فرقة فعلاً خلال الإنتفاضة ، وكنت آمر سرّية . إنهم يعتقلون من هم على شاكلتي في الحال .

ـ ولكن ماالذي قالوه لك ؟

ـ أعطوني استمارة لإملائها ، وكان عليّ أن أحكي كل ماسبق أن فعلت خلال خدمتي . غير أنني لست حاذقاً مع القلم والورق . لم يحصل في سالف أيّامي أن كتبت كثيراً ، فجلست ساعتين هناك أصف ماضيَ بمجموعه . ثمّ دخل الغرفة إثنان آخران ، وسألاني عن جميع ماله علاقة بالانتفاضة . كانا لابأس بهما ، لطيفين الى حد كبير . وسألني أكبرهما سنّاً :

ـ أترغب في احتساء شيء من الشاي ؟ سوى أنّ عليك أن تشربه بالسكرين .

فقلت في نفسي :

ـ حسن طالما ستحملني ساقاي بعيداً عنكم جميعاً!

وصمت غريغوري لحظة ، ثمّ أضاف في لهجة مزدرية ، وكأنه كان يتحدّث عن شخص غريب :

ـ أثبتَ أنـي جبان الى حدما ، حينما تصل الأمور الى تسوية الحساب . كنت جباناً بعض الشيء .

كان غاضباً من نفسـه لما أبداه من جبن في فيشنسكايا ولخوره ازاء الخوف الذي كان قد تـملّكه . وقد تضاعف حنقه حينما ثبت أنَ مخاوفه كانـت قائمة على غير أساس . وها ان قلقه يبدو الآن سخيفاً ومعيباً . لقد تخبّط عقله في هذا الأمرأي تـخبّط ، ولعل ذلـك كان هو الذي حدا بـه الى أن يخبر اكسينيا بكل ذلك ، ساخراً من نفسه ومبالغاً بعض الشيء عند الكشف عمّا كان قد اعتراه .

لبثت اكسينيا تصغي اليه في انتباه ، ثمَ حرّرت يديها ببطء ومضت الى الموقد . وسألته فيما كانت تأجج النار :

ـ ولكن ، ماذا عن المستقبل ؟

ـ يتعيّن عليَ أن أراجعهم ثانية في غضون اسبوع .

ـ أتعتقد أنهم سيعتقلونك في النهاية ؟

ـ يبدو أنهم سيفعلون . إن آجلاً أو عاجلاً سيعتقلونني .

ـ اذاً ، فما سنفعل ؟ كيف سنعيش ، ياغريشـا ؟

ـ لست أدري . لنؤجّل الحديث عن ذلك . ألديك ماء أغتسل به ؟

ثمّ جلسا للعشـاء ، ومن جديد عادت الى اكسينيا تلك السعادة العارمة التي كانت تغمرها في الصباح . هوذا غريغوري ، الى جانبها ، وتـستطيع أن تنظر اليه دون أن تحيد بصرها ، دون أن تخشى ملاحظة الآخرين لنظراتها . وعيناها تستطيعان أن تقولا كل ماتشاءان بلا مواربة أو حرج . ربّاه ، لكم تشوّقت اليه ، وأضنت نفسها عليه ، وكم تلهّف جسدها الى ملمس يديه الجسيمتين الفظّتين! وهاهي ذي ثمة ، تكاد لاتمس الطعام ، منحنية الى أمام قليلاً ، تراقب غريغوري يأكل في نهم ، وعيناها الكدرتان تغازلان وجهه ، ورقبته السمراء المختنقة ، بياقة قمصلتة العالية ، وكتفيه العريضين ويديه الممدودتين على المائدة . وكانت تعبَ ، في ظمأ ، خليطاً من رائحة العرق

الرجولية النفّاذة ورائحة التبغ ، ينبعث منه ، ذلك الفواح العزيز الخاص به وحده . كانت تستطيع أن تميّز غريغوري من بين ألف رجل آخر ، حتّى لوكانت معصوبة العينين ، استدلالاً برائحته هذه . واضطرمت وجنتها بحمرة غامقة ، وجعل قلبها يدق دقّاً سريعاً وعنيفاً . وفي هذا المساء ، لم تستطع أن تكون ربّة بيت قائمة بواجباتها حقاً ، اذ لم تكن لترى شيئاً حولها سوى غريغوري . بيد أنّه لم يطلب خدمتها . قطَع الخبز بيده ، بحث عن المملحة ووجدها على الموقد ، وصبه لنفسه صحناً ثانياً من الشعرية .

وقال مبتسماً ، وكأنّه يقدّم اعتذاراً :

ـ أنا جائع كالكلب . لم أتناول شيئاً منذ الصباح .

ولم تتذكّر اكسينيا واجباتها المنزلية الا آنذاك ، فقفزت من مكانها مسرعة .

ـ أوه ، يالدماغي! لقد نسيت الفطائر المسكّرة وكعك الصينية . كل شيئاً من الدجاج ، هيّا! زد في الأكل ، يا حبيبي! سأضع كل شيء على المنضدة في لحظة .

ولبث غريغوري يأكل ويأكل! كأنّه لم يذق طعاماً منذ اسبوع! ولاريب أنه لم يكن في حاجة الى تشجيع . وظلّت هي تنتظر صابرة ، ثمّ لم تعد ـ أخيراً ـ قادرة على مزيد من الصبر . فجلست الى جانبه ، وبيدها اليسرى أدنت رأسها اليه ، وباليمنى تناولت منشفة اليد المطرّزة النظيفة ومسحت بها شفتي حبيبها وذقنه الذهين . ثمّ قطعت نفسها وأغمضت عينيها حتّى لم ينبجس منهما خلال الظلام سوى شرر برتقالي اللون صغير ، وضغطت شفتيها بقوة على شفتيه .

في الواقع ، ما أيسر أن تبعث السعادة في روح الانسان . ومهما يكن من أمر ، فقد عرفت اكسينيا السعادة ذلك المساء .

٩

لم يكن بمستطاع غريغوري تحمّل الالتقاء بكوشيفوي . فقد تقرّر شكل علاقتهما في اليوم الأول من عودة غريغوري ، ولم يكن ثمة المزيد مما يمكن التحدّث عنه ولا أي جدوى في الحديث . ولعل ميخائيل ، هو الآخر ، لم تعد تسرّه رؤية غريغوري . فاستخدم نجارين قاما باصلاحات سريعة على كوخه الصغير ، فجدّدا عوارض السقف المتعفّنة وهدما أحد الحيطان المتأرجحة ثمّ أعادا بناءه ، وأقاما وصاند وأطراً وأبواباً جديدة .

لما عاد غريغوري من فيشنسكايا ذهب الى لجنة القرية الثورية وسلّم كوشيفوي وثائقه المصدّقة من القوميسارية العسكرية ، ثمّ غادر المقر دون وداع . ومضى ليسكن مع اكسينيا ، مصطحباً الطفلين وبعضاً من أغراضه . وحينما وقعت عينا دونيا عليه وهو يغادرهم الى مسكنه الجديد ، انفجرت باكية . وقالت وهي ترنو اليه في توسّل :

ـ ياأخي العزيز ، لاتغضب منّي . لم أقترف خطأ ضدّك .

فرد عليها مسكناً :

ـ ولماذا أغضب منك ، يادونيا ؟ لست غاضباً على الاطلاق . تعالي زورينا بين آونة وأخرى . أنا الوحيد الذي تبقّى لك من العائلة . وقد كنت أحبّك على الدوام ولاأزال أحبّك... لكن زوجك... شيء آخر . أمّا أنا وأنت فلن نقطع أواصر صداقتنا .

ـ سنترك الدار عمّا قريب . لا تنزعج .

فردّ غريغوري في لهجة محنقة :

ـ ولماذا أنزعج ؟ ابقيا في الدار حتّى الربيع على الأقل . أنتما لا تسبّبان إزعاجاً لي ، وهناك متسع لي وللطفلين لدى اكسينيا .

ـ هل ستتزوجها ، ياغريشا ؟

ـ لايزال ثمّة متسع من الوقت للزواج .

فقالت دونيا في لهجة حاسمة :

ـ تزوّجها ، ياأخي ، إنها امرأة طيبة . قالت أمّنا المرحومة أنها الزوجة الوحيدة التي تصلح لك . بدأت تميل اليها في أواخر أيامها وكانت تزورها كثيراً قبل وفاتها .

فقال غريغوري مبتسماً :

ـ يبدو وكأنك تحاولين إقناعي! ومن عسى سأتزوّج غيرها ؟ هل أتزوّج العجوز الشمطاء أندرونيخا ؟!

كانت أندرونيخا أكبر المعمرين سنّاً في تتارسكي . وقد مضى وقت طويل منذ أن أمضت قرناً من عمرها . وحينما تذكّرت دونيا هيكلها القميء المحنى انفجرت ضاحكة :

ـ ياللأشياء التي تقولها ، ياأخي! كنت أسأل ، فحسب . أنت لاتتحدث أبداً عن هذا الموضوع ، ولهذا سألتك...

ـ سأدعوك الى الزفاف ، كائناً من كانت زوجتي!

وربت غريغوري متمازحاً على ظهر اخته وغادر بيته القديم بقلب خلي . وفي الواقع ، كان غير مهتم بأمر المكان الذي سيعيش فيه طالما كان في مقدوره أن يعيش بسلام . قضى عدّة أيام في بطالة كئيبة . حاول أن يعالج شأناً أو اثنين من شؤون حقل اكسينيا ، لكنّه أحس في الحال أنه ليس في مكنته انجاز أيما عمل . لم تكن به رغبة لإنجاز أيما شيء . كانت الحيرة المعوقة التي تخيّم على وضعه تعذّبه وتمنعه من الحياة .

فلم تغب عن باله ، لحظة ، حقيقة أنّه قد يعتقل ويلقى به في أحسن الأحوال ، في غياهب السجن ، أو أنّه قد يعدم .

كانت اكسينيا تفيق من النوم في الليل فتجده مستيقظاً ، مستلقياً ـ في العادة ـ على ظهره ويداه خلف رأسه ، محدّقاً في الظلمة ، وعيناه باردتان قاسيتان . كانت اكسينيا تعرف مدار أفكاره آنئذ . بيد أنها لم تكن بيديها أيه وسيلة لمساعدته . فكانت ، هي الأخرى ، تعاني الألم حينما ترى مدى

الآلام التي كان يقاسيها ، وتتصوّر أن آمالها في العيش معه كانت تنحسر نحو الأبعاد القصيّة من جديد . لم تكن تسأله عن أي شيء . فليتخذ القرارات بنفسه . إلا مرّة ، ذات ليلة ، استيقظت فوقعت عيناها على الوهج الكابي لسيكارة الى جانبها ، فقالت :

ـ غريشا ، إنك لاتنام مطلقاً . لعل من الأفضل أن ترحل عن القرية في الوقت الحاضر على الأقل . أو نذهب معاً الى مكان ما ونختفي .

فغطّى ساقيها يالبطانية في حنو ، وأجاب على مضض :

ـ سأفكّر في الأمر . نامي .

ـ ونستطيع أن نعود فيما بعد ، بعد أن يكون كل شيء قد هدأ ، مارأيك ؟

فكرّر جوابه غير المحدّد ، وكأنّه لم يتخذ أي قرار بعد :

ـ سنرى كيف ستسير الأمور . نامي ، ياأكسينيا .

وفي حذر وحنان ، قبّل كتفها العاري البارد كالحرير . إلا أنّه في واقع الحال ، كان قد اتخذ قراره : لن يذهب الى فيشنسكايا ثانية . سيظل الرجل ، الذي كان قد استقبله في الدائرة السياسية ، ينتظر قدومه اليه بلا جدوى . لقد جلس ، وقتئذ ، وراء منضدته ، ومعطفه الثقيل ملقى على كتفيه ، يمطّي نفسه ويطق مفاصله ، ويتصنّع التثاؤب ، بينما كان يستمع الى قصة غريغوري عن الإنتفاضة . حسن ، لن يستمع الى المزيد . لقد رويت القصة وكفى .

في اليوم المحدّد لذهابه الى الدائرة السياسية ، سيغادر القرية ، واذا دعت الضرورة ، فإلى أمد طويل . الى أين ، لم يكن هو نفسه يدري ، إلا أنّه عقد العزم يقيناً على مغادرة القرية . لم تكن به رغبة الى الموت أو للذهاب الى السجن . لقد اختار طريقه ، غير أنه لم يشأ أن يتحدّث عنه الى اكسينيا قبل الأوان . لامعنى في تسميم أيامها الأخيرة القليلة معه... فتلك الأيام ـ على حالها الراهنة آنئذ ـ لم تكن بهيجة جداً . لقد قرّر أن يتحدّث عن الموضوع

في اليوم الأخير ، أما الآن ، فلتنم نوماً هادئاً ، وجهها ملتصق بإبطه . كانت كثيراً ماتقول خلال تلكم الليالي :

ـ لطيف أن أعيش تحت كنفك .

ـ حسن ، فلتنم الآن . ياللمسكينة . لم يبق لها سوى أمد قصير تستكن في كنفه خلاله .

في الصباح ، كان غريغوري يلاعب الطفلين ، ثمّ يتمشى على غير هدى في أرجاء القرية . وكانت معنويّاته ترتفع حينما يكون بصحبة آخرين . وذات يوم اقترح عليه بروخور أن يذهبا الى دار نيكيتا ملنيكوف ليشربا مع القوزاق الشباب الآخرين الذين كانوا برفقتهما في الكتيبة . فرفض غريغوري الاقتراح في الحال . كان يعلم من أحاديث القرويين أنهم كانوا متذمرين من قيام السلطة بتجميع الحبوب وأن الحديث لابد أن يتطرق الى هذه الناحية أثناء الشرب . كان لايريد أن يستجلب الشكوك عليه ، فكان حتّى اذا التقى ببعض المعارف يتجنّب التحدّث عن السياسة . لقد شبع وناله من الأذى مانال من جرائها .

كان حذوه في مكانه ، وخصوصاًحينما كانت اجراءات تجميع الحبوب لاتعطي الا نتائج تافهة ، مما أدى الى اعتقال ثلاثة شيوخ بمثابة رهائن وأرسلوا تحت الحراسة الى فيشنسكايا .

وفي اليوم التالي ، رأى غريغوري ، على مقربة من حانوت الجمعية التعاونية المدفعي السابق زاخار كرامسكوف الذي كان قد عاد مؤخراً من بين صفوف الجيش الأحمر . وكان سكران تماماً ، يتأرجح في مشيته . ولكن ، ما أن اقترب من غريغوري حتّى زرر سترته الوسخة ، وقال بصوت أجش :

ـ أتمنّى أن تكون بخير ، يا غريغوري بانتلاييفتش .

ـ أجمعين!

وهزّ غريغوري قبضة المدفعي المتينة ، كثيرة العقد .

ـ هل عرفتني ؟
ـ عجباً ، وكيف لا ؟
ـ أتذكر كيف أنقذتك بطاريتنا ، في العام الماضي ، على مقربة من بوكوفسكايا ؟ ولولا نحن لكانت خيّالتكم في موقف عصيب . ماكان أكثر الحمر الذين لعبنا بهم ، كالكرة ، في ذلك اليوم ، أي بحق الجحيم! كنت هدّاف المدافع رقم واحد آنذاك .

وصفق زاخار راحته على صدره العريض .

فاختلس غريغوري نظرة حواليه... كان بضعة قوزاق يقفون على مبعدة قليلة يستمعون الى حوارهما . فارتعش طرفا شفتي غريغوري ، وكشّر تكشيرة محنقة ، كاشفاً عن أسنانه البيض القوية . وقال في صوت خفيض خلل أسنانه المصكوكة :

ـ انت سكران! اذهب ونم . ولا تتكلّم أكثر مما ينبغي!

فصاح المدفعي السكير :

ـ كلا ، لست سكران . أو لعلّني سكران تعاسة! لقد عدت الى بيتي ، ولكن هذه ليست حياة هنا ، إنها لأكثر من جهنّم دموية! لم يعد القوزاق يحيون ، ولم يعد هناك قوزاق . فإنهم استحصلوا ، منّي فقط ، نصف طن من الحبوب ، فماذا تسمّي ذلك ؟ هل هم زرعوها لكي يحق لهم أن يأخذوها ؟ هل يعرفون ماالذي يجعل الحبوب تنمو ؟

وحملق بعينين بليدتين محمرتين ، وبغتة أنشب يده بغريغوري وهو يترنّح ونفخ برائحة مشعة بالفودكا في وجهه :

ـ لماذا ترتدي بنطلونك بلا شرائط ؟ هل سجّلت نفسك فلاحاً ؟ لن ندعك! يا عزيزي غريغوري بانتلايفتش ، يجب أن نشق طريقنا بالقتال! سنقول ، كما قلنا في العام الماضي : فلتسقط الكومونة ، ولكن لتحيا الحكومة السوفييتية! .

فدفعه غريغوري عنه دفعة خشنة وتمتم :

ـ اذهب الى بيتك ، أيها الخنزير السكير! أتعرف ما أنت قائل ؟

واخرج كرامسكوف يداً واحدة ، وثغثغ قائلاً ، وهو ينشر أصابعه المبقّعة بآثار التبغ :

ـ عفواً إن قلت شيئاً مخطوءاً . المعذرة ، لكنني أتحدّث اليك مخلصاً ، باعتبارك آمر وحدتي الحبيب... يجب أن نقاتل من جديد!

واستدار غريغوري وسار باتجاه الدار عبر الساحة . غير أن هذا اللقاء غير المناسب خلف أثراً لبث يخامره حتّى المساء .

تذكّر صيحات كرامسكوف الثملة ، وصمت القوزاق التعاطفي وابتساماتهم وقال محدّثاً نفسه :

ـ يجب أن أغادر القرية بسرعة . لاخير يأتي من كل هذا...

كان عليه أن يذهب الى فيشنسكايا يوم السبت . معنى ذلك أنه سيجد لزاماً عليه أن يغادر قريته في غضون ثلاثة أيام . لكن ذلك لم يحصل : في ليلة الخميس ، حينما كان يستعد للنوم ، طرق أحدهم الباب طرقاً عنيفاً . فخرجت اكسينيا الى السقيفة . وسمعها تقول :«من هناك ؟» بيد إنّه لم يستطع سماع الرد . لكن شعوراً غامضاً بالقلق جعله ينهض من السرير ويذهب الى النافذة . قعقع المزلاج في الممر . كانت دونيا أوّل من دخل . نظر الى وجهها الشاحب ، وشرع ، حتّى قبل أن يسألها عن أي شيء يلتقط قبعته ومعطفه الثقيل من على المصطبة .

ـ يا أخي .

وسألها بصوت خافت ، وهو يدس ذراعيه في كمّي معطفه :

ـ ماالأمر ؟

وقالت لاهثة مستعجلة :

ـ ياأخي ارحل فوراً! لقد جاء أربعة خيالة من فيشنسكايا . وهم جالسون في غرفة الضيوف . كانوا يتحدثون همساً ، بيد أنني سمعت . وقفت لصق الباب وسمعت كل شيء . سمعت ميخائيل يقول أنه يجب

اعتقالك . إنه يخبرهم بكل شيء عنك... ارحل!

خطا غريغوري بسرعة نحوها ووضع ذراعيه حولها وطبع قبلة قوية على خدّها :

ـ شكراً لك ياأختي . والآن عودي وإلا فسيلاحظون خروجك . الى اللقاء!

ثمّ التفت الى اكسينيا :

ـ خبز! بسرعة! كلا ، ليس رغيفاً كاملاً ، قطعة فقط .

اذن فقد حلّت نهاية حياته الهادئة الوجيزة . تصرّف وكأنه في معركة ، بسرعة أنما بثقة . مضى الى غرفة الضيوف وقبّل ، باحتراس ، الطفلين النائمين ، ثمّ احتوى اكسينيا بين ذراعيه :

ـ الى اللقاء! سأرسل لك أخباري قريباً . سيقوم بروخور بإخبارك . اعتني بالطفلين . ازلجي الباب . اذا طرقوه أخبريهم بأنني ذهبت الى فيشنسكايا . حسن ، الى اللقاء ولا تحزني ، ياأكسينيا!

وحينما قبّلها ، أحس بدموعها المالحة الساخنة على شفتيه .

لم يكن لديه وقت لتطمينها ولسماع كلماتها المتكسّرة اليائسة ، وبرفق فك زراعيها اللتين كانت تطوّقانه ، وخطا الى الممر ، وتسمّع ، ثمّ فتح الباب الخارجي على مصراعيه فلفحت وجهه الريح الباردة الهابة من ناحية الدون . أغمض عينيه ثانية من الوقت ريثما يعتاد على الظلمة ، ثمّ مضى .

لبثت اكسينيا تصغي الى خشخشة الثلج تحت قدميه . وكانت كل خطوة تدخل ألماً حاداً الى قلبها . ثمّ تلاشى صوت الخطوات وانبعث صرير من سياج الاسفندان . أمسى كل شيء ساكناً هامداً ، سوى الريح تعوي في الغابة على الجانب الآخر من الدون .

حاولت أن تلتقط صوتاً خلال زئير الريح ، لكنّها لم تسمع شيئاً . فجأة أحسّت ببرد . مضت الى المطبخ وأطفأت المصباح .

١٠

في أواخر خريف عام ١٩٢٠ ، وحينما وجدت الحكومة السوفييتية أن من الضروري تشكيل مفارز لجمع الحبوب ، وذلك نظراً للنتائج الهزيلة التي حققتها سياسة طلب تجهيزات الحبوب ، تفشّى الاضطراب مابين أهالي الدون القوزاق . فظهرت الى الوجود عصابات مسلّحة صغيرة من مناطق الدون الأعلى ، كشوميلنسكاياوكازانسكايا وميجولنسكايا ومشكوفسكايا ويلانسكايا وغيرها . وجاء تشكيل هذه العصابات بمثابة رد فعل من قطاع أغنياء القوزاق على تنظيم مفارز جمع الحبوب وازاء اجراءات الحكومة السوفييتية لتنفيذ سياسة طلب تجهيزات الحبوب .

كانت غالبية العصابات ، التي كان عدد أفراد كل واحدة منها يتراوح مابين خمسة الى عشرين رجلاً ، تتكوّن من القوزاق المحلّيين الذين كانوا في السابق من رجال« الحرس الأبيض» الفعالين . واشتملت على رجال كانوا ، خلال عامي ١٩١٨و١٩١٩ ، قد خدموا في المفارز التأديبية ، وعلى نوّاب ضباط وضباط صغار من« جيش الدون » السابق الذين أفلتوا من عملية التجنيد التي أجرتها الحكومة السوفييتية في شهر أيلول ، وعلى متمردين كانوا قد برزوا في حوادث القمع العسكرية واعدام أسرى الجيش الأحمر خلال انتفاضة السنة السابقة في منطقة الدون الأعلى ، أي باختصار ، الرجال الذين لم يستطيعوا ، مهما كانت الظروف ، أن يستقرّوا تحت الحكم السوفييتي .

كانت العصابات تنقض على مفارز التجمّع في القرى ، وتمنع عربات القرويين المحملة بالحبوب من المضي الى نقاط التجميع وتعيدها الى القرى ، وتفتك بالشيوعيين والقوزاق غير الحزبيين المناصرين للحكم الجديد .

اسندت مهمة القضاء على هذه العصابات الى فوج حامية تابع لاقليم الدون الأعلى ، معسكر في فيشنسكايا وقرية بازكي . بيد أن جميع

المحاولات التي بذلت للقضاء على تلك العصابات المنتشرة في أرجاء منطقة الدون الفسيحة آلت الى الفشل . ويعزى ذلك بالدرجة الرئيسية الى أن السكان المحلّيين كانوا يكنّون عطفاً على العصاة ويزودونهم بالطعام والمعلومات عن تحرّكات قوّات الجيش الأحمر ، وكذلك يخفونهم حينما يتعرضون الى المطاردة . على أنّ بالإضافة الى كل ذلك ، لم يكن آمر الفوج كابارين ، وهو من«الثوّار- الاشتراكيين » نقيب الركن سابق في الجيش القيصري ، متحمّساً لرؤية قوّات الثورة المعاكسة يقضى عليها في هذه المنطقة وعمل كل مافي وسعه لعرقلة العمليّات التي كانت توجّه ضدّهم .

ولم يقم بغارات استطلاعية قصيرة بقوّاته إلا لماماً ، وإلا عندما كان يستحثه للعمل رئيس لجنة الحزب الاقليمية ، وحتّى آنذاك كان سرعان مايعود الى فيشنسكايا بحجة أن من واجبه ألا يشتّت قوّاته أو يقدم على مغامرات طائشة تاركاً فيشنسكايا ومخازنها ومؤسساتها الاقليمية بدون قوّة دفاعية كافية . كان فوجه يؤدّي المهمات التي تؤديها أية حامية ، مع أن تعداده كان حوالي أربعمائة حامل حربة وأربع عشرة رشاشة . كان الجنود يقومون بحراسة الأسرى وجلب الماء وقطع الأشجار في الغابة ، وكانوا ـ كجزء من أعمالهم الإجبارية ـ يجمعون جوز التنين من أشجار البلوط لاستعماله في صناعة الحبر . وغدا الفوج خير مجهّز بالخشب والحبر للمؤسسات والمكاتب الاقليمية العديدة ، إلا أن عدد العصابات المتمردة الصغيرة كان ، في غضون ذلك ، يزداد بمعدّل مدهش . ولم يتوقّف قطع الأخشاب وجمع جوز التنين ، قسراً ، الا في كانون الأول وذلك حينما اندلعت انتفاضة واسعة النطاق في منطقة بوغاتشار من مقاطعة فورونيج الواقعة على حدود اقليم الدون الأعلى . وبناء على أمر صدر من قائد الجيش في اقليم الدون ، أرسل الفوج ، وكان يتألّف من ثلاث سرايا وفصيلة رشاشات ، مع سرّية خيالة الحامية ، والفوج الأول التابع لكتيبة جمع الحبوب الثانية عشرة ، ومفرزتين دفاعيتين محليتين صغيرتين ، وذلك للقضاء على الانتفاضة .

وفي معركة دارت رحاها بالقرب من قرية سوخوي دونيتس ، شنّت سرّية فيشنسكايا ، بقيادة ياكوف فومين ، هجوماً على صفوف المتمردين من جناحها ، واجتاحتهم اجتياحاً ، فلاذوا بالفرار ، فيما صُرع من بين صفوفهم حوالى مائة وسبعين رجلاً ، بينما لم تتجاوز خسائر السرّية ثلاثة رجال . كان كل رجال السرّية ، إلا حفنة منهم ، من القوزاق ، من أهالي منطقة الدون الأعلى الأصليين . وفي هذا القتال عادوا ثانية الى إخلاصهم الى التقاليد القوزاقية العريقة . فعلى الرغم من احتجاجات الشيوعيين الموجودين في السرّية ، قام مايقارب من نصف الرجال باستبدال معاطفهم الثقيلة وستراتهم اللبادية العتيقة بالفروات الجيدة التي كان يرتديها المتمردون القتلى .

بعد بضعة أيام من إخماد الإنتفاضة ، استدعيت السرّية ثانية الى كازنسكايا . وهناك أراح فومين نفسه من أعباء الحياة العسكرية وجعل يمتّع نفسه بأكبر قدر ممكن من الملذّات .

كان زير نساء لايبارى ، وقوزاقياً اجتماعياً مرحاً ، فكان يختفي عن الأنظار ليلة إثر ليلة ، لا يعود الى مقره الا مع الفجر . فإذا صادف أن رآه رجاله ، الذين كانت علاقته بهم خالية من الرسميّات ، يسير ذات مساء في الشارع ملمّع الجزمة ، تبادلوا الغمزات العارفة ، وقالوا :

ـ اذاً ، فجوادنا الفحل ذاهب الى الأفراس من جديد! يعني أنه لن يخرج من بينهن حتّى الفجر!

ومن غير أن يعلم قوميسار السرّية ومرشدها السياسي ، كان من عادة فومين أن يزور مقرّات قوزاق معينين من سرّيته كان على علاقة طيبة معهم ، وذلك متى ما أوصلوا الكلمة اليه أنّ ثمة فودكا وافرة وجلسة سكر عامرة . وكانت هذه الزيارات كثيرة التكرار . ولكن ، مالبث الآمر الفاتن أن أمسى ملولاً كئيباً وكاد أن ينسى ، كلية ، وسائله الأخيرة في طلب المتعة . فلم يعد ينظّف جزمته العالية الأنيقة في الأماسي بذات الحماسة السابقة أو يهتم

بحلاقة ذقنه كل يوم . لكنّه ، مع ذلك ، لم ينقطع عن زيارة مقرّات رفاق قريته في السريّة من حين لآخر ، غير أنه لم يكن يسهم في الحديث معهم بنصيب كبير .

لقد طرأ التغيّر في سلوك فومين غب تسلّمه تقريراً كان قد تلقّاه آمر الفصيلة من فيشنسكايا . أعلنت فيه الدائرة السياسية لـ« تشيكا الدون » باقتضاب أن فوج الحامية وآمره المدعو فاكولين قد أعلنا العصيان في ميخائيلوفكا الكائنة في منطقة أوست ـ مدفديتسكايا المجاورة .

من المصادفة أن فاكولين هذا كان صديقاً لفومين ورفيقاً في الكتيبة سابقاً ، وكانا قد خدما معاً ، ذات يوم ، في فيلق متمردي ميرونوفو ، وسلما سلاحيهما معاً حينما أحاطت بتلك القوة خيّالة بوديوني . ولم تنقطع أواصر الصداقة بين فومين وفاكولين أبداً ، ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ قام فاكولين بزيارة فيشنسكايا ، وذلك في أوائل أيلول . وحتّى في ذلك الوقت ، تشكّى لصديقه القديم والغيظ يحتدم فيه من« سيطرة القوميسارية ، والحاق الخراب بالمزارعين جراء طلبات تجهيز الحبوب للسلطة ، وقيادة البلاد نحو الكارثة» . وفي أعماق قلبه ، كان فومين يوافق على آراء فاكولين ، إلا أنه تصرف إزاء ذلك في تحفّظ ، ولجأ الى دهائه الذي كان يخدمه في غياب ذكائه الفطري ، كان فومين ، في طبيعته ، حذراً ، لايتعجّل قط ، ولا يلزم نفسه بشيء بدون رويّة . ولكن ، بعد أن علم بالعصيان الذي أعلنه فوج فاكولين ، تخلّى عن حذره الاعتيادي . وحدث ذات مساء ، قبيل رحيل السرية الى فيشنسكايا ، أن اجتمع عدد من القوزاق في مقر آمر الرعيل ألفيروف . كان ثمة سطل كبير من سطول الخيل ، مليء بالفودكا . وكانت رحى حديث حار تدور حول المائدة . وكان فومين ، الذي حضر جلسة الشرب تلك ، يستمع بصمت الى الحديث ويغرف الفودكا ، بالصمت ذاته ، من السطل . ولكن ، حينما شرع أحد القوزاق يستعيد ذكرى الهجوم الذي كانوا قد شنّوه على مقربة

من سوخوي دونيتس ، قاطعه فومين وهو يبرم شاربه متفكّراً :

ـ أوقعنا الطعن بالاوكرانيين بشكل لابأس به ، أيها الأولاد ، ولكن لنأمل أن لانعرف ، نحن ، الحزن والأسى في وقت قريب . افرضوا أننا ، حينما نرجع الى فيشنسكايا ، سنجد مفارز تجميع الحبوب قد افرغت بيوتنا من الحبوب ؟ إن أهالي كازانسكايا شديدو التذمّر من مفارز الحبوب هذه ، لقد كانوا يكنسون صناديق الغلة بالمكانس...

فخيّم سكون على الغرفة . نظر فومين الى رجاله ثمّ قال بابتسامة مغتصبة :

ـ لم أكن سوى مازح... خذوا حذركم ، ولاتفلتوا عقال ألسنتكم ، لأن الشيطان وحده يدري ماذا تعني المزحة في نظر الآخرين .

في طريق عودته الى فيشنسكايا ، عرج فومين على قريته روبزني يصحبه نصف رعيل من خيّالته . فترجّل عند البوابة ، وألقى بالعنان نحو أحد رجاله ، ودخل الى البيت .

هزّ رأسه ببرود لزوجته ، وانحنى انحناءة خفيفة لأمّه وصافحها باحترام ، ثمّ عانق أطفاله .

سأل فيما كان يجلس على مقعد واضعاً سيفه بين ساقيه :

ـ وأين أبي ؟

فأجابت أمّه :

ـ ذهب الى الطاحونة .

ثمّ قالت لابنها بلهجة آمره صارمة وهي تحدّق فيه :

ـ اخلع قبّعتك ، أيها الكافر! من في الدنيا يجلس تحت أيقونة معتمر الرأس ؟ آه ، ياياكوف ، لسوف تفقد رأسك ذات يوم من هذه الأيام!

فاصطنع فومين ابتسامة وأزاح قبعته ، بيد أنه لم يحاول أن يخلع ملابسه الخارجية .

وألحفت عليه أمّه بقولها :

ـ لماذا لاتخلع معطفك ؟
ـ جئتكم لدقيقة أو دقيقتين كي أراكم . لاوقت لي أثناء الخدمة .
فقالت العجوز بلهجة خشنة وهي تلمّح الى سلوك ابنها المشين وعلاقاته بالنساء في فيشنسكايا :
ـ نحن أدرى بخدمتك!
اذ كانت شائعات سلوكه قد دارت منذ أمد طويل في أرجاء روبزني .
القت زوجة فومين نظرة فزعة على حماتها ومضت نحو الموقد . كانت امرأة شاحبة الوجه . بان الكبر عليها قبل الأوان . ولكي تعمل شيئاً ما يسر زوجها وتنال به حظوه لديه وتكسب منه نظره امتنان واحدة على الأقل ، تناولت خرقة من تحت الموقد وجثت على ركبتيها وشرعت ، محنيّة الظهر ، تزيل الطين السميك العالق بجزمته .
وهمست في صوت يكاد لا يُسمع دون أن ترفع رأسها وهي تزحف حول قدمي زوجها :
ـ يا لها من جزمة بديعة ، ياياكوف! لكنّها موحلة! سأنظّفها لك ، سأنظّفها حتّى تلمع!
لم يكن قد عاش معها الا لعدة سنوات ، ولعدّة سنوات لم يكن ليحمل أي احساس ،سوى شفقة ازدرائية خفيفة ، إزاء هذه المرأة التي كان قد أحبّها أيام فتوّته . أمّا هي ، فقد ظلّت مقيمه على حبه ، وكانت تغفر له كل شيء وتأمل ، في سريرتها ، أن يعود اليها يوماً ما ، آجلاً أم عاجلاً . ولعدة سنوات طوال ، كانت تعمل في الحقل ، وتقوم على تربية الأطفال وتبذل مافي وسعها لإرضاء حماتها ذات الأهواء المتقلبة . وناء كتفاها الهزيلان بجميع أعمال الحقل ، وقد أدت الواجبات الملقاة على عاتقها والمرض الذي أصابها بعد أن وضعت طفلها الثاني الى استنزاف قوّتها أكثر فأكثر على مر السنين . فأمست هزيلة ، وفقد وجهها نضارته ، ونسج الكبر المبكّر شبكة كنسيج العنكبوت ، من الغضون على خدّيها وكانت تطلّ من

عينيها صورة المهانة المرتعبة التي تظهر في عيون الحيوانات الذكية المصابة بالمرض . وكانت هي نفسها لاتدرك مدى كبرها السريع وتدهور صحّتها يوماً بعد يوم ، بل ظلّت متشبثة بالأمل ، وكانت ، في المناسبات النادرة التي كانت تلتقي بزوجها فيها ، ترنو الى وسامته وأناقته بإعجاب وحب حيّين .

حدّق فومين الى ظهر زوجته المحني على صورة مفجعة ، وعظمي كتفيها الناتئين تحت قميصها ، ويديها الكبيرتين المرتجفتين تزيلان الوحل من جزمته ، وقال في نفسه :

ـ إنها جميلة ، لانكران لذلك! وهذه من كنت أضطجع معها ذات يوم! لكنها كبرت بشكل فظيع . لكم بدا عليها الكبر!

ثمّ قال في لهجة متضايقة وهو يحرّر قدمه من يدي زوجته :

ـ كاف! ستتوحّل ثانية .

فأقامت ظهرها ، متألمة ، ونهضت على قدميها . واكتسى خدّاها الأصفران حمرة خفيفة . كان ثمة تعبير ناطق بالحب والوفاء ، كوفاء الكلب ، في عينيها الدامعتين فيما كانت تنظر الى فومين حتّى أنّه أشاح بوجهه وتوجّه بالسؤال لأمه :

ـ حسن ، وكيف حالكم جميعاً ؟

فأجابت العجوز باكتئاب :

ـ كالعادة .

ـ هل جاءت الى القرية إحدى مفارز تجميع الحبوب ؟

ـ لم ترحل الى نيزنه ـ كريفسكايا الا البارحة .

ـ هل أخذوا منّا حبوباً ؟

ـ أجل . كم أخذوا ، يادافيدكا ؟

فأجاب الصبي :

ـ جدّي هو الذي رآهم . هو يعرف . أظنهم أخذوا عشر زكائب .

وكان الصبي في الرابعة عشرة من عمره ، ذا عينين زرقاوين متباعدتين كعيني أبيه .

فقال فومين :« آه ـ أه! » . ونهض وحدّج ابنه بنظرة جادة ، ثمّ سوّى نطاق سيفه . وتساءل فيما اكتسى وجهه شحوباً خفيفاً :

ـ هل أخبرتموهم حبوب من كانوا يأخذون ؟

فهزّت العجوز يدها وابتسمت ، دون أن تخفي تلميحها الخبيث :

ـ إنهم لايعيرونك كثير اهتمام! قال آمرهم :« يجب على كل فرد بلا تمييز أن يسلّم فائض حبوبه حتّى لو كان فومين ، حتّى لو كان رئيس لجنة الاقليم نفسه ، سنظل نأخذ فائض الحبوب » . وشرعوا ينبشون صناديق القمح .

فقال فومين في صوت غليظ :

ـ سأسوّي حسابي معهم ، ياأمّي! سأسوّي حسابي معهم!

واستأذن ، متعجّلاً ، وخرج .

بعد هذه الزيارة بدأ فومين يستوثق ، في حصافة وحذر ، من مشاعر رجال السريّة ، وسرعان ما اقتنع بأن غالبيتهم كانوا غير راضين عن سياسة تجميع الحبوب . كانت زوجاتهم وأقاربهم القريبون والبعيدون يأتون لزيارتهم من شتّى القرى والمناطق فيقصّون عليهم كيف كانت مفارز تجميع الحبوب تقوم بعمليّات التفتيش وكيف كانت تجمع كل الحبوب ، تاركة مايكفي للبذار والطعام فقط . ومن نتائج ذلك ، أنّه حدث في اجتماع عقدته الحامية في بازكي في نهاية شهر كانون الثاني أن قاطع رجال السرية ، مواجهة ، خطاباً كان قوميسار الأقليم العسكري ، شاخاييف ، يلقيه . فانبعثت الصيحات من صفوفهم :

ـ الغوا مفارز التجميع!

ـ حان الوقت للتوقّف عن أخذ حبوبنا!

ـ تسقط قوميسارية التجميع!

وجاءت صيحات رجال الجيش الأحمر في سرية الحامية رداً عليهم :
ـ أعداء الثورة!
ـ فرقوا هؤلاء الخنازير ، وزعوهم على كتائب مختلفة!
كان الإجتماع طويلاً وعاصفاً . وقال أحد الشيوعيين القلائل في الحامية لفومين والقلق بادٍ عليه :
ـ يجب أن تقول شيئاً ، أيها الرفيق فومين! انظر الى اللعبة التي يلعبها رجال سريتك!
فابتسم فومين تحت شاربه ، وأجاب :
ـ لكنني رجل غير حزبي . أتحسب أنهم سيعيرونني أي اهتمام ؟
ولم يحد عن صمته المطبق ، بل غادر الإجتماع قبل انتهائه بمدة طويلة . وخرج مع آمر الفوج كابارين . وفي طريقهما الى فيشنسكايا تطرّقا في حديثهما الى الوضع الجديد الذي نشأ ، وسرعان ما وجدا أنهما كانا يتبادلان لغة مشتركة . وغبّ ذلك باسبوع ، قال كابارين ، صراحة ، لفومين ، وكانا في المقر الأخير :
إمّا أن نعمل الآن ، أو لن نعمل أبداً ، ليكن هذا واضحاً لديك ، ياياكوف يفيموفتش! يجب أن نستفيد من الفرصة السانحة . إنها لحظة مناسبة جداً . سيدعمنا القوزاق . إن لك نفوذاً واسعاً في كل أنحاء الإقليم . لن يكون الناس في موقف أكثر تأييداً لنا مما هم فيه الآن . علام صمتك ؟ استقر على رأى!
فقال فومين مثغثغاً وهو ينظر الى كابارين من تحت حاجبيه :
ـ ما الذي لديّ كي يستقرّ رأيي عليه ؟ لقد تقرّر الأمر وانتهى ، سوى أن علينا أن نضع خطة لضمان جريان كل شيء في يسر ، لكي لا تقع أية فوضى أو كارثة . فلنتحدّث عن هذا بالذات .
لم تمر الصداقة المشبوهة ما بين فومين وكابارين دون أن تُلاحظ . فقد نظَم عدد من الشيوعيين في الفوج مراقبة عليهما ونقلوا شكوكهم الى

أرتيمييف ، رئيس الدائرة السياسية ، والى شاخاييف ، القوميسار العسكري .

فقال أرتيمييف ضاحكاً :

ـ خائف مرة خجول مرتين! ان كابارين جبان ، فهل تظنه سيعزم . على شيء حازم ؟ سنراقب فومين ، وهو تحت مراقبتنا منذ مدة طويلة ، سوى أن من المشكوك فيه أن يجرؤ فومين على الإقدام على أي عمل .

وختم كلامه بقوله ، حاسماً :

ـ إن ذلك كله من نسج خيالكم .

على أن الأوان كان قد فات على مراقبة فومين ، اذ أن المتآمرين كانوا قد توصّلوا الى اتفاق . وحدّد موعد بدء الإنتفاضة في الساعة الثامنة من صباح الثاني عشر من آذار . وقد تم الاتفاق على أن يخرج فومين بالسرية لاجراء التمرينات الصباحية بكامل ملابس القتال . ثمّ يشنّون هجوماً مفاجئاً على حضيرة الرشاشات المعسكرة في مشارف فيشنسكايا ، ويستولون على المدافع الرشاشة ، وبعد ذلك يساعدون سرية الحامية على إجراء عملية «تطهير» للمنظّمات الاقليمية .

كان كابارين غير واثق من أن جميع الفوج سيدعمه وعبّر لفومين عن شكوكه هذه ، فأصغى اليه فومين باهتمام ثم قال له :

ـ حالما نستولي على المدافع الرشاشة ، سنعيد الهدوء الى فوجك في غضون ثانيتين .

لم تثمر المراقبة الدقيقة التي وضعت على فومين وكابارين عن أية نتائج ، لم يكونا يلتقيان إلا نادراً ، وحتّى اذا التقيا فلشؤون تتعلّق بالعمل ، ولم يحدث الا في أواخر شباط أن رأتهما دورية يسيران معاً في أحد الشوارع ذات ليلة . كان فومين يقود حصاناً مسرجاً ، من عنانه ، وكابارين يمشي الى جانبه . وحينما سئلا عن هويتهما ، أجاب كابارين :«صديق!» ـ ثمّ عرجا على مقر كابارين . بقيا هناك دون إضاءة النور . وفي الساعة

الرابعة صباحاً خرج فومين وامتطى حصانه ومضى الى مقره . كان ذلك كل ماستطاعت الدورية أن تفيد به .

نقل قوميسار الاقليم العسكري ، شاخاييف ، شكوكه حول فومين وكابارين الى قائد الجيش في اقليم الدون ببرقية بالشيفرة . فتلقّى ، بعد ذلك بعدة أيام ، جواباً من القائد يصادق فيه على عزل فومين وكابارين من منصبيهما واعتقالهما .

وفي اجتماع عقده مكتب لجنة الحزب الاقليمية تقرّر ابلاغ فومين أنّه قد استدعي الى نوفوتشيركاسك بناء على أمر صادر من القوميسارية العسكرية الاقليمية ، وأنه وضع تحت تصرّف قائد الجيش ، وأن عليه أن يسلم امرة السرية الى مساعده ، أوفتشينيكوف . وتقرّر أيضاً أن ترسل السرية الى كازانسكايا في اليوم نفسه بحجة أن عصابة مسلحة قد شوهدت هناك ، بينما يلقى القبض على المتآمرين في الليلة التالية . وقد اتخذ قرار نقل السرّية من فيشنسكايا خوفاً من احتمال عصيانها اذا ما علم أفرادها باعتقال فومين . وقد أوعز الى آمر الكتيبة الثانية التابعة لفوج الحامية ، وكان شيوعياً يدعى تخاتشنكو ، بتحذير الشيوعيين الموجودين في الفوج وآمري الفصائل من إمكانية حدوث انتفاضة وأن عليهم الابقاء على السرية وحضيرة المدافع الرشاشة في وضعية القتال .

أبلغ فومين بأمر استدعائه في الصباح التالي . فقال في هدوء :

ـ حسن ، تسلّم امرة السرية ، يا أوفتشينيكوف . أنا ذاهب الى نوفوتشيركاسك . أترغب في مراجعة الحسابات ؟

فكان أن أغرق أوفتشينيكوف نفسه في خضم الأوراق ، وكان هذا آمر فصيل غير حزبي ولم يكن قد تلقّى أي تحذير أو ساورته أي شكوك .

فانتهز فومين الفرصة لكتابة ورقه الى كابارين :« التنفيذ اليوم . لقد تمّ استدعائي . استعد! »

وفي السقيفة سلّم الورقة الى مراسله وهمس اليه :

ـ ضع الورقة في فمك . امض على حصانك بخطو بطيء . فاهم ؟ اذهب الى كابارين بخطو بطيء . سلّمه الورقة وعد الى هنا على الفور . اذا أوقفك أي رجل في الطريق ، ابلعها .

ولدى تسلّم الأمر بقيادة السرية الى مركز منطقة كازانسكايا ، استعرض أوفتشينيكوف القوزاق في ساحة الكنيسة استعداداً للمسيرة . وجاء فومين على حصانه .

ـ أتسمح لي بإلقاء كلمة توديع للسرية ؟

ـ تفضّل! ولكن ، أرجو أن تكون سريعة ، فلا تؤخّرنا .

فشرع فومين يهتف ،وهو يمسك زمام حصانه المتوثب أمام السرية :

ـ أنتم تعرفونني جميعاً ، أيها الرفاق . تعرفون ماالذي كنت أحارب من أجله دائماً . كنت دائماً الى جانبكم . لكنّني اليوم لاأستطيع أن أقبل بوضع يُنهب فيه القوزاق ، ويُسلب الرجال الذين يقومون على زراعة الحبوب . وهذا هو سبب اعفائي من امرة السرية . وأنا أعرف تمام المعرفة ماذا في نيّتهم أن يفعلوا بي . وهذا ما دعاني الى أن أودّعكم...

ولبرهة من الوقت ، قوطعت كلمة فومين بصيحات وهدير من ناحية السرية . فقام على ركابيه ورفع صوته بصورة حادة :

ـ اذا اردتم أن تحرّروا أنفسكم من هذا النهب والسلب ، اطردوا مفارز التجميع ، اقتلوا القوميساريين من أمثال شاخاييف . لقد جاءوا الى ديارنا في الدون... .

وغرقت كلماته الأخيرة وسط الضجيج الصاخب . فانتظر بعضاً من الوقت ، ثمّ أصدر أمره بصوت جهير :

ـ الى اليمين ، في ثلاث . يميناً استدر... عادة سر!

فنفّذت السرية الإيعاز في الحال . أمّا أوفتشينيكوف الذي كانت المفاجأة قد شلّت لسانه ، فقد انطلق صوب فومين وسأله :

ـ الى أين ذاهب ، أيها الرفيق فومين ؟

فرد عليه فومين هازئاً من غير أن يلتفت ناحيته :

ـ في مسيرة قصيرة حول الكنيسة ، فقط .

ولم يدرك أوفتشينيكوف ، الا لحظتئذ ، دلالة كل ماحصل خلال الدقائق القليلة الأخيرة . فخرج بحصانه من الصف ، وتبعه المرشد السياسي ونائب القوميسار ورجل آخر . ولم يلاحظ فومين عدم وجودهم الا بعد أن كانوا قد قطعوا حوالي مائتي خطوة . فأدار حصانه وهتف :

ـ أوفتشينيكوف ، قف!

فهمز الراكبون الأربعة خيولهم ، فزادت سرعة عدوها من خبب يسير الى هذب سريع . وأخذت كتل من الجليد نصف الذائب تتطاير من حوافر الخيل فأصدر فومين أمره :

ـ الى السلاح! اقبضوا على أوفتشينيكوف! الرعيل الأول ، وراءهم!

وانطلق صوت مبعثر لصليّة من الطلقات . ومرق رجال الرعيل الأول الستة عشر يطاردونهم . وفي الوقت نفسه ، قسّم فومين السرية قسمين : أرسل المجموعة الأولى بقيادة آمر الرعيل الثالث ، تشوماكوف ، لتجريد حضيرة المدافع الرشاشة من سلاحها ، ومضى هو على رأس المجموعة الثانية الى الموضع الذي كانت سرية الحامية تعسكر فيه في المشارف الشمالية للقرية ، وذلك في اسطبلات واسعة .

انطلقت المجموعة المتمردة الأولى حدر الشارع الرئيسي ، وهم يطلقون النار في الهواء ويلوحون بسيوفهم . فصرعوا في طريقهم أربعة شيوعيين بسيوفهم ، ثمّ نظموا صفوفهم بسرعة في المشارف ، وانطلقوا ، في صمت وبلا هتاف ، يشنّون هجومهم على جنود الحمر لحضيرة المدافع الرشاشة ، فيما هرع هؤلاء الى خارج مقرّاتهم .

كانت الدار التي اتخذتها حضيرة المدافع الرشاشة مقراً لها ترتفع على مسافة قليلة من بقية القرية . على أنها لم تكن تبعد عن الدور الأخيرة بأكثر من مائتي خطوة فقط . فجوبه القوزاق بنيران المدافع الرشاشة تطلق عليهم

عن كثب ، فداروا على أعقابهم في الحال . وأصيب ثلاثة منهم ، فهرّوا من على سروجهم قبل أن يتمكّنوا من بلوغ أقرب زقاق .

فشلت محاولة الهجوم المباغت على حاملي الرشّاشات . ولم يعاود المتمردون المحاولة كرّة ثانية . فقاد آمر المجموعة رجاله تحت ستار حام ، واختلس نظرة حذرة من زاوية مأوى حجري وقال :

ـ أخرجوا مدفعين آخرين من نوع مكسيم .

ومسح جبينه العرقان بقبّعة الفرو ثم استدار نحو الآخرين :

ـ سنعود أدراجنا ، أيها الأولاد . ليقم فومين نفسه بالاستيلاء على المدافع الرشاشة . كم خلفنا وراءنا على الثلج... ثلاثة ؟ فليجرّب يده هو .

وما أن تفجّر اطلاق النار في المشارف الشرقية للقرية حتّى مرق آمر السرّية تكاتشنكو الى خارج مقره ، وهو يرتدي ملابسه اثناء ذلك ، وهرع الى الثكنات . كان حوالي ثلاثين من الجنود الحمر قد اصطفّوا في الخارج . فحيّوه بوابل من الأسئلة :

ـ من الرامون ؟

ـ ما هي المسألة ؟

ومن غير أن يجيب ، أصدر أمره الى الجنود الحمر الذين كانوا يتدفّقون من الثكنات للاصطفاف أيضاً . وانضم الى الصفوف كذلك عدد من الشيوعيين ، من الشغيلة العاملين في الادارة الاقليمية الذين هرعوا الى الثكنات . وانبعثت في القرية أصوات اطلاق بنادق متفرقة . ومن موضع ما في المشارف الغربية هدر الخبط الكئيب لقنبلة يدوية واذ رأى تكاتشنكو زهاء خمسين فارساً منطلقين باتجاه الثكنات ، بسيوف مسلولة ،أسرع يخرج مسدّسه من جرابه . وتلاشى اللغط في الحال بين الصفوف واتخذ الرجال وضع الاستعداد ببنادقهم حتّى قبل أن يتسنّى له اصدار الايعاز بذلك .

وهتف أحد الجنود الحمر :

ـ لكن هؤلاء القادمين من رجالنا! انظروا ، هوذا آمر فوجنا ، الرفيق كابارين .

وعلى حين غرة ، انحنى الفرسان القادمون على أعناق خيلهم ، وكأنهم ينفذون أمراً صدر اليهم وانطلقوا في هذب جنوني ، ينهبون أرض الشارع نهباً ، باتجاه الثكنة .

فهتف تكاتشنو في صوت حاد :

ـ لا تدعهم يقتربون!

وغرق صوته في لجة الصلية التي لعلعت . وحينما كان الراكبون لايزالون على مبعدة مائة خطوة من صفوف الجنود الحمر المتراصة ، هوى أربعة منهم عن سروجهم وتشتّت صفوف الآخرين ، فاستداروا على أعقابهم . ولعلع الرصاص وراءهم . وسقط أحد الراكبين ، وكما يبدو قد جرح جرحاً بسيطاً ، بيد أنّه ظل متشبّثاً بالعنان فظل حصانه المسرع يجره مسافة عشرين ياردة أو نحوهما ، ثم استعاد السيطرة على قدميه فأمسك بالركاب وبالرمانة الخلفية للسرج ، وفي اللحظة التالية كان على السرج من جديد . وجعل يجر العنان جرّاً عنيفاً ثم ادار وجهة حصانه بشكل حاد وانطلق حدر أقرب الأزقة واختفى .

كانت مطاردة رجال الرعيل الأول لأوفتشينيكوف فاشلة ، فكرّوا عائدين الى القرية . كما انتهى بالفشل البحث عن القوميسار شاخاييف ، فلم يعثروا له على أثر في القوميسارية العسكرية المهجورة ولا في مقره ، وكان في اللحظة التي بلغ أسماعه صوت إطلاق النار قد اندفع حدر الدون وعبر الجليد الى الغابة ، ومن ثمة الى قرية بازكي ، وفي اليوم التالي بلغ منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، على مبعدة خمسين فرستا تقريباً من فيشنسكايا .

وقد أفلح أغلب موظفي الاقليم الرئيسيين في الإفلات في الوقت المناسب . كما لم يكن البحث عنهم مأموناً من المخاطر في الوقت الذي كان الجنود الحمر من حضيرة المدافع الرشاشة يزحفون على مركز

فيشنسكايا بمدافع رشاشة خفيفة وقد سيطروا على جميع الشوارع المؤدية الى الساحة الرئيسية .

تخلّى رجال السرية عن البحث ، ونزلوا صوب الدون ، ومن ثمة اتجهوا نحو ساحة الكنيسة حيث كانوا قد شرعوا بمطاردة أوفتشينيكوف . وسرعان ماتجمّع جميع الرجال واصطفّوا من جديد فأصدر فومين أمره بإقامة الحراسة وبأن يذهب الآخرون الى مقرّاتهم على أن يبقوا خيولهم مسرجة .

وعقد فومين وكابارين وأمراء الرعائل اجتماعاً للتشاور في احدى الدور الكائنة في المشارف .

فهتف كابارين يائساً وهو ينهار على مصطبة :

ـ فقدنا كل شيء!

فقال فومين في هدوء :

ـ أجل . لم نستول على مركز المنطقة ، وهذا يعني أننا لن نستطيع المكوث هنا .

واقترح تشوماكوف :

لنقم بغارة في أرجاء الاقليم ، يا ياكوف يفيموفتش . لاخير في التخوّف الآن فعلى أية حال نحن لن نموت قبل أن يحل أجلنا! سنجعل القوزاق يعلنون الثورة : وآنذاك سيصبح مركز المنطقة في حوزتنا .

فحدّق فومين فيه دون أن ينبس بشيء ، ثم استدار ناحية كابارين وقال :

ـ أتشعر بغصة في حلقك ، ياصاحب السعادة ؟! كفى تمخّطاً! قد يشنقونك بسبب حمل! لقد بدأناها معاً ، فلنمض بها معاً . مارأيك هل يجدر بنا أن ننسحب من فيشنسكايا أم نكرّر المحاولة ؟

فقال تشوماكوف بحدّة :

ـ فليحاول الآخرون! لن أخرج لمواجهة مدفع رشّاش . تلك لعبة مينوس منها .

فقال فومين وهو يلقي نظره على تشوماكوف :

ـ أنا لم أسألك أنت! اسكت!

فأشاح تشوماكوف نظره .

وبعد برهة من الوقت ، قال كابارين :

ـ نعم ، من العبث ، طبعاً ، القيام بمحاولة ثانية في الوقت الحاضر . إنهم متفوقون بالسلاح . لديهم أربعة عشر مدفعاً رشّاشاً ، وليس لدينا واحد . كما أن لديهم عدداً أكبر من الرجال... يجب أن نتراجع وننظم القوزاق للقيام بانتفاضة . فالى أن تصل التعزيزات اليهم ستعم الإنتفاضة الاقليم كله . هوذا أملنا الوحيد . وليس ثمة غيره .

فقال فومين ، بعد صمت مديد :

ـ حسن ، يجب أن نتخذ قرارنا في هذا الشأن فيما بعد . ياآمري الرعائل ، هيّا افحصوا العتاد ، واحسبوا عدد الخراطيش التي بحوزة كل رجل . أصدروا الأوامر مشدّدة بألا تستهلك رصاصة واحدة عبثاً . إن أول رجل يعصى هذه الأوامر سيلقى مصرعه بسيفي . قولوا هذا للرجال .

وخلد الى الصمت لحظة ، ثمّ خبط قبضته الجسيمة على المنضدة غاضباً :

ـ آه ، يا لتلك المدافع الرشاشة اللعينة ، والخطأ كل الخطأ منك ، ياتشوماكوف! لو أفلحنا في الاستيلاء على أربعة منها فقط... .أما الآن فلا شك أنهم سيجبروننا على مغادرة المكان . حسن ، انصرفوا! سنمضي الليلة في فيشنسكايا ، هذا اذا لم نجبر على الجلاء ، وسنزحف عند الفجر الى داخل الاقليم... .

مرت تلك الليلة هادئة . كان في طرف من فيشنسكايا رجال السرية المتمردون ، وفي الطرف الآخر فوج الحامية وشيوعيون وفتية شيوعيون كانوا قد انضمّوا الى الفوج . ولم يكن يفصل بين العدوّين سوى مجموعتين من المنازل ، غير أن أياً منهما لم يجرؤ على شن هجوم ليلي .

في الصباح التالي ، جلت السرية عن القرية بلا قتال واتخذت لها طريقاً في اتجاه جنوب شرقي .

١١

لبث غريغوري ثلاثة أسابيع بعد أن غادر قريته ، يعيش في قرية فيرخني ـ كريفسكوي في منطقة يلانسكايا في دار أحد معارفه من القوزاق ممن كانوا معه في الكتيبة . ثم رحل الى قرية كورباتوفسكي حيث سكن أكثر من شهر مع أحد أقرباء اكسينيا البعيدين .

كان يظل أيّاماً بطولها داخل البيت لايخرج الى الفناء الا في الليل . بيد أن هذه الحياة لم تكن أقل سوءاً من حياة السجن . وأدّت كآبته الى أن يمسي كنيباً ضيق الصدر . وكان يشعر بحنين لايقاوم الى قريته ، الى الطفلين والى اكسينيا . وكان كثيراً ما يضع معطفه الثقيل على كتفه ، خلال ليالي السهاد ، ويعقد العزم على العودة الى تتارسكي . وفي كل مرة كان يغيّر فكره ويخلع معطفه ثانية ، ويرتمي على وجهه في السرير وهو ينن . وكانت هذه الحياة ترهقه الى حد لا يطاق . وبالرغم من تعاطف رب الدار معه ، وكان ابن عم لوالدي اكسينيا ، إلا أنه لم يكن في مقدوره الاحتفاظ بمثل هذا الضيف الى مالا نهاية له . وحدث مرة في مساء بعد العشاء ، وكان غريغوري قد ذهب الى غرفته ، أن تناهى الى سمعه صوت ربة الدار تتساءل بصوت غدا رفيعاً لفرط ماينطوي عليه من كراهية :

ـ ومتى سينتهي كل هذا ؟

فأجاب رب الدار بصوته العميق :

ـ ماذا كل هذا ؟ عم تتحدّثين ؟

ـ متى سنتخلّص من هذا العاطل الأكول ؟

ـ اسكتي!

ـ لن اسكت! لم يبق لدينا من الحبوب الا القليل بحيث لو رأته قطة لبكت عليه حزناً ، ورغم ذلك فإنك تحتفظ بهذا الشيطان الاحدب وتطعمه يوماً وراء يوم . أنا أسألك ، إلام تستمر هذه الحال ؟ ثم ، افرض أن السوفييت اكتشفوا الأمر ؟ لسوف يقطعون رقابنا ، وسيصبح أولادنا أيتاماً .

ـ أسكتي ، يا أفدوتيا!

ـ لن أسكت! يجب أن نفكّر بمصير أطفالنا . لم يتبق لدينا أكثر من حوالي سبعمائة عيار من الحبوب ، وها أنت تطعم هذا التنبل! مَنْ هو بالنسبة اليك ؟ شقيقك ؟ والد ابن أخيك ؟ ابن عمك ؟ انه لايمت لك بصلة . وبقدر مايتعلّق الأمر بك ، فإن قرابته اليك أشبه بقرابة ابن العم هلام الأول الى ابن العم الماء الثاني ، ومع ذلك فأنت تؤويه وتطعمه وتسقيه . آه ، أيها الشيطان الأصلع! اسكت أنت ، لاتنبح بوجهي ، وإلا ذهبت الى السوفييت بنفسي غداً وحدثتهم عن نوع الزهرة التي ترعاها في هذه الدار .

وفي اليوم التالي ، جاء رب الدار الى غرفة غريغوري وقال وهو يحدّق في الأرض :

ـ غريغوري بانتلاييفتش ، ظن ماشئت بي ، ولكنك لاتستطيع البقاء هنا أكثر مما بقيت . وأنا احترمك ، وكنت أعرف والدك المرحوم وأحترمه . ولكن من العسير علي أن استمر على ابقائك لديَ تأكل من طعامي . أضف الى ذلك ، إنني أخاف أن تكتشف السلطات أمرك . لديَ عائلة . ولاأريد أن أفقد رأسي بسببك . استميحك المعذرة ، بحق المسيح ، ولكن أعتقنا منك...

فقال غريغوري باقتضاب :

ـ طيب! شكراً لاطعامي واسكاني . شكراً على كل شيء . أستطيع أن أرى بأم عيني أنني عبء عليك ، ولكن أين تراني أذهب ؟ إن جميع طرقي مسدودة .

ـ عليك أن تقرّر ذلك بنفسك .

ـ لابأس! سأغادركم اليوم . شكراً على كل شيء ، يا أرتامون فاسيلييفتش .

ـ لا شيء تشكرني عليه .
ـ لن أنسى كرمك . أرجو أن أستطيع خدمتك في يوم ما .
واذ جاشت عواطف رب الدار ، ربّت على كتف غريغوري وقال :
ـ لم التحدّث عن هذا ؟ بقدر ما يتعلّق الأمر بي ، تستطيع أن تبقى هنا شهرين آخرين . لكن زوجتي لن تسمح بذلك ، وهي تثير عاصفة حول الأمر كل يوم ، لعنة الله عليها! أنا قوزاقي وأنت قوزاقي ، ياغريغوري بانتلاييفتش! أنت وأنا ، كلانا ، ضد السلطة السوفييتية ، ولسوف أساعدك . اذهب اليوم الى قرية ياكودني . إن حمي ولدي يعيش هناك وسوف يأخذك لديه . قل له أن أرتامون يقول أن عليه أن يتقبّلك كما يتقبّل ابنه ، وأن يطعمك ويبقيك في بيته بقدر ما يستطيع . وسنسوي الحساب فيما بيننا ، هو وأنا ، فيما بعد . لا أريد منك إلا أن ترحل عنّا هذا اليوم بالذات! يجدر بي ألا أبقيك هنا مدة أطول . زوجتي تنغص عيشي ، أضف الى أنني أخاف أن يكتشف الأمر لدى السلطات السوفييتية . لقد بقيت هنا مدة طيبة ، ياغريغوري بانتلاييفتش ، وسنسميها مدة كافية . أنا أحسب بعض الحسابات لسلامة رأسي أيضاً .
غادر غريغوري الدار في وقت متأخّر من تلك الليلة . ولكن ، قبل أن يبلغ الطاحونة الهوائية القائمة على التل المشرف على القرية خرج ثلاثة فرسان ، وكأن الأرض قد انشقّت عنهم ، وأوقفوه :
ـ قف ، يا ابن القحبة! من أنت : ؟
فجعل قلب غريغوري يدق عنيفاً . وتوقّف من غير أن يتفوه بكلمة . كان من الجنون أن يحاول الهرب . فلم يكن ثمة حجر أو أجمة في أيما مكان على مقربة من الطريق ، وليس سوى السهب القفر . وما كان باستطاعته أن يقطع أكثر من ياردتين .
ـ شيوعي ؟ ارجع ، عليك اللعنة! والآن ، أسرع! وجاءه أمر من رجل ثان تقدّم بحصانه منه :

ـ ارفع يديك! أخرجهما من جيبك! هيّا وإلا بترت لك رأسك!

فأخرج غريغوري ، بهدوء ، يديه من جيبي معطفه الثقيل ، وتساءل وهو لايزال لايفهم ما الذي حدث أو من هؤلاء الرجال :

ـ أين عليّ أن أذهب ؟

ـ الى القرية . استدر!

ورافقه فارس واحد الى القرية : أما الآخران فقد تركاهما عند المرعى وانطلقا صوب الطريق العام . فمشى غريغوري دون كلام . وحينما بلغ الطريق أبطأ خطاه وسأل حارسه :

ـ اسمع! من أنت!

ـ سر ، سر! بلا كلام! ضع يديك وراء ظهرك ، أتسمعني ؟

فأطاع غريغوري الأمر بصمت . لكنّه لم يلبث أن عاود السؤال :

ـ مهما يكن الأمر ، من أنت ؟

ـ أورثوذكسي روسي!

ـ وأنا لست من «الشيعة القدامى» بأية حال!

ـ حسن ، تستطيع أن تغبط نفسك لأنك لست منهم!

ـ الى أين تأخذني ؟

ـ الى القائد . سر ، هيّا ، هيّا ، أيها الأفعى ، وإلا فإنني...

ونخس الرجل غريغوري برأس سيفه . فلسع فولاذه الحاد البارد رقبته العارية فيما بين ياقة معطفه وطاقيته الفرو ، واتقد ، كالشرارة ، في داخله ، لحظة ، شعور بالرعب ، تلاه غيظ كظيم فرفع ياقته ، وقال خلل أسنانه المصكوكة ، مستديراً نصف استدارة ليحدّق ببصره الي حارسه :

ـ لا تلعب دور الأحمق ، أتسمعني ؟ وإلا فقد انتزع هذا الشيء منك...

ـ هيّا امش ، أيها الحثالة ، ولا تفه بكلمة! سأنتزعك أنت! ضع يديك وراء ظهرك!

فمضى غريغوري بضع خطوات صامتاً ، ثمّ قال :

ـ أنا هادئ، بدون شتائمك . يالك من قذر!

ـ لاتنظر الى الخلف!

ـ لاأنظر الى الخلف .

ـ اخرس واسرع!

فتساءل غريغوري وهو ينفض ندف الثلج العالق بأهداب عينيه :

ـ لعلّك تتمنّى أن أركض ؟

ومن غير أن يجيب الحارس ، همز حصانه . فدفع صدر الحصان المبلل بالعرق ورطوبة الليل ، ظهر غريغوري . وخشخش حافر الحصان في الثلج الذائب بجانب قدمه .

فصرخ غريغوري وهو يدفع صدر الحصان بيده :

ـ كف عن هذا!

فرفع الحارس سيفه الى مستوى رأسه وقال في لهجة هادئة :

ـ امش ، يانغل العواهر ، ولاتتكلّم ، والا فسأقضي عليك قبل الوصول الى مكان . إن يدي سريعة في مثل هذه الأمور! اخرس ، ولاكلمة أخرى!

مضيا صامتين حتى بلغا القرية . وعند أوّل فناء أوقف الحارس حصانه وقال :

ـ أدخل من البوابة!

فدخل غريغوري عبر بوابة كانت مفتوحة على مصراعيها .

وفي قلب الفناء وقع نظره على دار فسيحة ذات سقوف حديدية . وكانت خيل تزنخر وتجتر في صخب تحت افاريز مأوى . وكان ستة رجال مسلحين أو أكثر واقفين بلا عمل في السقيفة . أغمد الحارس سيفه وقال فيما كان يترجّل :

ـ ادخل الى الدار ، عبر الممر ، ثمّ الى أول باب الى اليسار . هيا ولا تتلفت! كل مرّة يتعيّن عليّ أن أقول هذا لك ؟

صعد غريغوري درجات السقيفة على مهل . كان رجل يقف عند

الحاجز ، مرتدياً معطفاً طويلاً من معاطف الخيّالة ومعتمراً قبعة من قبعات الجيش الأحمر . فتساءل :

ـ اصطدت واحداً ، اذن ؟

فردّ حارس غريغوري بصوته الأجش المألوف :

ـ أجل . اصطدناه بالقرب من الطاحونة الهوائية .

ـ من تراه... سكرتير مجموعة الحزب ؟

ـ الشيطان يدري! خنزير ما ، ولكننا سرعان ما سنكتشف هويته!

فحدّث غريغوري نفسه ، متعمّداً التلكؤ في السقيفة ومحاولاً استجماع شتات أفكاره :« إمّا أن تكون هذه عصابة بيضاء ، أو أفراداً من« تشيكا » فيشنسكايا يحاولون أن يلعبوا لعبة ذكية فيتظاهرون بأنهم من البيض . لقد وقعت في الفخ ، كأي بليد! » .

كان أول رجل وقع عليه نظره حينما فتح الباب هو فومين . كان جالساً الى منضدة يحيط به عدد من الرجال ببزّات عسكرية ، جميعهم غرباء على غريغوري . وكانت ثمة معاطف ثقيلة وفروات ملقاة على السرير في كومة مخبوصة ، وقربينات مكوّمة بجانب المصطبة ، وعلى المصطبة نفسها خليط من السيوف وأكياس الخراطيش وخرج السروج . وكانت رائحة عرق الخيل النفّاذة تنبعث من الرجال والمعاطف والعدة جميعاً .

خلع غريغوري طاقيته الفرو وتمتم بتحية خفيضة الصوت فهتف فومين :

ـ ميليخوف! حسن ، اي وأيم الحق أن السهب واسع ، لكنّما الدرب ضيق . اذن فقد جمعنا القدر ثانية! من أين نبعت ؟ اخلع معطفك ، تعال واجلس .

وقام فومين عن المنضدة ، وتقدّم من غريغوري ماداً يده :

ـ ماذا كنت تفعل متسكّعاً في هذه الديار ؟

ـ قدمت الى القرية لقضاء عمل .

فحدّق فيومين الى غريغوري مستفهماً :

ـ أي عمل ؟ إنها لمسيرة طويلة من قريتك الى هنا . قل الحقيقة! كنت متخفياً هنا ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغوري ، مبتسماً رغماً عنه :

ـ هذه هي كل الحقيقة .

ـ ولكن أين أمسك بك أولادي ؟

ـ خارج القرية .

ـ أين كنت ذاهباً ؟

ـ كنت أتبع أنفي!

فحدّق فومين ثانية الى عيني غريغوري وابتسم :

ـ استطيع أن استنتج بأنّك تعتقد بأننا القينا القبض عليك لنرسلك الى فيشنسكايا ؟ كلاّ ، أيها الأخ ، لم يعد هذا دربنا . فلا تخش شيئاً! لقد نفضنا أيدينا من خدمة السلطة السوفييتية . لم نستطع أن نستقر في العيش معها .

وقال قوزاقي كهل ، كان يدخّن الى جانب الموقد ، بصوت عميق :

ـ لقد حصلنا على طلاق منها .

فانفجر أحد الرجال الجالسين الى المنضدة في ضحك مدوٍّ .

سأل فومين غريغوري :

ـ ألم تسمع بشيء عنّي ؟

ـ كلا .

ـ حسن ، اجلس الى المنضدة وسنتحدّث . حساء كرنب ولحماً لضيفنا!

لم يصدق غريغوري حرفاً مما قاله فومين . خلع معطفه وجلس ، وهو لايزال شاحب الوجه ، متحفظاً . وأراد أن يدخن ، فتذكر أنه لم يكن لديه تبغ خلال اليومين الأخيرين .

فسأله فومين :

ـ هل لديك ما يمكن تدخينه ؟

قدّم فومين في الحال ، علبة سكائره الجلدية ولم تفته ملاحظة يدي غريغوري ترتعشان في ما كان يتناول السيكارة ، فابتسم فومين من تحت شاربه الأحمر المجعد :

ـ لقد انتفضنا ضد السلطة السوفييتية . إننا مع الشعب ضد تجميع الحبوب وضد القوميساريين . لقد استغفلونا زمناً طويلاً ، أمّا الآن فنحن الذين سنستغفلهم . فهمت ، ياميليخوف ؟

لم يقل غريغوري شيئاً . لبث يدخّن ، يجر أنفاساً سريعة من سيكارته وشرع رأسه يدور ، وصعد شعور بالغثيان الى بلعومه .

لقد عاش خلال الشهر الماضي على طعام شحيح ولم يشعر إلا الآن كم أمسى ضعيفاً . فأطفأ سيكارته ، وشرع يلتهم الطعام في شره وفي غضون ذلك قصّ عليه فومين باختصار وقائع الإنتفاضة والأيام الأولى من تسكّعهم في أرجاء الاقليم ، واصفاً تسكّعهم هذا ، بأسلوب فخم ، بأنّه سلسلة من« الغارات » . فاستمع اليه غريغوري صامتاً ، وهو يزدرد الخبز ولحم الضأن الدهين نصف المسلوق يكاد لا يمضغه .

قال فومين وهو يضحك ضحكة عطوفاً :

ـ لكنّك أمسيت هزيل البنية رغم أنك كنت في ضيافة آخرين!

ففاق غريغوري وحمحم قائلاً :

ـ لم أعش مع حماة تطعمني .

ـ هذا واضح . كل ما شئت ، احش نفسك بقدر ما تستطيع . لسنا مضيفين بخلاء .

ـ شكراً والآن ، أحب أن أدخّن .

وتناول غريغوري السيكارة التي قدمت له ، ثم مضى الى وعاء على المصطبة ، وبكوز خشبي سكب بعضاً من مائه . كان بارداً كالثلج ، مالح الطعم بعض الشيء . كرع كوزين مليئين ، ثم جلس يتمتّع بتدخين سيكارته .

استأنف فومين قصّته وهو يجلس الى جوار غريغوري :

ـ ليس ترحيب القوزاق بنا حاراً جداً! لقد تلقّوا خضة موجعة خلال انتفاضة العام الماضي . ومع ذلك ، فقد انضم الينا بعض المتطوعين . حوالي أربعين رجلاً . ولكن ما هذا الذي نسعى نحن اليه . الذي نسعى اليه هو إثارة الأقليم برمّته ، والحصول على مساعدة الأقاليم المجاورة ، الحوبر وأوست ـ مدفديتسا . وآنذاك ، سيجمعنا بالحكومة السوفييتية حديث من قلب الى قلب .

وعلى المنضدة ، كان حوار صاخب يجري بين الرجال . وفيما كان غريغوري يستمع الى فومين جعل يسترق النظر الى رفاق فومين ، يتفحصهم بإمعان . لم يكن بينهم وجه مألوف . وكان غريغوري لا يزال غير مصدّق فومين ، وظن أنه كان يلعب دور الداهية ، فلبث غريغوري صامتاً . غير أنّه لم يستطع أن يصبر على ذلك طيلة الوقت . فسأل فومين ، وهو يقاوم نعاسه .

ـ اذا كنت جاداً في كل ماتقول ، أيها الرفيق فومين ، فماالذي تسعى اليه ؟ أن تشعل حرباً جديدة ؟

ـ سبق لي أن أخبرتك عن هذا!

ـ تريد تغيير الحكومة ؟

ـ أجل .

ـ وأي شكل من الحكومات تريد أن تقيم بدلاً عنها ؟

ـ حكومة قوزاقية من لدنّا .

ـ حكومة أتمانات ؟

ـ حسن ، سننتظر بعض الوقت قبل الحديث عن الأتمانات! الحكومة التي يختارها الشعب هي التي سنقيم . على أن هذا ليس بالأمر المستعجل ، ثم انني لا أفهم في السياسة . مهمتي هي القضاء على القوميساريين والشيوعيين ، وسيخبرك كابارين ، رئيس هيئة أركاني ، بجميع ما يخص

الحكومة . إنه عقلي المفكّر بقدر ما يتعلّق الأمر بذلك . إنه رجل ذكي ومثقّف .

ومال فومين على غريغوري وهمس في اذنه :

ـ كان ضابطاً سابقاً برتبة نقيب ركن في الجيش القيصري! شخص ذكي! إنه الآن نائم في الغرفة الأخرى . صحته ليست على مايرام ، ولعل ذلك راجع الى عدم اعتياده على هذا النمط من الحياة . لقد قطعنا مسيرات طويلة .

فجأة . انبعث من ناحية السقيفة ضجيج ، ووقع أقدام ، ثمّ أنين ، وقعقعة خفيفة ، ثم صرخة مكتومة :

ـ لقّنه درساً!

وانقطع الحديث الدائر حول المنضدة في الحال . نظر فومين ناحية الباب في ترقّب . فتح فجأة على مصراعيه . وتدفّقت الى داخل الغرفة غمامة بيضاء من البخار . واندفع رجل طويل القامة حاسر الرأس يرتدي سترة خاكية ملبّدة وقد دفعته الى داخل الغرفة ضربة قوية سدّدت الى ظهره ، وقطع عدة خطوات سريعة متعثرة وخبط كتفه خبطة قوية على حافة الموقد . وانبعث هتاف مرح من ناحية السقيفة قبل أن يصفق الباب :

ـ هاكم رجلاً آخر!

فقام فومين وسوّى حزام قمصلته . وتساءل في لهجة متكبّرة :

ـ من أنت ؟

فمد الرجل ذو السترة الملبّدة الشعر ، وهو لايزال يلهث ، وحاول أن يلوي كتفيه فقطب جبينه متألماً . كان قد ضرب على عموده الفقري بشيء ثقيل ، لعله عقب بندقية .

ـ ألا تستطيع أن تتكلّم ؟ هل أضعت لسانك ؟ سألتك ، من أنت ؟

ـ جندي من الجيش الأحمر .

ـ في أية وحدة ؟

ـ كتيبة تجميع الحبوب الثانية عشرة .

فصاح أحد الرجال المتحلّقين حول المنضدة مبتسماً :

ـ ها ، ها ، لقطة بديعة!

واستأنف فومين الاستجواب :

ـ ماذا كنتم تفعلون هنا ؟

ـ كنّا نعتزم الدفاع عن... لقد أرسلنا...

ـ بلا ريب! كم عدد من كان في القرية ؟

ـ أربعة عشر .

ـ أين الآخرون ؟

فلم يجب جندي الجيش الأحمر . لقد وجد صعوبة في فتح شفتيه . وانبعثت بقبقة من بلعومه ، وسال خيط رفيع من الدم من الزاوية اليسرى لفمه وعلى ذقنه . فمسح شفتيه بيديه ثمّ نظر الى راحته ومسحها على بنطلونه . وقال في صوت مغرغر وهو يبلع دمه :

ـ هذا فعل خنازيركم... لقد أصابو رئتي...

فقال قوزاقي جسيم الجرم في لهجة هازلة ، وهو يقوم عن المائدة ويغمز للآخرين بعينيه :

ـ لاعليك! سنشفيك!

فعاود فومين السؤال :

ـ أين بقيّتكم ؟

ـ ذهبوا الى يلانسكايا مع قافلة العربات .

ـ ومن أين أنت ؟ في أية مقاطعة ولدت ؟

فنظر الرجل الى فومين بعينين زرقاوين ملتهبتين ، وبصق على الأرض كتلة من الدم ، وأجاب بصوت جهير صاف :

ـ من مقاطعة بسكوف .

فقال فومين بازدراء :

ـ بسكوف ، موسكو... نحن نعرف رهطكم! لقد قطعتم مسافة بعيدة

لتستولوا على حبوب الآخرين ، ياولدي! حسن ، كفى كلاماً! ماذا سنفعل بك ، ها ؟

ـ يجب أن تطلقوا سراحي .

ـ أنت من الصنف الساذج ، يا ولدي! أم ، لعلّنا سنطلق سراحه حقّاً ، ما رأيكم أيها الأولاد ؟

واستدار فومين نحو الرجال المتحلّقين حول المنضدة وهو يبتسم من تحت شاربه . فرأى غريغوري ، الذي كان يراقب المشهد عن كثب ، الوجوه السمر الملفوحة تشع بابتسامات مدركة صامتة . وقال أحدهم :

ـ يمكنه أن يخدم معنا شهرين أو نحوهما ثم نطلق سراحه ليمضي الى زوجته .

فتساءل فومين ، محاولاً ، عبثاً ، أن يخفي ابتسامته :

ـ ربّما ستخدم معنا ؟ سنعطيك حصاناً وسرجاً ، وستحصّل بدلاً من جزمتك اللبّادية جزمة جديدة مقبولة لتلائم ربلتي الساقين... إن قادتكم لا يجهزونكم تجهيزاً حسناً . أتسمّي هذا حذاء ؟ الثلج يذوب في كل مكان ، وأنت تتجول بجزمة لبّادية! هل تنضم الينا ؟

فزعق أحد القوزاق ، بنطق متغثغ ، مقلّداً دور الأبله :

ـ إنه فلاح . لم يمتط ظهر حصان في حياته!

لم يجب جندي الجيش الأحمر . مال بظهره على الموقد ، وجعل يجيل بصره حوله بعينين بدتا صافيتين متلامعتين . وكان العبوس يعلو جبينه ألماً ، بين أونة وأخرى ، وينفرج فمه قليلاً حينما يشق عليه جر نفسه .

كرّر فومين سؤاله :

ـ هل تنضم الينا ، أم ماذا ؟

ـ ولكن من أنتم ؟

ـ من نحن ؟

ورفع فومين حاجبيه مستغرباً ومسّد عذاريه براحته :

ـ نحن المحاربون من أجل الكادحين . إننا ضد التنكيل الذي يمارسه القوميساريون والشيوعيون ، ذلك نحن .

وآنذاك ، رأى غريغوري ابتسامة ترتسم على وجه الرجل . واتسعت ابتسامة الأسير ، كاشفة عن أسنان ملطّخة بالدم ، وقال وكأنّه قد تلقّى المفاجأة بسرور :

ـ اذاً ، أنتم... كنت أسائل نفسي عمّن يمكن أن تكونوا .

على أن في صوته كانت نغمة جعلت جميع من في الغرفة يصيخ السمع :

ـ اذاً ، تسمّون أنفسكم محاربين من أجل الشعب ؟ أي نعم! أمّا في لغتنا ، فأنتم لا أكثر من قطّاع طرق . وتريدونني أن أخدمكم ؟ حسن ، لابد لي من القول بأن لكم روح نكتة لا بأس بها .

فخزر فومين عينيه وقاطعه بخشونة :

ـ أستطيع أن أرى أنك ثرثار قليلاً! شيوعي ؟

ـ لا ، بالطبع لا . أنا غير حزبي .

ـ لايبدو عليك ذلك .

ـ الحق ماأقول . أنا غير حزبي .

فسعل فومين واستدار صوب المنضدة :

ـ ياتشوماكوف ، تخلّص منه!

فقال الأسير في هدوء :

ـ ليس في قتلي مكسب ما . ثم ، ليس لديك مبرّر .

وكان الجواب الوحيد هو الصمت . نهض تشوماكوف عن المنضدة ، وهو يمسّد شعره الأسحم الأملس ، وكان قوزاقياً وسيماً متين البنية ، يرتدي صديرياً جلدياً انكليزياً . فقال في لهجة جرينة ، فيما تناول سيفه من الكومة الملقاة على المصطبة وفحص نصله بإبهامه :

ـ لقد سئمت من هذه الشغلة!

فأشار عليه فومين قائلاً :

ـ ليس هناك ما يدعوك لأدائها بنفسك . كلّف به الأولاد الموجودين في الفناء .

فأجال تشوماكوف نظرة باردة على الأسير من رأسه الى أخمص قدمه ، وقال له :

ـ هيّا ، تقدّمني ، ياولدي!

فتحامل جندي الجيش الأحمر على نفسه وخطا من موقفه بجانب الموقد ، محدودب الكتفين ، واتجه على مهل ناحية الباب ، مخلفاً على الأرض وراءه أثار جزمته اللبادية المبللة .

فقال تشوماكوف في حنق مفتعل فيما كان يسير وراء الأسير :

ـ على الأقل ، لو مسحت جزمتك قبل دخولك! تدخل الى هنا ، موسّخاً الأرضية... يالك من حيوان قذر ، أيها الأخ!

وهتف فومين وراءهما :

ـ اطلب منهم أن يأخذوه الى داخل الزقاق أو الى ساحة درس الحبوب . ولا تفعلوها بالقرب من الدار وإلا فسيتكدّر أهل البيت .

ثمّ مضى ناحية غريغوري وجلس الى جانبه ، وقال متسائلاً :

ـ نحن نحاكمهم على نحو سريع ، أليس كذلك ؟

فرد غريغوري : متحاشياً النظر الى عينيه :

ـ بلى .

فأطلق فومين زفرة :

ـ لايمكن تفادي ذلك . هي ذي الحال التي لابد منها في الوقت الحاضر .

وكان على وشك أن يقول شيئاً آخر ، ولكن وقع أقدام انبعث من ناحية الممر ، وصراخ أحدهم ، ولعلعة إطلاقة واحدة .

فزعق فومين في صوت غاضب :

ـ بحق الجحيم ، ماذا يفعلون في الخارج ؟

وقفز أحد الرجال الجالسين الى المنضدة وفتح الباب بركلة من قدمه . وصاح وسط العتمة :

ـ ماذا يجري هناك ؟

فجاء تشوماكوف وروى ما حدث في اهتمام جلي :

ـ تكشّف عن دهاء كبير ذلك الشيطان! قفز من الدرجة العليا وركض . فاضطررت الى تبذير رصاصة عليه . ويقوم الأولاد الآن بالإجهاز عليه في الخارج... .

ـ أخبرهم أن يجرّوه خارج الفناء الى الزقاق .

ـ أخبرتهم بذلك فعلاً ، ياياكوف يفيموفتش .

وخيّم على الغرفة صمت بعض الوقت . ثمّ قال أحدهم متسائلاً ، وهو يكبح تثاؤبه :

ـ كيف هو الجو في الخارج ، ياتشوماكوف ؟ هل سيصحو ؟

ـ السماء غائمة .

ـ اذا أمطرت ، فسيزيل المطر آخر مابقي من الثلج .

ـ ولماذا تريدها أن تمطر ؟

ـ لا أريدها أن تمطر . أنا لا أحب التخبّط في الوحل .

مضى غريغوري الى السرير والتقط طاقيته . فسأله فومين :

ـ أين ذاهب ؟

ـ لأجر نفساً من الهواء .

خرج الى درجات عتبات السقيفة . كان القمر يشع ، خافتاً ، خلل الغيوم . وكانت ساحة الفناء الفسيح ، وسقوف المأوى ، والذؤابات الجرد لأشجار الحور ، والخيل المغطّاة بمراشحها وهي واقفة عند أعمدة الربط ، كانت جميعاً مضاءة بضوء منتصف الليل الشاحب ، الأزرق ، في زرقة الحمام . وعلى مبعدة عدة خطوات من السقيفة . كان جندي الجيش الأحمر مسجّى ، ورأسه في بركة من ماء الذوبان ينبعث منها لألاء باهت . وكان ثلاثة قوزاق

منحنين عليه ، وهم يتحدثون في هدوء فيما كانوا يفعلون شيئاً به .

قال أحدهم في لهجة مغتاظة :

ـ إنه لايزال يتنفس ، أي والله! لماذا ضربته هكذا ، أيها الشيطان الأهوج ؟ قلت لك اضربه على رأسه . آه ، يانفاية!

فرد القوزاقي ذو الصوت الأجش ، وكان هو الرجل الذي اصطحب غريغوري نفسه :

ـ سيفطس! سيلفظ فواقاً آخر ثمّ يفطس! لكن ، ارفع رأسه قليلاً ، هيّا! أنا لاأستطيع أن أنزع معطفه على هذا النحو . ارفعه من شعره . نعم ، هكذا! والآن ، ابق ممسكاً به .

ثم سمع غريغوري صوت الإرتطام بالماء . ثم قام أحد القوزاق المنحنين على الأسير . وانبعثت حمحمة من القوزاقي ذي الصوت الأجش الذي كان جالساً القرفصاء ، فيما كان يسحب السترة الملبدة من على الجثة . وبعد برهة من الوقت قال :

ـ لدي يد خفيفة ، ولهذا لم يعطس عطسته الأخيرة في الحال . حينما كنت في بيتي ، واذا حدث أن كنّا ننحر خنزيراً ـ ارفعه ، لاتدعه يسقط! أوه ، اللعنة! وكما كنت أقول... كنت أشرع في نحر الخنزير ، فأضربة ضربة خاطفة خلل بلعومه ، واصل بالسكين أنبوب رقبته ، وحتّى آنئذ ، يقوم الحيوان اللعين ويسير في الفناء . ويظل يسير وقتاً ليس بالقصير بعد ذلك! ينزف منه الدم ، لكنّه يظل حيّاً . اذا ، فلا بد أن لدي يداً خفيفة . حسن الآن ، اتركه يسقط... ألا يزال يتنفس ؟ لا أظنّك صادقاً! كل هذا وقد شطرت له رقبته شطرين تقريباً!

نشر الرجل الثالث سترة جندي الجيش لأحمر على ذراعه الممدودة وقال :

ـ لطّخنا الجانب الأيسر بالدم... إنه يلتصق بيدي! أف ، ياللقذارة!

فقال الرجل ذو الصوت الأجش وهو يعود الى جلسته القرفصاء :

ـ سيزول . إنه ليس زيتاً ، سيزول بالمسح أو بالغسل على أية حال . ليس هذا مهماً .

وتساءل القوزاقي الأول برماً :

ـ والآن ، ماذا ستفعل : أتنوي خلع بنطلونه كذلك ؟

فردّ عليه صاحب الصوت الأجش بقوّة :

ـ اذا كنت مستعجلاً أو تريد أن تذهب الى الخيل ، اذهب وسنستطيع تدبير أمورنا بدونك . لن نترك مثل هذه الأشياء الفاخرة للتلف .

استدار غريغوري على عقبيه وعاد الى داخل الدار ، فاستقبله فومين بنظرة سريعة فاحصة وقام على قدميه ، وقال مقترحاً :

ـ لنذهب الى الغرفة الثانية ونتحدّث . الضجيج هنا أكثر من اللازم .

كانت الغرفة الواسعة المدفأة تفوح برائحة الفئران وبذور القنّب . كان رجل أميل الى القماءة متمدّداً على السرير ، نائماً وهو في قمصلته الخاكية . كان شعره أشعث ، وقد اشتبك به زغب . كان راقداً وخدّه على وسادة قذرة جرداء ، والمصباح المدلّى من السقف يضيء وجهه الشاحب الذي طالت لحيته .

أيقظه فومين قائلاً :

ـ انهض ، ياكابارين! لدينا ضيف . هوذا غريغوري ميليخوف ، صديق من أصدقائنا ، وآمر سرّية سابق .

فدلّى كابارين ساقيه فوق حافة السرير ، ودعك وجهه بيديه ، ونهض . صافح يد غريغوري ، منحنياً له بعض الشيء :

ـ سعيد جداً بك . أنا النقيب الركن كابارين .

وقدّم فومين كرسياً لغريغوري ، وجلس هو على صندوق . وكان لابد أنّه قد أدرك الأثر السيئ الذي تركه مصرع الأسير في نفس غريغوري ، اذ قال :

ـ يجب ألا تظن أننا نعامل جميع أسرانا بهذة الخشونة . كان هذا

الشخص أحد أفراد مفرزة من مفارز تجميع الحبوب . ولن ندع أمثال هؤلاء الرجال ينجون من أيدينا ، ولا القوميساريين... على أننا نبقي على حياة غيرهم . أمس ، أسرنا ثلاثة من رجال الميليشيا . أخذنا خيلهم وسروجهم وعدّتهم ، ثمّ أطلقنا سراحهم . ما الفائدة من قتلهم ؟

لم يجب غريغوري . كان مشغولاً بأفكاره هو ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، وكان صوت فومين يتناهى اليه وكأنّه في حلم .

مضى فومين يقول :

ـ... وهكذا ، فإننا نحارب على هذه الصورة في الوقت الحاضر . بيد أننا نعتقد أننا لابد سنفلح في حمل القوزاق على الثورة . إن السلطة السوفييتية لا يمكن لها أن تعيش . كل الدلائل تشير الى أن هناك حرباً تدور رحاها الآن في كل مكان . انتفاضات في كل مكان ، في سيبيريا وفي أوكرانيا ، بل حتّى في بتروغراد . لقد أعلن الاسطول برمته العصيان في تلك القلعة... ماذا تدعى ؟

فساعده كابارين بقوله :

ـ كرونستادت .

فرفع غريغوري رأسه ، ونظر الى فومين بعينين خاويتين ، كان شرودهما جليّاً ، ثمّ حوّل نظرته الى كابارين .

مد فومين علبة سكائره اليه :

ـ خذ سيكارة . أجل ، تمّ الاستيلاء على بتروغراد وهم الآن يقتربون من موسكو . إنها الحالة نفسها في كل مكان . وليس هناك مبرّر لأن نظل نياماً! سنحرّض القوزاق ونطيح بالحكم السوفييتي ، وإذا قدم« الكاديت » لنا أي دعم ، فستكون شغلتنا رائعة . ليقم رجالهم المثقفون حكومة ونحن نساعدهم .

وصمت لحظة ، ثمّ سأل :

ـ ما رأيك ، ياميليخوف ؟ إذا شقّ « الكاديت » طريقهم من البحر الأسود وانضممنا اليهم ، فسيعترفون بفضلنا لأننا كنّا أول من انتفض في

مؤخرة العدو ، ألن يفعلوا ذلك ؟ كابارين يقول أنهم سيفعلون بالتأكيد . مثلاً ، إنهم لن يحاسبوني لقيامي ، على رأس الكتيبة الثامنة والعشرين ، بالتخلّي عن الجبهة في عام ١٩١٨ ، ثمّ بخدمة الحكومة السوفييتية سنتين ؟

فحدّث غريغوري نفسه ، وهو يبتسم رغم إرادته :

اذاً ، فهذا هو هدفك! إنك لأحمق ، إنّما أحمق خبيث!

انتظر فومين جواب غريغوري . وكان من الجلي أن جوابه يهمّه بشكل عميق .

قال غريغوري متردّداً :

ـ سيستغرق هذا وقتاً طويلاً .

فقال فومين موافقاً في الحال :

ـ بالطبع ، بالطبع . سنرى أفضل فيما بعد . أمّا الآن ، فيجب أن نعمل ، يجب أن نقضي على الشيوعيين في مؤخرة جبهتهم . لن ندعهم يعرفون طعم السلام بأي شكل كان! يحسبون أن بمقدورهم مطاردتنا بوضع مشاتهم في عربات الشحن . فليجرّبوا . فبينما ترسل الخيالة لمساعدتهم نكون قد قلبنا الأقليم عن آخره رأساً على عقب .

فحدّق غريغوري في قدميه ، متفكّراً . واستأذن كابارين وتمدّد على السرير . وقال وهو يبتسم ابتسامة واهنة :

ـ لو لم تختفِ لقضوا عليك... لكنت مسجّى على التلال الرملية خارج فيشنسكايا .

ـ أنا أتعب كثيراً . نحن نقطع مسيرات جنونية ولا ننام الا قليلاً .

نهض فومين ووضع يده على كتف غريغوري قائلاً :

ـ حان وقت ذهابنا الى الفراش أيضاً . لقد كنت عاقلاً ، يا ميليخوف ، حينما استمعت الى نصيحتي ذلك اليوم في فيشنسكايا وأظافرك تتعفّن . تستطيع أن تعتبر كلامي هذا حقيقة . حسن ، ماذا قرّرت ؟ تكلّم ، ثمّ لنذهب لتنام .

ـ عمّ أتكلّم ؟

ـ هل ستنضم الينا ، أم ماذا ؟ أنت لاتستطيع أن تقضي كل حياتك مختفياً في بيوت الآخرين .

كان غريغوري يتوقّع هذا السؤال . والآن ، عليه أن يتّخذ قراره : إمّا أن يظل يهيم على وجهه بين قرية وأخرى ، يعيش حياة الجوع والتشرّد ، يأكل الحنين قلبه ، الى أن يفشي أحد مضيفيه بأمره لدى السلطات ، وإمّا أن يذهب الى الدائرة السياسية ويسلّم نفسه ، أو أن ينضم الى فومين .

واتخذ قراره . رفع غريغوري وجهه وحدّق في وجه فومين مباشرة ، لأوّل مرة في ذلك المساء ، وقال وهو يلوي شفتيه في ابتسامة :

ـ أمامي مجال للإختيار بقدر ما هو أمام البطل في القصة الخرافية : اذا ذهبت بحصانك الى اليسار فقدت الحصان ، واذا ذهبت الى اليمين ستُقتل أنت . أمّا أنا فأمامي ثلاثة طرق ، وليس بينها طريق سالك...

ـ اتخذ قرارك بلا قصص خرافية . سنروي القصص الخرافية فيما بعد .

ـ لا مكان لي أذهب إليه ، ولهذا فقد اتخذت قراري فعلاً .

ـ حسن ،

ـ سأنضم الى عصابتك .

فعقد فومين حاجبيه متضايقاً وجعل يقضم شاربيه :

ـ لاتستعمل هذه الكلمة بعد الآن! لماذا تسمّيها عصابة ؟ هذه هي التسمية التي يطلقها الشيوعيون علينا ، أمّا أنت فلا يجدر بك أن تستعملها . إننا ، ببساطة ، رجال أعلنوا الثورة على السلطة . مختصر مفيد!

لم يدم تضايقه إلا برهة . كان بادي السرور بقرار غريغوري ، ولم يستطع أن يكتم تلك الحقيقة . فقال وهو يفرك يديه :

ـ هو ذا رجل آخر ينضم الى صفوفنا!أتسمعني ، أيها النقيب الركن ؟ سنعطيك أمرة رعيل ، ياميليخوف ، واذا لم تشأ أن تقود رعيلاً فيمكنك أن تكون في هيئة الأركان مع كابارين . سأعطيك حصاني ، فلديّ آخر احتياطي .

١٢

مع اقتراب الفجر ، تثلج الجو قليلاً . فغشى البرك جليد أزرق بلون الحمام . وغدا الثلج قاسياً يخشخش اذ يتكسّر . وكانت سنابك الخيل تترك آثاراً دائرية الشكل ، مفتتة ، على البساط الثلجي الحبيبي ، وكانت الأرض الجرداء والعشب الميت عليها منذ السنة الماضية ، حيث كان ذوبان اليوم السابق قد أكل الثلج من فوقها ، لاتحمل من آثار حوافر الخيل إلا باهتها ، وترسل وقعاً أجوف تحت ضرباتها .

اصطفّت عصابة فومين في طابور خارج القرية ، وعلى مسافة بعيدة ، في الطريق ، كانت دورية الاستطلاع المتقدمة ، والمتكونة من ستّة فرسان ، ترى بين الحين والحين .

قال فومين مبتسماً وهو يقترب على حصانه من غريغوري :

ـ هو ذا جيشي! باستطاعتنا أن نحطّم الشيطان نفسه بمثل هؤلاء الأولاد!

فأجال غريغوري بصره في الطابور ، وقال في سريرته نادماً :

ـ لو كنت وجيشك قد اشتبكتم في معركة مع سرّيتنا ، سرّية بوديوني ، لكنّا قد أحلناكم كومة من عظام في غضون نصف ساعة!

أشار فومين بسوطه وسأل :

ـ ما رأيك بهم ؟

فأجاب غريغوري بلهجة جافة :

ـ لا بأس بهم لقتل الأسرى وسلب الموتى ، ولكنني لاأدري كيف سيكونون في القتال .

فاستدار فومين على سرجه ، مولياً ظهره للريح ، وأشعل سيكارة وقال :

ـ ستسنح لك فرصة رؤيتهم في القتال أيضاً . إنّ أغلب رجالي من الجنود النظاميين ، ولن يخذلوك .

كانت ست عربات ، من النوع الذي يجرّه حصانان ، محمّلة بالعتاد والتجهيزات ، موضوعة في وسط الطابور . انطلق فومين الى المقدّمة وأصدر الايعاز بالتحرّك . وحينما بلغوا المرتفع ، اقترب من غريغوري ثانية وقال :

ـ حسن ، كيف هو حصاني ؟ يعجبك ؟

ـ إنهّ حصان طيب .

لبثا يسيران بعض الوقت صامتين ، ركاباً لركاب ، ثمّ تساءل غريغوري :

ـ أتنوي المرور بتتارسكي ؟

ـ تحب أن ترى أهلك ؟

ـ أود أن أزورهم .

ـ قد نفعل ذلك . في الوقت الحاضر ، أنوي التوجّه الى« التشير » ، لخض القوزاق هناك خضّة خفيفة .

غير أنّ القوزاق لم يكونوا راغبين كثيراً في« خضّة » من هذا القبيل . لقد اقتنع غريغوري بهذه الحقيقة منذ أيامه القليلة الأولى مع العصابة . كان فومين ، حينما يحتلّون قرية أو مركز منطقة ، يصدر أوامره الى المواطنين لعقد اجتماع . وكان هو من يقوم بإلقاء الخطاب عادة ، وإن كان كابارين يأخذ مكانه في بعض الأحيان . كانا يناشدان القوزاق أن يحملوا السلاح ، ويتحدثان عن« الأعباء » التي وضعتها السلطة السوفييتية على كواهل مزارعي الحبوب ، وعن« الخراب الشامل الذي سينجم حتماً اذا لم يتم اسقاط الحكومة السوفييتية » . كان كلام فومين أقل التزاماً بقواعد اللغة والتسلسل المنطقي من كلام كابارين ، إنّما أكثر شمولاً وبلغة أقرب الى فهم القوزاق . وكان ينهي خطابه ، في العادة ، بعبارات معيّنة مستظهرة غيباً :

ـ من اليوم فصاعداً ، سنحرّركم من تجميع الحبوب . لاترسلوا حبوباً بعد اليوم الى نقاط التجميع . لقد آن الأوان لتتوقّفوا عن إطعام التنابلة الحمر . لقد سمنوا بحبوبكم ، لكنّهم لن يعيشوا بعد اليوم على أكتاف

الآخرين . أنتم شعب حر . سلّحوا أنفسكم وادعموا حكومتنا . هورا* ، أيها القوزاق!

فيسمّر القوزاق أعينهم في الأرض وهم صامتون صمتاً كئيباً . أمّا النسوة ، فكنّ يطلقن العنان لألسنتهن . وكانت تنبعث من صفوفهن المكتظّة صيحات وأسئلة لاذعة :

ـ حكومتكم تبدو لابأس بها ، ولكن هل جئتمونا بشيء من الصابون ؟

ـ أين تحتفظون بحكومتكم ، أفي خرج سروجكم ؟

ـ ولكن ، على حبوب من تعيشون أنتم ؟

ـ أظن أنكم ستنتقلون بعد قليل ، من فناء الى فناء مستجدين ؟

ـ لطيف منكم أن تطلبوا منّا ألا ننقل حبوبنا الى نقاط التجميع . ولكن ، أنتم اليوم هنا ، وغداً أين ؟ لن نعثر عليكم حتّى لو بحثنا عنكم بكلاب سلوقية ، بينما سنتحمّل نحن المسؤولية .

ـ لن ندعكم تأخذون أزواجنا . قاتلوا بأنفسكم!

وكانت النسوة تزعق بالكثير غير هذا في غمرة هياجهن العظيم . ففي خلال سنوات الحرب تفتّحت أعينهن تماماً ، وغدون يخشين من حرب جديدة ، فتشبثن بأزواجهن بعناد اليائس المستميت .

كان فومين يستمع الى صيحاتهن غير المفهومة بلا مبالاة . كان يعرف قيمتها . فكان ينتظر الى أن يعود الهدوء فيلتفت ناحية الرجال . وآنذاك ، كان هؤلاء يجيبون في اختصار ورزانة :

ـ لا تجبرونا ، أيها الرفيق فومين . لقد قاتلنا بما فيه الكفاية .

ـ لقد جرّبناها . انتفضنا في عام ١٩١٩ .

ـ لا نملك ما ننتفض به . ولا معنى في الانتفاض . لا حاجة بنا اليه في الوقت الراهن .

---

* صيحة النصر أو الاستحسان . المترجمون

ـ هذا أوان البذر ، لا القتال .

وذات يوم ، هتف أحدهم من صفوف الحشد الخلفية :

ـ إنك تنطق كلاماً معسولاً الآن! ولكن أين كنت في عام ١٩١٩ حينما قمنا بالإنتفاضة ؟ لقد غيّرت فكرك في وقت متأخر ، يا فومين!

فرأى غريغوري سحنة فومين تتغيّر غير أنه حافظ على زمام نفسه ولم يجب .

خلال الاسبوع الأول ، كان فومين يصغي بهدوء تامّ الى اعتراضات القوزاق أثناء الاجتماعات والى رفضهم المقتضب لدعم عمليّاته ولم تستطع حتّى صيحات النسوة ولعناتهن أن تخل باتزانه . فكان يقول بلهجة متغطرسة وهو يبتسم تحت شاربه :

ـ حسن ، سنرتّب كل شيء لكم!

على أنه حينما اقتنع أن غالبية القوزاق كانوا لا يكنّون له المودة ، تغيّر موقفه ، كلّياً ، تجاه الذين كانوا يتكلمون أثناء الاجتماعات . وأصبح الآن يلقي خطابه دون أن يترجّل عن حصانه ، ولم يعد يناقش بقدر ماكان يتوعّد . بيد أنّ النتيجة كانت واحدة : كان الرجال الذين كانوا موضع أمله في الدعم والاسناد يستمعون اليه في صمت ، وبالصمت ذاته يتفرّقون .

وحدث في احدى القرى بعد أن القى فومين كلمته ، أن ردّت عليه أرملة قوزاقية بكلمة . كانت امرأة هائلة الجسم ، متينة البنية ، ضخمة العظام ، وحينما تكلّمت ، هدرت بصوت كصوت الرجال وجعلت تلوّح بذراعيها كما يفعلون . وكان وجهها العريض ، المليء ببثور الجدري ، طافحاً بالعزم الهائج ، وكانت شفتاها الكبيرتان الغليظتان العبوسان تلتويان ، طوال الوقت ، في تكشيرة مزدرية ، وبدت ، وهي تشير بيدها الحمراء المنتفخة نحو فومين ، الذي تسمّر على سرجه كالصخر ، وكأنها تبصق بالكلمات اللاسعة :

ـ لماذا تثير القلاقل هنا ؟ أين تريد أن تسوق قوزاقنا . أإلى جحر ؟ ألم

ترمّل هذه الحرب اللعينة الكفاية من نسائنا ؟ ألم تيتّم الكفاية من أطفالنا ؟ أتريد أن تستنزل مصائب جديدة على رؤوسنا ؟ انظروا الى المحرّر القيصري ، هذا ، الذي طلع علينا من قرية روبزني ؟ عليك أن تصلح من أمر بيتك وأن تكف عن التدمير ، وبعدها تستطيع أن تعلّمنا كيف نعيش وأية حكومة نقبل . ذلك لأنّ زوجتك نفسها لاتستطيع ، في بيتك نفسه ، أن تحرّر رقبتها من الطوق ، ونحن أدرى بذلك! لكنّك نفشت شاربك وجعلت تتمخطر على حصان ، وتثير القلق في نفوس الناس . في حين أن بيتك نفسه كان سينهار منذ أمد بعيد لو لم تمسكه الريح . لعمري ، أنك معلّم ممتاز! فيم سكوتك ، ياعقدة الزنجيل ؟ هل ما أقوله كذب ؟

فسرت ضحكات خافتة بين الحشد ، خشخشت قليلاً ، مثل هبوب الريح ، ثمّ تلاشت وامتدّت أصابع يد فومين اليسرى ، الموضوعة على قربوس السرج ، الى العنان وأمسكت به . وقتم لون وجهه بغضب كظيم . إلاّ أنه ظل صامتاً ، محاولاً أن يهتدي الى طريقة تحفظ له كرامته للخروج من الموقف المحرج .

واستأنفت الأرملة كلامها في حماسة ، وقد استبدّ بها الإنفعال الآن تماماً :

ـ ثمّ ، ماهي هذه الحكومة ، حكومتك ، التي تريد أن تدعمها ؟

ووضعت ذراعيها على خصرها وأخذت تقترب ، ببطء ، من فومين مؤرجحة ردفيها الواسعين . ففسح الحشد لها طريقاً ، وهم يكتمون ابتساماتهم ويخفضون أعينهم الضاحكة وأفسحوا المجال لحلقة ، مثلما يفعلون لحلقة رقص ، وهم يتدافعون .

وقالت الأرملة في صوتها العميق :

ـ حكومتكم لن تبقى لحظة بعد ذهابكم . إنها تنسحب وراءكم ولاتعيش أكثر من ساعة ، مطلقاً ، في مكان واحد «اليوم على حصانك . وغداً على بطنك في الوحل» ، هوذا أنت . وحكومتك مثلك .

نخس فومين جنبي حصانه بعقبيه ومضى به مخترقاً الحشد . فتراجع الناس في كل اتجاه . لم تبق سوى الأرملة في وسط حلقة كبيرة . لقد رأت الكثير في حياتها ، ولهذا لبثت تحدّق بهدوء الى أسنان حصان فومين المكشّرة والى وجه فومين الأبيض المتهيّج .

اتجه بحصانه نحوها ثم رفع سوطه عالياً فوقها :

ـ اخرسي ، أيتها الحدأة الرقطاء! علام تقومين بالتحريض هنا ؟

كان خطم الحيوان ، وقد شدّه العنان الى أعلى فتعرّت الأسنان فيه ، مخيّماً على رأس المرأة الجسور . وطارت كتلة من الزبد ، ذات لون أخضر شاحب ، من الشكيمة وسقطت على عصابة رأسها السوداء ، ومنها انداحت على خدّها . فمسحتها بيدها وتراجعت خطوة الى وراء .

وصاحت وهي تحدّج فومين بعينين جاحظتين تتقدان هيجاناً :

ـ اذن ، فمن حقّك أنت أن تتكلّم ، أمّا نحن فلا . لم يضربها فومين . لكنّه هدر قائلاً وهو يلوح بسوطه :

ـ أنت أيتها الحثالة البلشفية! لسوف أقتلع بالسوط كل الغباء الذي فيك! لسوف تربطين بتنورتك نفسها وتضربين بقضبان الدحس! سيعيدك ذلك الى صوابك في أقل من لمح البصر!

وتراجعت الأرملة بضع خطوات أخرى ثمّ ، وفي حركة غير متوقّعة ، أولت فومين ظهرها وانحنت الى الأرض ثمّ رفعت تنورتها من الخلف . وهتفت :

ـ ألم تر شيئاً مثل هذا من قبل ، ياأنيكا المحارب ؟

ثمّ أقامت نفسها بخفّة مدهشة واستدارت لتواجه فومين من جديد :

ـ أنا ؟ تضربني بالسوط ؟ إنّ منخارك يطفح بالمخاط!

فقذف فومين بصقة حانقة وسحب العنان للسيطرة على حصانه المتراجع . وقال في صوت عال :

ـ اغلقي فمك ، أيتها الفرس العاقر! ياكتلة اللحم الهائلة!

وأدار حصانه محاولاً ، عبثاً ، أن يبدو صارم السيماء .

وسرت خلل الحشد همهمة ضاحكة . وهنا هرع أحد رجال فومين نحو المرأة ، لينقذ شرف قائده المهان ، وهو يؤرجح عقب قربينته . لكنّ قوزاقياً بديناً ، يفوقه طولاً برأس أو رأسين ، حمى المرأة بكتفيه العريضين وقال بلهجة هادئة ، ولكنّها منذرة بالويل :

ـ لاتمسّها!

وتقدّم ثلاثة قرويين آخرين أيضاً بسرعة ودفعوا المرأة الى وراء . وهمس أحدهم ، وكان فتى ذا شعر منتصب ، الى رجل فومين :

ـ من الذي تستهدف بقربينتك ، ها ؟ لاأسهل من ضرب امرأة . اذهب الى الحقول وأرنا شجاعتك هناك ، فنحن نستطيع أن نكون كلّنا شجعاناً في أفنية دورنا الخلفية!

مضى فومين على حصانه متمهلاً حتّى بلغ السياج ، ثمّ قام على ركابيه ، وصاح موجّهاً كلامه الى القوزاق المتفرقين ببطء :

ـ أيها القوزاق ، فكّروا في الأمر ملياً! إننا نطلب ذلك منكم بلهجة لطيفة الآن ، غير أننا عائدون بعد اسبوع ، وآنذاك ستكون لهجتنا مختلفة!

ولسبب ما ، تحوّل مزاجه الى ميل نحو المرح ، فهتف وهو يضحك ويمسك بزمام حصانه الراقص :

ـ لسنا جبناء! أنتم لا تستطيعون إخافتنا بما لنسائكم من ـ(وهنا ذكر بعض التعابير لاتوافق عليها الرقابة) ـ لقد رأيناها طافحات ببثور الجدري ، وشتّى أصناف البثور الأخرى . سنعود ، واذا لم ينضمّ أحد الى وحدتنا طوعاً ، فسنجنّد جميع القوزاق الشباب بالقوة . افهموا هذا! ليس لدينا الوقت الكافي لعناقكم والتمعّن في عيونكم!

وكان الحشد قد توقّف قليلاً ، فانبعثت من بين صفوفه أصوات ضحك وحوار حار . ثمّ أصدر فومين أمره ، وهو لا يزال يبتسم :

ـ الى الخيل!

ومضى غريغوري الى رعيله على حصانه ، وقد غدا ارجواني اللون لفرط اختناقه بالضحك المكبوت .

واصلت وحدة فومين سيرها الشاق على الطريق الموحل حتّى بلغت قمّة الرابية ، ثمّ اختفت القرية غير المضيافة عن الأنظار . لكن غريغوري ظل يبتسم من حين لآخر وهو يحدّث نفسه :

ـ إنه لشيء حسن أن نحب ، نحن معشر القوزاق ، التمازح فيما بيننا . إن المرح يعيش بين ظهرانينا أكثر من الحزن . والله ، لوكانت الحياة جميعها جداً ، لشنقت نفسي منذ زمن بعيد .

ولبث مزاجه المنشرح معه وقتاً طويلاً ، ولم يحدث الا عند نقطة توقفهم التالية أن شرع يوقن ، والقلق والمرارة يمضّانه ، أنهم لن يفلحوا في تحريض القوزاق على الثورة ، وأن جميع خطط فومين كانت ستؤدي الى كارثة محتومة .

١٣

قدم الربيع . غدت أشعة الشمس تحمل دفئاً أكثر . وشرع الثلج يذوب في المنحدرات الجنوبية من التلال ، وعند الظهيرة ، كانت الأرض ، وقد تصدأت بأعشاب السنة الماضية ، تزفر ضباباً ليلكياً شفّافاً . وفي المواضع الدافئة ، وعلى الروابي ، وتحت الجلاميد المدفونة حتى النصف في التربة الرملية ، بزغت النبتات الأولى لعشب العسل ، رقيقة ، لامعة الاخضرار . كانت الأراضي المحروثة معرّاة . ومن الطرق الشتائية المهجورة ، هاجرت غربان القيظ متجهة صوب ساحات درس الحبوب وحقول القمح الشتائي المغمورة بمياه الذوبان . وفي الأخاديد والوهاد ، كان الثلج مسجّى ، أزرق اللون ، مندى حتّى السطح ومن هذه المواضع ، كان برد قارس لايزال ينبعث . أمّا في الوديان ، فقد شرعت الجداول غير المرئية تدندن من تحت

الثلج . وفي ممرات الغابات ، طفقت أغصان أشجار الحور تبسط خضرة يانعة رقيقة لاتكاد ترى .

كان موسم العمل يقدم ، وعصابة فومين تضمحل باستمرار مع مرور الأيام . بعد كل توقّف لمبيت ، كان رجلان أو ثلاثة يختفون ، وذات صباح اختفى نصف رعيل تقريباً : فقد مضى ثمانية رجال مع خيلهم وعدّتهم الى فيشنسكايا ليسلموا أنفسهم . لقد حان أوان الحراثة والبذر . كانت الأرض تناديهم ، تدعو القوزاق الى العمل ، واذ اقتنع العديد من رجال فومين بعدم جدوى هذا النضال ، جعلوا ينسلّون من العصابة ويذهبون صوب قراهم . ولم يبق سوى الضواري الذين لم يكن في مقدورهم العودة مهما كانت الظروف ، رجال كانت الجرائم التي ارتكبوها ضد الحكم السوفييتي أكبر من أن يأملوا بإعفائهم من تبعاتها .

وفي الأيام الأولى من نيسان ، لم يكن تحت أمرة فومين أكثر من ستة وثمانين حامل سيف . أمّا غريغوري فقد كان لايزال ضمن هؤلاء . كانت الشجاعة تعوزه للذهاب الى قريته . كان مقتنعاً كل الاقتناع بأن قضية فومين خاسرة ، وأن العصابة لابد آيلة الى التشتّت آجلاً أو عاجلاً . وكان يدرك أنهم سيقضى عليهم ، حتّى آخر رجل ، في أوّل صدام جدّي مع خيالة نظامية من الجيش الأحمر . لكنه ، مع ذلك ، بقي تحت لواء فومين ، آملاً في سرّه أن يظل معه على صورة ما حتّى يحل الصيف . وآنذاك ينتقي له أفضل حصانين في الوحدة وينطلق بهما ليلاً الى تتارسكي ، ومن ثمّ تصحبه اكسينيا صوب الجنوب . كان سهب الدون واسعاً ، فسيحاً ، فيه الكثير من المسالك المتفرّدة . وفي الصيف تكون جميع الطرقات مفتوحة ويصبح إيجاد ملجأ ميسوراً في كل مكان . وعزم ، وهو يتصوّر خطّته القادمة ، على التخلّي عن الحصانين في مكان ما ، متخذاً طريقه ، مع اكسينيا ، سيراً على الأقدام نحو الكوبان ، ثمّ الى التلال القفقاسية السفيحة ، بعيداً عن دياره الأصلية ، ليعيش هناك خلال هذه الفترة العصيبة . وبدا لناظره أن ذلك هو طريق الخلاص الوحيد .

قرّر فومين ، بناء على مشورة كابارين ، عبور الدون الى ضفته اليسرى قبل أن يتكسّر الجليد ، آملاً أن يستطيع النجاة من المطاردة ، عند الضرورة ، في الغابات التي تكثر في اقليم الخوبر .

عبرت العصابة الدون في موضع يقع على مبعدة من قرية ريبني . كان الجليد قد انجرف مع الماء في الأماكن التي كان التيار يندفع فيها سريعاً . وتحت شمس نيسان الرائقة ، كان الماء يتلألأ وكأنه مغطّى بحراشف فضّية ، أمّا حيث كان المسلك الشتائي يرتفع ثلجه المداس الى علو قدمين أو نحوهما فوق مستوى الجليد ، فقد كان الدون لايزال متجمّداً صلباً . فوضع رجال العصابة أغصان اسفندان على الحافة المكسورة ، وساقوا الخيل ، فرادى ، عبر النهر الى الضفة الثانية . ومن ثم ، أرسلوا دورية استطلاعية لتسبقهم ، وتحرّكوا ميمّمين صوب منطقة يلانسكايا .

في اليوم التالي ، صادف أن رأى غريغوري قروياً من أهالي تتارسكي ، وكان عجوزاً أعور في طريقه الى غريازنوفسكي لزيارة أقارب له فيها والتقى بالعصابة على مبعدة يسيرة من القرية .

فانتحى غريغوري بالعجوز جانباً وسأله :

ـ هل طفلاي حيّان وعلى مايرام ، أيها الجد ؟

ـ ليحفظهما الله ، ياغريغوري بانتلاييفتش ، إنهما حيّان وعلى مايرام .

ـ أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً ، أيها الجد . بلغهما وشقيقتي ، يفدوكيا بانتلاييفنا ، تحيّة حارة منّي ، وبلّغ تحيّاتي الى بروخور زيكوف ، وقل لاكسينيا استاخوفا أن تتوقّع مجيئي عمّا قريب . ولكن لاتقل لأحد غيرهم أنّك قد رأيتني ، هل ستفعل ذلك ؟

ـ سأفعل ذلك ، سأفعل ذلك . لاتخش شيئاً ، سأخبرهم بجميع ماقلت .

ـ ما هي أخبار القرية ؟

ـ لا شيء البتّة . كل شيء فيها كما كان في السابق .

ـ ألايزال كوشيفوي رئيساً للجنة الثورية ؟

ـ بلى . لايزال الرئيس .

ـ لعلّه لم يؤذ عائلتي بشكل ما ، ها ؟

ـ لم أسمع بشيء عن ذلك ، يعني أنّه لا يمستهم ، ثمّ ، ما الذي يدعوه لذلك ؟ إنهم غير مسؤولين عنك .

ـ ماذا يقول الناس عنّي في القرية ؟

فتمخّط العجوز ، وقضى وقتاً طويلاً يمسح شاربه ولحيته بمنديله الأحمر ، ثمّ أجاب متملّصاً :

ـ يعلم الله... يقولون مختلف الأقوال ، كل ما يخطر على بالهم . هل ستتصالح مع الحكومة السوفييتية عمّا قريب ؟

ماذا كان باستطاعة غريغوري أن يجيب ؟ شدّ العنان على حصانه الذي كان ينافح للحاق بالوحدة ، وابتسم وقال :

ـ لا أدري ، أيها الجد ، ليس لدي ما أقوله الآن .

ـ وكيف ذلك ؟ لقد حاربنا الشركس ، وحاربنا الأتراك ، ثمّ تصالحنا . أمّا أنتم ، أنتم كلّكم شعبنا وأهلنا ، ومع ذلك لاتستطيعون أن تتوصّلوا الى إتفاق فيما بينكم... لاخير في ذلك ، يا غريغوري بانتلاييفتش ، صدّقني لاخير في ذلك! إن الله الرحيم يرى كل شيء ولن يغفر لكم ماأنتم فاعلون ، تذكّر كلامي هذا ، أسألك ، أمن الممكن للروس ، وهم مؤمنون حقيقيون ، أن يظلّوا يقتتلون فيما بينهم الى ما لا نهاية له ؟ كان بإمكانكم أن تحاربوا فترة قصيرة... ولكن ، ها قد مضت أربع سنوات وأنتم ممسكون بخناق بعض . فكما يرى عقلي العجوز ، لقد آن الأوان لوضع حد لذلك!

ودّع غريغوري العجوز وانطلق ليلحق برعيله . أمّا الرجل فلبث واقفاً ، متكئاً على عصاه ، يفرك محجر عينه الفارغ بكمه . وبعينه القويّة الواحدة ظل ينظر الى غريغوري ، متمعّناً بإعجاب في هيئته البديعة ، وقال هامساً :

ـ إنّه قوزاقي طيب! له هيئة فاخرة ، ومع ذلك ، فهو أفّاق متشرّد . لقد أضاع سبيله . الحق ، كان عليه أن يحارب الشركس ، ولكن انظر أي طريق

اختار ؟ لماذا ، بحق كل الطواعين ، يهتمّون بالحكومة ؟ بم يفكّر هؤلاء القوزاق الشباب ؟ لامعنى في توقّع أي خير يأتي على يدي غريشا . كانت عشيرته كلّها من الأفّاقين المتشردين . والده المرحوم ، بانتلاي كان مغزولاً من النسج ذاته ، وأتذكّر جدّه بروكوفي... هو الآخر تفّاحة مرة الطعم ، وليس كائناً بشرياً . ولكن ماذا يدور بخلد القوزاق الآخرين... غفرانك يارب ، لكنني لا أفهم .

* * *

لم يعد فومين ، عند احتلال قرية ما ، يدعو مواطنيها الى عقد اجتماع . لقد أقنعته التجربة أن وسائل الدعاية كانت بلا جدوى . وكان لديه مايشغله للإبقاء على رجاله هو ، وليس استمالة آخرين . وأمسى كئيباً مقلاً في الكلام ، ومالبث أن اكتشف العزاء في الفودكا . كانت حفلات السكر تقام كلّما صادف أن قضى ليلة في قرية . وكان رجاله يشربون أيضاً ، مترسمين خطى أتمانهم . كان الضبط والنظام يضمحلأن . وتكرّرت حوادث النهب والسلب . كانت بيوت الموظفين السوفييت ، الذين كانوا يتوارون عن الأنظار كلما قدمت العصابة ، تجرّد من كل مايمكن نقله على ظهور الخيل . وكانت خرج الكثير من الرجال محشوّة الى حد لا يصدّق . وذات يوم ، لاحظ غريغوري رجلاً في رعيله يحمل ماكنة خياطة يدوية . كان قد علّق الأعنّة على قربوس السرج وحمل الماكنة تحت ذراعه الأيسر . ولم يفلح غريغوري في جعل القوزاقي يتخلّى عن غنيمته الا باللجوء الى استعمال السوط معه . وفي ذلك المساء ، كان لغريغوري حديث حاد مع فومين . كانا منفردين في الغرفة : فومين جالس الى المائدة ، ووجهه منتفخ من أثر الشرب ، فيما كان غريغوري يقطع الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات واسعة .

فقال فومين غضباً :

ـ اجلس ، لا تتأرجح أمام عيني .

ومن غير أن يعير غريغوري كلامه أي اهتمام ، استمر يخطو عبر الغرفة الصغيرة لوقت طويل . ثمّ قال أخيراً :

ـ لقد نلت الكفاية من هذا ، يا فومين! ضع حداً لهذا النهب والسكر .

ـ هل رأيت حلماً مزعجاً ليلة أمس ؟

ـ النكات مرة أخرى... بدأ الناس يتحدّثون عنّا بالسوء .

فقال فومين على مضض :

ـ أنت تدري مثلما أدري أنا ، أنني لااستطيع شيئاً مع الأولاد .

ـ لكنّك لاتحاول شيئاً معهم أساساً .

ـ حسن ، لست أنت بمعلمي . والناس ، لايستحقّون أن يؤبه لهم بأيّة حال . إننا نقاسي من أجلهم ، أولاء الخنازير ، لكنّهم . سأعتني بنفسي ، وهذا كاف .

ـ إنّك لا تعتني حتّى بنفسك بصورة حسنة! لم يعد عندك وقت قط للتفكير ، كل ذلك بسبب من انكبابك الدائم على الشرب . إنّك لم تعرف الصحو منذ أربعة أيّام ، والكل يشرب أيضاً . إنهم يشربون حتّى حينما يكونون في الواجب في نقطة أمامية ، وفي الليل أيضاً ما الذي تستهدفه ؟ أتريد أن نقع في الفخ في إحدى القرى ونباد فيما نحن سكارى ؟

فقال فومين مكشّراً :

ـ أتحسب أننا سنتجنّب هذه النهاية ؟ لا بد أن نموت في يوم من الأيام . الجرة متعودة على جلب الماء ، لكنّها تنكسر في النهاية . أتعرف هذا ؟

ـ اذن ، لنذهب الى فيشنسكايا غداً ونرفع أيدينا قائلين : ـ خذونا ، لقد استسلمنا!

ـ كلاّ ، سنظل نتمتّع بالحياة لفترة أخرى... .

فتوقّف غريغوري إزاء المنضدة مباعداً ما بين ساقيه ، وقال في هدوء :

ـ إن لم تسترجع النظام الى المراتب وتضع نهاية لهذا النهب والشرب ، فسأتركك واصحب نصف الرجال معي .

فردّ عليه فومين متوعّداً :

ـ حاول ذلك!

ـ لن يستدعي الأمر كبير محاولة .

فصاح فومين ووضع يده على جراب مسدّسه :

ـ كف... كف عن تهديدي!

فأسرع غريغوري يقول ، وقد شحب وجهه وكاد يستل سيفه :

ـ لا تضع مخلبك على مسدّسك ، أنا أستطيع أن أبلغك بسيفي عبر المائدة قبل ذلك!

فوضع فومين يديه على المائدة وابتسم :

ـ لماذا تنق برأسي ؟ رأسي ، بحالته الراهنة ، سينفجر . ثمَ تأتيني بكلامك السخيف . ضع سيفك الى غمده . ألا أستطيع أن أتمازح معك ، اذا ؟ يالك من متزمّت! تماماً ، مثل صبية في السادسة عشرة... .

ـ لقد قلت ماذا أريد ، فأدخله في رأسك واحفظه فيه! لسنا جميعاً ذوي مزاج شبيه لمزاجك .

ـ اعرف ذلك .

ـ اعرفه وتذكّره! عليك أن تصدر الأوامر غداً بتفريغ جميع الخرج! نحن قوة من الخيّالة وليس قافلة أمتعة أنقر ذلك على رؤوسهم! ويسمّون إنفسهم مناضلين من أجل الشعب! لقد حمّلوا أنفسهم بالأسلاب وراحوا يتاجرون بها في القرى مثل الباعة المتجولين تماماً! انني أشعر ذلك! ما الذي جعلني ، بحق الشيطان ، أنضم اليكم ؟

بصق غريغوري على الأرض ، وقد شحب وجهه غضباً وبرماً ، واستدار نحو النافذة . انفجر فومين ضاحكاً وقال :

ـ إننا لم نتعرّض لضغط من الخيالة بعد . حينما يتعرّض ذئب مليء البطن الى مطاردة فإنه يقذف الى الخارج أثناء عدوه بكل ما كان قد أكل . وسيتخلّص أوباشي من كل شيء اذا ما تعرضنا الى مطاردة جدّية . حسن ،

ميليخوف ، لا تنفعل ، سأهتم بالأمر . الحقيقة هي كالآتي : لقد انقبض صدري بعض الشيء ، فكان أن أرخيت العنان قليلاً ، لكنّني سأعيدهم الى صوابهم! إننا لانستطيع شطر الوحدة ، بل يجب أن نشرب كأس الشقاء معاً .

لم يستطيعا أن يتمّا حديثهما ، اذ دخلت ربة الدار الى الغرفة حاملة صحناً من حساء الكرنّب يتصاعد منه البخار ، فتدفّق شوماكوف وثلة من القوزاق وراءها .

بيد أن الحديث أعطى مفعوله . ففي الصباح التالي ، أصدر فومين أمراً يقضي بتفريغ جميع الرحال والاخراج وحرص على أن يقف بنفسه على تنفيذ الأمر . وفي أثناء عملية تفتيش الخرج ، حاول أحد النشّالين العريقين في مثل هذه الأفعال أن يقاوم ولم يشأ أن يتخلّى عن غنائمه ، فأطلق فومين الرصاص عليه حيث كان واقفاً في الصفوف ، وصرعه .

فقال في لهجة هادئة ، دافعاً الجثة بجزمته :

ـ ابعدوا من هنا هذه الجيفة!

وأضاف رافعاً صوته ومجيلاً بصره في الرجال من حوله :

ـ لقد نلنا الكفاية من هذا السلب والنهب ، ياأبناء الزنى! لم يكن هذا هو السبب الذي حرّضتكم على الثورة ضد الحكم السوفييتي من أجله ، بإمكانكم أن تجرّدوا عدوّاً ميتاً من كل ماتريدونه وحتّى من سرواله الداخلي القذر اذا تحمّلتم ذلك . ولكن يجب عليكم ألا تمسّوا عوائلهم . لانحارب النساء . وكل من يحاول ذلك معي سيلقى نفس المعاملة التي لقيها هذا التافه .

فارتفعت همهمة خفيضة في الصفوف ، ثمّ تلاشت .

وبدا أن النظام قد استعيد . وقضت العصابة يومين أو ثلاثة تحوم على الضفة اليسرى للدون ، تلتحم مع جماعات صغيرة من مفارز الدفاع المحلّي ، وتقضي عليها .

حينما بلغوا منطقة شوميلنسكايا ، اقترح كابارين أن يواصلوا السير الى أراضي مقاطعة فوورونيج واحتج بأنّ في مكنتهم أن يركنوا الى الحصول على تأييد واسع النطاق من الأهالي الذين كانوا قد تمرّدوا في الآونة الأخيرة ، على الحكومة السوفييتية . لكن ، حينما أعلن فومين هذه الخطة على القوزاق هبّوا جميعاً قائلين :

ـ لن نذهب خارج حدود اقليمنا .

وعقدت اجتماعات بين أفراد العصابة . واضطرّوا الى تغيير القرار . ومضت العصابة تتراجع شرقاً بصورة مستمرّة ، أربعة أيام على التوالي ، متفادية الاشتباك مع قوة من الخيالة كانت تتعقّبهم طوال الطريق من منطقة كازانسكايا .

لم يكن من اليسير إخفاء آثار مسيرتهم . في كل مكان ، كانت أشغال فصل الربيع في الحقول قائمة على قدم وساق ، والناس يعملون حتى في الأجزاء القصيّة من السهب . كانت العصابة تتراجع خلال ليالي الربيع الدامسة ، لكنّها كانت لاتكاد تتوقّف في الصباح لإطعام الخيل حتّى تظهر دورية استطلاع من الخيّالة معادية من موضع ليس ببعيد ، ويشرع مدفع رشاش خفيف يلعلع ، فيهرع رجال فومين الى ربط أحزمة السروج .

وفي مكان خارج قرية ملنيكوف في منطقة فيشنسكايا ، أفلح فومين في خداع العدو بمناورة ماهرة والتخلّص من مطاردته . وعلم من تقارير دورياته الاستطلاعية أنّ قوزاقياً ذكياً ثابت العزم ، من منطقة بوكانوفسكايا ، كان على رأس قوة الخيّالة الحمراء . وعلم كذلك أن عدد أفراد هذه القوة كان ضعف تعداد عصابته ، وأنها كانت مجهّزة بستّة مدافع رشاشة خفيفة وخيل جديدة لم تتعبها مسيرات طويلة . فاستلزمت جميع هذه الظروف تجنّب أي اشتباك معها حتّى يستطيع رجاله أن ينالوا قسطاً من الراحة ، وبعد ذلك ، اذا سنحت الفرصة ، ينقضّ على صفوف الخيّالة الحمراء ، ليس في معركة مفتوحة بل في هجوم مباغت ، فيتخلّص من ملاحقتهم الموصولة . وبهذه

الطريقة ، لعله يستطيع الحصول على مدافع رشاشة ورصاص بنادق على حساب العدو .

ولكن ثبت أنّ حساباته كانت مغلوطة . وتأكّدت مخاوف غريغوري في الثامن عشر من نيسان . كان فومين وغالبية الأفراد قد أفرطوا كثيراً في الشرب في المساء السابق . وعند الفجر غادروا القرية التي كانوا قد توقّفوا فيها . لم يكن أي منهم قد نال أي قسط من النوم ، إلا لماماً ، خلال الليل . فغدا العديد منهم يغفون وهم على سروجهم . وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً توقّفوا عند مشارف احدى الغابات القريبة من قرية أوزوكين . فأمر فومين بإقامة الحراسة واطعام الخيل شوفاناً .

كانت ريح قوية تهب من الشرق . وخيّمت سحائب ، بنّية اللون ، من الغبار الرملي على الأفق ، مغلّفة السهب بعتمة لم تستطع الشمس أن تنفذ خلالها . وكانت الريح تنتش أطراف معاطف الرجال الثقيلة ، وأعراف الخيل وذيولها فأولت الخيل للريح ظهورها والتجأت بالقرب من أجمات زعرور برّي متناثرة حول حافة الغابة . وأخذت أعين الرجال تدمع من الغبار الرملي الواخز ، وأمست الرؤية صعبة حتّى الى مسافات قصيرة .

مسح غريغوري باعتناء خطم حصانه وعينيه ، وعلّق سلة الشوفان على رقبته ، ومضى الى كابارين الذي كان يطعم حصانه شوفاناً وضعه على طية معطفه الثقيل .

قال غريغوري وهو يشير الى الغابة بسوطه :

ـ يا للمكان الذي اخترته للتوقّف!

فهزّ كابارين كتفيه ، وقال :

ـ أخبرت ذلك الأحمق بهذا ، ولكن لاأحد يستطيع مناقشته .

ـ كان يجب أن نتوقّف في السهب أو في ضواحي قرية .

ـ أتعتقد أنّ من المتوقّع أن نتعرّض الى هجوم من ناحية الغابة ؟

ـ أجل . هذا اعتقادي .

ـ العدو بعيد عنّا .

ـ ما أدراك ، فقد يكون قريباً . إنهم ليسوا مشاة .

ـ الغابة جرداء . سنراهم إن جاءوا .

ـ ليس هناك من سيراهم . الجميع ، تقريباً ، نيام . وأخشى أن يكون الحرّاس نياماً ، أيضاً .

ـ إنهم ليسوا في حالة مناسبة تسمح لهم بالصمود في أعقاب حفلة شراب الليلة الماضية . لن تستطيع أن توقظهم الآن!

وقطب كابارين جبينه ، كمن يعتصره ألم حاد ، واستأنف كلامه في صوت خفيض :

ـ سوف يكون مصيرنا الضياع مع قائد كهذا . إنّه فارغ مثل قنينة ، وغبي بشكل لايصدّق . لماذا لاتريد أن تتسلّم منه أمرة الوحدة ؟ القوزاق يحترمونك . ولسوف يتبعونك طواعية .

فأجاب غريغوري في لهجة جافة :

ـ لا أريد . لست سوى ضيف عابر هنا .

ومضى صوب حصانه ، والندم يخامره لهذا الاعتراف غير الحاذر الذي أفلت من بين شفته .

ألقى كابارين ببقية الشوفان من معطفه على الأرض وأسرع يلحق بغريغوري . وقال وهو يكسر عسلوجاً من الشوك ويسحق بأصابعه براعمه المنتفخة المتراصة :

ـ أتعلم ، ياميليخوف ، أنا لاأظن أننا سنظل صامدين مدة طويلة ، إن لم ننضم الى قوة مناهضة للحكم السوفياتي ، كبيرة . الى لواء «ماسلاك» ، مثلاً . إنه يحوم الآن في مكان ما في جنوب الاقليم . يجب أن ننفذ اليه وإلا فإن مصيرنا سيؤول الى مجزرة شاملة تحل بنا ذات يوم في هذه الديار!

ـ هذا أوان الفيضان . لن يكون في استطاعتنا عبور الدون .

ـ ليس الآن . ولكن ، حينما ينخفض الماء ، علينا أن نتراجع . ألا توافقني ؟

فأجاب غريغوري بعد برهة تفكير :

ـ أنت على حق . يجب أن نرحل عن هذه المنطقة . لاجدوى في التسكَع هنا .

وشرع كابارين يتكلّم في حماسة . فأطنب في الحديث حول نقطة أن آمالهم في الحصول على دعم السكان لم يكن لها مايبرّرها ، وأن عليهم في الوقت الحاضر أن يقنعوا فومين بعدم جدوى التجوال اللاهادف في أرجاء الإقليم ، بل أن يتّخذ قراراً للانضمام الى قوة أخرى .

سئم غريغوري من الاستماع الى ثرثرته . فلبث مسمّراً عينيه على حصانه ، وما أن فرغت السلّة ، حتّى رفعها عن رقبة الحصان وأرجع العنان الى مكانه وشد أحزمة السرج .

قال كابارين :

لن نستأنف سيرنا قبل مضي وقت طويل . فلا حاجة بك الى كل هذا الاستعجال .

فرد غريغوري :

ـ يحسن بك أن تذهب وتعدّ حصانك ، فلن يتّسع لك الوقت لإسراجه فيما بعد!

فتفرّس كابارين فيه بنظرة حادة ، ثمّ مضى الى حصانه الذي كان يقف على مقربة من صف عربات الشحن .

اتجه غريغوري نحو فومين وهو يقود حصانه من عنانه . كان الآمر مستلقياً على عباءته ماداً ساقيه المتباعدتين ، وهو يقضم ، متكاسلاً ، جناح دجاجة مسلوقة . تحرّك قليلاً وأشار لغريغوري بالجلوس الى جانبه :

ـ اجلس هنا وخذ راحتك .

فقال غريغوري :

ـ يجب أن نرحل من هنا ، فليس الوقت وقت راحة .

ـ سنستأنف المسير بعد أن ننتهي من إطعام الخيل .

ـ يمكنّنا أن نطعمها فيما بعد .

ـ فيم استعجالك هذا ؟

وقذف فومين العظمة المنهوشة بعيداً ، ومسح يديه بعباءته .

ـ سيصطادوننا هنا . إنه خير مكان لذلك .

ـ كيف يتسنّى لهم ذلك ، بحق الشيطان ، لقد جاءت الدورية تواً ، وأخبروني أنهم لم يروا نفساً واحدة على التل . لا بد أنهم قد فقدوا آثارنا والا لكانوا في أعقابنا الآن . ليس لنا أن نتوقّع أي هجوم من منطقة بوكانوفسكايا . إن القوميسار العسكري فيها ولد محارب شجاع ولكنّه لايملك قوة كبيرة تحت امرته . والاحتمال ضعيف في خروجه لمجابهتنا . سنأخذ قسطاً طيباً من الراحة ، وننتظر حتّى تفتر شدة الريح ، ثمّ ننطلق من جديد . اجلس وتناول شيئاً من الدجاج . فيم وقوفك فوق رأسي هكذا ؟ يبدو لي أنّك قد أمسيت جباناً ، ياميليخوف . لن ينقضي وقت طويل حتّى تشرع في المضي وراء كل أجمة تصادفك ، هكذا...

ورسم بيده شبه دائرة كبيرة وأطلق ضحكة .

ابتعد غريغوري عنه وهو يطلق سباباً مقذعاً . ربط حصانه الى أجمه ، واستلقى بجانبها مغطّياً وجهه من الريح بطرف معطفه الثقيل .

وعلى تهويمة صفير الريح وخشخشة العشب الطويل الجاف المائل فوقه ، أخذته سنة من النوم .

أعاده قائماً على قدميه صوت لعلعة طويلة من نيران مدفع رشاش . وقبل أن تتوقّف اللعلعة كان غريغوري قد حلّ حصانه من مربطه . وعلت صيحة فومين فوق جميع الأصوات :

ـ الى الخيل!

وفي هذه اللحظة ، شرع مدفعان رشّاشان ، أو ثلاثة ، يتأتنان من الغابة الى اليمين . وفيما امتطى غريغوري حصانه ، قدّر الموقف بنظره واحدة . الى اليمين على حافة الغابة ، كان حوالي خمسين رجلاً من رجال الجيش الأحمر

يتقدّمون الهجوم ، لاتكاد العين تراهم خلل سحائب الغبار ، قاطعين بذلك خط الرجعة الى التلال . وكانت السيوف تتلألأ فوق رؤوسهم ، بلون مائل الى الزرقة مألوف ، وسط ضوء الشمس الكابي . وعلى ربوة كثيرة الأجمات في الغابة ، كانت مدافع رشّاشة تطلق نيرانها ، مفرغة قرصاً إثر قرص في سرعة محمومة . والى الشمال ، كان حوالي نصف سرية من رجال الجيش الأحمر كذلك يتقدّمون على الخيل بلا هتاف ، يلوح رجاله بسيوفهم وهم مندفعون لإحكام حلقة التطويق . ولم يبق إلا مخرج واحد : النفاذ خلال الصف الرفيع من الرجال المهاجمين من ناحية الشمال ، ثمّ التراجع باتجاه الدون . فهتف غريغوري لفومين :

ـ اتبعني! ـ وأطلق العنان لحصانه ، مستلاً سيفه .

وحينما كان قد قطع حوالي أربعين ياردة ، القى نظره الى الوراء : كان فومين وكابارين وتشوماكوف وعدة رجال آخرين يتبعونه في هذب جنوني على مبعدة حوالي عشرين ياردة وراءه .

آنذاك ، توقّفت المدافع الرشاشة من ناحية الغابة . لم يكن سوى المدفع الرشّاش القائم في أقصى اليمين يلعلع في صليّات قصيره غاضبة باتجاه رجال فومين المتكومين حول عربات الشحن . ثمّ توقّف ذلك المدفع الرشاش الأخير أيضاً . فأدرك غريغوري أنّ المهاجمين قد انقضّوا على المضرب ، وأن الرجال الذين تخلّفوا هناك كانوا يحصدون بالسيوف . أدرك ذلك من الصرخات اليائسة المنبعثة من ناحيتهم ومن الطلقات القليلة التي أطلقها المدافعون . على أنه لم يكن لديه متّسع من الوقت للإلتفات الى الخلف . وفيما كان حصانه منطلقاً به تجاه سيل الرجال المتقدّمين نحوه ، اختار رجله : كان جنديّاً ، في فروة قصيرة ، يرمح بإتجاهه على صهوة حصان أشهب ليس بالسريع جداً . وفي لحظة خاطفة ، كما في ومضة برق ، لمح غريغوري الحصان ، بصدره الأبيض المبقّع بالزبد ، وراكبه ، بوجهه الفتي الأحمر الملتهب حماساً ، ومن ورائهما السهب الفسيح الكئيب يمتد بعيداً

صوب الدون . وفي اللحظة التالية ، كان عليه أن يتفادى ضربه وأن يدير سيفه . وحينما أصبح غريغوري على مبعدة عشر ياردات تقريباً من الراكب ، مال بجسمه ميلاناً حاداً ناحية اليسار . فالتقطت اذنه صفير السيف القاطع فوق رأسه ، ثم هبَّ قائماً على السرج ومسّ رأس الرجل برأس سيفه تماماً فيما كان يجتازه . لم تكد يده تحسّ بقوّه الضربة ، ولكن حينما نظر وراءه رأى الرجل ينحني وينزلق ، ببطء ، من على السرج ، ورأى سيلاناً ثخيناً من الدماء على ظهر فروته الصفراء . وتباطأ عدو الحصان الأشهب حتّى أمسى خبَباً ، وهو يعدو متجانباً ، وكأنّه يخاف ظلّه ، ورأسه مشرئب في الهواء .

انكفأ غريغوري على رقبة حصانه ، وبحركة غريزية ، أخفض سيفه . وراح الرصاص يصفر ، في صوت رفيع حاد ، من فوق رأسه . وأخذت أذنا الحصان ترتعشان فيما التصقتا برأسه ، وقد علت ذؤابتيهما حبّات من العرق . ولم يكن غريغوري يستمع الى غير صفير الرصاص النفّاذ الذي كان يطلق عليه من الخلف ولهاث حصانه العنيف . ألقى نظرة ثانية الى الوراء ، فرأى فومين وتشوماكوف ، أمّا كابارين فكان على مسافة تناهز مائة ياردة وراءهما ، وعلى مسافة أخرى منه كان رجل واحد من الرعيل الثاني ، هو ستيرليادنيكوف الأعرج ، يشق طريقه ملتحماً مع جنديّين انطلقا يهاجمانه . أمّا جميع الثمانية أو التسعة رجال الذين هربوا في أعقاب فومين ، فقد حصدوا بالسيوف . وكانت الخيل ، بلا راكبيها ، تلوذ بالفرار في جميع الاتجاهات ، وذيولها تلوح في مهب الريح ، فيلحقها رجال الجيش الأحمر ويمسكون بها . سوى حصان واحد ، كميت طويل السيقان ، يعود الى أحد رجال فومين ، قد كان يهذب الى جانب كابارين ، يزنخر ويجرّ سيده الصريع الذي لم يكن قد أفلح في تخليص قدمه من الركاب أثناء سقوطه .

وفي الجانب الآخر من الربوة الرملية أوقف غريغوري حصانه وقفز من على السرج ، وأرجع سيفه الى غمده . وفي ثوان معدودات استطاع أن يجعل حصانه ينبطح ، وهي خدعة كان قد أتقنها في غضون اسبوع واحد . من وراء

هذه الدريئة ،أطلق مشط بندقيّته كلّه ، بيد أن تهديفة كان متعجّلاً غير ثابت ، فلم يفلح الا برصاصته الأخيرة في اسقاط حصان من تحت جندي أحمر . ولكن هذه الرصاصة مكّنت الرجل الخامس من رجال فومين من التخلّص من المطاردة .

هتف فومين حينما حاذى غريغوري :

ـ اركب! لسوف يصيبونك!

* * *

كانت الهزيمة شاملة . فمن أصل مجموع العصابة ، لم ينج سوى خمسة رجال . وظل هؤلاء يطاردون حتّى قرية أنتونوفسكي ، ولم يتوقّف تعقّبهم الى أن اختفى الهاربون داخل الغابة المحيطة بالقرية .

وطيلة ذلك الانطلاق الجنوني ، لم يفه أي من الرجال الخمسة بكلمة .

وحينما بلغوا نهراً صغيراً ، انكفأ حصان كابارين ، ولم يستطيعوا اقامته على سيقانه ثانية . وكانت الخيول الأخرى تترنّح تحت الآخرين ، لا تكاد تقوى على تحريك سيقانها ، وهي تنث على الأرض كتلاً بيضاء ثخينة من الزبد .

قال غريغوري ، وهو يترجّل ، ومن غير أن ينظر الى فومين :

ـ يجدر بك أن تكون راعياً للغنم ، لاآمر وحدة!

فنزل فومين من على سرجه منزلقاً ، ومن غير أن ينبس ببنت شفة ، وشرع يحل سرجه لكنّه مضى دون أن يرفع السرج . وجلس على نتوء ترابي مغطّى بنبات البطارس . وقال وهو يجيل حوله عينين وجلتين :

ـ حسن ، سنضطر الى التخلّي عن الخيول .

فتساءل تشوماكوف :

ـ وبعدها ؟

ـ وبعدها نتخذ طريقنا سيراً على الأقدام الى الجانب الآخر من الدون .

ـ الى أين ؟

ـ سنتوقّف في الغابة حتّى حلول الليل ، ثمّ نعبر الدون ونختفي في الوقت الحاضر في روبزني . لديّ أقارب كثيرون فيها .

فهتف كابارين في حنق شديد :

ـ فكرة خرقاء أخرى! ألا تظنّ أنهم سيبحثون عنك هناك ؟ هوذا المكان الذي يتوقعونك فيه ، بالضبط ما الذي تلجأ الى استخدامه حينما تفكّر ؟

فتساءل فومين في لهجة حائرة :

ـ حسن ، فإلى أين نذهب ؟

أخرج غريغوري الرصاص وقطعة من الخبز من خرجي سرجه ، وقال :

ـ أتنوون إضاعة الكثير من الوقت في أحاديثكم ؟ هيّا! اربطوا الخيل ، ارفعوا السروج عنها ، وتحرّكوا حالاً ، والا فسيظفر بنا الحمر حتّى في هذه الغابة...

فقذف تشوماكوف سوطه على الأرض ، وداس عليه بقدمه في الوحل ، وقال في صوت راعش :

ـ اذن ، سنسير على أقدامنا الآن! وأصحابنا جميعاً قضي عليهم! ياأم الرب ، ماكان أقسى الضربة التي أنزلوها بنا! لم أحسب أنني سأنجو اليوم حيّاً... لقد حدّق الموت الى عينيّ .

وبلا كلام ، رفعوا السروج عن خيلهم وربطوها معاً الى أجمة حور رومي ، ومضوا في طريقهم حدر الدون ، فرادى ، كلّ في أعقاب الآخر ، مثل الذئاب ، وهم يحملون سروجهم على أذرعهم ، حريصين كلّما كان ذلك ممكناً ، على اتخاذ طريق الحشائش الكثيفة .

١٤

في الربيع ، حينما يفيض الدون على ضفتيه ، ويغمر الماء جميع المروج المنخفضة ، هناك ، مقابل قرية روبزني ، لسان صغير ممتد من الضفة اليسرى العالية ، يظل مرتفعاً فوق الماء ، جافاً .

ويستطيع المرء أن يرى هذه الجزيرة من مسافة بعيدة ، من تلال شواطىء الدون ، تغطّيها غابة كثيفة من أشجار الصفصاف والبلّوط اليانعة ، وأجمات صفصاف السلال ، منتشرة ، زرقاء بلون الحمام .

وفي الصيف ، تلتف الكروم البرّية على الأشجار حتّى تبلغ تيجانها ، وتمتد على الأرض ، من تحتها ، أجمات توت الندى ، شائكة منيعة . ويزحف اللبلاب ، شاحب الزرقة ، ويلتف على الأجمات . وفي المسالك القليلة ، ينمو الحشيش كثيفاً طويلاً ، وقد غذّته التربة الغنية بعطائها الكريم ، حتّى ينوف على قامة رجل طولاً .

وفي الصيف ، حتّى في الظهيرة ، يكون داخل الغابة هادئاً ، مضيئاً وبارداً . وليس سوى عصافير الصفّير تشوّش السكون ، والوقاويق تتبارى فيما بينها في عدّ ما تبقّى من سني إنسان ما . أمّا في الشتاء ، فتظل الغابة مهجورة تماماً ، جرداء ، يطبق عليها سكون الموتى . وتنتصب الحواف المسنّنة لذؤابات الأشجار سوداء قاتمة ازاء سمات الشتاء الكالحة . وليس غير جراء الذئاب تجد لها ملجأ آمناً في الأدغال ، عاماً بعد عام ، تقضي أيامها مستلقية على بقايا النباتات المثقلة بالثلج .

في هذه الجزيرة ، اتخذ فومين وغريغوري ميليخوف ، والآخرون الذين كانوا قد نجوا من المجزرةالتي حلّت بالعصابة ، مقرّاً لهم عاشوا فيه بأحسن ماستطاعوا ، يطعمون الفتات الذي كان ابن عم فومين يجلبها لهم بقارب ليلاً . كان الطعام شحيحاً لا يشبع ، بيد أنّهم كانوا ينامون ملء جفونهم ، ورؤوسهم على حنوات سروجهم . كانوا يتناوبون على الحراسة خلال الليل ، لا يشعلون ناراً مخافة أن يكتشف إنسان مخبأهم .

كان تيّار مياه الفيضان يتّجه جنوباً ، غاسلاً حوافي الجزيرة ، ويهدر متوعّداً فيما كان يقتحم حاجز أشجار الحور العتيقة التي كانت تقف في طريقه ، ثمّ يهمهم في تهويمة منغمة ، مؤرجحاً ذؤابات الأجمات الغريقة .

سرعان ما اعتاد غريغوري على صوت الماء الموصول ينبعث على مقربة

منه . كان يتمدّد ، ساعات طوالاً ، بجانب الجرف الناتىء ويحدّق بصره في الامتداد المائي الشاسع ، وفي نتوءات تلال شواطىء الدون الكلسية ، ملفّعة بضبابة ليلكية مشمسة . هناك ، وراء تلك الضبابة ، كانت قريته... أكسينيا... وطفلاه . والى ثمة ، كانت أفكاره الكئيبة تحلّق . فيلتهب الحنين ، لحظة ، في صدره ويأكله أكلاً فيما يتذكّر احباءَهُ ، ثمّ تمور موجة من الحقد العقيم ضد ميخائيل . بيد إنه كان يخمد هذه المشاعر ويحاول ألا ينظر الى تلال شاطىء الدون . لم تكن هناك جدوى في إفلات العنان لأفكاره التعيسة . كانت الحياة حزينة بما فيه الكفاية على وضعها الراهن . ولقد شرع ، منذ مدة خلت ، يحسّ بألم في صدره كان من العنف بحيث بدا له في بعض الأحيان أن شيئاً ما قد اخترق قلبه ، فلم يعد يخفق بل يتدفّق دماً . وجلي أنّ جراحه ، ومشقّات الحرب والتيفوس قد تركت أثارها ؛ اذ كان يحس دوماً بضربات قلبه اللجوج . وكان الألم الممزّق في صدره ، تحت الحلمة اليسرى ، يغدو في بعض الأحيان حاداً الى حد لايطاق ، بحيث تجف شفتاه ويصعب عليه زفر أنّة موجعة . بيد أنّه اكتشف طريقة أكيدة للتخلّص من الألم : كان يستلقي واضعاً جنبه الأيسر على التراب الندي ، أو يبلّل قميصه بماء بارد . ثمّ يشرع الألم في الزوال ، بطيئاً ، متلكّئاً بعض الشيء ـ كما كان يبدو .

غدت الأيام لطيفة هادئة . ولم يحدث إلاّ في فترات متباعدة أن كانت غمائم بيض صغيرة تطفو عبر السماء الصاحية ، تدفعها ريح عالية ، فتنزلق صورها ، مثل سرب من البجع ، على مياه الفيضان . ثمّ تختفي حينما تمسّ الشاطىء البعيد .

كان ممتعاً التحديق الى التيار السريع يمور غاضباً على امتداد الجرف ، والإصغاء الى آلاف الأصوات المنبعثة من الماء ، وألا يفكّر المرء بأيما شيء ، أن يحاول ألا يفكر بأيما شيء يبتعث الألم . كان يمضي ساعات يحدّق الى دوّامة التيّار ، لاتستقر نزواتها على حال قط . كانت الموجات

تغيّر أشكالها على الدوام . وحيث كان التيّار يجري هيّناً ، يحمل على سطحه سيقان القصب والأوراق المتغضّنة وكتلاً من الحشيش اقتلعت من جذورها ، كانت دوّامة ، تدور دوراناً ساحراً ، تظهر على السطح فتمتص ، في شره ، كل عائم يقع في متناول دورانها .

وبعد ذلك بقليل ، تختفي الدوامة نفسها ، فيبقبق الماء محلّها ويدور في حلقات عكرة ، قاذفاً الى السطح جذراً أسود الطرف من جذور البردي ، حيناً ، وورقة بلّوط مفلوقة ، حيناً آخر ، وفي آونة آخرى حزمة من القش قدمت من حيث لايدري أحد .

وفي الأماسي ، كان الشفق الأحمر ، بلون الكرز ، يتوهج في الغرب . ويرتفع القمر من وراء شجرة حور سامقة ، فينتشر ضوؤه على الدون ، شعلة بيضاء باردة تتخلّلها ظلال وبقع سود حيث يتموّج الماء في مهب الريح . وفي الليل ، كانت نداءات أسراب لاحصر لها من الأوز الطائر صوب الشمال تنبعث ، موصولة ، فوق الجزيرة ، مختلطة بهمهمة الماء ، وكانت طيور ، ناعمة البال لايضايقها أحد ، كثيراً ما تحطّ في الجانب الشرقي من الجزيرة . وفوق المياه المتخلّفة ، خلل الغابة المغمورة ، كان ذكر الصنصن يطلق نداءاته متحدّياً ، والبط يتصايح ، والاوز يوقوق في هدوء ويجيب بعضه بعضاً . وفي ذاتَ يوم ، كان غريغوري متجهاً ناحية الجرف ، دون أن يندّ عنه صوت ، فإذا به يلقى سرباً كبيراً من البجع في موضع ليس ببعيد عن الجزيرة . كانت الشمس لم تشرق بعد . وكان ألق الصباح يخفق ، ملتمعاً ، الى الوراء من حاجز الغابة . وبدا الماء ، وهو يعكس ضوء الألق ، ورديّاً . وقد أدارت طيور البجع الكبيرة الجلية رؤوسها صوب مطلع الشمس فبدت ، هي الأخرى ، مخضّبة باللون الوردي . واذ بلغت أسماعها خشخشة من ناحية الجرف ، هبّت تطير ، مطلقة نداءً جهيراً ، كصوت البوق ، وحينما ارتفعت فوق الغابة انبهرت عينا غريغوري بالألق العجيب لريشها الثلجي .

كان فومين والآخرون يقتلون الوقت ، كل على سجيّته . كان

ستيرليادنيكوف الدؤوب يعمل من الصباح حتّى الليل على رتق الملابس واصلاح الجزم وتنظيف أسلحته تنظيفاً دقيقاً ، وهو يضع ساقه العرجاء ، في غضون ذلك ، في وضع مريح . أمّا كابارين ، الذي لم تتحسّن صحّته مع نومه ليلاً على الأرض الرطبة ، فقد كان يقضي أياماً بطولها مستلقيّاً في الشمس ، يسعل سعالاً جافّاً ويتلفّع حتّى رأسه بفروته . في حين كان فومين وتشوماكوف لاينقطعان عن لعب القمار بورق عادي من صنع محلّي . أمّا غريغوري فكان يتجوّل في أرجاء الجزيرة أو يجلس القرفصاء الى جانب الماء ساعات طويلة . كانوا لا يتحدّثون فيما بينهم إلا لماماً ـ فلقد قالوا ، منذ أمد ، كل ما كان يجب أن يقال ـ ولم يكونوا يجتمعون الا عند وجبات الطعام وفي المساء عند انتظارهم وصول ابن عم فومين . كان السأم قد استبدّ بهم ، وطوال مكوثهم في الجزيرة لم يحدث الا مرّة واحدة فقط أن رأى غريغوري تشوماكوف وستيرليادنيكوف يستشعران انشراحاً مفاجئاً فيشرعان يتصارعان . جعلا يتخابطان مدة طويلة في الرمل الأبيض الخشن . وبدا جليّاً أن ستيرليادنيكوف كان الأقوى ، بيد أنّ تشوماكوف كان أكثر خفّة . كانا يتصارعان، وقد وضع كل منهما ذراعيه حول خصر الآخر ، وكتفاهما مدفوعان الى أمام ، وكل منهما يراقب ساقي خصمه في حذر . وغدا وجهاهما شاحبين جامدين ، من الاجهاد ، وأنفاسهما مختلجة عنيفة . لبث غريغوري يراقب المصارعة في اهتمام . واختار تشوماكوف اللحظة المناسبة ، فأسقط نفسه ، بغتة ، على ظهره ساحباً خصمه معه ، وبحركة من ساقيه المطويّتين قذف بستيرليادنيكوف من فوق رأسه . وبعدها بثانية كان تشوماكوف ، كالسنور خفة ومرونة . منبطحاً فوق ستيرليادنيكوف وهو يضغط على الرمل لوحي كتفيه ، فيما جأر الثاني وهو يلهث ويضحك :

ـ لكنّك تلجأ الى الغش . لم نتّفق على أنْ في مقدور كل منّا أن يقذف الآخر من فوق رأسه .

فقال فومين :

ـ لقد كنتما مثل ديكين فتيين من ديكة القتال . ولكن ، يكفي هذا الآن ، وإلا فسيتخذ عراككما طابع الجد .

بيد أنه لم يكن في نيّتهما العراك قط . بل جلسا على الرمل ، متوادّين ، متشابكي الذراعين ، وانطلق تشوماكوف ينشد أغنية في صوت جهير غليظ ، إنّما لطيف . فالتقط ستيرليادنيكوف الأغنية بصوته الصادح الرفيع ، وشرعا يغنّيان معاً في توافق وأداء جيد غير متوقّع .

الا أن ستيرليادنيكوف ، على حين غرّة ، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه : فوثب واقفاً وطفق يرقص وهو يطق أصابعه ويرفس الرمل بساقه العرجاء . وتناول تشوماكوف سيفه ، ومن غير أن يتوقّف عن الغناء ، حفر به حفرة صغيرة وقال :

ـ تمهّل قليلاً ، أيها الشيطان الأعرج! إن احدى ساقيك أقصر من الثانية ، فلا تستطيع أن ترقص بالشكل اللائق على أرض مستوية... فإمّا أن ترقص على أرض منحدرة أو تضع ساقك الأطول في حفرة والاخرى خارجها . ضع ساقك السليمة في هذه الحفرة ، ثم ارقص ، وسترى كم ستكون النتيجة مجدية . والآن ، هيّا بنا!

فمسح ستيرليادنيكوف العرق من جبينه ، وبكل طاعة وضع ساقه السليمة في الحفرة التي كان تشوماكوف قد أعدّها . وقال :

ـ لكنّك على حق ، إنها تجعل الأمر اسهل ، حقاً . فانطلق تشوماكوف ، وهو يلهث بالضحك يصفّق بيديه ، وبدأ يغنّي في سرعة كبيرة ، وشرع ستيرليادنيكوف يرقص بخفّة ، وقد علا وجهه التعبير الجاد ذاته الذي يعلو وجوه جميع الراقصين ، وجرّب حتّى أن يجلس القرفصاء على ردفيه ويركل بساقيه...

تتالت الأيام ، يشبه واحدها الآخر شبهاً تاماً . كانوا ، اذا حل الظلام ، ينتظرون مقدم ابن عم فومين ، نافذي الصبر ، فيجتمع خمستهم على الجرف ، لا يتحدّثون إلا بأصوات خافتة ، ويدخنون مخبّئين جمرات سكائرهم تحت أطراف معاطفهم .

اتخذوا قراراً بالمكوث أسبوعاً آخر في الجزيرة ، يعبرون بعده الدون ليلاً الى ضفّته اليمنى ، فيخطفون خيلاً وينطلقون ناحية الجنوب . كانت الشائعات تقول أن عصابة ماسلاك كانت لاتزال في جهة ما في جنوب الاقليم .

استحثّ فومين أقرباءه على اكتشاف المكان الذي يستطيع أن يحصل فيه على خيل لائقة ، وطلب منهم أن يحيطوه علماً ، كل يوم ، بجميع ماكان يحدث في المنطقة .

فجاءته الأنباء مطمئنة : كان البحث عن فومين يدور في الجانب الأيسر من الدون ، وعلى الرغم من قيام رجال الجيش الأحمر بزيارة روبزني ، الا أنهم لم يلبثوا أن غادروها ثانية بعد تفتيشهم دار فومين .

اقترح تشوماكوف ذات يوم بعد الفطور قائلاً :

ـ يجب أن نرحل من هنا بسرعة! ماهي ، بحق الجحيم ، فائدة الالتصاق بهذا المكان ؟ لنرحل غداً .

فقال فومين :

ـ يجب أن نعرف موضوع الخيل أولاً ، فيم الاستعجال ؟ لو أنّهم كانوا يطعموننا بشكل أفضل ، وحسب ، لما تخلّيت عن هذه الحياة المريحة حتّى الشتاء . انظر حواليك ، ماأجمل المكان! سنأخذ قسطاً من الراحة ثمّ نستأنف رحيلنا . دعهم ينقّبون عنّا ، نحن لن نسمح لهم باصطيادنا بهذه السهولة! لقد حطّمونا بسبب من غبائي ، اعترف بذلك ، ولاشكّ أن ذلك شيء مؤسف ، ولكنّه ليس كل شيء . لسوف نجمع مزيداً من الرجال من جديد . وحالما نمتطي الخيل ، سنقوم بجولة في القرى القريبة ، وما أن يمضي اسبوع حتّى يكون نصف سرِية قد تجمّع لدينا ، ومن الجائز سرية بكاملها . سنحصل على مانحتاج من الرجال ، وسترى ذلك .

فقال كابارين محنقاً :

ـ هراء! غطرسة متعجرفة! لقد خذلنا القوزاق . لم يتبعونا . يجب أن

تكون لدينا الشجاعة الكافية لمواجهة الحقائق ، عيناً بعين ، وألا نخدع أنفسنا بآمال سخيفة .

ـ ولماذا لا يتبعونا ؟

ـ حسن ، لم يتبعونا في المرة الأولى ، فلن يفعلوا ذلك الآن .

فرد عليه فومين في لهجة متحدّية :

ـ سنرى! لن ألقي سلاحي!

فقال كابارين في ملال :

ـ ذلك كله كلام فارغ!

صرخ فومين محتداً :

ـ يا ذا الرأس الشيطاني! لماذا تقوم بنشر الفزع هنا ؟ إنك أسوأ من الجرجير المر بدموعك! اذاً ، لماذا قمت بالإنتفاض ؟ لماذا انضممت ، اذا كانت مصارينك ضعيفة الى هذا الحد ؟ كنت أنت الذي تستحثني لبدء الإنتفاضة ، أمّا الآن فإنك تريد أن تخرج منها زحفاً على الأربع ، أليس لديك ما تقول ؟

فزعق كابارين كالمجنون :

ـ ليس لدي ما أقوله لك ، وتستطيع أن تذهب الى الشيطان ، أيها الأحمق!

وانصرف وهو يرتعش ، ويلف جسمه بفروته ، ويرفع ياقة معطفه .

فزفر فومين قائلاً :

ـ هؤلاء أهل الحسب والنسب ، رقيقو الاهاب دائماً! حالما يحدث أي شيء ينفضون أيديهم وينتهي أمرهم .

ولبثوا جالسين في صمت بعض الوقت ، يصغون الى هدير الماء ، قوياً موصولاً . طارت فوقهم بطة ، يلاحقها ذكران من ذكر البط ، مرسلين صياحاً زاعقاً . وانحدر سرب من الزرازير ، يثرثر في انفعال وتصخاب ، حذر الموضع المكشوف ، ولكن ما أن شعرت بوجود الرجال حتى انطلقت ثانية الى أعلى ، متثنيات مثل ضفيرة سوداء .

عاد كابارين بعد برهة من الوقت ، وقال وهو ينظر الى فومين بعينين ترمشان بشدة :

ـ أريد أن أذهب الى القرية هذه الليلة .

ـ لماذا ؟

ـ سؤال غريب! ألا ترى أنني اصبت بقشعريرة قوية ولا أكاد أقف على قدمي ؟

فسأله فومين في هدوء ثابت :

ـ طيب ، ثمّ ماذا ؟ أتحسب أنك ستتخلّص من قشعريرتك في القرية ؟

ـ يجب أن أمضي بضع ليال على الأقل في مكان دافىء .

فقال فومين بلهجة قاطعة :

ـ لن تذهب الى أي مكان!

ـ ماذا ، هل يتوجّب عليّ أن أفنى هنا ؟

ـ افعل ما يحلو لك .

ـ ولكن ، لماذا لا أستطيع الذهاب ؟ إن في قضاء هذه الليالي نائماً في البرد فنائي المحتّم .

ـ هب أنهم القوا القبض عليك في القرية ؟ هل خطر هذا ببالك ؟ آنذاك ، سيقضون علينا جميعاً . أتحسب أنني لا أعرفك ؟ ستشي بنا في أول استجواب . وستفعل ذلك حتّى قبل استجوابك ، ستشي بنا وأنت في الطريق الى فيشنسكايا .

فانفجر تشوماكوف ضاحكاً وهزّ رأسه استحساناً . كان متّفقاً مع فومين كلّية . بيد أن كابارين قال ي عناد :

ـ يجب أن أذهب . تخميناتك الألمعية لن تجعلني أغيّر رأيي .

ـ لكني قلت لك أن تظل قابعاً في هدوء في الوقت الحاضر .

ـ ولكن ، الاتدري ، يا ياكوف يفيموفتش ، أنني لا أستطيع الاستمرار على حياة الحيوانات هذه مدة أطول ؟ انني مصاب بذات الجنب ، بل ـ ربّما ـ بذات الرئة .

ـ ستتغلّب على مرضك . ستنام في الشمس وتشفى .

فأعلن كابارين رأيه في لهجة حادة :

ـ مهما يكن الأمر ، فأنا ذاهب اليوم . لاحق لك بإعاقتي . سأذهب مهما كلّف الأمر .

فحدّق فومين اليه ، وخزر عينيه متشكّكاً ، ثم قام على قدميه وقال وهو يغمز لتشوماكوف :

ـ يبدو لي ، ياكابارين ، أن المرض قد أصابك فعلاً... لابدّ أن درجة حرارتك مرتفعة... دعني أتبيّن ما اذا كان رأسك ساخناً!

وتقدّم بضع خطوات تجاه كابارين ، ماداً يده .

وكان واضحاً أن كابارين قد لاحظ السحنة المنفرة على وجه فومين ، اذ تراجع وصرخ :

ـ ابتعد عنّي!

ـ لا تصرخ! لماذا تثير كل هذا الصخب ؟ أنا لا أريد سوى أن أتبيّن حرارتك ، ماذا دهاك ؟

وخطا نحو كابارين وأمسك به من بلعومه ، وحمحم في صوت غليظ وهو يجاهد لإلقاء كابارين أرضاً :

ـ تريد أن تسلّم نفسك ، أيها الخنزير القذر ؟

ولم يستطع غريغوري أن يفصلهما إلا بمشقّة ، وكان عليه أن يبذل كل قوّته في سبيل ذلك .

بعد العشاء ، اقترب كابارين من غريغوري فيما كان يعلّق بعض الملابس المغسولة على أجمة ، وقال :

ـ أحب أن أكلّمك على انفراد... لنجلس .

وجلسا على جذع مطروح لشجرة حور علته آثار التعفّن .

قال كابارين ، وسط سعاله الجاف :

ـ ما رأيك في تصرّف ذلك البليد ؟ أنا مخلص في امتناني لك لتدخّلك .

لقد تصرّفت تصرّفاً نبيلاً ، كما يتعيّن على ضابط . لكن هذا وضع فظيع! أنا لاأستطيع تحمّل المزيد . نحن نعيش كالحيوانات... كم يوماً مضى علينا مذ أكلنا طعاماً ساخناً ؟ ثم . هذا النوم على الأرض الرطبة... لقد أصبت بقشعريرة ، وجنبي يؤلمني ألماً فظيعاً . لابد أنني أصبت بذات الرئة . أنا بحاجة ماسة الى الجلوس عند نار ، الى النوم في غرفة دافئة ، الى تغيير ملابسي الداخلية . أنا أحلم بقمصان نظيفة جديدة ، وبأغطية سرير... كلا ، لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال!

فابتسم غريغوري وسأله :

ـ تريد القتال محاطاً بوسائل الراحة ؟

فأجاب كابارين متحمّساً :

ـ اسمع : أي صنف من الحروب هذه ؟ هذه ليست حرباً ، بل عملية لا حدّ لها من التشرّد ، وقتل أفراد من الشغيلة السوفييت ، ثمّ الفرار . كانت حرباً لو ساندها الشعب ، لو اندلعت انتفاضة . أتسمّي هذه حرباً... كلا ، هذه ليست حرباً!

ـ ليس ثمة شيء آخر نستطيع أن نفعله . لعلّك تريدنا أن نستسلم ، ها ؟

ـ أنت على حق ، ولكن ما الذي نحن فاعلون ؟

فهزّ غريغوري كتفيه . وأفصح ، بالكلام ، عن الفكرة التي كثيراً ماكانت تراوده فيما كان يستلقي في هذا الموضع أو ذاك من الجزيرة :

ـ إن حرّية هزيلة خير من سجن جيد . أنت لاشك تعرف القول المأثور : سجن عتيد ، لكنه لايسر غير الشيطان!

كان كابارين يرسم بغصن رسوماً على الرمل . وبعد فترة سكوت طويلة ، قال :

ـ ليس علينا ، بالضرورة ، أن نستسلم ، بل علينا أن نجد أنماطاً جديدة من الكفاح ضد الشيوعيين . يجب أن نبيد هذه الحثالة الكريهة . أنت رجل مثقّف...

فقال غريغوري متضاحكاً :

ـ لماذا تظن ذلك ؟ عجباً! فأنا لاأكاد أستطيع أن الفظ هذه الكلمة بصورة صحيحة .

ـ أنت ضابط .

ـ بالصدفة!

ـ كلا ، دع المزاح جانباً . أنت ضابط . وخالطت مجتمع الضباط ، ورأيت رجالاً حقيقيين . انك لست حديث نعمة سوفياتياً مثل فومين ، ويجب عليك أن تدرك بأن من الجنون بقاؤنا هنا .انه بمثابة الانتحار . لقد كان هو سبب الضربة القاصمة التي نزلت بنا في الغابة ، واذا ظللنا نسلّم مصائرنا بيده فإنه سيكرّر الشيء نفسه أكثر من مرة . إنه ، بكل بساطة ، صعلوك ، علاوة على أنه أحمق صخّاب! سيقضي علينا لوبقينا معه .

فتساءل غريغوري :

ـ اذن ، فأنت لاتريد الاستسلام ، بل ترك فومين ؟ أين سنذهب ؟ أننضم الى ماسلاك ؟

ـ كلا . ليس هذا إلا مغامراً آخر ، سوى أنّه على نطاق أوسع . إن لي وجهة نظر مغايرة في مجموع الأمر الآن . يجب الا نذهب الى ماسلاك...

ـ الى أين ، اذاً ؟

ـ الى فيشنسكايا .

فهز غريغوري كتفيه متضايقاً :

ـ أنا أسمّي هذا بعثرة نقود جيدة على ماهو رديء . هذا لا يعجبني .

فحدّق كابارين اليه بعينين متوهجتين :

ـ أنت لم تفهمني ، يا ميليخوف . هل أستطيع أن أثق بك ؟

ـ كلية .

ـ أتعدني بكلمة شرف من ضابط ؟

ـ أعدك بكلمة شرف من قوزاقي .

فألقى كابارين نظرة في اتجاه فومين وتشوماكوف ، وقال مخفضاً صوته بالرغم من أنهما كانا على مسافة بعيدة منهما بحيث لم يكن في مستطاعهما سماع الحديث .

ـ أنا أعرف علاقتك بفومين والآخرين . أنت جسم غريب بينهم ، مثلما أنا كذلك بالضبط . لاتهمّني الاسباب التي حدت بك الى الوقوف ضد الحكم السوفياتي ، واذا لم أخطىء الفهم فإن ذلك بسبب من ماضيك ومن خشيتك من الاعتقال ، أليس كذلك ؟

ـ لقد قلت ، قبل لحظة أن الاسباب لاتهمّك .

ـ نعم ، نعم ، كان ذلك من باب ذكر الشيء بالشيء . والآن ، لأقل بضع كلمات عنّي أنا . في السابق ، كنت ضابطاً وعضواً في الحزب الاشتراكي ـ الثوري ، لكنني ـ فيما بعد ـ أعدت النظر في معتقداتي السياسية بشكل تام... الملكية وحدها تستطيع انقاذ روسيا . الملكية وحدها والعناية الالهية نفسها تشير الى هذا الطريق لبلادنا . إن شعار الحكومة السوفياتية هو المطرقة والمنجل« مولوت » و« سرب »* أليس كذلك ؟

وبالغصن الذي بيده ، خط كابارين كلمتي« مولوت »و« سرب »على الرمل ، ثمّ سمّرعينيه على وجه غريغوري وقال :

ـ والآن ، اقرأ كلاً من هاتين الكلمتين بصورة معكوسة . هل فعلت ؟ أفهمت ؟ ليس الا« برستولوم »** ، ليس إلا« بواسطة العرش » ، سيقضى على الثورة والحكم السوفياتي . أتدري ؟ لقد تملّكتني رهبة صوفية حينما اكتشفت ذلك . جعلت أرتعش ، لأن ذلك ـ اذا شئت أن نضعها بهذه الصورة ـ كان اصبع الرب يشير الى نهاية متاعبنا...

وسكت كابارين ، وهو يلهث لفرط الانفعال . وكانت عيناه تنمّان عن شيء من الجنون فيما كان يحدّق الى غريغوري . غير أن غريغوري لم

---

* في اللغة الروسية تعني كلمة« مولوت » المطرقة . و« سرب » المنجل . المترجمون

**« برستولوم » : بواسطة العرش . المترجمون .

يرتعش مطلقاً أو يستشعر أي رعب صوفي وهو يستمع الى اكتشاف كابارين الموحى به ، ولهذا ردّ عليه بقوله :

ـ ليس ذلك بالاصبع . هل كنت في الجبهة خلال الحرب الألمانية ؟

فوجىء كابارين بالسؤال ، ولم يجب في الحال .

ـ ولكن ، لماذا تسأل ؟ كلا ، لم أكن في الجبهة فعلاً .

ـ اذن ، أين كنت طيلة الحرب ؟ في المؤخرة ؟

ـ نعم .

ـ طيلة الوقت ؟

ـ أجل ، أعني ، ليس طيلة الوقت ، بل تقريباً كلّه . ولكن ، لماذا تسأل ؟

ـ حسن ، لقد كنت أنا في الجبهة ، بصورة مستمرة ، منذ عام ١٩١٤ حتّى يومنا هذا ، فيما عدا فترات قليلة . أمّا بالنسبة لاصبعك... كيف يمكن أن يكون ذلك إصبع الرب بينما الرب نفسه غير موجود ؟ لقد طلّقت الاعتقاد بهذا الهراء منذ أمد بعيد . فمنذ عام ١٩١٥ ، حينما وقعت عيني على الحرب لأوّل مرة ، وأنا أعتقد أن الله غير موجود ، غير موجود على الاطلاق! لأنه ، لوكان موجوداً ، ماكان ليدع الناس يفعلون ماهم فاعلون! لقد تخلّصنا ، نحن رجال الصفوف الأمامية ، من الله ، وهو الآن لاينفع سوى النساء والكهول . فليجدوا فيه العزاء . ليس ثمة اصبع ، ولن يمكن أن تكون هناك ملكية . لقد وضع الشعب لهذا حدّاً ، مرة ، والى الأبد . أمّا هذه اللعبة التي تلعبها ، هذا اللف والدوران بالأحرف ، ماهذا ـ اذا سمحت لي ـ الا أحجية من أحاجي الأطفال لاأكثر . وأنا لاأفهم ما الذي ترمي اليه من إخباري بكل هذا . عليك أن تتحدّث ببساطة ووضوح أكثر . أنا لم أتعلّم في أكاديمية حربية ، ولست بالمثقّف الكبير ، رغم انني ضابط .

وختم غريغوري كلامه ونبرة ندم جلية تشوب صوته :

ـ لو كنت تلقّيت تعليماً أفضل ، ربّما ماكنت لأجلس معك هنا في هذه الجزيرة ، مثل ذئب يحاصره الفيضان .

فأسرع كابارين يقول :

ـ هذا لايهم . لايهم أن تكون مؤمناً بالله أو غير مؤمن به ، ذلك من شأن معتقدك الخاص ، يخص ضميرك . وليس مهماً ، ادنى أهمّية ، أن تكون ملكيّاً أو مؤيداً للجمعية الدستورية ، أو مجرّد قوزاقي يحارب من أجل الحكم الذاتي . المهم ، فعلاً ، هو أننا متحدون في موقف واحد ازاء الحكم السوفياتي . هل توافقني ؟

ـ استمر .

ـ لقد عقدنا آمالنا على قيام القوزاق بانتفاضة شاملة ، أليس كذلك ؟ لقد ثبت أن آمالنا تلك لم يكن لها مايبرّرها . والآن ، علينا أن نجد مخرجاً . نحن نستطيع أن نواصل القتال ضد الشيوعيين ، وليس بقيادة فومين وحده! المهم ، الآن ، هو أن ننقذ حياتنا نحن ، وهذا هو ما يحدوني الى أن أقترح عليك عقد تحالف فيما بيننا ، نحن الاثنين .

ـ أي نوع من التحالف ؟ وضد من ؟

ـ ضد فومين .

ـ لم أفهمك .

وظهر الانفعال على كابارين جليّاً ، وأخذ يلهث لهاثاً عنيفاً فيما واصل كلامه :

ـ المسألة كلها في غاية البساطة . انني أدعوك لكي تكون شريكي . سنقوم أنا وأنت ، بقتل هؤلاء الثلاثة ، ثمّ نذهب الى فيشنسكايا ، أتفهمني ؟ ذلك سينقذنا . إن هذه الخدمة التي سنقدّمها للحكومة السوفياتية ستنقذنا من العقاب . سنعيش . سننقذ حياتنا . ومن تحصيل الحاصل القول إننا ، متى سنحت الفرصة ، سنحارب ضد الشيوعيين من جديد . ولكن ذلك سيكون حينما تكون الشغلة مضبوطة ، وليست مغامرة من المغامرات ، كهذه التي نقوم بها مع الصعلوك فومين . هل توافقني ؟ تذكّر أن هذه الطريقة الوحيدة للخروج من ورطتنا اليائسة الحالية ، وهي طريقة رائعة .

فتساءل غريغوري :

ـ ولكن كيف يتم التنفيذ ؟

وفي داخله ، كان غريغوري يرتعد من شدة الغيظ ، بيد أنه حاول بكل جهده أن يخفي الشعور الذي كان قد تملّكه .

ـ لقد فكّرت بكل شيء : سنفعلها ليلاً ، بالسلاح الأبيض . ثم يأتي القوزاقي الذي يزوّدنا بالطعام ، في الليلة التالية ، فنعبر النهر ، وهذا هو كل شيء . إنها بسيطة بشكل رائع ، لا تستدعي أي دهاء قط .

فقال غريغوري ، مبتسماً ، وفي بشاشة مصطنعة :

ـ يبدو أنها حسنة! ولكن ، قل لي يا كابارين ، حينما أردت أن تذهب الى القرية ابتغاء للدفء هذا الصباح... كنت تنوي الذهاب الى فيشنسكايا ؟ هل أصاب فومين في حدسه ؟

فتفرّس كابارين ، عن كثب . في وجه غريغوري المبتسم في ودّ ، ورد على ابتسامته بابتسامة موهنة يشوبها شيء من الحسرة ، وقال :

ـ سأخبرك بصراحة : كانت تلك نيّتي فعلاً ، كما تعلم ، متى كان الأمر يتعلّق بالمصير لايأبه المرء كثيراً للطريقة التي يتبعها .

ـ اذن ، كنت ستشي بنا ؟

فأجاب كابارين مقرّاً :

ـ نعم . لكنّني كنت سأحاول تجنّبك ، شخصيّاً ، أية متاعب في حالة القبض عليك هنا ، في هذه الجزيرة .

ـ ولكن ، لماذا لم تقتلنا جميعاً بنفسك ؟ كان ذلك من اليسير فعله في الليل .

ـ كانت هناك مخاطرة في ذلك : ففيما أعالج أمر أحد منكم ، يكون الآخرون...

فقال غريغوري في لهجة مكبوحة الجماح ، وهو ينتش مسدّسه من جرابه :

ـ ارم أسلحتك! ارم أسلحتك على الأرض وإلاّ رميتك في الحال! سأنهض الآن ، وسأحجبك كي لا يراك فومين ، ثمّ ترمي مسدّسك عند قدمي . حسن ؟ لا تفكّر بإطلاق النار! سأصرعك عند أوّل بادرة منك .

فلبث كابارين في مكانه لا يتحرّك وقد شحب وجهه شحوب الموتى . وقال في همس ، يكاد لا يحرّك شفتيه :

ـ لا تقتلني!

ـ لن أفعل . لكنني سآخذ أسلحتك .

ـ ستشي بي...

وانحدرت الدموع على خدّي كابارين الأشعرين . فعبس وجه غريغوري نفوراً وشفقة ، وقال رافعاً صوته :

ـ ارم مسدّسك! لن أشي بك ، رغم أنه يجب علي أن أفعل ذلك . عجباً ، يالك من جبان! جبان خسيس!

فألقى كابارين مسدّسه عند قدمي غريغوري .

ـ وماذا عن مسدّسك البراوننغ ؟ سلّمه . إنه في جيب الصدر في قمصلتك .

فألقى كابارين البراوننغ المتألق المطلي بالنيكل ، وغطّى وجهه بيديه . وأخذ جسمه يختض بالنشيج .

فقال غريغوري في لهجة حادة وهو يحاول جهده كي يكبح جماح رغبته في تسديد ضربة لكابارين :

ـ كف عن ذلك ، يا حثالة!

ـ ستشي بي! قد قضي علي...

ـ قلت لك لن أشي بك . ولكن ، حالما نغادر هذه الجزيرة تستطيع أن تذهب الى حيث يحلو لك! لا أحد يرغب في صنفك! يمكنك أن تعثر لنفسك على ملجأ .

فرفع كابارين يديه على وجهه . كان منظره مرعباً ، بخدّيه النديّين المزرقّين وعينيه المتورّمتين ، وفكّه الأسفل المرتعش .

وقال متأتناً :

ـ اذاً لماذا... لماذا جرّدتني من السلاح ؟

فأجاب غريغوري على مضض :

ـ كي لا تطلق النار عليّ من الخلف . كل شيء متوقّع من رجل مثلك... رجال مثقّفين! هذا ، وجلست تحدّثني عن الاصبع ، وعن القيصر ، وعن الله... يا لك من مخلوق خبيث!

وبدون أن يلقي غريغوري نظرة على كابارين ، كرّ عائداً الى حيث كان الآخرون ، وهو يقذف البصاق الغزير الذي كان يملأ فمه ، المرة تلو المرة .

كان ستيرليادنيكوف يصفر صفيراً خافتاً فيما كان يرتق شقّاً في سرجه بخيط مشمّع . أمّا فومين وتشوماكوف فكانا مضطجعين على مرشحة حصان يلعبان الورق كالعادة .

ألقى فومين نظرة سريعة على غريغوري ، وتساءل :

ـ ماذا كان يقول لك ؟ كنتما تتحدّثان ؟

ـ كان يشكو من الحياة... لاشيء غير ثرثرة كثيرة...

حافظ غريغوري على وعده ، فلم يش بكابارين . لكنّه انتهز فرصة مناسبة ، في ذلك المساء ، وانتزع الترباس من بندقية كابارين وأخفاه . وقال في سريرته فيما كان يستلقي :

ـ يعلم الشيطان ماذا يمكن أن يحاول فعله في الليل .

وفي الصباح التالي ، أيقظه فومين ، وسأله في لهجة هادئة وهو ينحني عليه :

ـ هل أخذت أسلحة كابارين منه ؟

ـ ماذا ؟ أية أسلحة ؟

ورفع غريغوري نفسه على مرفقه ، وهويمطي كتفه متألماً . كان معطفه الثقيل وطاقيته الفرو وجزمته كلّها منداة بالرطوبة التي حلّت مع شروق الشمس ، فأحس بالبرد حتّى العظام .

ـ لم نستطع أن نعثر على أسلحته . هل أخذتها ؟ هيّا ، استيقظ ، يا ميليخوف!

ـ ماذا ، أجل ، أخذتها . ولكن ، ماذا حدث ؟

فابتعد فومين دون كلام . نهض غريغوري ونفض معطفه . كان تشوماكوف على مبعدة يعد الفطور : غسل الصحن الوحيد الذي كان في حوزتهم ، ثمّ قطّع رغيف الخبز ، وهو يضعه على صدره ، أربع قطع متساوية ، وصبّ في الصحن لبناً من قارورة ، ورفع بصره الى غريغوري وهو يفتّت قطعة مسلوقة ، سلقاً قوياً ، من عصيد الدخن .

ـ لقد تأخّرت في نومك هذا الصباح ، ياميليخوف! انظر الى أين صعدت الشمس .

فقال ستيرليادنيكوف ، فيما كان يمسح الملاعق الخشبية بطرف معطفه بعد غسلها :

ـ الرجل ذو الضمير الحي ينام قرير العين دائماً . بينما كابارين لم يغمض له جفن طوال الليل ، بل ظلّ يتقلّب ويتثنّى...

فابتسم فومين وهو ينظر الى غريغوري .

واقترح تشوماكوف قائلاً :

ـ اجلسوا وتناولوا فطوركم ، ياقطّاع الطرق!

ومن غير أن ينتظر الآخرين ، شرع يشرب اللبن بملعقته ، ثمّ قضم زهاء نصف قطعته من الخبز . التقط غريغوري ملعقته وتساءل ، وهو يتفرّس في الآخرين :

ـ أين كابارين ؟

فواصل فومين وستيرليادنيكوف الأكل في صمت ، أمّا تشوماكوف فإنّه سمّر نظره على غريغوري ، لكنّه لم يقل شيئاً ، هو الآخر .

تساءل غريغوري ثانية ، على الرغم من أنّ شكّاً غامضاً ساوره حول ما كان قد حدث خلال الليل :

ـ أين ذهب كابارين ؟

فأجاب تشوماكوف مبتسماً ابتسامة وقور :

ـ كابارين ، الآن ، على مبعدة كبيرة . إنه عائم باتجاه روستوف وأحسب أنه يتطاوح في مكان ما حوالي أوست ـ خوبرسكايا . هاهي فروته معلّقة ثمة ، انظر...

فتساءل غريغوري ، وهو يلقي نظره على فروة كابارين :

ـ هل قتلتموه حقّاً ؟

لم يكن لسؤاله معنى . كان كل شيء جليّاً ، الا أنه مع ذلك توجّه بالسؤال اليهم . في البدء ، لم يجبه أحد ، فكرّر السؤال . وآنذاك قال تشوماكوف :

ـ عجباً . قتلناه طبعاً .

وأسبل أهدابه على عينيه الرماديتين الانثويتين :

ـ أنا الذي قتلته . هذا عملي ، هذه الأيام ، أن أقتل الناس...

فتفرّس فيه غريغوري عن كثب . كان وجه تشوماكوف الأحمر النظيف هادئاً ، يكاد يكون مبتهجاً ، وكان عذاراه الأشقران الأملسان بارزين على وجهه الملفوح في تناقض مع لون حاجبيه الأغمق وشعره الممشّط تمشيطاً حسناً . لقد كان ذا وسامة أصيلة ومظهر معتدل ، جلاد عصابة فومين المكرم هذا! وضع ملعقته على القماش المشمّع ، ومسح شاربه بظهر يده ، وقال :

ـ يمكنك أن تكون شاكراً لياكوف يفيموفتش ، ياميليخوف! كان هو الذي أنقذ روحك ولولاه لكنت تعوم مع كابارين في الدون ، في هذه اللحظة...

ـ لماذا ؟

فقال تشوماكوف على مهل ، وهو يفصل مابين كلمة وأخرى :

ـ كان واضحاً أن كابارين أزمع تسليم نفسه وقد تحدث اليك طويلاً أمس . حسن . ففكّرنا ، نحن وياكوف يفيموفتش . في تخليصه من هذه الخطيئة . هل أستطيع أن أخبره بكل شيء ؟

ونظر الى فومين مستفهماً . فهزّ فومين رأسه إيجاباً ، واستأنف

تشوماكوف قصّته ، وهو يهرس حبّات هريس الدخن السيء الطبخ :

ـ هيّأت هراوة من خشب البلّوط مساء البارحة ، وقلت لياكوف يفيموفتش : «سأصفّي حسابهما معاً ، كابارين وميليخوف ، خلال الليل .

بيد أنّه قال : «اقض على كابارين ، لاتمس ميليخوف» . وهكذا ، كان هذا ما اتفقنا عليه . راقبت كابارين الى أن نام ، وسمعتك تشخر . حسن ، زحفت اليه وأنزلت الهراوة على رأسه . ولم يرفس نقيبنا الركن ، حتّى بساقيه . إنّما تمدّد على ساقيه بصورة بديعة وأسلم الروح ، لا اكثر . فتّشناه بهدوء ، ثمّ رفعناه من يديه ورجليه ، وحملناه الى الجرف وقذفناه في الماء . أمّا أنت فقد كنت غارقاً في النوم لاتدري شيئاً عن الأمر . كان الموت واقفاً على مقربة منك ليلة أمس ، ياميليخوف! كان يقف فوق رأسك تماماً! وعلى الرغم من أنّ ياكوف يفيموفتش قال أنك يجب ألا تمس ، فإنني قلت في نفسي : «ماذا يمكن أن يكونا قد تحدّثا عنه أمس ؟ إنها شغلة سيئة حينما يشرع اثنان ، من بين خمسة ، يختليان ويتحدّثان سرّاً» . زحفت نحوك عازماً على قتلك بالسيف ، لأنني فكّرت : «هب أني ضربته بالهراوة إنه شيطان قوي! وقد يثب قائماً ويبدأ يصب حمم ناره ، اذا لم أقض عليه بضربة واحدة» . بيد أنّ فومين أوقفني ثانية . اقترب منّي وقال هامساً : «لاتمسّه ، إنه واحد منّا ، وبإمكاننا أن نثق به» . حسن ، تباحثنا في الأمر ، ثمّ لم نستطع أن نستنتج ماحدث لأسلحة كابارين ، وهكذا تركتك في سلام . لقد كنت نائماً ملء جفونك! لم يخطر ببالك ما الذي كان معلّقاً فوقك!

فقال غريغوري في لهجة هادئة :

ـ كنت ستقتلني بلا ذنب ، أيها الأحمق! لم أكن متآمراً مع كابارين

ـ ولكن كيف حدث أن أصبحت أسلحته في حوزتك ؟

فابتسم غريغوري وقال :

ـ أخذت منه مسدّسيه أمس ، ثمّ أخذت ترباس بندقيته في المساء وأخفيته تحت مرشحة الخيل .

ومضى يقصّ عليهم ما دار بينه وبين كابارين ، ومشاريع النقيب الركن .

فسأله فومين ممتعضاً

ولكن ، لمَ لم تقل شيئاً عن ذلك أمس ؟

فاعترف غريغوري بصراحة :

ـ لقد شعرت بالشفقة عليه ، ذلك الشيطان الممخاط!

فهتف تشوماكوف ، وقد علت وجهه سيماء الذهول الحقيقي :

ـ آه ، ياميليخوف ، ياميليخوف! ضع شفقتك حيث وضعت ترباس بندقية كابارين! ادفنها تحت مرشحة خيل ، لأنّها لن تنفعك بشيء!

فرد عليه غريغوري ببرود :

ـ لا تعلّمني! أنا أعرف شغلي!

ـ لماذا يتعيّن عليّ أن أعلّمك ؟ ولكن ، هب أنني ، نتيجة لشفقتك ، أرسلتك الى العالم الآخر ليلة أمس ، لالذنب قط ، فماذا كانت النتيجة يمكن أن تكون ؟

فأجاب غريغوري في صوت هادىء بعد برهة تفكير :

ـ كان في ذلك الخلاص .

وأضاف قائلاً ، لنفسه أكثر مما للآخرين :

ـ في وضح النهار ، يشق على المرء مواجهة موته . أمّا حينما يكون نائماً ، فلا بد أنه أمر يسير...

١٥

ذات ليلة في أواخر نيسان ، عبروا الدون في قارب . وكان في انتظارهم على الضفة خارج روبزني قوزاقي شاب يدعى ألكساندر كوشيليف ، من قرية نيزنه ـ كريفسكايا .

قال الشاب فيما كان يحييّ فومين :

ـ أنا ذاهب معكم ، يا ياكوف يفيموفتش . لقد سئمت هذه الحياة التي أقضيها في القرية .

فلكز فومين غريغوري وهمس له :

ـ أرأيت ؟ قلت لك ذلك . ها نحن لم نكد نبتعد عن الجزيرة حتّى شرع الناس... . هاهم أولاء! إنه أحد معارفي قوزاقي محارب! هذه بشارة خير . ستبدأ الأمور بالحركة!

كان فومين يبتسم في رضى ، كما نمّ عن ذلك صوته . وكان سروره جليّاً بمقدم رفيق جديد لهم . قد عمل نجاحهم في عبور النهر وواقع التحاق رجل آخر بهم على الفور عمل على رفع معنويّاته وإطلاق آمال جدّية على أجنحة من التفاؤل .

وقال في نغمة راضية ، وهو يفحص ويتحسس عدة كوشيلوف وسط الظلام :

ـ اذن ، فبالإضافة الى البندقية والمسدّس ، لديك سيف ومنظار ميدان ؟ دونك قوزاقياً! تستطيع أن ترى في الحال أنه قوزاقي حقيقي وليس هجيناً!

قدم ابن عم فومين على عربة يجرها حصان صغير جداً ، حتّى بلغ الضفة . وقال في صوت خفيض :

ـ ضعوا السروج في العربة ، واسرعوا بحق المسيح ، فالليل يعدو وأمامنا طريق طويل .

كان شديد الانفعال والقلق ، فلبث يستحث فومين على الاسراع . بيد أن فومين ، وقد ابتعد عن الجزيرة وأحسّ تحت قدميه بأرض قريته الثابتة ، ماكان ليحجم عن العروج الى بيته لقضاء ساعة أو نحوها فيه وزيارة بعض معارفه من أهل القرية...

قبيل الفجر ، انتقوا أفضل الخيل من مجموعة منها كانت على مقربة من قرية ياكودني ، وأسرجوها . وقال تشوماكوف للشيخ الذي كان يسوسها :

ـ لا تقلق على الخيل ، أيها الجد . إنها لاتستحق أن تذكر بكلمة طيبة ، ونحن لن نستخدمها إلا لمسافة قصيرة . وحالما نعثر على خيل أفضل منها سنرسلها ثانية الى أصحابها . إذا سألك شخص من أخذ الخيل ، قل له إنها ميليشيا من كروسنو كوتسكايا . وليذهب أصحابها الى هناك . إننا نطارد عصابة ، ويمكنك أن تقول لهم هذا .

حينما بلغوا الطريق الرئيسية ، ودّعوا ابن عم فومين ، ثم انحرفوا الى اليسار ، وانطلقوا ، خمستهم جميعاً ، في خبب سريع متخذين لهم اتجاهاً جنوبياً غربياً . كانت هناك شائعات تقول أنّ عصابة ماسلاك قد ظهرت على مقربة من قصبة مشكوفسكايا في غضون اليوم أو اليومين الماضيين . وفي ذلك الاتجاه سار فومين ، مصمّماً على الانضمام الى ماسلاك .

* * *

ظلّوا يحومون ثلاثة أيام ، بحثاً عن عصابة ماسلاك ، فوق مسالك السهب على الضفة اليمنى للدون ، متجنبين جميع القرى والقصبات الكبيرة . وفي القرى الأوكرانية الواقعة في أطراف أراضي قصبةكاركينسكايا ، استبدلوا دوابهم القمينة الهزيلة بخيول اوكرانية سريعة مربية .

في صباح اليوم الرابع ، وكانوا على مبعدة يسيرة من إحدى القرى ، لاحظ غريغوري ، قبل الآخرين ، طابوراً من الخيالة ماضياً عبر فتحة قصية مابين التلال . كان مايقل عن سريتين قادمتين ، فيما كانت في مقدّمة وأجنحة كل منهما مفارز استطلاع صغيرة .

فوضع فومين منظار الميدان على عينيه ، وقال :

ـ إمّا ماسلاك ، أو...

فقال تشوماكوف مزدرياً :

ـ إمّا مطر أو ثلج . إمّا هذا أو ذاك . ألق نظرة أفضل ، ياياكوف يفيموفتش ، لأنهم إذا كانوا حمراً وجب علينا أن نستدير على أعقابنا ، ونطير!

فتساءل فومين مغتاظاً :

ـ ولكن كيف يتسنّى لك ، بحق الشيطان ، أن تحكم وأنت على هذه المسافة ؟

فهتف ستيرليادنيكوف :

ـ انظروا! لقد رأونا . تلك دورية قادمة صوبنا .

كان على صواب ، فقد رأوهم . اذ استدارت الدورية الراكبة في جناح الطابور الأيمن ، وخبّت ناحيتهم . فأسرع فومين يدس منظاره في حقيبته على عجل ، بيد أن غريغوري مال من على سرجه ، وهو يبتسم ، وأمسك بلجام حصان فومين .

ـ لا تتعجّل! دعهم يقتربون . ليسوا سوى اثني عشر . سنلقي عليهم نظرة فاحصة ثمّ يمكنّنا أن ننطلق هذباً اذا دعت الضرورة . لدينا خيل ناشطة ، ممَ تخاف ؟ الق نظرة خلل منظارك .

ظل الفرسان الاثنا عشر يقتربون في ثبات ، وهم يزدادون كبراً شيئاً فشيئاً مع كل لحظة . وغدت هياكلهم بارزة الآن ازاء خلفية خضراء من أشجار باسقة تغطّي التل .

لبث غريغوري والآخرون معلقي الأبصار في فومين ، نافدي الصبر . كانت يداه ترتجفان قليلاً وهما ممسكتان بالمنظار وكان يحدّق بشدة بحيث انحدرت دمعة على خده المواجه للشمس . وأخيراً هتف في صوت غليظ :

ـ إنهم حمر! استطيع أن أرى النجوم على قبعاتهم!

وأدار حصانه .

انطلقوا يهذبون . ولعلعت ، بين حين وحين ، رصاصات من خلفهم ولبث غريغوري يهذب ، مسافة فرستين أو نحوهما ، محاذياً فومين ، متلفتاً الى الخلف بين الفينة والأخرى .

وقال ، مطلقاً ضحكة مزدرية :

ـ حسن ، لقد انضممنا إليهم حقاً!

ولكن فومين كان صامتاً كئيباً . وصاح تشوماكوف وهو يجر زمام حصانه جراً قليلاً :

ـ يجب أن نتحاشى القرى . لنتجه صوب سهب فيشينسكايا ، إنه أكثر توحّداً .

وما هي إلا بضعة فرستات أخرى في هذب جنوني كهذا ، وستنفق الخيل . كان عرق مزبد يغطّي أعناقها المشرئبة وظهرت طيّات عميقة في خواصرها .

فقال غريغوري في لهجة آمرة :

ـ يجب أن نبطىء! هيّا ، خفّفوا السرعة!

من بين الفرسان الاثني عشر ، لم يبق سوى تسعة : كان الآخرون قد تخلّوا عن المطاردة . وقاس غريغوري بعينيه المسافة التي تفصل مابينهم ، وهتف :

ـ قفوا! لنرمهم بصلية أو صليتين!

فأبطأ الخمسة خيلهم الى خبب ، ثمّ انحدروا الى الأرض ، ونزعوا بنادقهم من على أكتافهم .

ـ امسكوا بأعنتكم! سدّدوا بنادقكم على الرجل الراكب في أقصى اليسار . ارموا!

فأطلق كل منهم مشطاً من الرصاص ، وصرعوا حصاناً من تحت رجل من الحمر ، ثمَ استأنفوا الهرب من وجه المطاردة ، التي اعتراها الفتور . كانت الطلقات تأتي بين آونة وأخرى من مسافة بعيدة وراءهم ، وأخيراً تخلّى الجنود عن المطاردة كلّياً .

قال ستيرليادنيكوف ، مشيراً بسوطه الى بركة بدت في السهب ، من بعيد ، مثل رقعة زرقاء :

ـ يجب أن نسقي الخيل . هناك بركة .

وجعلوا الآن يمضون في مسيرة سريعة ، متفحصين باحتراس كل أخدود أو وهدة يمرّون بها ، محاولين التستّر في تعرجات السهب غير المستوية .

واداروا خيلهم وانطلقوا ثانية ،أولاً في سيرهين ، ثمّ في خبب . وعند الظهر توقّفوا لإطعام الخيل في اخدود عميق كان يمتد قاطعاً السهب . أمر فومين كوشيليف بالتسلّق ، على قدميه ، الى رابية قريبة حيث يستطيع الانبطاح والمراقبة . وكان عليه ، في حالة ظهور فرسان في أي نقطة من السهب ، أن يعطي إنذاراً وأن يهرع في الحال نحو الخيل .

عقل غريغوري حصانه ، وتركه ليرعى الكلأ ، واستلقى هو في موضع ، ليس ببعيد عن الحصان ، انتقاه يابساً على منحدر الأخدود .

هنا ، في الجانب المشمس من الأخدود ، كان العشب اليانع أطول وأكثف . لم تستطع الأنفاس الرقيقة للتربة السوداءالمستدفئة بحرارة الشمس أن تخنق العطر الأكثر رقة لأزهار بنفسج السهب الزاوية . كانت نامية على امتداد من أرض مراحة مهجورة ، تبزغ من بين سيقان يابسة لبرسيم أيل ، منتشرة في تشكيلة ثرة الألوان فوق حواف عارضة حقلية قديمة . وكانت عيونها الزرق الصافية ، كعيون الأطفال ، تطل على العام خلل عشب السنة الفائتة الذاوي ، حتّى على الأرض البكر الصلدة كحجر الصوّان . لقد عاشت زهور البنفسج ماكتب لها من الحياة في هذا السهب المتوحّد الفسيح . وفي محلها على منحدر الأخدود كانت أزهار خزامى ، رائعة اللمعان ، قد ارتفعت ، مشرئبة بكؤوسها القرمزية والبيضاء والصفراء نحو الشمس ، فيما كانت الريح تمزج عطور الأزهارالمتنوعة وتحملها بعيداً حدر السهب .

وعلى صخور المنحدر الشمالي القائمة ، كان الثلج لايزال ثمة ، ألواحاً مقطّعة ، تظلّله الحوافي وتنبعث منه الرطوبة . كانت برودة ترتفع من الثلج ، بيد أن هذه لم تكن الا لتستجلب عطر أزهار البنفسج الذاوية ، موهناً حزيناً ، مثل ذكرى شيء عزيز انقضى منذ زمان طويل .

استلقى غريغوري ممدَداً ساقيه ، مستنداً على مرفقيه ، وهو يتطلّع بعينين نهمتين ، الى السهب المغلّف بضبابة شمسية ، والى الروابي القائمة كالحرّاس ، تبدو لازوردية على امتداد حيد قصي ، والى السراب البراق

المنساب فوق أطراف السهب . أغمض عينيه لحظة ، فتناهت الى سمعه أناشيد القبرات القريبة والبعيدة ، وزنخرة الخيل الراعية ووقع حوافرها وجلجلة شكائمها ، وهمس الريح خلل العشب اليانع . فانتابه شعور غريب من الاستسلام والوداعة فيما ضغط جسمه على الأرض الخشنة . كان شعوراً قد ألفه منذ أمد بعيد . كان يخامره دائماً بعد أن يكون قد عانى تجربة مؤرقة ، وكان في هذه الأوقات يبدو وكأنه يرى الى كل الأشياء بمنظار جديد ، كأن سمعه يصبح أشد إرهافاً وبصره أكثر قوه . ويغدو ، غب حالات الانفعال هذه ، كلّ ما كان في السابق يمر دون أن يلاحظه ، مثيراً لاهتمامه .

وبالاستمتاع ذاته ، جعل يراقب صقر سنونو يطير طيراناً مائلاً ، صافراً ، وهو يطارد بعض الطيور الصغيرة ، والزحف البطيء لخنفساء سوداء كانت تشق طريقها ، بجهد جهيد ، بين مرفقيه ، والتأرجح الرقيق لزهرة خزامى حمراء بلون الدم ، تخفق في مهب الريح متألقة بجمالها البكر البرّاق . كانت زهرة الخزامى نامية على مقربة منه تماماً ، على حافة جحر متهدّم من جحور السولق . لم يكن يحتاج الى أكثر من مد يده لاقتطافها . غير أنه لبث متمدّداً دون أن يتحرّك ، وهو يتأمّل ، في انتشاء صامت ، الزهرة والأوراق المتصلبة التي كانت تحتفظ بين طيّاتها بقطرات من ندى الصباح ، تضمّها في حنو وغيرة ، ولبث وقتاً طويلاً ، يراقب ـ شارداً ـ نسراً يحوم في الأفق ، فوق مدينة ميتة من روابي السوالق .

بعد ذلك بحوالي ساعتين ، امتطوا خيولهم ثانية مزمعين بلوغ قرى منطقة يلانسكايا المألوفة قبل حلول الليل .

من المحتمل أن دورية الجيش الأحمر قد أبلغت الدوريّات الأخرى عن حركاتهم بواسطة الهاتف . فبينما كانوا متوجهين صوب مستوطن كامنكا ، استقبلهم إطلاق رصاص من موضع عبر أحد الجداول . فجعل أزيز الرصاص المتتابع فومين يميل جانباً . فانطلقوا هذباً ، تحت وطأة النيران ، ملتفّين حول مشارف المستوطن ، واتخذوا طريقهم ، مسرعين ، صوب مراعي الخيل في

منطقة فيشنسكايا . وبعد أن اجتازوا مستوطناً آخر ، حاولت قوة صغيرة من رجال الميليشيا أن تقطع عليهم الطريق . فقال فومين مقترحاً :

ـ سنجتازهم من ناحية اليسار .

الا أن غريغوري قال في تصميم :

ـ سنهاجمهم . إنهم تسعة فقط ونحن خمسة . سنخترقهم!

وأيّده تشوماكوف وستيرليادنيكوف .

فاستلّوا سيوفهم ، وحملوا خيلهم على الإنطلاق بأقصى سرعتها . ففتح رجال الميليشيا ناراً سريعة ، من غير أن يترجّلوا عن خيلهم ، ثمّ هذبوا جانباً متفادين الهجوم . فقال كوشيلوف متهكّماً :

ـ إنهم رهط هزيل! شاطرون في كتابة التقارير ، لكنّهم لايريدون الاشتباك في قتال جاد!

واتخذ فومين والاخرين وجهة الشرق في تراجعهم يردّون على نار رجال الميليشيا كلّما شرع هؤلاء في الضغط عليهم . كانوا لانذين بالفرارمثل ذئاب تطاردها كلاب البوروزوي ، لا يكرّون عن مطارديهم الا من حين الى حين ، ولا يكادون يتوقّفون . وحدث أثناء تبادل إطلاق نار ، ذات مرة ، أن أصيب ستيرليادنيكوف بجرح . اخترقت الرصاصة عضلة ساقه اليسرى ، ساحقة العظم . فندّت عنه أنّه ألم ، وقال شاحب الوجه :

ـ أصابوني في الساق... الساق نفسها ، ساقي العرجاء... أي خنازير هم ، ها ؟

فأطلق تشوماكوف ضحكة بأعلى صوته ، وهو يقذف نفسه الى الوراء . ولبث يضحك حتّى اغرورقت عيناه بالدموع . وكان لايزال يختض بالضحك حتّى حينما أعان ستيرليادنيكوف على تثبيته على حصانه .

ـ حسن ، كيف تسنّى لهم أن يختاروا هذه الساق ؟ لابد أنهم سدّدوا طلقاتهم اليها عمداً حين رأوا شخصاً أعرج يتقافز هنا وهناك حسبوا أن بمستطاعهم أن يصطادوك اذا أصابوا تلك الساق . أوه . ستيرليادنيكوف!أوه ،

سأموت من الضحك! ستكون ساقك أقصر من السابق بمقدار الربع . والآن ، كيف سيتسنّى لك أن ترقص ؟ سيتعيّن عليّ أن أحفر حفرة أعمق من تلك بقدمين لتناسب ساقك .

فقال ستيرليادنيكوف ، وهو يتلوّى من الألم :

ـ اخرس ، أيها البليد! ليس لدي وقت لك الآن! اخرس ، بحق المسيح!

وبعد ذلك بحوالي نصف ساعة ، وبينما كانوا ماضين حدر أخدود من الأخاديد التي لاحصر لها ، قال :

ـ لنتوقّف ونأخذ قسطاً قليلاً من الراحة... يجب أن أوقف النزيف ، فقد امتلأت جزمتي بالدم .

توقّفوا . أمسك غريغوري بالخيل... وظل فومين وكوشيليف يطلقان النار ، بين فترة وأخرى ، على رجال الميليشيا الذين كانوا يحومون على مبعدة . وساعد تشوماكوف ستيرليادنيكوف في خلع جزمته .

قال تشوماكوف ، عاقداً حاجبيه ، فيما كان يسكب السائل القرمزي من الجزمة على الأرض :

ـ لكنّك فقدت كميّة كبيرة من الدم ، لاجدال في ذلك!

همّ بشق بنطلون ستيرليادنيكوف الذي تنقّع بالدم وصار يفوح به ، لكن ستيرليادنيكوف لم يدعه يفعل ذلك . وقال :

ـ إنه بنطلون جيد ، فلا ضرورة لإتلافه .

وضع راحتيه على الأرض ورفع ساقه المصابة ، قائلاً :

ـ اسحبه ، ولكن برفق!

وتساءل تشوماكوف وهو ينبش في جيوبه :

ـ ألديك بعض الضماد ؟

ـ ولأي غرض احتاج الى الضمادات ، بحق الشيطان ؟ سأدبّر حالي بدونها .

ألقى نظرة فاحصة على الجراح ، ثمّ أخذ بأسنانه رصاصة من غلافها ،

وصبّ بارودها في راحته . ثمّ مزجه مزجاً قوياً بشيء من التراب بعد أن بلله ببصاقه . ثمّ جصص كلا ثقبي الجرح بهذا المرهم ، وقال في نغمة راضية :

ـ هذا علاج مجرّب . سيجف الجرح ويلتئم في غضون يومين أو نحوهما .

لم يتوقّفوا ثانية الا بعد أن بلغوا نهر تشير . أمّا رجال الميليشيا فقد ظلّوا في أعقابهم ، مبقين على مسافة مناسبة فيما بينهم ، لا يطلقون النار عليهم الا في فترات متقطّعة . وكان فومين كثيراً ما يلتفت الى الخلف ويقول :

. إنهم يحافظون على مسافة فيما بيننا بحيث لا نغيب عن أنظارهم... أم تراهم يتوقّعون مجيء تعزيزات ؟ إنهم لايبقون على هذه المسافة وراءنا بلا سبب قوي .

عبروا نهر تشير عند مخاضة بالقرب من إحدى القرى ومضوا في مسيرة هينة صعد منحدر أحد التلال . كان الإنهاك قد هدّ حيل الخيل . وأفلحت ، بشكل ما ، في النزول خبباً حدر التل ، ولكن الرجال اضطرّوا أن يقودوها من أعنّتها صعد التل التالي ، وجعلوا في غضون ذلك يمشّطون بقع الزبد المرتعشة من جوانبها وأكفالها .

كان قلق فومين في محله : فعلى مسافة خمسة فرستات أو نحوها من إحدى القرى تسلم زمام المطاردة سبعة رجال ممتطين خيلاً ناشطة سريعة الحركة .

فقال كوشيليف مكتئباً :

ـ اذا استمروا على تسليمنا من يد الى يد على هذا النحو ، قضي علينا .

مضوا عبر السهب ، متجاهلين المسالك ، ومتناوبين في إطلاق النار نحو مطارديهم . كان اثنان منهم ينبطحان على الأعشاب ويطلقان عليهم النار في حين يواصل الآخرون المضي فيقطعون زهاء خمسمائة ياردة ثمّ يترجلون عن خيلهم ويفتحون النار على العدو ، فيما يمتطي الاثنان الآخران حصانيهما ويقطعان ألف ياردة ثم ينبطحان ويستعدان لإطلاق النار . فقتلوا أو أصابوا

بجراح بالغة أحد رجال الميليشيا وصرعوا الحصان من تحت رجل آخر . وما لبث حصان تشوماكوف أن قتل من تحته فجعل يعدو الى جانب كوشيليف ، ممسكاً بالركاب .

استطالت الظلال . وغاصت الشمس في اتجاه الغرب . أشار غريغوري عليهم ألا يتفرّقوا ، فواصلوا مسيرتهم معاً في خطو بطيء . وظل تشوماكوف يمشي الى جانبهم . وماهي إلا فترة قصيرة غبّ ذلك حتّى وقعت أعينهم على عربة يجرّها حصانان عند حافة أحد التلال ، فيمّموا صوب الطريق . وما أن رآهم سائق العربة ، وكان قوزاقيّاً كهلاً ملتحياً ، حتّى هوى بالسوط على حصانيه يطلقهما في خبب . إلا أن الرصاصات التي انطلقت ناحيته أجبرته على التوقّف .

فحمحم كوشيليف خلل أسنانه :

ـ سأصرع هذا القذر بسيفي! سيتعلّم متى يهرب!

وانطلق يسبقهم وهو يلفح حصانه بالسوط لفحاً جنونيّاً . بيد أن فومين صاح به محذّراً :

ـ لاتلمسه ، ياساشا ، أنا أمنعك!

وهتف الى الكهل وهم لايزالون على مبعدة منه :

ـ حل حصانيك ، أيها الجد ، أتسمعني ؟ حلّهما مادمت حيّاً!

وقاموا بأنفسهم ، بحل الأعنة عن الحصانين ، دون أن يعيروا توسلات العجوز ودموعه أي اهتمام ، ورفعوا الزمام والطوقين من عليهما ، ثمّ أسرجوهما على عجل .

وتوسّل العجوز اليهم باكياً :

ـ اتركوا لي حصاناً على الأقل من خيلكم ، بالمقابل .

فقال له كوشيليف :

ـ أحرص على ألا تقلع لكمة لك أسنانك ، أيها الشيطان العجوز! إننا بحاجة الى الخيل . أشكر الله على أننا أبقينا على حياتك .

امتطى فومين وتشوماكوف الحصانين الجديدين . ولكن سرعان ماانضم ثلاثة فرسان آخرين الى الستة الذين كانوا يتعقّبونهم . فقال فومين :

ـ يجب أن نسبقهم بمسافة كبيرة! هيّا ، ياأولاد! اذا أفلحنا في الوصول الى أخاديد كريفسكي قبل حلول الليل ، نجونا .

ولفح حصانه بسوطه وانطلق هذباً أمامهم . ومن ناحيته اليسرى ، كان يقود حصاناً ثانياً بعنان قصير . ومن تحت سنابك الخيل كانت رؤوس أزهار الخزامى القرمزية تتطاير في جميع الاتجاهات مثل قطرات كبيرة من الدم . نظر غريغوري ، الذي كان ماضياً في أعقاب فومين ، الى هذا النثار القرمزي وأغمض عينيه ، ولسبب ما شعر بدوار ، وبالألم الحاد يعتصر قلبه .

كانت الخيل تعدو وهي على شفير الإنهاك التام . وقد أنهك الرجال أيضاً لفرط ركوبهم الموصول والجوع . كان ستيرليادنيكوف يتأرجح على سرجه ، وقد استحال وجهه أبيض كالكتّان . كان قد فقد كمّية كبيرة من دمه ، وكان يتألّم من شدّة العطش والغثيان .فأكل قطعة صغيرة من الخبز اليابس ، إلا أنّه سرعان ماالستفرغها .

في غبشة المغرب ، وعلى مسافة يسيرة من قرية كريفسكي ، اندسوا خلل مجموعة من الخيل كانت عائدة من السهب ، وأطلقوا بضع رصاصات أخيرة على مطارديهم ، وحينذا : أدركوا ، والفرح بداخلهم ، أن هؤلاء قد توقّفوا عن المطاردة . كان الفرسان التسعة قد تجمّعوا في البعيد ، ليتداولوا في الموقف ، ثمّ كرّوا راجعين .

* * *

أمضوا يومين في قرية كريفسكي ، في ضيافة أحد معارف فومين . كان رب الدار ميسور الحال فاستقبلهم استقبالاً حاراً . وضعت الخيل داخل مأوى معتّم ، وأطعمت شوفاناً أكثر مما تستطيع أكله ، وما أن انصرم اليوم التالي حتّى استعادت مافقدته خلال العدو الجنوني . وتناوب الرجال على حراسة

الخيل ، وناموا على أرضية مأوى للتبن ، لطيف البرودة ، مزيّن ببيوت العنكبوت ، وأكلوا حتّى الامتلاء ليعوّضوا عن أيّام شبه الجوع التي كانوا قد عرفوها في الجزيرة .

كان في مكنتهم أن يغادروا القرية في اليوم التالي ، بيد أن ستيرليادنيكوف أعاقهم . كان جرحه قد ساء حالاً . واصطبغت أطرافه بلون أحمر ناري ، وما أن حلّ المساء حتّى تورّمت ساقه وغاب عن وعيه . كان العطش يمضه . وكان طوال الليلة كلما عاد اليه وعيه طلب ماء وشرب منه في نهم . فشرب خلال تلك الليلة سطلاً ، تقريباً ، غير أنه لم يستطع أن ينهض حتّى بمساعدة الآخرين ، وكانت كل حركة تسبّب له ألماً فظيعاً . وكان يتبوّل دون أن ينهض ، ولبث يئن ويتوجّع بصورة متواصلة . ونقلوه الى ركن بعيد من أركان المأوى ، حتّى لايسمع أحد أنينه ولكن ذلك لم ينفع فقد كان أنينه ينبعث في بعض الأحيان ، عالياً جداً ، وحينما يفقد وعيه يهذي بصوت مرتفع .

واضطرّوا الى أن يتناوبوا على العناية به . كانوا يسقونه ماء ، ويبللون جبينه الملتهب ، ويغطّون فمه بأيديهم أو بطاقية رأس حينما يشرع بالأنين أو الهذيان بصوت مرتفع .

في نهاية اليوم الثاني ، عاد اليه وعيه وقال أن حالته قد تحسّنت . وسأل تشوماكوف وهو يشير اليه بإصبعه :

ـ متى سترحلون من هنا ؟

ـ الليلة .

ـ أنا راحل معكم أيضاً . لاتتركوني هنا ، بحب المسيح!

فقال فومين بصوت خافت :

ـ كيف يمكنك أن تذهب الى أي مكان ؟ أنت لاتستطيع حتّى الحراك .

ـ ألا أستطيع ؟ انظر!

وبجهد جهيد رفع نفسه نصف رفعة ، ثمّ هوى ثانية في الحال . والتهب وجهه وتفصّد جبينه حبّات صغيرة من العرق . قال تشوماكوف في لهجة عازمة :

ـ سنأخذك معنا . سنأخذك ، أرجوك لاتخف! وامسح دموعك ، فلست بامرأة!

فهمس ستيرليادنيكوف في هدوء :

ـ هذا عرق .

ونكس طاقيته على عينيه .

ـ سيكون من دواعي سرورنا أن نتركك هنا ، إلا أن رب الدار لن يوافق . لا تكتئب ، يا فاسيلي . سيلتئم جرح ساقك ، وسنتصارع ، أنت وأنا ، ثانية ونرقص رقصة القوزاق معاً . لماذا تيأس هذا اليأس ؟ هذا ، لو أن جرحك خطير... لكنّه لا شيء!

نطق تشوماكوف ، الفظ المتوحّش في معاملته مع الآخرين ، بهذه الكلمات في لهجة من الرقّة والاخلاص بحيث لم يستطع غريغوري الا أن يحدّق اليه مذهولاً .

غادروا القرية قبيل طلوع الفجر . استطاعوا ، ببذل شيء من الجهد ، أن يضعوا ستيرليادنيكوف على السرج ، بيد أنه لم يستطيع أن يثبت عليه ، فكان يميل الى هذا الجانب تارة والى الآخر تارة ثانية . فحاذاه تشوماكوف ولفّ ذراعه حول خصره .

فهمس فومين وهو يقترب من غريغوري ويهز رأسه متأسّفاً :

ـ يا له من حمل ثقيل! سيتوجّب علينا أن نتركه في مكان ما .

ـ أتعني أن نجهز عليه ؟

ـ طيب ، وماهو الحل الآخر ؟ نتفرّج عليه ؟ أين نذهب به ؟

مضوا في سير هيّن بعض الوقت دون كلام . ثمّ حلّ غريغوري محل تشوماكوف في اسناد ستيرليادنيكوف ، ثمّ حلّ كوشيليف مكانه .

ارتفعت الشمس . ومن تحتهم ، كانت الضبابة لاتزال تتدحرج فوق الدون ، أمّا على التلال فقد كانت أبعاد السهب واضحة جداً ، لامعة شديدة اللمعان ، وكانت قبة السماء تشتد زرقة ، مع كل لحظة تمر ، في حين

تجمّدت في السماء غمامات ريشية صغيرة . وكان العشب مغطّى بندى ثقيل ، مسجّى عليه مثل ديباج فضي ، ولكن حينما كانت الخيل تمر ارتسم فوقه مسلك داكن اللون منساب . ولم تكن سوى القبّرات تفسد السكون العظيم الجليل الذي غلّف السهب .

قال ستيرليادنيكوف بهدوء متطاوحاً مع حركة خطى الحصان مرنّحاً رأسه :

ـ أواه ، الأمر شاق!

فقاطعه فومين :

ـ اخرس! مداراتك أيضاً ليست سهلة علينا .

وعلى مسافة ليست ببعيدة عن طريق« هتمان » العام ، هبّ حباري من تحت حوافر الخيل ، فأيقظ حفيف الأجنحة ستيرليادنيكوف من شروده . فندّ عنه نداء متوسّل :

ـ اخواني ، أنزلوني من على الحصان .

فرفعه كوشيليف وتشوماكوف في اعتناء من على السرج ومدداه على العشب الرطب . وقال تشوماكوف ، مقرفصاً الى جانبه :

ـ دعنا نلقي نظره على ساقك . والآن ، فك أزرار بنطلونك!

كانت ساق ستيرليادنيكوف متورمة بشكل مريع ، وقد تمطّى الجلد بقوة بحيث لم يبقَ أي أثر للغضون عليه ، وملأت الساق المتورمة كل حيز البنطلون الواسع . كان الجلد ، حتّى ردفه ، مغطّى ببقع مخملية الملمس . كما ظهرت بقع مماثلة ، ولكنّها بلون أخف ، على بطنه السمراء الضامرة . وكانت تنبعث رائحة عفنة كريهة من الجروح ومن الدم ، بني اللون ، المتيبّس على بنطلونه . فشد تشوماكوف منخريه وعقد حاجبيه ، ولم يكد يستطيع كبح الغثيان الذي صعد الى بلعومة فيما كان يفحص ساق صديقه . ثمّ تطلّع الى أجفان ستيرليادنيكوف الزرقاء المسبلة ، وتبادل النظرات مع فومين وقال :

ـ يبدو كأن الأكلة شرعت تأكل الساق... أجل! إنك في وضع سيء ، يا فاسيلي ستيرليادنيكوف! وضع سيء جداً ، في الواقع! آه ، يافاسيا ، لماذا حدث هذا لك بالذات ؟

كان ستيرليادنيكوف يجر أنفاساً لاهثة سريعة ، ولم ينبس بكلمة . ترجّل فومين وغريغوري عن حصانيهما في وقت واحد ، وكأن إيعازاً قد صدر إليهما ، واقتربا من الرجل الجريح من الناحية المواجهة لمهب الريح . لبث ساكناً فترة من الزمن ، ثمّ جلس مسنداً نفسه بيديه ونظر اليهم بعينين محتقنتين بالدم ، صارمتين في استسلامهما .

ـ يا اخوتي ، سلموني للموت ، ، لم أعد روحاً حياً في هذه الدنيا أبداً ، أبداً... لقد أنهكت ، ولم يعد لديّ مزيد من القوة...

وتمدّد على ظهره وأغمض عينيه . كان فومين والآخرون يتوقعون مثل هذا الطلب . فغمز فومين لكوشيليف ، باقتضاب ، وأشاح بوجهه . فلم يعارض كوشيليف ، بل خطف البندقية من على كتفه ، وحزر ، أكثر مما سمع ، كلمة« أطلق! » من شفتي تشوماكوف الذي تنحّى جانباً . غير أن ستيرليادنيكوف فتح عينه ثانية ، وقال في لهجة ثابتة :

ـ أطلق النار هنا!...

ورفع يده وأشار بأصبعه الى جسر أنفه :

ـــ... لكي ينطفئ الضياء في الحال... اذا صادف أن ذهبتم الى قريتي ، اخبروا زوجتي كيف حدث الأمر... أخبروها ألا تنتظرني .

وبدا كوشيليف أنه يعالج ترباس بندقيته وقتاً طويلاً بشكل مثير للشك ، فتسنّى لستيرليادنيكوف أن يضيف قائلاً ، وهو يسبل أجفانه :

ـ ليس لديّ سوى الزوجة... لاأطفال... ولدت طفلاً ، لكنّه ولد ميتاً... ولم تلد غيره .

مرتين رفع كوشيليف البندقية وأنزلها ثانية ، ووجهه يزداد شحوباً . فدفعه تشوماكوف ، محتدم الغيظ ، بكتفه وانتزع البندقية من يديه . وصرخ

في صوت مبحوح : «اذا كنت لاتستطيع ذلك ، فلا تأخذ المهمة على عاتقك ، أيها الجرو! » . وخلع طاقيته ومسّد شعره .

فصاح فومين مستحثاً ، وهو يضع قدمه في الركاب : « أسرع » .

فقال تشوماكوف ببطء وهدوء ، وهو يشهق بالكلمات التي أراد قولها :

ـ يافاسيلي ، وداعاً ، واغفر لي وأغفر لنا جميعاً ، بحب المسيح! سنلتقي ثانية في الآخرة ، وهناك سيحكمون علينا... سنخبر زوجتك بما طلبت .

ولبث تشوماكوف ينتظر جواباً بيد أن ستيرليادنيكوف كان صامتاً ، وكان وجهه يزداد شحوباً فيما كان ينتظر مصرعه . ولم تكن سوى أهدابه الكالحة من أثر الشمس تخفق ، وكأنها في مهب الريح ، وأصابع يده اليسرى تتحرّك في هدوء وكأنه كان يحاول ، لسبب ما ، أن يزرّر قمصلته .

لقد رأت عينا غريغوري عدداً كبيراً من حالات الموت ، إلا أنه لم يقف ليشهد موت ستيرليادنيكوف . أسرع يبتعد ، جاراً حصانه من زمامه جراً عنيفاً . ولبث ينتظر الطلقة بذات الاحساس الذي كان سيشعر به لو أنّ الرصاصة كانت تستهدف رأسه هو . لبث ينتظر الطلقة ، وقلبه يعد كل ثانية تمر . وحينما انطلقت القرقعة الحادة المفاجئة من خلفه ، تراخت ركبتاه من تحته ، وكاد ألا يستطيع كبح جماح حصانه المتراجع .

ظلّوا زهاء ساعتين ماضين على خيلهم يغلفهم الصمت . وحينما توقّفوا ، كان تشوماكوف أوّل من قطع حبل الصمت . قال بصوت أجش وهو يغطّي عينيه براحته :

ـ لماذا أطلقت الرصاص عليه ، بحق الشيطان ؟ كان علينا أن نتركه في السهب لا أن أحمّل روحي وزر خطيئة . أستطيع أن اراه الآن ماثلاً أمام عيني...

فتساءل فومين :

ـ ألن تعتاد على ذلك ، أبداً ؟ مع كل الرجال الذين صرعت ، لازلت غير قادر على الاعتياد ؟ قلبك ليس بالقلب ، بل كتلة من الحديد الصدىء... .

فشحب وجه تشوماكوف ، وحدّج فومين بنظرة هائجة . وقال في لهجة هادئة :

ـ لا تتحرّش بي الآن ، ياياكوف يفيموفتش! لا تستفزّني ، وإلا فسأزهق روحك . أجل ، حتّى أنت . وبمنتهى السهولة ، أيضاً!

فقال فومين بلهجة مراضاة :

ـ ولماذا عليَّ أن أتحرّش بك ؟ لديّ الكفاية من المتاعب بدونك!

واستلقى على ظهره ، مضيّقاً عينيه تحت أشعة الشمس وممدداً جسمه في دعه وارتياح .

١٦

على عكس ماتوقّعه غريغوري ، انضم خلال الأيام العشرة التالية أكثر من أربعين قوزاقياً الى عصابة فومين . كانوا عبارة عن بقايا عصابات صغيرة شتّى تفرّقت تحت ضربات القوّات الحمراء . كانوا قد فقدوا زعماءهم فجعلوا يتسكّعون في أرجاء الاقليم بلا هدف ، ولهذا انضمّوا الى فومين طواعية وبكل سرور . لم يكن يهمّهم مع من يخدمون ومن يقتلون ، طالما كان في مكنتهم أن يحيوا حياة بدوية طلقة ويسلبوا جميع من يقع في براثنهم . كانوا زمرة من الشقاة . وذات يوم قال فومين لغريغوري فيما كان ينظر اليهم :

ـ حسن ، يا ميليخوف ، الذين انضمّوا الينا حثالة لا رجال . مجرمون يستحقّون الشنق ، منتقون بصورة خاصة لحبل المشنقة!

على أن فومين كان لايزال ، في صميم قلبه ، يعتبر نفسه مناضلاً في سبيل الشعب الكادح ، وكان لايزال يقول ، وإن كان ذلك في المناسبات أقل من السابق :

ـ نحن محرّرو القوزاق .

وظل يرفض ، بعناد ، التخلّي عن أكثر الآمال استحالة . وشرع من جديد يغض الطرف عن عمليات السلب والنهب التي كان يرتكبها رفقاؤه في السلاح ، معتبراً ذلك كلّه شراً لابد منه ويتعيّن عليه قبوله ، وأنّه بمرور

الزمن ، سيخلّص نفسه من السلابين ، ويغدو إن آجلاً أو عاجلاً ، قائداً حقيقيّاً لقوّات المتمردين وليس أتماناً لعصابة صغيرة بائسة من قطّاع الطرق .

غير أن تشوماكوف لم يتردّد قط في إطلاق صفة« قطّاع الطرق » على جميع رجال فومين ، وكان يجادل ، حتّى بح صوته ، محاولاً إقناع فومين بأن فومين ، نفسه ، لم يكن سوى قاطع طريق على نطاق أوسع . وحينما كانا ينفردان ، كانت المناقشات الحادة كثيراً ماتحتدم بينهما . كان فومين يصرخ ، ووجهه يزرق غضباً :

ـ أنا مناضل عقائدي ضد الحكم السوفياتي! وأنت تطلق علي من الصفات مالا يعرف إلا الشيطان! ألا تدرك ، أيها الأحمق ، أنني مناضل من أجل عقيدة ؟

فيجيبه تشوماكوف :

ـ لا تحاول أن تستغفلني! لا تحاول أن تذر الرماد في عيني! لست بالطفل! عقائدي ، أف! إنك قاطع طريق بالفطرة ، لاأكثر! ولماذا تخشى هذه الكلمة هكذا ؟ أنا لا أهتم بها قط .

ـ لأنّها كلمة مهينة ، يا حثالة قذر اللسان! لقد انتفضت ضد الحكومة ، ورفعت السلاح في وجهها . وهذا لن يجعل منّي قاطع طريق .

ـ هذا ، بالضبط ، ما يجعل منك قاطع طريق ، لأنك تحارب ضد الحكومة . قطّاع الطرق كانوا ضد الحكومات دائماً ، منذ بدء الأزل . مهما كانت صفة الحكومة السوفييتية فهي حكومة ، وهي قائمة منذ سنة ١٩١٧ ، وكل من يعمل ضدها قاطع طريق .

ـ يا لدماغك! وماذا عن الجنرال كراسنوف ، أو دنيكين ؟ هل كانا قاطعي طريق أيضاً ؟

ـ طيّب ، ما الذي كانا اذن ؟ كانا قاطعي طريق ، سوى أنهما كانا يحملان شارات على الكتف . وليست الشارات على جانب كبير من الأهمية . أنا وأنت نستطيع أن نضعها على أكتافنا...

فهوى فومين بقبضته على المائدة ، وبصق ، وحينما لم يستطع أن يقدّم أي حجج مقنعة ، قطع حبل النقاش غير المجدي . لم يكن ثمة فائدة ترتجى من النقاش مع تشوماكوف .

كان غالبية الذين انضموا الى العصابة مجهّزين بملابس وأسلحة تجهيزاً ممتازاً . وكان لدى جميعهم تقريباً خيول جيدة معتادة على قطع المسيرات الطويلة وقادرة على قطع مائة فرست في اليوم ، في يسر . وكان لبعضهم حصانان : واحد للركوب والآخر لقيادته الى جانبه . واذا دعت الضرورة ، كان في مكنة الراكب أن يقطع حوالي مائتي فرست في اليوم ، وذلك عن طريق استبدال حصان بآخر ، متيحاً فرصة للراحة لكل منهما بالتناوب .

ذات يوم قال فومين لغريغوري :

ـ لو كان لكل منّا حصانان في البداية ، لما استطاعت كل الأبالسة أن تصطادنا . ليس مسموحاً للميليشيا أو لرجال الجيش الأحمر الاستيلاء على خيل الناس ، وهم أنفسهم يتحيّرون من فعل ذلك . أمّا نحن ، فنستطيع أن نفعل مانشاء . يجب أن نحصل على حصان احتياطي لكل رجل من رجالنا ، وآنذاك لن يستطيعوا اصطيادنا قط . يقول الشيوخ أن التتار كانوا يشنّون غاراتهم بهذه الطريقة ، كل بحصانين ، وأحياناً بثلاثة منها . من يقدر أن يصطاد راكباً كهذا! ونحن ، علينا أن نفعل الشيء نفسه . إن هذه الحكمة التتارية تستهويني بقوة .

وسرعان مااستولوا على مزيد من الخيل ، ومرت فترة غدا تعقّبهم ، أمراً متعذراً بالفعل . كانت الميليشيا الراكبة ، التي كانت قد شُكّلت حديثاً في فيشنسكايا ، تحاول عبثاً اللحاق بهم . لقد مكّنت الخيول الاحتياطية قوة فومين الصغيرة عدديّاً من سبق العدو بمسافات طويلة ، متفادين بذلك أي صدام خطر معها .

ومع ذلك ، ففي أواسط أيّار ، أفلحت قوّة يبلغ تعدادها أربعة أضعاف العصابة في حصر وحدة فومين إزاء الدون في موضع ليس ببعيد عن قرية

بوبروفسكي في منطقة أوست ـ خوبرسكايا . إلا أن العصابة استطاعت ، بعد قتال قصير ، أن تنفذ خلل الحصار وتتراجع بمحاذاة ضفة النهر ، خاسرة ثمانية رجال مابين قتيل وجريح . وفي أعقاب هذه المعركة بفترة قصيرة ، طلب فومين من غريغوري أن يتسلّم منصب رئيس هيئة الأركان .

ـ أنا بحاجة الى شخص مثقف ، لكي نستطيع اجراء تحرّكاتنا وفقاً لخطّة ، وخريطة ، وإلا فقد يحاصروننا ثانية ، ذات يوم ، ويزعزعون صفوفنا من جديد . تسلّم هذا المنصب ، ياغريغوري بانتلاييفتش .

فأجاب غريغوري في لهجة نكدة :

ـ أنت لا تحتاج الى هيئة أركان لاصطياد رجال الميليشيا أو قطع رؤوسهم .

ـ يجب أن تكون لكل وحدة هيئة أركانها . لا تهرف بالكلام!

ـ اعط المنصب لتشوماكوف اذا كنت لا تستطيع الحياة بدون هيئة أركان .

ـ ولكن ، لماذا لاتريده أنت ؟

ـ ليست لديّ أية فكرة عمّا يعنيه هذا المنصب .

ـ وهل لتشوماكوف مثل هذه الفكرة ؟

ـ كلاّ ، ليست لديه ، هو الآخر .

ـ اذن ، فلماذا تقترحه ، بحق جهنّم ؟ أنت ضابط ، ولابد أن يكون لديك مفهوم ، تكتيك ومعرفة مختلف الاشياء الاخرى .

فقال غريغوري في لهجة لوذعية :

ـ كنت ضابطاً بقدر ما أنت آمر وحدة الآن . ولا يهمّنا سوى تكتيك واحد : أن نحوم في السهب وأن نبقي عيوننا مفتوحة .

فخزر فومين غريغوري وقال متوعّداً بأصبعه :

ـ أستطيع أن أرى كل مافي داخلك! تحاول دائماً أن تبقى في الظل ، ها ؟ تريد أن تبتعد عن الأضواء ؟ لن ينقذك هذا ، أيها الأخ! سيّان أن تكون آمر

رعيل أو رئيساً لهيئة أركان . أتحسب أنهم سيعطونك« تنزيلات » اذا ظفروا بك ؟ حسبك أن تنتظر لترى!

فقال غريغوري ، مسمّراً عينيه على عقدة مقبض سيفه :

ـ ليس فكري منصرفاً الى ذلك قط . أنت مخطىء لكنني لا أريد أن أتسلّم عملاً لا أعرف عنه شيئاً .

فقال فومين ، ثائر الأعصاب :

ـ طيّب ، اذا كنت لاترغب ، فليس هناك مايلزمك . سندبّر أمورنا بصورة من الصور بدونك .

كانت الأحوال قد تغيّرت في الاقليم تغيّراً كلّياً ، فبوّابات القوزاق الموسرين التي كانت تفتح على مصاريعها لاستقبال فومين واستضافته ، غدت الآن موصدة في وجهه ، وحينما كانت العصابة تصل الى قرية كان أرباب تلك البيوت يتفرّقون في البساتين والحدائق ليختبؤا فيها . كانت أحكام المحكمة العرفية الثورية ، التي كانت قد وصلت الى فيشنسكايا ، صارمة بحق عدد كبير من القوزاق ممن كانوا قد استضافوا فومين في السابق . وسرت أخبار تلك الأحكام في أرجاء المناطق بسرعة ، فتركت في الحال أثرها على أولئك الذين كانوا قد عبّروا بصراحة في السابق عن موقفهم الودّي تجاه العصابات .

قام فومين بجولة خلال جميع مناطق الدون الأعلى استغرقت أسبوعين . وأصبح تعداد العصابة الآن مايناهز مائة وثلاثين من حاملي السيوف ، ولم تعد تطاردها ثلة من الفرسان جرى تجميعها على عجل بل عدة سرايا من كتيبة الخيّالة الثالثة عشرة ، التي كانت قد نُقلت من الجبهة الجنوبية .

كان العديد من الذين انضمّوا الى فومين مؤخراً قد قدموا من مناطق نائية . وقد وجدوا طريقهم الى الدون سالكين دروباً ملتوية . كان بعضهم قد فرّ ، منفرداً ، من مجموعات السجناء ، أو من السجون ، أو من معسكرات الأسرى . غير أن غالبيتهم كانت تتألف من جماعة تعد بضع عشرات من الخيالة كانت قد انفصلت عن ماسلاك ، وكذلك من بقايا عصابة كوروتشكين

المتشتتة . ولم يعارض رجال ماسلاك في تفريقهم وتوزيعهم على الرعائل المختلفة ، إلا أن رجال كوروتشكين لم يقبلوا بتشتيتهم ، بل كونوا رعيلاً منفصلاً بصورة تامة ، متكتلين ومنعزلين ، الى حدّ ما ، عن بقية أفراد العصابة . كانوا ينتظمون في مجموعة واحدة ، سواء أثناء المعارك أو عند العسكرة في الخلاء ، وإذا مانهبوا حانوتاً تعاونياً أو مستودعاً كانوا يفرّغون جميع الغنائم في الصندوق المشترك للرعيل ثم يوزّعونها بالتساوي ، مع التقيّد الحرفي بمبدأ المساواة .

وبانضمام عدد من قوزاق« التيريك » و« الكوبان » بستراتهم الشركسية الخلقة ، الى عصابة فومين ، وكذلك« كالميكيين » و« لاتفي » ، يحتذي جزمة صيد عالية تصعد الى فخذيه ، وخمسة بحارة فوضويين يرتدون صديريات مخطّطة ويحملون أكياس البحارة الكالحة ، غدت العصابة خليطاً ذا ألوان أشد تنافراً من السابق .

وذات يوم ، سأل تشوماكوف فومين ، مشيراً بعينيه الى الطابور المتنافر :

ـ حسن ، ألا تزال تصرّ على أنك لست آمراً لمجموعة من قطّاع الطرق ، ماذا تسمّي هؤلاء اذن ؟ مناضلين من أجل المبادىء ؟ لا يعوزنا الا قسيس بدون جبة وبضعة خنازير بالبنطلونات ، وآنذاك ستكون لدينا مجموعة كاملة من القديسيين المباركين!

فتجاهل فومين هذا التعليق ، كان همه الأوحد أن يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الرجال . لم يكن يأخذ أيما شيء بعين الاعتبار قبل قبول المتطوعين . كان هو الذي يقوم باستجواب كل رجل يفصح عن رغبته للخدمة تحت أمرته ، فكان يقول باقتضاب :

ـ أنت لائق . سنأخذك . اذهب الى رئيس هيئة أركاني ، تشوماكوف . سينسبك الى أحد الرعائل ويعطيك الأسلحة .

وحدث في إحدى قرى منطقة ميكو لينسكايا أن جيء الى فومين بفتى

حسن الهندام ، مجعّد الشعر ، أسمر البشرة . فأعلن عن رغبته في الإنضمام الى العصابة . ولدى استجوابه ، علم فومين أنه كان من أهالي روستوف ، وأنه كان قد صدر عليه حكم مؤخراً لإرتكابه جريمة السرقة مع استعمال السلاح ، غير أنه استطاع أن يهرب من سجن روستوف ، وحينما سمع بفومين اتخذ طريقه صوب منطقة الدون الأعلى .

سأله فومين :

ـ من أي عنصر أنت ؟ أرمني أم بلغاري ؟

فأجاب الصبي وقد بدا عليه بعض الحرج :

ـ أنا يهودي .

فالتجم لسان فومين أمام هذا الاقرار المذهل ، ولبث صامتاً بعضاً من الوقت . لم يعرف ماذا عليه أن يفعل في مثل هذه الحالة غير المتوقعة .

تمعّن في الأمر قليلاً ، ثمّ أطلق زفرة عميقة وقال :

ـ طيّب ، اذا كنت يهودياً فأنت يهودي . إننا لا نشمخ بأنوفنا حتى على هذه الأشياء . الذي يعنينا هو زيادة رجل آخر . ولكن ، هل تستطيع ركوب الخيل ؟ كلا ، ستتعلّم . سنعطيك فرساً صغيرة كل الصغر لتبدأ بها ، ثمّ ستتعلّم . اذهب الى تشوماكوف ، وسينسّبك الى رعيلك .

بعد ذلك ببضع دقائق ، قدم تشوماكوف منطلقاً على حصانه ، وصاح في صوت هائج وهو يجر زمام حصانه :

ـ أنت مجنون أم لعلّك تمزح ؟ فيم ، بحق الشيطان ، أرسلت إلي بيهودي ؟ لن أقبله! ليذهب الى أركان الأرض الأربعة!

فقال فومين بهدوء :

ـ خذه ، خذه ، سنزداد به واحداً!

إلا أن تشوماكوف أرغى وأزبد ، وزمجر قائلاً :

ـ لن آخذه! سأقتله ، لكن لن آخذه! إن القوزاق سيثيرون عراكاً بسبب ذلك . اذهب أنت وتحدّث اليهم بنفسك .

وبينما كانا يتصايحان ويتشاتمان أمسك القوزاق بالفتى اليهودي وشرعوا يجرّدونه من قميصه المطرّز وبنطلونه القماشي . وقال أحد القوزاق وهو يجرّب القميص عليه :

ـ أترى تلك الأجمة العتيقة هناك ، وراء القرية ؟ اركض اليها خبباً وانبطح . ستظل منبطحاً هناك الى أن نغادر هذا المكان ، وحينما نبتعد تستطيع أن تنهض وتذهب حيثما يحلو لك . إياك أن تقترب منّا ثانية والا فسنقتلك . يحسن بك أن تعود الى روستوف ،الى ماماتك! ليس القتال من شأنك كيهودي . لقد علمكم الباري عزّ وجلّ أن تتاجروا ، لاأن تحاربوا . إننا نستطيع تدبير هذه الشغلة بدونكم!

لم يقبل اليهودي . إلا أن القوزاق ، في اليوم نفسه ، ألحقوا بالرعيل الثاني وسط هدير من الضحك أبله يدعى باشا معروفاً في جميع قرى المنطقة . قبضوا عليه في السهب ، وجيء به الى القرية ، وألبس بزة كانت قد نزعت من جندي قتيل من جنود الجيش الأحمر . وعلّمه القوزاق كيفية استعمال البندقية وقضوا وقتاً طويلاً في تعليمه كيفية الضرب بالسيف .

كان غريغوري في طريقه الى حصانيه المربوطين عند عمود المرابط ، ولكن حين لاحظ الحشد المتجمّع ، عرج عليهم ليرى ماكان يحدث . وحينما انطلق هدير من الضحكات ، أسرع خطاه ، ثمّ تناهى الى سمعه ، خلل السكون المفاجىء الذي أعقب موجة الضحك ، صوت أحدهم يقول في لهجة رصينة تنبيهية :

ـ كلاّ ، ليس هكذا ، ياباشا! من يستعمل سيفه على هذا النحو ؟ تستطيع أن تقطع الخشب بهذه الطريقة ، لارأس انسان . يجب أن تفعل هكذا ، أترى ؟ حينما تظفر به ، أصدر اليه أمراً بالركوع على ركبتيه ، والا فستجد صعوبة في ضربه بالسيف وهو واقف... حاول ألا تنفذ الضربة الى الداخل ، بل أن تشق بسيفك جرحاً مائلاً...

كان المعتوه واقفاً وقفة استعداد ، يحيط به أفراد العصابة ، ممسكاً بقوة

بمقبض سيفه المسلول . استمع الى الارشادات وهو يبتسم ويضيّق عينيه الرماديتين الجاحظتين ، في حالة تنم عن منتهى السعادة ، وزاويتا فمه تقطران ، كالحصان ، فتاتاً مزبداً من الطعام ، واللعاب يسيل غزيراً على لحيته النحاسية ومنها على صدره ، لعق شفتيه القذرتين وقال لاثغاً :

ـ فهمته كله ، يا عزيزي... سأفعل كما تقول بالضبط... اجعل عبد الله يركع على ركبتيه واقطع رقبته قطعاً . لقد أعطيتموني بنطلوناً وقميصاً وجزمة . سوى أنني لا أملك سترة ، وآنذاك سأفعل مايسرّكم! سأحاول ذلك بكل قوّتي!

فقال أحد القوزاق مقترحاً :

ـ اقتل قوميساراً ، وآنذاك ستحصل على سترة . ولكن ، هلا أخبرتنا كيف تزوّجت في العام الماضي ؟

فومض رعب حيواني في عيني المعتوه الجاحظتين العكرتين . وأطلق سيلاً من السباب ،ثم شرع يقص قصة وسط هدير من الضحك . كان المنظر منفراً الى حد جعل غريغوري يرتعد ويسرع في الإبتعاد عنهم . وقال في سريرته ، وهو يستشعر كراهية مريرة لنفسه وللحياة القذرة التي كان يحياها :

ـ وبزمرة هؤلاء ، ربطت مصيري!

استلقى على الأرض الى جانب مرابط الخيل ، محاولاً أن يصم أذنيه عن سماع صيحات المعتوه وضحكات القوزاق المرعدة ، وحدّث نفسه ، وهو ينظر الى حصانيه الممرعين ويلاحظ حالتهما الممتازة :

ـ سأرحل غداً ، لقد آن الآوان!

وشرع يعدّ العدة ، في حذر وإمعان ، لترك العصابة . كان قد انتزع وثائق باسم أوشاكوف من قتيل من رجال الميليشيا وخاطها في بطانة معطفه الثقيل . وكان في غضون الاسبوعين الفائتين يعدّ حصانيه للهذب السريع القصير . كان يوردهما الماء في مواعيد منتظمة ، ويعتني بهما باهتمام أكثر حتّى من عنايته السابقة بخيله العسكرية ، ويحصل لهما على الحبوب أثناء الليل ، بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة . وبدا حصاناه في حال أفضل من حال بقية الخيل

كلّها . وغدا اهابهما الأملس يشع في الشمس مثل فضة قفقاسية مطعمة بالثل .

كان بإمكانه أن يثق بقدرته على النجاة من أية مطاردة ، ومثل هذين الحصانين في حوزته . قام ومضى الى كوخ قريب . وبلهجة مؤدَبة قال لعجوز كانت جالسة على عتبة مخزن للغلال :

ـ ألديك منجل ، ياجدتي ؟

ـ كان لدينا منجل ، فعلاً ، في مكان ما ، ولكن يعلم الله أين هو الآن . لأي غرض تريده ؟

ـ أردت أن أقطع به أكلاً أخضر لحصاني من حديقتك ، هل تسمحين لي ؟

ـ ففكرت العجوز ثم قالت :

ـ متى ستنزلون من أعناقنا ؟ لاشيء سوى أعطونا هذا وأعطونا ذاك . زمرة تأتي طالبة الحبوب ، وأخرى تأتي لتنتزع كل ماتقع عليه عينها . لن أعطيك المنجل!

ـــ عجباً ، ألا تستطيعين أن تتنازلي عن شيء من الحشائش أيتها العجوز ؟

ـ أتحسب أن مزيداً من الحشائش سينمو في البقاع الجرداء ؟ ما الذي سأطعم به البقرة ؟

ـ أليست هناك أية حشائش في السهب ؟

ـ حسن اذن ، اذهب الى السهب واقطعها ، يانسري العزيز! هناك الكثير منها في السهب .

فقال غريغوري مغتاظاً :

ـ يحسن بك أن تدعيني آخذ المنجل ، ياجدة . سأقطع قليلاً من الحشائش ويمكنك أن تأخذي بقيّتها . أمّا إذا أطلقنا خيلنا في الحديقة فستأخذها كلها .

فصوبت العجوز الى غريغوري نظرة قاسية ، ثمّ أشاحت بوجهها عنه :

ـ اذهب وخذه بنفسك . لابد أنه معلّق في المأوى .

عثر غريغوري على منجل عتيق مكسور في المأوى . وحينما كان يمر بالعجوز ، التقطت أذنه همهمتها بوضوح :

ـ لا ، نازلة تنزل على رؤوسكم ، لعنة الله عليكم .

كان ذلك شيئاً اعتاد عليه . فقد مضى أجل طويل مذ عرف موقف القوزاق من العصابة . وقال في سريرته"« وهم على حق » فيما كان يحش الحشائش بالمنجل ، محاولاً أن يكون حشه نظيفاً لا يترك حوافي دون حش .« فيم ، بحق الشيطان ، حاجتهم إلينا ؟ لا يحتاج الينا أحد . إننا نعيق الجميع عن العيش والعمل بسلام ، يجب أن يوضع حد لهذا ، ولقد آن الآوان لذلك! »

وقف الى جانب الحصانين ، وهو مستغرق في أفكاره ، يراقبهما يلتقطان ، في شهية قوية ، لمات الحشيش اليانع الطري بشفاههما المخملية السوداء . أيقظه من تأملاته صوت فتي عميق :

ـ ياله من حصان بديع! إنه بجعة حقيقية!

فنظر غريغوري باتجاه المتكلّم . كان قوزاقياً شاباً ، لم يكن قد التحق بالعصابة إلا مؤخراً ، يتفرّس في حصان غريغوري الأشهب ويهز رأسه مسروراً . دار حول الحصان عدة دورات وهو يتطلّع اليه في اعجاب ويطق لسانه . وتساءل :

ـ أهو حصانك ؟

ـ فردّ غريغوري بفظاظة :

ـ لماذا ؟ لماذا تريد أن تعرف ؟

ـ دعنا نتبادل! لدي كميت من أصائل الدون النقية . يستطيع أن يجتاز أية عقبة ، وهو جريء . إنك لن تصدّق كم هو جريء! إنه مثل البرق .

فقال غريغوري ببرود :

ـ اذهب الى الشيطان!

فخلد الفتى الى الصمت دقيقة أو دقيقتين ، ثمّ أطلق زفرة مرّة واقتعد الأرض على مسافة قريبة . لبث يحدّق الى الأشهب مدة طويلة ، ثمّ قال :

ـ أتعرف أن به ضيق نفس!

غير أن غريغوري جعل يلوك قشة بين أسنانه في صمت . وبدأ يستشعر ميلاً نحو هذا الفتى الغرّ .

وتساءل الصبي في لهجة هادئة ، وهو ينظر الى غريغوري بعينين متوسلتين :

ـ ألن تقايض ، أيها العم ؟

ـ كلا ، لن أقايض حتى لو أضفت نفسك الى حصانك .

ـ ولكن ، أين حصلت عليه ؟

ـ اخترعته بنفسي .

ـ أوه ، بلا مزاح ، قل الصدق!

ـ بالطريقة الاعتيادية : ولدته فرس!

فقال الفتى في نغمة مستاءة :

ـ لا جدوى من الكلام مع مثل هذا الأحمق .

وانصرف .

ترامت القرية أمام ناظري غريغوري خالية ، كأنها مسلوبة الحياة . لم يقع بصره على انسان ، خلا رجال فومين . كانت ثمة عربة مهجورة في زقاق ، وخشبة تقطيع في أحد الأفنية وفأس أغرزت في الخشبة على عجل ، ولوح كشط بعضه ، وثيران مرسونه تكلأ ، في استرخاء ، العشب النجيل في وسط الشارع ، وسطل مقلوب الى جانب محور البئر... كانت كل تلك الأشياء تفصح عن أن حياة القرية الهادئة قد أخل بها على نحو غير متوقع ، وأن القرويين قد تركوا أعمالهم ناقصة وتواروا عن الأنظار من زمن .

كان غريغوري قد رأى اقفراراً مشابهاً وعلامات هروب عاجل كهذه حينما كانت كتائب القوزاق تزحف داخل بروسيا الشرقية . وها قد عاش لكي تقع عينه على هذه الأشياء في بلاده هو . لقد لقي العبوس ذاته ونظرات الحقد نفسها في استقبال الألمان لهم آنذاك ، وهاهو يعاني التجربة ثانية ولكن مع

قوزاق الدون الأعلى . وتذكّر حديثه مع المرأة العجوز ، فأجال نظرة أسيانه حوله وهو يفك زر ياقة قميصه . كان ذلك الألم اللين ينهش قلبه من جديد . كانت الشمس تحرق الأرض . وفي الزقاق ، علقت رائحة هامدة ، رائحة الغبار وعشب الأوز وعرق الخيل . وفي البساتين فوق أشجار الصفصاف الباسقة وقد تناثرت عليها عشش مهلهلة ، كانت الزيغان تنعب . وكان جدول صغير من جداول السهب ، تغذّيه ينابيع في مكان ما في قمة أخدود ، ينساب بطيئاً عبر القرية ، شاطرها شطرين . وعلى جانبيه ، كانت أفنية دور القوزاق الواسعة تنحدر صوب الماء تغطّيها بساتين كثيفة متراصة ، بأشجار الكرز مظللة شبابيك الأكواخ ، وأشجار التفّاح بأغصانها المتينة مادة نحو الشمس أوراقها الخضر وعناقيد فاكهتها اليانعة .

نظر غريغوري ، بعينين عكرتين ، صوب الفناء الذي تكاثف عليه الطلح الخشن ، والى الكوخ بأباجوراته الصفراء وسقفه المغطّى بالقش ، والى رافعة البئر العالية . كانت ثمة جمجمة حصان ، كالحة من أثر المطر ، معلّقة الى جانب ساحة درس الحبوب على أحد أعمدة سياج الاسفندان العتيق ، وقد تثاءب محجرا العينين في الجمجمة عن فراغ أسود . وكانت نبتة من القرع قد التفّت على العمود نفسه ، متسلّقة بشكل حلزوني نحو النور . وكانت قد بلغت قمة العمود فتشبّثت شعيراتها الصغيرة بأسنان جمجمة الحصان ونتوءاتها . وكان طرفها الطليق قد امتد ، بحثاً عمّا يستند اليه ، الى غصن من أجمة آس برّي قائمة في موضع ليس ببعيد .

هل كان قد رأى ذلك كله في حلم ، أم في طفولته البعيدة ؟ واذ اعتصرته نوبة من الحنين الجارف ، استلقى على صدره تحت السياج ، وغطّى وجهه براحتيه ، ولم ينهض إلا حينما بلغ أذنيه الهتاف الممدود البعيد :

ـ الى الخيول!

في تلك الليلة ، خرج عن الطابور ، أثناء مسيرة العصابة ، كمن أراد أن يسوّي وضع سرجه ، ثمّ لبث واقفاً يستمع الى قعقعة السنابك المتلاشية ، ثم ،

وثب الى سرجه وانطلق يهذب بحصانيه متخذاً إتجاهاً الى يمين الطريق .

ظل يستحث حصانيه خمسة فرستات بدون توقّف ، ثم أبطأ العدو حتّى أمسى سيراً هيّناً ، وأصاخ بسمعه . هل كان ثمة صوت لمطاردة من ورائه ؟ كان كل شيء ساكناً في السهب . لم تكن سوى طيور الشنقب تتنادى فيما بينها ، في حزن ، فوق الحفر الرملية ، ومن بعيد ، بعيد جداً ، تناهى نباح كلب .

كانت السماء السوداء مرشوشة بنثار ذهبي من النجوم المتلألئة وعلى السهب ، كان الهدوء مخيّماً ، وثمة نسيم محمّل برائحة أشجار الشيح القوية المألوفة انتصب غريغوري على سرجه وتنفّس ملء رئتيه الصعداء...

١٧

ظل يعدو عدواً جنونياً بحصانيه حتّى بلغ ، قبل طلوع الفجر بمدة طويلة ، المرج الذي يمتد أمام تتارسكي . وفي موضع تحت القرية ، حيث يكون مجرى الدون ضحلاً ، خلع ملابسه وجزمته وربطها مع أسلحته الى رأسي حصانيه ، ثم وضع كيس الرصاص بين أسنانه وشرع يعبر النهر مع حصانيه . فإذا بالماء يلسعه ببروده لاتطاق . وفي محاولة للحفاظ على دفء جسمه ، جعل يجذف بذراعه اليمنى جذفاً سريعاً ، ممسكاً بالعنانين بيده اليسرى ، مستحثاً بهدوء الحصانين المحمحمين المزنخرين .

بلغ الشاطئ وارتدى ملابسه بسرعه وشد سيور السرجين ، وجعل الحصانين يهذبان بسرعة ، ابتغاء للدفء في اتجاه القرية . وعمل معطفه الثقيل المبلل ، وأطراف السرجين المنقعة ، وقميصه الرطب على بث قشعريرة في بدنه وأخذت أسنانه تصطك ، وسرت رجفة حدر ظهره ، وأصبح جسمه كله يرتعد . ولكن ، مالبث العدو السريع أن أعاد اليه دفئه ، وحينما اقترب من القرية أبطأ سرعة الحصانين الى سير هين ، وهو يلتفت حواليه ويصيخ سمعه .

قرر أن يترك الحصانين داخل أحد الأخاديد . فانحدر الى قعر الأخدود على صخر المنحدر الرخو . وأخذت الصخور ترسل قعقعة جافة تحت سنابك الحصانين ، انقدحت شرارات من ضربات حدواتهما الحديدية على الصخر .

ربط الحصانين الى شجرة غرغاج ذاوية كان يعرفها منذ صغره ، اتجه الى القرية سيراً على قدميه .

ثمّ لاح دار آل ميليخوف العتيق ، ومجموعة أشجار التفاح العتماء ، ورافعة البئر مشرئبة الى أعلى تشير الى نجمة الدب الأكبر ، فإذا تنفّسه يغدو لهاثاً لفرط الإنفعال الذي غمره ، وانحدر صوب النهر يزحف في احتراس ، خلل سياج الاسفندان لفناء آل استاخوف ، ثم مضى حتّى بلغ النافذة مفتوحة الأباجورات . لم يستطع أن يسمع شيئاً خلا وجيب قلبه وصوت فوران الدم في رأسه .

طرق إطار النافذة طرقاً خفيفاً ، كان من الخفوت بحيث لم يكد ، هو نفسه ، يسمعه . قدمت اكسينيا في هدوء الى النافذة وتطلّعت خلالها . فرآها تشد يديها على صدرها وسمع شهقة خفيفة تفلت من شفتيها . أشار إليها أن تفتح الشبّاك ، ونزع البندقية من على كتفه . فتحت الشباك على مصراعيه . فقال لها همساً :

ـ هدوء! كيف حالك ؟ لا تفتحي الباب ، سأدخل خلال النافذة . ـ وقف على طنف حائط البيت . فاحتوت رقبته بذراعيها العاريين . وجعلت هاتان الذراعان العزيزتان الغاليتان ترتعشان وترتجفان ، حتّى أن ارتعاشهما سرى اليه هو .

فتأتأ قائلاً في همس يكاد لا يسمع :

ـ اكسينيا... مهلاً... خذي البندقية .

وأمسك بمقبض سيفه ودلف الى الداخل فوق عتبة النافذة . أراد أن يحتضنها ، لكنها هوت في إعياء على ركبتيها أمامه ، وطوقت ساقيه بذراعيها وضغطت وجهها على معطفه المبلل . كان بدنها كله يختض بالنشيج .

فأنهضها ، وأجلسها على المصطبة . فمالت عليه ، دافنة وجهها في صدره ، وكانت صامتة ، تختلج آناً بعد آن ، وهي تعض طية معطفه كي تخنق نشيجها وتتفادى إيقاظ الطفلين .

وهكذا بدا أنها هي الأخرى ، رغم قوّتها ، قد هدّتها آلام المقاساة . لقد كانت حياتها ، أيضاً ، مريرة خلال هذه الأشهر المنصرمة . مسد الشعر المنحدر على ظهرها ، ومسد جبينها الملتهب ، المبلل بالعرق . تركها تبكي كفايتها ، ثمّ سألها :

ـ هل الطفلان بخير ؟

ـ أجل .

ـ ودونيا ؟

ـ دونيا أيضاً بخير... وعلى مايرام .

ـ هل ميخائيل في داره ؟ ولكن ، مهلاً لحظة! كفّي عن البكاء ، أرجوكِ ، فقد تبلل قميصي كله بدموعك... اكسينيا! حبيبتي ، هذا كافٍ! لا وقت لدينا للدموع ، وقتنا قصير... هل ميخائيل في القرية ؟

فمسحت اكسينيا دموعها وضمت خدّي غريغوري براحتيها المبللتين . وقالت في هدوء ، وهي تبتسم خلل دموعها ، وعيناها مسمرتان على حبيبها :

ـ لن أبكي بعد... كلا ، لن أبكي بعد... ميخائيل ليس في تتارسكي . إنه في فيشنسكايا منذ شهرين ، يخدم في إحدى الوحدات العسكرية . تعال الق نظرة على الطفلين . أوه ، نحن لم نتوقّع مجيئك ، ولم يكن لدينا أمل...

كان ميشاتكا وبوليوشكا نائمين في الفراش ؛ وأذرعهما وسيقانهما ممدودة في شتّى الاتجاهات . فانحنى غريغوري فوقهما ، ولبث واقفاً بعض الوقت . ثم ابتعد على رؤوس أصابعه وجلس الى جانب اكسينيا صامتاً .

سألته في همس ملتهب :

ـ ماذا عنك ؟ كيف تمكّنت من المجيء ؟ وأين كنت طوال هذه المدة ؟ ولكن ، افرض أنك وقعت في أيديهم ؟

ـ جئت في طلبك . لا أظن أنني سأقع في أيديهم . هل تأتين ؟

ـ الى أين ؟

ـ معي . لقد تركت العصابة . كنت مع فومين ، هل سمعت بذلك ؟

ـ نعم . ولكن ، أين أستطيع أن أذهب معك ؟

ـ الى الجنوب . الى الكوبان ، أو أبعد منه . سندبّر معيشتنا وطعامنا بشكل أو بآخر . أستطيع أن أقوم بأيما عمل . يداي بحاجة الى العمل . لا الى القتال . لقد كنت أعاني من قلبي خلال هذه الشهور الفائته... .لكنّنا سنتحدّث عن هذا فيما بعد .

ـ وماذا عن الطفلين ؟

ـ طيب ، سنتركهما مع دونيا . ثم ننظر في الأمر فيما بعد . سنأخذهما معنا أيضاً فيما بعد . حسن ؟ هل ستأتين ؟

ـ غريشا... غريشا الأعز...

ـ لا يا عزيزتي! بلا دموع! كفى نستطيع أن نبكي فيما بعد . سيكون لدينا متّسع كبير من الوقت لذلك..استعدّي . لدي حصانان ينتظرانني في أحد الأخاديد . حسن ، هل ستأتين ؟ فقالت على حين غرة بصوت عالٍ :

ـ عجباً ، ماذا ظننت ؟ ثمّ ضغطت يدها على شفتيها ، في حركة وجلة . وألقت نظرة على الطفلين . ثمّ كرّرت سؤالها همساً :

ـ ماذا ظننت ؟ هل حياتي كثيرة الحلاوة وأنا في توحّدي مع نفسي ؟ سأذهب ، ياغريشا ، ياحبيبي . سأذهب مشياً على القدمين ، سأزحف زحفاً وراءك ، لكن لن أبقى وحيدة هنا أكثر مما بقيت ، لا أستطيع أن أحيا بدونك... اقتلني ، لكن لاتتركني ثانية .

وشدّته اليها بقوة . فقبّلها واختلس نظرة صوب النافذة . إن ليالي الصيف قصيرة . يجب أن يسرعا .

تساءلت اكسينيا :

ـ لعلّك تودّ أن تتمدّد قليلاً ؟

فهتف مذهولاً :

ـ ما الذي يدور في خلدك ؟ سيطلع الفجر عمّا قريب . يجب أن نرحل . ارتدي ثيابك واذهبي لإستدعاء دونيا . سنحدثها بالأمر . يجب أن نصل الى وادي سيخوي قبل إنقضاء الظلام . سنمضي النهار في الغابة ونستأنف رحيلنا في الليل . أتستطيعين ركوب حصان ؟

ـ ربّاه ، سأدبّر أمري على ظهر حصان على نحوٍ ما ، وبسرور! أنا أتساءل طوال الوقت ما إذا كان ذلك حلماً . كثير ماأحلم بك... . وفي كل مرة أراك مختلفاً .

مشّطت شعرها على عجل ، ممسكة دبابيس الشعر بين أسنانها ، وتحدّثت في صوت كان من الخفوت بحيث لم يستطيع غريغوري ، إلا بصعوبة ، أن يتبيّن ماكانت تقول . ارتدت ملابسها بسرعة ومضت نحو الباب . ثمّ سألته :

ـ أتريد أن أوقظ الطفلين ؟ يمكنك أن تلقي نظره عليهما . فقال غريغوري في عزم :

ـ كلا ، لا تفعلي!

أخرج كيس التبغ من طاقيّته وشرع يلف سيكارته . ولكن ما أن خرجت اكسينيا حتّى هرع الى السرير وطبع على الطفلين قبلتين طويلتين . وآنذاك ، تذكّر ناتاليا والكثير من ماضي حياته السيئة الطالع ، وانفجرت دموعه .

قالت دونيا وهي تعبر العتبة :

ـ تحيّات ، يا أخي! اذن ، عدت ؟ مهما تحوم في أرجاء السهب... .

وانفجرت تتأسّى :

ـ لقد عاش الطفلان ليريا والدهما... .تيتّما وأبوهما على قيد الحياة .

فعانقها غريغوري وقال بلهجة صارمة :

ـ هدوء! ستوقظين الطفلين . كفّي عن ذلك كلّية ، يا أختي! لقد سمعته

جميعاً من قبل . لدي ما يكفينني من أحزاني ودموعي أنا . أنا لم أطلبك لسماع ذلك . هل ستأخذين الطفلين وترعين شؤونهما ؟

ـ ولكن ، الى أين ذاهب ؟

ـ راحل ، ومصطحب اكسينيا معي . هل ستأخذين الطفلين في عهدتك ؟ سأجد عملاً ، وآنذاك آخذهما .

ـ عجباً ، ماذا يجب ليّ أن أفعل غير أن آخذهما لدي ؟ مادمتما ذاهبين معاً ، فسآخذهما ، لا يمكن أن يتركا في الشارع ، وليس من الممكن أن تقذف بهما تحت رحمة غرباء . فقبّلها غريغوري بلا كلام ، وقال :

ـ لك منّي أعظم شكري ، يا أختي . كنت أعرف أنك لن ترفضي . واقتعدت الصندوق وتساءلت :

ـ متى رحيلكما ؟ الآن ؟

ـ أجل .

ـ ولكن ، ماذا بشأن الدار ؟ والحقل ؟

فأجابت اكسينيا متردّدة :

ـ افعلي ما يحلو لك . ليسكن فيه شخص ما أو افعلي ماشئت . خذي لك ما يتبقّى من الملابس والموجودات .

وتساءلت دونيا :

ـ ماذا عساي أقول للناس ؟ سيسألون أين ذهبتما ، فماذا أقول لهم ؟

فقال غريغوري :

ـ قولي إنك لا تعرفين شيئاً ، وهذا كل مافي الأمر .

ثم التفت صوب اكسينيا :

ـ اسرعي ، يا اكسينيا! لا تأخذي الكثير معك . سترة سميكة ، تنورتين أو ثلاثاً ، وأكثر ماتستطيعين من البياضات ، وطعاماً لوجبة أو وجبتين ، فقط .

كان الفجر قد بدأ ينبلج حينما ودّع غريغوري واكسينيا دونيا وقبلا الطفلين اللذين كانا لايزالان نائمين ، ثمّ خرجا الى السقيفة . انحدرا صوب

الدون واتخذا طريقهما بمحاذاة الضفة نحو الأخدود .

ـ خرجنا ، ذات مرة ، أنت وأنا ، الى ياكودنويه مثل خروجنا اليوم تماماً . سوى أنك كنت يومذاك تحملين صرة أكبر وكنّا أصغر سنّاً...

فألقت اكسينيا نظرة من طرف عينيها نحو غريغوري ، والبهجة تغمرها ، وقالت :

ـ بيد أنني أخشى دائماً أن اكتشف أنني في حلم . أعطني يدك ، دعني ألمسها ، وإلا فلن أصدّق عيني .

وأطلقت ضحكة خافتة ، وهي تشد صدرها الى كتفه فيما تسير .

ورأى عينيها تترقرقان بالدموع وتتألقان بالسعادة ، ووجنتيها شاحبتين في غبشة الصباح الباكر .

فابتسم متعاطفاً وقال في سريرته :

ـ لقد استعدّت وخرجت وكأنها ذاهبة للقيام بزيارة أحد ، تماماً... . لاشيء يخيفها . إنها فتاة رائعة!

قالت ، وكأنها تجيب على أفكاره :

ـ أترى أي صنف من النساء أنا... صفرت لي ، فعدوت كالكلبة ، أتبعك . هو حبّي وشوقي ، يا غريشا ، ما يشدّني إليك بكل هذا الإحكام... لست آسفة إلا على الطفلين ، أمّا على نفسي فلا أقول« آه » واحدة . سأظل أتبعك الى كل مكان ، حتّى الموت .

صهل الحصانان حينما سمعا وقع أقدامهما . كان الفجر ينبلج بسرعة . وكان شريط ضيق من السماء ، في الأفق الشرقي ، قد اتشح بلون وردي ، وضبابة ترتفع من مياه الدون .

حل غريغوري الحصانين وأعان اكسينيا على إرتقاء السرج . ثمّ تبين أن سيور الركابين كانت طويلة بالنسبة لساقيها . فاستشعر غريغوري حنقاً من نفسه لأنه لم ينتبه الى ذلك في حينه . ثمّ قصر السيور ، وامتطى الحصان الثاني .

ـ ظلّي ورائي يا اكسينيا . حينما نخرج من الأخدود ، سننطلق في هذب سريع . لن يرعبك ذلك كثيراً . لا ترخي العنان ، فالحصان الذي تمتطين لا يحب ذلك . واحرصي على ركبتيك ؟ إنه يصبح ميّالاً للعبث في بعض الأحيان ، فيحاول أن ينال ركبتيك بأسنانه . حسن ، لنمض!

كان وادي سوخوي على مبعدة ثمانية فرستات تقريباً ، وسرعان ما قطعاها واقتربا من الغابة مع شروق الشمس . وعند طرفها ترجّل غريغوري وساعد اكسينيا على النزول .

قال مبتسماً :

ـ والآن ، كيف وجدت الأمر ؟ ركوب الخيل صعب حينما لا يكون المرء معتاداً عليه ، أليس كذلك ؟

فألقت اكسينيا ، متضرّجة الوجه من أثر العدو ، نظرة خاطفه عليه من عينيها السوداوين ، وقالت :

ـ إنه شيء لطيف! أفضل من السير على الأقدام . سوى أن ساقي... (وابتسمت محرجة)... استدر يا غريشا ، لأنني أريد أن ألقي عليهما نظرة . ثمة شيء ما يقرص جلدي... لابد أنّه قد تآكل .

فقال لها مطمئناً :

ــ هذا لا أهمّية له ، وسيزول عمّا قريب . تمشّي قليلاً ، فساقاك ترتجفان ، كما يبدو .

وخزر بعينيه وقال في لهجة رقيقة متماجنة :

ـ إنك قوزاقية بديعة!

عثر على منفسح صغير على رأس الوادي تماماً وقال :

ـ سيكون هذا مضربنا . خذي راحتك ، يا أكسينيا .

رفع السرجين عن الحصانين ، وعلقهما ، ثمّ وضع السرجين وأسلحته تحت أجمه . كان ثمة ندى غزير ثقيل مسجّى على الحشيش ، وبدا الحشيش من تحت الندى أزرق بلون الحمام . أمّا المنحدر ، حيث كانت غبشة الصباح

الباكر لاتزال كامنة ، فقد كان موشّحاً بزرقة داكنة . وكان النحل الرفّاف غافياً على كؤوس الأزهار نصف المفتوحة ، والقبّرات تصدح فوق السهب . أمّا في حقول القمح ، وبين أعشاب السهب الفوّاحة ، فقد كانت طيور السمان تطلق النداء :

ـ هذا أوان النوم! هذا أوان النوم!

وعلى مقربة من شجيرة بلّوط ، داس غريغوري الأعشاب واضطجع واضعاً رأسه على سرج . واستماله الى النوم تزمير طيور السمان العالي ، وتهويدة القبّرات والريح الدافئة المنحدرة من وراء الدون ، من رمال لم تبترد خلال الليل . ليفعل الآخرون ما يحلو لهم ، أمّا بالنسبة لغريغوري ، الذي لم يكن قد ذاق طعم النوم عدة ليالي متتالية ، فقد كان ذاك أوان النوم . أغرته طيور السمان ، وحينما غلبه النعاس أغمض عينيه . أمّا اكسينيا ، فقد جلست الى جانبه صامتة ، تقطع بشفتيها أوراق التويج البنفسجية لزهرة ما ، وهي مستغرقة في التفكير .

تساءلت في هدوء ، وهي تلمس بساق الزهرة وجنتي غريغوري المغطاتين بالزغب :

ـ غريشا ، أتعتقد أنهم لا يعثرون علينا هنا ؟

فأيقظ نفسه ، بصعوبة ، من اغفاءته ، وقال في صوت مبحوح :

ـ ليس ثمة إنسان في السهب . هذا فصل التراخي . سأنام ، يا اكسينيا ، وأنت راقبي الحصانين... ويمكنك بعد ذلك أن تنامي . انني منهك القوى من قلة النوم . منذ أربعة أيّام... حسن ، سنتحدث فيما بعد .

ـ نم ، يا حبيبي . نم هنيئاً!

وانحنت عليه ، وأزاحت في رفق خصلة من الشعر عن جبهته ، ولمست شفتيه بشفتيها لمساً رقيقاً . وهمست :

ـ يا عزيزي ، غريشا ، ياحبيبي ، ما أكثر الشيب الذي علاك! اذاً ، فأنت سائر نحو شيخوختك ؟ مع أنه لم يمض وقت طويل منذ أن كنت صبياً...

ونظرت الى وجهه وعلى فمها ابتسامة أسيانة موهنة .

نام ، مفتوح الفم قليلاً ، وهو يجرّ أنفاساً منتظمة . كانت أهدابه السود ، وقد كلح لون ذؤاباتها من أثر الشمس ، تخفق هيناً ، وشفته العليا تتحرّك كاشفة عن أسنانه البيض المتراصة . نظرت اليه ثانية عن كثب ، ولم تلاحظ الا لحظتئذ كم كان قد تغيّر خلال هذه الشهور القليلة من فراقهما . كان ثمة تعبير قاس ، يكاد يكون وحشياً ، في الغضون الأفقية العميقة مابين حاجبيه ، وفي ثنيات فمه ، وعظمتي وجنتيه البارزتين . ولأول مرة خطر في ذهنها أنه لابد أن يكون فظيعاً أثناء المعارك ، ممتطياً الحصان ومستلاً السيف . أخفضت بصرها ، وحدّقت الى يديه الجسيمتين المعقدتين ، ولسبب ماأطلقت من صدرها زفرة .

بعد ذلك بقليل ، قامت في هدوء وعبرت المنفسح ، رافعة تنورتها الى أعلى لتنأى بها عن الحشيش الندي ، خشية البلل . وفي مكان ليس ببعيد ، كان جدول صغير يخر ويدندن فوق الصخور . فجثمت أمام مجرى الماء ، الذي كانت تحدّه جلاميد مسطّحة علتها طحالب باهتة الخضرة ، وشربت من ماء الينابيع البارد ، واغتسلت ، ثم مسحت بعصابة رأسها وجها المتضرّج بالدم . كانت ثمة ابتسامة هادئة لاتذوي على شفتيها ، وكانت عيناها تتلامعان بالبهجة . هوذا غريغوري معها من جديد! ومن جديد أشار المجهول لها نحو سعادة قصيرة العمر . كم ذرفت اكسينيا من الدموع خلال ليالي السهاد ، كم ناءت بأحزان خلال الأشهر القليلة الماضية! في الأمس كانت في الحديقة ، وكانت النسوة يعزقن البطاطس في الحدائق القريبة ويغنّين أغنية حزينة . واعتصر الألم قلبها بعنف وهي تتسمّع الى الأغنية طواعية :

عد الى البيت ، أيها الاوز الأشهب ، عد الى البيت ، انتهى أوان التطواف ، انتهى أوانه .

انتهى أوان بكائي ،
بكاء امرأة وحيدة .

هكذا انطلق صوت امرأة ، عالي النبرة ، تغني ، نادبة حياتها التعيسة ، فإذا باكسينيا تفقد زمام نفسها ، وانبجست الدموع من عينيها . حاولت أن تلتمس النسيان في العمل ، لتخنق به الحنين الذي يضج داخل قلبها . بيد أنَ الدموع غلّفت عينيها ، وتساقطت على أوراق البطاطس الخضر ، وعلى يديها العاجزتين ، فلم تعد ترى شيئاً أو تستطيع فعل شيء . فقذفت المعزقة واستلقت على الأرض ، دافنة وجهها في يديها ، تاركة الدموع تنساب على هواها .

أجل ، بالأمس ، فقط ، كانت تلعن حياتها ، وكان كل ما حولها يبدو كالحاً كئيباً مثل نهار غائم . أمّا اليوم ، فقد بدت الدنيا متهللة ، لمّاعة ، مثلما تبدو غب هطول أمطار غزيرة . وقالت تحدّث نفسها ، وهي تحدّق في شرود الى أوراق البلوط المتغضنة ، تتوهج تحت أشعة الشروق المائلة :

نحن ، أيضاً ، سنجد لنا مكاناً في هذه الحياة .

كانت أزاهير بهيجة المنظر ، حلوة العطر ، نامية الى جانب الأجمات ، في نور الشمس الحار . فقطفت اكسينيا باقة كبيرة منها ، ثمّ جلست ، في حذر ، على مقربة من غريغوري ، واذ تذكّرت أيّام صباها شرعت تنسج اكليلاً . وجاء الاكليل جميلاً جداً . فلبثت جالسة تتمعن فيه بإعجاب ، ثمّ دسّت فيه عدة أزهار وردية من أزهار عليق الكلب ، ووضعته بجانب رأس غريغوري .

حوالي الساعة التاسعة ، أيقظ صهيل الحصانين غريغوري ، فقام فزعاً ويده تتلمّس أسلحته ، فقالت اكسينيا في لهجة هادئة :

ـ لاأحد هنا . ما الذي يخيفك ؟

فدعك عينيه وابتسم ابتسامة وسنانة :

ـ لقد تعلّمت أن أحيا مثل الأرنب . ينام المرء ، ويظل حتّى في نومه يحدّق بعين واحدة ويجفل لكل صوت... سيمضي وقت طويل قبل أن أتخلّص من هذه العادة ، يافتاتي . هل نمت مدة طويلة ؟

ـ ألا تودّ أن تنام أكثر ؟

ـ يجب أن أنام أيّاماً بكاملها لأعوّض عن السهر الطويل . يحسن أن نتناول فطورنا . ثمة خبز وسكّين في خرجي السرج . أخرجيهما ، وسأذهب لأورد الحصانين .

ثمّ نهض وخلع معطفه ومطّ كتفيه . كانت أشعة الشمس قد غدت حارة ، وكانت الريح تعبث بأوراق الأشجار ، فتنبعث منها خشخشة تغطّي على همهمة الجداول الرقيقة .

مضى صوب الماء ، وأقام سداً صغيراً بالأحجار والأغصان ، ثمّ حفر بسيفه شيئاً من التراب وردم به الفواصل بين الأحجار . ثمّ أحضر الحصانين وتركهما يردان من الحفرة ، ثمّ رفع الشكيمتين عنهما وأطلقهما للكلأ ثانية .

قالت اكسينيا أثناء تناولهما الفطور :

ـ الى أين سنذهب بعد هذا ؟

ـ الى موروزوفسكي . سنركب الحصانين حتّى بلاتوف ، ومنها نواصل رحلتنا سيراً على الأقدام .

ـ وماذا عن الحصانين ؟

ـ سنتركهما في مكان ما .

ـ ذلك مؤسف ، ياغريغوري . إنهما حصانان جيدان . والمرء لن يمل النظر الى الأشهب . هل يتعيّن علينا حقّاً تركهما ؟ أين حصلت عليهما ؟

فقال غريغوري وهو يبتسم في غير انشراح :

ـ أين حصلت عليهما... لقد سلبتهما من أوكراني .

وبعد فترة صمت قال :

ـ أسفنا أم لم نأسف ، علينا أن نتركهما ونمضي . ليس من شأننا أن نتاجر بالخيول الآن .

ـ ولكن ، لماذا تصطحب بندقيّتك معك ؟ ماجدواها لك ؟ عسى الله ألا يجعل أحداً يرانا ، والا فإنها كفيلة باستجلاب المتاعب علينا .

ـ من ذا سيرانا في الليل ؟ أنا احتفظ بها احتياطاً . أشعر بالضياع بدونها . حينما نترك الحصانين ، سأترك البندقية أيضاً . لن أحتاج اليها أنذاك .

بعد الفطور ، اضطجعا على معطفه الثقيل . ظل يحاول ، عبثاً مقاومة النعاس ، فيما راحت اكسينيا ، وقد ارتفقت الأرض ، تحدثه عن الحياة التي عاشتها في غيابه وعن الآلام التي كابدتها خلال الأشهر الأخيرة . كان يسمع صوتها الهادىء خلل نعاسه الغالب دون أن يقوى على فتح أجفانه . وفي بعض الأحيان ، كان صوتها يغيب عنه تماماً ، فينحسر مبتعداً ، وتخفت همهمته ، ثم يتلاشى كلية . فينتفض ويصحو ، ثم لايلبث بعد برهة وجيزة أن يغمض عينيه كرة ثانية . كان تعبه أشد من رغبته وارادته .

ـــ... . كانا يلوبان شوقاً اليك ، ويسألان : ـ أين بابا ؟ ـ كنت أبذل قصاراي معهما ، باللطف والعطف في غالب الأحيان . وأصبحا شديدي التعلّق بي ، ولم يعودا يزوران دونيا كثيراً ، بوليشكا هادئة ورقيقة . صنعت لها دمى من خرق فكانت تجلس معها تحت المائدة ، تشغل نفسها بها . لكن ، حدث ذات يوم أن جاء ميشاتكا يركض من الشارع وبدنه كله يرتجف . سألته :

ـ مابك ؟

فانفجر يبكي ، يذرف دموعاً مرة!

ـ الأولاد لايريدون أن يلعبوا معي ، يقولون أن بابا قاطع طريق . هل صحيح أنه قاطع طريق ، يامامي ؟ من هم قطّاع الطرق ؟

فقلت له :

ـ بابا ليس قاطع طريق أبداً . إنه مجرّد... غير محظوظ .

لكنه ظل يلحف عليّ بالأسئلة : لماذا هو غير محظوظ ، ومامعنى« غير محظوظ » ؟ لم أستطع أن أفسرها له قط . كانا ، هما ، اللذان بدآ بتسميتي« ماما » ، ياغريشا . لاتظن أنني علمتهما ذلك . أمّا ميخائيل فقد كان لطيفاً معهما... . عطوفاً جداً . لكنه ، ماكان ليكلّمني . بل كان يدير لي ظهره أو يجتازني بلا اهتمام . بيد أنه جلب لهما سكراً من فيشنسكايا أكثر من مرة .

أمّا بروخور فقد كان دائم الحزن عليك . كان يقول :

ـ ها قد فقدنا رجلاً طيباً .

جاء في الاسبوع الماضي وظلّ يتحدّث عنك الى أن سالت الدموع من عينيه... أجروا تفتيشاً في بيتي ، بحثاً عن أسلحة ، تحت الأفاريز ، في القبو ، وفي كل مكان .

أغفا غريغوري قبل أن يتم سماع قصّتها حتّى النهاية . كانت أوراق شجرة غرغاج غضة تخشخش من فوقه في مهب الريح ، وومضات من الضوء صفراء اللون تنزلق عبر وجهه . لبثت اكسينيا تقبّل عينيه المغمضتين ، وقتاً طويلاً ، ثمّ أغفت هي الأخرى ووجنتها على ذراع غريغوري ، تبتسم حتّى في نومها .

* * *

غادرا وادي سوخوي في ساعة متأخرة من الليل ، حينما كان القمر قد أطل . وبعد ساعتين ، انحرفا عن أحد المرتفعات ويمّما حدر نهر تشير . كانت طيور الصفرد تتنادى في المروج ، والضفادع تنق في الغدران المقصوصبة ، ومن بعيد كان طير الواق يعول عويلاً مبحوحاً .

وبمحاذاة ضفة النهر ، امتدّت غابات من البساتين ، جليلة منيعة وسط الضباب .

توقف غريغوري عند نقطة ليست ببعيدة عن جسر صغير . كان سكون قرين بمنتصف الليل يلفع القرية . همز حصانه بعقبيه واستدار جانباً . لم يثق في مثل هذا السكون ، وكان يخشاه . فخاضا النهير عند ضاحية القرية ، وكانا قد دخلا زقاقاً ضيقاً تواً حينما هبّ رجل من حفرة ، ومن ورائه ثلاثة رجال آخرين .

ـ قف! من هناك ؟

فجفل غريغوري ازاء تلك الصيحة وكأن ضربة قد سدّدت اليه ، وسحب العنان . سيطر على نفسه في الحال ، وهتف :

ـ صديق!

وادار حصانه بحدة واستطاع أن يهمس لاكسينيا : الى الخلف! اتبعيني!

تقدّم نحوهما ، في صمت وبلا عجل ، رجال النقطة الأمامية الأربعة المعسكرون في خفارة الليل لحراسة مفرزة تجميع الحبوب ، وتوقّف أحدهما ليشعل سيكارة ، قادحاً عود ثقاب .

فأنزل غريغوري سوطه بقوّة على حصان اكسينيا . فأقعى الحصان ثم انطلق يهذب . وهذب غريغوري خلفه ، وهو ينحني فوق رقبة حصانه . أعقب ذلك سكون استمر عدة ثوان خانقة ، ثمّ لعلعت صلية خشنة تهدر صدى ، واخترقت الظلام حزم متفجرة من النار . والتقطت أذنا غريغوري صفير الرصاص والهتاف الممدود :

ـ الى السلاح!

حينما قطعا زهاء مائتي ياردة بعيداً عن النهر ، لحق غريغوري بالحصان الأشهب الذي كان منطلقاً في اندفاع كاسح ، وهتف لاكسينيا حينما حاذاها :

ـ انحني أكثر ، اكسينيا! انحني أكثر!

بيد أنها سحبت العنان ، وارتمت الى الخلف ثمّ مالت نحو السقوط الى جانب . فأفلح غريغوري في اسنادها ، ولولاه لسقطت على الأرض .

سألها بصوت أجش :

ـ هل أصبت ؟ أين أصابوك ؟ تكلّمي!

لم تجب . بل تعلّقت بذراعه أكثر فأكثر . فشدّها اليه فيما كانا لايزالان منطلقين . وهمس لها وهو يشهق :

ـ اكراماً لله! كلمة فقط! ماذا جرى ؟

ولكن لم تند كلمة أو أنه عن اكسينيا الصامتة .

على مسافة فرستين تقريباً خارج القرية ، حاد عن الطريق بحدّة ، واتجه صوب اخدود حيث ترجّل ، ورفع اكسينيا عن الحصان ، وأسجاها برفق على الأرض .

خلع سترتها السميكة ، وشق قميصها القطني الخفيف وثوبها في موضع صدرها ، ومدّ يده متلمّساً الجرح . كانت الرصاصة قد اخترقت جسدها عبر لوح الكتف الأيسر ، مهشّمة العظم ونافذة في اتجاه مائل تحت عظم رقبتها الأيمن . وبيدين مرتعشتين ، أخرج ضماد الميدان وقميصاً داخلياً نظيفاً من خرج سرجه ثمّ رفع اكسينيا ووضع ركبته نحو ظهرها . وشرع يضمّد الجرح محاولاً أن يوقف الدم المنبجس من تحت عظم الرقبة . وسرعان ماقتم لون قطع القميص والضماد وتنقّع . كان الدم يسيل حتّى من فمها نصف المفتوح ، وكان يبقبق ويغرغر في بلعومها . وأدرك ، والرعب يخدّر أوصاله ، أنّ كل شيء قد انتهى وأن أفظع مايمكن أن يحدث في حياته قد حدث فعلاً .

اتخذ طريقه ، في احتراس وهو يحمل اكسينيا على ذراعيه ، حدر الجرف المائل ، حدر مسلك صغير داسته الأقدام وسط أعشاب تناثر عليها سفرس المروج ، متجهاً الى داخل الأخدود . كان رأسها المدلّى ملقى على كتفه . سمعها تصفر ، وتنشج بأنفاسها ، وأحس بالدم الحار يغادرجسدها ويتدفق من فمها على صدره . وتبعه الحصانان نحو الأخدود ، وشرعا يلوكان العشب النضير ، وهما يزنخران ويجلجلان بشكيمتيهما .

ماتت وهي على ذراعيه ، قبيل الفجر بقليل . لم تستعد وعيها . قبّل ، في صمت ، شفتيها اللتين كانتا باردتين مالحتين من أثر الدم ، ثم أنزلها ، برفق ، على العشب ، واستقام واقفاً . وأحسّ بقوة مجهولة تلطمه على صدره ، فهوى على الأرض . بيد أنّه وثب على قدميه في الحال ، وقد استبد به الرعب . لكنه هوى ثانية ، فارتطم رأسه الحاسر بإحدى الصخور ارتطاماً مؤلماً . ثمّ ، ومن غير أن يقوم من على ركبتيه ، استل سيفه من غمده وشرع يحفر به قبراً . كانت الأرض رطبة هشة . عمل بسرعة كبيرة ، غير أن شعوراً خانقاً كان يطوّق بلعومه بشدّة ، ولكي يستطيع أن يجر أنفاسه بيسر أكثر فتح قميصه عند الرقبة . فانحدرت طراوة الصباح الباكر ، باردة ، الى صدره العرق ، وآنئذ لم يجد كبير مشقة في العمل . جرف التراب من الحفرة بيديه وقبّعته ، دون أن

يستريح لحظة ، ولكن ، فيما كان يحفر قبراً الى عمق خصره ، انقضى وقت طويل .

دفن غريغوري اكسينيا ، تحت ضوء الصباح الساطع ، وحينما أسجاها في القبر ، طوى ذراعيها بجلدهما القاتم الشاحبتين شحوب الموت ، فوق صدرها وغطّى وجهها بعصابة رأسها ، كي لا يملأ التراب عينيها الزجاجيتين نصف المفتوحتين فيما كانت تحدّقان الى السماء بلا حراك . ثمّ ودّعها ، وفي نفسه إيمان راسخ أن فراقهما لن يطول .

رصّ براحتيه ، في عناية وحرص ، الطين الأصفر الرطب فوق ربوة القبر ، ولبث وقتاً طويلاً جاثياً على ركبتيه الى جانب القبر ، رأسه مطأطأ ، وبدنه يتأرجح قليلاً .

الآن ، لم يعد لديه مايدعوه الى الاستعجال . لقد انتهى كل شيء .

ارتفعت الشمس فوق الأخدود خلل سديم ريح لاهبة تهب من ناحية الشرق . فلألأت أشعتها شعر غريغوري الأشيب ، وانحدرت على وجهه الشاحب والجامد على نحو مريع . وفجأة ، وكمن يستيقظ من نوم خانق ، رفع رأسه ، فرأى من فوقه السماء السوداء وقرص الشمس الباهر .

١٨

في أوائل الربيع ، حينما يتلاشى الثلج ، ويشرع بالجفاف العشب الذي كان مدفوناً تحته خلال الشتاء ، تندلع النيران في السهب . تتطاير لهباً ، كالجداول ، تدفعها الريح ، وتلتهم في شره أعشاب الساقية الجافة ، تتواثب سيقان العوسج السامقة وتنحدر عبر ذؤابات أشجار الشيح البنّية ، وتنتشر في الوهاد . وفي أعقاب ذلك ، تتعلّق في جو السهب رائحة حريفة لاسعة ، رائحة الأرض المحروقة المشقّقة . وفي أرجاء السهب الأخرى ، ينمو العشب الجديد أخضر رائعاً ، وتخفق قبرات لاحصر لها في السماء اللازوردية ، ويقتات الأوز

المهاجر على الحشائش النامية ، وتجد طيور الحباري لها مستقراً لفصل الصيف وتبني فيه أعشاشها . أما حيثما تمر نيران السهب ، فإن الأرض المحروقة الميتة تستحيل سوداء منذرة بالشؤم . فلا طيور تعشش فيها ، ولا حيوانات تأتيها ، وليس سوى الريح ، خفيفة مجنّحة ، تحمل الرماد الأزرق بلون الحمام والغبار الحريف القاتم بعيداً ، بعيداً في مرامي السهب .

وكالسهب الذي شوّطته النيران ، استحالت حياة غريغوري سوداء كذلك . لقد حرم من كل ماكان عزيزاً على فؤاده . لقد انتزع الموت المتجبّر كل شيء منه ، حطم كل شيء . لم يبق سوى الطفلين . لكنّه ظل متشبثاً بالأرض ، بأصابع متشنّجة ، وكأن حياته المحطّمة كانت حقّاً ذات قيمة له وللآخرين .

بعد أن دفن اكسينيا ، ظل ثلاثة أيام يهيم على وجهه في أرجاء السهب . لكنه لم يتجه الى قريته أو الى فيشنسكايا ليسلّم نفسه . وفي اليوم الرابع ، ترك الحصانين في إحدى قرى منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، وعبر الدون وضرب سيراً على القدمين في اتجاه غابة سلاشتشفسكي البلوطية ، وهي الغابة التي نزلت عند طرفها أول ضربة قاصمة على عصابة فومين في نيسان الماضي . وحتّى في ذلك الوقت ، في نيسان ، كان غريغوري قد سمع بأن هاربين من الخدمة العسكرية قد اتخذوا تلك الغابة لهم ملجأ ومستقراً . فمضى اليهم ، اذ لم يستشعر أيما رغبة للعودة الى صفوف عصابة فومين .

لبث عدة أيّام يتسكّع في أرجاء الغابة الواسعة . كان الجوع يمضه ، إلاأنه لم يستطع أن يحمل نفسه الى اللجوء الى أي مستوطن بشري . فلقد فقد ، مع موت اكسينيا ، ذكاءه الفطري وجرأته السابقة . كان صوت انكسار غصن ، أو حفيف أشجار الغابة ، أو صرخة طير ليلي ، كفيلاً بإشاعة الرعب والهلع في قلبه... وظل يعتاش على فاكهة الشليك البري الفجة ، وعلى نباتات الفطر البرية الصغيرة وأوراق أجمات البندق ، فأمسى نحيلاً شديد النحول .

وفي نهاية اليوم الخامس عشر عليه الهاربون في الغابة واقتادوه الى حفيرتهم .

كانوا سبعة وكانوا جميعاً رجالاً من القرى المحلية استقروا في الغابة خلال خريف السنة السابقة هرباً من التجنيد . كانوا يعيشون في حفيرتهم الفسيحة حياة مريحة كحياة البيوت ، لا يكاد ينقصهم شيء . وفي الليل كانوا كثيراً مايذهبون لزيارة عوائلهم ، ثمّ يعودون محمّلين بالفطائر والدخن والخبز والدقيق والبطاطس ، ولم تكن تصادفهم مشقة في الحصول على اللحم لسلقه ، طالما كان ثمة خروف يسرقونه من هذه القرية حيناً ، ومن تلك حيناً آخر . عرف أحد الهاربين غريغوري ، وكان قد خدم في كتيبة القوزاق الثانية عشرة ، فقبلوه بين ظهرانيهم دون كبير ضجيج .

* * *

ضاع منه حساب الأيام التي لاتنتهي ولا ينتهي عذابها . لبث يعيش ، بشكل أو بأخر ، في الغابة حتّى تشرين الأول ، ولكن حين حل موسم الأمطار الخريفية وفي أعقابه الطقس البارد ، استيقظ في داخله شوق قوي ، على نحو غير مسبوق وغير متوقّع ، الى طفليه ، والى قريته الأصلية .

وفي سبيل ازجاء الوقت ، كان يظل أياماً بطولها جالساً على سريره الخشبي ، يحفر ملاعق من الخشب ويقّعر صحوناً ويشكّل بصورة حاذقة أشكالاً بشرية وحيوانات من الخشب الطري ، كان يحاول ألا يفكّر بشيء وألا يدع أشواقه السامة تجد طريقها الى قلبه . فكان يفلح في ذلك خلال النهار ، أما في ليالي الشتاء الطويلة فقد كان الشوق الذي تستثيره الذكريات يغمره ويستبد به أي مستبد . فكان يتقلّب ويتثنى ساعات طويلة ممضه على سريره الخشبي دون أن يستطيع النوم . كان الأخرون الذين يقطنون معه في الحفيرة لا يسمعون منه كلمة شكوى خلال النهار ، أما في الليل فقد كان كثيراً ما يستيقظ وهو يرتجف ، ثمّ يمرّر يده على وجهه فيلفي وجنتيه ولحيته ، التي لم يحلقها منذ ستة أشهر ، مبللة بالدمع .

كان كثيراً ما يرى في الحلم طفليه ، واكسينيا ، وأمه ، وجميع أحبائه

الآخرين الذين لم يعودوا على قيد الحياة . كانت كل حياته مسجاة في الماضي ، بيد أن الماضي بدا مثل اغفاءة وجيزة ، قلقة . وكان غالباً ما يحدّث نفسه :

ـ حسبي أن أرى الأماكن القديمة مرة أخرى وأن أكحّل عيني بمرأى الطفلين ، ثم ، فلأمت!

ذات يوم في أوائل الربيع ، قدم تشوماكوف بصورة غير متوقعة . كان مبللاً حتى خصره ، مرحاً ناشطاً كالسابق . وبعد أن جفف ملابسه إزاء النار ، وتدفأ ، جلس على السرير الخشبي بجانب غريغوري .

ـ لقد قمنا بكثير من التجوال ياميليخوف ، بعد أن تركتنا ، أوشكنا أن نبلغ استراخان ، وكنا في سهب الكالميك... لقد طفنا في أرجاء العالم الفسيح! أما الدماء التي سفحناها... فحدّث ولا حرج! أخذ الحمر زوجة ياكوف يفيموفتش رهينة وصادروا أملاكه ، فجن جنونه وأصدر أوامره بوجوب قتل كل من خدم الحكومة السوفييتية . فبدأنا نقتلهم عن بكرة أبيهم : مدرسين ، أطباء ، مرشدين زراعيين... الشيطان يعلم من لم نقتله!

ثم أضاف متنهداً ، وهو لايزال يرتعش من البرد :

ـ أما الآن ، فقد قضوا علينا ، والى الأبد . أنزلوا ضربتهم الأولى بنا بالقرب من تيشانسكايا ، ثم بالقرب من سولومني قبل اسبوع . طوّقونا من ثلاثة جوانب ، أثناء الليل . ولم يتركوا لنا منفذاً سوى صعد أحد التلال ، وهناك كان الثلج يصل الى بطون الخيل ارتفاعاً . فتحوا نيران مدافعهم الرشاشة علينا مع الفجر . وكانت تلك بداية النهاية . حصدونا حصداً بالمدافع الرشاشة . لم يفلح في النجاة الا ابن فومين الشاب وأنا ، فقط . كان ، أعني فومين ، قد شرع يصطحب ولده دافيد كا معه منذ الخريف . ياكوف يفيموفتش قتل... رأيته يقتل بأم عيني . أصابته الرصاصة الأولى في ساقه وحطمت رضفته ، وسحجت الثانية رأسه . سقط ثلاث مرات من على حصانه . فكنا نتوقف ونلتقطه ونضعه على سرجه ، ليمضي مسافة قصيرة ثمَ يهوي ثانية .

أصابت الرصاصة الثالثة منه مقتلاً... في داخله تماماً . وآنذاك اضطررنا الى تركه . وبعد أن كنت قد قطعت بعض المسافة ألقيت نظرة الى وراء فإذا بفارسين يعملان فيه السيف حيث كان ملقى... .

فقال غريغوري في غير اهتمام :

ـ حسن ، كانت هذه النهاية محتّمة .

أمضى تشوماكوف الليلة في الحفيرة ، وفي الصباح ودّعهم وآنذاك سأله غريغوري :

ـ الى أين ذاهب ؟

ـ فأجاب تشوماكوف مبتسماً :

ـ بحثاً عن حياة ميسورة . لعلّك تود أن تأتي معي ؟

ـ كلا اذهب بمفردك .

فقال تشوماخوف ساخراً :

ـ أنت على صواب . ماكان بإمكاني أن أعيش معك . مهنتك حفر الأقداح والملاعق وليس هذا طريقي .

ثم خلع قبعته وانحنى قائلاً :

ـ ليحفظكم الله ، أيها الشقاة المسالمون! شكراً لضيافتكم وايوانكم إياي . عسى الله أن يمنحكم حياة مرحة ، لأن حياتكم كئيبة جداً هنا! إنكم تعيشون هنا تعبثون بإبهامات أصابعكم ، يوماً في أعقاب يوم ، فهل تسمّون هذه حياة ؟

بعد رحيل تشوماكوف ، ظل غريغوري اسبوعاً آخر في الغابة ، ثمّ استعد هو نفسه للرحيل . فسأله أحد الهاربين :

ـ ذاهب الى أهلك ؟

ولأول مرة خلال مدة مكوثه في الحفيرة ، ابتسم غريغوري ابتسامة واهنة جداً ، وقال :

ـ نعم ، ذاهب الى أهلي .

ـ عليك أن تنتظر حتى الربيع . ستعلن الحكومة عفواً بمناسبة الأول من أيار ، وآنذاك نذهب جميعاً الى أهالينا .

فقال غريغوري :

ـ كلا لا أستطيع الإنتظار . وودعهم .

في الصباح التالي ، بلغ الدون مقابل تتارسكي . فوقف يحدّق الى فناء بيته ، ووجهه يشحب لفرط انفعال الفرحة . ثم أنزل بندقيته من على كتفه . وأخرج مزق القنب التي كان يستعملها لتنظيفها ، وكذلك قنينة زيت المكائن الصغيرة ، ولسبب ما عدّ رصاصاته . كانت لديه سته أمشاط وست وعشرون رصاصة منفردة .

تحت الجرف ، كان الجليد قد انحسر عن الحافة ، والماء الأخضر شبه الشفاف يضرب ويكسر الجليد الابري على امتداد الضفة . القى غريغوري بندقيته ومسدسه في الدون ، ثم سكب الرصاص بعدهما ومسح يديه بطرف معطفه الثقيل مسحاً شاملاً .

عبر الدون ، من موضع تحت القرية ، فوق جليد آذار الأزرق ، نصف الذائب ، كثير الحفر ، ومضى بخطوات واسعة صوب بيته . وحينما كان لما يزل على مبعدة منه ، رأى ميشاتكا على المنحدر المؤدي الى المرسى ، فما كاد يستطيع أن يكبح جماح رغبته في الجري نحو الصبي .

كان ميشاتكا يكسر الدلاديل الجليدية المتدلية من احدى الصخور ، ويقذفها بعيداً ، ويسمّر عينيه على الشظايا الزرق وهي تتدحرج حدر المنحدر .

مضى غريغوري حتى بلغ المنحدر ، ونادى على ابنه بصوت مبحوح ونفس لاهث :

ـ ميشاتكا! ولدي الصغير!

فألقى ميشاتكا عليه نظرة مرتعبة ، ثم أخفض بصره .لقد حزر أن هذا الرجل الملتحي ، ذا النظر المريع ، كان أباه .

كل الكلمات الرقيقة العطوف التي كان غريغوري يهمس بها ، كلّما كان يتذكّر طفليه في الغابة ليلة أثر ليلة ، اختفت من ذاكرته الآن . فجثا على ركبتيه وجعل يقبّل يدي ولده الورديتين الصغيرتين الباردتين دون أن يستطيع أن ينطق بغير هذه الكلمات ، وبصوت مختنق :

ـ ولدي الصغير... ولدي الصغير...

ثم رفعه على ذراعيه . وسأله ، وهو يتفرّس في وجهه ، في نهم ، بعينين ناضبتين ، تلتهبان افتتاناً :

ـ كيف حال الجميع ؟ كيف حال عمّتك ، وبوليوشكا... هل هم جميعاً بخير ؟

فأجاب ميشاتكا وهو لايزال ينظر الى أبيه :

ـ عمتي دونيا بخير ، لكن بوليوشكا ماتت في الخريف... بمرض الخناق . والعم ميخانيل في الخدمة... .

اذن ، إن ذلك الشيء الصغير الذي ظل غريغوري يتحرّق اليه شوقاً ، عبر ليال عديدة لم يعرف فيها النوم ، يتحقّق : اذ ها هو واقف عند بوابة بيته ، حاملاً ولده بين ذراعيه .

كان هذا كل ماتركته له الحياة ، كل ماكان يواشجه لفترة قصيرة أخرى ، بالأرض وبالعالم الفسيح الذي ترامى متألقاً تحت أشعة الشمس الفاترة .

ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .

.لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية

عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه

حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض

.الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة

في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال

.ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية

بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي

.ولم يفارقه حتى مماته

.وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف

انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932

. وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب

كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940

فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928

.وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية

وتوفي في 21 فيفري 1984

ISBN 978-9933-407-05-6

9 789933 407056